

# تاريخ الحضارة المصرية

المجلد الثاني

العصر اليوناني و الروماني

و العصر الإسلامي

تأليف : نخبة من العلماء



وزارة الثقافة والإعلام  
المؤسسة المصرية العامة  
للكتاب والتراث والنشر

# تاريخ الحضارة المصرية

العصر اليوناني والروماني  
والعصر الإسلامي

المجلد الثاني

أحمد حسن الخيري  
محمد مصطفى إسماعيل  
إبراهيم نصحي  
ممدود كامل  
حسين مؤنس  
جمال الدين الشيباني  
محمد عبد العزيز مرزوقي

ألفه

نخبة من العلماء

الترتيب

مكتبة مصر

٣ شارع كائن صديقي ١٠٠٠٠

القبيل الأول

العصر اليوناني والروماني

# مصر في عصر البطلمية

للكونت دبراهيم نصحي

## الفصل الأول - دولة البطلمة

الفنيق المقدوني - قيام دولة البطلمة - الفتح الروماني

البحار فان الاسكندر قرر أن يقضي على سيادتهم البحرية بالامتلاء برًا على قواعد الأسطول المصري ، ولذلك سرعان ما استولى على شواطئ آسيا الصغرى ولبقيا ومصر وقد تمت له بركة فروع الطاعة .

### ١ - الفتح المقدوني

١ - الاسكندر في مصر

فتح الاسكندر مصر في خريف عام ٣٣٣ ، وما كاد يصل الى منف حتى سارع الى تقديم القرابين للالهة التولبية ، ولتوبيخ نفسه في معبد فتاح على نهب الفرائنة المقدسة ، لكي يظهر امام المصريين في ثوب ملك شرعي خليفة الفرائنة القدماء ، كالحسين اخلاص المصريين وخضوعهم له . لكن الاسكندر لم ينس ايضا أنه يوم خرج من بلاد الاغريق طامعا لفتح الشرق قد أعلن انه رافع لواء الحضارة الاغريقية ، ولذلك تقام في منف حفلا اغريقيا : رياضيًا وموسيقيا .

وبعد أن فرغ الاسكندر من مهامه في منف وضع أساس مدينة الاسكندرية ثم حج الى معبد آمون في واحة سيوة ، فقد كان

حيا الله مصر بوفرة من موارد الضيق وتسبب الحياة الكريمة ما جعلها مهد الحضارة والمرفأ ، وسرع على الراشدين من حكامها اعلاء شأنها ، ولقد أنشأ الفلميين اليها حتى أصبحت قبله كل دولة تشيد بناء امبراطورية عالمية . فلا عجب انه حين زالت دولة الفرس ونامت على أنقاضها امبراطورية المقدونيين طويت صفحة من تاريخ مصر الطويل وتفتحت صفحة جديدة اثبت فيها الحضارة المصرية والاغريقية جنبًا الى جنب . فالى أي مدى صلت البطلمة ابن خلدون في قوله ان المطلوب سويح دالما أبدا بالافتداء بالغالب ، منحاول بقدر ما تسبح لنا المصادر القديمة ، أن بين الى أي مدى تغيرت ام بلب على حالها مختلف نواحي الحياة في مصر على عهد حكامها الجدد .

ورث الاسكندر الأكبر عن أبيه توحيد الاغريق في نصبة كورنا برعلمه مقدونيا ومشروع محاربة الفرس ، ذلك العسود المشترك لمقدونيا والاغريق ، لدعم زعامة مقدونيا . ولما كان الفرس يتمتعون بسيادة



الى بابل واقته المنية في ١٣ من يونية سنة ٣٣٣  
ولما يتم الثالثة واللاثين من عمره . وبوفاة  
الاسكندر يبدأ في العالم الاغريق العصر  
الذي اتفق المؤرخون على تسميته بالعصر  
الهيلينستي . ولما كان تاريخ مصر منذ الفتح  
الهندي قد أصبح متصلا اتصالا وثيقا بالعالم  
الاغريق فان عهد البطالمة ينتمي الى العصر  
الهيلينستي الذي ينتمي بوقته اكثروا في  
عام ٣١ ق . م . تلك الموقعة التي بسط  
الرومان في اعقابها سلطانهم على مصر : آخر  
مملكة هيلينستية .

### مؤتمر بابل

وبعد وفاة الاسكندر اجتمع لواءه في  
بابل ليعتصروا مشكفة حكم الامبراطورية  
المقدونية التي توفي مؤسسها قبل ان ينظم  
ورثة العرش بطريقة الحكم فيها ودون ان  
يتشكك وصية او يرشح خلفا له . وبعد خلاف  
خفيف تم الاتفاق على انه يرعى العرش صاحب  
محتواه يدعى فيليب ارخيدايوس Arrhidaneus  
كان ثانيا غير شقيق للاسكندر ، مع الاعتراف  
بحق جنين روكسانا Roxane ( زوجة  
الاسكندر الفارسية ) اذا كان ذكرا في  
مشاركة فيليب الملك بمثابة شريك تحت  
الموصاية . وبهذا الحيل امكن الاحتفاظ  
بوحدة الامبراطورية لكنها لم تكن الا وحدة  
في الشكل فقط اذ انها قسمت في الفصل بين  
قواد الاسكندر نتيجة للقرار الذي اتخذه  
اولئك القواد بتوزيع ولايات الامبراطورية

ذلك المعبد يستع بصخرة عالية تضارع ما كان  
لأعظم معابد الوحي عند الاغريق . وبين ان  
الاسكندر كان يستهدف من وراء زيارة ذلك  
المعبد التالي تحقيق ثلاث غايات : اولاهها :  
اثبت صلة نسبه بالآلهة امام الرعي الدولي  
العام ، فقد كل على وشك بناء امبراطورية  
واسعة مترامية الأطراف تقسم بين جوانبها  
عناصر شرقية وعناصر لغوية ، وكان يرى ان  
تأكيده أقوى ضمان لسيطرته على هذه  
الامبراطورية . وقد كانت غايته الثانية من  
الحج الى معبد الوحي في سيرة الحصول  
على تأييد الاله آمون لمشروعاته التي كانت  
ترمي الى بسط سيادته على العالم . أما غايته  
الثالثة فكانت اشباع سوله للخطايرة ورغبته  
في القضاء أثر بطلان الأساطير الاغريقية  
يرسيوس وهرغل الذين شاع الاعتقاد قديما  
ان الاسكندر كان ينحدر من سلالتها وورثه  
في الأساطير انها تزودا بمشورة آمون سيرة  
لبل الاقدام على جلائ اصلهما .

وحين عاد الاسكندر الى منف قسام  
حظا الحيفيا لآلها ووضع نظاما دقيقا لحكم  
مصر ثم تركها في ربيع عام ٣٣١ في حماية  
جيش وأسطول مدعومين لبسائف منسازلة  
الفرس . وفي العام نفسه أنزل الامكنلو  
بدلوا ملك الفرس هزيمة قاصمة في موقعة  
جوجيلا Gaugamela ، ثم أوغل في أواسط  
آسيا حتى قلب فلبم اليتجاب للاستيلاء على  
ولايات الامبراطورية الفارسية . وحين عاد

فيما بينهم ليحكموها بصفة كونهم ولاية من قبل الأسرة المالكة المقدونية . وقد كانت الأتباع التي نجش في صدور أغلب هؤلاء القسود واسعة جلية ، ولذلك فانهم لم يكونوا على استعداد لقبول أوامر الذين كانوا سيحكمون باسم الملكية متى وافقت لديهم القسوة الكافية لمأيدهم ونجبتهم في الاستقلال . وقد كان كذلك بين قرارات مؤتمر بايل : أن يكون برديكاس انتالده العام للجيش والمسلم على شؤون الاسرطورية ، وأن يكون كراتروس وصيا على الملك المنزه وكذلك على طرس ووسانا عندما يولد ، وحامي شططيهما وحامل أختام الدولة ، لكن المؤتمر لم يقرر أن تكون الميرفة والكلفة التابعة ، البرديكاس أم لكراتروس ، وبذلك اضاف عاملا آخر من عوامل الشقاق

#### ثانيا - قيام دولة البطالة

وقد كانت مصر من نصيب قائد فذ يدعى بطليموس . لهذا كانت أهداف بطليموس مؤسيرة البطالة التي حكمت مصر من عام ٣٢٣ حتى عام ٣٠ ق . م . وما كانت أهداف خلفائه ، لكن منهم سياسة البطالة ابتداءً على تطبيقها يجب أن نلقى أولا نظرة عاجلة على سياستهم الخارجية وذلك لأن النظم التي وضعوها لحكم مصر تأثرت الى حد كبير بالدور الذي رادوا أن يلعبوه في العالم الاغريقي .

ومن الجلي أن سياسة مصر الخارجية

تسبب عادة بمجسوعتين من العوامل : احدهما هي العوامل الطبيعية التي جعلت مصر أولا جزءا من وادي النيل ، بل جعلت جبالها متوقفة على مياه هذا النهر ، وجعلت مصر ثانيا وفيرة القهيرات في بعض النواحي ، مع فقرها الشديد في بعض النواحي الاخرى ، وجعلت مصر ثالثا حافلة الاتصال بين افريقيا وآسيا واوربا . ويترتب على ذلك أن تسعى مصر الى انشاء علاقات خارجية تصرف بها بغض على الحاجة من منتجاتها واستيراد ما تفتقر اليه ، وأن يكون نشاط السياسة المصرية ثلاث جهات : احدها افريقية ، والاخرى اسيوية والثالثة اوروبية . ومن الطبيعي أن يتباين اهتمام مصر بكل جهة بما للظروف الدولية المحيطة بها في كل عصر . وهذه الظروف الدولية هي المجموعة التالية من العوامل التي تتكبد بها سياسة مصر الخارجية .

ولي ذلك المصدر من عهد الفرعون حين كانت مصر ، أو كانت أن تكون : المركز الأواحد الحضارة ، كان فيما أن تستنفذ الجبهة الافريقية نشاط السياسة المصرية . ومن عامت الى جانب مصر مراكز لخطارة في آسيا ، كان طبيعي أيضا أن يكون للجهة اسيوية كذلك شأن كبير في السياسة المصرية ، ومن ثم لم تعد الجهة الافريقية تنافس باهتمام السياسة المصرية . وعندما اخذت تظهر في شمال البحر الأبيض المتوسط

ومهما اختلف المؤرخون في تصميم سياسة البطالة الخارجية فلا خلاف في امرين : احدهما ان الجبهة الاوربية كانت نشاط سياسة مصر الخارجية على عهد البطالة قد غلبت الجبهة الرئيسية ، والامر الاخر ان البطالة كانوا يريدون انشاء امبراطورية - وسواء اكان بطليموس الاول وابنه وحفيده من بعده يريدون انشاء امبراطورية عالية ام امبراطورية بحرية في شرقي البحر الاسمر المتوسط ، فقد كان جميع اولاء وطبع الاساس الذي يقام عليه هذا الصرح ، اي بناء دولة قوية غنية مستقلة في مصر ، ولا ريب في ان بناء مثل هذه الدولة كان يحتم لخصم عري الامبراطورية المقدونية ومكانة كل من تعدى نفسه باحيائها لصالح الأسرة المالكة المقدونية او لصالحه الخاص . ولذلك فان بطليموس الاول اشترك في عدة محالقات كانت كلها ثلاث : احدها ضد ايردنيكاس الذي اراد ان يلحسم شخصيت الامبراطورية ويوحدها وقرر غزو مصر لجعل من واليها عطف للولاء الآخرين لكنه فشل امام خط التل الحصين ولقى حتفه هناك ( عام ٣٣٩ ) وكانت المظلمات الاخريتان ضد اتيجونوس Atigonos الذي أصبح بدوره خطرا يتهدد سلامة الولاة الآخرين وانتهى الامر بالقضاء عليه في موقعة ايسوس Ipsos عام ٣٠٦ ق. م. وموت اتيجونوس عانت معه فكرة احياء الامبراطورية المقدونية ، وكان قد أكد انحلالها واستقلال الولاة كل

مراكز جديدة للعضارة استرعت هذه المراكز في الحال ابتداء مصر ، لكنه لما لم يكن لهذه المراكز العضارة الاوربية حيثذاك شأن يذكر بجانب مراكز العضارة الشرقية فانه لم يكن للجبهة الاوربية الا حظ يسير من اهتمام مصر قبل العصر السلاوي .

وعلى عهد البطالة كانت الظروف الدولية المحيطة بمصر قد تغيرت تغيرا محسوسا اذ انه حين كان لجم العضارات الشرقية قد اقل كانت حضارة الاغريق قد تفرقت الى اقسام ففرقت حافظة ووصلتها سريعا الى ذروة المجد حتى تضاعفت الى جانبها العضارات القديمة طرا ، وغدا بحر ايجة اهم مركز للعضارة في العالم القديم . وقد ازدهرت دعائم هذا المركز رسيوفا حين اثناء الاسكندر امبراطوريته واهتم في حطيرتها كل مراكز العضارة القديمة . وعندما توفي الاسكندر في شرح الشباب والنعم فواده امبراطوريته كان لذلك نتائج عديدة يصعب ان امرها ثلاث : احدها ان عرش مصر آل الى أسرة مقدونية الاصل الشرقية الحضارة ، والنتيجة الثانية ، تسبب صراع حليف بين فواده الاسكندر دام أربعين عاما وتدخل آخر الامر في قيام ثلاث دول غنية على انقاض الامبراطورية المقدونية : هي دولة البطالة في مصر ودولة السليوكيين في سوريا وبابل ، ودولة مقدونيا . والنتيجة الثالثة هي احتدام المنافسة بين هذه القوى الثلاث ولا سيما بين البطالة والسليوكيين .

منهم بولايته انهم حذوا حذو اتيجوروس  
ولقبوا أنفسهم ملوكا ( عام ٣٠٦ - ٣٠٥  
ق . م ) .

ووسط الأسابيع الجامعة اتنى كانت  
تجيش في صدور خلفه الاسكندر استمر  
بطلبوس الحاجة الى جيش كبير واسطول  
قوى لينوز باستقلال مصر ويحافظ على هذا  
الاستقلال ويحوز مكانة سنية في الساحة  
الدولية ، ولما كانت تحت امرة ماضي البطالة  
جيوش واساطيل من الطراز الاول ، اذ كانت  
مؤلفة من خشيعة جنود المعمر ، وأخني  
المقدونيين والافريقين ، فقد اعتقد بطلبوس  
وخلفاءه الاول انهم لن يحقق سياستهم  
التجارية بل المحافظة على كيان دولتهم ، لا بد  
من أن يكون لهم جيش واسطول من طراز  
جيش واساطيل منافسهم ، ومعنى ذلك  
ضرورة استئدام الافريقين وأنسابهم للخدمة  
في قوات البطالة المحاربة . ولما كانت قوة  
مصر الطبيعية فاصرة عن المؤء بمجاهات  
الجيش والأسطول فانه كان يتعين استيراد  
الأخشاب والمعادن اللازمة من الخارج . وقد  
كانت العريفة المثلثي لضمان الحصول على  
هذه الطروديات على الاستيلاء على بعض  
الأقاليم القريبة الغنية بالأخشاب والمعادن .

### ٣ - بناء امبراطورية البطالة

ولما كانت وفرة المال شرطا أساسا لبناء  
الجيوش والأساطيل ، وكانت مصر مع غنى  
موادها الضعيفة لا تستطيع مواجهة المطالب

الجديدة اذ بقيت شئونها الادارية وحالتها  
الاقتصادية على ما كانت عليه عند الفتح  
المقدوني ، فانه لم تكن هناك مندوحة من  
اعادة تنظيم شئون الادارة ، والنهوض بمرافق  
البلاد الاقتصادية واستغلالها استفلا منطما  
دقيقا ، وتصدير أكبر قدر ممكن من منتجاتها.  
وللقيام بهذه الاعمال الاتالية الواحدة كان  
بطلبوس الاول وخلفاءه في حاجة الى  
روس أموال والى اشراف مخلصين بطلبوس  
فهم مراهميين والتفاني في خدمتهم . ومعنى  
ذلك ان البطالة الاول كانوا يستمعرون  
الحاجة أولا الى الافريقين لا لبناء جيوشهم  
واساطيلهم فحسب ، بل أيضا لاعادة تنظيم  
شئون البلاد الادارية والاقتصادية ، فلهذه  
كانت تنفرز لديهم روس الأموال وكذلك  
الخبرة بأحداث الأساليب الاقتصادية وعظم  
التجارة السائدة في عالم البحر الأبيض  
المتوسط . وثاليا الى السيطرة على الطرق  
البحرية لحماية مصر وتنشيط تجارتها  
الخارجية . فلا عجب ان اشر بطلبوس الاول  
وخلفاءه سبادة بحر ايجيه عماد كيانهم السياسي  
ومصدر قوتهم وأساس استقلالهم .

واراء كل هذه المرائل لرى ان بطلبوس  
الاول حين كان ممبا بالموء باستقلاله ثم  
بالذوء عنه قد : ( ١ ) استولى على برقة لحماية  
حدود مصر العربية ، ( ٢ ) استولى على جوف  
سوريا ( فلسطين وغنيقية وحزم من سوريا )  
وقبرص وبعض الأقاليم الواقعة على شواطئ

وهكذا يتضح لنا انه على عهد بطليموس  
الاول اتجهت سياسة مصر الخارجية اتجاها  
جديدا لم يكن لها به عهد من قبل ، فقد غدت  
الجمعة الأوربية أو ان شئت الجمعة الأوروبية  
الشرقية أو الجمعة الشمالية محور نشاطها  
اقتصادي . وقد أفضت الظروف الى اتجاها  
جديد آخر كان نحو آسيا . حقا ان الجمعة  
الاسيوية كانت منذ امد بعيد موضع اهتمام  
مصر لكن آسيا الصغرى لم تكن قبلا  
من الاعية في هذه الجمعة مثل ما أخذت  
تكتسبه منذ أيام بطليموس الاول . ولغضلا  
من ذلك فان الاتجاه الاسوي لم يكن يوما  
وثيق الاتصال بالاتجاه الأوربي للسياسة  
المصرية على النحو الذي فراه منذ بداية عهد  
البطالمة .

وعندما ارتقى مرثي مصر بطليموس  
الثاني كانت دولة قوى دولة في العالم  
الهيمنستي . وكانت تليها دولة الصليبيون  
وكانت تشمل ولايات امم افريقية الاسكندر  
في بلاد ما بين النهرين وأغلب الولايات  
الشرقية البعيدة وحانبه كبيرا من آسيا  
الشمالية وسوريا ( فضاء جوف سوريا ) .  
وكانت الدولة الثالثة هي مقدونيا وكانت  
تسيطر على بعض المماتن الأفريقية في شبه  
جزيرة البلقان . وقد عني بطليموس الثاني  
أولا بحزم حدود مصر الغربية ، وثانيا بإرسال  
حملة عقبيه الى فبال البط في الجزائر ،  
واخضاع الأرميني والبحر الميت وشرقي

آسيا الصغرى الجنوبية وذلك لحماية حدود  
مصر الشرقية والعصصول على المعادن  
والاحتساب التي يفتقر اليها وادي النيل »  
والسيطرة على بعض منافذ الطرق التجارية  
التي من الشرق الأقصى ، وضمان سياسة  
مصر في بحر ايجة . و ( ٣ ) سبل الدول  
الجديدة الى الاتجار بالحربة فانه تحت سائر  
الاطال صبة بحر ايجة من رتبة التيجونوس ،  
طرد حاببات التيجونوس من صبة البحر  
ووضع مكانها حاميات بطلمية للذود عن  
« الحربة الأفريقية » ، ثم سارع الى بلاد  
اليلوبولير فوضع حاميات بطلمية في سكوتون  
وكورتوتا لحماية للحربة الأفريقية من أعدائها  
الظالمين ولا شئت في أنه لم يهدف من وراء  
ذلك الا الى الفور ببادء بحر ايجة وكسب  
عطفه الاقرين فيسيطر على الطرق التجارية في  
العالم القديم ويحصل من العالم الأفرقي على  
ما يحتاج اليه من الرجال وروسي الاموال  
ويجب ان يلاحظ ان السيطرة على صبة  
جزر بحر ايجة كانت لا تكفي البطالمة الا  
سيطرة جزئية اقتصادية وسياسية على بحر  
ايجة ، وان استكمال السيطرة على هذا  
البحر كان يقتضي فرض حماية مصر على  
ضواطئه آسيا الصغرى الجنوبية والغربية  
وكذلك الانسلاء على موانئ فلسطين وفينيقيها  
وقد شيد بطليموس الاول جانبها مهما من هذه  
الامبراطورية وترك خلفائه استكمال باؤها  
لذا ان السياسة التي وضع هو اساسها لم يعد  
عنها أحد من خلفائه الاراتل .

بسط نفوذه على كريت وثبت سيطرته على  
عصبة جزر بحر ايجه .

وهكذا بين أن الاتجاهين الجديدين  
الذين ظهرا في أفق السياسة المصرية على  
عهد بطليموس الأول قد استمرّا مسيطرين  
على هذه السياسة في عهد بطليموس الثاني  
أيضا ، بل لعل سيطرتهما قد ازدادت قسرا لما  
في عهد بطليموس الثاني على آخر ما يتضح  
من اتساع نطاق فتوحه في بحر ايجه وعلى  
لواءاته آسيا الصغرى . لكن لعهد بطليموس  
الثاني ميزة خاصة ، فهي معهدة بدء اتجاه

الأردن . وذلك لضمان الحصول على التجارة  
الشرقية القادمة بطريق البحر الأحمر وبلاد  
العرب . ويتصل بالهدف نفسه اهتمامه  
بالطرق التي تربط وادي النيل بالبحر  
الأحمر . وثالثا ولقد حدود مصر الجنوبية  
واهتم بطون أعالي النيل . وربما دعم سلطان  
مصر في جنوب سوريا . وخامسا استرد  
ممتلكات مصر على شاطئ آسيا الصغرى  
الجنوبي التي كان أبوه قد فقدتها في عام ٣٠٦  
وأضاف إليها ممتلكات جديدة هناك ،  
وعلى شاطئ آسيا الصغرى الغربي . وسادسا



رأس من الرمرس بطن أنها تصور بريسيكي أنثانية  
زوجة بطليموس الثالث .



رأس نبتال من الرمرس  
بطليموس الثالث .

مليوكيا على نهر الدجلة ۞ استهل حكمه —  
عندما توفي بطيوخوس الثاني ملك سوريا  
وتسبب خلاف غيف بين زوجه الأولى  
لاوديكي وزوجه الثانية برينكي شقيقة ملك  
مصر — فانها لم تكن الا في سبيل نصرته  
اخته والدفاع عن حقوق ابنها فهو لم يحاول  
هتلد الاعتراف بالفنوعات التي تصرفت  
عنها هذه الحيلة كما انه لم يحاول فيما بعد  
استغلال الأزمات التي فطنت فوصل  
امبراطورية الملبوكين لتوسيع رقعته  
امبراطوريته داخل آسيا ، مع ان الفرصة  
كانت مواتية له اذ ذلك لاقتطاع ما يشاء من  
الولايات الشرقية ۞ تلك الامبراطورية ۞  
ولا جردا في ان امبراطورية البطالة ۞  
وصلت في عهد بطليموس الثالث الى أقصى  
اتساعها ولا في ان هذه الامبراطورية كانت  
امبراطورية بحرية . اما فكره تكوين  
امبراطورية ماله فاما كانت مديدة عن اذهان  
البعالة لانها حتى اذا كان من اليسر تحقيقها  
فانه لم تكن من اليسر المحافظة عليها .  
وجمة القول ان بطليموس الثالث اقمى بدقه  
خطرات ابيه في انجاعات السياسة الخارجية  
لحو الشمان والشرقي والغربي .

### ٣ - بداية النهاية

وعندما ارتقى بطليموس الرابع عرش مصر  
ومثلت العنان لشهوته الجامحة ، اعتقد  
أنطوخوس الثالث ان الفرصة قد سحبت  
لسلب مصر جوف سوريا ، غير انه عندما تها

جديد كل الجدة في سياسة مصر الخارجية .  
ويبان ذلك ان مصر في عهد هذا الملك كانت  
اول دولة هيلينية انشأت علاقات سياسية  
مع روما ، ففي عام ٢٢٣ في م . ا . أرسل  
بطليموس الثاني بعثة الى روما نجحت في  
عقد اتفاق بين الدولتين . ويبدو ان هذا  
العصل كان جزءا من سياسة عامة اتجهها  
بطليموس الثاني مع الدول الغربية ، اذ تنهص  
الأكلة على وجود علاقات قوية حوالي ذلك  
الوقت بين مصر وسيراكوز العظيم دولة في  
صقلية وكذلك بين مصر وقرطاجنة ومن  
المحتمل ان المفاوض التي املت على بطليموس  
الثاني سياسته الغربية كانت ذراع اقتصادية  
قبل كل شيء لان الاسواق الغربية كانت  
تستطيع المساهمة بقدر كبير لرخاء مملكته .

ان السياسة الخارجية التي وضعها  
بطليموس الأول أساسها وسار بطليموس  
الثاني على نهجها صبحت سياسة تقليدية  
لدى ملوك البطالة الأوائل . وانه ذلك ان  
بطليموس الثالث أيضا لم يتعد برحى العرش  
حتى وضع نصب عينيه تحقيق هذه الأهداف  
نفسها والوصول بها الى شيعتها المنطقية .  
فلم يستمد فقط الممتلكات التي فدتها  
مصر أيام ابيه على شواطئ آسيا الصغرى  
الغربية والشرقية بل اضاف اليها املاكا  
اخرى على تلك الشواطئ . وكذلك على  
شاطئ الدردنيل وفي غاليلوي وتراقيا . اما  
الحيلة التي قام بها بطليموس الثالث حتى

اضطرت تدريجاً الى طرح تحقيق الهدف الثاني جانباً ازاء ضغط ثلاث قوى فنية وثابة وهى روما وجلبيل الخامس وأنطيوخوس الثالث ، وازاء الضغط الكامن فى البطالة الأواخر وفى رحاتهم الذين اتبعت اليهم عقايد التحكيم ، وازاء التسيورات المصرية الضخمة التى كانت تكاد لا تنقطع منذ عودة المصريين مقربين من معركة رفح ، وأخيراً اراء الخلافات الشديدة بين أفراد أسرة البطالة منذ عهد بطليموس السادس .

فلا عجب ان اقل المؤرخون على اعتبار موقفه رفح حداً فاصلاً بين العهد الذى يُلحق به دولة البطالة أقصى اتساعها وأوح مجدها ، والعهد الذى أخذت فيه عوامل السيف والاضمحلال تدب اليها حتى سقطت هيبتها وذهبت سطوتها لفقدت 'ملاكها فى الخارج وترزعزعت سلطاتها فى الداخل ، وأصبحت تتناوبها الغزوات والثورات الى أن انتهى بها الأمر الى القول لجسها وزوال استقلالها .

#### توالى امبراطورية **الرومان**

وطد آثار مضانوف مصر الكبرياء أنطيوخوس الثالث على لم شمل امبراطوريته وتوسيع رقعتها ، قبلت مصر على التقرب من مقدونيا وروما ؛ لكن اضطرابات مصر الداخلية وخسائر عزيمة حكامها وفسادهم شجعت 'سحاب المطامع ، أعداءها منهم والحلفاء ، فان جلبيل الخامس ملك مقدونيا وسيدى مصر اتفق مع محسودها اللدود

لتحقيق ذلك ترك بطليموس عبثه ومحوته وختم للدفاع عن امراطوريته . ومن أجل ذلك أعاد تنضم الجيش وأدمج للمرة الأولى قواته المحاربة عدداً كبيراً من المصريين درجهم وسلحهم وفقاً لأصول فنون الحرب الحديثة فكان لهم الفضل الأكبر فى الانتصار فى معركة رفح فى عام ٢١٧ ق . م . ولما كان جيش أنطيوخوس يتكون من الاسكندر والقدولين الذين كانوا يعشرون عادة فنون القتال فى ذلك العصر ، فان النصر الذى اوجبه المصريون فى هذه المعركة وبفضل دليله على أن الجسدى المصرى لا ينقصه الا التدريب والسلاح لا يثبت كفايته لى يدان القتال ، أعاد الى المصريين لتتقم أنفسهم وحقوقهم على القيام فى وجه حكامهم الغفاه الذين أوسعهم ظلماً وأرهاقاً .

وبتصح مما أسلفناه انه كان للصباغة الخارجية التى اتبعها البطالة الثلاثة الأوائل هذيان رئيسيان وهما : استقلال مصر استقلالاً تاماً سياسياً واقتصادياً ، والتمتع بأكبر قسط من السيطرة على عالم بحر ايجة . وقد نجح أولئك البطالة والى حد بعيد فى تحقيق هدفين الهذليين ، وكان لسياساتهم الخارجية أول الأمر جبهتان رئيسيتان احداهما فى الشمال والاخرى فى الشرق ثم أصبحت ثما جبهة ثالثة فى الغرب . أما منذ منتصف عهد بطليموس الرابع فان مصر لم تعادل الا تحقيق الهدف الأول ، اذ أنها



التفوذ الروماني القليل ، فإن مصر لم تشر  
جوف سوريا وحاولت مرارا استقلال  
الاضطرابات التي كانت تقطع أوصال  
إمبراطورية السيوكتين لاستعادة ذلك الجزء  
الجميل من ممتلكاتها السابقة ، لكنها باءت  
بالفشل ، ولم تلبث أن قدمت أيضا بركة ،  
إذا أن بطليموس الثامن أبوارجيس الثاني  
كان قد نزل عنها لابنه غير الشرعي بطليموس  
فييون وهذا أورثها رومًا في عام ٩٩ ق.م.

#### ٤ - صعود الوث

وحين بدأ محققا أن أسرة البطالة ستزول  
في طرف سنين قلائل كما زالت من قبل  
أسرة السيلوكيين ، نشاء القدر أن تشرق  
شمس البطالة من جديد اشراقا يعطف الأبصار  
قبل أن تغيب إلى الأبد . وبأن ذلك أن أرطت  
عرش مصر عندئذ غناه موهوبة تمكنت من  
استخدام قوة روم لتنفيد أغراضها حتى  
كادت أن تجني من وراء ذلك إمبراطورية  
عانية ، فقد سيطر كليوباترة أولا على  
بوليس فيصر إلى حد أنه أصبح ملكا إله  
عندما يقبضه ملكا على روما سيمن زواجه  
منها رسميا فتتواركه سلطته الواسع ، لكن  
لبلاء الرومان لم يلبثوا أن أجبروا على آمال  
كليوباترة طعنها "جسروا" على فيصر في  
عام ٤٤ ق.م .

ومع ذلك لم تلبث كليوباترة أن أوقعت  
في شباكها مارك أنطونيوس حين أصبح  
الحاكم المطلق في النصف الشرقي من

أفريقيوس الثالث على إقسام ممتلكاتها  
الخارجية . وهكذا سرعان ما فقدت مصر  
ممتلكاتها الخارجية ولم يبق لها منها سوى  
قبرص وريقة . وقد أثرت روما أنصاع  
فليب ونيطيوخوس بولذلك فانها ما كادت  
تخسر في عام ٢٠٢ ق.م . متصرة من  
صراعها مع طولجته حتى اشتبكته مع فيليب  
ثم مع أنطيوخوس وهزمتها ، الأول في عام  
١٩٧ والثاني في عام ١٨٩ ، وذلك بصلة  
الدفاع عن حرية الأفريق وملك بطليموس  
المسلوبة .

٤ - وقد مهدت الأحداث السبل أمام  
روما لبسط سلطانها الفعلي على مصر وإن  
احتفظت مصر باستقلالها الاسمي . ويسرى  
تغلغل النفوذ الروماني في مصر إلى عاملين :  
أحدهما الأخطاء الخاطئة التي استهدفت لها  
مصر ولا سيما من ناحية السيوكتين فانها  
ما كادت تخلص من مخاطر أنطيوخوس  
الثالث حتى أقدم أنطيوخوس الرابع على  
الاستيلاء على قبرص وغزو مصر نصها مرتين  
ولم يفلحها من إرائته إلا تدخل روما التي  
أرغمته على الانسحاب من مصر ورد قبرص  
إليها . والعامل الآخر هو استنكاف الزراع  
بين بطليموس السادس وأبيه أنطيوخس  
بطليموس السابع واتخاذهما روما فيصلا  
وحكما في هذا النزاع الدموي الذي استنكته  
روما إلى أقصى حد لتحقيق أغراضها . وبرغم  
هذه الأحداث الداخلية الجسيمة وكابوس

على اقتسام الامبراطورية المقدونية ، وطبيعة  
'صلحهم ونشأتهم' ، وما بينهم وبين الاغريق  
من الوثائج حتى انهم جعلوا اعتمادهم على  
الاغريق في تشييد صرح دولتهم ، وتقديرهم  
ان امراطوريه تتألف من تقاليم تمت بصلة الى  
العضارة الاغريقية وتقع بالقرب من مراكز  
هذه الحضارة تكونوا أبهى على الدهر وأجدي  
عليهم وغير نصير لهم في تحقيق ما كانوا  
يهدفون اليه من لعب الدور الأول في سياسة  
البحر الأبيض المتوسط الدولية .

ولا ريب في ان البطالة قد استمروا ان  
مكتانهم الدولية - في صالمة يصير في  
الحضارة الاغريقية أرقع الحضارات طرأ -  
كانت تتوقف الى حد كبير على ظهورهم في  
نوب رافعي لواء الحضارة الاغريقية بطلع  
مسحة ولو ظاهريه من هذه الحضارة على  
دولتهم . وإذا تصوروا ان ذلك كان أمرا  
ميسورا فيما يخص مصر فيبدو لهم اعتقادوا  
انه كان ضربا من المحال فيما يخص كل  
وادي النيل . ولعل البطالة ان يكونوا قد  
دعروا ان تحقيق وحدة وادي النيل كان  
من الممكن ان يحصل في طياته خطرا داهيا  
عليهم باصبارهم ملوكا اغريقيا اخرجه من أقل  
تتوكلهم بما دولة قومية وذلك لأن وحدة  
الوادي ما تطوى عليه من اعياء سميحة  
الفراعة العظام ومجد وادي النيل القديم قد  
تغشى الى بحث أمة وادي النيل من جديد ،  
فبتلاشي في أرجاء بلادها القبيصة رسل  
الحضارة الاغريقية ولا يلبث أن يرتدى قروص

الامبراطورية الرومانية . وقد وضح  
أنطونيوس نفسه وكل ما يملك تحت امره  
كليوبتره ، فانه تزوجها وقبب بها وبين  
اولادها كل الولايات الرومانية في آسيا  
ولما لم تقع كليوبتره بالصف الشرقي  
انما لم ازمعها فانما دقت أنطونيوس لمنازلة  
أوكتافيوس من أجل الثور بالصف الشرقي  
ايضا وحكم العالم الروماني بأجمعه . وهكذا  
بدأت كليوبتره بعد عشر سنين من تيسيد  
أحلامها بقتل قيصر أنها أصبحت قاب  
لوقص أو دني من أن تصبح امبراطورة  
العالم لكنه لم يكن مقصرا لها أن تحقق  
أحلامها فبعد أوكتافيوس تلك الأحلام  
باتصاها في موقعة اكيروم ( عام ٣١ ق. م. )  
ودخله الاسكندرية في العام التالي ونسبه  
مصر الى حضيرة الامبراطورية الرومانية .

ولا بد من أن يسوق الفكر فيما قدمناه  
ان البطالة لم يولسوا الجبهة الجنوبية من  
عنايتهم قدر ما أولاهم الفراعة منذ أقدم  
العصور . وقد كان ذلك مرا طبعيا بالنسبة  
للبطالة الأواخر الذين اكتنفهم المخاض من  
كل جانب حتى شلت حركتهم . فكيف لفسر  
ذلك بالنسبة للبطالة الفاتحين ملوك الأسرة  
الأوائل ؟ قسمد مرفضا ان البطالة الأوائل  
انصرفوا بوجه عام الى تكوين امبراطورية  
بحرية حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط  
الشرقية مدغوعين الى ذلك بمدة عوامل أهمها  
خزوف النضال مع خلفاء الاسكندر الأكبر

وعلني اعرض وادي النيل . ومن ثم فقد البطالة  
وجه عام اكتفوا بالمحافظة على سلامة حدود  
مصر الجنوبية وعقد أوامر الصداقة مع  
جنوب الوادي والاهتمام بتجارة الجنبوب  
والشرق .

ويتضح فذن من كله ما مر بنا انه ازاء  
الظسروفه التي اكتنفه البطالة انخفضت  
سياستهم الخارجية وجهات جديدة صوب  
الشمال والشرق والغرب ، فقد قدروا انه كان  
يمكنهم الامتناء عن وحدة وادي النيل  
بامبراطوريتهم البحرية وبالعلاقات التجارية  
التي أنشأوها مع الغرب وكذلك مع الجنوب  
والشرق ، لكن بين ان التوفيق قد اخطاهم

في هذا التقدير ، نحن نأحيه كلهم انشاء هذه  
الامبراطورية جودا مضمية وأموالا مائلة  
ودفعهم الى ممالاة الاغريق على حساب  
المصريين واستنزاف موارد البلاد واستنارة  
عدده الكثيرين عليهم .

ومن ناحية اخرى عندما استبدت ساعد  
مناقصتهم وأخذت روما تتج باطراد في شرق  
البحر المتوسط فقد البطالة امبراطوريتهم  
البحرية ولم يجدوا في داخل دولتهم عطشا  
كافيا حتى للاحتفاظ بملكهم من السدوان  
الخارجي ، وهكذا استنفد البطالة  
قوتهم وأضعفوا الروتهم فالتهمت روما دولتهم .



## الفصل الثاني - إدارة الحكم

السلطة المركزية - المدن الاغريقية - السلطة المحلية - قوات البطالة

تولاه السلطة المركزية

١ - الملك

من بطائنه التي كوّن أفرادها على مضي الزمن بلائلا يتقسم طبقات يميز كثر منها عن الآخر والهاب بحرية . ولذا كان أول هم للملك هو أن تفيض عليه ضيقه بالبركات ، فبعد كان ويرى المالية أحقر مساعدى الملك شأنا وأوسعهم نفوذا الى حد أنه كان يكاد يسيطر ببطرة تامة على كل لواحق الخدمة العامة في البلاد . وكان هذا الوزير العطر يدعى ديويكيسون Doykison . وهو لقب يعصّل معنى « مدير الصبغة » : ولذلك ينقذه العلماء دلالة واضحة على أن البطالة كانوا يسيرون مصر ضيقتهم الخاصة .

وليضمن الملك استمرار الضيقات من ضيقه كان يجب أن يولي اهتمامه لتصرف اعدائه حتى يستتب الأمن وينصرف الناس الى مزاولة أعمالهم ، ولذلك كان الموظف الكبير الذى يدعى ارخبسديكاستس Archidicason . ومعناه كبير اقتصاد يعتبر المساعد الثانى للملك .

وعلى عهد البطالة الأوائل الذين وجّهوا هذبة كبيرة الى النهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها على نحو لم يسبق له مثيل كان يوجد وزير للأشغال Archilecron

منذ انصر بطليموس الأول على بريدكاس اغتير البطالة مصر ضيقة آلت اليهم بحق الفتح ، لكن لكي يكون سلطانهم والمسا وبيادتهم واسعة استغلوا المصداق الدينية السائدة بين رعابهم ونصبوا أنفسهم آلهة لهم ، وبذلك أصبح سلطانهم لا يمتد الى حق الفتح بحسب بل أيضا الى حق الملوك الاسمى ، فلا عجب أن الملك بطليموس كان يشتر صاحب مصر وسيد رعيته المطلق . فقد كان على رأس الادارة الحكومية وتبهر القضاء والقائد الأعلى للجيش والأسطول ومصدر القوانين التي يصعب لها جبر سكان البلاد والدساتير التي يعيش لى كفها المدن الاغريقية وكذلك الجاليات الأجنبية التي تكونت خارج تلك المدن .

٢ - القوام

ولما كان يتعدّر على الملك أن يباشر بنفسه كل السلطات التي يتبع بها فانه كان يعتمد على مساعده عدد من الشخصيات الكيرة . وكان الملك يختار أغلب مساعديه الرئيسيين

كانت مهمته تحسين نظم الري وصيانة وسائله ويرجح انه كان يوجد كذلك وزير للحرب يقوم بالاشراف على تجنيد الجيوش ودفع مرتبات الجنود ومنح الاقتاعات .

ولا كان الملك مصدر جميع السلطات المرجع الاول والاخير في تنفيذ القوانين . تستمد منه الصفقات المركزية والمعالجة لقضايا واليه شخصيا كان يتوجه ليقض التمسكوى والالتزمات ومنه شخصيا كان يصدر سجل من الاوامر ، فقد كانت له سكريرية خاصة . كانت تنقسم قسمين يختص أحدهما بشؤون مراسلات الملك ، ويختص القسم الآخر بالأوامر ولها سجل أيضا بالتوقيع على السككوى المرفوعة الى الملك .

وعليمة الحال كان يصدر مسمى الملك وسكريرته وورائه النهض بشؤون حكم وضمت له نظم دقيقه معقدة في بلاد غيبه متحصرة دون الاستعانة بهيئة كبيرة من الموظفين المدربين . ويعبر من معظم أعمال البطانة ايجاهم في إنشاء هذه الاداة الحكومية الدفقة في بلد اجنبي من مصر ثم لتواظف فيها المؤهلات اللازمة مثل هذا الصل . ولا شك في ان هذه الاداة الحكومية كانت الى حد ما من ثروت الماضي لكنها غدت في مجموعها اداة اغريقية منقحة تنظيما دقيقا ، ويتألف رؤسائها ومدبرو مصالحها المختلفة وتقساما المتعددة من الغريق لم يسلمهم ماضيهم للاضطلاع بشئ هذه الأعمال .

وعند كان هذا الاستقلال الذاتي مهم ورن يسير المذبذبة الاغريقية عن امدينة المصرية والمواطن الاغريقي عن المواطن المصري ، فقد كان الاغريقي يرى انه يعيش في مدن ومشارك في حكم الجماعة التي ينتمي اليها ، أما المصري وعصيره من القرين ظاهم في نظره كانوا مواطنيها حق حكم أنفسهم .

وعند كان هذا الاستقلال الذاتي مهم ورن يسير المذبذبة الاغريقية عن امدينة المصرية والمواطن الاغريقي عن المواطن المصري ، فقد كان الاغريقي يرى انه يعيش في مدن ومشارك في حكم الجماعة التي ينتمي اليها ، أما المصري وعصيره من القرين ظاهم في نظره كانوا

الإسكندر قد أنشأها في خلال حملته . ولعل الإسكندر أن يكون قد توسى من وراء تشيد الإسكندرية ثلاثة أهداف : أحدها إنشاء مدينة أفريقية تكون مصدرا لامتداد الحضارة الأفريقية بين دبرج مصر ، وثانيها أن تخلف هذه المدين سور في العالم التجاري ولا سيما أن مصر يرغم ازدياد علاقاتها مع العالم الإفرقي ازديادا مطردا لم يكن لها على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ميناء جدير بها ، وثالثها إقامة قاعدة بحرية تدعم سيطرته على بحر ابجه وشرق البحر الأبيض المتوسط .

وقد جعل بطليموس الأول مقره في سب إلى أن اطمأن ، بعد انتصاره في عام ٣١٣ على ديستريوس . إلى قدرته على الدفاع عن شواطئ مصر الشمالية . وعندئذ نقل مقره إلى الإسكندرية التي أصبحت منذ ذلك الوقت مقر البلاط وعاصمة مصر . وسرعان ما عذب الإسكندرية أكبر مدينه أفريقية في العالم يعوق في امتدادها أكبر المدن الأفريقية العديدة ؛ وغذب كذلك في منطبة مواسم الحضارة الأفريقية وثلاث سحنطة يسكان الصدارة طوال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد إلى حد أن حضارته هذين القرنين غرقت باسم حضارة الإسكندرية . وإذا كان ما كتبت الحفريات عنه لا يمكن أن تصور حقيقة ما كانت عليه هذه المدينة في عصرها الزاهر ، لأن أكثر معالم المدينة

لا يعيشون إلا في قرى لأنه مهما كان امتداد مواضعهم ومهما جاورت هذه المواطن المدن الأفريقية فإنها لم تتمتع بأي نوع من أنواع الاستقلال وإنما كانت تخضع لأي حاكم موافد من قبل السلطة المركزية . وإذا كان إنشاء المدن الأفريقية في مصر لم يؤد إلى أي تأثير في نظم المدي المصرية فإن نظم هذه المدن الأفريقية كذلك لم تتأثر نتيجة لوجودها إلى جانب المدن المصرية . وإذا قيل أن مدن مصر الأفريقية لم تكن دولا ذات سيادة فانه يمكن الرد بأن ذلك لم يكن خاصة انحدت بهر مدن مصر الأفريقية فقد كان أيضا شأن كافة المدن الأفريقية التي قامت في الممالك التي انشبت على أطراف الامبراطورية المقدونية .

وقد كان إنشاء المدن الأفريقية في مصر أمرا ضروريا ، لأن الأفريق تسبعوا بالفكرة القائلة بأن المدينة هي المنة الأساسية لحياتهم العامة ؛ والنظام الطبيعي الوحيد الذي يستطيع أن يعيش في كفه الرجال الأحرار ، لأن نظم المدينة الحرة كانت تكفل لمواطنيها حرية القول والرأي والميل وتبيع أهمهم المشاركة في إدارة دفة شؤونها وتوفر لهم من أسباب الحياة ما هو خلاق بالسان يعزهم نفسه وجدير بالاستمتاع بحياته . فلما يجب أن كان الأفريق ينشون مدينة لأنفسهم ميثما نزلوا في مكان واتخذوه مستقرا دائما لهم .

١ - الإسكندرية

وهي أول مدينة تعرف عن يقين أن

القدية لا يزال مطبوعاً تحت مسمى المدينة  
الجديدة فإننا نستطيع أن نتبع ما كتبه  
تعمراً القرن الثالث منهم كانوا يعتبرونها  
عظم مدينة في العالم حيث تتوافر كل نعم  
الحياة وبهاجها . وحسب أن نشهد بما  
أوردته هيروداس ١: ١٠٢٤ على لسان  
أمرأة عجوز تحدث إلى شابة وحيل عنها  
روجها إلى الاسكندرية : لا لقد انقلب  
عشرة شعور منذ صاغر مانهريس ١: ١٠٢٤  
إلى مصر لكنه لم يرسل اليك كلمة واحدة .  
ولاشك في أنه قد لبسك وأنزل من سبع  
صروح آخر مصر ( يقصد الاسكندرية )  
هناك حيث يوجد بمبد الآلهة ( إريشوى )  
وكل شيء يمكن وجوده في مكان آخر :  
نراه وملاب ومجد وراحة وعظم وبهاج  
وفلاسة ولهب وشباب وملك كريم ودار  
عظم وخمر وكل الأشياء الطيبة التي يمكن أن  
تتولى إليها النفس ، ولما يفتن في عدوه  
ويضاغن في جمالهن الآلهات اللاتي احتسبن  
إلى باريس .

وقد كانت المدينة تألف من خمسة أحياء ، أطلق على كل منها اسم حرف من حروف الهجاء الألفبائية الخمسة الأولى ، وكان أهم هذه الأحياء جميعاً هو حي القصور الملكية وكان يلفها ربيع مساحة المدينة . ولها تقريبا يحيط على الميناء الكبير ويمتد حتى شوارع القلوب ويحتوي أهم معالم العاصمة ، فقد كانت توجد فيه القصور الملكية ودار العلم والمكتبة والجينازيوم والمحكمة ومدافن الاسكندر الأكبر : الخالصة . أما مضاف

سباق الخيل وساحة الألعاب فاضحا كأنهما يمتدان  
في أطراف المدينة : أولهما في الناحية الشرقية ،  
وثانيهما في الناحية الجنوبية الغربية ، في حي  
راكوتيس حيث أقيم معبد اليرياموم .

وفي مواجهة حي القصور الملكية وعلى  
صخرة شرقى جزيرة فاروس شيدت منارة  
الاسكندرية المشهورة التي كانت إحدى  
عجائب العالم القديم ، ورغم الدمار معالم  
هذا البناء الصامع منذ عدة قرون فإنه بفضل  
تألق الأبحاث الحديثة نستطيع أن نكون  
مفكره فكاد أن نكون فاعه عن هذه المنارة ،  
ولقد كان يربط الجزيرة بصخرة للنار جسر  
مائل يرتفع رويدا رويدا ورسوم على ستة  
عشر فرسا ويبلغ طوله ٦٨ مترا تقريبا ، وشيد  
بحول القسم الأول من المنارة ، لعمارة من  
طقيان البحر ، سور ضخيم يبدو أنه كان يحيط  
بكل جوانبه من الخارج فربلا لا يشرف  
عرضه ، وفي الوسط داخل هذا السور أقيمت  
المنارة نفسها ، وكانت تتألف من ثلاثة أقسام  
يطولها المصباح . وكان القسم الأول رباطي  
والثاني ثنائي والثالث اسطوانى الشكل .  
أما المصباح فإنه كان يتكون من ثمانية أعمدة  
خطينا قبة أفخم عليها تماثيل يعلو ارتفاعه  
ثمانية أمتار تقريبا ، يرجع أنه كان نشأه  
يوسيدون اله البحار . وقد بنيت المنارة من  
الحجر وزخرفت بلوحات منحوتة من المرمر  
والبرونز .

وإذا كان كليومنيس النفرطيسى هو أول

من بدأ في تشييد الاسكندرية فإنه كان  
ابطليموس الأول والثاني أكبر نصيب في ذلك  
حتى يبدو أنه في عهد بطليموس الثاني كانت  
المدينة قد استكملت أهم المظاهر التي  
اشتهرت بها في عصر البطالة والرومان . ومع  
ذلك فإن كل البطلة تقريبا قد أمسموها  
تجميل الاسكندرية .

ولم يخاله سكان الاسكندرية منذ فجر  
تاريخها من الألهرين والمقدولين لقطه ، إلا أن  
هذه المدينة بما توالف فيها من أسباب الكسب  
والحياة البهيجة الرخدة يومئذها حاسمة البطالة  
ولما هما وسر كرا صناعيا كبيرا جذبت إليها  
الناس من كل فج وغدا سكانها سريرا غليظا  
عجيبا من مختلفه الأمم مما جعل استرابون  
صنها بأنها « خزان عالم » . وإذا كان من  
الصغير تتبع ما مر يسكن الاسكندرية من  
تطورات فإنه يسكن الجزم على الأقل  
بأمرين : أحدهما أنهم كانوا مجموعة جاليات  
من أجناس مختلفة يستمتع بعضها بقدر من  
الاستقلال الذاتي ، ولعل هذا هو ما حدا  
بالفيلسوف ليلون إلى القول بأن الاسكندرية  
« عدة مدن داخل مدينة واحدة » ، والآخر  
الأخر أهم كانوا أنفسهم دائما طبقات ثنائي  
في مقدمتها : طبقة المواطنين ، وكانت تتألف  
من أفراد أقدم الأسر الاغريقية وأعظمها  
ثراءا ، وكانوا يستعصون بحقوق المواطنة  
كاملة . ومثل ما كانت الحال في أكثر المدن  
الاغريقية كان المواطنون ينقسمون قبلات  
وأحياء ووحدات .





لوحه من الممسحه وجبت في العشا والآن في متحف الاسكندرية ، وهي تصوير الاسكندرية  
 برحمتها سبطه الممار . ولد ميوزك الاسكندرية الي شكل ميعة قراني ضامة حريمه وتزين رأسها  
 يتاج بحري ونسبك الي يدها اليسرى زينة مزخر صنفه ،

مدينة إفريقية حرة . ويسود الاعتماد أن دستورها كان يشبه دستور مسيليا Masalia وينتار بمجلس أوستراطي . وقد كان طليعا أن تضامل أهمية تراقليس التجارية بمسند تأسيس الاسكندرية لكن مخطاقتها الأثرية تدل على أنها كانت لا تزال مزدهرة في عصر البطالة الذي احتفظت فيه كذلك بثقافتها الأفريقية وأصبحت عندها من أبرز رجال الأدب الأفريني .

### ٣ - بطوليمس

أما بطوليمس التي أنشأها بطنسيوس الأول غربي النبل في أنقاسي الصمد ( المنشأ بالقرب من أحميم ) لتكون مهدا للحضارة الأفريقية له الوجه القبلي ومركزا ثقافيه تعرف العاصمة المصرية القديمة حينه . فقد دعا إليها الزس الى حد أنه يعمد حذنا الجبرم إذا كانت نفسه قنراطيس أو الاسكندرية ، وإن كان الأرجح أن مهندس بطوليمس الأول انحصروا من الاسكندرية لبروزها يحتذوه في تشييده بطوليمس .

ولا تدع الوثائق سبيلا الى الضك في أن بطوليمس كانت تميم بكل النظم الدستورية المألوفة في المدن الأفريقية ، فقد كان لها مجلس شمسورني وجبقة شعبية ومحاكم مستقلة وحكام تسخيم هيئة المواطنين . وكان المواطنون ينقسمون قبائل وأحباء ووحدات وينتاز لديهم ما كانوا ينتمون به في بلادهم الأصلية من المعابد والمعاهد والمسارح .

والرأي السائد اليوم أنه في عهد البطالة الأوائل كان لطبقة المواطنين مجلس للشورى Boulé وجبقة شعبية ، لكن يبدو أنه في عهد أحمد البطالة الأوائل أُلغيت هاتان المنظمتان التان كانتا تعتبران من أهم مظاهر الحياة العامة في المدن الأفريقية . ولما كانت الاسكندرية تتمتع باستقلالها الذاتي وكان الاستقلال السياسي يستتبع حتما وجود استقلال قضائي ، فانه كانت للاسكندرية محاكم مستقلة . وبوصف الاسكندرية مدينة مستقلة كان لها حكامها المحليون الذين يتخيم أفراد طبقة المواطنين

### ٤ - قنراطيس

أما قنراطيس ، تلك المدينة الأفريقية القديمة التي تأسست في عهد إسبتيك الأول فالها كانت شديدة الثبة في مظهرها الخارجي بأي بلد مصري ، فقد كانت تتألف من بيوت مبنية من اللبن على جراب شبكة معدة من الفوارع والبرقة . تكن قنراطيس متسلس الاسكندرية وبطوليمس كانت تختلف عن المدن المصرية اختلافا يناع من الناحية السياسية إذ أن مدن مصر الأفريقية لم تخضع للسلطة المحلية ، وإن لكل مدينة منها كتابها المنفل ، دستورها الذي يكفل مواطنيها حقساموها سياسية تمكنهم من الانشتراك في حكم مدنتهم وتحد من استبداد السلطة المركزية ومثلها . وتسير القرائن الى أن قنراطيس قد احتفظت في عصر البطالة بنظمها بوصفها

ويجدر بالملاحظة أولا أن مديرية النجوم وكان ثلثا سكانها من الاغريق ، قد اختصها البطالة بحكم لم تعرفها بقى اندريات ، اذ كانت تنقسم ثلاثة اقسام : *meredes* على رأس كل قسم منها ايمتاس . وحوالي منتصف القرن الثالث فست الأسماء الى لوموجيات ، والنومارخيات الى تقليم . والأقاليم الى قري . وثانيا ان المنطقة المسند من الحدود الجنوبية لمديرية هرموبوتيس حتى أسواز كانت تعرف باسم منطقة طيبة ، وأما منذ عهد بطليموس الخامس وصحت تحت سلطة حاكم عام ، وذلك فضلا عن تعيينها الى عدة مديريات أسند ادارتها الى عدد من القولا كان لكل منهم نائبه على رأس كل مديرية تقع في دائرته اختصاصه . وثالثا ، ان بطليموس الخامس ذهب الى حد إقامة حاكم عام على كل أقاليم مصر بسبب ما ساد البلاد من اضطراب . ومرد النشأة الإداري الذي انفردت به منطقة طيبة ويزيد فيه القيود والضوابط الى الشرائع القومية التي اندلج ليهيها على عهد البطالة الأواخر وكانت مدينة طيبة أهم محالها .

#### رابعا - قوات البطالة

##### ١ - الجيش

عرفنا أن مصر كانت جزءا من امبراطورية الاسكندر التي اقتسمها قواده بعد وفاته ، وأن بعض هؤلاء القواد أودوا بسط سلطانهم على الولايات الأخرى ليعتوا تلك

أخذ البطالة من الغرامة نظام تقسم البلاد الى مديريات ، قسموا الدلتا ووادي النيل - فيما عدا المناطق التي خصصت للمعدي الاغريقية - الى مديريات ، كان كل منها يؤلف وحدة إدارية منفصلة عن الأخرى واستحدثت البطالة من استعمالات الى التفاصيل ما يضمن لهم حسن تطبيق هذا النظام والسيطرة على البلاد سيطرة تامة . ومن أمثلة ذلك انه حتى افتتح المتنولي كان يحكم كل مديرية مدير *Neswach* لكن البطالة لم نشوا أن اعتسروا كل مديرية منطقة عسكرية يسيطر عليها قائد *Strategos* جنبي ومدير . ولما كان من اختصاص القائد الاعتراف على شؤون المنطقة العسكرية ، المدينة جد بها ، فقد أصبح المدير حارسا للقائد وتضاءلت أهميته على لم يعد له في القرن الثاني قبل الميلاد نصيب في الإدارة .

وكانت كل مديرية تنقسم الى عدد متفاوت من الأقاليم *topoi* ، وكما كان لكل مديرية عاصمتها كذلك كان لكل اقليم عاصمة حيث تتركز ادارته ، وكان كل اقليم ينقسم الى عدد من القري *epistates* ، وكان لكل منها حاكمها الإداري وممثل الادارة المالية . وكان يشترك في الادارة شؤون القرية جماعة من شيوخها كانوا يعرفون في خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد باسم شيوخ الزراعين أو شيوخ مزارعي الملك .

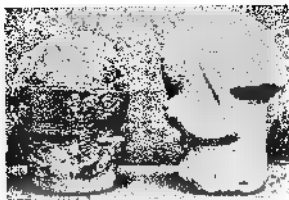
الفرسان النظامية وتكون قلب الجيش الى  
م قبل معركة رفح في عام ٢٦٧ ق . م

وكان الفرق المرتقة في جيوش  
الاسكندر وخلفائه فتيين رئيسيتين . أما الفئة  
الاخرى فتشمل تلك الفرق العمومية التي كانت  
تخضع لفرق الجيش الذي تنضم اليه بملابسها  
واسلحتها القومية وتندمج في ذلك الجيش  
بسبب نوع السلاح الذي اشتهرت به .  
وكانت هذه الفئة تكون فرق مشاة خفيفة  
العدة وتعرف أحيانا باسم سلاحها وأحيانا  
باسم جيئتها وأحيانا بالاسمين معا . أما  
الفئة الثانية فلها كانت تكون من قولئك  
الجنود المرتقة الذين كان بعضهم ضباط  
مرتقة اما من بين مواطنيهم واما من اقرباء  
الجنود المارونية في العالم الاغريقي . وكان  
يمكن استخدام جنود هذه الفئة مشاة  
او فرسانا . واذا كان العنود المرتقة  
لا يتقاعدون الى الأصل الا على القيام بعمل  
واحدة ضد العدو حينئذ فيما يبدو أصبح  
بعض العنود المرتقة يكونون فرقا دائمة ■  
خدمة البطالة .

وحين وفد بطليموس على مصر وأخذ  
سيدها مخرج مملكته كانت لا تزال توجد  
تلك الطبقة الوريثية من المعاديين المصريين .  
ومن ناحية أخرى كانت تحت إمرة مناصري  
البطالة جيوش واساطيل مؤلفة من خيرة  
جنود العمر وأعني القديسين والاغريق ،  
الذين أثبتت حملات الاسكندر وخلفائه

الامراتورية من جديد ، وأن بطليموس  
الاول كان يشهد الاستقلال بمصر ومناه دولة  
هوية عية فيها . ولذلك رأى هذا العاهل  
ضرورة تكوين جيش واسطول قويين يمكنه  
من الفرود عن حياض مملكته ومن تحقيق  
اهدافه الخارجية .

وفد العهد بطليموس من القوات الى  
كان الاسكندر قد تركها في مصر مائة لنباء  
قوات كثر من ذلك والعظم . واداكنا لا نعرف  
كيفية تكوين الجيش البطلمي فلما نعرف على  
الأقل انه بعد ما تم تكوينه كان يتألف من  
ثلاث فئات رئيسية وهي : الفرق النظامية  
والفرق المرتقة والفرق المصرية . وتسمى  
الفرق الى أن كثر أفراد الفرق النظامية  
كانوا يجندون من مختلف أنحاء شبه جزيرة  
البلقان وجزر بحر ايجه ومع ذلك فإن ■  
الفرق كانت تدعى مقدونية بسبب انها  
كانت في الأصل كذلك . وبسبب اعتزاز  
البطالة بأصلهم المقدوني ، ولا سيما ان  
الجيش كان يعتبر قبل كل شيء جيش الملك  
بطليموس . وتدل الوثائق على أن الفرق  
النظامية كانت قسمين وهما فرق الفرسان  
وفرق المشاة ؛ وعلى أن فرق الفرسان كانت  
مرتبة : أولاها من رتبة مكانة من الثانية .  
وقد كانت فرق المرتبة الاولى تميز بالأرقام ؛  
ثما فرق المرتبة الثانية فانها كانت تميز بحسب  
جنسية أفرادها . وكانت فرق المشاة النظامية  
تتميز بالأرقام وتعتبر اقل مرتبة من فرق



نموذجان من المعبر الجبلي للحسبونات العنوسة هنر عليها بنو اطلال مبدى  
( ميثا رهبة ) حيث رعدت نماذج مماثلة كثيرة .



حرم من الخوذة التي توجد في الباز من العمورة العليا - لاحظ تفاصيل الزخرفة -

جيش أنطيوخوس المؤلف من الآخمينيين  
والقديونين أشعل دوح الوطنية الكامن في  
صدور المصريين وأعاد اليهم الثقة بأنفسهم  
فانتفضوا ثائرين على البطالة .

وإذا كان المصريون قد أضحوا في صلب  
الجيش على عهد بطليموس الرابع فانهم كانوا  
يؤلفون فرقا مستقلة بهم واستمروا يتكونون  
جزءا مستقلا من الجيش حتى نهاية أسرة  
البطالة لمسا يبدو . ولابد من أن ثورات  
المصريين على البطالة الأواخر قد جعلت هؤلاء  
البطالة ينفذون على بدء بطليموس الرابع ،  
وذلك لأنهم لم يستندوا لاية على المصريين في  
تكوين قلب الجيش ، لكنهم لم يجرأوا على  
إخراج المصريين من الجيش .

## ٢ - الأسطول

لما كان البطالة الأوائل قد بنوا امبراطورية  
بحرية واسعة وأحرزوا انتصارات بحرية  
كبيرة ، فلا سبيل الى الشك في أنه كان لهم  
أسطول بحري قوى ، لكن ليست لدينا  
معلومات عن كيفية تكوين هذا الأسطول  
ولا عن قوته في اليهود المختلفة .

وعلى كل حال يجب أن نذكر بين  
عنصرين من رجاله الأسطول وهما : عنصر  
المجنكين وعنصر البحارين . وحيث أن بحارة  
الإسكندرية القديمة كانوا يتألفون من ذوي  
طبقات السكان ، وأن البطالة وضعوا المصريين  
في أسسفل الدولة ، فلا بد من أن بحارة  
الأسطول البطلمي كانوا يتألفون من المصريين  
وهذا هو ما تؤكد الوثائق . ولما كان البطالة  
الأوائل قد وضعوا جل اعتمادهم على  
المقدونيين والافريق في تكوين قوتهم البرية  
فلا بد من أنهم فعلوا الشيء نفسه في تكوين

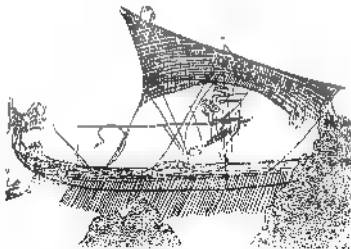
تفوقهم على محاربين متنازين كالفرس . فإذ  
فعل البطالة ؟ لا شك في أن البطالة الثلاثة  
الأوائل اعتمدوا الى أقصى حد في تكوين  
جيشهم على المقدونيين والافريق لتفوقهم  
كعازمهم ، ولخوفهم من ألا يخلص المصريون  
الطاعة لهم ، ولرغبتهم في عدم استئناس همة  
المصريين وانعاش دوحهم القومية ، فالتجيش  
في كل دولة وفي كل عصر قلب الأمة الفاضل ،  
لكن لابد من أن أولئك البطالة كانوا يفتشون  
أيضا اغتيال أمر الجنود المصريين كلب ، وذلك  
لكيلا ينشر أولئك الجنود روح النذير في  
البلاد . فكيف حل البطالة الأوائل هذه  
المشكلة ؟ بين أن البطالة الثلاثة الأوائل لم  
يسمحوا للمصريين المصرية لكنهم كانوا  
لا يعتمدون عليها في القتال بل يهدون الى  
بعضها بأعمال الغل وما أشبه ذلك من الأعمال  
الثاقبة ، ويسلحون بعضها الآخر بالأسلحة  
انغصبة أو بأسلحتها المصرية العتيبة استمداد  
للطوارئ في حالة الضرورة القصوى ، الى  
أن تهددت بطليموس الرابع أزمة خطيرة  
وقت غضب فيه معين الرجا في بلاد الافريق ،  
وتمس له هذه الجنود الأجانب الذين كان  
البطالة قد أنزلوهم في مصر ، فاضطر  
بطليموس الرابع ، لمواجهة هذه الأزمة ، الى  
تدريب المصريين وتليحهم شمل الافريق  
والمقدونيين وتكوين قلب الجيش منهم .  
ويحدثنا يوليوس بأن ما فعله بطليموس  
الرابع كان عملا صائبا فيما يخص العناصر  
لكنه كان بدعة خطيرة تهدد المستقبل .  
ووصف عمل بطليموس الرابع بأنه بدعة  
يدل على أنه لم يسبقه الى ذلك أحد من  
البطالة . والخطر الكامن في هذه البدعة هو  
أن انتصار المصريين في معركة رفع على قلب

قواتهم البحرية ، إذ لا يقتل إلا بمقد أولئك البطالة على المصريين في تكوين قواتهم البرية لهم يستدعون عليهم في تكوين قواتهم البحرية . وعندها أصبح البطالة المصريين في مطلب الجيش منذ عهد بطليموس الرابع ، لا يجد أنهم فعلوا ذلك أيضا في الأسطول . ومع ذلك خافنا غيبت أنه كما كان الحال في الجيش ، كان أكثر جنود البطالة البحرين ولرفهم وقاما ، حتى بعد عهد بطليموس الرابع ، من الاغريق ومن على شاكلتهم .

### ٣ - الشرطة

وكان رجال الشرطة يتصلون بالجيش اتصالا وثيقا ، إذ أنه منذ القرن الثالث كان يوجد بين رجال الشرطة معارزون مصريون ، ومنذ القرن الثاني كان رجسالة الشرطة مساهمون في تكوين القوات المعاربة . ويمكن تصب رجال الشرطة بوجه عام

ويبدو أنه في القرن الثالث كلف الضباط ولرفع رجال الشرطة مقاما من الاغريق ، ثم أصبح مسخوفهم تدربها للمصريين . أما رجال الشرطة الماهيون فاهم كانوا في الغالب من المصريين منذ القرن الثالث ، وكان رجال الشرطة المصريون يصنعون اقطاعات متواضعة منذ بداية الأمر ، أما غير المصريين فاهم كانوا يصنعون مرتبات ، لكن يبدو أنه معشى الزمن أخذ يشجع نظام منح اقطاعات لرجال الشرطة حتى تشملهم جميعا ، سواء أكانوا مصريين أم غير مصريين .



هذه صورة إحدى سفن ثلاث شظها شخص في جده أو منزله ديونيزوس من ديولوس ، والصورة تمثل سفينة بحرية اغريقية مما كانت تسخر عياب بحر ايجيه في اواخر العصر الهيلينستي .

## الفصل الثالث - سياسة البطالة الدينية

أن بطليموس الأول قد حمل بعض الغياب  
الفراغة النفيدية ، وأن بطليموس الثاني  
والثالث قد حملوا عبثاً هذه الألقاب جميعاً .  
ويعتبر من الفرار الذي أصدره الكهنة  
في منف غضب موفعة رفع أن بطليموس الرابع  
قد ذهب إلى صدى أبعد من أسلافه في التسبب  
بالفراغة ، فهو أم يكنف بعمل كافة ألقاب  
الفراغة التقليدية بل أنه تخرج أيضاً على نهج  
الفراغة القدماء ، فكان بذلك أول ملك من  
ملوك البطالة اتخذ صفات الفراغة كاملة .  
وقد كان طيباً أن يقتضى سائر البطالة  
الناشرين أن بطليموس الرابع لا يهتم كانوا  
جميعاً ملوكاً ضالعين ويعملون على سلامة  
المصريين .

### ٢ - احترام الديانة المصرية

وإزاء رغبة البطالة المفعلة في أن يطهروا  
أسماء المصريين في ثوب الفراغة الحقيقية  
اقتروا بالديانة المصرية ديناً رسمياً ، وسبحوا  
للمصريين بحرية عبادة آلهتهم القديمة . ولكن  
بشوا أجلالهم واحترامهم للديانة المصرية  
حدوا حدوا الفراغة في تقديم الترابين للألوهة  
الوطنية ، ومنح المعابد هبات مالية وعقارية  
وكذلك حق حماية اللاجئين إليها ، واتساء  
المعابد والمباني أو إصلاحها وزخرفتها ،

تقدم عرفنا كيف كان البطالة يمتدرون  
انضمهم سادة مصر بحق الفتح ، لكن لكي  
يكونوا سلطانهم دائماً وسيادتهم راسخة رأوا  
أن يقيموا حكمهم كذلك على حق الملوك  
اللاه ، وأن يحترموا المعتقدات الدينية  
السائدة بين كافة رعاياهم ، ولذلك كان  
التسامح الديني أبرز ما تتصف به سياسة  
البطالة الدينية بوجه عام .

### ثولاً - البطالة والمصريون

#### ١ - (أطال صفات الفراغة

ما كان المصريون يمتدرون فرعون وأهب  
النعم والحياة ومالك الأرض والسيد المطلق  
على أهلها ، فقد كان من العتنة واسالة  
الرؤى أن يتخذ البطالة صفات الفراغة ،  
لينتسوا بسكاتهم العظيمة وسلطاتهم الشاملة  
المطلقة ، ويكسبوا ولاء المصريين ويصبحوا  
مركزهم بصفة شرعية لا للزهم ، ولا لبا  
أن الإسكندر الأكبر كان قد رسم نفسه  
فرعونا في منف ، وحمل ثلاثة من الألقاب  
العظيمة التي درج الفراغة على سلطانها منذ  
عابر الزمن . وتبدي القرائن إلى أن البطالة  
اتخذوا صفات الفراغة بالتدريج ، ففى  
أوثائق الهيرغليفية والديموتيقية ما يثبت



وتصوير أنفسهم على جواهرها وكذلك على  
التنود والاحجار الكريمة ■ شكل آلهة  
مصرية .

ان نبوة مثل نبوة ■ صانع الفخار ■  
التي تحدثت عن تحرير الوطن واجلاء الأجانب  
واعادة العاصمة الى منف واقامة قرويون وعنى  
لتحيز تعبيرا يلينا عما كان يجيش في صدور  
المصريين من الآلام والآمال وتصور لنا حقيقة  
مشارعهم فهو هؤلاء الفرانجة الجدد . وان  
دلت هذه النبوة على شيء ليس تدل على أنه  
يمينا ألقى البطالة من جهد في الظهور أمام  
المصريين في ثوب إسلامهم الفرانجة الوطنيين  
فبان لسلوب المصري لم تلمس البهم ولم  
تظهر فرانجة حقيقيين ولم تر في الاسكندرية  
عاصمة للبلاد . فلا عجب ان كان المصريون  
يتوقون الى قرويون وطني يقبم في عاصمة  
وطنية بعد ان يحرق الوطن من محتصبه  
الاجانب .

#### ٣ - موقف البطالة من الكهنة المصريين

كان رجال الدين المصريين يحتلون منذ  
عهد بعيد مركزا رفعا وأهمية خطيرة في حياة  
البلاد ، يحسب الملوك حسانهم ويمتدحهم  
الإلهامسالى مرشدتهم برعايتهم الروحيين ،  
يستمعون الى نصيحتهم وينزلون على ارادتهم .  
واذا ذلك استقر رأى البطالة على أن يتخذوا  
منهم أداة لمشر الهدوء والسكينة في البلاد ،  
وكذلك غاصهم حين أظهروا اجلالهم واحترامهم

الديانة المصرية استنوا من النظم ما يكفل  
تعليم الطائر رجال الدين وخضوعهم لهم .  
وقد كان العامل المادى من أهم الوسائل التي  
لجأ البطالة اليها للحصول على مائة التساومة  
غاتهم أستندوا ادارة أراضي المعابد الى  
الحكومة ، واستولوا على دخل الخزينة التي  
كانت للمعابد يجيها من زارعي الكروم  
والفاكهة والبقول ، وألقوا احتكار المعابد  
وصناعتى الزيت ونسج الكتان لكن يظلوا من  
قوة الكهنة ويبسطوا لهم أيديهم أو يتكفوها  
بما لموقف الكهنة منهم .

ويجب أن نضيف ■ اتفاق على الكهنة  
قد رجع بهم في صفوفه الثوار ما حدا بالبطالة  
الأواخر الى محاولة كسب ود الكهنة بفتى  
الوسائل . ومع ذلك يبدو من تجويد النص  
لكهنة في عبود مختلفة بل في العهد الواحد  
نفسه ان الكهنة لم يفلحوا في استرداد كل  
حقوقهم وامتيازاتهم السابقة التي كان  
البطالة الأوائل قد سلبوهم اياها . وذلك لأنه  
عندما ضعفتم السلطة المركزية وفسدت الاداة  
الحكومية كثيرا ما عجزت السلطة المركزية  
عن حمل المواطنين على تنفيذ قرارها .

ويبدو أن الكهنة قد انقسموا فرقا واتجاها  
ازاء سياسة البطالة نحوهم ، اذ حين كانت  
العلاقات متوترة بين البطالة وكهنة آمون في  
طيبة كانت العلاقات حسنة بين البطالة  
ومناضى أولئك الكهنة ولا سيما كهنة منف .

على هذا النحو سنة تأليه حاكم مصر بعد وفاته ، وسرى ثوا الآثار البعيدة التي تربت على اتباع هذه السنة .

وتفسير كل الدلائل التي ان بطليموس الثاني هو الذي خطا الخطوة الثانية في عبادة العبادة . وقد كان أول ما فعله ههنا الملك انه اتبع سنة أبيه ، فرفعه الى مصاف الآلهة بعد وفاته . ولم يكن ذلك بدعة فقد كان الاغريق ياتون تأليه موتاهم الذين أسوا مدلا حرة ، وبطليموس الأول لم يوسى مدينة لمصب بل مطلقة عظيمة . ويبدو انه عندما توفيت بريكيكي ثم بطليموس الثاني اشركها في العبادة مع أبيه المؤله .

وقد عهد تأليه بطليموس الأول السبيل لنائب ملاته ، لأن تأليه رأس أسرة البطالة اكسب سلالة صفة غير عادية سميت بهم فرق مسروق سائر البشر . فلم يكن صيرا عليهم بعد ذلك ان يرفعوا انفسهم الى صف مؤسس ههنا الأسرة . لكن على حين ان بطليموس الأول وزوجه رفعا الى مرتبة الأنوية بعد وفاته رفعا مع سلتهما من ملوك مصر الى هذه المرتبة في حياتهم واحتفلوا بها بعد مماتهم . ولم يمد اليوم حبل الى الثلاث في ان بطليموس الثاني رفع نفسه وزوجه الى مصاف الآلهة في أثناء حياتهما وتعبد الاثنان معا باسم الاخوان الأخوين ( Adelfoi ) ، وتقيم لهما معبد خاص في الاسكندرية وقرات عبادتها بعبادة الاسكندر

وكما عني البطالة يكسب ولاء المصريين وودهم عشوا أيضا بكسب ولاء الاغريق وعملهم . وقد كان الاغريق يديون للعبادة بالامتيازات التي منعوها ، لكن لما كاف غالبيتهم رجلا أحرارا تفشوا الى جمهوريات اعتادوا الاشتراك في حكمها ، وكانت مصر في عهد البطالة ملكية تقوم على حكم الفرد المطلق ، فقد لجأ البطالة لتبرير مركز هذا الحاكم المطلق الى انشاء عبادة الملوك عبادة لفرقة رسيبة عامة في الدولة حتى لا يرى الاغريق خصاصة في تمتع أولئك الملوك بتلك السلطة المطلقة .

وبرغم ما يكتنفه الشك هذه العبادة من الغموض ، فاننا نستطيع ان نشين أربع خطوات . أما الخطوة الأولى فقد خطاها بطليموس الأول عندما جعل عبادة الاسكندر الأكبر ههنا افرقيا رسميا عاما في مصر . له تاهن مقدوني أو افرقي يستع بكنة رغبة ويصنه الملك كل عام وتؤرخ باسمه كذات الوثائق في طول البلاد وعرضا ، سواء ما كان منها مكتوبا باللغة الاغريقية أم المصرية واما كان بطليموس خليفة الاسكندر في حكم مصر ، فقد أصبحت سلطته بمسند نائب الاسكندر مستمدة من مصدر الهى ، وبذلك حق له ان يستع بالسلطة المتاملة في مملكته . وفضلا من ذلك فان بطليموس قد وضع

## ٢ - احترام الديانة الاغريقية

وقد كان البطلة مثل غيرهم من المقدونين انخرطوا في كل خواصي حياتهم : في ثقافتهم وديانهم والى حد كبير في 'سماحهم' بل انهم ادعوا انهم من سلالة الالهة الاغريقية . وانما عواطفهم الدينية واسلمهم السامري الاغريقي وتعاليمهم الاغريقية ، كانا طبعيا ان يظهروا احترامهم للديانة الاغريقية ويترفعوا بها ديانته رسميه في دولتهم .

وفصلا عن كل ذلك كان يوجد دافع أساسي له : وان كبح في نظر البطلة ، فقد كانوا في حاجة الى رجال وروس اصول من بلاد الاغريق لتعطي مشروعاتهم الخارجية والداخلية . ولذلك كان يتعين عليهم كسب عطف الاغريق ، بأن يظهروا امامهم في ثوب حياء الحضارة الاغريقية ، وان يشبها للملا اجتمع اجلالهم للديانة الاغريقية . فلم يكنف البطلة بالاعتراف بالديانة الاغريقية دينها رسميا في مصر ، بل اسبقوا عليها تمسقا بظاهر انطقها ، فليبدوا المعابد لالهتها ، ومنحسروا الضياع لمصايدها ، وايامها للاغريق حرية إقامة شعائرها ، واقاموا صلات وثيقه مع أشهر مراكز العبادة في بلاد الاغريق ، وانضموا حفلات دينية على نمط الحفلات الدينية الاوليمبية او الحفلات المكنسية الجامعة ، كان يجمع اليها الشعراء والمبارزين من كافة أنحاء العالم الاغريقي . وتصور لنا انفسنا نيوكريشوس كيف كانت تجوب في شوارع

الرسمية العامة فكانت يشرف على مقوس المادتين كاهن واحد أصبح لقبه عندئذ « كاهن الاسكندر والالهين الاخرين » . على حين ان عبادة بطليموس الاول وزوجه بريسيكي لم تتركز بعد مع عبادة الاسكندر . وقد خطا بطليموس الثالث الخطوة الثالثة فانه سمح باستمرار قرن الالهين الاخرين في عبادة مع الاسكندر بعد وفاتها ، ولذلك عندما اقتضى عطايا آبيه ورفع نفسه وزوجه في حياتهما الى مصاف الالهة قرن عبادتهما بعبادة كليهما والاسكندر . فكانت هذه هي المرة الاولى التي تعرف فيها عبادة المثلث الحاكم وزوجه بعبادة كليهما وعبادة الاسكندر . ومنذ ذلك الوقت أصبحت المساعدة ان كل بطليموس وزوجه يرأسان المعشر يؤلهون ويضطلع عبيدا لقب الهى يسزها عن غيرها من البطلة المؤلهين ويقرن مبادتهما بعبادة اسلافهما وعبادة الاسكندر ، فنبشت على مر السنين وتعالى ملوك وملكات البطلة سلطة جديدة من الهة . وعندما لاحظ بطليموس الرابع ان سلسلة البطلة المؤلهين الذين يقرون مع الاسكندر الاكبر في العبادة الرسمية العامة تبدأ ببطليموس الثاني وزوجه ، على حين انه كان من غير مؤسس الأسرة وزوجه ان يكونا في العظمة ، خطا الخطوة الأخيرة في تحويل هذه العبادة الى عبادة أسرته بوضع بطليموس الاول وزوجه على رأس سلسلة البطلة المؤلهين الذين يقرون في العبادة مع الاسكندر .

يوصف قاعة الولائم وكانت على شكل  
سرادق مستطيل شملت أربعة من أعمدته  
المصنوعة من الخشب على طراز مصرى فى  
شكل النخيل . ولم يدخر الملك جهدا ولا مالا  
فى تجهيل هذه القاعة وتزيينها ، فقد علفت  
حولها ستائر مزركية وجلود حيوانات  
مفترسة وصفت على جانيها مائة ثور وكب  
موشاة بالذهب ونشرت أرضها بالطنافس  
الفارسية ونشرت بالورود والأزهار وزين  
المرافق بأبدع ما أخرجه المبرزون من الخالين  
والمصوريين وأجبل ما افنكره عمر الصناع  
من الأقمشة المزركشة بالذهب والدروع  
الموشاة بالذهب والفضة ووطعت فى مكان  
بارز من السرادق أريكة مغطى عليها آنية  
كسيرة من الذهب ومرصعة بالأحجار  
الكرمة .

وبعدنا كاليكسوس بأن المهرجان أقيم  
فى مضمار الباقى ودام من الصباح حتى

الاستكندرية ■ أثناء إقامة هذه الحفلات  
اصداه مختلف اللهجات الاغريقية . وتدل  
الآنية الجنائزية التى عثر عليها فى الاستكندرية  
وكانت تضم رماد جثث بعض المبعوثين  
الرسميين الى هذه الحفلات انهم توقعوا فى  
الاستكندرية فى أثناء اداء واجهم الرسمي .

وكانت أهم هذه الحفلات حفلات  
الهلولىمبايا Ptolemee التى اشأها  
بطليموس الثانى تفليدا لذكرى أبيه المؤقت .  
ويحتل أن هذه الحفلات التى كانت تشمل  
الحفلات الأولمبية تمام كل أربع سنوات ،  
قد أقيمت لأول مرة فى عام ٢٧٩ ق . م .  
بمناسبة الذكرى الرابعة لوفاة بطليموس  
الأول . ويبدو أن المهرجان الذى وصفه  
كاليكسوس كان بمناسبة  
احياء هذا الحفل أول مرة .

وقد بدأ كاليكسوس وصفه الزائج

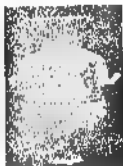


حران ولالم بطليموس الثانى على نحو ما وصفه كاليكسينوس وتصوره أحد العلماء المحدثين

غفيرة من النساء والرجال والأولاد ، يمثل بعضهم مناظر من القصص الدينية الافريقية ، ويرتدى بعضهم الآخر أبهى الثياب ويحلقون أكالي الورود أو آنية من الذهب أو القضة تفيض بالنبيذ أو المأكولات أو البخور أو المطور .

وقد عرضت في المهرجان أنواع كثيرة من النعيران والطيور النادرة واشترك في ٢٣٣٠٠ غارس و ٥٧٩٠٠ رجل كامبلي العدة . ولعل القسم الذي يمثل عبادة

الليل ، ولذلك كان يتقدمه ذلك القسم من المهرجان الذي يمثل نجم الصباح ، ويأتي في المؤخرة القسم الذي يمثل نجم المساء . وقد تبع نجم الصباح القسم الخاص ببطلميوس الأول ذووجه المؤلفين ، ثم تلت ذلك أقسام أخرى خصص كل منها لاله واحد أو أكثر ، وكان أحدهما للاله ديونيسوس وآخر للإلهين الاسكندر الأكبر وبطلميوس الأول ، وآخر للاله زيوس وغيره من الآلهة ، وكان يصور كل قسم جمهرة من التماثيل والأشخاص تحملهم عربات يتقدمها ويسير خلفها أعداد



صورة آنية حناقرية ما دعى بها السمرات الأجاب الذين توغوا في الاستكشافية عند تمثيل بلادهم في حفل الاطوليسايا .

ساعد على استمساك الاغريق بالهتهم ، وعدم  
اقبالهم بوجه عام على الآلهة المصرية تصوير  
هذه الآلهة في اشكال تنافي ذوتهم وعقائهم  
وتصورهم كما **يبين** أن يتوافق في تصور  
الآلهة من صفات توائم مكانتها الرفيعة .  
ومع ذلك فإن بعض الاغريق « شجعة لذلك  
التقسيبات » ، وباعتبارهم نزلاء في تلك البلاد  
التي تنتج بحماية هذه الآلهة ، وأوا من القطة  
واصالة الرأي كسب عطف هذه الآلهة .  
ولذلك فانهم عبدوا بعض الآلهة المصرية تحت  
اسماء اغريقية ، كما عبدوا أيضا بعضها  
الأخر بأسمائها المصرية حين لم تكن لها  
مراوالت بين آلهتهم ، لكنها كانت تتمتع  
بمحبة كبيرة بين المصريين اضطرت أنظار  
الاغريق ، ومثل ذلك بيس Ben وتورت  
Tours وسيت . ولا يحد أن يحد ليريق  
من الاغريق للآلهة المصرية على هذا النحو قد  
أفصى الى مزج بعض الآراء الدينية الاغريقية  
بالآراء الدينية المصرية ، لكن يجب ألا نبالغ  
في قيمة ذلك ، لانه اذا كان بعض الاغريق  
لم يروا فضاضة ل بعض الأحياء في عبادة  
الآلهة المصرية فإن الاغريق جميعا لم يقطعوا  
عن عبادة الآلهة الاغريقية حتى خارج المدن  
الاغريقية . فقد كان المجال منحة أمامهم  
لمثل ذلك ، اما في الجاليات أو البصميات  
الاغريقية أو في بيوتهم الخاصة .

ومن ناحية أخرى استلصق المصريون  
على الدوام بدياتهم ، التي كانوا يعاقرون بها

ديونيسوس مظهرا من الهنء كان أروع ما في  
هذا المهرجان الفريد الذي كان يسوده روح  
الفرحى بحت وينجلي عليه طابع حتملات  
ديونوس . وإذا كان ملك مثل بطلموس  
الثاني لم **يقطع** بالسفوف والاسراف بل عثر  
بحرص ودقة فطمة المالية قد أنفق على إقامة  
هذا المهرجان ما قيمته اليوم حوالي نصف  
مليون جنيه مصري ، فإن هذا يدلنا على مدى  
الأهمية التي كان يطلقها على اظهار اهتمامه  
بمظاهر الحياة الدينية الاغريقية وكذلك على  
استراض دلائل لواء دولته وقوتها أمام  
محتوي الدول الأجنبية .

#### وقالت = الاغريق والعبادة المصرية

وقد كان الاغريق ينظرون الى الديانة  
المصرية نظرة اجلال واحترام ، بسبب قدم  
عصدها ولحموض أسرارها . ودرج الاغريق  
منذ عهد هيرودوتوس على تشبيه الآلهة  
المصرية بالآلهة الاغريقية ، لكن لا ريب في أن  
هذا التقسيم لم يكن الا فسيحيا سطحيا  
لم ينفذ الى أعماق عواطف الاغريق الدينية  
بحيث تحتل الآلهة المصرية مكان الآلهة  
الاغريقية ، وآية ذلك ان الاسكندر الأكبر  
والبطلمة شيدوا معابد مختلفة لكل من آلهة  
الاغريق وآلهة المصريين . وتفسير القران الى  
أن لغريق مصر سواء أكانوا ينزلون **في** مدن  
مصر الاغريقية أم في خارج تلك المدن قد  
استلصقا بعبادة آلهتهم القديمة : زيوس  
وهيرا وديمترو والفروديتي وغيرها . ولعله قد

سياستهم الدينية ازاله المصريين والاغريق ،  
فانه باستثناء بطليموس الرابع ، الذى أراد  
أن يفرض على اليهود عبادة ديونيسوس  
واضطهدهم عندما رفضوا الارتداد عن دينهم  
ترك سائر البطالة الآخرين لليهود حرية  
العبادة .

ويبدو أن سياسة البطالة بوجه عساق  
كانت متبعة بروح المظف على اليهود ، لأن  
للسلطين كانت واقعة بين فسقى الرضى «  
أو بعبارة أخرى كانت ميدان سلسلة من  
المحروب الضروس بين البطالة ومناخسهم  
السلوكيين » الذين كانوا يتطعمون هواما الى  
هرمان مصر اياها . وبطبيعة الحال كان عطف  
البطالة على يهود مصر يكسبهم تأييد يهود  
فلسطين ويساعدهم على تنفيذ سياستهم  
السورية .

## ٢ - الفرس

وتحدث الوثائق عن كثيرين ممن يسمون  
« فرسا » أو « فرس السلالة » مسح أن  
أقلمهم فقط يعملون أسماء إيرانية ، على حين  
أن أكثرهم يعملون أسماء أفريقية أو مصرية  
أو اسما أفريقية ولقبيا مصرية . ولقد الوثائق  
الى وجود عدد كبير من الفرس بين الجنود  
وأبناء الجنود في مصر البطلمية والى أن  
هؤلاء الفرس امشروا يكتولون طبقة خاصة  
حتى في العصر الروماني . ومما اختلف  
المؤرخون في تفسير كثرة عدد الفرس فلا شك  
في أن الفرس كانوا يتبعون بالحرية الدينية  
في مصر البطلمية .

ويعتبرون المذاهب الاغريقية صورة مقنة  
لها ، لكننا حديثة العهد ويشوبها كثير من  
التقص الى حد يستغفر مشاعرهم ضسسه  
اتباعها . فلا عجب انه لم يبق دليل واحد على  
أن الديانة الافريقية استمرت ولو نقرأ قليلا  
من المصريين .

## ٣ - البطالة والخصائص السلطانية الأخرى

وكان اليهود أهم العناصر الأجنبية بمصر  
الاغريق في دولة البطالة . ويرجع استغفار  
اليهود في مصر الى عهد بيد بسبق عصر  
البطالة كثيرا ، لكن عددهم ازداد زيادة كبيرة  
في أعقاب الفتح المقدوني وكذلك بعد ضم  
فلسطين الى مصر في بداية عصر البطالة .  
وتشير المصادر القديمة الى انتشار اليهود في  
مختلف أرجاء مصر ، لكن أكثرهم كانوا  
يعيشون في الناحية الرابع في الاسكندرية .  
وكان يهود مصر يزاولون مختلفه الحرف  
والحرف ، وكان من بينها الاستغفال بالتجارة  
واقراض الأموال ، لكن ذلك لم يكن وقفا  
عليهم ولا عليهم الرئيس . وقد منح البطالة  
الجبالية اليهودية في الاسكندرية قسطا من  
الحكم الذاتي لم يتحوه لاي جالية أخرى  
في أي مدينة أفريقية ، لكنهم لم يتحوه  
حقوق المواطنين .

وقد كانت السياسة الدينية التي اتبعها  
البطالة بوجه عام ازاله اليهود ، تقوم على  
أساس التسامح الدينى الذى قامت عليه

كون لجنة من علماء الدين المصريين والأغريق لتبذل فكرته . وقد استقر رأى اللجنة على أن يكون محور الديانة الجديدة ثالوثا يتألف من سيرابيس Serapis وزوجته ايزيس وابنها هارپوكراتس Harpocrates ويتفق الجميع على أن ايزيس وهارپوكراتس كذا الهة مصريين . أما سيرابيس ، كسيرة آلهة الثالوث ، فقد تضاربت الآراء حول أصله ، لكن الرأى السائد اليوم أنه كان أصلا إله المصري "وزير ايسيس" إله العالم الآخر في منف الذي ترينا برديّة ارمينيا Armenia أن الأفرقي حتى قبل عبده بطليموس الأول كانوا ينادونه باسمهم "وزير ايسيس" Osiris . وعلى كل حال فإن آلهة الثالوث خدمت للأفرقي في شكل أفرقي وللمصريين في شكل مصري يسدو النابذ بينهما في أجلى صورة في حسنة سيرابيس الذي تقدم للأفرقي في شكل رجل كهل يشبه عن قرب الإله زيوس وضُففت عليه كثير من صفات الآلهة الأفريقية ، على حين عبده المصريون في شكل العجل ايسيس ، وكان يعرف بـ "وفاة باسم" "وزير ايسيس" .

وأذا كان بطليموس الأول هو الذي أنشأ عبادة سيرابيس وإخفاء الصورة التي قدم فيها هذا الإله لرباباء الأفريق : فإن الأدلة الإثريّة تثبت أن بطليموس الثالث هو الذي شيد المبدع الكبير الذي أقيم لهذا الإله في حي واهوده بالإسكندرية على ذلك التل الذي

وتشير القرائن إلى أن سائر العناصر الأجنبية الأخرى التي استقرت في مصر مثل الرقيين والفرجيين والسوريين والفينيقيين والحرب ، قد حضرت معها عباداتها وآلهتها كما فعل الأفريق واليهود ، وإنما قد نمتت جسدًا بحريتها الدينية في كل ذلك التسامح الديني الذي كان أحد الدعائم الأساسية التي أدام عليها البطالمة سياستهم الدينية .

#### خاصة - ديانة سيرابيس

لما كان بطليموس الأول يعتقد أن ثروة مصر تنوكت على مساكنة المصريين والأفرقي في الحيل على تقدم مرافق البلاد الاقتصادية ، وأن استمرار النفور الديني الذي كان يهودونوس قد لاحظته من قبل لابد من "تدعيم" الآلهة بين الأفريقين ، فإنه رأى من الضروري أن يولف بين قلوبهما بإنشاء ديانة جديدة تكون رابطة وحيدة ووثاق بين المصريين والأفرقي عندما يجتمعون جميعا في التجمد إلى أكتنهما ، وبذلك يدركون أنهم يتبعون إلى نفس الآلهة وإنما كل فريق منهم على النحو الذي كان يالته . ولابد من أن بطليموس كان يدرك أن تحقيق هدفه كان ينوقف على نجاح الديانة الجديدة في أن تخلف ديانة المصريين والأفرقي ، وهذا يصر ذلك الاهتمام الكبير الذي وجهه هو وسلاطه إلى الديانة الجديدة .

ويحمدنا فلونارك بأن بطليموس الأول





تمثال للممثل أسس أسيدياء  
الامبراطور هادريان لسميرايوم الاسكندرية .



تمثال لبرابيس

في عداد الآلهة التي ظنوا على ولائهم لها ، ولم تصبح يوما آلهة هذا الثلاث الآلهة الوحيدة التي يعبد المصريون اليها . وكذلك اعتنق الاغريق ديانة هذا الثلاث فقد قدم لهم آلهة في ثوب اغريقي بل على انها نظيرة لآلهتهم الاغريقية . ومع ذلك وبرغم ما ظهره الاغريق لآلهة الثلاث المقدس من رعاية واحترام فالهم لم ينصرفوا الى عبادته دون غيرها ، بل ان هذه الآلهة لم تحتل لشدة الأول في عبادتهم . و آلهة ذلك نص حشد كانوا يزولون في كثرة ، سواء في مدن مصر الاغريقية أم في خارجها ، كانوا يقيمون لخدمة لآلهتهم الاغريقية . ويكاد يكون من المتحتم ان الديانة العقبة للاغريق طمسوا عن البطالة كانت الى حد عبادة آلهة اثنان التي

لا يزال قائما حتى اليوم في حي كرموز . وقد ذاعت شهرة مباني هذا المعبد بما كانت تضاهي من مكتبة وروفة وأمنية تقوم عليها الأعمدة والتماثيل ويؤدي اليها سلم كبير يتألف من مائة درجة .

ولا حيدال في ان الديانة الجديدة قد لجعت من حيث فوزها بعدة كبير من الاتباع فاليها لم تنتشر في مصر فقط بل انتشرت ايضا في أرجاء البحر الأبيض المتوسط ، ثم تخطت نطاقه ووصلت شرقا حتى الهند وغربا حتى بريطانيا . لكن التجاج الحقيقي لهذه الديانة يجب ان يقاس بمقدار ما تقلعت في تادة الغرض المتشود من اقامتها . فهل حققت هذا الغرض ؟ حقا ان المصريين عبدوا آلهة الثلاث المقدس ، ولكن في ثوبا المصري وباعتبارها

أنواعها ، والى حد كبير عبادة المذاهب ذات  
الأسرار التي كانت معروفة في بلاد الاغريق  
وبين اغريق آسيا وانتشرت اذ ذلك في كل  
أنحاء العالم الاغريقي ، مثل مذهب ديمتر  
ومذهب ادونيس ومذهب ديونيسوس  
تراجيريوس Zagreus .

ولا شك في أن الديانة الجديدة قد

تمت بمكانة كبيرة ، لكن لا كانت تلك  
المكانة نتيجة ل إعطاء الحكومة ، وكانت  
الديانة ديانة مفتوحة ، وكان البطالة قد أياحوا  
لسائر دعاياهم حرية العبادة ، وكانت الديانة  
الحقيقية لكل من المصريين والاعريق هي  
الديانة التي كان يألفها كل من المصريين ،  
فلا عجب أن الديانة الجديدة لم تحقق التمرق  
المشود من أقامتها .

## الفصل الرابع

### السياسة الاقتصادية

الزراعة - الصناعة - التجارة - النقد

من المصالح واستخدام كافة الوسائل الفنية للمروعة وتنظيم الانتاج نظيما دقيقا ، يستغل الى أقصى حد مجهودات الأهالي والزراة الأجانب تحت اشراف اذرة مالية بقطة ، وتداول النقد ، وتصدير المنتجات التي تفيض من حاجة البلاد ، واستيراد المسواد التي تشتقر اليها ، وتأمين طرق الملاحة .

#### أولا - الزراعة

ولما كانت الزراعة في مصر تتوقف على ضبط مياه النيل وحسن تصرفها ، فقد عني البطالة بشق القنوات واقامة الجسور وصيانة هذه المنفكات وقد عونا أيضا بإيصال المياه الى الأراضي المربثة ، واشترك الافريق آلتين جديدتين لهذا الغرض وهما الساقبة والطنبور ، وسارع المصريون الى الاستفادة من هاتين الآلتين الى جانب لبادولهم المريق . واستغل البطالة الأتراك مهسارة الافريق الهندسية ، وعراة المصريعين بالزراعة في استصلاح مساحات واسعة من الأراضي في الفيوم ، وكذلك في مناطق أخرى مشابهة لها . وهكذا توفر لدى البطالة من الأراضي

أملت اعتبارات كثيرة على البطالة سياستهم الاقتصادية ، فقد كان تحبب لعدائهم سياستهم الخارجية يتطلب 'مورا' طائلة لبناء الجيوش والأساطيل واكتساب ود الدول ورجال السياسة . وكانوا في حاجة الى المال أيضا لتنفيذ مشروعاتهم العمرانية . ولما كانت قد استغرت في البلاد عناصر جديدة من السكان وكان أغلب هذه العناصر من الافريق أو ممن لهم ميول افريقية فانه كان يجب توفير سهل العيش لهذه العناصر وسد حاجاتها .

وقد رأى البطالة ان الاستجابة الى كل مطالبهم كانت تقتضي زيادة الانتاج المصري ، ورفع مستوى المنتجات المصرية ، بحيث تسد مصر حاجة كل سكانها ، وتصدر مفاير كبيرة من منتجاتها لتكسب بها الأموال الخارجية ، لطيفي عليها الذهب والفضة وغير ذلك مما تختار اليه البلاد من المواد مثل الأعطاب والمعادن وازاء ذلك عمل البطالة على زيادة مساحة الأرض المنزرعة ، واستغلال الأرض المنزرعة استغلالا لم يسبق له مثيل ، والاكتثار

اليومية من غذاء وكساء : فإن البطالة عتوا  
 بتتية هذه الثروة ، وساعدهم على ذلك  
 وفرة المراعى فى البلاد ، ومن أجل تحسين  
 الأصواف المصرية استقدم بطليموس الثانى  
 من الخارج نوعا من الأغنام كانت لأصوافها  
 قيمة كبيرة جدا الى حد انها كانت تغلى  
 لوقايتها والها كانت تزرع بها بدلا من أن  
 تحرق ، وقد أولى البطالة عنايتهم كذلك الى  
 تربية النحل ، فقد كان هسله يستخدم حيث  
 استخدم السكر اليوم ، والى تربية الدواجن ،  
 وخاصة الحمام ، لأنه كان أرخص أنواع  
 النرف فى غذاء الأهالى ، وبغلا هو ذلك  
 كانت له أهمية خاصة بسبب غنى روثه  
 وولونه .

وقد تكلت جهود البطالة الأوائى بالتراجع  
 اذ كان أبرز نواحي التحياه الاقتصادية فى مصر  
 فى خلال القرن الأول من حكم أولئك الملوك  
 ازدياد مساحة الاراضى المزروعة ، وازدياد  
 العاصلات الزراعية بوجه عام والعسوب  
 بوجه خاص . لكنه كان من المحال وضد  
 طبيعة الأشياء أن يدوم هسله النهضة  
 الاقتصادية ، ولا أدل على ذلك مما نلاحظه  
 منذ آخر عهد بطليموس الثالث من نقص  
 مطرد فى مساحة الاراضى المزروعة وكذلك فى  
 الماشية وفى عدد سكان القرى . فقد كان  
 ضيقا أن تدهور الزراعة فى كنف ذلك  
 النمام المالى الكريه الذى وضعه بطليموس  
 الثانى ، لأنه أهمل كعلل الأهالى ، ولا سيما

ما سكنهم من افراء الكثرين من الاغريق  
 بالاستقرار فى البلاد . ولم يشغل البطالة وسما  
 فى استغلال الارضى الصالحة للزراعة استغلالا  
 لم يسبق له مثل : لكنهم تكلبا بضمفوا  
 التربة وضعوا نظاما دقيقا للدورة الزراعية :  
 بحيث كانت الارضى لا تجرد زراعة تلبية لثلاثة  
 أعوام متتاية ، وقد كان البهيد من بين المواد  
 التى اهتم البطالة باستيراد كميات وليرة منها  
 لمد حاجة البلاد ، وترتب على ذلك أن أغلب  
 الادوات الزراعية كالأس والعاروف والمنجل  
 والبلطة ومجل العربات أصبحت تصنع كلها  
 أو بطن أجزاءها من الحديد .

ولم يشغل البطالة جهدا فى تولى  
 الأسباب التى تكفل الاكتار من زراعة  
 الفسوب وغرس الكروم والفاكهة ومختلف  
 أنواع الأشجار : وتحسين أصناف كل هذه  
 المروحات بأفلى أنواع جديدة منها ، وادخال  
 أنواع عديدة من العاصلات التى لم يكن  
 مصر بها عهد من قبل . فتسعت الوثائق عن  
 زراعة القمح السورى والفارسى والقمح  
 البيرنلى ، وعن استيراد أشجار التين من  
 خيوس وليديا ، وأشجار رمان ايس لشرها  
 مذور ، وأشجار مشمش تشر فى الشام عربى ،  
 وكروم تسج أصنافا متعددة من العنب ،  
 واستنابت قوم ليكيا وكرب رودس وأنواع  
 كثيرة من الأرحار .

ولما كانت الثروة الحيوانية تخدم مطالب  
 الزراعة ومطالب الديانة ومطالب العبادة

الصناعات المصرية وأصبحت مركز الجاذبية الاقتصادية ، غير انه عقب وفاة الاسكندر الأكبر انتقل ذلك المركز الى المسالك الهيلينية العظيمة التي قامت في مقدونيا وكنسبا ومصر واستمرت أظفار الافريق ، فخرجت أقواهم اليها وشباركوها في اغراض صناعاتها وباقي نواحي حياتها الاقتصادية . وقد كان مصر نصيب كبير من أولئك المهاجرين الذين لرحوا اليها من مختلف بلاد شبه جزيرة البلقان وجرر بحر ايجة وآسيا الصغرى .

وقد كانت المشاكل التي واجهها البطالة في ميدان الصناعة مسألة لا واجهه في ميدان الزراعة ، وهي تولد سبل العيش لكثير من المهاجرين ، ورفح مستوى الصناعة ، وسد حاجة السوق المحلية والخارجية . فقد استقرت في البلاد عناصر جديدة كثيرة اخذها من الافريق أو ممن لهم ميول وعادات اعرابية ، وازدادت القوة الضاربة لدى الدول الهلينية ، وكذلك اقبالها على المنتجات المصرية . ومن أجل مواجهة كل هذه المطالب واستيراد ما تفتقر اليه مصر بحيث يكون الميزان التجاري في صالحها ، أنشأ البطالة مصانع كبيرة « واشتروا اتساج بعض الصناعات ، وفشروا على إنتاج ويبس البعض الآخر ، وعطوا أيضا على زيادة إنتاج صناعات عديدة ، وتحسين أساليبها ومراعاة ذوق المستهلكين .

عندما قام على تنفيذ مؤلفون غير أمناء مما طغى الأهالي الى الفرار من مزارعهم أو تراخيهم في أداء عملهم ، بل الى الثورة ضد وجه الحكومة . وحين كانت نيران الثورات القوية تسرى في كل أنحاء البلاد مران النار في الهشيم ، ووسط الاضطرابات المتتعة التي أثارتها الاضطرابات بين أفراد أسرة البطالة ورجعت البلاد أصداءها ، هضت وسائل الري بل عند الأهالي التي تخريبها . وزاد الطين بلة أهوال التخريب والتدمير والسلب والهبب التي لجست عن غزوة أنطيوخوس الرابع . وقد بذلت الحكومة كثيرا من المجهودات لاصلاح الحالة لكن التوفيق لم يعالها بوجه عام في وقف تيار التدهور الذي جرفه اقتصاديات البلاد .

#### لأنها - الصناعة :

كملت التهيئة لمصر العوامل التي جعلتها مهد الحضارة ، فبذمتها بوفرة في موارد الثروة وفي عدد السكان الذين استعمار الكثيرون منهم بالمهارة اليدوية فلا عجب أنه قامت في مصر منذ أمد بعيد صناعات كثيرة ناجحة لم يكن لها منافس في بعضها ومثل ذلك ورق البردي والمسحوجات الكتانية والرجاج والخزف اللامع وغير ذلك مما كانت مصر تصدره الى الكثير من بلاد العالم القديم .

لكن بلاد الافريق ما كادت تتقدم في شوط الحضارة حتى أخذت صناعاتها تنافس

الافريق محبها اليهم . فامتثلت أسواق العصر الهلينستي بأدوات مصنوعة على أساس الأساليب المصرية في الصناعة والزخرفة ، وإن كان طراز المستوعات افريقية ، ونجد أمثلة طرحة لذلك في الآنية الفخارية والزجاجية والمعدنية التي كشفتها الحفريات عنها .

والما كان يبين أن أكثر الصناعات المصرية بسبب طبعهم المحافظ واعتزازهم بتقاليدهم القديمة ورغبتهم في سد حاجة عملائهم الذين بقيت غالبيتهم العظمى بعيدة عن كل مظاهر الحضارة الافريقية ، لم تستههم بوجه عام فنون الصناعة الأجنبية . ولذلك استمروا في إنتاج سلعهم التقليدية ، فانه بين كذلك أن بعض الصناعات المصرية كانوا ينتجون أيضا سلعاً تقلد نظيراتها الافريقية تقليدا كاملا أو في بعض نواحيها فقط مثل الفسيفسك أو عناصر الزخرفة أو أساليب الصنعة لكنها مصطفة بالصيغة المصرية ، فالتأثير نجد ■■■ الآلة الفخارية والحجرية التي صنعها المصريون في عصر البطالة أصبحا كالتأثير ماكوفة بين الافريق . ولا يبعد أن ما حدث في هذه الصناعة قد حدث كذلك في صناعات أخرى .

وقد كان من بين نتائج ازدهار الصناعة في المدن تزوح الكثيرين من الريف إليها ، وكانت الاسكندرية في مقعدة المدن التي هربت إليها أعداد كبيرة من الصقال والصناع . وما يجدد بالملاحظة أن أرباب

وبفضل مهارة المصريين ومولعب الافريق استطاعت مصر أن تستجيب لكل مطالب الصناعة . وقد ساعد على ذلك أن تدلوا النقد وفر ديموس الأموال اللازمة للتوسع بالصناعة ، وإن الحركة العملية في معهد الاسكندرية غزت الصناعة بشرة تقدم العلوم وإن البطالة الثلاثة الأوائل لهتموا بتنشيط الصناعة اعتمادا لم يعرف له مثيلا في أي عهد من عهود تاريخها الطويل . وقد كانت من أهم الصناعات شيئا في عهد البطالة صناعة المنسوجات المختلفة وصناعة الزيت والنبذ والآنية الفخارية والمعدنية والأخشاب والورق والزجاج . وتستلح أن تبين اهتمام البطالة بسد حاجة الافريق من امتصاص صناعة المنسوجات الصوفية ونسج أنواع النبذ المصري واكتسار صيغته واستثناء زيت الزيتون من الزيوت التي كانت الحكومة تستخرجا ديهما .

وقد اقتبس الافريق في عهد البطالة فنون الصناعة التي كان المصريون قد بلغوا بها ■■■ عهد النراعة هذا يقرب من الكمال . وبطبيعة الحال كان شأن الافريق في مصر شأنهم في أي مكان آخر اتصلوا فيه بأساليب الحضارة الرفيعة القديمة ، ومعنى ذلك أنهم المتبصوا أولا فن الصناعة الوطني ، وتعلموا كل ما لم يصنوه منه قبل ، وكذلك أخذوا عنه بعض المظاهر وأشكال الزخرفة ، ثم صبغوا كل ذلك بالصيغة الافريقية وجعلوه موافقا لذوق



والبهار والأقمشة النادرة والأخشاب الثينة ،  
حما كانت تتطلبه بكثرة القوس الدبية وحياة  
الرعاية والثرف لا في مصر وحدها بل كذلك  
في عالم البحر الأبيض المتوسط . وفضلا عن  
كل ذلك كان البطالة يستعملون بروج تجارة  
مصر الخارجية للقرى بئر ، يربض يقيمون  
عليه سمائم قوتهم ، وكذلك لشمر نفوذهم في  
أرجاء العالم المتقدم ، فالتجارة دائما تسبق  
العلم . وقد أسلفنا ان البطالة كانوا يشهدون  
ضمان تفوقهم الاقتصادي بحسب مناسبتهم  
ولعب الدور الأول في السياسة الدولية .

وقد حالف التوفيق البطالة الأوائل ،  
لتمتعوا بحبة من الزمن بزيادة مياصرة  
وتجارية في بحر ايجة ، وأصبحت الاسكندرية  
من أهم المدن التجارية في العالم . وكانت أهم  
المواد التي تصدرها مصر الى أسواق بحر ايجة  
هي العجوب المذابة وورق البسمردي  
والنسوجات الكتانية ، فقد كانت مصر أكبر  
مركز لاتاج الفلان في شرق البحر الأبيض  
المتوسط ، كما انها كانت تحتكر صناعة  
لغائس البردي وتصديرها الى كافة أنحاء  
العالم القديم ، وكذلك كانت تستمر منذ عهد  
بيد بنسوجاتها الكتانية الدقيقة . وكانت  
بلاد الأفريق وأسبأ الصغرى تصدر الى مصر  
الكثير من منتجاتها ، وكان من أهمها الصغاران  
والأخشاب والعديد والنيبيذ والفاكهة  
والأسماك المجففة وزيت الزيتون ، لكن  
الأكوس الواقعة التي قرعها البطالة حدث

من كمية تلك الصادرات وجعلت الميزان  
التجاري في صالح مصر . ولا شك في أن  
البطالة كانوا يأخذون قسمة ثنية لقاء الجانب  
الأكبر من صادرات مصر ، بمعنى أن تجارة  
مصر مع بحر ايجة كانت تمدها بجانب كبير  
ما تحتاج اليه من الفضة .

ومنذ أواخر القرن الثالث تأثرت تجارة  
مصر مع بحر ايجة بثلاثة عوامل رئيسية  
وهي : أولا ، فباع مبادتها البحرية ، وثانيا ،  
انكسار الذي مضى اقتصادها من جسماء  
الاضطرابات الداخلية ، وثالثا ، ما أحرزته  
برجنم وبشيبا وبوتوس والقرم من التقدم  
الاقتصادي ، ولا سيما في الزراعة ، في خلال  
القرن الثاني قبل الميلاد . وليس معنى ذلك  
انه قضى على تجارة مصر مع بحر ايجة قطعا  
تماما ، إذ أن الفرائس تشير الى أن مصر كانت  
لا تزال تصدر الى هذه الأرجاء بعض الحبوب  
فضلا عن بعض منتجاتها الأخرى مثل ورق  
البردي والمنسوجات الكتانية والمصنوعات  
الزجاجية . وتبين انفران كذلك الى أن مصر  
أصبحت تستورد من بحر ايجة كميات كبيرة  
من الزيت ، لعله كان من زيت الزيتون

وقد نجح البطالة الأوائل في انهاء  
علاقات تجارية وثيقة مع الأسواق الغربية ،  
وجنوا من وراء ذلك فوائد مائلة ، لأن هذه  
الأسواق كانت تستطيع استيعاب الكثير من  
المنتجات المصرية ، وكذلك سدد الكثير من  
المطالب المصرية بد مصر بالخول من قرطجة



والهند ( وكفى العرب يحثرون التجارة الشرقية القادمة بحرا ) على العطور والبهار والبخور والمسك والقرقة والماج والأرز والأصناف والدق، والأسسباغ والفض والحسبر .

وكانت منتجات أعلى النيل تصل مصر  
أما عن طريق النيل أو طريق القوافل أو خطبة  
الكموم والبحر الأحمر ، أما التجارة الشرقية  
لأنها كانت تسلك ثلاثة طرق رئيسية في سبيلها  
نحو البحر الأبيض المتوسط : وهي أولا ،  
طريق التسال ، وكان يتجه من (أوسط آسيا  
نحو بحر فروزين والبحر الأسود واليسور  
والمردييل . وثالثا ، طريق المتوسط ، وكان  
يتجه من الهند برا أو بحرا إلى سيلوكيا على  
الدجلة ثم يتجه إلى دمشق وسور ، أو إلى  
طابكة ومنها إلى أفسوس . وثالثا ، طريق  
الجنوب ، وكان طريقا بحريا من الهند إلى  
المالدي في جنوب بلاد العرب أو جنوبها  
الغربي ، وكانت معها في عهد البطلمة أديلا  
وحزيرة سفطري ، وكانت المراكب الهندية  
تخرج حولتها في قبضة الأعراب ، ولقد كانوا  
يعرضون عند العرض على هذه التجارة إلى  
حد أنهم كانوا لا يسمحون للمراكب الهندية  
بدخول بوهاز باب المنجب .

ولما كانت تتخذ هذه الطرق الثلاثة تنبع  
في آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين وقبضيا ،  
وكان ملوك مصر يعرضون على وضع  
التجارة الشرقية في قبضتهم ، فإن البطلمة  
وجهوا عنايتهم في ثلاث القرن الثالث إلى

وصقلية ، وبالقصور من إيطاليا وصقلية ،  
وبالقصة من إسبانيا ، وبالقصور من بريطانيا  
عن طريق قرطبة ومساليا ، وبالحديد من  
إيطاليا ، وأدلة متعددة على أن علاقات مصر  
التجارية مع البلاد العربية كانت تنسب بوجه  
خاص في القرن الثالث قبل الميلاد حتى تسب  
الحرب البونية الثانية فشلت هذه العلاقات ،  
لكن بين من الفرائي المتعددة أنه بعد أن  
وحدت هذه الحروب أوزارها أهدت تأسست  
ثابتة تجارة مصر مع الأسواق العربية ، التي  
أحدثت منذ القرن الثاني مكانا بمصر أبعده  
وتعدت أهميتها لا تتجانب الصالح الهليني  
وسا يجدر بالملاحظة أن إيطاليا لم تكن عندئذ  
في حاجة إلى حبوب مصر فدر حاجتها إلى  
منتجات الصناعة المصرية ومواد الترف التي  
كانت مصر تسودها من الصومال وبلاد  
العرب والهند . وقد ساعد على وراش تجارة  
مصر مع الغرب تدفق قرطبة تدريجيا كاملا  
بعد الحرب البونية الثالثة .

وقد أظهر البطلمة اهتماما كبيرا بالتجارة  
مع الجنوب والشرق من أجل نصريف المنتجات  
المصرية مثل المنسوجات والزيت والأبنة  
الإيجائية والأسلحة وغيرها من معدات القتال  
فعلما عن التزايد المستمر من البحر الأحمر  
المتوسط ، وكذلك من أجل الحصول من  
أعلى النيل على العاج وجنود التماسيح  
وعجول البحر واللبنة ودريش النعام ، ومن  
بلاد الصومال ومن بلاد العرب الجنوبية

الاتصال بحرا ببلاد الثوبة حيث توجد مناجم الذهب ، وبلاد الصومال حيث تتوافر مواد لم يكن لمصر عنها غنى منذ عهد الفراعنة ، كان البطالة الأواخر يستمدون تنشيط التجارة مع بلاد الصومال وبلاد العرب الجنوبية والهند . أما حديد الصلبة فقد أصبح نحسب في موضوع نتيجة لاستثناء البطالة عن استخدام النيلة في جيوشهم .

وجسلة القول أنه في خلال القرن الأول من حكم البطالة ، أراء ازدهار الزراعة وتقدم الصناعة وتداول النقد ، وامتدح ملك البطالة وعنايتهم بالسيطرة على الطرق البحرية المؤدية إلى مصر وعلى منافذ طرق التجارة الشرقية ، والقاء العلاقات مع الدول الخارجية ، واهتت تجارة مصر الخارجية فوصلت منتجاتها شرقا حتى الصين وغربا حتى أسبانيا وشمالا حتى بريطانيا وجنوبا حتى أواسط أفريقيا .

وقد صاحب تدهور الزراعة والصناعة ، وانكماش ممتلكات البطالة الخارجية ، وضعف موقفهم في السياسة الدولية انكماش تجارة مصر مع بحر إيجة وكذلك مع الشرق . وأزاء نقص موارد مصر نقصا خطيرا وزيادة الاتيال على السلع الشرقية وجس البطالة الأواخر وخاصة بطليموس الثامن اهتمامهم لتنشيط تجارة مصر مع الجنوب والشرق . وقد حالت الوفود أولئك البطالة فعدا لتلك التجارة شأن كبير كان له أثره في انماش تجارة مصر مع الأسواق الغربية بعد أن كانت

الامتلاء على الأقاليم التي تجمع فيها المتأخذ . وعندما تلاشى سلطان البطالة من بحر إيجة وطردوا من آسيا الصغرى وسوريا وقلسطين وفينيقيا في خلال النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد ، اتجه اهتمام البطالة ولا سيما في عهد بطليموس الثامن عصب منتصف هذا القرن إلى البحر الأحمر ذاته للسيطرة على تجارة طريق الجنوب قبل بلوغها منافذ ذلك الطريق . ولم يثبت أن استند هذا الاهتمام إلى المحيط الهندي أيضا .

وقد جنى بطليموس الثامن أرباح الثمار من وراء الجهود التي بذلها لتنظيم الطريق الجنوبي وأمينه إذ ازدهرت باطراف مقادير التجارة الشرقية التي كانت تمر بمصر في عهده مما كانت عليه في عهد مله وقد ساعد على رواج تجارة مصر الشرقية عدة عوامل وهي : ( ١ ) الاتيال المتزايد على السلع الشرقية ( ٢ ) كلف طرق الاستفادة من الرياح الموسمية مما يسر الأبحار مباشرة إلى الهند دون الالتجاء إلى الأهراب ، ( ٣ ) ضعف سلطنة السبوكين بإطسراه ( ٤ ) العيسار مملكة سبأ في عام ١١٥ ق . م .

وهكذا أضحى البطالة الأواخر مسيطرة البطالة الثلاثة الأوائل على تنظيم الطريق البحري بين مصر وروغاز باب المندب ، لكن بينما كان البطالة الأوائل يستمدون من وراء ذلك تيسر صيد النيلة واستناسها ونقلها من أجل استخدامها في جيوشهم ، وضمان

العرب البونية قد شلتها وألحقت بها ضررا خطيرا.

رأى - التلوي :

حين كانت المدن الاغريقية وبلاد الفرس  
تستخدم النقود منذ عدة قرون ، لم تكف  
مصر عن تنظيم معاملاتها على أساس التبادل ،  
الا ان هذا لا يبنى أنها كانت تهمل تماما  
استخدام النقود . لقد كشفت الحريات في  
قراطيس وسنود وبنى حسن في طبقة من  
الأرض متباعدة على العهد المقدوني عن نفوذ  
الغريقية وقارسة . بعضها أصلية وبعضها  
تقليدية محلية . مما يدل على أن هاتين  
المنطقتين كانتا متداولتين في مصر وشكأن  
قبعا قبل الفتح المقدوني ، وإن كان تداولها  
محدودا ، ويبدو أنه كان مقصورا على  
الانثرون والفرس . لقد كان ملوك مصر في  
العصر الساسي يستخدمون جنودا مرتزقة  
من الآخرين كانوا يأخذون أجرهم نقدا ، وفي  
عهد الفرس كانت توجد في مصر حاميات  
لأرسية وكانت مصر تدفع لحكامها الجند  
جزءا نوعا من الصوب وجزءا نقدية .

ورمى الى الاسكندر الأكبر والبطلة  
التصل في ملكة اغنى تداولها ينتشر في  
مصر رويدا رويدا وان لم يحضر كلمة على  
نظام التبادل . وتآلف المسلة الجليلة من  
أشود ذهبية وقود فضية وقود برونزية .  
ومما يجدر بالملاحظة ان التمسود الذهبية  
والقود الفضة نوعان : أحدها عادي وكان

يسلك في عهد الملك الذي تحصل صورته  
والآخر فذكرارى لتخليد بعض الملوك السابقين  
وكثيرا ما تجعل العملة الفضية المادية على  
الوجه مسورة بظلمبوس الأول مؤسس  
الأسرة ، واسم بظلمبوس الذي حملته كل  
ملوك هذه الأسرة . وبقيعة الجبال تحصيل  
الثقود الذهبية والثقود الفضية غير المادية  
سور مختلف ملوك وملكات البطالة الذين  
سكت هذه الثقود لتخليد ذكراهم . وتعمل  
الثقود البرونزية على الوجه في حالات كثيرة  
صورا مأخوذة من الأساطير ، كانت أغلبها  
رأس زيوس آسود ، وفي بعض الحالات رأس  
الاسكندر أو أحد ملوك أو ملكات البطالة .  
وقد كان الطابع الذي يميز كل ثقود البطالة  
نبيا **■** آفة **■** ودة أغلبها فذكرارى  
بشور على النهر ويتألف من سر واقف  
على صاغة ، وأمامه أو فوق جناحه قرن  
واحد أو قرنان للرخاء ، ورى على ظهر  
الثقود البرونزية التي سكت عندما كان  
ابولايوس ولنايوس بنوليان الوصاية على  
بظلمبوس السادس سرا واقفا على صاغة  
وتحت جناحه الأيسر صولجان وإلى يده  
زهرة القوسى التي تعتبر أهم طابع لثقود  
بظلمبوس السادس البرونزية . وشيز للسر  
الثقود الفضية اثني سكتها بظلمبوس الثامن  
عشر وابنته كليوبتره السابعة بوجود فرع  
فخلة تحت الجناح الأيسر للسر وتاج إيزيس  
أمامه .

## أمثلة لتعود البطالة :



٢



١



٥



٤



٣

- ١ - قطعة ذهبية تحمل على الوجه صورة نصف بطليموس الرابع ، وعلى الظهر نسرا والفا على الصاعقة .
- ٢ - قطعة ذهبية تحمل على الوجه صورة نصف بطليموس الخامس ، وعلى الظهر نسرا والفا على الصاعقة .
- ٣ - قطعة فضية من عهد بطليموس الأول تحمل على الوجه رأس الاسكندر ، وعلى الظهر ألهة برونائوس .
- ٤ - قطعة ذهبية من عهد بطليموس الأول تحمل على الوجه رأس بطليموس الأول ، وعلى الظهر نسرا والفا على صاعقه .
- ٥ - قطعة ذهبية سكنت تذكارا لارمستوني الثانية ، وتحمل على الوجه رأس هذه الملكة ، وعلى الظهر قرص القرصاء .

وقد كانت العملة الفضية أكثر عملات البطالة شيوعاً على عهد البطالة الثلاثة الأوائل ، وحتى منتصف عهد بطليموس الثاني لم تكن العملة البرونزية سوى عملة رمزية ، تكن في العهد الثاني من عهد هرودا الثلاثة سيك كميات كبيرة من العملة البرونزية الثقيلة الوزن ليستخدما الناس بحسب قيمة ما فيها من معدن . وتفسير الأوله الأثرية والبردية التي ترجع الى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد الى أن العملة البرونزية الجديدة قد صادفت نجاحاً كبيراً .

ومنذ الفصح المقدوني كاسب العملة بسكت في مصر على قاعدة النظام الإيبيكي ، لكن في ٣٠٥ ق . م . ( مسيحي قليلة المصدر عملين ) لديه وذخيرة ، أهل ورا من السنة القديسه لتتيط التجارة الخارجية وانوليق بين المنة واسعار افعادن النقيسة التي كانت زداد باطراد في حالة العضة وتنافس في حالة الذهب . ولم تكن قاعدة العملة الجديدة اتفاقاً تاماً مع قاعدة أي عملة معروفة عندئذ ، لكنها كانت أقرب جداً من قاعدة النظام برونسي . وبعد ذلك أفضى بطليموس وزن العطنين الفضية والذهبية ثابته باتخاذ قاعدة العملة التينيقية . وقد احتفظ البطاللة حتى نهاية أسرهم بهذه القاعدة التي ابعمها أيضاً امبراطوريتهم البحرية وكذلك كل البلاد التي صنعت لتعودهم بأي طريقته كانت . وحتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد

كانت العضة هي القاعدة الأساسية للعملة انبطلة . لكن عندما قلت العضة التي كانت مصر تحصل عليها من تجارتها مع بلاد الاعريق وغرطينة نتيجة لانكماش تجارتها الخارجية بسبب سوء حالتها الاقتصادية ، وضاع ممتلكاتها الخارجية ، وتطلى سيطرتها على الشرق اشرقية ، ودخل النصر البويبة الثاني مرحلتها العنسية ، اضطرت مصر الى اتخاذ البرونز قاعدة أساسية لعمدها . وإذا كان عهد التميمير قد أفضى الى ازدياد تداول العملة البرونزية مع ما يقابل ذلك من نقص تداول العملة الفضية ، فإنه لم يؤد الى القضاء كلية على قاعدة الفضة .

وما كانت حال البلاد الاقتصادية قد احدثت تسير من سوء الى أسوأ ، ونقصت بما لذلك موارد البضاعة يسما لم تنفسي الترامالهم ، فالحاجم لتخفيف هذه الالتزامات على حساب سكان البلاد لجأوا الى زيادة الفضة الاسمية للعملة البرونزية ثلاث مرات منذ حوالي عام ١٨٢ ق . م . حتى سعوز دولتهم ففي آخر عهد بطليموس الخامس بلغت الأجرور والأسعار ٦٢٠ مرة كالأجرور والأسعار الماثلة في عهد بطليموس الثاني والثالث . وعند منتصف القرن الثاني ارتفعت الأجرور والأسعار الى ٢٤٠ مرة مثل ما كانت عليه في عهد بطليموس الثاني والثالث . وفي خلال القرن الأخير من حكم البطاللة بلغت الأجرور والأسعار ٤٨٠ مرة مثل ما كانت عليه في عهد بطليموس الثاني والثالث .

## الفصل الخامس

### النظام المالي

الإدارة المالية - نظام الأراضي - تنظيم الصناعات والحرف - نظام التجارة -  
صرايب شتي - نظام جباية الضرائب

#### أولا - الإدارة المالية

يجدر بنا أن نذكر 'أولا' إلى أن نظم البطالة المالية كانت شعبة في جوهرها ، فقد كانت تستند إلى أن الملك صاحب الأرض وما عليها وما في باطنها ، وإلى أن الأهالي يطيعون هذا الملك الإله طاعة عمياء . ومع أن البطالة صبغوا هذه النظم بصبغة أفريقية فورية تنصح في دقة صياغتها واستلزاماتها وحريصة تنظيم الضرائب وأثرها في الإدارة المالية على موارد الدولة المختلفة ، وخاصة في نظام الحساب والمراجعة الذي لم يكن لمصر عهد بمثله من قبل ، إلا أن هذه النظم أفلحت إلى حد كبير جوهر النظم الأفريقية ، وهو يتلخص في مبدأين أساسيين : الإنشلاك العنصر وحرية النشاط الاقتصادي .

وقد كان يهتم بعضايات الدخول والخروج خزانة مركزية أطلق عليها اسمهم 'خزانة الملك' . وكان مدير هذه الخزانه يدعى ديوميكتيس ، ويسكن تشييه بوزير المالية عندما « فقد كان مسؤولا عن كل الإدارة

المالية في مصر وفي كل مستناتها الخارجية . وكانت اختصاصات هذا الوزير فضفاضة واسعة ، فهو الذي كان ينظم شؤون مصر وفي ولاياتها ، ويمين موظفي الإدارة المالية ويرافهم ويغضب المتقصرين منهم ، وتسميد سلطاناه على كل الدين يشتغلون باستغلال موارد الدولة مثل الأراضي والاختراعات .

وتستند مملسمات كثيرة من وثائق زينون البردية من اهلونيموس وزير مالية بطليموس الثاني وبسند ان اهلونيموس عين في منصبه الكبر حوالي عام ٢٢٢ ق. م. ، وانه بقى فيه حتى وفاة بطليموس الثاني ، وانه خزن وسودب املاكه قبل العمام الخامس من عهد بطليموس الثالث . وبين ان يوضع مسصوص من وثائق ذيسموراد اهلونيموس لم يقتصر شأناه على مهام منصبه فقط ، فهو لم يكن وزيرا فحسب بل كان أيضا تاجرا ، وصاحب غباغ ومصانع وملك أسطولا بحريا وآخر نهريا ، وتعمل

ايرونويس كان في طليعة أولئك الوزراء الذين لا يكتفون بالاضطلاع بأعباء مناصبهم من مكانتهم ، اذ تعدلوا الوثائق عن طوافة بالمديرية من أجل الاشراف على أعمال مروضيه والب فيما يتعرض عليه من انتفاكس . وكان ينبغي في بعض الأحيان ، على العاصمة بضعة أشهر ، ولصعوبة في هذه الرحلات حاشية كبيرة من الأعضاء والموظفين فقد كانت لوزير ائالة حاشية تبدو كأنها صوره مصرة بعائيه الملك .

وكان يوجد الى جانب وزير المائيه وتعب اشرافه مرفيع عام للمسابد والاحياء anlogia كان له مشيرون محليرون في المديرية ، وكان لوزير المائيه مساعدون كتيرون hypodorsal يهرون كل واحد منهم كان يفتن الاشراف على مشيرون بسطه مية تشل عده من المديرية . وكان كلالاره المائيه المركزية مشيرون كتيرون يشيرون في المديرية والائاميه والفري ، ويقتضي كل منهم بهام مية تحت اشراف دقابه دقيقه . وكان هذا الجهاز المعقد يفتن انموله بسط رقائتها على مختلف مراقي البلاد الاقتصادية ، وتطبق النظم التي وضعت لتلك المراقب ، ويصح كافة البيانات المخصصة بالموارد التي تستدها الدولة من كافة ائحاء كل مديرية ، وضمان الحصون على كل ما تستحقه الدولة من تلك الموارد .

وقد لجأ البطانة الى وسائل مختلفة

لضمان أداء الموظفين واجباتهم بامانة ، مثل حلف اليمين ، وتعيين مختلف المراقب ، لكن هذه الوسائل فشلت في تحقيق المباله المشروعة . ويرد ذلك الى ثلاثة عوامل وهي : أولا المشيرون المقتاة على اعانهم عن دخل الموت ، وثانيا الرشاوي التي كانوا يقدمونها لمشيروني من أجل الحصول على مناصبهم ، وثالثا السلطة المطلقة التي كانوا يتمتعون بها على شعب دولة الحكم الأعلي وأخضعتهم القصور فلا يجب اراء ذلك ان السوء المشيرون اسفلل سلطانهم الى حصة اضم أصبحوا في الواقع أشد خطرا على البطانة من الناصح الذين وقف عليهم المطام وهيرا كاتريون لعرش ائدتها في وجه البطانة .

#### ثانيا - نظام الاداري :

لقد مررنا ان البطانة كانوا يصيرون مصر شمية لهم بحق الفتح وحق الملوك الاعلى ولقد ترتب على ذلك ان الملك كان من الساجه النظره المائيه الوحيد لهذه الصيعة ، ومن ثم يمكن تقسيم الأرض الى عهد البطانة فسين رئيسين وهما : نوض الملك ، ونوض انعطاه .

#### ١ - نوض الملك :

وتشمل كل أرض مصر الصالبة للزراعة التي كان الملك يمشرها مباشرة بتأجيرها لافراد العتس لزارعين كانوا يدفعون مزارعي الملك . وكانت علاقات هؤلاء المزارعين بالملك تركز على عقود كانت في القرن الثالث قبل الميلاد لمدة قصيرة الأجل ، لكنه

كان من بين النتائج التي ترتبت على تدهور الحالة الزراعية وقرار المزارعين من أراضيهم اطالة مدة العقود .

ومع ان مزارعي الملك كانوا رجالا احرار ، الا انه كان يتعين عليهم زراعة الأرض التي استأجروها وعدم مبارحة فرائض ملوأل موسم الزراعة وحتى يسددوا لطقت جميع التزاماتهم قبله . وغضلا عن ذلك فانه لم يكن مسموح المستأجر أن يورع الأرض التي استأجرها كبا يشاء ، وانما وفقا لتعليمات التي كانت الحكومة تصدرها سنويا لتحديد بقشفاها المساحة التي يجب زراعتها في كل مديرية تمعا وشعبا ، وأذرة وكثاا وهبوبا وبنية . ولكني تظن الحكومة زراعه الأرض وجوده البذور ، كانت تعرض على المستأجر أن يقرض منها البذور لقاء عائلته فذرها « بـز » . وكان يتعين على المزارع أن يصنع المحصول وينقله إلى الجرن الملكي وينسبه تحت رقابة حراس مسئولين ، والأليس من شيا قبل أن يأخذ الملك كل ما يستحقه . وكان ذلك عبارة عن الايجار السنوي مضافا إليه أجر استخدام موائى الملك والفائدة عن قرض البذور وسلملة من الضرائب « فكان لا يتبقى للفلاح بعد ذلك الا أقل من نصف المحصول في مقابل كل ما انتفع من جهده . فلا يجب انه لم يكن سعيدا راضيا عن حاله .

وعندما تدهورت الزراعة ازدادت حالة مزارعي الملك سوءا حتى ان الكثيرين منهم

لم يجدوا منفذا أمامهم الا ترك الممسبل والعرب . وعندما أعيت الحكومة شتى الحيل لقसान استغلال أرض الملك ، اضطرت إلى اللجوء إلى الاكراه لتحقيق مبيتها ، لكنها بقدر ما أوغلت في استخدام هذه الوسيلة استفحل داء حرب المزارعين حتى أصبح داء « شيشيا » في كل أنحاء مصر .

#### ٢ - الأرض المملوكة :

ويبدو أنه لم يكن لمملوكة « أرض المملوكة » مدلول متفق عليه دوما حتى أوأأمر القرن الثاني قبل الميلاد عندما أصبح تضمحل الأنواع التالية من الأرض :

#### ١ - الأرض المقدسة :

كانت ثروة المعابد موعنة ، وكان النوع الأول ملكا خاصا للآلهة . وكانت أهم أملاك الآلهة مبنية عن الأرض التي كان الملوك يسوقونها منذ ظأير الزمن لمختلف الآلهة ، حتى أصبحت لأولب الآلهة ممتلكات واسعة كانت مصدر ثراء الكنيسة ومحد أسباب قوتهم وفروهم . لكنه كان كفة كل معبد يتولون ادارة أرض مبيروده . أي أن أسند البطالة الأوائل داره « واسمى المصايد المصرية إلى الحكومة ايجعلوا الدمل المادى سجنيا مصلنا على رقاب الكفة يضمن مطبوعهم لمملطانهم . ولا بعد أن البطالة كانوا يستفيدون أيضا ماديا من وراء قيام الحكومة بادارة أرض المعابد . وعلى كل حال يبدو أن الحكومة كانت ترد الجانب الأكبر من دخيل راضى



المعابد في شكل المرتبات التي كانت تدفعها للكهنة . وبين أنه حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ، ازدهر ضعف البطالة والواحد واثنين . فعوض الكهنة ، استرد رجال اثنين إدارة الأرض المقدسة .

أما النوع الثاني من ثروة المعابد فكان الكهنة يملكون أو يتبعون بدسطة للقبائل بشرى العبادة . فقد كان يعمل ببعض مناصب الكهنة موارد مختلفة تدور على شاعلى تلك الشاخص دخلا مينا . ويوضح أنه قبل عصر البطالة كان الكهنة يستطيعون التصرف في دخل هذه الموارد بالبيع أو التوريث ، لكن البطالة جعلوا الحكومة هي التي تتبيع مناصب الكهنة وما يتبعها من الموارد دون أن تعطى المفسرين حق التصرف في تلك الموارد . وقد حرص البطالة على هذا الحق حتى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد ، ومع ذلك تشير بعض الوثائق إلى أن الكهنة درجوا فعلا على بيع مناصبهم ورهنها وأجبرها وتقسيمها وتوريثها .

#### ب- الإقطاع العسكرية :

لقد خلف القول أن البطالة ، ولا سيما أولئك ، اعتمادا إلى عدد كبير على مشغولين من الإيجاب في بناء قوتهم العسكرية . وقد درج البطالة على مع تولدك المنسوجين إقطاعيات كانت تشير سيطرة مرتباتهم في وقت السلم . وكان البطالة يتوخون من وراء ذلك : أولا ، ضمان سد حاجتهم إلى الجند المدربين

كلما اقتضى الأمر ذلك ، دون تحمل نفقات الاحتفاظ بجيش قائم . وثانيا ، ادخال وسائل اقتصادية جديدة في مصر . وثالثا نشر الحضارة الاغريقية في أنحاء البلاد

وكانت مساحة الإقطاع تختلف حسب مرتبة الشخص ، وحل هو في فري المضاة ، ثم فرق الفرسان ذات الأرقام ، ثم فرق الفرسان الفوية ، وحل هو في الفرق النظامية ، ثم في فرق الجنود المرتوقة ، أم في الفرق المصرية .

وفي أول الأمر كان الإقطاع ملكا للتاج ، فكان الملك يستطيع استرداده ولا سيما إذا أهمل رب الإقطاع في أداء واجباته أو توفي . ولما كان من مصالح الملك أن يخلع رب الإقطاع المولى جندي جديد في الجيش وفي الإقطاع ، وكان من صالح أسرة رب الإقطاع أن تشير إلى استغلال الإقطاع ، أدت على هذا النحو صيغ ملك الملك ورهاب الإقطاعيات إلى جعل الإقطاع وراثيا .

وفي القرن الثالث كان الملك يسمح الإقطاعيات عادة من الأرض التي استصلحتها الحكومة ، لكن عندما تطورت ملكية كثر من الإقطاعيات إلى ملكية خاصة ، وأفضى تنهون الزراعة إلى خمس مساحة الأرض الفرعة ، لم يكن هناك مجال لأعطاء الجنود الجند سوى تلك الأراضي التي أصبحت لسبب ما خلال منين الاضطرابات العسية في القرن الثاني قبل الميلاد ضيقة أو غير متمصرة . ولما لم يكن لكثير من أبواب

الأرض الصالحة للزراعة في الضياع الموهوبة كانت تعامل مثل أرض الملك ، أى أنها كانت تدفع للتأجير اجباراً وضرائب .

#### د - أرض الامتلاك الخاص :

تتبع من الوثائق انه كانت توجد في جهات متفرقة في مصر مساحات كبيرة من الأرض يمتلكها الأفراد . تشير الوثائق الى انه في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد كانت زراعة الكروم وبساتين النخلة في الأرض انشئ هجرت بسبب جفافها أو قتلها المساء عليها تكسب الزراع حق امتلاك حصته الأرض امتلاكاً تاماً . ولا يمد ان هذه القاعدة كانت تنطبق منذ القرن الثالث أيضاً . وكان فيلخواد يمتلكون كذلك امتلاكاً حراً أراضي البناء وما عليها من مبان . ويبدو ان البطالة قد عملوا منذ بداية عهدهم على ارياد مساحة أرض الامتلاك الخاص . فقد كان ذلك يساعد على اتساع مساحة الأرض المزروعة ، وعلى نشر لحرس الكروم وبساتين النخلة . وعلى وجود طبقة من اصحاب الاملاك تد البطالة بأعداد وقيرة من الموظفين والمترجمين وضابطين الذين يسكن الريف على ممتلكاتهم في حراسة خدم الوفاء بالتزاماتهم .

وتبين من الوثائق انه كانت توجد في جهات متفرقة ، وخاصة في الوجه القبلي ، مساحات من الأرض تزرع محسوبة ويمكن التصرف فيها بالبيع والشراء والرهن

الاقطاعات غير الزراعية ، وكانوا كثيراً ما يدعون للخدمة العسكرية ، أو القسام مبادل الضمانات في مصر أو في الخارج ، أو لتقيام بالتجارة ، فانهم كانوا عادة مضطرون تأجيرها لمزارعين مصريين .

والى جانب الاقطاعات كان الجنود يمنحون ممتلكات . وفي القرى الجديدة كان الملك أو اصحاب الضياع يبيعون لهم بيوتاً ، أما في المدن والقرى الجديدة ، فان الجنود كانوا يمنحون مساكن . يرسوت الإلهامى . وإذا كان المصريون ، باعتبارهم الغالبية العظمى من سكان البلاد ، قد حصلوا الحالب الأكبر من عبء ابراء الجنود ، فإن الإغريق كانوا يشاؤكونهم تحمل هذا العبء منذ القرن الثالث قبل الميلاد .

#### ج - أرض الهبات :

وهذه الأرض نوعان ، كان أحدهما عبارة عن أرض يتم دخلها بمشاة مرتب موظف الحكومة الذى منح هذه الأرض . أما النوع الآخر فكان عبارة عن الضياع الكبيرة التى ألحقها البطالة على اصحاب الحقول لديهم من كبار موظفيهم المدليين والعسكريين ، الذين انصرفوا بولعة النشاط ومن التدمير .

وتشير الوثائق الى أن الهبات قد تنسل أرضاً زراعية فقط ، أو أرضاً زراعية وقرية واحدة ، أو عدة قرى فقط ، والى أن الهبة كانت منحة شخصية لا يجوز التصرف فيها بالبيع أو الرهن أو التوريث ، والى أن

كانت لهذه الصناعة شأن كبير في مصر منذ عهد بعيد ، لكنها ازدادت شأنا في عصر البطالة ، فقد صاحب امتصلاخ الأرض البور زراعة مساحات واسعة نباتات زيتية ، ووجه البطالة عتية كبيرة التي تنظم هذه الصناعة تنظيما دقيقا ، لزيادة الإنتاج وتحسين الصنف ، ومعلوماتنا عن هذه الصناعة تأتي منها عن أي صناعة أخرى .

وتبين من الفوائض الخاصة بتنظيم هذه الصناعة أن البطالة كانوا يتوخون ثلاثة أهداف رئيسية وهي : أولا ، قصر استخراج الزيت على الملتزمين الذين استروا من الحكومة حق النزاع صناعة الزيت من السب أو الخمر أو القرم ، لكن الحكومة كانت تسمح للمعابد بأن تصنع من زيت السمسم في خلال شهرين ما يحتاج إليه في عام واحد . وثانياً ، ألا يستخرج أحد الزيت لخدمة إلا بعد التمسك بالحقبة وفرضت عليه عقوبات صارمة ، وذلك ، أن تتوفر المسادة الخام والأيدى العاملة لدى ملتزمي هذه الصناعة فقد كانت تحدد كل عام مساحة الأرض التي تزرع نباتات زيتية ، وتفرغ على الأهالي بيع السمسم كله بسعر معين للتمتع صناعة الزيت في المنطقة ، وحظر على عمال صناعة الزيت ممارسة القديرة إلى مدينة أخرى .

وكان الملتزم يشتري حق الالتزام في

الثبوت ، ومع ذلك لا نستطيع اعتبارها ملكا حرا لأربابها لهذه أسباب ، أهمها أن زوابع هذا النوع من الأرض كانوا يدفعون عنها اجورا للناس ، وإن الملك كان يستلم مسترداد هذه الأرض . وإزاء ذلك لا يمد أن أرباب هذه الأرض كانوا لا يملكون أرضهم ملكا حرا وإنما يملكون فقط حق استغلالها ويستطيعون التصرف في هذا الحق بما جعل هذا النوع من الأرض شدة الشبه بالأرض الملكية امتلاك حرا .

### ثانياً - نظم الصناعات والحرف

بعد كانت في حوزة البطالة كميات وفيرة من المواد الخام ، كما كانت تحت امرتهم أعداد كبيرة من الصناع المهرة ، وهكذا توافر لديهم الضمان الأساسي للثبات بكميات إمداد أرباح وفيرة من الصناعة . وقد ترتب على استقلال هذه الصناعات استقلالاً منظماً دقيقاً إلى ما يبرهن باحتكارات البطالة أو بالاعتصام الموجه في مبادئ الصناعة البطلمية . فقد كان البطالة يحتكرون بعض الصناعات والحرف احتكاراً كلياً ، مثل استخراج الزيت والملح والجلود واستغلال المناجم ، المعاجير ودناعة العلو والمصارف المالية ، وشرفون على بعض الأغصان ويحتكرونها احتكاراً جبرئياً مثل صناعة النسيج والورق وخدمة النحل والماشية والدواجن . وسنكتفي في هذا المقام بالكلام عن صناعات الزيت والنسيج وعن المصارف المالية .

للحكومة كمية معينة فقط من الأقمشة والملابس التي أنتجتها . ويبدو أن حملة الكمية كانت نسبة معينة من إنتاج الأنوال العامة . وفي حالة النسيج من السداد كان يتم دفع ثمن المنسوجات بحسب ما حددته اللوائح . وكذلك في حالة هبوط المنسوجات عن المستوى المطلوب كانت تفرض غرامات من أجل المعاقلة على مستوى الصناعة . وبغلا من ذلك كانت الحكومة تفرض على الناسجين دفع ضريبة عليها كانت حربية الترخيص بمزاولة النسيج .

ولما كانت الحكومة لا تشتري كل محصول الكتان ولا تفرض على الناسجين أن يقدموا لها كل منتجاتهم فلهذا تبين من ذلك أنها كانت لا تحتكر هذه الصناعة احتكارا كليا ، على صناعة الزيت ، وإن كان تشرف عليها وتسيطر عليها . ولا بد من أن الكتان الذي كان تفرض بيعه لها بسعر مبدئي كان يصنع في مصانع ملكية غير مصانع الأهالي .

ويمكننا أن تبين ما أوردناه أن تدخل الحكومة من الصناعات التي كانت لا تحتكرها احتكارا كليا كان عبارة عن نسبة معينة من إنتاج المستعملين بها ، وبشبهة لمزاولة حملة الصناعات .

### ٣ - المصنوعات الخالية :

ويبدو أن عملية استبدال النقود وسائل الأعمال المصرفية قد وجدت في بلاد الأغرير

منطقة معينة لمدة عامين ، ويتميز عليه عدم استخراج الزيت من كل الحبوب الزيتية التي يشتريها ، بل اختزان كمية معينة منها بمثابة احتياطي للعام التالي .

ولكن يستفيد الملك من احتكار الزيت إلى أقصى حد لم يتوان في حماية الانتاج الداخلي من المنافسة الخارجية الشديدة : فقد كان سعر الزيت في العالم الاغربي أقل بكثير منه في مصر . ولذلك قرر ألا يسمح لأحد باستيراد الزيت من الخارج للمنافسة فيه أو أكثر من استهلاكه الفصص لمدة ثلاثة أيام ، وفي هذه الحالة كان عليه دفع ضريبة تعادل ٥٠٪ تقريبا من سعره : لكي يتبين أنه في القرن التالي قبل الميلاد ولعبت الحكومة العظم الذي كانت قد فرضت من قبل على استيراد الزيت الأجنبي . وقد سار لأرباح التي كان البطالة يجنوها من وراء احتكار صناعة الزيت وسع بسبعين في المائة في حالة زيت السمسم و ٣٠٠٪ في حالة زيت الحنظل .

### ٤ - صناعة النسيج :

ويبين من الوثائق المختلفة أن الحكومة كانت تصدر مباحة الأرض التي يجب زرعها كقانا ، وتضمن أن يباع لها بسعر معين مقدار معين فقط من محصول الكتان . وكانت الحكومة تبذل قصارى جهدها حتى يراون النسيج في كل مديرية أكبر عدد ممكن من الأنوال . وكان على كل مديرية أن تقدم

الملكية في القرى وفي المدن دضع ما تسلمه من الأموال العامة الى المصارف الملكية ، كل في منطقته كل عشرة أيام . ومن ثم يتبين لما ارد بيع التزام أعمال المصارف كان يمثل الأرباح التي يجنيها الملك من صفى دخله .

وقد كان مديرو المصارف أو علي الأصح مقررهم ادارتها من الأفسريين ، وكذلك كان أيضا عملهم . ولعل التصار أعمال المصارف وحركة تعاملها على الاغريق يرجع الى قسصر خالية المصريين وقلة التهم باستخدام النقود . ولا بعدد أنه كان يرجع كذلك الى أن المصريين كانوا يفضّلون أن يعطوا حصد آبائهم وأجدادهم ويضموا أموالهم لى حماية الإلهة . فند كانت المعابد منشآت مالية هامة تهو بالكثير من أوجه نشاط المصارف الحالية .

#### رابعاً - نظام التجارة

##### ١ - التجارة الداخلية

وتبين من الوثائق أن تعارة المصوب احدثالية في مصر كانت حرة فمما هذه الكمبات التي كان الملك يهتم على بعض الروابع أن ييسوها اياد بسر معين ليسد بها فيما يبدو حاجة المديرات التي تشتت الى ما يتكفها من الجيوب . وسنرى ذلك ان الاتجار في الحبوب الغذائية كانت تعديه بعض القيود ، ومن ثم لا يمكن القول بأنه كان حراً حرية مطلقة .

أما الجيوب الزيتية فنن الحكومة كانت تفرض بيع كل محصولها بسعر محدد للتمري صناعه الزيت . وكان حق بيع الزيت يباع

منذ أخذ تداول النقد ينتشر وبمع في تلك البلاد . أما مصر فانها لم تسرق المصارف المالية بأذن معاني الكلمة الا عندما نشئت في كل أرحائها بعد الفتح المقدوني .

وكان وزير المالية يشرف على المصرف الملكي الرئيسي في الإسكندرية وفروعه في عواصم المديرات والإقاليم والقرى . وكانت توجد صلة وثيقة بين هذه المصارف الملكية وبين فروع الخزنة الملكية في أنحاء البلاد ، لكن يجب عدم الخلط بينهما لأيهما وإن اتفقا في الاسم كان لكل منهما اختصاص معين . فمما كانت المصارف الملكية تقوم بالأعمال المصرفية العادية ، أما أعمال فروع الخزنة الملكية فانها كانت مقصورة على تسليم كافة الأموال الأميرية على اختلاف أنواع مصادرها سواء من الأهالي أم من الملتزمين أم من الدولة المكلفين بعضهم . وعندما أنشئت في القرن الثامن قبل الميلاد إدارة حساب الملك الخاص أدى ذلك الى إنشاء خزائن جديدة تدعى « خزائن الحساب الخاص » الى جانب الخزائن الملكية .

وكان الملك ييسع حق إدارة المصارف الملكية للتمريه بمقتضى عقود كانت مبدع مرانها أحياناً ستين وأحياناً خمس سنوات وأحياناً أكثر من ذلك . وكان الملك يفسن للملتزمين احتسكار بيع النقود وشراؤها واستبدالها ، ويخدم هذه المصارف على الأقل جانباً من أموالها . فند كان يمين على الخزائن

الزيت والمنسوجات ، ومن المرجح أيضا الملح والمعادن والطور . أما انفسم الناس فكانت يشتغلون بالبيع بالجزء ، وكان يبيعها الأشخاص الذين اشترؤا من الحكومة حق انتاجها وبيعها . فقد كان كثير من الحرف والصناعات خاضعة لنظام قوامه أن يشتري ملتزم من الحكومة حق انتاج سلعة وبيعها في منطقة معينة مثل صناعة الخبز . لكن في بعض الأحيان كان حق البيع وحده هو الذي يشتريه مثل بيع اللحوم والعدس المطهي . ولا شك في أن أغلب هؤلاء الملتزمين كانوا يحددون السعر وخطا لعانة العرض والطلب ، لكنه لكيلا يثالي التجار في ارباحهم ، رأى وزير المالية ألا يترك لهم الحبل على الغارب ، ولذلك طلب الى وكلائه أن يحددوا لهم ارباحا معقولة ، ومعنى ذلك انه حتى في حالة السلع التي كانت الحكومة لا تحدد أسعارها رسميا لم يكن التجار مطالبا ومحروا من كل قيد ، لأن الأسعار كانت خاضعة لنوع من الاشراف . وليس معنى ذلك ان كافة السلع التي لم تكن لها أسعار محددة كانت خاضعة لاشراف الحكومة ، أو تشير الوقائق الى أن أسعار الحبوب الغذائية كانت تتفاوت من وقت الى آخر ومن مكان الى مكان ، كما تشير الى أن الأترياء كانوا يعنون منها ارباحا فاحشة ، وأهل مرد ذلك الى أن الملك كان أكبر عاجز لنجوب الغذائية .

للملتزمين بتقضى مزاد على . ومنه يظهر ببالحة ان الزايدة لم تكن على سعر الزيت لأن الملك كان يحدد سعر البيع بالجزء ، وانما على كمية الزيت التي تباع يوميا في كل مكان .

وكانت الحكومة تضم مع مقدار معين لها من محصول الشكاذ بسعر معين أما بقية المحصول فلم يكن خاضعا لأي قيد ، وكان يباع في الأسواق بأسعار متفاوتة . وبينهم من كل ما سلبه صحة ما يذهب اليه البعض من أنه لم يكن للتجارة الحرة وجود في مدن مصر وقراها ، اللهم الا اذا استغنيا الاسكندرية فيما يلوح .

ويبدو انه في حالة السلع التي كانت الحكومة تحتكر صنعها وبيعها أو تضم اعطائها نصيبا معيناً منها كانت الحكومة تكثر تجارة التجزئة بثباته صلاها الذين يساعدونها على بيع السلع للأهالي . والمرجح أن كل أصحاب الحرايت كانوا يفسطرون الى الحصول من الحكومة على تراخيص لمزاولة البيع ، والى اعطاء الحكومة في مقابل ذلك حائبا كبيرا من ارباحهم .

ويتضح من احدى وثائق القرن الثالث قبل الميلاد ان وزير المالية كان يفسم السلع تصنيف : أحدها ، السلع التي حددت الحكومة أسعارها ، ويبدو أن هذه السلع كانت عبارة عن منتجات الصناعات التي كانت الحكومة تحتكرها كالحب أو جزيا ، مثل

ويمكن أن توجز موارد الحكومة من التجارة الداخلية :

( ١ ) الأرباح التجارية التي تجنيها من المواد التي كانت تحتكر صنعها وبمعها أو استيرادها وبمعها .

( ب ) الأجر الذي تجنيه نظير السماح بالتزام صنع وبيع السلع أو بيعها فقط .

( ج ) الضرائب التي كانت تفرضها على تجار التجارة .

( د ) الضرائب التي كانت تفرضها على الباعة لقاء شراء مادة كانت الحكومة تحتكر صنعها أو استيرادها مثل الملح والجمذ .

( هـ ) المكوس والمصادرات التي كانت الحكومة تحملها على نقل البضائع من منطقة إلى أخرى .

## ٢ - التجارة الخارجية :

ويمكن تقسيم واردات مصر من مستكاتها ومن سائر بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود والبلاد الشمالية الغربية لسمين . وأحداهما المواد التي كانت مصر تستورد منها مثل الأخشاب والمعادن والحبوب ، ولجميع الالزام منها لحد حاجه الجيش والأسطول وباقي مصالح الحكومة والمنشآت العامة لكن استيرادها وقصدا على ذلك ، أما ما يلزم من هذه المواد لسد حاجة الأفراد فكان التجار هم الذين يستوردونه ويدفعون عنه مكوسا جبرية مقولة . وكان القسم الآخر يشعل سلعا تنتج مصر مثلها ، وكان

التجار هم الذين يستوردون هذه السلع ويدفعون عنها مكوسا مرفقة . ويتبين من الوثائق أن البضائع المستوردة من الخارج على الأقل في عهد بطليموس الثاني كانت أربع فئات بحسب المكوس الجبرية التي تجبي عنها ، وكان قدرها ٥٠٪ عن الفضة الأولى و ٣٣٪ عن الفضة النصابة و ٢٥٪ عن الفضة الثالثة و ٢٠٪ عن الفضة الرابعة . وكانت الفضة الأولى تشمل الزيت وعدة أنواع من البند الفاخر فيما يبدو ، والفضة الثانية ليد خيوس وثاسوس وكذلك التين ، والفضة الثالثة الفسل والجبن واللحوم والأسماك المجففة والكرواح والاسفنج والمجوز والرمان والألبان المغارة ، والفضة الرابعة الصوف .

وما يجدر ملاحظته أنه إذا كانت هذه المكوس الجبرية تدو مرفقة جدا بالتقاسم التي المكوس التي كانت تجبي في باقي بلاد البحر الأبيض المتوسط ، فإن هذه المكوس البطلمية كانت تقابل الضرائب المفروضة على منتجات البلاد ، فقد كانت طريتا ٥٠٪ و ٣٣٪ التي تدفعها مستورد البند الأخرى تقابلان طريتين النصف والثلث المفروضتين على زراعي الكروم ، وكذلك كانت ضريبة ٢٥٪ المفروضة على الفسل الأجنبية تقابل ضريبة الربع المفروضة على المتعدين في مصر ، وضريبة ٢٥٪ المفروضة على الأسماك المجففة تقابل ضريبة الربع المفروضة على صائدي الأسماك الحليين .

أما الزيت فقد كان استيراده محظورا في القرن الثالث قبل الميلاد إلا الاستعمال الخاص ، وكان يفرض عليه مكوس قدرها ٥٠/ وبتعين بيه في الحال للملك بسعر محدد . وبين ما ألفتناه ان المكوس البحرية المرتفعة لم يتعمد بها حماية المنتجات المصرية لأنها ، ولما قصد بها حماية موارد الحكومة من تلك المنتجات .

فما عن واردات مصر من الجنوب والشرق . فانه يرجع ان الملك كان يشتكر شراء هذه السلع عندما كان التجار ينقلونها الى مصر أو يستلكتها . و" بعد ان الملك كان يشتري هذه السلع له بسعر محدد بجمرة وصوفاء . ولم تكن المطور والبخور والم تستهلك عادة في شكلها الخام بل تحول الى روائح ومصاحيق وأدوية ، لكننا لم نجد بعد في الوثائق شيئا عن النظام الذي كانت تقوم عليه صناعات وان كنا لا نستبعد ان البطالة كانوا يشترون هذه الصاعة . ولا نستبعد ايضا ان البطالة كانوا يشترون تصدير هذه السلع في شكلها الخام وكذلك سد صنمها .

وبستخدم اليوم جدل عتيق بين العامة حول من كان يقوم بتصدير السلع الأخرى من مصر . فقد سبق أن عرفنا ان صادرات مصر الى العالم القريب لم تقتصر على سلع الجنوب والشرق فحسب بل كانت تشمل ايضا منتجات مصرية كانت أهمها الحبوب والورق والمنسوجات الكتانية ، وان مصر

كانت تصدر الى الجنوب والشرق كثيرا من مصنعاتها مثل المنسوجات والزيوت والأبنية الزجاجية والأسلحة وغيرها من معدات القتال ، وكذلك البض المستوردة من البحر الأبيض المتوسط . ونحن نرى ان الملك كان يسمح في تجارة الصباعات لكتيبه لم يحتسبها ، وان كان يشترط عليها اثرا دقيقا من أجل الحصول من التجار على ضرائب نظير مزاوتهم هذا الصل ، وكذلك من أجل الحصول على المكوس البحرية ، وقبل كل شيء من أجل ضمان عدم استنزاف كل منتجات البلاد في التصدير ، وخشية أن يقل المروض في الأسواق المحلية لارتفاع أسعار المعيدة بها لذلك مما يفضي حشا الى زيادة تكاليف الإنتاج فتقل ربحاه .

خلاصتها - ضرائب شتى

وبالإضافة الى الضرائب المتعددة التي فرضها البطالة على مزارعي الملك ومختلف أرباب الأراضي والمقننطين بالحرف والصناعات والتجارة ، فرضوا على رعاياهم ضرائب شتى درت عليهم فجلا وغيرا ، ولعل أهم هذه الضرائب المتنوعة كانت الضرائب التي فرضوها على : ( ١ ) المباني ( ٢ ) الصيد ( ٣ ) تسجيل النفود ( ٤ ) البيع والشراء ( ٥ ) المزايدات ( ٦ ) انتقال ملكية الأملاك الثابتة ( ٧ ) الجراث ( ٨ ) استخدام الخ .. وذلك فضلا عن الخية وعدد من الضرائب الاضافية .



## سادسا - نظام جباية الضرائب

وكذلك ملتزم الضريبة . ولما كانت مصالح هؤلاء جميعا واحدة ، بسبب ما غرضه عليهم القانون من العقوبات اذا أخفقوا في أداء مهتهم ، فقد كان طبيعيا أن يتعاونوا جميعا على دفعي الضرائب . وهكذا كان هؤلاء المتعاونون تحت رحمة أشخاص كل منهم هو الشخص من المسؤولية المقاه على مخالفتهم ، دون نظر الى صالح دفعي الضرائب الذين ساءت حالهم على مضي الزمن بسبب ما أرفقوا به .

وكان ما يجسه المصلون يودع لخصاب الملتزم في الخزائن الملكية اذ كان ثلثا ، وفي المخازن الملكية اذ كان عينا ، واذا لم يجد الخصاب الختامى آخر العام وجود زيادة في ايراد جمعية الضريبة ، فلما كانت تلزم الى الملتزم . أما اذا وجد عجز فانه كان يتغلب الى الملتزم واساميه الضريبة الى سداده . وكان ذلك يستتبع الاستيلاء على املاك الملتزم والضامين حتى يسدد العجز .

ويبدو ان هيئة التزام الضرائب كانت مصدر ربح غير قليل في بداية عهد البطالة ، بدليل التنافس في المزايدة وكثرة عسده الملتزمين . لكن يبدو ان الحال قد تبدلت في النضر الثاني من عصر البطالة ، والالما نصمت لوائح يظلموس الخامس على اعطاء الملتزم مرتبا في حالة وقائه بما ألزم به وعدم حصوله على مكسب من عمله .

وقد لجأ البطالة الى نظام الالتزام في جباية الضرائب نوعية كانت أم نقدية . وكان الملتزمون لا يقومون بجباية الضرائب ، لكنهم كانوا يسهون في الاشراف على جبايتها ، لأنهم يمتنعون تعاقدهم مع البلديات كانوا يضمنون له الحصول مما التزموا به من الضرائب على قدر معين من المواد أو المال .

وكان يشترط من قبل في المزايدة دخل كل ضريبة على حدة في منطقة معينة لم يزد اطلاقا في أي حالة على مديرية واحدة ، وكان يعين الاطلاق من المزايدة وكل ما ينطوي عليه مصفة كافية تسمح للرابعين ■ المزايدة يعرفون دقائق ما سيظهر في المزايدة . وكان المزايدة يرسو على من يضمن للمحكومة أكبر حصيلة ممكنة من ضريبة معينة . وتشير الوثائق الى أنه كان يمكن السماح بفتح باب المزايدة من جديد بعد انتهاء ، بشرط ألا تقل الزيادة المروضة عن ١٠٪ مما كان المزايدة قد رسا عليه . وثاني يضمن على الملتزمين الذين يرسو المزايدة عليهم أن يقدموا أشخاصا يضمنون الوفاء بما لهم التعاقب عليه . وكان يشترط على الضامين أن يقدموا ضماناتهم رهنا لوفاء بالالتزام المتعاقد عليه ، بصرف أن يكون هذه الضمانات خالية من أي التزامات أخرى .

وكان يقوم بجباية الضرائب موعظون حكوميون تحت اشراف مراقبين مختلفين

## الفصل السادس

### القضاء

القانون المدني — القانون الجنائي — الهيئات القضائية

من أجل تنظيم معاملات الآخرين الذين لم ينشئوا إلى تلك المدن والجمعات كان البطالة يصدر دور أوامر ملكية مختلفة الأنواع .

والأمر كان البطالة قد سمحوا للمصريين والأجانب بتنظيم معاملاتهم وقد لا يحسنكم النوايا المدنية التي كان بالنظر كل منهما ، فالحكم أصدروا لمصريين قانونا حائلا موحدا وفرضوا عليها اتباع قواعد موحدة للاجراءات القضائية .

أولاً - القانون المدني

١ - الأحوال الشخصية :

لقد كان طبيعيا أن يوجد فوارق حديثة بين التشريعي المصري والأجنبي ، ولرى مثلا واصفا لهذه الفوارق في نظره كل منهما إلى المرأة ، فقد كانت المرأة تتمتع في كتب القانون المصري بمكانة احتشامية والى من الاستقلال لم تشرع بهذا الشرائع الأجنبية . وآية ذلك أن المرأة المصرية كانت لا تزوج إلا بمحض إرادتها وبشروط كانت عادة تقبله على الزوج إلى حد أنها كانت تجعل تمدد الزوجات أمرا متقدرا في الواقع وإن كان مباحا من حيث

كان المصريون أهالي البلاد ويؤلفون الغالبية العظمى من سكانها ، ولهم عادات وتقاليد راسخة وقوانين ولهم جلها الرعي بالمهابة والوقار ، وكان الأجنبي أكثر العناصر الأجنبية عادة وأجلهم شأنا وأوفرهم حظا من العصرية ، فقد أدخل البطالة كل هذه الاختلافات في صياغتهم عند وضعهم للقوانين . وبما ذلك أهم احتفظوا للمصريين بقدر ما سمح الظروف ، بهوانيتهم ولظهور الموروثة ، فكانت تطبق عليهم قوانينهم المدنية التقليدية التي أطلق الأجنبي عليها اسم « قوانين البلاد » .

أما الحريق مصر فانهم كانوا ثلاث فئات وهي فئة مواشي المدن الأخرية ، وفئة أعضاء الجماعات القومية وفئة الأعمى الذي لم يكونوا مواطنين في البلدان الأخرية ولا أعضاء في جماعات قومية . ولما كان لكل مدينة وجمعية مجموعة من القوانين الأخرية الخاصة بها وتعرف « بقوانين المواطنين » وكانت قوانين كل مجموعة تختلف عن الأخرى فانه من أجل التيسر بين القوانين وكذلك

ينفسن الوعد بأن يعيى العرفان معا حياة زوجيه وكذلك شروطا خاصه بالصدان وغير ذلك من العلاقات المادية بين الطرفين ولا سيما حقوق الأولاد . أما النوع الثانى من الزواج فيفسر بأنه زواج لفترة محددة قد ينحو بعدها الى زواج كامل أو قد يتعق في آخر لفه الغرة ، دون أن تترتب عليه التزامات دائمة بين الطرفين ، ويتفق العلماء اليوم على أن الزواج بين المصريين كان يقوم على العار تنعوى بين الطرفين ، أما المقعد الذى يصحبه فإنه كان لا ينتمى الزواج وإنما يثبت وجوده وينظم العلاقات المادية بين الطرفين ويصطط حقوق الأولاد .

أما من الزواج بين الأخرى ، فاجم الى الاسكندرية وبطوليس كانوا يحررون متدين أحدهم مدي وبالأخر دس . وكان الأخرى الذين يشتون خارج هاتين المديتين يعرفون نوعين من العقود وهما : عقود الائتنق و « عقود الماشرة » . وقد كان هذان النوعان من العقود يشلان نوعين من الترتيب نوع واحد من الزواج ، ويقصد بهما تنظيم العلاقات الشخصية وأخاذه بين الطرفين راثبات حقوق الأولاد .

ووفقا للقانونين المصرى والأخرى كان لكل من الطرفين حق انطلاق . وكان العلان يتم بمجرد انفصال الطرفين وتحرير وثيقة من صورتين شئت بينهما انه لم يعد لأحد الطرفين حقون قبل الطرقة الآخر .

ولمبدأ . وكانت أيضا تستطيع الانفصال عن زوجها متى شئت ، وعطالته بالصدان الذى تنس عليه في عقد الزواج ، وانصرف في نفسها وفيما تملك دون أى قيد أو شرط . على حين ان المرأة كانت في نظر القسمانون الأخرى قاصرة ، ومن ثم في حاجة الى وصي شرعى عليها في كل تصرفاتها ، لكن البطالة ساواها بين المرأة المصرية والمرأة الأخرية ، لا يرفع الثانية الى المكابه الأولى ، والسما الهبوط بالأولى الى مستوى الثانية حتى لا يظن المرأة الأخرية بدالتها . وليس للأخرى أيضا في بعض المثلون الخاصة بالميراث مثل استخدام الوصايا ، وحق أحد الزوجين في أد يرث الأخر ، وحق القسمين في قبول الميراث أو رفضه ومن ناحية أخرى أثر القانون المصرى في القانون الأخرى الخاص بأحوال الشخصية ، فقد أخذ الأخرى من المصريين عقود الزواج الخاصة بانباب كل امسال المالية ، والقواعد الخاصة بسيرة الأيوين على أناسا ، وبعض أحكام الميراث مثل حق البنت في الارث بالتساوي مع الولد والما بشرط عدم وجود وصية تنال ذلك .

ويعتقد كثير من العلماء ان القسمانون انصرى كان بمنزلة نوعين من الزواج يدعى العلماء أحدهما « الزواج الكامل » والآخر « زواج المنة أو النجربة » . ويفسر النوع الأول بأنه زواج ثبت وجوده عقد رسمى

وبُرق القانونان المصري والافريقي  
تقريرا وانحاز بين الأحرار والعبيد . وكان  
العبيد ثلاث فئات وهي : عبيد الملك ، وعبيد  
للأفراد ، وعبيد المعابد .

وقد كان من حق المصريين والافريقيين على  
السواء عمل وبيعان ، ولكن تكون الوصية  
مستحقة كان يعني أن يحررها موثق المقود ،  
لكنه كان في وسع الموصي أن يقوم بذلك ثم  
يقدمها الى موثق المقود ؛ ولي العائنين كان  
يجب اتمام ذلك بشهادة الشهود . ولي حالة  
عدم وجود وصية كان القانون المصري يوجب  
الورثة اربعان تأتي في مقدمتها طبقة الأولاد ،  
وكان يحق للأب الأكبر أن يأخذ نصيب إحداهن  
ضخما نصيب أخيه الأصغر الذي كالف أخته  
تساوى معه في مقدار النصيب ، وكان من  
حق الأخفاد الحصول على نصيب أبيهم إذا  
توفي قبل جدهم . ولي حالة عدم وجود وصية  
فإن القانون الافريقي يعطى الأبناء الأقدمين  
في وراثته آباءهم ، وكانت أنصبة الأبناء  
متساوية ويحق للبنات المشاركة في الإرث إذا  
لم يكن قد أخذن مهرهن .

#### ٤ - الأحوال العائلية

ويشير تحرير العقود وتسجيلها ليسر  
الرجل لأبواب حقوق الملكية في جماعته  
متحضرة . وقد كان تحرير المقود في مصر  
الفرعونية وقفا على كسبه يتمون الى انجماعات  
المقدسة ؛ أما في عصر البطالة فإن تحرير  
العقود لم يمد مقصودا على أولئك الكتبة ،

فقد احترف هذه المهنة أفراد من سبائل  
الناس . وقد كانت العقود تحرر اما وقفا  
لأحكام القانون المصري أو أحكام القساوف  
الافريقي . واتى جانب العقود المكتوبة كان  
المرف المصري يعرف الاتفاقات الشفهية ،  
وكان على القاضي الذي يقرر أنه صادق شعورا  
على وبين أن يضم على صحة ما يقول .

ولصان تنفيذ المقود بأمانة كان  
المصريون والافريق يتسحبون فيها شروطا  
جزائية كانت مألوفة في القانون الافريقي ،  
من يد على أن عالون الدين الافريقي قد طبق  
في مصر على المصريين والافريق سواء بسواء  
منذ بداية عصر البطالة . ولا بد من أنه قد  
سبب ذلك التسماء قانون الملك المصري  
بوكورس الذي كان لا يسمح بحبس المدين  
أو استعباده .

ومن أجل ضمان حقوق الدائنين كان  
القانون المصري يعترف بوسائل أخرى ضدهم  
انهمد غير تسجيل العقود والنس فيها على  
شروط جزائية ؛ فانه منذ القدم كان الدائنون  
يحتاجون بوسائل متعددة ضدهم سوء به  
المدينين أو عسرهم المالي . واحدى هذه  
الوسائل تسميته ما لسميه اليوم « برهن  
الحيارة » ؛ ومعنى ذلك أنه عند عمل القرض  
يقدم المدين للدائن بمثابة ضمان عينا تعادل  
قيمتها على وجه التفرير المبلغ الذي  
استدان على أن يمهده الدائن يرد العين عندما  
يسوف دينه . أما الوسيلة الثانية فتشبه

يلتصون إلى الحيلة بادماج الفائدة في المبلغ الواجب سداده دون النص في العقد صلي سر الفائدة . وفي حالة عدم الوفاء بالدين في الوقت المحدد كان يتعرض على المدين غرامة معينة بنص عليها في العقد . وكان القانون الإنعقي يسمح بأن تصل هذه الغرامة إلى مثل الدين الأصلي ، أما القانون المصري فكان ينص بنصف ذلك ، وهو ما كان يحدث عادة حتى في حالة العقود الأخرى .

وكان القانونان المصري والإنعقي يترفايان بحق الأفراد في مباشرة أعمالهم عن طريق الوكلاء ، ما لا نجاه إلى التحكم في حالة حدوث خلاف على تسيير أحكام العقود ، وبألف شركات تجارية أو مناعية لمباشرة أعمال عامة أو خاصة . وكانت الأعمال التي تشكو الشركات من أجل مباشرتها تشمل التزام اشتراب واحتكالات الحكومة ، وكن الشركات مسئولين أمام الدولة عن العجز الناجم عن عدم الوفاء بالتزاماتهم . ومساءء أألفت الشركة لمباشرة أعمال عامة أم خاصة كان يحدد علاقة الشركة بهمهم ببعض عقد كنسب يثبت فيه حقوق كل شريك وأرباحه . وكان القانونان المصري والإنعقي ينظمان أحكاما مسببة بين حقوق الطرفين المتدينين يتأقداان على استنجاز أوأش أو مبال أو عي أو مائنة أو عمل . وكان يستطيع مستأجر أي نوع من أنواع الأرض أن يوجب الأرض من الباطن إلا إذا نص في عقد الإيجار الأصلي على خلاف ذلك .

ما نرفه في الرحمن الضامني وهو في معناه القانوني حق الدائن على عيني يتقي في قبضة المدين غير أن قيمتها تضمن سداد الدين . أما الرميصة الثالثة فكانا تماثل ما نرفه في يانبج الوفاائي وتنخص في أن يبيع المدين للدائن العين المندمة ضمانا للدين مع اجتفاف الأول بعن استرجاع عقاره عند سداد الدين .

ووفقا لأحكام القانون المصري كان التزام المدين قبل الدائن لا ينشئ بسداد الدين بل استرداد العقد الذي منح الدين بمقتضاء . أما وفق لأحكام القانون الأخرى فإن التزام المدين كان في الأصل ينشئ بسداد الدين لكن لم يلبث أن ساء بين الأخرى المبدأ المصري القائل بقتة الالتزام طالما طالما بقى انعقد مايبا . ولذا كانت تتخذ عدة وسائل لمواجهة ذلك ، كان من بينها حصول المدين على ايمان يثبت فيه انه لم يعد للدائن حقوق قبله ، أو رد العقد مصحوبا بقصد جديد يضمن النص فيه على زوال كل التزامات الدائن لدى المدين .

ويشمل امتالا ولفا بالقروض الفوائد التي تجبي عهصا . وتثل الوثائق البريئة الحديثة على أن أقصد سفر مسموح به رسميا للفائدة على القروض كان ٢٠٪ شهريا أي ٢٤٪ سوا . ورغم ارتفاع هذا السعر فإنه لم يكن كافيا لسد جشع المرابين ، ولذلك فأنهم لكيلا يضعوا تحت مائلة القانون كانوا

## ثانياً - القانون الجنائي :

وكان القانون الجنائي يطبق بفرق بين خمسة أنواع من الجرائم وهي :

١ - الجرائم التي ترتكب ضد شخص الأفراد أو مستلكاتهم . وكانت هذه الجرائم تشمل القتل والاعتداء على الغير بالقول أو الإشارة أو الفعل أو التهديد بالأخذاء واستخدام القوة لتحقيق مأرب معين والسرقة والحبس والضرر بممتلكات الغير والمضى والتزوير والتدليس .

ومما يسترعى الانتباه انه في كل هذه الجرائم كانت اقامة الدعوى من شأن المعتدى عليه الى حد انه اذا لم يمثل أمام المحكمة ليتولى مهمة الاتهام برئت ساحة المتهم .

٢ - الجرائم التي ترتكب ضد الخزانة الملكية . وكانت هذه الجرائم تلتزم رئيسيين : احدهما الجرائم التي تؤثر بطريق مباشر أو غير مباشر في دخل الخزانة من الضرائب ، وكان يمكن أن يرتكبها دافعو الضرائب أو عمال المالية أو الملتزمون أو ضريبيهم ممن يسمون في القوام الضرائب .

وكانت القصة الأخرى تشمل الجرائم التي ترتكب ضد الخزانة الملكية لمساسها بمصالح أرضي الملك والاحتكارات .

ومما يجدر باللاحظة انه في حالة اختصام فرد مع الخزانة الملكية حذر على المعاملين المدخاع ضد مصالح الخزانة والا تعرضوا لمظوبة صارمة .

ولكل صنف من صنفات البيع المصرية كان يحزر عدنان ، يطلق على أحدها « عقد المال » وعلى الآخر « عقد النازل » . وكان ينص في الأول على تسليم البائع لمن أمين المبيعة وعلى أن « قلبه راض » للدلالة على اتمام الاتفاق بين الطرفين من طيب خاطر . وكان ينص في العقد الثاني على تنازل البائع للمشتري عن كل مائه من حقوق على المدين المبيعة .

وكما كان لشاغل كل من الشرعيين المصري والأجنبي مع بعضهما بعضا نتائج واضحة في قوانين الأحوال الشخصية ، كذلك كان لهذا التفاعل لتأجبه في قوانين الأحوال المدنية . وتبدو مظاهر الأثر الأجنبي فيما أدخل على القوانين المصرية من الأحكام وحماية الملكية الفردية . أما الأجنبي فاهم أخذوا عن المصريين بعض أحكام القانون المصري الخاصة بالتزامات و « الرهن الضماني » و « البيع الوفاي » وأهم نصوص ملهى المال والتنازل التي أدمجوها في عقد واحد شاع استخدامه في السوق .

ولتين من القوانين التي في حصر البطالة كان الحكم القوي تصدره محكمة مصرية لا يعتبر قاطعاً ولهايأ الا اذا صحبه عقد تنازل عن الدعوى . ويبدو ان اثره الأجنبي قد تأثر بهذا المبدأ المصري في بعض الحالات .

٣ - جرائم الخيانة العظمى ، وقد كان القانون البعالي لا يفرق بين الدولة والتاج ، ومن ثم يعتبر الجرائم التي ترتكب ضد الدولة جرائم ضد التاج . وقد ترتب على فكرة حق الملوك الإلهي أنه أضيفت على هذه الجرائم صفة دينية وكان يفصل فيها على هذا النحو . وكانت هذه الجرائم تشمل عدم تقديم الاحترام الواجب للملك وأسرته ، والثورة ضد الملك ، والحدث بالقسم الملكي .

٤ - إساءة استخدام الحقوق العامة ، كان يغير الشخص بدون وجه حق لقبه الجنسي والسياسي .

٥ - الجرائم الدينية ، وتحدث الوثائق البردية البطلمية من انتهاك حرمة الأماكن المقدسة ، وعن إساءة استخدام حق الالتجاء إلى المعابد .

#### ثانياً - الهيئات القضائية

وكان الملك يعتبر كبير القضاة في البلاد ، لكنه كان عادة ينصب عنه قضاة آخرين للفصل في المنازعات بين رعاياه . ونحن نعتقد أنه لم توجد حينئذ تفرقة بين القضاء المدني والقضاء الجنائي ، وإن كنا نعتقد أنه كانت توجد تفرقة بين الجرائم الخطيرة أو العامة مثل الخيانة العظمى والقتل ، وبين الجرائم العادية أو الخاصة مثل مختلف أنواع الاعتداء على الأشخاص أو أموالهم . ونحن نرجح أنه سائر المحاكم كانت تنظر في القضايا المدنية وكذلك القضايا الجنائية العادية ، أما الجرائم الخطيرة

فلا يعد أنها كانت من اختصاص محكمة خاصة لعلها كانت ما ندعوها المصادر القديمة « محكمة الملك » .

ويمكن تقسيم الهيئات القضائية في عهد البطانة إلى أربعة أنواع وهي : ( ١ ) محاكم المصريين ؛ ( ٢ ) محاكم الأوغريين ؛ ( ٣ ) المحاكم المختلطة ؛ ( ٤ ) محاكم القضاء الخاص .

#### ١ - محاكم المصريين

وتبين من وثائق القبرن الثاني قبل الميلاد أن محاكم المصريين كانت تتألف من ثلاثة قضاة من الكهنة المصريين ، فضلاً عن عضو آخر لم يكن قاضياً ولكنه كان يقوم بدور هام جداً ، وهو تليخيص القضايا وتعضيدها وتلاوة الوثائق أمام المحكمة عند انعقادها وتنفيذ ما تصدره من الأحكام . ويدل اسم هذا الموظف واسم منصبه على أنه كان أوغريقيا . ولعل البطلة لم تستحدثوا مهنة تيسيراً لتصرفه العدالة في المحاكم الوطنية ، ولا سيما بعد أن وضعموها قانوناً جنائياً موحداً للمصريين والأوغريين . وكانت هذه المحاكم تختص بالفصل في قضايا المصريين وكذلك القضايا المدنية التي يكون موضوع النزاع لها عقداً معروفاً حتى ولو كان أحد طرفي الخصومة أوغريقيا .

#### ٢ - محاكم الأوغريين

وكانت توجد في مصر عدداً أنواع من المحاكم الأوغريقية ، وأكثر المطروحات التي

مدينة افرقية . وفضلا عن ذلك فان محكمة القضاة الاغريق المتقلة كانت تعتمد فيها مثل ما كانت تعتمد في الاسكندرية للفصل في قضايا الاغريق وغيرهم من الأجانب الذين ينزلون هناك . أما المذبة الاغريقية الثالثة في مصر ، وهي قمارليس ، فانها لا تعرف شيئا على الاطلاق عن القضاء فيها .

#### ٣ = المحكمة المختلطة

وقد كان طيبا ان يؤدي التعامل بين المصريين والاغريق الى نشوب قضايا يكون طرفا الخصومة فيها من جنسيتين مختلفتين ، ومحدثا وقائق القرن الثالث قبل الميلاد عن محكمة مختلطة ■ نعرفها كقضية تكرنبا ولا مدى اختصاصاتها ، لكننا نرجح انما كانت تختص بالفصل ■ القضايا المدنية وكذلك القضايا الجنائية العادية بين المصريين والاغريق . ولا يبعد ان هذه المحكمة قد لقدت كثيرا من اهبيتها عندما هضمت اختصاصاتها نتيجة لاحكام القرار الذي أصدره بطلمبوس الثامن ابودوجتيس الثاني في عام ١٩٨ ق . م . بأنه اذا نشب خلاف بين مصري واغريقي لبيعة لمقد محرر بينهما فان لفه هذا العقد هي التي كانت تصحح نوع التناول الذي يلبي وتبها لذلك نوع المحكمة التي يرض الخلاف عليها . فاذا كان العقد مصريا فان القانون للمصري هو الذي كان يطبق ومحكمة التقضاة المصريين هي التي كانت مختصة بالفصل في الموضوع . أما اذا

لدينا تخص » محاكم القضاة الاغريق « ، وكانت محاكم متقلة الفصل في قضايا الاغريق وغيرهم من الأجانب الذين ينزلون في مختلف أرجاء مصر ولم يكونوا مواطنين في احدى مدن مصر الاغريقية . ويبدو ان مهمة هؤلاء القضاة الاغريق لم تكن مستديرة وانما لمدة معينة لا تعرف مداها على وجه التحديد ، وان كل هيئة من هذه الهيئات اختصاصية الاغريقية كانت تتألف من ثلاثة قضاة وعضو بلخص القضايا ويعضرها وكاتب ومحرر . وكانت كل هيئة تختص بالفصل في قضايا منطقة معينة تشمل عددا من المديريات . ويرجح ان المحكمة كانت لا تعتمد الا في عواصم المديريات المختلفة والمدن الكبيرة .

ومذكر وثيقة ردية مشهورة لوجه جديدين من المحاكم الاغريقية في الاسكندرية كان أحدهما يتألف من عشرة محلفين ومثلثخص القضايا ومحضرها ، وكان الآخر يتألف من مستثنين يعملون تحت اشراف حارس القوائين . ولعل النوع الأول هو الذي كان يتصل في قضايا هيئة المواطنين عندما ينشأ النوع الثاني في نفس الخلاف ودبا بين المخاصمين . واذا كما سلم بوجود محكمة الفصر أو محكمة الملك في هوسيد البطلمة ، فانه لا تعرف كيفية تكوينها ولا نستطيع الجزم باختصاصاتها .

وكانت لبثوليمس أيضا محاكمها الخاصة بالفصل في قضايا مواطنيها باعتبارها



موظفي الادارة وعمل المالية وثانيا القضايا التي يسس موضوعها موارد الملك وثالثا القضايا التي تخص الأشخاص الذين يهتمون موارد الخزانة حتى اذا كان موضوع هذه القضايا لا يسس تلك الموارد . وقد كان يفعل في كل هذه المراكز الملك وكبير موفقيه او هبات قطايه براسها هؤلاء الموظفين . ولما كان لأكثر هذه القضايا صبغة مالية ، فقد كان يقوم بدور كبير في القضاء الخاص ورير المالية ومساعدوه .

ويبدو ان البطالة قد امتدوا أيضا محاكم خاصة لرجال الجيش ، فقد وصلت الجنا من القوم وثائق تحدثنا عن نقل قضايا من رجال من الجيش أمام محكمة مثل محكمة العشرة التي مر بنا ذكرها عند الكلام عن القضاء في الاسكندرية .

كان المقعد افرقيًا فان القانون الاغريقي هو الذي كان يطبق ومحكمة القضاة الاغريق هي التي كانت صاحبة الاختصاص في الفصل في الدعوى . كما اذا شب خلاف بين طرفين مصريين فانه كان يتعين عرض الأمر على محكمة القضاة المصريين . وبدوا ان القرار لم يفر الى القضايا التي تنشأ بين طرفين افرقيين لانه لم يكن هناك أحد يسس في أن ذلك كان من اختصاص محاكم القضاة الاغريق . ولما كان هذا الفراء خامسا بانتسابا المدنية فلا بد من أن القضايا الجنائية بين طرفين ينتميان الى جنسيتين مختلفتين قد بقيت من اختصاص المحكمة المختلطة .

#### ٤ - محاكم القضاء الخاص

وقد كان يدخل في نطاق « القضاء الخاص » أولا الشكاوى الموجهة ضد

## الفصل السابع

### الحياة الاجتماعية

الاغريق - المصريون - الثورات الثموية المصرية

أولا - الاغريق

١ - حالهم على عهد البطلة الأولى

عرفنا ان البطلة الثلاثة الأوائل كانوا في حاجة ملحة الى التوسيع لتكوين جيوش وأساطيل من طراز جيوش وأساطيل مناصيهم وكذلك لاعادة تنظيم شؤون الادارة والنهوض ببراق البلاد الاقتصادية واستغلالها استفلا لا مثلبا دقيا . وازاء كل ذلك كان يشين على البطلة الا يتكثروا فقط بفتح بواب مصر على مصاريها للأجانب بل أن يجزئوا لهم الحطاء وينحومهم مركزا متازا في وطنهم الجديد ، ليسنوا استمرار وفودهم على مصر بكثرة واستقرارهم فيها على الدوام . وينبى أن تذكر انه في ذلك الوقت كان العالم الاخرى هو كل شيء ، وانه الحضارة الاخرية كانت أسس الحضارات وأرفعا لنا ، وانه حضارة الناس كانت تقاس بمقدار عظمتهم من تلك الحضارة ، وان البطلة كانوا لا يستطيعون أن يبنوا لأنفسهم مجدا شامخا في نظر العالم الاغريقى باعتبارهم فرانة مصر مها انتقروا في بلاد الاغريق من الاموال .

والذلك كان يجب أن يكون مظهر مصر افريقيا وأن تبرز مصر في ذلك العالم باعتبارها دولة افريقية لا دولة شرقية .

وازاء الظروف الضارحية التي أحاطت ببطلهموس الأول حين كان يرعى قواعده دولته في مصر ، كان يشين عليه أن يعمل على اجتذاب الاغريق الى مصر والاستقرار فيها بشتى الوسائل ، دون أن يعمل في الوقت نفسه مشاعر المصريين . ولعله لم يتخذ متبنا خاصة له في بادئ الأمر أرضاء للمصريين فحب بل أيضا أو قبل كل شيء لأنه كان أكثر أمانا فيها من الاضطرابات الخارجية ، اذ أنه ما كاد يستشعر مقدرة جيشه وأسطولته على تأمين مركزه في الاسكندرية حتى نقل مقره الى هذه المدينة الافريقية . واذا كان قد استخدم بعض المصريين في المناصب الادارية الهامة أو سمح لهم بالاستقرار فيها ، فانه يبدو محتملا أنه اتخذ أغلب مساعديه الاداريين من رجاله على شاكلته في الترويب والتفكير . وقده ضمن لهؤلاء الاغريق والمقدونيين منسل ما ضمن لاقوانهم في شتى نواحي الحياة المصرية اجرا طيبا ومركزا متازا .

وخاصة في الصوم . وإذا كنا نجد بين هؤلاء  
الافريق عددا من مواطني مصر الاغريقية ،  
فإن أكثرهم كانوا أصلا مواطني مدن أخرى  
في العالم الاغريقي . وعند استقرار هؤلاء  
الافريق في وطنهم الجديد ضم البطالة عليهم  
الاحكام بلقيم السياسي القديم عند ذكر  
أسماهم ❧ الوثائق الرسمية . وقد كان  
سكان مصر من غير أهلها الوثنين ينقسمون  
طبقة متنافرة في المرتبة تميزها ألقاب سياسية  
وجنبية ، وكان معطورا الاقتال من إحدى  
طبقات السكان إلى طبقة أخرى دون الحصول  
على إذن بذلك من الملك .

وقد كان الافريق يؤلفون جماعات كانت  
أهمها شيئا تلك الجماعات القومية التي كان  
الجبلا تحصل اتصالا وبقا بالجنس ❧ وبثالث  
كل منها ممن ينتمون إلى قومية معينة . وقد  
كان لكل جماعة من ❧ الجماعات مجموعة  
فردية الخاصة ويعبر فيها بوضوح أثر المدن  
الايولية والدورية والايولية التي وفد منها  
أعضاؤها في الأصل . وإذا كان البطالة قد  
اعترفوا بقوانين هذه الجماعات فاهم مع ذلك  
عملوا على التنسيق بينها بما كانوا يعطونه  
من مختلف أنواع الأوامر الملكية . وقد كانت  
هذه الجماعات منتشرة على نسط المدن  
الافريقية ، وتمتع بقدر من الحكم الذاتي ،  
ولكل منها حكماها وكنهتها ومقرها في مكان  
معين .

وكانت على هذه الجماعات في الأهمية

ولا جدال في أن السياسة العامة التي  
اتبعتها بطليموس الثاني كانت تستهدف معالاة  
الافريق على حساب المصريين ونشر الحضارة  
الافريقية في أرجاء البلاد . وتشير كل الدلائل  
إلى أن بطليموس الثالث قد سار على نهج  
سياسة أبيه . وبين أن البطالة الأذائل قد  
أقاموا حكمهم في مصر باعتبارهم غزاة فالعين  
فلم ينسوا أو يناسوا أخلاقا أصلهم الأجنبية  
ولم يمتدوا إلى تأييد سلطانهم الأعلى الافريق  
والمقدونيين الذين كانوا يشاركونهم المعار  
بأصلهم والاعتزاز بعشارتهم .

وقد كان أول مظاهر ضعف البطالة الأوائل  
على الافريق تهيئة البيئة المناسبة لميلهم ❧  
ولذلك بنوا بيئات الاسكندرية وصحبها مظاهر  
العبادة الضيقة بالعدن الافريقية حتى غدت  
أعظم هذه المدن في البحر الأبيض المتوسط .  
وأولاً بطليموس الأول مدينة بطوليبس  
وولر لها كل أسباب الحياة الافريقية . وفضلا  
عن ذلك فإن قراطينس ، تلك المدينة الافريقية  
الصيدية ، استمرت تنمو بما ألفت من نظم  
الحياة الافريقية وأصاليها . وقد كان هدف  
البطالة من وراء كل ذلك أن يحتفظ الافريق  
الذين يتولون في هذه المدن بعشارتهم  
الافريقية في طول مصر وعرضها .

أما الافريق الذين ضاقت بهم مدن مصر  
الافريقية ، فذهبوا يجرعوا بين جنات الوادي  
واستقروا في المدن والقرى المصرية القديمة  
أو في القرى الجديدة التي أنشأها لهم البطالة

ويعتبرون أنفسهم أهل حضارة رفيعة دونها كافة الحضارات الأخرى ، ويعيشون في أوطان خاصة بهم ، ويحبون حياتهم التي اعتادوا أن يحيوها في بلادهم ، كان المصريون يؤثفون الطبقة السفلى ، ويضربون بأنهم سلبوا كرامتهم كما سلبوا خيرات بلادهم ، وسمح ذلك استغفروا يستغفرون بعبادتهم وتقائسدهم ويذكرون مسجدهم الثالث ، وراه كل ذلك نستطيع أن نعرف تماما بأن الزواج بين المصريين والافريق في القصر الأول من حكم البطلة كان أمرا بعيد الاحتمال . ومع ذلك لا يجوز الجزم بأنه لم يحدث عندئذ أي نزواج على الإطلاق .

### ٣ - جانبهم من عهد البطلة الأولى

وهكذا كان قوام سياسة البطلة الأولى أن بشركو الافريق في حكم البلاد والسيطرة على المصريين ، وأن يولجروا لأولئك المحطونين أصحاب الرزق المنسحق وأساليب الحياة التي توافق مزاجهم الرقيق ، فماز الافريق بكل الغنى وتحمل المصريون كل القرم . أما منذ عهد بطليموس الرابع فقد أخذ انبطائه ينبعون سياسة جديدة في معاملة المصريين تنطوي على انصاح بمعنى المجال لهم الى جانب الافريق أملا في كسب ودعهم وولائهم ، لكن البطلة لم يذهبوا الى حد مساواة المصريين الافريق ولا أدل على ذلك من أنه ما زان أغلب رجال الجيش وقوادهم وكبار الحكام من الافريق ، وما زالت الفياع تسمح للافريق ، وما زالت

قواعدها كانت تشمل بها جميعات رجال الجيتاريوم فقد كان الافريق ، حيثما نزلوا سواء في المدن الافريقية أم في الأبدن والقرى المصرية ، يستمعون بهذه المعاهد الجليلة الشأن التي كانت قوام الحياة الاجتماعية والفكرية في بلاد الافريق منذ أقدم العصور .

وكانت تأتي بعد ذلك في الأهمية جميعات الفرقة كان لها طابع ديني أو اجتماعي . ويشري انتشار هذه الجيميات بين الفرقي مصر الى ميل هؤلاء الافريق الى لون من الحياة الاجتماعية يميضم الى حد من جانب من حياة « اندية » كان عزبرا عليهم فريدا الى قلوبهم وتلهم حرموه في مصر ، إذ لم يكن أغلب افريق مصر مواطنين في مسدن بشركون في مجالسها والنخبائها ، فلا أن شغفوا بتلك الجيمات لتوفر لهم الاجتماع والشافسة والاتخاب .

### ٤ - علاقتهم بالمصريين

ولا حداد في أن أولئك الأجانب ، الذين وقدوا على مصر فواجبا علم فواج في خلال القرن الثالث قبل الميلاد ، كانوا يكونون طبقة منفصلة من سكان البلاد تفصلهم فوارق شاسعة عن أهلها ، فقد كان مركز هؤلاء الأجانب الاجتماعي والسياسي والاقتصادي مختلفا عن مركز المصريين وأكثر منه امتياز . وحين كان الافريق في القرن الثالث يؤلفون الطبقة العليا في البلاد ، ويحبسون على أرفع المناصب ، ويستمعون بخيرات مصر ،

أكبر الاقطاعات تمنح للاغريق ، ولم يعتبر في  
عددا الطبقة العليا المنازة من سكان البلاد  
الا الاغريق والعبريون التسلائي الذين  
اصطبغوا بصيغة الغريقية .

وإذا كان بعض المصريين قد تأغرقوا ،  
لهجة لأقبا لهم عيسى التلميز الاغريقي حتى  
أصبحوا يكتبون الاغريقية ويترادفوا بسهولة  
ولانغادهم ملابس غريقية وأسماء غريقية  
فأكتبهم هذه المسحة الاغريقية مكانة متارة  
هي مكانة الاغريق ، فإن بعض الاغريق أيضا  
قد تأقلوا إذ أنهم تعلموا اللغة المصرية  
وعبدوا آلهة مصرية واتخذوا أسماء مصرية  
وعادات مصرية .

#### ١ - ملأهم بالمصريين

ويبدو أنه في النضر الثاني من حكم  
البطالة عندما اقبلت لحدود الزواج جديدة من  
الاغريق ، وتأفرق بعض المصريين وتأقلم بعض  
الاغريق حدث شيء من التقارب بين المصريين  
المصري والاغريق ، ونشأ عن ذلك في اعتقاد  
كثير من المحدثين أمر مختلطة غريقية -  
مصرية ، ويستدل على هذه الظاهرة بأن  
الروايات تصفحت عن كثيرين ممن يحملون  
أسماء مصرية وغريقية ، ولذلك لم يفسد  
الاحم منذ القرن الثاني قبل الميلاد دلالة على  
الجنسية . ونحن لا نرى ان الجمع بين  
الأسماء المصرية والاغريقية يدل حتما على كل  
حالة على تزاوج بين المصريين والاغريق ،  
فلم يصل اليها بعد وثيقة زواج أو حلاق

واحدة بين طرفين أحدهما مصري والاخر  
اغريقي . وقد يكون الجمع بين الاسماء  
المصرية والاغريقية نتيجة لاصطياغ بعض  
المصريين بالمصنعة الاغريقية أو أقنعة بعض  
الاغريق ، مما حدا بالكثيرين المولود الي اضافة  
أسماء اغريقية الى أسمائهم المصرية ، وبالعريق  
الثاني الي اضافة أسماء مصرية الى أسمائهم  
الاغريقية . ولست في حاجة الى الذهاب بعيدا  
للتدليل على صحة ما نراه ، فلا يزال بين  
فهرنا كثير من المصريين من لم يكتولوا  
شرة تزاوج مختلط وانما شرة ابوين مصريين  
كانت ثقافتهم انجليزية أو فرنسية فأعطيا  
أبناءهم أسماء الطليعية أو فرنسية ، ومع  
ذلك لا نستبعد أن يكون قد حدث في  
النظر الثاني من عصر البطالة تزاوج بين  
المصريين المتأخرين والاغريق المتأخرين .  
لكن لست نرى أن يكون ذلك الزواج قد  
حدث بأكثره الي بنوعها البعض ، إذ أن  
ثلث اللغة من المصريين والاغريق لم تكن  
الاقلية بالنسبة للغة العظمى من الاغريق  
والمصريين الصميمين ؛ وإنه إذا كان النضر  
الثاني من عهد البطالة قد شهد تقاربا بين  
المصريين والاغريق ، فقد شهد أيضا تحولات  
المصريين القديمة على البطالة والاغريق ،  
ولا بد من أن تلك التحولات قد سدت من أثر  
ذلك التقارب ، ولو صحح أن التزاوج بين  
المصريين المصريين والاغريق قد شاع في  
النظر الثاني من عصر البطالة ، لا يبقى سكان  
البلاد مقسمين طبقين مختلفين في المرتبة ،

احدلعلى عليا وتآلف من الاغريق وأشباههم  
والأخسرى سغلى وتكون من المصريين  
الصميين .

#### ٥ - فئة الاغريق

وقد كان الاغريق ومن على شاكلتهم من  
الأجانب القبيح في مصر يتألفون من الفئات  
التالية :

أولا - فئة الموظفين ، وكانت لتسبل  
الموظفين المدلين والسكرين .

ثانيا - فئة أرباب المهن الفنية ، وكانت  
تسبل العلماء ورجال الأدب والأطباء والمحامين  
والمعلمين والمصارين والمصورين والمثاليين  
والفنانين ومحترفي الألعاب الرياضية .

■ - فئة رجال الأعمال ، وكانت فئة  
كبيرة من الأثرياء متوسطي الحال الذين  
يتكئون أراضي وعقارات ويستلون بالتزام  
بعض الحرفة أو الصناعات أو جباية  
الضرائب .

رابعا - فئة أرباب الحرف اليدوية ،  
وكانت فئة كبيرة لتألف ممن كانوا يتكسبون  
قوتهم من الأعمال المصنية في الزرعة والصناعة  
والنجارة كسما وصناع وما أشبه ذلك .

#### ٦ - فئة المصريين

ولما كان الاغريق قد أحبطوا معهم من  
بلادهم ديانتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وكانوا  
يغضبون لقوانين افرقية ويحاكون أمام  
محاكم افرقية ، ويمشون عادة في أوساط  
افرقية ينشون فيها مدارسهم ومنتدياتهم

وجمعياتهم ، وكانت أفواج الاغريق تغد على  
مصر باستمرار حتى أواخر القرن الثالث قبل  
الميلاد فتطمعهم بدماء جديدة ، وكانت لا توجد  
قوة على تزاجهم مع المصريين حتى نهاية  
القرن الثالث ، وكانوا يمتزجون ببعضهم  
الافريقية ، ولا سيما انها كانت مصممة  
ما يستمدون به من الطير الصم في مصر ،  
فلا شك في أنه وسط هذه الظروف قد حافظ  
الفرق مصر على لغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم  
فبقوا افرقيا خالصين حتى نهاية القرن الثالث  
قبل الميلاد .

ولا جدال في أن المصري مصر كانوا  
يمشون في أوساط افرقية بوجه عام ، لكن  
يجب ألا ننسى أن هذه الأوساط ، حتى في  
المدن الافرقية ، كانت تقوم في بيئة غريبة عن  
الحياة الافرقية الى أقصى حد ، ولذلك فإن  
المحافظة على قوة الروح الافرقية ■ افرق  
مصر كانت لا تتوقف على استمساكهم  
بتقناتهم وعاداتهم وتقاليدهم لمحب ، بل  
كذلك على نفقة هؤلاء الاغريق على الدوام  
بدماء افرقية جديدة من بلاد الاغريق لتكون  
بعيدة عن كافة المؤثرات الغريبة عن الروح  
الافرقية . لكن منذ أواخر القرن الثالث  
قبل الميلاد انطلق وجود أفواج جديدة من  
الاغريق بسبب نقص عددهم في بلادهم ،  
فكان طبيعا أن يضمف الروح الافرقية  
تسريحا بين لفرق مصر . ومع ذلك فانه مما  
ضف هذا الروح قد بقى افرق مدن مصر

الأغريقية أغريقا خالصين نتيجة لعدم الاعتراف بالزواج بينهم وبين المصريين في هذه المدن ، ونتيجة لاستمرار المعاهد والمدارس الأغريقية في متابعة نشاطها ، ولا سيما أن الاسكندرية كانت لا تزال منارة الحضارة الأغريقية وتتمتع بشهرة عظيمة في العلوم والفلسفة والآداب .

إن العامل الذي أدى إلى طمس الروح الأغريق في مدن مصر الأغريقية كان له أثر أقوى بطبيعة الحال خارج هذه المدن ، ولا سيما أنه منذ أواخر القرن الثالث أصبحت القطاعات الأغريق وراثية ، وبذلك أصبحت لأرباب هذه القطاعات مصالح دائمة في البلاد . وقد كانت رعاية هذه المصالح تتطلب منهم أن يداروا أهل البلاد والى يستمخروا ثورتهم عليهم . وفي الوقت نفسه أخذ البطالة يتحول سياسة جديدة في معاملة المصريين ، فقام منذ عهد بطليموس الرابع أخضروا يسبحون أنجال أمام المصريين ويستحوونهم من الامتيازات ما رفع من شأنهم وضيق شسقة الهالكين بينهم وبين الأفرق وساعد على التقرب بين المصريين ، حتى لا يجد أن يكون فده تكون عدم من الأمر المضطحة المصرية — الأغريقية .

ولقد أسهمت هذه العوامل المختلفة في اضمحلال الروح الأغريق بين أفرق الإقليم ، غير أنه لما كانت الصبغة الأفرقية تكسب صاحبها مركزا ممتازا مهما كانت جنسيتة ، جعل تشك في أن غالبية الأفرق استسكوا

بعضاتهم الأفرقية لا يبدو لنا أنه مهما ضعف روح أفرق الأقاليم حتى كانوا يفتخرون اختلافا كبيرا عن الأفرق القضا ، وأنه إذا كان بعض الأفرق قد عبدوا آلهة مصرية وتعلموا اللغة المصرية وتزوجوا مصرات واتخذوا أسماء وعادات مصرية ، فإن أهلهم بقوا أفرقا خالصين ، ولذلك يفضل أثر مدن مصر الأفرقية ، وأثر معاهد الأفرق وحضارتهم ومدارسهم التي كانت توجد حشما وجد عدد كاف من الأفرق ، وكذلك بفضل ما كان الأفرق يشعرون به من مكانة متتارة في البلاد .

لأننا = المصريون :

#### ١ - البطالة والطبقات المصرية المختلفة

ولا ريب في أن العناصر الأجنبية لم تكن سوى أقلية تعدد بالألوف بالنسبة إلى المصريين الذين كانوا يعدون بالآلاف . وكانت تأتي في مقدمة المصريين الطبقة الأرستقراطية بقسبها الديوري والديني ، ويبدو أن بطليموس الأول سمح للأرستقراطية المصرية الديورية بالاحتفاظ بممتلكاتها وبقوى من السلطان في الإدارة ، لكننا لا نسمع شيئا على الإطلاق عن هشاشه الأرستقراطية منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، مما يهتد على الاعتقاد بأن البطالة عملوا منذ أواخر عهد بطليموس الأول على حرمان هذه الأرستقراطية بالتدريج أملاكها ومناصبها الإدارية . ولعله لم يكن من هذه الأرستقراطية إلا نفر كان قليل العدد محدود الثروة يتولى مناصب في أفرق المصرية في الجيش .

المصريين حتى موقعة رفح الا في أعمال  
الجيش الثانوية ، وقصر منح البطالة الأوائل  
على جنودهم المقدونيين والافريق . فلا عجب  
ان شعر الجنود المصريون ، كغيرهم من سائر  
جُيُوش المصريين بذل الاحتلال الأجنبي  
وذاقوا حرارة الاهانة والجرمان ، فاسموا  
في الثورات القويمة حتى بعد الاستعلاءات  
التي منتهوا عنها موقعة رفح . ولا شك  
في أن حال هذه الطبقة قد تحسنت في القصر  
الثاني من عهد البطالة لكنه كان تحسنا  
ليسا بالقياص الي ما كان عليه قبل ذلك ،  
فقد كان الجنود الأدياب لا يزالون يكتفون  
الجسائب الأكبر من القوات البطلمية ،  
وتشتمون برفع المناصب وأكبر الاطاعات .

وكانت طبقة المؤلفين على هذه الطبقة  
قبل عصر البطالة . وكانت هذه الطبقة تتألف  
من كتبة متفانولي الدرجات . ويبدو أن خلفهم  
العليا اخذت تدريجا ولم يبق في خدمة  
الحكومة من المؤلفين المصريين الا فئة صفار  
الكتبة الذين اضطروا الى تعلم اللغة الاغريقية  
وعظم العمل الجديد والغضوض لرؤسائهم  
اتجسد . ولم تكن المناصب الحكومية  
التواضعة التي يستطيع المصريون توليها في  
خلال القرن الثالث قبل الميلاد مصدر خسر  
عظيم لتأليبها ، فقد كانت مسؤولياتها أكثر  
من ضما . أما في القصر الثاني من عصر  
البطالة فقد سُمح للمصريين بتولي بعض  
المناصب الرئيسية في الادارة المحلية .

ونشير الأدلة الآتية الى أن الأرستقراطية  
المصرية الدينية كانت تمتنع في بداية عصر  
البطالة بامتلاكات واسعة . ونحن ندرك  
البطالة ما كانت تمتنع به هذه الأرستقراطية  
من نفوذ كبير وثروة عريضة عملوا على تقليم  
أغلافها وإزالة . ومع ذلك كان الكهنة  
المصريون ، حتى في القصر الأول من حكم  
البطالة ، يتكفون فئة متنازة بين الأهالي ،  
فقد كانوا عادة يشتمون من الأعمال الجبرية  
ويؤدون مهام عليهم دون تدخل الحكومة  
في شئونهم . وبعد موقعة رفح وامتثال لهب  
الثورات النومية ، اضطرت البطالة الى التزول  
عن سلفهم وجبروتهم واتباع سياسة جديدة  
في معالجة رجال الدين رعت اليهم الطلب  
امتيازاتهم .

ولا ريب في انه ازاء القسيسين  
الأرستقراطية الدينية تقريبا ، وازاء المشح  
التي اضطرت البطالة الأواخر الى اجزائها  
للكهنة المصريين ، وازاء مكانة هؤلاء الكهنة  
ونفوذهم بين الأهالي في طول البلاد وعرضها  
أصبحت طبقة الكهنة أهم الطبقات المصرية .  
ولعل عصر البطالة كانت تفي الأرستقراطية  
بصلبيها الديني والديني ، طبقته المحاررين  
المصريين . وقد رأينا كيف تقلصت هذه  
الطبقة مكانتها المتنازة في حياة البلاد على  
عهد البطالة الأوائل ، بسبب اعتماد أولئك  
البطالة في تكوين قواتهم البرية والبحرية على  
العناصر الأجنبية ، وعدم استخدام الجنود



وعاء ما ابتلوا به في أي وقت مضى ، فإن  
 حالهم لم تتحسن ، لأن الملك لكي يتوزد بأكثر  
 قدر من الربح عمل على انقاص تكاليف  
 الإنتاج إلى أدنى حد ممكن ، وبما لذلك على  
 عدم رفع مستوى معيشة الطبقة الكادحة .

ونتيجة لتدابير التقييد التي كان المصريون  
 يرضون عنها بين أنه لم يكن على شيء من  
 اليسر من ملايين المستغلين بالزراعة  
 والصناعة والتجارة الا هرق قليل ، كان مصمم  
 زراعا ناجحين وشاغل اوده الله أن تمنحهم  
 الحكومة اذنا باستصلاح بعض الأراضي  
 ورعا كروما أو غابات ، وبذلك أصبحوا  
 في عمده أرباب أراضي الاملاك الخاصة  
 أما البعض الآخر فانهم كانوا صاعدا ناجحين  
 يزاولون صناعات لم يحكرها الحكومة  
 احتكارا كليا ، وبذلك لم تفلح موعدهم باب  
 اكتسب اهلانا كاملا .

وهكذا نرى انه لم ننتج من بنش  
 البطالة فئة واحدة من فئات المصريين ، وذلك  
 حين كان أولئك المملوك يهودون للآخرين  
 وشبابهم أسباب الحياة الرغدة الكريمة .  
 ولذا كتب حان الكهنة والجنود وموظفي  
 الحكومة ونظر قليل من الزرايع والصناع  
 في القطر الثاني من عصر البطالة أفضل  
 من حال الغالبية العظمى من المصريين ، فإن  
 حال هؤلاء القلائل من المصريين ، الذي  
 كانوا أسمع حقا من سائر مواطنيهم ، كانت  
 تسوء كثيرا من حال العناصر الأجنبية . ومن

وكأن يأتي في مؤخرة الطبقات الاجتماعية  
 ملايين المصريين ، وكان يشغل أكثرهم  
 بالزراعة ومصمم بالصناعة والتجارة ، وكانوا  
 كالعامة عباد حياة البلاد الاقتصادية ، ولذلك  
 كانوا أكثر تضررا من غيرهم بذلك النظام  
 الاقتصادي التكريه الذي وضعه البطشانة  
 للبلاد . ولا كان الهدف الرئيسي لهذا النظام  
 جعل الدولة أو إمبراره أخرى الملك عينا ، فقد  
 كان ينبغي توجيه كل جهود الإلهالي نحو  
 تحقيق هذا الهدف .

وفي كتب هذا النظام الضار ، اذا  
 كانت الفرص التي أمام الطبقات المتقلبة  
 لا تراه فيها غلبة فانها كانت متدنية بالنسبة  
 لغالبية المصريين الذين ألقيت عليهم أفضل  
 الأعباء ، فقد كان ينبغي على هذه الامانية أن  
 تخذل موارد الحكومة بطريقة من الطرق ،  
 إما بمثابة رراع الملك ، أو عمالا في مصانع  
 أو في مصانع تعمل لحسابه أو في مصانع  
 تؤدي له ضرائب معينة فضلا عما تقدمه له  
 من ائاجها ، أو تجار تجرئة ، أو رعاة ،  
 أو صميادين ، أو يشتغلون بالثقل البري  
 أو المائي ، ويدفعون جميعا ضرائب معينة  
 نظير مزاولتهم أعمالهم . وإلى جانب كل هذه  
 الأعباء العادية التي كانت الحكومة تسته  
 منها دخلا كبيرا ، كان يتعرض على الإلهالي  
 اداء كثير من الخدمات الاخبارية . ورغم كل  
 الأعباء التي انتقل بها كاهل عالية الزراع  
 والصناع والمبالي المصريين ، وكانت أسمع

ثم نستنتج أن تصور الفارق المائل بين حال  
الأجانب وحال المصريين بوجه عام .

## ٢ - حضارة المصريين

وتشير جميع الفرائض إلى أن المصريين  
بوجه عام إيتنروا يعيشون كما كان يعيش  
أجدادهم من لمبسل ، محتفلين بهداياهم  
وتفانيدهم ، يمدحون آلهتهم ، ويضعفون إلى  
حدد كسبر لقوانينهم الفرعونية ، وكان  
المصريون ينفقون إما في أندية جماعاتهم ، أو في  
بيوت الإعيان كما هي الحال اليوم في الرقص ،  
أو في المعابد ليعتصروا إلى عاداتهم الروحية  
ويقيموا لهم من مظاهرات .

ولما كانت الأمية غالبة بين المصريين «  
وكانت أمرك المدارس المصرية وأوسعها  
انتشارا وأبعدها أثرا في الناس هي المدارس  
الملحقة بالمعابد ، وكانت هذه المدارس هي  
المعقل العصية للثقافة المصرية ، وكان رجال  
الدين الحراس الأولياء على تراث الماضي ،  
فانما استطاع أن يورث أن غالبية المصريين  
كانوا يمدحون حتى عن مظاهر الحضارة  
الأفريقية ، وإن مدارس المعابد قد أغلقت  
أبوابها دون الثقافة الأفريقية . ومع ذلك  
لا شك في أن المصريين الذين تعلموا مناصب  
في الحكومة قد اضطروا إلى تعلم اللغة  
الأفريقية لأنها أصبحت اللغة الرسمية ،  
ولا شك أيضا في أن أكثر أولئك الموظفين  
الذين تعلموا الأفريقية لم يكن حفظهم من  
الحضارة الأفريقية إلا يسيرا . ولعل الحقيقة

العليا من المصريين رأيت في تعلم الأفريقية  
والانتهال من موارد الثقافة الجديدة استكمالا  
لنجاحات أفرادها ، فاستخدمت مدرسين  
خصوصيين أو أدخلت أبناءها في المدارس  
الأفريقية المنتشرة في مختلف أرجاء البلاد .  
ولعل ذلك كان أيضا شأن تلك الفئة القليلة  
من المصريين الذين أخذوا على عهد البطالة  
الآخر يعملون على صبح المسمم بصحة  
الفرقة بلما في الفوز ببركة بمبادل مركز  
الآخرين . لكن لما كانت الطبقة العليا وكذلك  
فئة الوصوليين قليلي العدد ، وكان حظ  
أكثر مواعيل الحكومة المصريين من الثقافة  
الأفريقية تافها ، وكانت الغالبية العظمى من  
المصريين أميين ، فلا بد إذن من أن تغلب  
الثقافة الأفريقية بين المصريين كان معدودا .

وقد أسلفنا أنه لم يحدث تزواج بين  
المصريين والأفريق في القرن الثالث قبل الميلاد  
وأنه في السطر الثاني من عصر البطالة تضرر  
بعض الأفريق وتأخر في بعض المصريين ، مما  
جبل من التهور حدوث تزواج بين المصريين  
المتأخرين والأفريق المنصرين ، وانتشار  
الأسماء المختلطة بين هذين الفريقين ، ولابد  
من أنه قد سبب ذلك أن استبدال أولئك  
المتأخرون بشبابهم المصرية شيئا أفريقية ، لكن  
إذا كان من السليم « أن أغلب المصريين لم  
يعرفوا شيئا من اللغة الأفريقية وآدابها ،  
وأنهم بطبيعة الحال لم يتزوجوا مع الأفريق  
على الأقل لكثرة عددهم وقلة عدد الأفريق ،

فلا بد أيضا من أنهم لم يتخذوا أسماء أفريقية ولا ثيابا أفريقية .

وجملة القول ان المصريين بوجه عام ، وقد كانت لهم عادات ثابتة تقوم على أسس حضارة وديانة ترجعان الى أقدم العصور بقوا مصريين خالصين في مجموعهم ، وعلى حين أن تمسرا منهم استميطخرا في لغاتهم وملبسهم وأسمائهم يصنفة أفريقية تدل القرائن على أنها لم تنسج ثوبينهم ولم تكن أكثر من ملأه خارجي لم يمس جوهرهم .

#### الفصل - الثورين القومية

##### ١ - الأسباب

وليس من العسير أن نتصور سقاء المصريين بعد أن عرفنا كيف سلهم البطالة استقلالهم ، وكيف انقلوا كاهلهم بالضرائب الفادحة والتكاليف المزعمة ، وكيف وضعوا أيديهم على كل موارد البلاد بشكل لم يسبق له مثيل ، وكيف قضوا على الأرستقراطية المصرية القديمة ، وكيف أدلوا الأرستقراطية الدينية والمحاربين المصريين ، وكيف وفروا للأفريق أسباب الحياة التي بالقولها في بلادهم وسحبهم أرفع المناصب وأغضب الفتيان وأوسع الاقطاعات . ولم يجعل المصريون كل ما لقوه من غمت وعسف في سبيل آلهتهم أو ملوكهم الوطنيين ، الذين يقتفون نفس المعتقدات الدينية ، ويتكلمون نفس اللغة ، ويعيدون نفس العبادة ، ولما في سبيل ملك أجنبي وجنس أجنبي بأمره اصطفاة ذلك

الملك لشاركت في حكم البلاد ، وأرغام إبنائها على بذل أقصى الجهد في استقلال مراقي البلاد الاقتصادية . فلا عيب إذن أن يغضب قلوب المصريين بكرهية الأجانب ، وإن اضجر مرجل غضبهم في وجه منصوصي بلادهم ، فقد تضلقت اشجار قهيب الثورات المصرية ثلاثة عوامل لها أبعاد الأثر في حياة الناس في كل زمان ومكان ، وهي العامل الديني والعامل الفرسي والعامل الاقتصادي .

ووسط هذه الظروف كان من اليسر أن يندلع لهيب الثورة لأي سبب ، ولقد امتلات النفوس غضبا وظلما ، وظهر جيش الثورة من ملايين الزراع والصناع والعمال الذين كانوا يضيقون أنفسهم الضيق بالنزبام الاقتصادي الصارم الذي استعده أو أحكم شوابه بطليموس الثاني . ولم يفتقر الثوار الى قادة وزعماء ، فإن البلاد المصريين ، ولقد عصفت البطالة بسكانهم وثروتهم ولعنواهم ، وكذلك رجال الدين ، وقد كسر البطالة ولا سيما أولادهم شوكتهم ، كانوا جميعا يحنون الى استعادة ما كانوا يتمتعون به في الماضي من الكرامة والعزة والثراء .

##### ٢ - الظروف

ونستخلص من الوثائق ان المصريين قد اظهروا نفعتهم على ذلك النظام الاقتصادي الرخيص منذ عهد بطليموس الثاني ، إذ تحدثنا الوثائق عن تكرار وقوع اضطرابات عندئذ بين المزارعين ، كانت تنتهي باضرابهم عن

في عام ١٦٥/١٦٤ ق - م - الثورة التي قام بها زعيم مصري متعرق يدعى ديونيسيوس يتوسيرابيس كان يتولى منصبا كبيرا في القصر الملكي ، وبتنح بفؤوذ كبير بين المصريين ، وقام يدور معار في الحرب ضد أنطيوخوس . ويبدو أن ديونيسيوس كان يريد استغلال الشقاق الأخرى بين بطليموس السادس وأخيه الصغرى لشغل من الأخ الأكبر باستقارة حوامر الاسكندرية ضده ، حتى اذا ما تم له ذلك استغفر وسنة أخرين ضد الأخ الأصغر ، وبذلك ينقذ البلاد من منتصبها . لكن الخلق بب الاخوين افسد على ديونيسيوس خطته ويمكن بطليموس السادس من حريته . غير ان ديونيسيوس تمكن من الفرار واتحاه لبيب اشورة في البلاد ، فاضطر بطليموس السادس الى القيام بعملية حتى اخوة لاحاده الثورة .

ويرى بعض المؤرخين ان مصر رجعت بعداء الخلاف بين بطليموس الثامن وأخته كليوباترة الثانية والفسحت قريتين ، وانه كان يؤيد كليوباترة الثانية الاسكندرية او على الأقل جانب من الاخرين وكذلك اليهوه وحساب من الجيش ، على حين كان يؤيد بطليموس الثامن بقية الجيش وكشمير من المصريين ومن المحتل غالبهم بزعامه الكهنة وان هذه الحرب الأهلية كانت مزيجا من النزاع الأخرى والثورة القومية . ونحن نعتقد ان هذه الحرب كانت فعلا مزيجا من

العمل وفرارهم الى المدينت للاحتماء بالأكلة . وقد اتخذت هذه الاضطرابات تزداد عنفا على مدى الزمن ، فوقعت في عهد بطليموس الثالث أول ثورة شعبية . لكن اشد ثورات المصريين عنفا وأطولها بقاء لم تقع الا بعد انتصارهم في موقعة رفح ، فقد كان ينقض المصريين الحافض الذي يحبه اليهم قنهم أنفسهم ويذكر روح الوثنية الكامن في صدورهم فيخلصوا بلادهم من ليد الأجانب مثل ما تفعل اجدادهم من الكسوس بعد حكم دام مدة قرن تقريبا .

لقد صبر المصريون على بلادهم كادحين الى أن تبين لهم من انتصارهم في موقعة رفح ان تفوق الاطريق عليهم لم يكن لا وهما ، وانهم على الأقل قد لأولئك السادة الذين اوسعهم بظما واستغلالا ، فلا عجب انه ما كاد الجيش يسود من رفح حتى تأجج نار الثورة بين المصريين . وقد بدأت الثورة في الدلتا في عام ١٦٦ ق - م . ولم يأت عام ١٥٦ حتى كانت قد اشتدت وامتد لبيها الى مصر الوسطى ومصر العليا . وقد بلغت نار الثورة سمرت في البلاد حتى عام ١٨٤ / ١٨٣ ق - م . عندما وقعت سايس في قبضة بطليموس الخامس انذى مثل بالزعيماء المصريين اقلع تمثيل بعد أن استهم على حياتهم كيشجهم على التسليم .

ولم يكد بطليموس السادس ينجز من شبح أنطيوخوس الرابع المخيف حتى واجه

الفرار إلى الأسمى والثورة القومية ، وإن تفسر  
 ما عُدت هو أنه كان للثورة الثانية حزب  
 يضم الجانب الأكبر من أغريق مصر والمغارفين  
 وتخدم كهيئة آمون ، ولذلك كان الموقف  
 الطبيعي لتأليه المصريين هو مناصرة ذلك  
 الحزب انتقاء لقليل حقهم على الاغريق ومن  
 هادنهم من المصريين ، فبدوا كما لو كانوا  
 يتصرفون بطلبوس الثامن ، أو بهارة أخرى  
 لم يكن تأييد غالبية المصريين لطلبوس  
 الثامن حبا له وإنما كراهية لأنصار خصمه .

وقد مهدت الثورة في عهد طلبوس  
 التاسع وكانت مثل سابقتها وليدة عوامل  
 دينية وقومية واقتصادية . وقد تلاقت الحال  
 في منطقة طيبة إلى حد أن بطلبوس التاسع  
 رأى أن الطريقة المثلى لقطع دابر الثورة هي  
 القضاء على طيبة لأنها كانت دالما مصدر  
 الثورات ومقلد النازحين ، ولذلك فإنه بعد  
 حرب دامت ثلاث سنوات استولى على طيبة  
 وحرقها تحريبا شديدا ( عام ٨٥ ق . م . ) .

وبين أن طريق طيبة قد قسم ظهر  
 الثورة لكنه لم يفض عليها قضاء مبرما ، إذ

تفسير الدلائل إلى حدوث اضطرابات في عام  
 ٧٨/٧٩ وفي عام ٦٣/٦٤ وكذلك عام  
 ٥٨ ق . م .

وقد خرج المصريون من كفاهم الطويل  
 يعبرون أذيال الغيبة بسبب افتقارهم إلى  
 ما امتازت به أعظم قوات البطالة من النظام  
 والأسلحة والعتاد والأموال ، ويصيب عدم  
 اتحادهم ، فإن طريقا مهما من المصريين بدلا من  
 أن يشتركوا في مناصرة الحكم الأجنبي  
 الجائر اشتركوا في مناصرة مواطنهم ، أو على  
 الأقل وقفوا معهم موقفا ملجئا ، وذلك لشبابها  
 للأحقاد الشخصية وسعيا وراء مصالحهم  
 المادية ، فكانوا بذلك مطية للأجنبي وجروا  
 من أذاه تنفيذ سياسته الاستعمارية .

وإذا كان المصريون قد فشلوا في التخلص  
 من طغائهم الأجانب ، فاعلمهم عسلى الأقل  
 أن يرفعهم على النزول عن سلفهم وجبروتهم ،  
 وانظر إليهم بعين جديدة في السطر الثامن من  
 حكمهم ، ولهذا عن ذلك فإن الثورات القومية  
 كانت من أهم الأسباب التي أضطعت دولة  
 البطالة وعجلت بالقضاء عليها .

## الفصل الثامن

### الآداب — العلوم — الفنون

الآلهات . وقد شيد بطليموس لهذه الدار مبني في الهي الملكي ، بعد بعثت يكون مركزا للبحث العلمي وفي الوقت نفسه مسكنا للعلماء ، حيث كان الملك يستضيفهم على نفقته فضلا عما كان يجريه عليهم من المراتب ، لتبلا تبذلهم مطالب العناية عن الانصراف كلية الى البحث والتفكير . ولم يكن الهدف الاول لهذا المعهد التعليم وانما البحث العلمي ، ومع ذلك كان المتخصصون بالمعاضرات في الفاعات العامة وما شبه ذلك في المدينة . ويبدو من الدور الذي قامت به الاسكندرية في الحركة العلمية ان كل فروع البحث العلمي كانت ممثلة في جامعتها .

ولكن يتيسر للعلماء الاضطلاع بمهنتهم "استت المكتبة الكبرى . واذا كان بطليموس الاول هو الذي وضع نواة هذه المكتبة بجوار دار العلم فانه بطليموس الثاني هو الذي تمهد المكتبة برعايته حتى غدت اعظم المكتبات في العالم القديم . ويبدو انه انشأ كذلك المكتبة الصغرى التي كانت تكون جزءا من مسجد السيرايوم . ونحن نميل الى الاعتقاد بما تذكره بعض المراجع القديمة من انه عندما احرق يوليوس قيصر

استمر الكتاب في هذا الفصل على الآداب والعلوم الاغريقية ، لانه مصابونا بخلل اغتالاما تاما الآداب والعلوم المصرية في خلال هذا العصر .

اولا - الآداب

١ - دار العلم والمكتبة

يرجع ان بطليموس الاول هو الذي خطا حوالي عام ٢٨٥ ق . م . الخطوة الاولى في سبل انشاء دار العلم والمكتبة ، فقد نطن ذلك الماهل الاوجب الي انه كانت القوة ضرورية للحدود عن حياض مملكته وتوسيع رقعته ، فان رعاية العلم والفن كانت امسح وسيلة تمكنه وسلاسته المجد والخلود . ومن لم اخذ يدعو الي الاسكندرية الكثير من فحول اسراء الارباق وادبايهم وعلمائهم وفلاسفتهم وفنايهم . وقد كان في طلبة فيولفه وبسيريوس القليري الذي اوحى اليه بانشاء دار العلم ( الجامعة ) والمكتبة .

وقد انشئت دار العلم على نسط مدارس الحب الصلعية ، اذ يبدو ان بطليموس الاول اقتصى اثر المدارس الفيشاغورية فجعل دار العلم في الاسكندرية تلفه حول عبادة آلهات العلم والفن ، ولذلك سميت موئل هذه

الإسطول المصرى في خلال الحرب  
الاسكندرية ، ، وامتد اللهب إلى رصيف  
البناء وأحرق المباني المجاورة له ، ذهبت  
المكتبة الكبرى طعنا للنيران ، بدليل ان  
أنطونيوس عوض كليوباترة عن تلك الخسارة  
الفاخرة ذهبها ٢٠٠,٠٠٠ موجد من مكتبة  
برجام .

وقد أدى علماء الاسكندرية خدمات  
جليلة للأدب الاغريقى ، عندما ابتدعوا فن  
لقد النصوص القديمة مقارنة المخطوطات  
المختلفة ، وحفظوا أصول كثير من المؤلفات  
القديمة . ولمسلهم ما يدين به المعدلون  
لعلماء الاسكندرية ما بذلوه من الجهد في  
تحقيق الاشعار اليونانية والسرديات ، وكان  
فن النقد الاسكندري يرتكز على قواعد  
ثابتة لقيمة مخالف لما لمولد فن النقد  
التخيلي الذي ابتدعه الرواقيون فيما بعد في  
برجام .

## ٢ - الشعر

وشعر الاسكندرية بحق عاصمة الأدب  
الاغريقى في العصر الهلنستى ، حتى انه ينظر  
أن لسبح أن أحدا من فحول شعراء ذلك  
المصر لم يرد الاسكندرية أو يعثر فيها  
لبنهم برعاية ملوكها ويمل من مراردها  
فلا عجب أن كافة أنواع الشعر الاغريقى ،  
قيما عدا الكوميديا ، قد تأثرت في خلال هذا  
العصر بالشعر الاسكندري .

وكانت أحب ألوان الشعر الى قلوب

الاسكندريين الشعر القصصى والمرثيات  
والشعر الغنائى والمقطوعات القصيرة . وقد  
كان هذا الشعر اثرافيا خالصا ، واستند  
بعضه من النون القديمة ، والبعض الآخر من  
مواطف الماسرين وخيالهم . ولذلك فانه  
بينما يتحير بعض الشعر الاسكندري تجديدا  
لبعض فنون الشعر القديمة ، يشتر البعض  
الآخر مبتكرات جديدة في شكلها وفكرها .  
وعلى كل حال فان جميع ألوان الشعر  
الاسكندري لا تمت بصحفة الى مصر  
أو شعبها ، حتى أن ليوكريخوس عندما كان  
يتحنن بوصف الطبيعة كان لا يصف جمال  
الطبيعة في مصر والماء في جزيرة كوس  
أو مدينة سيراكوز . وكان الشعراء الاغريق  
لا يملكون عن مصر ، حتى بعدما عاشوا فيها ،  
فلا ما قرأوه في القصص الاغريقية أو ما كتبه  
هيروودوتوس وأثلاثون ؛ وكانوا لا يوجهون  
فتايتهم الى شيء من المميزات المحلية  
إلا ما لا يستطيعون استخدامه في أطراء الملك  
الذى يرعاهم .

ولعل أهم مميزات الشعر الاسكندري  
انه كان خاليا من العواطف السياسية والشعور  
بالقوى صحر الالهة القديمة ، في حين انه كان  
كلها بأفان العلم التسعة ، وحمورير الحضارة  
الانسانية ، وامتداد الحياة البسيطة التي  
تخالف حياة الناس البرية المقيدة وتصوير  
الواقع تصويرا دقيقا .

وبتمتير كاليبخوس أبرز شعراء

الذين تأثروا بالمشائين « وكلاهما يحوس أبرز  
مثل المؤرخي الاسكندرية الذين تأثروا  
بدمرمة اسقراط .

ومن حسن الحظ انه في الوقت الذي  
خضع فيه التاريخ تلك المؤثرات التي  
اقبدهته ، وجد اشخاص يساهمون الي الحقيقة  
وشاركوا فعلا في الأحداث التي كتبوا عنها ،  
مثل بطليموس الأول الذي استمد معلوماته  
ليما كتبه عن الاسكندر من الوثائق الرسمية  
ومن مذكراته ومشاهداته الخاصة ، فكان  
كتابه فريدا الى بابه بوضئ ، لكنه مع الأسف  
لم يتسجل اليها الا بعض من طريق  
أريافوس .

وفي عهد بطليموس الأول كتب حكمانايوس  
من أهدرا عن تاريخ مصر من وجهة نظر  
الافريق . والتاريخ المصري الذي يمكن أن  
يؤتي به من ذلك العصر هو ما كتبه مانو  
كبير كفة هليوبوليس ، واعتمد له على  
الوثائق الهيروغليفية وهذه لبطليموس  
الثاني ، وكان كتابا ضخما يقع في ثلاثة أجزاء .

وإذا كان التاريخ يحتل مكانا الصدارة  
في أثر العصر الهيلينستي ، فقد كان الجغرافيا  
مكانا هام فيه ، الى مع أن ما كتبه فيها العالم  
الجغرافي ارستوستهس يعتبر أعظم مثل للأثر  
الاسكندري . وقد كانت سعة اطلاع هذا  
العالم وتبحره في مختلف العلوم والفنون  
مضرب الأمثال ، فانه كتب في الشعر والفلسفة  
وقواعد اللغة وقواعد اللغة والتاريخ والجغرافيا ،

الاسكندرية ■ النصف الأول من القرن  
الثالث قبل الميلاد ، وكان لا يزال يفرض  
الشعر في القسط الأخير من حياته في عهد  
بطليموس الثالث . ولم يولد في مصر شاعر  
هيلينستي من الطراز الأول الا ابولونيوس  
الذي أطلق عليه لقب الروديسي ، لأنه استقر  
في رودس وأصبح أحد مواطنيها بعد طرده  
من منصب أمين المكتبة الكبرى .

وكان من أشهر شعراء القرن الثالث  
ثيوكريتوس السيراكوزي ، الذي عاش فترة  
في الاسكندرية وأصبح شاعر بلاط بطليموس  
الثاني . وإذا كان العصر الذهبي للمصر  
الاسكندري لم يمر أكثر من نصف قرن يسته  
من حوالي عام ٢٩٠ الى عام ٢٤٠ ق . م .  
فان العصر الذي يصور حياه الريف يلقى  
منطقا حتى القرن الأول قبل الميلاد .

### ٣ - الشعر

ولم يكن للاسكندرية في الشعر الهلنستي  
من الأثر مثل ما كان لها في الشعر . ولقد تأثر  
الشعر في هذا العصر بعاملين كان لهما أسوأ  
الأثر فيه . أما العامل الأول فهو أثر المشائين ،  
اذ أن غرامهم بجميع الحقائق كما هي المضي  
الى الخلط بين الحقائق والتعصص دون أي  
تمييز بينها . أما العامل الثاني فهو أثر  
اسقراط وتلاميذه وكانوا يختلفون البوائع  
ليكون أثر العواطف في النفس عميقا ، أو  
يعورون الحقائق ليكون لها منوى ظاهر .  
ويشير ساطيروس أشهر مؤرخي الاسكندرية



\* لكن مؤلفاته في العلمين الأخيرين غابت سائر ما كتبه . وأهم مؤلفاته في الجغرافيا كتابان كان أحدهما بحثاً في قياس أبعاد الكرة الأرضية ، قدر فيه محيط الكرة الأرضية بتقدير يشير إلى الإعجاب .

ثانياً - العلوم :

١ - الطب والجراحة :

ولقد بلغت العلوم الأفريقية شأواً بعيداً في العصر البطلمي بعد التطورات المرفقة التي خلقتها قبل ذلك العصر . وقد خدم الطب بوجه خاص قديماً كجبرا ، وكان أبرز علماء الطب في الاسكندرية هروفيوس العالم في التشريح ، وأراسيترانوس العالم في وظائف الأعضاء . وقد كانت أبحاث هروفيوس التشريعية تدور حول جسم الإنسان والأعصاب والكبد والرئتين وأعضاء التناسل ووجه هذا العالم غاية كبيرة إلى دراسة المخ والأعصاب والقلب وفريقات النض . وتدل الأبحاث على أنه كان يستخدم أداة بدنية لتحديد سرعة النبض . وقد كان طبيعياً أن يؤدي تقدم التشريح إلى تقدم الجراحة . ومن أسباب عجز طب الاسكندرية اختراع آلات جديدة للجراحة ، واستخدام هذه الآلات بجراحة ■■■ .

وكان أراسيترانوس أكثر توفيقاً من هروفيوس في أبحاثه عن القلب والمخ ، وذهب إلى مدى أبعد منه في التفرقة بين الأعصاب الحسية والأعصاب الحركية .

وحوالى عام ٢٨٠ ق - م . أسس فيليتوس مدرسة طب جديدة في الاسكندرية تدعى المدرسة التجريبية . وقد كان فيليتوس أحد تلاميذ هروفيوس ، لكن مدرسته تهاضت عن التشريح والفسيولوجيا ، لأنها كانت ترى أن الطب ليس مختصاً إلا بعلاج الأمراض دون الوقوف على أسبابها . ولذلك فإن واجب الطبيب هو أن يعطي العلاج الذي يشفي أمراض الداء التي يراها ، على أن يبتدى إلى ذلك ملاحظاته الشخصية والتطعيم والحالات اكتسابية . ولا يبعد أن المدرسة التجريبية قد أدت للطب خدمة كبيرة بمناخطة الميول النظرية التي كانت على الدوام أحد مواطن الضعف في الطب الإغريقي .

٢ - علم الحيوان والنبات :

وقد كان على رأس المشتغلين بدراسة علمي الحيوان والنبات في العصر البطلمي عالمين بارزان ، كان أحدهما تلميذاً لهما لارسطو يسمى ليونراسطوس ، وقد فسر لارسطو الأول في استمالاته ، والآخر يسمى استراتون وكان معلم بطليموس الثاني . وأهم ما أصابته دراسة الحيوان في هذا العصر أن العالم الإغريقي أصبح يأنف عنداً كبيراً من الميول التي . ولا شك في أنه قد ساعد على ذلك حقيقة الحيوان التي أنشأها بطليموس الثاني ، وكانت تضم عدداً كبيراً من مختلف أنواع الحيوان والطيور والزواحف .

أما علم النبات فقد كان أكثر توفيقاً بفضل

يستخدمونه منذ العصر الهيلينستي حتى عهد قريب جدا . وأهم ما يمتاز به هذا الكتاب ما اختاره فيه أفقليدس من المعلومات المثلّم بها كالتماريّف والفروض والبدهيّات ، ولا سيما النظريّات التي تستحق أن تسمى « عناصر » ، لأنها أساسية وتنفوذ غيرها في الإلهية وفي الطبيعيّ . وقد وضع أفقليدس كتابا أخرى ثم تكن مقصورة على الهندسة ، بل شملت قروع الرياضيات كما كانت معروفة حينئذ .

ويتصل علم الفلك بالهندسة اتصالا وثيقا ، وبين القرنين العصر الهيلينستي بلسو من الفضل غير قليل لعلماء بابل ، الذين جمّعوا منذ عهد بعيد ملاحظات تجريبية عن الأجرام السماوية . وقد كان من أبرز علماء الفلك أريستارخوس من ساموس ، الذي عاش في القرن الثالث وكان أول من نادى بأن الأرض لا تدور حول نفسها فقط وإنما تدور أيضا مثل الكواكب حول الشمس ، لما أعظم علماء الفلك في الإسكندرية وفي العاّم القديم فاطب فقد كان يعيش في القرن الثاني قبل الميلاد ويسمى هيارخوس ، وقد كان أعظم كشافه تعديدا الاستدلال الرّبيعي والمخبري « وتقدير متوسط طول الفجر القسري تقديرا يبعث على الصعنة ، لأنه لا يفل الأمانة واحدة عن التقدير المقبول اليوم .

وكان أرخميدس السّيراكوزي أعظم هيكرة مبتكرة بين علماء الرياضيات الآخرين .

أبحاث نيوفراسطوس التي رقت دراسة النبات إلى مستوى العلم البحت ، وتمخضت عن معلومات تثير الدهشة في كثير من الأحيان لأن أتيكروسكوب لم يكن معروفا عندئذ ، ولأن علم الكبياء كان لا يزال المهد . وبما كان من أمر كشاف هذا العالم فأنما لا يمكن أن تقارن بفعله في وضع أساس علم النبات وفي تحديد السبيل لمن أتى بعده من الباحثين المتأخرين .

### ٣ - العلوم الرياضية

وتحتل الهندسة مكانة سامية بين رياضيات مصر الهيلينستي ، التي لماقت في تقدمها سائر فروع العلم الأخرى . لأن الهندسة كانت أساس كل الرياضيات عند الإغريق لعدم درايتهم بالأرقام . ولعل ما طفته الهندسة من الاقتان كان سببا في عدم تكبير الآخرين في اختراع الأرقام ، ولا سيما أن الهندسة كانت تشمل الكثير مما يعتبر اليوم من علم الجبر . ولا يمكن المبالغة في تقدير الخدمات التي أسداها أفقليدس إلى الرياضيات . ويبدو أن هذا العالم كان يعاصر بطليموس الأول ، وعلى كل حال فإنه أسس في الإسكندرية مدرسة تعلم فيها كثير من الرّاهبين المبرزين . ويُقرّد اسم أفقليدس بأشهر مؤلفاته وهو كتاب في الهندسة يعرف باسم « العناصر » . ولم يصّر كتاب في العالم ، باستثناء الكتب السماوية ، مثل ما صر هذا الكتاب ، الذي استبسر تلاميذ الهندسة في مختلف أنحاء العالم

وقد اخترع أرخميدس ثوبه المشهور (الطنبور) لرفع الماء عندما كان يقيم في مصر ، لكنه كان لا يعلق أهمية كبيرة على مثل هذه الأشياء التي كان يعتبرها مجرد تسلية ، فقد كان يتفق مع أفلاطون في الرأي القائل بأن الفيلسوف يجب ألا يستخدم علمه في الأشياء العملية ، وجربنا أن نذكر أنه وضع أساس علم الإتفاضل والتكامل في اللانهاية وعلم دراسة المراتب والمبادئ الأولية في الميكانيكا .

## ١ - المقابر

وتدل نتائج الحفريات على أن أغريق مصر قد استخدموا مقابر من ثلاثة أنواع : كان أولها عبارة عن حفر تمحط في الصخر أو تحفر في الأرض ، ويعد أمثال هذه المقابر البسيطة في مختلف أنحاء العالم الأغريقي . وأهم مظاهر النوع الثاني اللبن المصنوع من عجول مستطيلة الشكل تبنى أو تمحط في جوانب دهبليز أو غرفة . وإذا كان هذا النوع فينبقى الأصل ، فقد خلع الأغريق عليه طابعا لغريبيا . والنوع الثالث مقدوني الأصل ، لكنه أغريقي في تخطيطه وعبأته وزخرفته ويسمى مقابر الأرائك .

ونستأثر منظر الأرائك التي ترجع إلى القرن الثالث والنصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد بالمتأثرا من سلم وفناء مكشوفه وعرفة مربعة وممره خلفية تقع جميعه على محور واحد . أما مقابر الفترة التي تلت من منتصف القرن الثاني حتى نهاية عصر البطلمة فقد كانت أبهر عناصرها هي فناء متوسط مهيض به الغرف . وقد تضررت بعضه المقابر من مقابر ذات أريكة مثل مقبرة مسروق النورديان حيث كان المدفن يتم في تابوت على شكل الأريكة يوضع في الغرفة الخلفية ، إلى مقابر ذات أريكة وفجوات مثل مقبرة الساطبي

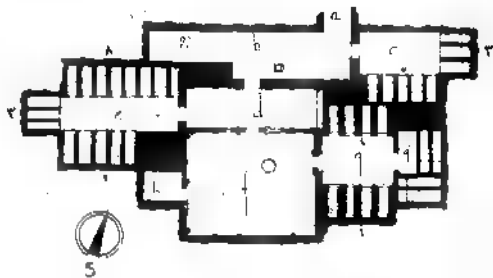
وقد اخترع أرخميدس ثوبه المشهور (الطنبور) لرفع الماء عندما كان يقيم في مصر ، لكنه كان لا يعلق أهمية كبيرة على مثل هذه الأشياء التي كان يعتبرها مجرد تسلية ، فقد كان يتفق مع أفلاطون في الرأي القائل بأن الفيلسوف يجب ألا يستخدم علمه في الأشياء العملية ، وجربنا أن نذكر أنه وضع أساس علم الإتفاضل والتكامل في اللانهاية وعلم دراسة المراتب والمبادئ الأولية في الميكانيكا . وقد نطقت كذلك في عهد البطلمة الأوائل دراسة الميكانيكا وكان أبرز علمائها كتيبيوس الأكبر ، الذي يحتل انه عاش في عصر بطلمبوس الثاني أو الثالث . وقد ابتكر هذا العالم آلات تعمل بالقوة الهوائية وأخرى بالقوة المائية . وبأى بعد هذا العلم بهوالى ربع قرن فيلون البيزطلى الذي وضع كتابا في تسعة أجزاء على الأقل يدعى مجسوة الميكانيكا .

## ثالثا - الفنون

وستفسر الكلام هنا على فنى المصادر والنحت ، لأننا لا نعرف عن موسيقى الناصر الهيلينستى أكثر من أنها كانت تلعب دورا هاما في حياة العامة والخاصة ، ولأنه لم يبق من التصوير إلا القليل النادر الذى نراه على جدران المقابر .

## ١ - النحت

ستناول في ايجاز أقسام هذا الفن وهى : المقابر والمنازل والمآبد عند الأغريق وعند



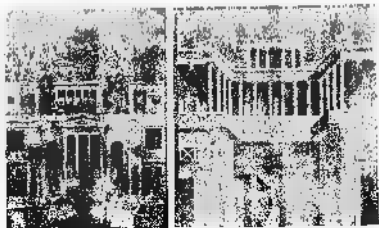
نوعين . واحد هذين النوعين بسيط يتألف من بر تشعق في قاعها فجوة يدفن فيها الميت . وكان هذا النوع المتوضع من المقابر شائما جدا في عصر البطالمة . وكانت مقابر النسوع الثاني تتألف من هيكل جنازى صغير تنزل من أرضيته بر كانه الميت يدفن في قاعها . ولما كانت مقابر هذا النوع أغنى من مقابر النوع الأول ، فإن هذا يفسر قلة عدد مقابره في عصر يتار بفقر أهالى البلاد بوجه عام فقرا مدقعا .

وباستثناء مقبره يتوزيريس التى اختلط في زخرفة بعض اجزائها الطراز المصرى مع الطراز الاغريقى كانت المقابر المصرية البطلمية مصرية خالصة لى عمارتها وزخرفتها ولصحبها الجنائزية .

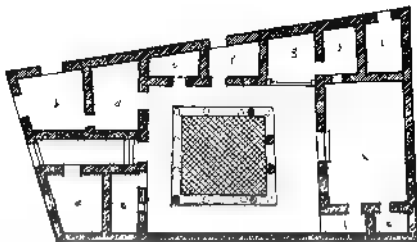
ومن لم يكن القول بأن المصريين والاغريق قد احتشعوا بوجه عام بطراز عمارتهم الجنائزية

ههنا استعملت الأريكة والفجوات في الدفن الى مقابر ذات قجوات وأريكة مثل مقبرة سيدي جابر . ومقبرة حديقة أنطونيناس حيث استعملت الفجوات فقط في الدفن ولم تكن الأريكة الا زخرفة بارزة ، وأغبر الى مقابر ذات قجوات ومحاريب . حيث اختتمت الأريكة قطما وكالمنزلى يدنون في المقجوات وفى توابيت كالتصاويق كانت توضع في المحاريب . وما يصدر بالملاحظة انه اذا كان طابع هياكل هذه المقابر وزخرفتها الحريقيا ، فلانها لم تظل أحيانا غليظة من بعض العناصر المصرية ، وكذلك كانت أيضا حال النصب الجنائزية .

أما المصريون عالم ، سواء أكانوا يعيشون في الاسكندرية ام في المدن والقرى المصرية ، قد احتشعوا بأساليب دفنهم التقليدية . فكانوا يدنون موتاهم اما في مقابر قديمة أعادوا استخدامها ، أو في مقابر حديثة كانت على



صورتان كاتبا تزيين جدران منزل في بومبيي . لكن يبدو من خصائص عماره المباني التي في الصورتين ان هذه المباني كانت هيلينستية وتماثل ما اقيم منها في مصر أو آسيا الصغرى ومصرىا .



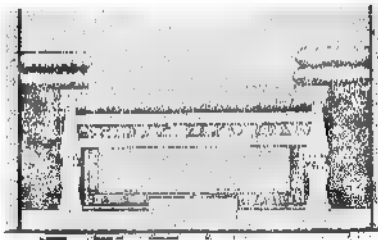
منزل فی دهلوس



منزل فی ایران



لوحة تزيين جدار المقبرة رقم ١ بمصطفي كمال إبراهيم الإسكندرية ، وتصور المرأة ثلاثة  
فارسين بينهم صبيتان ، ويبدو أنهم كانوا جميعا أفراد أسرة مدفونة نبيلة دفنت في هذه المقبرة.



نابون في شكل أديتكة في المقبرة رقم ٣ بمصطفي كمال إبراهيم الإسكندرية ، وهو  
الأديتكة الجنائزية ، وقد صممت من الحجر وطليت بالجبس والأكوان ، تمطينا صورة رائعة  
من المستوى الرفيع الذي ينفذ صناعة الأرائك، التي كانت تستخدم في الحياة الدنيا ، وتصنع  
من الخشب وترصع بالحاج والمعادن والذهب النقيس ، وتعرض بالطنافس والوسائد .

خاليا من التأثيرات الأجنبية ، فيها عدا بعض العناصر الطبقية التي تسبكت في بعض الحالات من أحد الطرازين الى الآخر ، وتنهض بذلك دليلا على المدى المعبود الذي بعته محاولة مزج طرازي المسارة المصري والافريقي .

### ب = المنازل

ومع أنه لم يطر في مصر كلها الا على عدد قليل من المنازل الافريقية في النجوم ، فانه بفضل معلوماتنا عن المنازل الافريقية لا باقى انحاء العالم الافريقي ، والأدلة المستمدة من الوثائق البردية ومقابر الاسكندرية وسينة بطليموس الرابع التي كانت تعبر قصرا عائما ، نستطيع أن نستخلص أن فريق الاسكندرية قد استعملوها ، مثل معاصريهم في سائر انحاء العالم الافريقي ، نوعين من المنازل يتسبب احدهما النوع الذي كان شائعا في براينى بالاناضول في القرن الثالث قبل الميلاد ، بدليل ان مقابر سوق الورديان والساجين والاشوش وسيدى جابر تتألف من الماسر الرئيسية التي كانت توجد في ذلك النوع من المنازل . اما النوع الثاني فيلبه ذلك النوع من المنازل الذي اشتهرت به جزيرة ميلوس في القرون الثاني قبل الميلاد ، ووجدت عناصره الرئيسية في مقبرتي حميفة أنطونيوس والمكس .

وتشير الفرائن الى انه كانت توجد منازل افريقية في بطوليس وبعض مدن النجوم ، ومن المحتمل أيضا في قرطاج . اما فيما عدا ذلك فبين ان الافريقي وكذلك المصريين كانوا

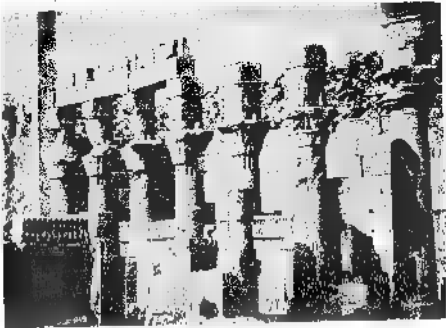
يتزولون في منازل مصرية لم تكن الا استنساخا لأنواع المنازل التي كشفت عنها الحفائر في تل المصارغة ، فهي مثلها تتألف من مدخل وصالة وسطى وغرفة للنوم ومطبخ ومخازن ، ويجب أن نبين أن انقاذ الافريقي في المقابر منازل من الطراز المصري لا يرجع الى تأثيرات حضارية وانما الى الظروف وجدوها اتى اطلت ذلك ، فقد كان أغلب هؤلاء الافريقي جنودا وبعضهم تجارا ، وكان الجنود ينحدون مساكن في بيوت مصرية . ومن المحتمل أن هؤلاء الجنود والتجار لم يعيشوا من قبل في منازل تختلف كثيرا عما وجدوه من المنازل المصرية . ولذلك يبدو طبيعيا أن الفريق الأتاليين بوجه عام استعملوا المساكن المصرية التي وجدوها فيما نزلوا به من المدن والقرى المصرية . ولعل بعض الزمن وتناسب هذه المنازل مع البيئة ألف الافريقي سكانها .

اما عن طابع عمارة المنسازل البطلمية ورخولها فان الفرائن يروى بأنه قد بنى بوجه عام مصريا غالبا أو افريقيا غالبا .

### ج = المعابد

وتعددت المصادر القديمة بأن الاسكندر الأكبر والبطالمة قد شيدوا معابد للالهة الافريقية مثل ما شيدوا للالهة المصرية ، لكن لسوء الحظ لم تكتشف الحفائر عن بقايا اى معبد افريقي كبير ، وان كانت قد كشفت عن بقايا معبد دورى صغير يبدو أن طرازه الافريقي لا تنسبه الى تأثيرات مصرية ، كما





تعمیراتی کاروں کے لیے ایک عمارت



پورے ملک میں تعمیراتی کاروں کے لیے

وجملة القول ان العمارة الدينية في عصر البطالة ، سواء آكانت مصرية أم غربية ، لم يطرئ اليها أى تأثيرات أجنبية .

## ٢ - النحت :

وتشير الدلائل الي أنه كانت للاستكندرية مدومة للنحت الإغريق ذات مميزات خاصة تطلقها عن مميزات مدارس النحت الصليبية ، والى أنه اذا كانت هذه المدرسة ، مثل المدارس الأخرى المعاصرة ، قد استمدت طرازها من تراث أساطين الفن الإغريق في القرن الرابع ، فلما لم تلبث أن اهرقت بطابع معين كان أخص مميزات عدم إبراز مقام الوجه والجسم ، وعدم معالجة تفاصيل الجسم ، وعدم استخدام الزوايا الحادة ، ومثل السطح صقلا شديدا ، لكن الاستكندرية لم تستخدم هذا الطراز المثالى فحسب ، لأنها يوم ابتكرت طرعا جديدا من فن النحت لمخضت عنه الأبحاث التى سارت قديما في جامعتها ، وكان عبادة من دراسة أجناس الناس وطباعهم وحرفهم ، ابتكرت طرازا والحقا يولهم هذا الفرق من الفن .

ولعل المخططات التى كشفت عنها العثريات على أذ الفنان الإغريق لم يعتكر فن النحت في مصر طوي عهد البطالة . فقد استمر الفنان المصرى يزاول نشاطه لا على جدران المعابد وتصب الموتى فحسب ، بل في شتى الميادين التى كان أسلافه يلقونها منذ غير الزمن .

كشفت أيضا عن بقايا كل طرز الأعمدة الإغريقية . واذا كانت هذه البقايا تستباز بطابعها المحلي ، وهو طابع الاسكندرية ، فان أغلبها يفرق بحت . ومع ذلك فقد عثر على بعض تيجان الأعمدة تخطيط فيها العناصر المصرية والإغريقية ، لكن يشهد أنها كانت مستخدمة في معابد إغريقية أو مصرية لأن مثل هذه الصالون الدينية تنصص دائما بالمحافظة والاستسباك بالتقاليد . واذا كان الأفراد من سائر الإغريق قد حرصوا بوجه عام على أن يكون طابع مساكنهم في الدنيا وفى الأخرة إغريقيا ، فانا لا نمك في أن معابد الآلهة الإغريقية كانت أكثر استسكا بتقاليد العمارة الإغريقية .

وقد كشف عن عدة كبير من المعابد التى أقيمت في هذا العصر للآلهة المصرية ، وهى مصرية صهيبة في تخطيطها وعمارها وزخرفتها ، ولا أول على ذلك من أن الإغريق لم يسنطهموا لأريخها أريخا صحيحا قبل حل ملابس اللغة المصرية القديمة . وتباز هذه المعابد بظاهرتين وهما : أولا ، كثرة ما استخدم فيها من الأعمدة التى يطلق على رؤسها الرعوس المركبة ، وفنته أن المصريين ابتكروها في أثناء لهذه العصر الصاوي . وثانيا ، كثرة ما استخدم في صالات الأعمدة بوجه خاص من جدران قصيرة تبلغ نصف ارتفاع الأعمدة تقريبا . وليست هذه الجدران القصيرة غريبة على العمارة المصرية ، إذ نجد أمثلة لها في معابد الدولة الحديثة .

الأكبر بطراز اغريقى ، لكن القطعة متنوعة من الجرانيت أو البازلت وهما مادتان غريتان عن الفن الاغريقى . ومثل تماثيل يصور ملكا او ملكة من أسرة البطالة بطراز مصرى . ولما كان القياس الحقيقى فى أى فن من الفنون هو الطراز « لانه أبرز صورة لأفكار الفنان وأتصيح مظهر لطابع حضارته » فإن اختلاط العناصر أو الصنعة لا يمكن أن يتعوض دليلا على امتزاج الطرازين المصرى والاغريقى وبما لذلك على امتزاج بينك الحضارتين وتفاعلهما . لقد كان اختلاط العناصر نتيجة طبيعية لاجتماع الاغريق والمصريين فى بيئة واحدة ، وكذلك لفترة الفنان على أن يكيف

وتكتشف دراسة فن النحت فى عصر البطالة عن : أولا ، أن أكثر النفوذ التى سكتها البطالة وأقلب قطع النحت التى ابتكرتها مدرسة الاسكندرية افرقية فى طرازها وعناصرها وصفتها ، وأن أكثر قطع النحت المصرية مصرية بحتة فى مبادئها ومظهرها وجوهرها .

وثانيا ، أن الكثير من النفوذ وقطع النحت لقطعت فيها العناصر دون الطرز ، مثل تصوير زهرة اللوتس أو قرص الشمس وسط قرنين على نفوذ بعض البطالة ، فهذه عناصر مصرية ومع ذلك فإن طراز تلك النقص سود افريقى . ومثل قطعة تصور رأس الاسكندر

### تمثال لقطع النحت التى لقطعت فيها العناصر دون الطراز



تمثال لبطليموس الزعاهر مصمغوع من الجرانيت وطرازه مصرى .



رأس لالاسكندر الأكبر مصنوعة من الجرانيت لكن طرازها افريقى .

لا يزالون يذكرون مجدهم التائد ويعتزون  
بتقاليدهم ولا سيما ان الفن عندهم كان وثيق  
الصلة بالديانة والمهم كانوا شديدي  
الاستياك بديانتهم .

وما يجدر بالملاحظة ان القيمة الفنية لقطع  
النحت الاغريقية أخذت تقل بعد بداية القرن  
لثاني قبل الميلاد . وقد كان ذلك نتيجة طبيعية  
لخسوف الروح الاغريقي بين افريق مصر في  
السطر الثاني من عصر البطالة ؛ لكن كما بقى  
الاغريق محتفظين بنابغهم خالصا فما برغم  
ما اختور روحهم من الضعفة ؛ كان عنهم قد  
بنى كذلك محتفظ بقاء طرازه برغم ما طرأ  
عليه من تدهور .

ولقد كان طبعيا ايضا انه حين انتفى  
الروح القومى بين المصريين عقب موقعة رفح  
ان ينتفى عنهم كذلك ؛ لكنه لم يكن اختفاء  
طويل الأمد بسبب الفشل الذي انتهت اليه  
ثورات المصريين .

ولما كانت النغود تربنا انما قد بغيت  
اغريقية خالصة في طرازها حتى نهاية عصر  
البطالة ؛ وكانت النصب الجنائزية ولوحات  
المعادن بقيت كذلك مصرية خالصة في  
طرازها حتى آخر هذا العصر ؛ لاننا لا نعدو  
الحقيقة حتى نقرر ان كلامى الفنين المصريين  
والاغريق قد احتفظ بوجه عام ابان ازدهاره  
وابان تدهوره بطابعه خالصة تيا من اثر الفن  
لآخر ؛ طالما بقى هذان الفنان متشبعين في  
مصر البطلمية ؛ اذ يدعو ان النسبى كانوا

نفسه حب الطروق التي يعيش في كنفها ؛  
وليس نتيجة لتفاعل الحضارتين المصرية  
والاغريقية ؛ لأن هذه العناصر ظواهر سطحية  
على حين ان الجوهر نفسه وهو الطراز قد  
بقى مصرياً و اغريقيا خالصا .

وثالثا ؛ ان في عهد قبله من قطع النحت  
محاولات ظاهرة لدمسرة لمرج الطرازين المصري  
والاغريقي ؛ لكن قلة عدد هذه القطع يدل  
على ان المصريين و الاغريق قد أدركوا بدوهم  
الفنى الرفيع بيت مثل هذه المحاولات لبعد  
الفقة بين الطرازين . وبدل مقاومة هذه القطع  
بالقطع الأخرى التي كان طرازها مصرياً بحتا  
أو افرقيا بحتا على ان الأخيرة لا تفوق  
الأولى في العدد فحسب بل كذلك في القيمة  
الفنية . ولعل أولئك الفنانين الذين حاولوا  
في عصر البطالة مزج الطرازين المصري  
والاغريقي في فن النحت يشبهون الموسيقين  
المصريين الذين يحاولون اليوم مزج  
الموسيقى الشرقية بالموسيقى الغربية .

انه لم توجد الا طريقة واحدة ناجحة لمرج  
مثل هذين الفنين اللذين كانا يشتغلان عن  
بعضهما اختلافاً بعيد المدى . "ما هذه الطريقة  
فهي ان يلقى أحدهما في الآخر بان يتغلب  
أحدهما على الآخر بحيث يفتى عليه ففصلا  
ميرما ؛ لكن ذلك كان عزيزا على الاغريق  
باعتبارهم سادة البلاد وأصعب حضارة  
كانوا يتهربونها أسس الحضارات جسيما ؛ كما  
كان عزيزا ايضا على المصريين ؛ فقد كانوا

أحدهما من الآخر إلا بعض المظاهر الشكلية فقط .

ومرر كذلك محاولات قبلية غير ناجحة مزج الطرازين المصري والأغريقي . وهذا يشير إلى أن محاولة مزج الجنسين كانت كذلك محدودة وغير موفقة .

وبما أنه يبدو جليا واضحا أن لدهور الفن الأغريقي قد حدث في أعقاب انقطاع وفود الأغريق إلى مصر ، فإنه يمكن القول أن ضعف الروح الأغريقي في مصر لم يبدأ قبل القرن الثاني قبل الميلاد ولم يكن نتيجة لاحتلاله للأغريق بالمصريين .

وكما بقي الفن الأغريقي أقربا حتى نهاية عصر البطالة منها العنط مستواه ، فلا بد من أن الروح الأغريقي قد بقي كذلك أغريبا مهما انحدره من الضعف .

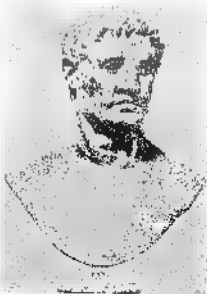
ويبدو أن كل ما مرر بنا أن نتائج الإفادة الممتدة من الآثار ، فريد النتائج التي استخلصناها من مختلف المصادر الأدبية .

يدركون إدراكا صحيحا أنه حصل بين الفنين قوادق لا يمكن تخطيها ، وإن قطع الفن التي تختلط فيها العناصر دون الطرز تنكس أثر البنية لا أثر الحضارة التي يعبر عنها الطراز . أما تلك المحاولات التي كانت تستهدف مزج الطرازين فإنها قليلة في عددها محدودة في جهودها ضئيلة في قيمتها الفنية بحيث يمكن اعتبارها الميكاسا لروايات الردية أو ذوي نفس ينقصه التهذيب .

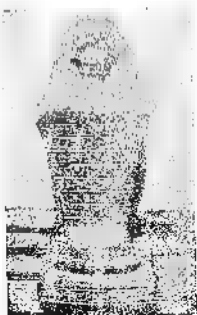
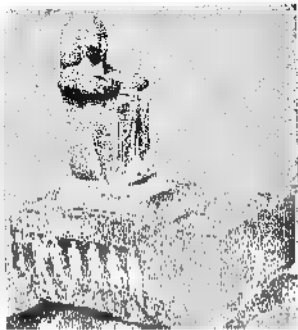
\*\*\*

ولا ريب في أن الفن البطلمي يعطينا صورة سبحة عن الحياة الاجتماعية في مصر في عصر البطالة . لقد شهدنا أن غاليه الفن الأغريقي وغالبية الفن المصري كانت أفريقية خالصة أو مصرية خالصة ، ولذلك لابد من أن أغلب الأغريق وأهل المصريين قد بقوا خالصين في جوهرهم .

وترينا بعض الآثار عناصر خلطية لم يكن لها أثر في طابعها الجوهرى . وهذا يدل على أن الجنسين قد التقي واختلطا ، لكن لم ينفذ



أفضل نماذج تطور فن النحت المصري في عصر البطالة .







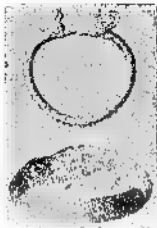


"بذلك صيغ ان عن الجور والعزيم ، وحسن  
 وامرأة ، طومان والصفة على مسهما مع اشياء  
 اخرى في دوح البحر عند المصد " بآلرب من  
 صفاتس لي كونس " .  
 واد كان استخدام الاقزام رفسورهم  
 حاليين في مصر على عهد الفرعنة والملك المظالمه  
 ذمه لا يبعد ان جدين السطالي كانا في صميم  
 الإصطناعه .

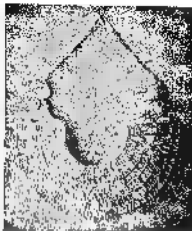


تمثال كهن وهو عسري في ثوبه وشبكته وعلوانه

## امثلة من الفن في عصر البطلمية



٢



١

- ١ - عمود صغير من الذهب مرسج بالأحجار الكريمة - وهو مصري في الشكل والصناعة والطراز
- ٢ - سواران من الذهب ينهي أحدهما بجزء من ابن حول هنج وهو مصري نوعه لك المزيلى في تصفيف لعمرة - أما السوار الآخر فيمنهى بمسك في شكل عمدة يوجد في نجو بلها ابروس محلى



سواران من الفضة عثر عليهما في البلازون بمديرية الدقهلية - والسوار الأخرى على شكل  
 صبيان طوى جسمه حلقات - والسوار الثاني يتألف من أملاك تلف وتتشابك مع بعضها ثم  
 تنتهي بربوسي تدانج وحلقات - والأسوار التي تحاكي الثعابين في شكلها شائعة في الفن  
 الإغريقي - وقد وجدت في مصر وفي بلاد ما بين النهرين أمثلة تحاكي السوار الثاني في شكله  
 وزخرفته -



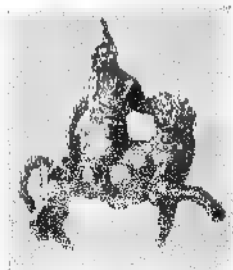
٢



١



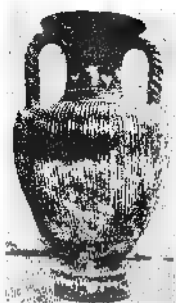
٤



٣

- ١ - لوحة برونزية مزينة بصورة نصفية لهرقل وعلى كتفه الأمير جلد الأسد وفي يده  
السيوف مضربه المشهور -
- ٢ - سروج من الجص للوحة برونزية مزينة بصورة نصبية لبطليموس الأول
- ٣ - تمثال صغير يصور أثينا على ظهر أسد -
- ٤ - رأس ميثيك تممر على شكل أمرويتي وهي تعزم شعرها -

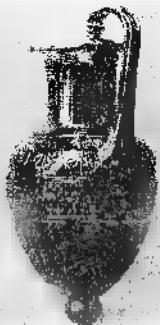
## أعنة من الأواني في عصر البطلمية



نوعان من الأنية العنقارية الجنائزية التي كانت شائعة في القرن الثالث قبل الميلاد من الإسكندرية \*



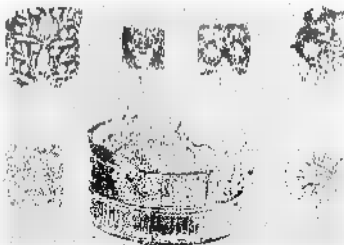
إهداء من الخزف الكلاسيكي كان يستخدم في القرن الثالث قبل الميلاد في تقديم العواشب في الموائد والهيكل المخصصة لعبادة البطالة التوحيدي \*



الاء زجاجي من العصر الهلنستي المتأخر



الاء من البرونز من العصر الهلنستي المتأخر



برق في وسط هذه الصورة للنساء الزجاج ذات يدين . وحولها لوحات زجاجية مسطحة  
كانت تستخدم للزخرفة .



(٢)



(١)

- ١ - كأس من الفضة من شكل كرن يمشي بجرح حيوان غرابي مجلج - صناعة افريقية ،  
٢ - وعاء من الفضة افريقي في شكله ، لهويشبه الآنية التجارية لكنه مصري في مسامحه  
وطرازه .



- تصمم هذه اللوحة تمثالا صغيرا من الصلصال المرقوق مصنوعة محلياً لكن طرازه افريقي .  
وتضم كذلك عددا من الآنية التجارية بعضها اتيكي وبعضها افريقي مصنوعة محليا وبعضها  
مستورد من ايطاليا . وتصور حسنة اللوحة ازدهار الفن الافريقي في مصر البطلمية . وكذلك  
قيام علاقات تجارية نشطة بين مصر واثينا وكذلك فيما يبدو بين مصر وجنوب ايطاليا .



لوحه من الفيلس تصور في جزاها العلوى مناظر وجبالات سوداوية وفي جزاها  
الاسفل مناظر اياما لغروب الشمس البيضاء



## الفصل الأول

مصر في عصر الرومان ( ٣٠ ق م — ٢٨٤ م )

للككتور برونهيم نصفي

### مصر تصبح ولاية رومانية

١ - الفتح الروماني :

أخذه نفوذ دلتا يزداد تدريجيا في مصر منذ أيام بطليموس الخامس ، بل أصبح مصر مصر متقلبا بمصر الصراع العربي في روما منذ وفاة بطليموس الخامس في عام ٨٠ ق م . لكن بالرغم من كل ذلك ظل الطلبة يستغلون على الأقل باستغلالهم الأسي . وعندما ارتقت كليوباترة السابعة عرش مصر في عام ٥٦ ق م . واندلع لعب الحروب الأهلية في روما لعبت كليوباترة دورا كانت قد لعبت من ورائه امبراطورية واسمه على حساب الرومان مما قضى الى صراع روما مع كليوباترة وهو الصراع الذي تخلف عنه القضاء على دولة البطالمة .

وبأن ذلك ان كليوباترة مدت يد المساعدة الى يوحى الاكثر في صراعه مع لبر ، لكن لم يكن نصيب يوحى سوى الهزيمة ففر الى الاسكندرية حيث قننه رجل البلاط ليبرهنا نصير الذي تبعه الى هناك ان مصر قد قطعت علاقاتها مع أعدائه وبذلك لم يبق ثمة داع

لغزو مصر . الا ان قبر دخل الاسكندرية ، وبعد حرب قصيرة خيفه تعرف « بحرب الاسكندرية » وقد مركز كليوباترة على العرش يسا وطلد كليوباترة سيطرتها على قبر فاصبح طوع امرها . وبدوا انها اتفقا على ان تطلق كليوباترة رواجها في مصر مما يرجي لبر اعلان هذا الزواج في روما حتى يحيم نفسه ملكا هناك ، فسيبدأ ألعبت كليوباترة طفلا من قبر سجل على حدرا ان مدد أرمنت انها ألعبت طفلا من قبر الذي خالها في سرور آمون رع وسدي ولدت انها في نظرها ونظر دعاياها المصريين كانت زوجة قبر المصرية . وسرعان ما خلف كليوباترة الى روما وأقامت الى جالب قبر انتظارا لليوم الموعود الذي يقيم فيه نفسه ملكا ويعلن رسيا زواجه منها وترقى منه حرس الامبراطورية الرومانية . تكن حذاء الآمال العراص لم تلبث ان انهارت عندما امتارت مطالع قبر عصب الجمهوريين الرومان فلفوا عليه في مارس عام ٤٤ ق م .



وقد بادرت كليوباترة بالحرب الى مملكتها  
ولم تفلح في قتل الصراع الذي نشب  
في العالم الروماني بين فتلة قيصر ولعوانه  
دون أن تناصر قرقنا على آخره حتى اذا  
ما اقتصر اصدقاء قيصر وكان على رأسهم  
أنطونيوس ووكنايوس ( أغسطس ) في  
خريف عام ٤٢ ق . م . ذهب أنطونيوس  
ينولي أمر الجزء الشرقي من الامبراطورية  
الرومانية وأرسل هذا القائد المخوار الى  
كليوباترة يستدعيها الى تليكبا لتجيب عن  
لجنتها معاونة الصغار قيصر . وما كادت  
كليوباترة تصل الى مارسوس حتى أحزب  
نصارها حاسما على قلب أنطونيوس . وعلمنا  
عادى الى الاسكندرية سارع الى المطاق بها  
وقضى في سجنها سنة عام ٤١/٤٠ ق . م .  
ستتعا بذلك « الحياة الفريضة » التي خلدها  
الكتاب والشراء وذكرها في النفوس وفي  
الأدب ، والتي منذ تلك اللحظة شدد على  
الدوام وثاق قلبه وعقله الى الاسكندرية  
لكن الأحداث الخطيرة التي وقعت في العالم  
الروماني في ربيع عام ٣٠ ق . م . انزمت  
كلوها من جانب كليوباترة واضطرت الى  
المودة الى روما حيث أصبح ما بينه وبين  
أغسطس وتزوج من أخته أوكايبا وحصل  
على الامتياز بسلطانه على الولايات  
الشرقية . وقد ظل أنطونيوس بمبستدا عن  
كليوباترة حتى عام ٣٧ ق . م . عندما ذهب  
الى سوريا لينولي الاشراف على حملته ضد  
بارثيا . ولما كان شوقه الى كليوباترة قد استبد

به غاته استدعاه الى حابه وأعلن رواجه منها  
ولم تفرقه بالتواضع المذنب أنحتها منه . وبعد  
اتهام حملته الفاشلة عاد الى مصر في أوائل  
عام ٣٥ .

وفي العام التالي وجه حملته الى ثريبيا  
وعاد منها مطعرا الى الاسكندرية حيث أقام  
مهرجان التيسار ، وكان القوماء الرومان  
المنتصرون يلعبون مهرجاناتهم عادة في روما .  
وقد أثار ذلك غضب الرومان لأنهم رأوا فيه  
هائلا على أن أنطونيوس كان يرمي جسد  
الاسكندرية عاصمة الامبراطورية واستند  
غضب الرومان عندما أدهم نيا حمل آخر  
أقيم بعد ذلك بأيام قليلة في الاسكندرية  
واشتبك فيه أنطونيوس ولودى فيه  
كليوباترة ملكة الملكات ووزعت على بناتها  
الولايات الرومانية في الشرق . وهكذا رأت  
كليوباترة للمرة الثانية لها كانت غاب هوسن  
أو أدلى من أن تصبح امبراطورة العالم . فقد  
كانت تبصر حدثا على النصف الغربي من  
العالم الروماني وكذلك على أعظم قائد في هذا  
العالم ولم يكن إلا أن يستمر أنطونيوس على  
مضطرب في الصراع الجبل المحتوم بينهما  
لكن تحقيق كليوباترة حلها الذي بدده أو  
مرة مثل قيصر . ولذلك لم يفسد كليوباترة  
ومما في تعريض أنطونيوس على انغلا العدة  
لنأزله أغسطس . وقد نجاب أغسطس على  
ذلك بانارة الرأي الروماني ضد غريمه وعلان  
الحرب على ملكة مصر لا على أنطونيوس .  
فكيلا يتمه أعد باثما ناز حرب أهلية .

دوما واجهت الموقف بشجاعتها المتبادلة  
واخذت قسما من ذلك العار والهوان بالبقاء  
على حيائها ( ٦٠ أغسطس ) . وسرعان  
ما تغلب أغسطس من أبناء كليوبثرة ليطوى  
صفحة الماضي ويبدأ فصلا جديدا في تاريخ  
مصر التي أصبحت منذ ذلك انقرضت ولاية  
رومانية ، وقد قرر المقاتلون الروماني اعتبار  
أول أغسطس عام ٣٠ ق . م . - وهو يوم  
سقوط الاسكندرية في قبضة الرومان -  
عيدا وطنيا في روما وبداية للتقويم المحلي في  
مصر .

ولا أدل على مقدار كراهية الرومان  
لكليوبثرة وحرفهم بها من روح الشناعة  
والخافة التي تتكشف فيما كتبه لحيول  
شعراء عصر أغسطس للاشادة بانتصار هذا  
الامبراطور وهزيمة كليوبثرة ، ولما كانت  
روما تبصر عندئذ ولعدة قرون بعد ذلك  
على كل الصالح المتضمن وكان الكتاب  
والشعراء المعاصرون قد تباروا في كسب ود  
الامبراطور المنتصر بتطليح سمعة كليوبثرة  
ورمينا بكل لقبية يمكن أن يصورها الغيالي  
المغرض دون أن يجرؤ أحد من انفسار  
كليوبثرة على الدفاع عنها فان كتابات  
خصوصها قد ظلت حتى اليوم المصدر الوحيد  
الذي يستقى تاريخها وتبعا لذلك كاني  
لهذه الكتابات أبلغ الأثر في كل ما كتبه عنها  
منذ العصور القديمة حتى اليوم ولا سيما ان  
الصورة التي صورت فيها استهوت الشعراء

ويعد أن حشد أنطونيوس قوات كبيرة في  
بلاد اليونان أصابع فوجته ليتخاذ موقف  
الدفاع فسمات حال قواته ماديا ومعنويا .  
وعندما التحم التسريقان في سبتمبر  
عام ٣١ ق . م . عند اكتيوم انتصر أغسطس  
وفسرت كليوبثرة وأنطونيوس من إلى  
الاسكندرية . وقد استبد اليأس بأنطونيوس  
من جراء حياة رجاله الذي انضم كثيرون  
منهم إلى جانب أغسطس فلم يبق بأي إجراء  
للدفاع من مصر عندما ذهب عليها أغسطس .  
وإذا رأت كليوبثرة عبث المقاومة عرضت على  
أغسطس أن تنزل من عرشها والتسليم منه  
لقائمة أحد أبنائها مكانها فأجابها ببوارب  
مكتوبة لكي لا يكشف الثوب عن حقيقة  
نوابه بحسوها . وفي اليوم الأول من  
شهر أغسطس عام ٣٠ ق . م . قبل أن يدخل  
أغسطس الاسكندرية قضى أنطونيوس على  
حياته بينما كانت كليوبثرة قد اختبأت في  
مقيرتها حيث أودعت كنوزها وهدمت بأن  
تسحق النار في المقبرة فنفض على نفسها  
وكوزها وكذلك على آجال أغسطس إذا  
لم يتم أحد أبنائها على العرش ، ولما كان  
أغسطس يريد أن يرضي كليوبثرة في مهرجان  
اتصافه ويستثمر طبخة ملحة إلى كنوزها  
فانه ما كاد يدخل الاسكندرية حتى لحا إلى  
انجيلة واستولى على الملكة وكنوزها .  
وعندما لم يجد لدى كليوبثرة أدنى شك في  
أن أغسطس ينوي أن يفردا أسيرة إلى

وكتاب النصبة . لكن عندما أخذ بعض الباحثين المحدثين في تمحيص أقوال القدماء ومقارنة بعضها ببعض تبين لهم أن هذه الصورة مزيفة وأن كليوباترة كانت ملكة طموحة آتية وأما روما وفيها لم تكن أكثر من غيرها من شقاء الاسكندرية أو روما تبذلا واستماتارا بل لمالها كانت أكثر من غيرها من مسيحات الطيبة الراقية وفاروا واحتشاما .

#### ٢ - سياسة أباطرة الرومان في مصر :

عندما فتح أغسطس مصر أثبت في السجلات الرسمية العبارة التالية : « طمعت مصر إلى سلطان الشعب الروماني » . ويرى كثير من الباحثين أن معنى ذلك واضح لا لبس فيه ولا غموض وهو أن أغسطس قسم مصر إلى الامبراطورية الرومانية وأصبحت إحدى ولاياتها ؛ تمثل روما مواردها مثل موارد حسيبريا من الولايات الرومانية لصالح الشعب الروماني . ولا أدل على وضوح هذا المعنى في طعن الفسباء من أن المؤرخين سويتوليوس وتاكيثيوس وديون كاسيوس وغيرهم وكذلك الجغرافيين استرابون وصفوا مصر بأنها ولاية رومانية . ومع ذلك ما زال بعض الباحثين يعتقدون أن مصر لم تكن ولاية بالمعنى المعروف وإنما كانت ملكا خاصا للامبراطور وترتبط بشخصه . وذلك لأنها كانت تخضع مباشرة لسلطانة ولأن نظام حكمها كان يختلف اختلافا

جوهريا عن نظام الحكم في الولايات الأخرى ، ولأن اسم مصر لم يرد في المجلات الرسمية المعاصرة مقرونا بكلمة ولاية ولا سيما أنه في « أقرأهرة » المشهور - الذي اقتطعنا منه العبارة التي أوردناها في صدر هذه الفقرة - لا يصف أغسطس مصر بأنها ولاية مع أنه يحدث في الفترة التالية لذلك من احتشال تحويل أرمينيا الكبرى إلى ولاية ، ويستند البعض الآخر من الباحثين أن مصر كانت ولاية ينتمي للامبراطور ادارها باسم الشعب الروماني على هدى تقاليدھا ومتطلبات ظروفها .

والواقع أن مصر لم تكن ملكا خاصا للامبراطور كما أنها لم تكن ولاية عادية . تمتاز الولايات الرومانية ■■■■ أغسطس أنه تديره عدة اعتبارات : أولا ، أن مصر بلاد غلة أهلة بالسكان تتمتع بمركز استراتيجي من السير الدفاعي عنه ، وثانيا أن موارد هذه البلاد طائلة ومسطح أن تسد حاجة الشعب الروماني إلى الحبوب وأن تملأ خزائن روما بالأموال بسبب أن استنزفتها تكاليف الحروب الأهلية . وثالثا ، أن هذه البلاد في حاجة إلى حكومة قوية لنشر الأمن في أرجائها والنهوض بمرافقها الاقتصادية بعد تدهورها من جراء ضعف البطالة الأواخر وما عانت من آثار الثورات القومية والغزوات الأجنبية والاضطرابات بين أفراد أسرهم البطالة . ورابعا أنه يجب اتخاذ الحيطة دون

من طبقة الفرسان يمثلت نصاب أعضائه  
السناتور الابانذ خاص من الامبراطور . وقد  
احترم خلفاء أغسطس هذه القاعدة الى حد  
انه عندما انتد الامبراطور تيبيريوس ولي  
عنه جرماسكوس الى الشرق لتنظيم بعض  
ولاياته واتهم هذه القرية لزيارة مهر  
ومشاهدة آثارها ، اخذه الامبراطور مؤاخذه  
سديده لانه دخل مصر دون استئذانه متخطيا  
ذلك القاعدة التي وضعها أغسطس .

وقد كان الابطار يحرسون على مراعاة  
المواعيد التي وضعها أغسطس الى ان قلت  
تروث مصر ولم تعد المصدر الرئيسي لفتح  
روما لهم بعد الأباطرة تروث حتى انه تمعين  
أحد من رجال السناتور في مصر خطيرا  
ينهدهم . وكان الاسراندو ماركوسوس  
( ٢١٧ - ٢١٨ ) أول من خرج على القواعد  
التي وضعها أغسطس بأن عين الى جانب  
حاكم مصر مساعدا له من رجال السيناتور  
ولا أدل على ضعف مصر في القرد  
اثالث مما فعله الامبراطور سقروسي اسكندر  
( ٢٢٢ - ٢٣٥ ) انه عندما ثار عليه بعض  
الحدود عين رعيهم حاكما على مصر لا ارضاء  
له والما لاقصائه الى مكان لا يستطيع منه  
ان يهاذ مركزه .

وقد اعتمد الرومان في توسع سلطتهم في  
مصر على لقوة قبل كل شيء فاقاموا حاميات  
عسكرية في الأماكن الرئيسية التي تسكنهم  
من السيطرة على كافة أنحاء البلاد . ولذلك

وقوع هذه البلاد في قبضة شخصية تستطيع  
الاستقلال بها وحرمان روما مواردها بل  
تهديد كيان روما ذاتها على نحو ما حدث في  
عهد كليوبترا .

وازاء هذه الاعتبارات كاذ لولاية مصر  
انرومانية مركز فريد في الامبراطورية  
الرومانية فقد وضع فيها أغسطس من القرن  
انروماني والقوات المساعدة ما يلزم  
سلامها ، وفصلا عن ذلك وضعها أغسطس  
تحت اشرافه المباشر ، وفي ٢٧ ق . م

عندما تقسم الولايات الرومانية الى ولايات  
خاضعة للسناتور وولايات خاضعة للامبراطور  
كان مصر في عداد الولايات الأخيرة .

ولم يقم أغسطس على مصر حاكما عاما من  
طبقة السناتور والما من طبقة الفرسان ولم  
يجعل هذا الحكم كغيره من حكام  
الولايات الرومانية لقب نائب أغسطس  
أو قائمقام فنصل (proconsul)

أو قائمقام پرايتور (propraetor)

وإما لقب پرافيتوس (praefectus)

أى وال أو حاكم عام ، وكان لقبه الرئيسى  
ر حاكم عام الاسكندرية ومصر ، ففهم  
افنى الرومان اثر الاغريق في اعتبار  
الاسكندرية وحدة منفصلة عن مصر ومجاورة  
لها (and Egyptus)

والى جانب كل ذلك وضع أغسطس  
قاعدة ثمر بقمصاها الا بدور مصر أحد  
من رجال السناتور ولاى رجل ذات العصيت

وضموا حامية رومانية في نيقوبوليس (Nikopolis) على بعد أربعة أميال شرقي الاسكندرية ( ما بين مصطفي كامل وجليم برمل الاسكندرية ) ، لتلقى الرعب في سكان العاصمة التي أثبتت الحوادث انها كانت أشد معازل التأثيرين خطرا في الدنيا في أيام البطالة الأواخر ، وأقام الرومان حاميات أخرى في بايلون باعتبارها مفتاح الوجه البحري ، وفي منطقة طيبة التي كانت مركز الثورات الوطنية ضد البطالة ، وفي أسوان لحماية حدود مصر الجنوبية ، وعلى الطرق المؤدية الى البحر الأحمر ، وكذلك على شواطئ هذا البحر لطرد سلائف التجارة القرصية التي امتزجت اختباء حصيلي الرأي من الأباطرة مما حدا بهم منذ عهد أغسطس الى العمل على بسط النفوذ الروماني على الشواطئ ، الأسبورية والأفرقية للبحر الأحمر لتحويل التجارة في هذا البحر الى موانئ المصرية على نحو ما فعل البطالة من قبل .

ولم يكتف الرومان بالاعتماد على القوة وحدها لتأييد حكمهم في مصر بل لجشوا أيضا الى الأساليب السياسية . فقد كان أهم عناصر السكان همدة فئة الرومانيون المصريون والأفريق واليهود . وكان شغل في الاسكندرية أكبر مجسومة من الأفريق واليهود ، ورأى الأباطرة في اخضاع الاسكندرية أكبر ضمان لاختضاع مصر ، ولتحقيق هذا الهدف اتبعوا مبادئ المروق ،

مبدأ « فرق تد » . فعلى حين رفض أغسطس ومن خلفه من أباطرة القرنين الأول والثاني أن يبدوا الى الأفريق الاسكندرية « مجلس الشورى » الذي عرفته مدينتهم منذ تأسيسها الى أن ألقاه أحد البطالة الأواخر منحوا اليهود كافة الحقوق والامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في مصر البطالة . وقد دأب الأباطرة هذه المنح على اليهود على الرغم من أن الأفريق التمسوا من سادتهم حرماتهم إياها فاستمر اليهود ينظفون في جالية مستقلة لها رئيس ومجلس من شيوخهم ودار لسياراتهم وبيع لمادتهم لسياراتهم الدينية ، فتملك الشعب قلوب الأفريق الذين عز عليهم زوال ملك البطالة وخسوصهم لأمة لم ترتفع الى مستوى حضارتهم ومساواة الرومان لليهود . وقد زاد في قسمة الأفريق على اليهود أن هؤلاء بادروا الى الترحيب بالرومان والاختلاف حولهم فضفد الأفريق على الرومان واليهود وانخفضت مداوة الأفريق لليهود كرههم الدليل للرومان ، لكن اذا كان الأباطرة قد أباحوا لليهود التسخ بامتيازاتهم وسقوفهم القديمة فاهم أبراً عليهم التسخ بالعقوبات المبدية التي كان الأفريق يتمتعون بها . فعقد اليهود أيضا مجلس الأفريق ولا سيما ان الأباطرة بوجه عام لم ينفخوا عظيمهم على الحضارة الأفريقية فقد شملوا برعايتهم معاهد الأفريق ومنتجياتهم وأبقوا الكلمة الأفريقية لغة البلاد الرسمية

كورنيليوس جالوس وأخضعها **==** قليل  
من الجنود .

وعندما رأى أغسطس أن نشوة النصر قد  
استكرت كورنيليوس جالوس بمنزله وولى  
مكانه ايلوس جالوس وعهد اليه في الاتحاق  
مع القبائل التي كانت تنزل على شواطئ  
البحر الأحمر في بلاد العرب والصينيين  
والحبشة لذا لم يتمكن من إخضاعها ، وذلك  
لتأمين سلامة تجارة مصر مع أواسط أفريقيا  
والهند ، ولما لم يوفق ايلوس في حملته كان  
نصيبه الغزل ولا سبعا لنصيبه من مصر مع  
جانب كبير من حاشيتها شجع النوبيين على  
الغزى اتفاهم مع كورنيليوس جالوس وعلى  
الانغارة على أسوان وقيلة والفتنين ولما  
وأسر بعض الأهالي والاستيلاء على تماثيل  
أغسطس .

وقد سارع الحاكم الجديد يثرونيوس  
الى كبح جناس النوبيين ودهم على أعقابهم  
والاستيلاء على عاصمتهم ليلا . وعندما  
استرد الأسرى والتماثيل لفل راجعا صوب  
الشمال حيث حصن قصر ابريم وتركه ليحيا  
حامية لم ياه الى الاسكندرية . لكن بعد ذلك  
بداين استرد النوبيون قصر ابريم فهاجر  
لهم يثرونيوس واقتصر على منهم وعسكر  
تحصيناتها . ولم يلبث النوبيون أن طلبوا  
الصلح فاستجاب أغسطس الى مطلبهم وكان  
الصلح ينص على اعفاء النوبيين من دفع  
العزبة وعلى احتلال الرومان المنطقة الممتدة

ولم تشمل اللغة اللاتينية الا في الجيش  
واللوائح المتعلقة بالقانون الروماني . ومن ثم  
لم يكن هناك مفر من وقوع صدام بين  
الاغريق واليهود . وسنرى ان التقاء بين  
اليهود والاغريق كان كالحصى الخيشية المنقطعة  
التي تحذف وطأها وتهدأ حينما تم تعود الى  
الظهور وتشتد حينما آخر ، وان سياسة لا فرق  
تسده كانت سياسة خرفاء لم يكتفوا بنارها  
الاغريق واليهود لحسب بل الرومان أيضا .

ولم يتكد يض عام على الفتح الروماني  
حين شبت في طيبة نار ثورة يبدو انها كانت  
خطيرة مما حدا بأول حاكم عام روماني  
نصر - كورنيليوس جالوس - الى ان  
يعود بنفسه القوات الرومانية لقمعها .  
وبعد ان استرايون بأن الحاكم العام اخذ  
في وقت قصير يرقن الثورة التي امتلحت في  
طيبة بسبب الضرائب . وقد سجل  
كورنيليوس على النصب الذي قامه في  
جزيرة فيلة اله واصل زحفه جنسويا حتى  
جزيرة فيلة حيث استقبله سفراء ملك النوبة  
وان هذا الملك قبل الحماية الرومانية وعينه  
حاكما على الاقليم الممتد من الضلال الاول  
حتى الضلال الثاني وكان يعرف باسم  
ترايكونتا سطونيوس .

ويبدو أن الثورة لم تشب في مصر العليا  
فصعب بل في أنحاء أخرى من مصر اذ يقول  
استرايون انه عندما ثارت هيرودوثوليس  
( في الخرطوم في شرق الدلتا ) هاجمها

بين أسوان والمحرقه حيث أقام الرومان بعض مراكز عسكرية ودام السلام خترة طويلة في الجزء الشمالي من النوبة . وبنهض كل هذا دليلا على السباسة التي وتوسع أغسطس أساسها واتبعها خلفاؤه من بعده وتلخص في العناية بطرق التجارة مع الشرق والجنوب وتأمين الحدود الجنوبية دون الانتمساع بتوسيع لطاق الامبراطورية في تلك الأصفاق .

ولم يكنه بترونيوس نمرغ من التوبيين حتى شغل باخصاد ثورة في الاسكندرية . وعندما عادت السكينة الى البلاد وجه عنايته الى الاصلان الداخلية وخاصة تهجير الترع القديمة وشق فرع جديدة واصلاح الآبار التي تقع على الطرق الصحراوية التي تربط النيل بالبحر الأحمر مما أدى الى انحاش حالة البلاد الاقتصادية . ويلاحظ ان أغسطس شعر بضرورة اشغال رجال الدين المصريين الذين ازدادت ثروتهم وممتلكاتهم في أواخر عصر البطالة ، فقد أمر بترونيوس بالانسيلاء على جذب من أراضى المقابد واستاد ادارة جانب آخر منها الى الحكومة مع السماح للكنيسة بزيادة جزء من هذه الأراضى لسد حاجة المقابد .

وقد ساد السلام في مصر ■ خلال أواخر حكم أغسطس ومعظم حكم خليفته تيرموس ( ١٤ - ٣٧ ) مما أدى الى انقراض عدد العامية الرومانية في مصر . وقد ساعد على

استياب الأمن سهر تيرموس على حماية سكان البلاد من جور الحكام وملزمى الصرايب اذ أنه شدد الرقابة على الحكام واستبدل ■ حالات كثيرة بنظام التزام القضايب تعيين موظفين لعناية الضرائب فأخذت ثروة البلاد في الاتعاش .

ولد عهد كاليجولا ( ٣٧ - ٤١ ) آتت سياسة « فرى تسد » اكملها فقد استعرت عندئذ نار العداء بين الاغريق واليهود ، اذ أن الاغريق سخرها من الأمير اليهودى اجريتا Agrippa عند مروءه بالاسكندرية ( أوائل أغسطس عام ٣٨ ) في طريقه الى ارتقاء عرش سلطنة صغيرة على حدود بلاد اليهود في فلسطين . ولما كان الاسكندريون قد عرفوا اجريا منذ بضع سنين رجلا مطلقا متلافيا يشوب من سداد ديوله ، فانه هالهم أن يصبح ذلك اليهودى المثلث ملكا بين عسسية وصعاعها وأن يروا اليهود يستقبلونه استقبال الملوك المنة ، ولذلك استقر رأيهم على اتجار هذه الفرصة قليل من اجريا ومن اليهود في شخصه . فظلموا موكبا هوليسا فدماه رجل معتوه حصبوا رأسه بأكليل من لواء البردى ووضعوا في يده صولجانا من ساق الكردى وطافوا ■ ■ سوارع المدينة وهم يرددون كلمة سرانية مصلها الملك . لكن ما أن اتفق الاسكندريون من نصوصم حتى خشوا عاقبة سخرتهم من اجريا فقد كان صديق الامبراطور وماحب حفسوة

لديه ، فرأوا انه لن ينفذهم من وريثهم الا ان  
 يوقعوا بين اليهود والامبراطور . ولما كان  
 الامبراطور قد أمر باقامة تماثيله في جميع  
 المعابد وكان اليهود لم ينفذوا أمر الامبراطور  
 لأن اقامة تماثيل البشر في معابدهم كان  
 بدنسها ، فان الاسكندرانيين ادعوا بأنهم لم  
 يتظاهروا ضد اجريا الا لعدم امتثال اليهود  
 لأمر الامبراطور . واحتجوا من ذلك ذريعة  
 ليدخلوا المعابد اليهودية ويقسوا بها تماثيل  
 الامبراطور . وعندما قاومهم اليهود اتهموهم  
 بعدم الولاء للامبراطور وبذلك المخطو في  
 حمل الحاكم الروماني فلاكوس على حرمان  
 انيسود امتيازاتهم ، واتهم الاسكندرانيون  
 فرصة وقوف الحاكم الروماني الى جانبهم  
 لتشكيل باليهود ونصب حواشيهم وتخريب  
 دورهم وبيعتهم ، وبطبيعة الحال لم يقف  
 اليهود بلا حصر كوا واما هبوا للدفاع عن  
 انفسهم وذويهم وبيعتهم وسلكناهم :  
 فالتبكت القرعان في صراع عنيف دون ان  
 يتدخل الحاكم الروماني فلاكوس لوطح  
 الامر في نصايها اذ اننا لا نعرف انه فعل  
 شيئا سوى تجاوزه حدود الحكمة بالكساء  
 القبض على لماية وثلاثين من أعضاء مجلس  
 شيوخ اليهود وأمر بجلدهم في الصنادي  
 والثلاثين من أغسطس بالرغم من انهم كانوا  
 مغبين من هذه العقوبة . وعندما تمكن اجريا  
 من اقناع الامبراطور بوزن فلاكوس أرسل  
 كل من الفريقين المتنازعين وقد تعرض قضيت

تمام الامبراطور لكتهما ثم يظن انه يظلم .  
 وعقب ارتقاء كلاوديوس ( ٤١ - ٥٤ )  
 العرش أصدر منشورين اعترف في أحدهما لليهود  
 الاسكندرانية بالحقوق التي كانوا يتمتعون بها  
 قبل عهد كاليجولا ، ومنح بمقتضى المنشور  
 الآخر الحقوق ذاتها لكل الخاليات اليهودية  
 في كافة أنحاء الامبراطورية الرومانية . وعندما  
 علم اليهود بذلك ظنوا ان الفرصة مواتية  
 للتأخر بين الاخرين فاستشر القتال بين الفريقين  
 لكن الامبراطور أمر الحاكم بإخماده بكل  
 وسيلة ممكنة ، وما أن هدأت الحال حتى  
 بادر كل من الاخرين واليهود بإرسال وفد الى  
 روما ، وبمقتضى من ٥ رسالة كلاوديوس  
 الى الاسكندرانيين ٤ ان الوفد الاخريني قدم  
 قروض الطلعة بالولاء للامبراطور وسرد  
 مظاهر العداوة التي كان المريق الاسكندرانية  
 يريدون المداها عليه وطلب إعادة امتيازاتهم  
 القديمة كما عرض قضيتهم ضد اليهود .  
 ويبدو ان الاخرين ارادوا ان يستخدموا مع  
 كلاوديوس الوسيلة نفسها التي استخدموها  
 مع كاليجولا بتقديمه لكنه انتهى اثر سياسة  
 نيبروس لرفضه أن يقره ولم يقبل مسأ  
 عرضه عليه ما يرفضه حقوق مستوى البشر  
 وأبد ما كانوا يتمتعون به من حقوق  
 وامتيازات فكله تهرب من منح الاسكندرانية  
 مجلسا للتوري . فقد جاء في هذه الرسالة  
 ٥ أما أن المجلس كان مجمعا مألوفاً بين  
 ظهر اليكم على عهد ملوككم القدماء فهذا  
 ما لا علم لي به لكنكم تملكون جيده ان



لم يكن لكم مجلس عهده الإمبراطور الذين سبقوني . ومن الواضح ان هذا المطلب الجديد الذي تقدمون به لأول مرة قد يكون مفيدا للمدينة والحكومة ولذلك فاني كتبت الى ايسيليوس ركنوس لبحث الموضوع ومواقفي بما اذا كان يجب اتناؤه هذا المجلس وطريقة تكوينه اذا كان مهمة دافع لذلك . ومن اليسر ان تبين من هذا الرد ان الاسكندريين استنوا في طلبهم الى ائمتهم كانوا يستنون بمجلس في عهد ملوكهم القدماء . ولعل امبراطورا مؤرخا مثل كلاوديوس لم يجعل نظم الاسكندرية في عهد ملوكها القدماء لكنه لظاهر بالجهل لانه لم يشأ اتخاذ تقاليد الملوك القدماء سابقة ملزمة بما يجب اتباعه . ومع ذلك فانه لكي لا يبدو متصلا وعد بالفصل في مطلب الاسكندرية على ضوء المصلحة العامة وعهد في بحث الأسس الى الحاكم العام . ومن لم يعتبر رد كلاوديوس فريضة على تنوع الاسكندرية بمجلس في عهد البطلمة .

وقد ايد كلاوديوس كذلك ما كان اليهود يستعملون به من حقوق وامتيازات لكنه رفض منحهم الحقوق المدنية ولصنع الاغريق واليهود بالتسامح وحذرهما تعديرا شديدا من العودة الى تطلعاتهما السوءى . واذا كانت الحال قد هدأت بعد ذلك بضع سنين غاب النزاع لم يلبث ان تجدد ثانية .

وتجاوب اصدقاء هذا النزاع تلك البرديات التي يدعوها الباحثون المحدثون « أعمال الاسكندرانيين » أو « أعمال الشهداء الوثنيين » بسبب ما بينها وبين « أعمال الشهداء المسيحيين » من تشابه مرده في الحالتين الى صياغة الوثائق في قالب مشابه لحاكمات يلقي فيها المتهمون خطبا طويلة وينددون بمطالب الحكم الروماني ويتبادلون مع الامبراطور عبارات فارصة عنيفة . و « أعمال الاسكندرانيين » نبر عن كراهية الاغريق الشديدين لليهود وكراهتهم الاشد للرومان ولذلك صادفت رواجا كبيرا لا في الاسكندرية فحسب بل في كل انحاء مصر وتعتبر نموذجيا للادب الاغريقي الشعبي الذي كان يرمى الى الانشدة ببطولة زعماء الاسكندرية واتارة البطشاء فسيده الحكم الروماني . ولا يبعد ان تكون هذه الوثائق قد قلت على نحو ما من مذكرات الامبراطور وترجست الى الاغريقية واشيعت اليها بعض العناصر الطيبالية التي استمدت من التشنيعات الفكاهية المعاصرة والنصبة الاغريقية الطويلة وذلك لجعلها اكثر موانسة للدعاية السياسية . وتفسير القرآني الى ان « رجال الجينازيوم » - وكانوا اوسع الاسكندرانيين ثقافة وأمرتهم أصلا وأرفعهم مكانة وكذلك اعتمدت كرها للحكم الروماني - هم الذين كانوا الرأسم المفكرة واليد العاملة وراء صدور « أعمال الاسكندرانيين » .

قوة مملكة اكسوم منذ منتصف القرن الأول  
الميلادي لأنها من ناحية أخذت تنوغل في أعالي  
وادي النيل على حساب مملكة مرو وتبعاً  
لذلك هددت الطريق البري بين مصر  
وأوطسث أفريقيا . ومن ناحية أخرى كانت  
تحاول الحصول على قلعة لها ■ جنوب  
بلاد العرب ، وكان ذلك يسكنها من قطع  
الطريق البحري مع الشرق ، لكن الرومان  
فكروا على هذه المحاولة بسط حمايتهم على  
سلطة الصيريين والاسيلاء على عدن  
وجزيرة سقطرى . ولدرء الخطر الذي كان  
يهدد أعالي وادي النيل يقال ان ليرود  
( ٥٤ - ٦٨ ) أرسل في عام ٦١ بعثة عسكرية  
لاستكشاف بلاد النوبة الجنوبية ثمهدا  
لإرسال حملة كبيرة الى تلك البلاد وانه بينما  
كان الجنود يمشون في الاسكندرية لهذا  
الغرض افدع اهاب الثورة في جودابا مما  
استدعى استخدام أولئك الجنود في اخضاعها  
وان حامية الاسكندرية شغلت بالمحافظة على  
الأمن فيها لأن النزاع القديم بين الآخرين  
واليهود تجدد مرة أخرى اذ ذلك ولم ينته  
قبل القضاء على عدد كبير من اليهود يزعم  
المؤرخ اليهودي يوسف اهام كانوا يبلغون  
خمسئ ألفا . واذ كانت هنالك قرائن كثيرة  
تؤيد ما قيل من اتساع مملكة اكسوم ونشاط  
الرومان لوقته ، فان ثمة قرائن أخرى تدبر  
الثمك حول ذلك ، وفي ضمنه معلوماتنا  
الراصة يتعذر ترجيح كفة على أخرى .

ولما كانت هذه الوثائق تختلف عن بعضها  
بعضاً اختلافاً كبيراً في الأسلوب والانشاء  
فانه لا يمكن قبول الرأي القائل بأنها من  
تأليف كاتب واحد ولا سيما ان بعضها يرجع  
الى القرن الأول أو مطلع القرن الثاني وان  
كان أكثرها يرجع الى أواخر القرن الثاني  
وأوائل القرن الثالث عندما انشسته معناه  
الاسكندريين للرومان وخاصة الامبراطور  
كركلا .

ومهما كان من ثمر أعمال الاسكندريين  
فانه ما ان هدأت الحال بين الفريقين حتى حجج  
الرسيل من جديد الى روما ، لكن النصر كان  
حليف اليهود هذه المرة اذ ان الامبراطور أمر  
بإعدام زعيم الآخرين . وقد أثبتت هذه  
الأحداث انه بينما كانت الاسكندرية في حاجة  
الى حامية عسكرية كبرى لاستباب الأمن  
لها كان يكتفي ببلية البلاد عدد يسير من  
الجنود ، ولذلك طاله منذ ذلك الوقت ظلت  
الى مسكر ليقوبوليس الحامية التي يرجع  
لها كانت تنزل عند طيط أو طيبة .

ويبدو أنه في عهد كلوديوس تطلعت  
تجارة الاسكندرية مع الهند نشاطاً كبيراً  
تسبباً للصنابة التي أولاهها الرومان لتسليم  
الملاحاة في البحر الأحمر بقطع دابر القراصنة  
ونشر نفوذهم في تلك الأصقاع . ويقال انه  
حوالي هذا الوقت استولى الرومان على  
عدن ، وان ذلك كان إحدى الخطوات التي  
تتخذها تأمين التجارة مع الهند فزاد ازدياد

وقد نعت مصر بالسكينة والهدوء خلال حكم نرقا (Nerva) ٩٦-٩٨) ولم يقع فيها شيء ذو بال في النطر الأول من حكم نرجان (٩٨-١١٧) إلا محاكمة جايوس فيبيوس ماكسيموس (G. Vibius Maximus) - وكان الحاكم العام من ٩٥ إلى ١٠٧ - لانهاية بالربا وابتزاز الأموال واستغلال النفوذ وإفساد خلق غلام لري يدي ليون . وتكشف الوثائق التي تتناول هذه المحاكمة عن مطالب الحكم الروماني في مصر ومدى السلطة الواسعة التي كان يتمتع بها حاكمها العام وكانت لا تزال من سلطة الملوك فلا عجب ان أسماء استغلالها كثيرون من أسندت إليهم ويبدو انه كان تصيب هذا الحاكم الفاسد العزل من منصبه والاعدام فقد وجد اسمه مطبوعاً في بعض النقوش وكان ذلك هو الاجراء الذي يتبع عادة في حالة الذين كانوا يدانون لارتكابهم جريمة ضد الدولة كالتضيعة المظنة وبصفتهم بالاعدام .

ولم تنقضي بعد ذلك بضعة سنين حتى تجدد النزاع بين اليهود والاغريق في عام ١١٥ أو ١١٣ واحتكم الريفان الى راجان فأخذ الاغريق على مسلكهم وهدأت الحال حتى العام التالي عندما ثار اليهود الا ان الحكومة تمكنت من القضاء على تلك الفتنة بسهولة . لكن اليهود كانوا يحسرون بقلق شديد لان الرومان كانوا لهم ضربات شديدة منذ ثورتهم في فلسطين في عام ٦٦ فقد دمروا

وعندما احتدم الصراع على العرش في روما عقب وفاة فيرون قامت مصر لأول مرة منذ أصبحت ولاية يدور سياسي هام في تاريخ الامبراطورية الرومانية ، اذ انها شقت عصا الضعافة على فيكتليوس (Vicellius) وشيباركت في اقامة فيبيانيوس (Vespasianus) ، حاكم جودايا وقائد الحيلة ضد اليهود ، امبراطور (٩٦-٧٩) وقد زار فيبيانيوس الاسكندرية في طريقه الى ارتفاع العرش فكان اول امبراطور شهدته العاصمة القديمة بعد انقراض منذ قرن تقريبا . وقد استقبله الاسكندريون استقبالا حافلا لم يلبثوا ان ندبوا عليه عندما فرض عليهم حركات جديدة واحيا ضرائب كانت قد انقضت .

وقد عني بنرس (٧٩ - ٨١) بالهلال احلاله واحترامه للآلهة المصرية اذ انه زار معبده واشترك في حفل لتصبب عجل ابيس جديد وارقد في التاج التقليدي على نحو ما جرى عليه العرافة في مثل هذه المناسبات . فكان ذلك بدء سياسة جديدة تتميز بالهلال العطف نحو الآلهة المصرية . لكن بنرس لم يحسن طويلا ليطعمه السياسة التي وطعها سياسيا ونظمها اثرها في الرعاية التي أسفها دوميانيوس (٨١ - ٩٦) على عبادة ايزيس في ايطاليا ذاتها ، وكذلك في ظهور الآلهة المحلية على حدود الاسكندرية منذ ذلك الوقت .

المزاعم من المصريين لكن القتال بقي مستمرا حتى تمتعت أغسطس عام ١٩٧ عندما انتهت حرب جودايا الثانية قوى اليهود بعد وفاة تريجان وارثاه هادريان العرش .

وقد أخذت في عهد تريجان عدة تغييرات على نظم مصر الضريبة كان أهمها بنسائه قلعة جديدة على شاطئ النيل عند بايلون قوت قبضة الرومان على الدلتا وحمت بداية القناة التي أمر تريجان بضمها لربط النيل بالنبحر الأحمر ، وكانت تخرج من النيل عند بايلون وتم بيلوبوليس وقلنتى بمجرى القناة القديمة التي حفرها بطليموس الثاني قبل دخولها وادى المطبات .

وعندما انتهت ثورة اليهود وجه هادريان ( ١١٧ - ١٣٨ ) عنايته الى اصلاح ما خلفته الثورة فقام عسكرا من لبياني العامة في الاسكندرية وأمر بإعادة النظر في الضرائب مما أدى الى انقاص جانب كبير منها في حالات مدينة ، وفي عام ١٣٠ زار هادريان مصر وكان لهم ٣٠٠٠٠ تلك الزيارة الرماية التي أولاهها الامبراطور للمناء الاسكندرية وفنانة وكذلك تأسس مدينة أنطونوبوليس ( الشيخ عبادة ) حيث غرق في النيل خليفه أنطونوس ( Attabone ) . ولا شك في أن هادريان قد أراد بتأسيس المدينة أن يخلد ذكرى خليفه الوفي ، وكذلك انشاء مركز جديد للحضارة الاغريقية في قسم من البلاد كان يقتصر اليه إذ أنه على حين كانت

مبدهم الأكبر في اورشليم وأرغموهم على دفع ضريبة الدينارين لعبد جويتر كايبتوليسور في روما بدلا من معبد اورشليم وأغلقت معبد نيوتوبوليس في مصر وصادروا جميع مستلكاته ، وأخذوا يعتبروهم جماعة مدغية <sup>١</sup> أعطاه بالحرم ، إزاء كل ذلك أضمر اليهود حقدًا دفينًا للرومان وأخذوا ينظمون الى الفرصة التي تتيح لهم الخلاص من ربقتهم . وقد ظن اليهود ان فرصتهم قد سحبت عندما طرح مركز الامبراطور في أثناء الحملة التي قام بها في القرن ، ففي عام ١١٥ اندلعت ليرال ثورة اليهود في قبرص وفي مصر وفي قوريناثة ( برقة ) ، وفي عام ١١٦ انقلب الثورة الى حرب ضروس داح ضمنتها اعداء كبرة من الاغريق والرومان في قبرص ولوريناثة . لكننا لا نعرف ما حدث في الاسكندرية في بداية الأمر وان كنا نعرف ان اليهود أهلوا القتل بين الاغريق المتبسين في ريف مصر مما حدا بهم الى الانجساء الى الاسكندرية حيث شاركوا الاسكندريين في القضاء على كل من وصلته اليه أيديهم من اليهود . وفي سنة ١١٦ زحف يهود قوريناثة على مصر لكنهم بدلا من أن يعاقلوا المتعام الاسكندرية انجسوا تعموا الاقاليم وانضوا الى اليهود المتبسين هناك وسبطوا على بعض الجهات فسلبوا ونهبوا وحرقوا وغربوا كما سولت لهم قوسهم . وقد تعلقمت الحال الى حد أن الحكومة اضطرت الى تجنيد غرق من

كانت الأمور قد عادت إلى سابق عهدها .  
وعند أواخر أيام هادريان شهدت مصر  
آخر ثورات اليهود لكن يهودا لم تكن  
ذات بال . وقد سادت السكينة في مصر  
أنطونيوس بيوس (Antoninus Pius)  
( ١٣٨ - ١٦١ ) اللهم إلا إذا استثنينا فتنة  
ولدت في الاسكندرية ومثل في اثباتها الحاكم  
العام ( ١٥٣ ) مما أثاره في الامبراطور على  
المدينة إلا أنه يطال انه زلها بعد ذلك وشهد  
فيها مضمار سباق الخيل (Hippodrome)  
وبوابتي « الشمس » و « القمر » عند طرف  
الفسادع الرثي الذي كان يجتاز  
الاسكندرية من الجنوب إلى الشمال .

وإذا كان المصريون قد اخلدوا إلى  
السكينة منذ الثورات التي قاموا بها في أوائل  
حكم الرومان فإنه في عهد ماركوس أوريليوس  
( ١٦١ - ١٨٠ ) نشبت بينهم في الدلتا ثورة  
عظيمة عرفت « بحرب الرعاة » وهزمت في  
خلالها الفرق الرومانية وكادت الاسكندرية  
أن تقع في قبضة الثائرين إلا أن النجدة التي  
قدمت من سوريا بقيادة الهديوس كاسيوس  
قضت على تلك الثورة ( ١٧٥ ) وولدت  
بالقديس كاسيوس امبراطورا لكنه لم يلبث  
أن قضى عليه بعد ذلك بقليل . ورغم أن  
الاسكندرية لم تتضرر سماعا <sup>١</sup> إلا أن كاسيوس  
فان الامبراطور غنا عنها ، بل أن الفتي قاموا  
بأحوار رئيسية في هذه الحركة مثل أسيرة  
كاسيوس وحاكم مصر العام عندئذ جابر

توجسد في مصر السفلى مدينتان افريقيتان  
وهما الاسكندرية وقرطاجي ، كما كانت  
توجد في مصر العليا مدينة افريقية وهي  
بطوليميس ( المنشأة بالقرب من تخميم )  
لم توجد مدينة افريقية واحدة في مصر  
الوسطى ، وتحتفل هذه الفرض استلهمت  
المدينة الجديدة عددا غير قليل من مواطنيها  
من بطوليميس التي كانت منفصلا قديما  
للعصارة الافريقية في مصر العليا . وقد  
أقيمت المدينة الجديدة على لسط افريقي  
ومنحت مجلسا للفقراء ودفنوا افريقيا  
وتسم مواطنوها « مثل مواطني المسكن  
الافريقية الأخرى إلى قبائل واحياء . لكن  
بالرغم من الصفة الافريقية المسماة التي  
استتجها هذه المدينة فإنها لم تفلح من عناصر  
مصرية ولا يراث مصرية إذ أن أنطونيوس ،  
الذي نشب فيها لها محليا ، كان يعبد تحت  
اسم أوزير أنطونيوس (Hermis) ،  
وشبه باليهود المصري يس (Des) . هذا  
إلى أنه أبيع لسكان المدينة الجديدة حق  
التزاوج مع المصريين وهو ما كان محظورا  
في المدن الافريقية الأخرى . وتشجعا لتجارة  
أنطونيوس بوليس أمر الامبراطور بأثناء طريق  
جديد بين النيل والبحر الأحمر ليمسك بين  
النهر المشهور برينقي وبين المدينة الجديدة .  
وقد أطلع الطريق الجديد في اجتذاب جانب  
من التجارة التي كانت تمر بالطريق القديم بين  
برينقي وقط لكنه لم يفض وقت طويل حتى

انه في عام ٢٠٢ منيع الاسكندرية وكل عواصم  
المديريات مجالس للشورى . ولعل ذلك كان  
جزءاً من سياسة تستهدف من ناحية دعم  
للتغزو الروماني باعقائه في المدن عينة  
اخرية ، ومن ناحية اخرى تحسين ادائه جمع  
الضرائب . وفضلا عن ذلك فانه تدخل  
تجديلات كثيرة على القوانين التي كان معمولاً  
بها في مصر .

وعندما ارتقى كركلا ( ٢١١ - ٢١٧ )  
العرش ومنح في عام ٢١٢ حقوق المواطنة  
الرومانية بنفسه لالونه المهور (Constitutio  
Milionaria) لسكان الامبراطورية  
الرومانية بما في ذلك المصريين لم يؤد ذلك  
الى تثير غضبهم فقد طلبوا ادلى الطيمات  
الاجتماعية شأنا في مصر . وعندما زار كركلا  
الاسكندرية في عام ٢١٥ وسمر = اهلها  
اظهروه بظهر ابطال عظام مثل الاسكندر  
وقتلته اخيه وجنا = سب عليهم جام غضبه  
فأعدم زعماءهم وأطلق جنوده على المدينة  
فطربوها وأصلوا القتل بين سكانها ، كما  
انه اننى الحضلات العامة وأقام حانات في  
المدينة ذالها وأوقف الاتفاق على الجامعة .

وهم ما يتناز به عهد ماكربنوس ( ٢١٧ -  
٢١٨ ) هو ما سقت الإشارة اليه من انه  
كان أول من خرج على القاعدة التي وضعها  
أليسطس وتقرر بمقتضاها ألا ينقلد أحد  
من رجال الساتو صاحب ادارة في مصر ،  
اذ أن ماكربنوس عين لحاكم مصر ساعدا من  
رجال الساتو ما يدل على نقص أهمية  
مصر عما كانت عليه في بداية العهد الروماني .  
وأبلغ من ذلك في الدلالة على نقص أهمية

كاليفوريس ستاتيوس (C. Calvisius Suetonius)  
لم يلغوا إذ ذلك الا عذابا طفيفا بالقياس الى  
اهتمامه الخطيرة . لكن عندما ارتقى  
كومودوس (Commodus) ( ١٨٠ - ١٩٢ )  
العرش أعيد كل أفراد أسرة كايوس  
وكذلك قادة الاسكندرانيين الذين اسهموا في  
هذه الحركة .

وقد خلف كومودوس على العرش شدة  
ثلاثة شعور ( ينسار - مارس ١٩٢ )  
الامبراطور يرتيناكس (Pertinax) ولولا ان  
هذا العهد القصير أهمية خاصة فهي ربما كيف  
أن لبأ هاما مثل ارتقاء امبراطور جديد العرش  
كان يصرف وقتا طويلا للانتقال من روما الى  
مصر ، وذلك انه لودى بالامبراطور الجديد  
في روما في اليوم الأول من شهر ينسار  
سنة ١٩٣ على حين ان حاكم مصر العام  
لم يصدر أوامره للاحتفال بهذه المناسبة لمدة  
حسنة عشر يوما الا في السادس من شهر  
مارس . ولعرف ان يرتيناكس قتل في روما  
في الثامن والعشرين من شهر مارس ومع  
ذلك فال اسم هذا الامبراطور يظهر في تاريخ  
وثيقة من اليوم في السابع عشر من شهر  
مايو .

وعندما قتل يرتيناكس فادت مصر بحاكم  
سوريا يسكينيوس نيجر (Pescennius Niger)  
امبراطورا لكن ما كاد الأمر يستتب في روما  
لغروس ( ١٩٢ - ٢١١ ) حتى قضى  
عسلى نيجر . وعندما زار لغروس  
مصر اقتنى أثر حادريان فيما قامه من الأبنية  
العامية في الاسكندرية وفي تلك الفترة تغلبوا  
زيارته وفي زيارة آثار مصر . ولهم من ذلك

مصر في القرن الثالث انه عندما وقعت فتنة الحرس الامبراطوري على عهد سترسوس (سكندر ٢٢٦ - ٢٣٥) عين الامبراطور زعيم الثوار حاكما عاما لمصر لا ارضاء له واما لاتصافه الي مكان لا يستطيع فيه ان يهدد مركزه .

وكانت نتيجة نقص أهمية مصر انها لم تلعب أي دور في سلسلة المنازعات التي وقعت في اواخر النصف الاول من القرن الثالث من اجل ارتقاء عرش الامبراطورية وقبلت عن طيب خاطر ارتقاء امبراطور بعد آخر وقلب على احداث مصر مبات عميق استغرقت فيه حتى كان عهد دكيوس (Diocletian) (٢٨٤ - ٢٩١) الذي تسببت فيه حركة المسيحية في مصر مما حسدا بالحكومة الى توجه اهتمامها اليها واتخاذ المدة لمح الانتدورها وفي هذا العهد ايضا ثارت فاشل البلميس على الحدود الجنوبية لأول مرة بعد اغارتها السابقة في عهد انسطس . ولعل هذه الاغارة تمثل باتساع منطقة اكبر التي دعمت مركزها في وادي النيل على حاب مملكة مرد وكانت تسيطر على القبائل النوبية من الجنوب لتدفعها نحو الحدود المصرية . وبعد ذلك امتدت مصر سياها عندما دامت المنازعات في الامبراطورية من جديد خلال المدة التي دامت من عام ٢٥١ الى عام ٢٦٨ وتماقب فيها الاباطرة بسرعة غريبة . وقد كان اهم ما حدث بعد ذلك هو أن

ذغوبيا ملكة بالميرا ( تلمر ) زحفت على مصر واستولت عليها ( ٢٦٩ - ٢٧٥ ) وبرغم انها بعد عدة محاولات اقلعت في حذر الجيوش الرومانية فانها لم تنسأ ان تستقل بمصر بل اعترفت بسلطان روما ، لكن لم يكذب بتقضى عسلى ذلك عامان حتى اطلع اورليانوس ( ٢٧٥ - ٢٧٨ ) في القصداء على تهود بالميرا لمصر واستولى على بالميرا ذاتها ، لكن عقب عودة اورليانوس الى روما ثارت بالميرا وبعد تلك الاسكندرية لارتباط البلدين بصلات تجارية وليفة فساد الامبراطور الى الفرق وقضى على الفتنة في بالميرا لم في الاسكندرية وبعد ذلك ترك مصر تحت امرة يروبولس وعهد اليه برد فبال البلميس على اقطابها وكانت قد انتهزت فرصة تلك الاحداث للرحب على مصر العليا حتى قطع ، وقبل انتهاء يروبولس من طرد البلميس وهدئة الوجه القبلي يودي به امبراطورا ( ٢٧٦ - ٢٨٢ ) عقب وفاة اورليانوس ( ٢٧٥ ) وحكم ماكسينوس الفصح ( ٢٧٥ - ٢٧٦ ) .

ولم يضع التصار يروبولس على البلميس الا حدا مؤقتا خناوهم فقد اعدوا ميجدون اهراتهم كل عام مميا اضطر الامبراطور وقلديانوس ( ٢٨٤ - ٣٥٥ ) الى جعل حدود مصر الجنوبية عند أسوان بدلا من هيراسيكامينوس ( المرقة ) ودعوة بعض قبائل الصحراء التي كانت تمرق باسمهم التوادى للمسكن في وادي النيل لحماية حدود مصر الجنوبية .

وكانت نتيجة نقص أهمية مصر انها لم تلعب أي دور في سلسلة المنازعات التي وقعت في اواخر النصف الاول من القرن الثالث من اجل ارتقاء عرش الامبراطورية وقبلت عن طيب خاطر ارتقاء امبراطور بعد آخر وقلب على احداث مصر مبات عميق استغرقت فيه حتى كان عهد دكيوس (Diocletian) (٢٨٤ - ٢٩١) الذي تسببت فيه حركة المسيحية في مصر مما حسدا بالحكومة الى توجه اهتمامها اليها واتخاذ المدة لمح الانتدورها وفي هذا العهد ايضا ثارت فاشل البلميس على الحدود الجنوبية لأول مرة بعد اغارتها السابقة في عهد انسطس . ولعل هذه الاغارة تمثل باتساع منطقة اكبر التي دعمت مركزها في وادي النيل على حاب مملكة مرد وكانت تسيطر على القبائل النوبية من الجنوب لتدفعها نحو الحدود المصرية . وبعد ذلك امتدت مصر سياها عندما دامت المنازعات في الامبراطورية من جديد خلال المدة التي دامت من عام ٢٥١ الى عام ٢٦٨ وتماقب فيها الاباطرة بسرعة غريبة . وقد كان اهم ما حدث بعد ذلك هو أن

## الفصل الثاني

### أداة الحكم

الإلهي ، يحظر بهذا كيان الإمبراطور ، <sup>١</sup> حرص الأباطرة الأوائل على أن تكون مصر حاضنة لاشراقتهم مباشرة وعلى ألا يتولى رجال السلاط أو من في مرتبتهم مناصب إدارية في مصر أو يدخلوها دون استئذانهم ، وعلى أن يكون نظام الحكم فيها أوتقراطياً ، وعلى أن يتولى المناصب الرئيسية في السلطة المركزية رومان يؤيدهم الأباطرة من قبلهم ويستقلونهم في مناصبهم أو يعزلونهم كما يترأى لهم .

وقد وضع على رأس السلطة المركزية حاكم عام (praefectus) كان يستع بمعظم السلطة التي كانت من نصيب الملك في عهد البطالة ، فانه كان يمين على إدارة السلاط العامة وشؤونها المالية والقضائية والعسكرية تحت المرافقة الإمبراطور مباشرة . وكان يستع عليه عهدهم مفسدة مصر في خلال مدة حكمه « كما كان يجب عليه عند انتهاءها انتظار وصول خليفته . وفي حالة خلو منصبه فجأة بسبب الوفاة أو لأي سبب آخر كان ينوب عنه عادة مساعده في الشؤون القضائية

لم ينزب على حصول مصر حضيرة الإمبراطورية الرومانية فبعدت هامة في إدارة البلاد لأن سياسة روما بوجه عام في حيلال فروعها تصاً <sup>٢</sup> الشرق كانت تقضى بنجنب التدخل ما أمكن في نظم البلاد التي كانت تتبع بإدارة منظمة ، ولذلك جمع الرومان في حكم البلاد النظام نفسه الذي وضعه البطالة لهم إلا إذا استثنياً بعض التمديلات التي اقتضت الظروف ادخالها ، فكان قدوم الرومان لم يكن أكثر من انتقال الحكم من أسرة إلى أخرى انتقالاً لم يكن مصحوباً باهتلاجات أو اضطرابات أكثر مما كان يحدث عادة على عهد الترواحنة عندما كانت أسرة حاكمة جديدة تغلب أسرة أخرى .

#### ١ - السلطة المركزية :

ولما كانت روما في حاجة ملحة إلى الانتفاع بوارد مصر الطائلة في تغضف مجده ماليتها وفي امداد شعبها بمقادير وفيرة من التمصح ، وكان في وقوع مصر في يد قوية مناولة للإمبراطور أو <sup>٣</sup> قيام اضطرابات بين



وكان يدمى بالاغريقيّة ديكايدودوس (Dikaiodotos) ، وباللاتينية يورديكوس (Juridicus) ، فقد كان يساعد الحاكم العام على الانضلاع بهام منصبه فئة صغيرة من كبار الموظفين الرومان من الجلى أن هذا المساعد أو المستشار القضائي كان أخطرهم شأنًا وأرفعهم مقامًا . وكان للحاكم العام مساعدان في الشؤون المالية وهما الديريكيتس (dikaiarkes) والأيدولوجوس (idologos) ومن أجل تسهيل الإدارة العامة قسمت البلاد منذ أوائل أيام الإمبراطورية لثلاثة أقسام وهي مصر السفلى ومصر الوسطى ومصر العليا ، وأسندت إدارته لكل قسم إلى إبيستراتيوس (epistates) ورومانى ، وكان الإمبراطور هو الذى يعين حكام الأقسام إلا أنهم كانوا يخضعون للحكام العام مباشرة ويسندون منه معظم سلطتهم ، وكان اختصاصهم إداريًا بحتًا ، غير أن الحاكم العام كان ينيبهم عنه في الفصل في القضايا وكان لهم حق مطلق في دراسة الشكاوى والتحكيم في المنازعات . ولم يكن لهم أى اختصاص في الإدارة المالية أكثر من سماع الشكاوى بسبب اجتهاد في تقدير الضرر أو ما شابه ذلك . وكان لهم شأن كبير في تعيين موعضى المديرية ، ويرجع أن قراراتهم كانت نهائية فيما يختص بتعيين المستشار من هؤلاء الموظفين لكن يبدو أن موافقة الحاكم العام كانت ضرورية فيما يختص بتعيين كبارهم .

٢ - السلسلة المتصلة في القرنين الأول والثاني :

وكان كل قسم من أقسام مصر الثلاثة يتقسم إلى مديريات ، على رأس كل منها قائد (strategos) كان على حاكم القسم في المرتبة ويتلقى منه جميع الأوامر فيما عدا ما يتصل منها بالشئون المالية إذ كان يرجع إلى ذلك إلى الإدارة المالية المركزية في الإسكندرية . ولم يكن للقائد أى اختصاص حربي ، لكن لعوده كان يتمد إلى جميع لواحي الأمانة المدينة ، إذ كان رئيس الشرطة وكثيرًا ما كان ينوب عن الحاكم العام في الفصل في القضايا . وكان للقائد دائمًا الحق في إلغاء القبض على مخالفين القانون وفي النظر في الشكاوى وإجراء تحقيق ابتدائي في القضايا ومحاولة فض النزاع ودفعًا أما إذا تضرر ذلك فإنه كان يعيل المتخاصمين إلى المحاكمة وقد كان القائد مسؤولًا كذلك عن تقدير وجمع الضرائب في مديريته وعن استغلال أراضي الحكومة واحتكاراتها .

وكان النوماوخ لا يزال معروفًا في عهد الرومان إلا أنه أزه سلطة القائد المدنية كان أهم ما تبقي له من اختصاصات هو الإشراف على تقدير وجمع الضرائب المختلفة . وقد أدى قصر أهمية مركزه إلى ازدياد عدد النوماوخ إذ كان يعين لكل مديرية اثنان أو أكثر .

وكان على القسائه في المرتبة ٥ الكلاب

الملكى « وكان ينوب عن القائد في انشاء  
تشييه أو خلق مركزه . وكانت أهم اختصاصاته  
تتعلق بالشئون المالية في الادارة المحلية مما  
حصل البعض على الاعتقاد بأنه كان يشابة  
مراقب على تصرفات القائد في الشئون المالية .  
وكان يحيى بعد الكتاب الملكى رؤساء دار  
السجلات الرسمية ، فقد أنشأ الرومان الى  
جانب دار السجلات المركزية بالاسكندرية  
هورا مماثلة في عواصم للمدريات . وعلى مر  
الزمن أصبحت كل من هذه الدور تنقسم  
تسعين ، يختص أحدهما بحفظ جسيم  
المكاتبات الرسمية وكشوف اقتراب وقوائم  
التعداد وسجلات الأراضى ، ويختص القسم  
الأخر بتسجيل الأراضى والنبات والمبيد ،  
وكان يعرف عادة على كل من هذين القسمين  
وليسان .

ومما يجدر بالملاحظة ان مناصب الادارة  
المحلية ، ابتداء من القائد ، كان يشغلها اغريق  
فيما عدا المناصب العليا منها فقد كان يتولاها  
مصريون ، وإذا كان يبدو من ذلك ان الموظفين  
كانوا يختارون بوجه عام من الطبقات ذاتها  
التي كانوا يختارون منها في عصر البطالمة فإنه  
مع ذلك قد طرأ تغيير هام على طابع الخدمة  
الحكومية ، ففي عهد البطالمة كان موظفو  
الحكومة يتألفون من موظفين دائمين اختاروا  
خدمة الحكومة مهنة لهم يتكسبون منها  
قوتهم ، أما في عهد الرومان فإنه لم يأت القرن  
الثاني حتى كان موظفو الحكومة ، باستثناء

كبارهم ، يتألفون من رجال لا يتولون  
مناصبهم الا لفترة قصيرة وقصر عنهم .

وكان مقر ادارة كل مديرية في عاصمتها ،  
ولم تنتج تلك العواصم باستقلال محلي ■  
فقرمين الأجربين من حكم الرومان اذ كانت  
ضرباها ورجال شرطتها تحت اشراف القائد  
لكن يبدو أن المجلس أُنشأ في كل منها  
مستندا من المناصب البلدية التي استعيرت  
اسماؤها واختصاصاتها من نظم المدن  
الاهريقية . وفي بداية الأمر كان يتولى كل  
منصب سنويا متطوع رعى كان ينظر من ماله  
الخاص على كل ما يتطلبه التهورس بأعباء  
منصبه وكان يتولى هذه المناصب يعتبر شرفا  
يعتز به الناس وينظفون الى الحصول عليه ،  
فكان الأهالي عندئذ ينتخبون أفضل المرشحين  
لتولى هذه المناصب . لكن بضمى الزمن لم  
نجد هناك حاجة الى الانتخاب ، فقد ازدادت  
على مر الأيام صعوبة الحصول حتى على  
مرشح واحد لكل منصب بسبب ما كانت  
هذه المناصب تفرضه على شالحليها من أعباء  
مالية كانت تتزايد باستمرار الى الوقت الذى  
سارت فيه حالة البلاد الاقتصادية من سوء  
الى أسوأ ، فمن أجل التلجب على مسؤولية  
تخل هذه المناصب لجأت الحكومة الى  
الأرواح والحث على انقاص نفقات هههه  
المناصب كما لجأت الى اشارك اكتمر من  
شخص واحد في تحمل أعباء كل منصب .  
فى القرن الثاني جرت العادة بأن يتولى أعباء

وكان يمثل السلطة المركزية في ادارة تلك  
المواسم قائد المديرية وكان يحين عملي  
نظامها المالى ويشرف على حفظ الأمن فيها ،  
وكذلك الكلاب الملكى وكان مسئولاً عن  
هداد السلطة المركزية بكافة المعلومات التى  
تحتاج اليها للعرض الضرائب ، كما كان  
مسئولاً عن اعداد أسماء الأشخاص اللاتى  
اختيارهم للوظائف المحلية التى كانت ولقبته  
من بينها . وكان يوجد عادة في كل مدينة  
كاتبان يتوليان العمل فيها لمدة ثلاث سنوات .

وكانت كل مديرية تنقسم الى عدد من  
القرى يدير الشئون المحلية في كل منها جماعة  
من شيوخها يدعى أن عددهم كان يتفاوت تبعاً  
لعدد سكان كل قرية . وكان شيوخ القرية  
بشأن سلطة الاتصال بين الأهالى والحكومة  
في دفع الضرائب . وكان عليهم أيضاً أن  
يراقبوا فلاحه أراضي القرية وأن يدوروا  
الحكومة بما يطلبه من المال أو البضود  
لخدمتها وقت الحاجة . وكانوا كذلك  
مسؤولين أمام القائد عن حالة الأمن في قراهم  
ولعن لا تصرف كيف كانوا يضاربون لكن  
يرجع أن خدمتهم كانت لخدمة اجبارياً على  
أداء كل قرية لمدة سنة دون أى مقابل . ولعل  
نشأ هذا النظام يرجع الى رغبة الحكومة  
الرومانية في ايجاد وسيلة محلية تزيد من  
امتنانها الى الحصول على ضرائب القرى  
فقد كان أولئك الشيوخ مسئولين شخصياً  
عن سداد ضرائب قراهم .

منصب مدير الجينازيوم شخصان كانا  
يتناوبان كل شهر مباشرة مهام هذا المنصب .  
وتصرف أنه في أوكسريدخوس بلغ عدد  
مراقبي السوق العامة في خلال القرن الأول  
خمساً ، وكان عدد مراقبي التسوين عند نهاية  
القرن الثاني أربعة . وكان التطور الطبيعي  
لهذه الخطوة انشاء لجنة لكل منصب عند  
أواخر القرن الثاني .

وكان هؤلاء الحكام هم مدير الجينازيوم  
(agoranomoi) وكان يتولى رعاية شئون  
الجينازيوم الذى كان مركز العمل  
الاجتماعية ومهداً للتربية البدنية والمهنية ،  
ولألعاب (palaestra) ، وكان يشرف على  
العان الشباب ينشأ تدريبهم (epheboi)  
وتعيين الأوصياء لطيدات والمربين للناصرين  
ويبحث الشروط الواجب توافرها فيمن  
يضمون الى طبقة التمتع بالامتيازات ،  
وتلك مراقبي التحليم (kosmetes) ورأساء  
الكاهن الأكبر (archiereus) وخاصة مراقبي  
التسوين (eurbasileis) ، وسادسا مراقبي  
السوق العامة (agoranomoi) . وكان يتولى  
أيضاً توثيق العقود . وكان يوجد اثنى جانيه  
هؤلاء هم من الحكام يرجع المؤرخون  
أنهم كانوا يسمون فقط عندما كانت الشروط  
تستدعي ذلك مثل (epimeletai) وكان يعهد  
لهم في الاشراف على الأثغال العامة . وكان  
يوجد في كل عامسة من هذه المواسم  
ما يشبه الجمعية العامة للمواطنين .

واقفة بأسماء جميع سكان البلاد تبين بدقة الطبقة التي ينتمي اليها كل منهم وكذلك حالته من حيث الاعفاء من الضرائب جسيما أو بعضها أو الإلزام بدفع الضرائب كاملة . وفي الفترة الواقعة بين تعدادين كانت شهادات الوفاة والميلاد تستخدم مسجوريا لتصحيح البيانات الواردة في هذه السجلات وجعلها مطابقة للواقع .

ولما كانت الحكومة ترهب بحرص شديد الالتصاف الى الطبقات المتأخرة بسبب ما كان يربط على ذلك من التمتع بامتيازات لها أهميتها لا من حيث أداء الضرائب فحسب بل أيضا من حيث دخول منظمة تدريب القضاة (epheboi) والهيمازوم ، فالحايات كانت لا تسمح بتسجيل أى شخص في طبقة من هسة الطبقات إلا بعد فحص (epikrasis) الطب المدمم بالمستندات الذى كان والده القبط أو الرعى عليه يتقدم به عادة في الثالثة عشرة من عمره أى قبل تسجيل اسمه في منظمة تدريب القضاة وفي قوائم دفعى الضرائب ، وفي سن الرابعة عشرة كان الشبان ينسجون في منطلقاتهم ويضمن دفع ضريبة الرأس وبعض الضرائب الأخرى . وقد كان الالتصاف الى طبقة من الطبقات المتأخرة يقتضى اثبات انتماء والدى الشخص الى تلك الطبقة . وكان ■ استطاعة العبيد الالتصاف الى تلك الطبقات اذ كان القانون يسمح لهم باتتبع بوضع ساداتهم القانونى بعد فحص حالتهم .

وكان يمثل السلطة المركزية في كل قرية رئيس الشرطة (archepolites) وكان يعين على حفظ الأمن فيها ، وكانت القرية وكان مسئولوا عن موافاة السلطة المركزية بكل ما يلزمها من بيانات لأغراض الضرائب فهو الذى كان يعد قوائم بمسكان القرية ومقدار ما يملكه كل منهم وموارده . وكان أيضا مسئولا عن اعداد بيان بالأشخاص الصالحين لاختيارهم للوظائف المحلية التي كانت وظيفته من بينها . وكان القائد يختاره بالقرعة من قائمة الأشخاص التي «معها سلطه» ، وكان يسولي وظيفته لمدة ثلاث سنوات « وكان لكل قرية عادة كاتبها لكن في بعض الحالات كان يهد في تسون قرنين أو ثلاث قرى الى كاتب واحد . وكان يفحص دخل بعض الضرائب لمواجهة ما يتطلبه منه من تكاليف .

وإذا كان البطالة قد حرصوا على أن يدرجوا في قوائم أسماء مسكان البلاد وحنسية كل منهم والطبقة التي ينسب اليها ، فإن الرومان أدخلوا نظام التعداد وكان يجري كل أربعة عشر عاما ويعرف باسم « التسجيل المنزلى » ، فقد كان يتم على مالك كل منزل أو مستأجره أن يقدم الى الموظف المسئول عن إقرارا بجميع سكان منزله ويقسم على صحة البيانات التي قدمها . وكان أولئك الموظفون يقومون بفحص (epikrasis) البيانات والتأكد من صحتها لأنه بناء عليها كانت السلطات المختصة تعد سجلات

المواطنين وكانوا لا يسجلون في الأحياء ولا يتمتعون بكل امتيازات المواطنين الكاملين . وكان للاسكندرية جاعة من الحكام يتألفون من مثل حكام عوامهم المديرين فضلا عن ممثلي السلطة المركزية . ولنا معرفة كمية اختيار حكام الاسكندرية ، لكن لما كانوا يقومون بدور بارز في ثورات المدينة ضد الحكومة ، وكانت « أعمال الشهداء الوثنيين » تصوره لهم ل شكل رجاء المدينة ، فإن كل ذلك يوحى بأنه لم يكن للحكومة يد في تعيينهم . وقد كان الامبراطور هو الذي يمنح حقوق المواطنة ، وكان الحاكم العام هو الذي يعاكم من يسبح في هيئة المواطنين أشخاصا لم توارث لديهم شروط التمتع بحقوق المواطنة وكذلك الذين يمارسون هذه الحقوق دون وجه حق . ويبدو انه لم يعد لحاكم المدينة وجود فريد أصبح الفصل في القضايا من اختصاص الحاكم العام والذين كان ينبغي عنه على نحو ما سبى غيبس الكلام عن النظام القضائي . وبطبيعة الحال كان شأن المدن الإغريقية الأخرى شأن الاسكندرية من حيث انه لم يعد لها محاكم قضائية خاصة . وكان يحفظ الأمن ل المدينة قائدها ورئيس شرحتها . والواقع ان الحكومة الرومانية هي التي كانت تشرف على كافة نواحي الادارة في المدينة ، أما النواحي الثقافية والدينية وتدريب الشباب واقامة العضلات وتنظيم الألعاب فان حكام المدينة (archontes) هم الذين كانوا يتولون أمرها .

وقد كانت الاسكندرية وقرطاجس وبطوليبيس وأنطونيو وبوليس هي المدن الوحيدة التي تتمتع بقدر من الاستقلال الذاتي في حكمها المحلي . وبرغم ان معلوماتنا عن دستور كل منها طغيان الا انها تكني لتبين انها كانت تتمتع بزايا خاصة تختلف في كل منها عن الأخرى باختلاف أصلا ولاديقها ، أما الاسكندرية فيصبح الباحثون على أن الأباطرة منذ أغسطس حتى سينيوس سروس لم يسحبوا لها مجلس للشورى لكي لا يتحوا لإهلهاء المرمين بالثورات ممثلا لثورتهم ولكن يجعلهم تحت سلطان الحاكم العام مباشرة . وإذا كانت بعض القوانين تشير إلى أنه منذ أوائل العصر الروماني كان لمواطني الاسكندرية مجلس يتألف من ١٧٣ عضو ، وإلى أن هذا المجلس كان حلقة الاتصال بين روما ومواطني الاسكندرية فإن الدلائل لا تدع مجالاً للشك في أنه لم يكن مجلسا له صفة رسمية أو سلطة تشريعية فهو لم يكن أكثر من هيئة اجتماعية . ومثل ما كانت عليه الحال في عهد البطالة كانت نخبة الحريق الاسكندرية تنقسم إلى قبائل وأحياء وتكون هيئة المواطنين الذين كانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة ، وكان معها ان التمتع بهذه الحقوق كان شرطا أساسيا للمسؤول على حقوق المواطنة الرومانية ولاغناء من ضريبة الرأى ومن تولى المناسبات العامة فمرا خارج الاسكندرية . وفي مصر الروماني أيضا كانت توجد كذلك فئة انصاف

٤ - التعديلات التي أدخلت في القرن الثالث :

شهد القرنان الأول والثاني من حكم الرومان زيادة ملحوظة في الزمام الأشخاص القادرين بتولي المناصب الحكومية والبلدية . ومن حيث المبدأ كان النظام يقضي بالآ برغم شخص على تولي وظيفة قبل انقضاء ثلاث سنوات على توليه وبنية مماثلة مرة مباحثة . وكان يشمل من الارغام على تولي الوظائف المواطنون الرومان واسماء المحاربين ومواطنو الاسكندرية وأطينو وپوليس المقيمون خارج هاتين المدينتين ، وكذلك الأطباء المومبون وأساقفة دار العلم في الاسكندرية والقانون في المماريات العامة والمجزة وعدد معين من كمنه كل معبد . لكن عندما قل عسند الأشخاص اللاتين تولي هذه الوظائف ازداد تدريجيا تخاص الحكومة عن هذه الاعفاءات .

وعندما زار الامبراطور سيثيوس سفروس مصر في عام ١٩٩/٣٠٠ وراى ان الاضطلال قد أخذ يدب الى موارد البلاد وان الإدارة المحلية على وشك التدهور ، أدخل بعض التعديلات على نظام الادارة المحلية ، مزملا أن يصلح بذلك ما أنقصه الدهر . وقد كان أهم هذه التعديلات منح الاسكندرية وعواصم المديريات مجالس للشورى ، وإذا كانت الاسكندرية قد حققت على هذا النحو أمنية قديمة عزيزة عليها فانه انتقص من قدر هذه المنحة أسبابها على العاصمة المعجدة القديمة وعلى عواصم المديريات سواء بسواء . ولم يترتب على فوز

أما قراطيس فظهر أنها عانت تشجع بدستورها القديم يدلل ما تحدثنا به المصادر القديمة من أن هادريان أعطى أنطينو وپوليس دستوراً على نمط دستور قرطيس . وكانت أبرز عناصر هذا الدستور وجود هيئة مواطنين وعدد من الحكام ومجلس للشورى .

ويبدو أن بطليميس أيضاً احتفظ بدستورها الاغريقي القديم أى أنه كان لها مجلس للشورى وجمعية شمية وهيئة حكام تنظم هيئة مواطنين كانوا ينقسمون الى قبائل وأحياء . وفي عصر هادريان وثانية في عصر أنطونوس بيوس قامت بأعدادات وسنتت فيها بألها مديسمة المراقبة (الكس) . وبالرغم من أن بطليميس كانت عاصمة مديرية طينة (طالطة) أى مقصر حكومة تلك المديرية ، إلا أنه يرجح أن تلك الحكومة لم تتدخل في شئون المدينة .

وقد مر بنا أن أنطينو وپوليس ألفت على نمط افريقي ومنحت مجلساً للشورى ودستوراً لقرطيا وقسم مواطنوها ، مثل مواطني المدن الاغريقية الأخرى ، الى قبائل وأحياء . وبطبيعة الحال كان يتبر عسئولها جماعة من الحكام يختارون من مواطنيها . وما يجدر بالملاحظة أن دستور هذه المدينة سمح بالتزاوج بين مواطنيها والعمرين على حين أن هذا التزاوج كان غير مشروع في المدن الاغريقية الأخرى .

عواصم المديريات بهذه المنحة تمتعها بالحكم الذاتي تمنا كاملا فقد مثل القائد صاحب السلطة العليا في المديرية فضلا عن أنه كان يسيطر على مجلس الشورى وعاصمة المديرية حيث كان مقره الرسمي . وإذا كان النظام الجديد قد بدا في صورة ميزة جادة إلا أن الأمور غابت في الواقع كأنه عينا جديدا ألقى على عاتق المؤسسين الذين كان أعضاء مجلس الشورى يختارون من بينهم وكان عددهم يبلغ المائة في كل عاصمة مديرية ، وقد اتفقت إلى كل مجلس من هذه المجالس المسؤولية عن الشؤون المالية في المديرية بأجمعها وتعين وضمان أحكام العاصمة ومدير المصرف الرئيسي في المديرية وجبة الضرائب في كل أنحاء المديرية ومراقبي دخل الحكومة من كافة أنواع الأراضي (Uchastvye) وما يجسد بالملاحظة أن المسؤولية غدت مسئولية جماعية فقد كان كل حاكم من حكام العاصمة وكل عضو في مجلس الشورى مسؤولا عن نفسه والشخص وتخص زملاته سواء بمراءه . وقد كان مجلس الشورى يتولى الاعتراف العام على الإدارة في عاصمة المديرية في حين أن أحكام العاصمة كانوا يقومون بتنفيذ ما يدخل في دائرة اختصاص كل منهم . وقد أصبحت القاعدة أنه لا يمكن التحلل من تولي منصب من مناصب الحكم المحلي أو عضوية مجلس الشورى إلا بتنازل المرشح من تلقى ما يمتلكه للشخص الذي رشحه ليحل مكانه .

ويرجع بعض المؤرخين أنه عندما أنشئت مجالس الشورى عين أعضاء فيها أولئك الذين لم يسبق ترشيحهم لتولي مناصب الحكم المحلي في عواصم المديريات في حين أنه يتبين من برقية من منتصف القرن الثالث الميلادي أنه لم يكن هناك أي فارق من حيث النصاب التالي بين أصحاب مناصب الحكم المحلي وأعضاء مجلس الشورى العاديين . لكن هذا لا يستتبع حتما أنه عند إنشاء مجالس الشورى لم يعين أعضاء فيها أولئك الذين لم يرشحوا من قبل لمنصب الحكم المحلي ، وعلى كل حال إذا كانت هناك أي فوارق بين الفريقين في بداية الأمر فاله ما واثت نهاية القرن الثالث حتى كانت هذه الفوارق قد زالت تماما إلى حد أن كلمة حاكم محلي (basilicus) أصبحت ترادف كلمة عضو مجلس الشورى (bouleutes) .

وقد أدى إنشاء مجالس الشورى إلى إنشاء مناصب إدارية جديدة كان أهمها منصب رئيس المجلس (prytanis) ، وكان يرأس المجلس وينفذ قراراته ، ومنصب أمين المدينة (hypomecomographos) ، ومنصب syndikos ، وكان مستشار المجلس فيما يتعلق بالشؤون الإدارية ، ومنصب taxiarchos ، وكان يختص بشؤون المدينة المالية ، ومنصب رئيس الشرطة في المدينة (dokastrategos) .

وقد تضمنت التعديلات الإدارية الجديدة تقسيم المديرية إلى أقاليم ، ونج ذلك أحياء

وظيفة حاكم الأقليم (toparch) « وكان  
يعين لكل إقليم مراقبان على دخل الحكومة  
من كافة أنواع الأراضي (dekaprotoi) «  
ومعد من جباة الضرائب (praktors) .

وكان أهم التعديلات التي أدخلت على  
لدارة القسرى إحياء وظيفة حاكم القسرية  
(komarch) « والقضاء تدريجياً على  
الخصائص الفسوخ وكتاب القسرية ، فقد  
أسندت شؤون الإدارة إلى حكام القسرى  
وكافوا عادة الذين في كل قرية ، يبدو أنها  
كانا يتوليان هذا المنصب لمدة عام واحد .  
وكان حكام القرية يرتحون خلفاءهم ومن  
تحتاج إليهم الإدارة من موظفين « لكنهم  
كانوا لا يتولون مهامهم قبل موافقة قائد  
المديرية وحاكم القسم على اختيارهم .

ولا شك في أن التعديلات التي أدخلها  
سيتيوس سفروس على نظام الإدارة اعترافه  
صريح باختلاف النظام القديم ، ولا شك أيضاً  
في أنه لم ينج من وراء منح الأهالي قدراً من  
الاستقلال المحلي إلا انما في حالة البلاد  
الاقتصادية وإيجاد وسيلة تمنح الإمبراطور  
خسباً أكبر للحصول على الطراب « لكن  
لا هذه التعديلات ولا العتوق الرومانية التي  
منحها كركلا لسكان البلاد أفلحت في انما في  
الحالة الاقتصادية « بل أخذت تير من  
سيرة إلى أسوأ مما حفز الإمبراطور  
دقلديانوس إلى إعادة تنظيم الإدارة من  
أسفل إلى أعلاها .

« ولا مراة أن السبب الأساسي فيما أصاب  
البلاد من فقر وتدهور يرجع إلى أن الرومان  
لم يستعملوا من وراء كافة انظم التي  
وضعوا لحكم مصر وكافة التعديلات التي  
أدخلوها على تلك انظم إلا استغلال البلاد  
إلى أقصى حد وضمان الحصول على  
ما لم يولد عليها من مختلف الالتزامات دون  
نظر إلى مصالح الشعب ورفاهيته . وليس  
مرد ذلك إلى أن الرومان كانوا يريدون  
التنكيل بمصر وإنما مرده إلى أن غلبهم في  
أن تضيق مصر بالقبريات على روماء أعينهم  
من مراعاة مصالح مصر . ولو أصح كانوا  
يميدون التنكيل لقتلوا أن القطار مصر سيثير  
عاجلاً أو أجلاً فيما تعنيه روما من مصر لكن  
إراء تمة المسؤولية المطلقة على عاتق الحكام  
وقصر مدة حكمهم لم يفكر كل منهم إلا في  
يومه وكأنه أخذ شماعة « ومن بعدى  
الطوفان » .

### « - الشرطة :

« انتهى الرومان أثر البطالة أول الأمر في  
حفظ الأمن والنظام في أنحاء البلاد بحراس  
(physiokratores) مسلحين ومنظمين على أسس  
حربية . وتسمى القرائ إلى أن هذا النظام بقي  
متيناً إلى الدفا حتى القرن الثاني ، لكن يبدو  
أن الرومان لم يقنوا أن استبدلوا بهذا النظام  
نظاماً مزدوجاً أقيمت بمنظمة تمة حفظ الأمن  
والنظام على شرعة مدنيين كانوا يمتنون من  
أهالي كل منطقة وكذلك على الجيش



رجال الشرطة في كل قرية تحت إمرة الموظف الذي مر بنا ذكره (archepodes)، وليس هناك دليل على أن رئيس شرطة عاصمة المديرية كان يعين من قبل مجلس الشورى أو يخضع لتوجيهاته. وأغلب الظن أن الحكومة الرومانية كانت تعين دائما على رجال الشرطة في كافة أنحاء البلاد بما في ذلك الاسكندرية وغيرها من المدن الهلنستية.

وكان الجيش الروماني يقسم لحفظ الأمن والنظام فئة قليلة من الجنود يدعى انها كانت أفضل أئرا من الشرطة المدنية، وفي أغلب الأحوال كانت كل فئة من هؤلاء الجنود تحت قيادة *centurio* شابط كانت تقدم اليه الشكاوى كما كانت تصدر منه الأوامر لالقاء القبض على المتهمين. وتلحق القرائن الى أنه في بعض الأحيان كان يصدر الى شرطة القرية ما يتردى له من التعليمات.

٩ - الجيش الروماني :

عندما فتح أغسطس مصر كانت حامية مصر الرومانية تتألف من ثلاث فرق رومانية (*legiones*)، وقسم كتاب مساعدة من اللسان (*cohortes*)، وثلاث فصيلات من الفرسان (*equites*) وزعم على المراكز الاستراتيجية في البلاد نشر البكتة والنظام في أرجائها ولضمان حاجتها من الاعتداءات الخارجية. فوضعت في نيقوبوليس أحسدى الفرق الرومانية وثلاث كتاب مساعدة لاقاء العرب

الروماني. وكان رجال الشرطة المدنيون يدعون بوجه عام حراسا أو خفرا أو حفاة الأمن (*politia*)، لكن كثيرا ما كانت تطلق ألقاب خاصة على الذين ينال إليهم عمل معين مثل حفظ الأمن في ساحات الألباب أو السجون أو الطرق التجارية، غير أنهم كانوا جميعا يتناوبون للخدمة في الأقاليم التي يعيشون فيها ويرجح أن مدة خدمتهم كانت عاما واحدا، وكان يتمين عليهم أن يقدموا شيئا للخدمة بأمانة وزاخرة وأن يقدموا للحكومة ضمانات لحسن أدائهم مهتهم. وكانوا ينقسمون وحدات أساسها المدينة أو القرية، وكانوا في المدينة تحت رئاسة القائد مباشرة، أما في القرية فاعلم كانوا تحت رئاسة موظف خاص يدعى (*archepodes*) ولم يكن لهذا الموظف اختصاص فضائي بلهم أنه كان يتدخل بين المتخاصمين لمصالحتهم وإن المتخاصمين كانوا يناجوا اليه للقبض منازلهم. وكان يكلف بإلقاء القبض على المجرمين بناء على أوامر يتلقاها من السلطات المختصة، كما كان يكلف بتنفيذ أوامر الحكومة.

وقد صاحب اللقاء بمجلس الشورى في عواصم المديرية تنظيم قوة للشرطة في عاصمة كل مديرية كانت مستقلة عن قوة الشرطة في المديرية فقد ظهر في القرن الثالث على رأس رجال الشرطة في عاصمة كل مديرية موظف يدعى (*subprocurator*) بينما اشتر

في قلوب الاسكندرانيين الذين اشتهروا بسلطهم الى الشعب والثورة ، ووضعت قرقة رومانية اخرى في بايلون للسيطرة على الوجه البحري . ويرجع ان القرقة الثالثة وضعت في منطقة ملية التي كانت مهد الثورات الوطنية ضد البطلمة ، ووضعت ثلاث كتائب مساعدة عند اسوار الدنايخ عن الحدود الجنوبية ووزعت الثلاث الكتائب المساعدة اليالاه والثلاث الفصائل في مختلف أنحاء البلاد لحماية الحدود الشرقية وتأمين الطرق الصحراوية وحرارة المناجم . لكن سرعان ما تبين ان هذه القوات كانت عريضة على العاجلة ولا سيما بعد اطمئنان الرومان الى سلامة الحدود الجنوبية لأمر تيربوس ~~ب~~ إحدى الفرق الرومانية الثلاث . وعندما أثبتت الأحداث ان الاسكندرية كانت أخفض معنى الرومان من منطقة ملية أمر كلاوديوس بنقل الحماية الرومانية التي كانت تنزل عند فقط أو شبة الى مسكر ليفوبوايس .

وفي عهد نيرون حدثت مؤقنا في الاسكندرية فرق رومانية اخرى للقيام في رأى الباحثين بالعصلة التي كان هذا الامبراطور يمتاز توجيهها ضد مملكة اكسوم لكن حال حول القيام بها اندلاع الثورة في جيودايا مما استدعى استخدام تلك الفرق في اخيادها . وفي عهد تراخان دخلت

عدة تغيرات على نظم مصر الحريسة كان أهمها بناء قلعة جديدة على شاطئ انبيل عند بايلون وازضافة فرقة جديدة ( فرقة تراخان الثانية ) يرجح انها حشدت للخدمة في الشرق وانزلت مؤقتا في مصر لكنها لم تبادرها حتى سحبت الاشتراك في حرب الدانوب .

ولم يأت عهد أنطونيوس بيجوس ( ١٣٦ - ١٦١ ) حتى كان عدد الفرق الرومانية في مصر قد انقص الى فرقة واحدة لكن يبدو من ناحية اخرى ان عدد الكتائب المساعدة والفصائل قد زيد . وبين من الوثائق انه على مر الأيام اتجه الرومان بافراد الى التجنيد محليا للـ الأماكن التي تضل في صفوف العامة الرومانية في مصر . وليس معنى ذلك انهم اعتمدوا على المصريين في ذلك وانما الأرجح على مواضع للثلاث الاغريقية ومواسم المديريات .

وكان بحرس شاطئ الدلتا أسطول امطس هو الذي أشاء وان كان لا يرد له ذكر في مصادرنا قبل عصر لبرون . وكانت المهمة الأولى لهذا الأسطول الدفاع عن البلاد وحرارة التمسح المنقول من الاسكندرية الى ايطاليا . لكننا نسمع منذ عصر هادريان انه كان يقوم كذلك بحراسة النفل المائي في داخل البلاد .

## الفصل الثالث

### السياسة الدينية

الإدارة يشدون أزرهم ، إذ كاذب القرار يقضى  
بإغلاق كل المعابد التي كانت القرايين تقدم  
فيها ، لكن الزهاد استبدوا من ذلك القرار  
السلف ليهدموا المعابد . أما في الوجه القبلي  
فإن سلطة الحكومة لم تكن من القوة بحيث  
تستطيع تنفيذ ذلك القرار ، حتى إذا شاء  
رجال الإدارة نفسيه ، وكان أخليهم في  
الواقع مسيحيين غير متحسين أو أماريين  
متبصرين لم يروا من الحكمة فرض دين  
معين على الشعب دون رغبته ، ومع ذلك  
مازلنا نرى حتى اليوم على جدران المعابد  
آثار المحاولات التي بذلت لحو صو الآنية  
القديمة . ولا جدال في أن كل ذلك ينمض  
دليلا على أن جانباً كبيراً من المصريين  
استسكوا أمدا طويلا في العصر الروماني  
بعبادتهم القديمة . ويجب ألا يغيب عن البال  
أن أهل الرياء وهم يؤلفون دائما جالبا كبيرا  
من السكان في مصر أكثر محافظة من أهل  
المدن وكذلك أكثر منهم تمسكا بأعادي  
الدين .

وقد احتفظ كثير من أغريق مصر أيضا  
بعبادتهم القديمة . ويجب ألا يتبادر إلى

الذهن أن الرومان قد دأبوا في العسوف  
المادة على اتباع سياسة التسامح الديني  
مع رعاياهم ما دام ذلك لم يتعارض  
والاحتفاظ بسيطرتهم عليهم ، فالهم شيئا  
مع هذه السياسة لم يتدخلوا في المعتقدات  
الدينية لرعاياهم في مصر سواء أكانوا من  
المصريين أم الأعراب أم السود . فلا عجب  
إذن أن استمر كل عنصر من العناصر  
في إقامة شعائر دياناته القديمة . ولا أول على  
أن تغلب المصريين بقوا على ولاهم لأصنامهم  
القديمة من أن الاغتياب الأوائل للمسيحية  
وجها حملات لأذعة ضد عبادة الحيوان ، بل  
أنه بعد انتشار المسيحية في مصر والفرافد  
الدولة بها رسيا في القرن الرابع للميلاد بدل  
المسيحيون جهودا كبيرة لتقصاء على الوثنية  
في مصر وساعدتهم على ذلك أنه عندما ارتقى  
الامبراطور ثيودوسيوس ( ٣٧٨ - ٣٩٥ )  
العرش فرض المسيحية قسرا في جميع أنحاء  
الامبراطورية الرومانية . وقد تصد قرار  
الامبراطور دون هوانة في الاسكندرية  
والوجه البحري حيث ذهب الزهاد في  
تنفيذهم إلى أبعد مدى ومن وراثهم رجال

المصريين منهم إلى الاغريق ولم ينقض وقت  
طويل قبل أن تستوعبهم أمانة المصرية فبين  
استوعبتهم على مر العصور . ومن ثم نقص  
عدد أتباع الديانة الاغريقية تبعا لعدد الذين  
تنصروا وبطبيعة الحال أيضا تبعا لعدد  
الذين اعتنقوا المسيحية .

ولما كان اليهود يلقون في القسطنطينية  
الدخية بمحل من كافة سكان مصر سواء  
اكانوا من المصريين أم من الاغريق أم من  
الرومان ، فانهم استنبروا بنائهم جسادتهم  
دون أن تأمل طقوسهم أو معتقداتهم بأي  
تأثيرات اجنبية . ولقد انتشرت بينهم في أغلب  
مدن مصر الكبرى واستمر معتقدتهم الكبير في  
ليونثوبوليس يباشر لفساطة التي أن أمر  
سپاسيانوس في عام ١٧٣ باغلاقه بعد تدمير  
تورشليم ومعبداتها في أعقاب ثورة اليهود على  
روما . وذلك لكي لا يتنقل هؤلاء العيد الكثير  
في فلسطين بعد زواله إلى معبد  
ليونثوبوليس ، وقد شهدت مصر التطور  
الوحيد الذي طرأ على الأفكار اليهودية  
وكان يتمثل في تكوين طائفة من النساك  
أثبتت لنفسها يعة بالقرب من بحيرة مريوط  
بعث أحدثت مدارس جميلة من القطف  
والزهد منصرفة عن أمور الدنيا إلى العز  
والأمل . وكان يسبح للرجال والنساء على  
السواء بالاندماج في هذه الطائفة ، وكان  
يخصص لكل عضو من أعضاء الطائفة  
صومعة صغيرة يزدى فيها وحيدا لمدة ستة

الذين أن ذلك كان مقصورا على مدتهم  
الاغريقية فحسب بل يبدو أن ذلك كان  
شأنهم أيضا حيث وجدت لهم مراكز حضارية  
خارج تلك المدن . فالتراثي تشير إلى أنهم  
كانوا يقيمون شعائر عبادتهم القديمة لا في  
الاسكندرية وقرطاج وبيس وبطولييس  
وانثونوبوليس فحسب بل أيضا في الفيوم  
وهرموبوليس (الاشمونين) وأوكسرخوس  
(الجنينة) . لكن لا جدال في أن عدد الاغريق  
مصر الذين بقوا على دلائهم لأهلهم القديمة  
قد تناقص على مر الزمن . فقد مر بنا أن  
الاغريق منذ عهد هيرودوتوس وطوال عصر  
البطاله كانوا يسمعون الآلهة المصرية بالآلهة  
الاغريقية وانهم كتبوا ما عبدوا الآلهة المصرية  
إلى جانب آلهتهم الاغريقية باعتبارهم زلا  
البلاد التي كانت تفتنح بحماية ملك الآلهة .  
ولستطيع أن تصور أنه كلما أصبح الاغريق  
أكثر القوة بالآلهة المصرية نتيجة لطول  
استقرارهم في البلاد والاحتلاط بأهلها أو  
التزاوج معهم كثر تفرغهم إلى هذه الآلهة  
وبمع ذلك تسرب بعض الأفكار الاغريقية  
إلى بعض المذاهب المصرية التي كان يمارسها  
الاغريق والمصريون المتأخرون . وإذا كان من  
الجايز بوجه عام أن افترض المدن الاغريقية  
وعواصم المديريات لم يصدفهم التمسك إلى  
آلهة المصرية عن التمسك إلى آلهتهم الاغريقية  
فما لا شك فيه أن عامة الاغريق المنتشرين في  
رجاء البلاد أصبحوا بالتدريج أقرب إلى

البعض لهم خدمة أسدتها المسيحية المصرية  
للمسيحية الأوربية .

وزاء استمساك المصريين بتمسكهم  
الدينية رى ان الأباطرة الرومان لكي  
يحسبوا مركزهم بصفة شرعية في تظهير  
المصريين حبوا حذو البطالة من قبل فاجتذوا  
صفة الفراعنة . يله ان حاكم مصر الرومانى  
أيضا كان يشبه بالفراعنة ، فلا يركب النيل  
وقبلى الشيطان ، ويقدم اقربائهم عند بلوغ  
النيل أقصى ارتفاعه ويمثل دور فرعون في  
غير ذلك من شتى المظاهر . وكبد الأباطرة  
المعابد للالهة المصرية أو اضافوا الى سبيل  
المعابد القائمة أو اكملوا مبانيها أو زخرفوها  
وصوروا على جدرانها وعلى النصب الرسمية  
في رى الفراعنة وأولعهم .

وقد كان الرومان في بادئ الامر ينظرون  
الى معتقدات المصريين الدينية نظرة احتقار  
وازعراء لكنهم لم يلبثوا ان أخذوا يتفلقون  
الى معرفة أسرارها فاستمتعهم تلك الأسرار  
وما يقترب بها من أساطير . وما عثم الاقراة  
انما تعرفون ان خطبوا لسلطان تلك الالهة  
وشادكروا عباياهم المغفولين على ثمرهم في  
عبادتها وتقديم الثورين اليها بل أقاموا  
التمائيل والتمسك ببعضها حتى في روما  
العظيمة ذاتها . ولعل أبلغ ما يدل على التغير  
الفكرى الذى حركه على الرومان من حيث  
تقديرهم للالهة المصرية البحث ان أغسطس  
أبى واستكبر ان يرى المعبد المقدس ايسر ،

أيام ولا يخرج منها للالتقاء مع اخوانه في  
البيعة الا في يوم السبت من كل أسبوع  
وكذلك في يوم الحفل الذى كان يتقام كل  
خمسين يوما . ولم يكن هذا اللون من حياة  
التنك غير معروف في مصر من قبل . وآية  
ذلك أولئك السالك الذين تحدثنا الوثائق  
بأهم كانوا ينقطعون للعبادة في ميريابوم  
سلف في عهد البطالة . ويعتقد بعض الباحثين  
ان المبشرين اليهوديين هم الذين ظفروا من  
الهند الى مصر فكرة التنسك ، لكن البعض  
الأخر من الباحثين وان كانوا يسلون بأن  
مثل أولئك المبشرين كانوا يفدون على مصر  
في عهد البطالة وبأن مذهب سرياس كان  
يتألف من مزيج عجيب من الأفكار ، الا انهم  
يجدون من المسير انه يصوروا ان يكون  
اليهود مع شدة تمسكهم لدياناتهم قد  
اقتبسوا الى عادات من ديانة أجنبية ،  
ورجعوا ان تكون طيبة مصر هي التي  
أوحى لليهود بعبادة التنسك ، فالصحراء في  
مصر شديدة القرب من أى شخص يريد  
اعتزال العالم ، والصحراء حاذية خاصة  
الاحساس بها أسهل كثيرا من وصلها ، ومن  
الميسر ان تستوى أفكده الذى شغلوا  
بالتمسك في أمور الدين . ومهما يكن من أمر  
فان التطور نفسه قد حدث بعد ذلك بقليل  
بين المسيحيين في مصر فانتشرت بينهم عادة  
التنسك في الأديرة ، وهي العادة التي انتقلت  
من مصر الى كل أنحاء أوروبا ومشرها .

لكن بتوسُّع شهيد الاحتفال بتكريسه ولم  
يسخر وسعا في اظهار احترامه لإلهة المصريين،  
فوضع بذلك أساس سياسة جديدة تلتس  
أثرها في بدء تصوير الآلهة المنحطة في  
المديريات على تقود الإسكندرية منذ عصر  
دوميتيانوس (٩٦ — ٩٦) وكذلك في تنبيه  
زوجة تراجان بالإلهة جانكور .

والذا كان الرومان منذ وطأت أقدامهم  
مصر لم يشرفوا لمعتقدات المصريين الدينية  
فانهم في الوقت نفسه عرسوا ، كما حصل  
البطالة الأولى ، على ألا يتركوا الحيل على  
الفساد رجاء الدين المصريين لكي  
لا يصحروا أداة لشرف وروح الثورة في البلاد ،  
كما حدث في عهد البطالة الأواخر . ولذلك  
لغى أغسطس بحرمات المعبودات جابا من  
أراضيها واستاد أداة جانب آخر إلى  
الحكومة لكنه سمح للكهنة بزراعة جزء من  
هذه الأراضي لتزويد حاجات المعابد . وتقللا  
عن ذلك وضعت إدارة المعابد تحت إشراف  
الحكومة ويرجع أن الحاكم العام الروماني  
هو الذي كان يتولى هذا الإشراف حتى  
عصر هادريان عندما أصبح ذلك من  
اختصاص موظف روماني كبير كان يدعى  
إيدولوجوس (Idologos) ، ويعمل لقب  
« كبير كهنة الاسكندرية ومصر بأجمعها » .  
وترينا الوثائق كيف كان هذا الموظف يشرف  
أشرافا دقيقا على كل ما يجري في المعابد فقد  
كان يخلص لتعليماته ترتيب الوثائق

الكمونية وتحويلها ومباشرة الكهنة مهامهم  
بل الملابس التي يرتدونها . وكان يبعث  
بمشتيه إلى المعابد ليبحثوا شئون ادارتها  
ويأمر بالتبض على الذين يعصون أوامر  
وبارسالهم إلى الاسكندرية . وكان يتولى  
الإدارة الفعلية في المعابد جماعة من  
الصيوع يختارون سنويا من بين الكهنة  
وعندما أنشئت مجالس الشورى في مطلع  
القرن الثالث آل الإشراف على شئون المعابد  
المباشرة إلى موظفين كانت المجالس تعينهم  
وتراقب أعمالهم .

ومما يجدر بالملاحظة أن ما عرفناه من أمر  
الرومان حيال الإلهة المصرية لا يبنى أنهم  
أضرفوا عن عبادة آلهتهم الأصلية فقد ادخلوا  
عبادة هذه الآلهة في مصر كما أدخل الاغريق  
من قبل عبادة آلهتهم الاغريقية . وقد أخذ  
الرومان أيضا من الاغريق تأليه الملوك فبنوا  
الإلهة كاللهة — مثل أغسطس بزيوس  
اليوناني (Zeus) ولبرون باجثاديسون  
(Agathadadimon) — وشيونا المعابد  
للإلهة لكننا نشتر إلى دولة فاعمة على عبادة  
الإلهة والنساء المعابد لهم في أثناء حياتهم .  
وعلى كل حال لأن الرومان لم يفرضوا على  
المصريين هذه المبادئ خشي الاضطهاد  
بالشعور القومي وهو ما كان الرومان  
يبتلون جهدهم لانهائه . وقد أخذ الرومان  
كذلك عن الاغريق عبادة ثلاث الاسكندرية  
القدس — سيريس وايزيس وحاربوراط

— وعبادة الآلهة المصرية التي أسست عليها أسماء إغريقية .

لقد عرفنا ان الرومان اقاموا سياستهم الدينية على أساس التسامح الديني وانهم 'باحوا' للمصريين والاعريق واليهود حرية الاحتفاظ بعبادتهم القديمة . لما كان موقعهم من المسيحية عندما أخذت تنتشر في مصر ؟ ان معلوماتنا قليلة عن هذه انتشار الدين الجديد في مصر لسكن الباطنين لا يميلون الى قبول القصة القائلة بأن القديس مرقس هو الذي أسس كنيسة الاسكندرية وان كانوا يمتدحون ان لرب مصر من فلسطين جعلها في طليحة البلاد التي تسرب اليها الدين الجديد في خلال القرن الاول وأخذ ينتشر طفرة هناك ولا سيما في الاسكندرية والوجه البحرى ، وأصبح عدد المسيحيين كالجسم تصيب 'سبابة' للاسكندرية . وقد ازداد اعداء المسيحية في القرن الثانى وخاصة عندما نصب ديمتريوس في آخر عهد كومودوس ( ١٨٠ — ١٩٣ ) أسقفاً للاسكندرية وعلى يده نمت رسامة قس كثرين بما لا تشاهد المسيحية . ومع ذلك فان المسيحية لم تترك في أثر فيما عثر عليه حتى الآن من برديات القرن الاول ولا نستمد من برديات القرن الثانى لا معلومات كافية عن مدى تأثير المسيحية وان كنا نتبين منها ان السجبة توغلت في مصر الروماني ومصر العليا .

وقد أدى انتشار المسيحية الى اثاره مخاوف الرومان ومن ثم عملوا على اضطهاد دعائهم وانتصارها باعبيارهم عنصريا خطرا يهدد سلامة الدولة لعدم مشاركتهم في إقامة شمامسة الديانة الرسمية ، فغضب كانوا لا يقبلون تماثيل الإلهة ولا يهللون الروح الحارس ، ولا يهللون روما المولمة . وقد كان بدء اضطهاد المسيحيين في مصر اضطهادا منتظما في خلال حكم سيبتيموس سقرس ( ١٩٣ — ٢١١ ) وبلغ أمله في أوائل عصر دقلديانوس ( ٢٨٤ — ٣٠٥ ) . وتركت هذه الاضطهادات أثرا عميقا في النفوس الى حد ان الكنيسة المصرية استمرت بضعة عرون تستعمل لتأريخها ه عصر التسبيح ه ابتداء من حكم دقلديانوس . لكن وسائل الاضطهاد المختلفة لم تفلح في سبيل النشار الدين الجديد حتى نمت له القلبية في عصر قسطنطين الاول ( ٣٠٥ — ٣٣٧ ) عندما احترمت الدولة رسما بالمسيحية .

ومما يجدر بالذكر انه في القرنين الثاني والثالث قامت الاسكندرية بدور كبير في التفرير بين أسس الأفكار الوثنية والأفكار التي انبثقت من المسيحية . فالى جانب ' الجامعة ' القديمة التي استمرت تابع دراساتها الوثنية نشطت المدرسة المسيحية الكبرى التي أسسها يتيانوس ( Pantaenus ) وكانت مسول الايمان تعلم فيها عن طريق السؤال والجواب .

## الفصل الرابع

### السياسة الاقتصادية

#### ١ - الزراعة والصناعة والتجارة :

محصول وفير جيدا وفضيلا عن ذلك فإن البلاد كانت لا تملك من أى ضائقة حتى عندما كان منسوب المياه لا يبلغ أكثر من لمائى أذرع .

وكانت مصر تنتج صلدا كبيرا من المحاصيل الزراعية كان القمح أهمها ثم يأتى بعد ذلك الشعير والكتان والخضروات والنباتات الزيتية والبردى والكروم والبلح والزيتون . ويقال ان مصر كانت تزرع أيضا القطن تستخدم ثيلته في صناعة ملابس الكعبة .

وقد عنى الأباطرة المصلحون بالتهوض بالصناعة لسد حاجات السوق المحلية من ناحية وتصدير كميات كبيرة من ناحية أخرى تهوض مصر على هذا النحو جانبا من الجزيرة التي كانت تدفعها لروما سنويا . ويبدو ان حكام مصر من الرومان جهما وجدوا الاحتكار الحكومي باهظ التكاليف قليل الأرباح نزلوا عنه للأهالى فكانت الحكومة تحتكر بعض الصناعات مثل استخراج الملح والمعادن وقطع الأحجار وتترك صناعات أخرى لنشاط الأفراد .

لما كان الرومان في حاجة ملحة الى الانتشاع بموارد مصر الطائلة وكان مقدار ما يجنونه منها ينقلب على مقدار ثروة مصر وكانت أحوال مصر الاقتصادية قد تدهورت في عهد البطالة الأواخر من جراء ضلعم وتخاذلهم وما عاقبه البلاد من آثار الثورات القومية والاضطرابات الأسيية والغزوات الأجنبية ، فقد وجهه الرومان عنايتهم الى إقامة حكومة قوية لرياسة والى التهوض بمراقلة البلاد الاقتصادية .

ففى الزراعة عنى أنضض وحصيلو الرأى من خلفائه بضبط مياه النيل وحسن تصرفها وما يتطلبه ذلك من كرى الترع القديمة وإنشاء ترع جديدة والمحافظة على الجسور فلا يجب ان اسرابون بعدتنا بأنه قبل الفتح الرومانى كان يتمين ارتفاع منسوب مياه النيل الى ١٤ ذولا لاتناج محمولو وكثير في حين ان بلوغ منسوب المياه ثمانى أذرع كان يؤدي الى حدوث مجاعة . اما بعد الفتح الرومانى فقد أصبح ارتفاع منسوب المياه الى اثني عشر ذراعا كافيا لاتناج



وقد اهتم الرومان كذلك بتجارة مصر  
الخارجية فراجت رواجيا كبيرا ولا سيما بعد  
تطهير البحر الأبيض المتوسط من القرصنة  
ونشر خوذ الرومان على شواطئ البحر  
الأحمر واصلاح الآبار الواقعة على الطريق  
المعبرواية التي تربط النيل بالبحر الأحمر  
وشق طرق جديدة لهذا الغرض واقامة  
العساكن على جوانب هذه الطرق لاستقبال  
الامن في تلك الجهات .

## ٢ - النقود :

لما كان ألبطس وخلفاؤه قد حرصوا  
على ابقاء مصر وحدة سياسية واقتصادية  
منزلة عن باقي الامبراطورية الرومانية فاعلم  
اصدقوا مصر حصة خاصة بها لم يكن لها  
اية قيمة خارجها ولم يسمحوا بتداول العملة  
ازرومانية البرونزية والفضية فيها وان كانوا  
فيما يبدو قد سمحوا بتداول العملة  
الرومانية الذهبية لكن لها كانت الأدلة على  
التعامل في مصر بهذه العملة قليلة لانه يبدو  
ان تداولها هناك كان محدودا جدا ، وهكذا  
اخرت مصر بوضع لم يكن له مثيل في أي  
ولاية رومانية أخرى ، ففي الولايات القريبة  
غدت العملة الرومانية سريعا الوسيلة  
الوحيدة للتعامل وفي الولايات البعيدة  
انه كانت تلك محطيا عملة برونزية ( وفي  
قبرصة وانطاكية بعض فئات العملة الفضية )  
فان الناس كانوا دائما يتداولون فئات العملة

لكن من الصعب في ضوء معلوماتنا العالية  
اعطاء صورة كاملة صحيحة عن مدى حرية  
النشاط الاقتصادي في الصناعة . وتشير  
القرائن الى ان الاسكندرية عادت مركزا  
صناعيا كبيرا لكنها لم تغرد بالفساط  
الصناعي فكانت توجد مراكز صناعية في  
مختلفة أنحاء البلاد مثل اوسينيوا ( اليوم )  
وأوكسيرينخوس ( البهنسة ) وبافويوليس  
( اخميم ) وطيبة . ومن المرجح ان القرايطس  
احتفظت على الأقل ببعض ما كان لها من  
الأهمية الصناعية القديمة . وتعدنا البرديات  
عما كان هناك نشاط صناعي في قرية  
نبوتيس باليوم ويرجع اليها لم تنفرد دون  
غيرها من قرى مصر بشئ هذا النشاط .  
فذكر البرديات ان أهل نبوتيس كانوا  
يشتغلون بنسج الأقمشة وصباغتها ومنع  
الزيت والجمرة والحلى والأحوات المنطوية .

وكانت صناعة الزجاج من أرقى  
الصناعات المصرية حتى انه ليزنق الي مصر  
ابتكار فن تشكيل الزجاج بالنفخ حوالي  
بداية العصر المسيحي ، ويحتمل ان مصر  
كانت تعتكر صناعة المكعبات الزجاجية  
الصغيرة اللازمة للمصنفاء ، وكانت مصر  
تذكر كذلك صناعة الخرق وتنتج منه  
أصنافا عديدة راقية . واشتهرت مصر أيضا  
بنسجها الكتانية الدقيقة وصناعة  
العطور والمساحيق والأدوية والصابون  
والنكوس المصنوعة من الصمغ أو الذهب .

الرومانية الفضية والبرونزية . ولما لم تكن للعملة التي تسك في مصر قيمة خارجها وكانت روما تحصل على جانب من الجزية المصرية تسديدا فلا بد من ان روما كانت تحصل على هذه الجزية النقدية من ارضها صادرات مصر الخارجية ومن ثم كانت الجزية الرومية والجزية النقدية للقياد فيها كثيرا على موارد مصر .

وقد كان الرومان يسكنون العملة المصرية في الاسكندرية وتصدر العملة الى الله لم تصدر عن دار السكة في هذه المدينة أي عملة فضية أو ذهبية في العصر الروماني . ففي عهد أغسطس كانت تسك فئات مختلفة من العملة البرونزية ومع ذلك كان يطلق على العملة ذات الأربع دراخمت عملة فضية من باب الغاب فقط .

وفي عام ٢٠/١٩ ميلادية قرر تiberius أن تسك الاسكندرية عملة ذات أربع دراخمت من مزيج يتألف من البرونز والفضة بنسبة ٣ : ١ وان تستمر الاسكندرية في سك الفسيفات الصغرى من العملة البرونزية . وقد بقي معمولاً بالنظام الذي وضعه تiberius حتى عام ٣٩٦ مع تعديلات طفيف في نسبة مزيج القطع ذات الأربع دراخمت وكذلك في شكل العملة فقد كان على نمط طرز العملة البيزنطية حتى عصر قسطنطينوس عندما أخذت تسك على نمط العملة الرومانية . ومنذ أواخر القرن الثاني

أخذت قيمة العملة ذات الأربع دراخمت في الهبوط باستمرار ، وأسرت حتى هذا الهبوط في النصف الثاني من القرن الثالث الى حد ان وزن هذه العملة أصبح لا يزيد الا قليلا على نصف وزن مثيلاتها في عهد تiberius فضلا عن انه لم يند فيها من الفضة الا قدر طفيف جدا ينقص كثيرا مما كان عليه في الماضي . وقد سبب هبوط قيمة هذه العملة شح العملة البرونزية سرعها وسك عملات من الرصاص باسم المديرات المختلفة حلت محل العملة البرونزية . وتغير اللوائح البردية الى أنه قد سبب هبوط العملة كذلك ارتفاع الأسعار والأجور أيضا لكن الأجور لم ترتفع بالمعدل ذاته مما كان له دون شك أثر في طبق الناس يعالهم .

#### ٣ - المصارف المالية :

كان يوجد مصرف رئيس عام في الاسكندرية ومصرف مركزي عام في عاصمة كل مديرية ، وكانت هذه المصارف الصاعدة تؤدي مهمتي استئلام أموال الدولة وحفظها ، وكان يقوم على ادارة كل مصرف مواطن من أثرياء عاصمة المديرية كانت تعرض عليه مهمة ادارة المصرف مدته معينة . ولحدوثنا الوثائق عن ثلاثة أنواع أخرى من المصارف فتطلق على أولها اسم مصارف التجميع (krematistike tespeza) ، ويبدو انها كانت تباشر مهمتي مكانات التجميع والمصارف المالية . وتطلق الوثائق على النوع

الثانى اسم مصارف استبدال النقود (Kollobistische trapaze) ويبدو ان مهمتها الاولى كانت استبدال النقود المصرية بأى عملة أجنبية ترد من الخارج . اما النوع الثالث فيسمى المصارف الخاصة (idiotike scorpae) ، ويبين انهما كانت تستبد رومس أموالهما من الأفراد وتؤدي مختلفه أنواع الأعمال المصرفية ، ولم يقتصر نطاقهما على عمليات الأفراد فحسب بل كان يشمل أيضا عمليات حكومية .

ويستلشد بعض الباحثين ان الحكومة كانت تتحكم كافة الأعمال المصرفية وتؤجر ادارة المصارف الخاصة لمن يتقدم بأكبر عطاء لقاء ذلك لكن المعلومات التى لديها حتى الآن لا تسمح بتأييد هذا الرأى أو نفيه . وان كان يبدو مقبولا ومعتلا .

ومما يجدر بالملاحظة ان المعاهد لم تقطع صما مرتجت عليه منذ أقدم العصور من مباشرة أعمال شبيهة بالأعمال المصرفية مثل اقراض النقود واستلام الودائع . وفي مجتمع زراعى مثل مصر الرومانية كان ثمة مخازن العبوب (store) ، كذلك يعرفون مهمة المصارف الخاصة .

#### ٤ - حالة البلاد الاقتصادية :

لقد كانت النتيجة الطيبة لقيام حكومة قوية قادرة لا تنقصها النزاهة مكان حكومة عاجزة فاسدة ازدياد الرخاء على الفور لكن

استناد الحكومة القوية العاصدة الى نظرية فاسدة كان لا بد من أن يجعلها على مر الأيام أشد خطرا على البلاد وأكثر ضررا من حكومة أقل منها قوة ومقدرة . فقد كان الرومان لا يفسون من وراء سياستهم الاقتصادية ١١١ مصر الا غرضاً واحداً وهو استغلالها لمنفعتهم الخاصة . وإذا كانت آراء بعض الأباطرة قد تفاوتت عن آراء البعض الآخر فان ذلك التفاوت لم يكن فى المبدأ نفسه وإنما فى مقدار ذلك الاستغلال ، إذ بينما كانت الدولة تسلى على بعضهم عبث تكليف البلاد ما يزيد على طاقتها لا شفقة بالبلاد أو أهلها بل شفقة بأنفسهم كيلا يجنب معين البلاد لرى أن البعض الآخر قد ضرب بذلك العنكة عرض العالط وراح يبتز كل ما تملك البلاد . وحسبنا انه حتى في عهد أغسطس كاتب الجزية النوعية أربعة أمثال ما كان البطلمة الأوائل يجبرونه . ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد كان هناك غارق آخر هام بين البطلمة والرومان وهو ان معظم ما كان البطلمة يبتزونه من مصر كان يبقى فيها اما معظم ما كان الرومان يستنزفونه من مصر ، حيث كان لم عهدا ، فانه كان يتقل الى روما ويقتصر مصر كالية .

ويبدو بآلوان ودهة ان التحول الأول من حكم الرومان ( من أغسطس الى آخر حكم نيرون أى من ٣٠ ق . م . - ٦٨ م ) حصل فى ملياته رخاء عموما . لكن اذا دققنا النظر

وجدنا ان ذلك الرشاء كان من قسبي روما قبل كل شيء ومن نصيب الاسكندرية الى حد . اما مصر ذاتها فقد كانت البقرة الحلوب التي درت ثلث الغلات حتى أخذت تظهر بوادر اضطلالها ، اذ ان كل نظام الحكومة كان موجه الى غاية واحدة هي تمكين الدولة من استبعاد الفلاح في خدمتها وإتزاز أموال دافعي الضرائب . ورينا القواعد المالية التي كان الايديولوجوس يسهر على تثبيتها (Garrison Idou Logos) والقوانين الخاصة بتأجير الأراضي أو جباية الضرائب كسدة حرص الحكومة على مطالبة مزارعيها بأعلى الايطارات دون أن يمنحها في قلب أو كثير ان كان لم يتبن لهم بعد ذلك الاقل القليل لقاء كل جهدهم المسمى الفاق ، ولا غرو فقد كان شعار كل رجال الحكومة مراعاة مصالح العزاة العامة دون أي اعتبار آخر . ونجينا الموثائق بأنه في عصر تييريوس (١٤ - ٣٣م) كان المزارعون يهربون من ضريبة الرأس والمطردة ويحتشون في الأطلال والمستنقعات حتى ان بعض القرى هجرت بأكملها تقريبا . وبعدنا بردية من عهد ثيرون (٤٤ - ٦٨م) بأن سكان ست قرى من قرى اليوم قد تسع عدهم قديما شديدا . وترينا بردية من هذا العهد أيضا بأن المعب لم يهبط كأهل دافعي الضرائب فقط بل جلب معها أيضا مسا جدا بالجباية الى أن يجاروا بالنسكوى من سوء الحال والا اضطروا تحت ضغط عجزهم

المالي الى عدم القيام بتحصيل الضرائب . وتتجارب أمده هذه الحال فيمسا كسبه الفيلسوف اليهودي فيلون الذي عاصر الامبراطورين كاليغولا (٣٧ - ٤١) وكلاوديوس (٤١ - ٥٤) فهو يعدنا عن قرى بأكملها بل بلاد القريت من سكانها بسبب ضمة وملاء الضرائب ، وعن الزوج في المسجين بالزوجات والأطفال والتسكيل يوم للأرشاء عن الأماكن التي آوى اليها الهاريون من تسديده الضرائب ، وروى كيف ان جباية الضرائب كانوا لا يتورعون حتى عن الاستيلاء على جثث الموتى الذين لم يؤدوا ما عليهم من ضرائب لأرقام ذويهم على سداد الشأخرات . وبعدنا وثيقة من حوالي عام ٦٩ م عن ارقام الناس على النصح بالانزاع جباية الضرائب وعلى استنجاز الأراضي المسامة وعن العيون الذين وجدوا مرتعا خصبيا في التخليع عن المتصرين من الوفاء بالتزاماتهم للايديولوجوس وعس مزارعين في مختلف أنحاء البلاد أرهقهم ضرائب جديدة فهد مفروعة ، وقد غاء الأهالي أيضا سبب امده العاميات الرومانية بما كانت تحتسج اليه وامداد رجال الادارة بعاجاتهم في النساء لنفقاتهم عن مكان الى آخر وذلك فضلا عن سلسلة من انقراضات الثقيلة المرفقة .

ولا خلال القرن الثاني من حكم الرومان (من جلبا الى آخر حكم ماركوس أورليوس أي من ٦٨ - ١٨٠) عن الأباطرة

المستثرون بعدم ايهاط كاهل مصر فاستعنت  
 حازها الاقتصادية بعض الوقت لكن بما انهم لم  
 يعملوا على استئصال شأفة الداء باصلاح  
 نظام الحكم اصلاحا جوهريا فان الحال تم  
 ثبت ان عادت التي سيرتها الاولى . ومنسند  
 هذه الفترة بدأت تظهر البوار  
 التي قدن على أن ثروة البلاد كانت آخذة  
 في التدهور . ولا أدل على ذلك التدهور  
 من التوسع في تطبيق مبدأ الاثزام  
 (Lelloung) . وقد كان البطالة عادة  
 يعمدون في جباية الضرائب الى عتزمين  
 يتقدمون طوعية الاشتراك في مزادات تعقد  
 لكل ضريبة على حدة ، وكان المزارعون  
 يفلتون عن طيب خاطر على استئجار أراضي  
 الملك ، اما في أوقات الأزمات فاذ البطالة لم  
 يعجموا عن ارغام الأشخاص اللاتين على  
 تولي الوظائف أو ائتمام الضرائب أو استئجار  
 أراضي الملك . غير ان انجاء البطالة الى  
 وسيلة الارغام لم يكن القاعدة السائدة ولم  
 يحدث الا في ظروف استثنائية . واذا كان  
 الرومان قد اغفلوا اثر النظام البطلي قول  
 الأمر فانهم لم يلبسوا ان طرحوه جالبا  
 واشدوا يشمون بالمديح في حصول الفرق  
 الأول مبدأ الاثزام وتوسعوا في اتباع  
 هذا المبدأ توسعا كبيرا في حصول الفرق  
 الثاني .

وزيتا الوثائق البردية انه عندما تدهورت  
 حال البلاد الاقتصادية وكان المتفكرون

بالثزام الضرائب لا يتقدمون بعطاءات  
 مرتفعة كالتي كانوا يتقدمون بها في أيام  
 الرخاء كانت الحكومة اما غرغهم على التعاقد  
 معها بالشروط القديسة أو تجبى الضرائب  
 مباشرة عن طريق جباة تعينهم في متاصيهم  
 قسرا . ويبدو ان الأمر لم يستدع الاثزام في  
 حالة الوظائف الكبرى مثل وظيفة القائد  
 والكاتب الملكي لكن الحال كانت مختلفة في  
 كل الوظائف الحكومية الصغرى فقد كان  
 بشرط فمين يتولى كل وظيفة من  
 هذه الوظائف لصاب مالي معين وكلما طلت  
 وظيفة في احدى القرى أو عواصم المديرات  
 كان على كاتب القرية أو كاتب العاصمة أن  
 يرسل الى القائد قائمه بأسماء الأشخاص  
 اللاتين لتتولى الوظيفة الشاغرة ، أو بعبارة  
 أخرى أسماء الأشخاص الذين تتوافر فيهم  
 شروط تولي الوظيفة ولا يعنى هؤلاءهم من  
 تواجوا . وبعد أن يبحث القائد قائمة الأسماء  
 كان يرسلها الى حاكم القسم (epistatagon)  
 الذي تقع المديرية في نطاقه ويختار الحاكم  
 بالسرعة الشخص الذي يتولى الوظيفة  
 الشاغرة . وكان على هذا الشخص أن يعمل  
 المنصب الذي احتير له مدة تتراوح بين عام  
 واحد وثلاثة أعوام . ويرجح أن أولئك  
 للموظفين كانوا يتقاضون أجرا الا انه لم  
 يكن كافيا لمواجهة ما تتطلبه وظائفهم من  
 نفقات . وقصلا عن ذلك فانهم كانوا  
 مسئولين بأملهم بل بأشخاصهم عن كل

ما يحدث من تضييق أو عجز أو خسارة مالية للحكومة . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك القضاء على طبقة الفلاحين الموسرين .

ولكى تتبين لماذا ناه الميسرون بمناصب حكام عواصم المديريات وأخذوا يهربون من توليها كلما استحكمت حلفاء قسامة الاقتصادية يجب أن نذكر بعض دولهم . ففى حالة مدير الجيتازيوم مثلا كان عليه أن يتصل لمن ما يحتاج اليه الجيتازيوم من الزيت لتدليك الفين يمارسون الرياضة هناك وكذلك لمن الوقود اللازم للاستخدام وقد كلف الهند الأخير وحده أحد مديري الجيتازيوم في خلال العام الذى تولى فيه منصبه ٢٠٠٠ دولار . وكان على مرطب التمرين أن يتصل للقات صيانة طواحين الحبوب والمخابر فضلا عن أى عجز في امداد عاصمته يحتاجها من الحبوب .

ونحن هنا احسنى البرديات عن ان مراقبا سابقا للتأمين ترك دينا قدره ٢٠٨٠ دولارية « ثمن القمح » الذى اشتراه عندما كان يتولى منصبه . ونفسلا عن ذلك كان ينظر من حكام العواصم أو على الأقل كبارهم مواجهة أى نفقات تتطلبها احتياجات مدتهم حتى ولو لم تتصل مباشرة بمهام أعمالهم إذ نعرف مثلا ان كبار حكام ارسينوى كانوا يسهون شهريا في دفع نفقات فلياء التى تحتاجها المدينة . ولا أدل

على قتل أبناء هذه المناصب مما تحدثنا به الوثائق عن المحاولات التى بذلها شعبى يدعى اخيلوس (Achilles) لكى لا يتولى في عام ١٩٢٢ منصب مراقب التلميم في هرمبوليس لأن حالته المالية كانت لا تساعد على مواجهة تكاليفها . ويبدو ان تكاليف هذا المنصب كانت باهظة جدا لأن الخيلوس طلب اعضاء من تولى هذا المنصب مع استعادته لتولى منصبه . على ألا يتبقى أكثر من ١٢٠٠٠ دولارية على أعباء هذا المنصب لكن محاولات اخيلوس ذهبت ادراج الرياح و « توج » في منصبه . وتدل الوثائق على ان أعباء وظيفة مدير الجيتازيوم كانت أقل من أعباء وظيفة مراقب التلميم فقد كانت تبلغ في هرمبوليس بعد الاقتصاد الفاسد في النفقات ٢٤٠٠٠ دولارية . فلا عجب ان ازادت بطرارة صعوبة الحصول على مرشحين لتولى هذه المناصب طوعية مما أغضى تبعا لذلك الى الاتجاه الى الارغام لشغل هذه المناصب وان كانت الحكومة قد حرصت باستمرار على الاحتفاظ بظاهر التطوع للخدمة وعلى استدلال ستار كثيف حول مناوراتها لارغام ذوي اليسار على شغل هذه المناصب . وإذا كانت أعباء المناصب الادارية العنصرى قد قصت على طبقة الفلاحين الموسرين فإن أعباء مناصب حكام عواصم المديريات قد قصت كذلك

ذلك انه عندما توسعت الحكومة في الاتجاه الى الارغام فتأجير اراضيها أصبح يحضر على الأفراد الحصول على مستأجرين لأراضيهم فاضطروا الى انقاص اجارها بما لتقص الاقبال على استئجارها .

وليس تاريخ مصر الاقتصادية خلال القرن الثالث من حكم الرومان ( من كومودوس الى أول حكم قسطنطينوس أي من ١٨٠ - ٢٨٤ ) سوى سلسلة متصلة العلاقات لاضمحلال مستمر يسر من سحر الى أسوأ بسبب ازدياد عبء الضرائب والنوس في تطبيق مبدأ الاثام في مختلف النواحي ، مع احاطة نظام الري غلاته حال الزراع سوءا وأصبح صلب غير منس حتى ان كثيرين منهم لم يجدوا مناسبا من أن يخلعوا ما فعله غيرهم من قبل أي الفرار من مواطنهم مضطحين اما العمل في المهن أجراء أو تكسب قوتهم من السطو والنهب ، ومن ثم تركت ساحات واسعة من الأراضي دون زرع ، مما حدا بالامبراطور كركلا الى أن يصدر في عام ٢١٥ . قرارا يلغى بطلب الزرايع من الاسكندرية ليجبروا الى الأرض التي هجروها . وإذا كان هذا القرار قد نجح في تحقيق الهدف الذي أصدره من أجله فلا بد من أنه يكون قد ترتب عليه ارتفاع أجور الصال وتكاليف الانتاج في الاسكندرية . وعلى كل حال نستبعد أن يكون قد نجح طويلا في وقف تيار الهجرة الى الاسكندرية،

على طبقة المرسين في تلك العواصم . ولا أدن على ذلك من أن كثيرين منهم كانوا يترنون القصر من مواطنهم لأفقه وإن كان فرادهم سيؤدي الى مصادرة أملاكهم فقد كان سبترتب على بقائهم وتولى مناصبهم تحصل نتائج هائلة للملحمة فضلا عن تكاليفها التي كانت تستنفذ تلك الإملاك .

ولقد امتد الارغام الى خارج الأراضي كذلك لأنه بقدر ما قامت حال الزلزلة ولاء الأهالي بطلب المياه المفروضة عليهم حتى فر الكثيرون منهم من قراهم ، ازدادت تبعا لذلك مساحة أراضي الدولة التي لم يتقدم أحد لاستئجارها ودراحتها . ومع ذلك استبقت الحكومة الضرائب والايجارات بالتسديد القديم ذاته وأخذت تلجأ الى وسيلتين ، واحدةا ارغام إحدى القرى على زراعة الأراضي غير المستجرة الموجودة في قرية مجاورة واعتبار القرية الأولى بأجسها مسئولة عن زلزلة تلك الأراضي ودفع اجارها . اما الوسيلة الأخرى فكانت عبارة عن الحاق قطع من أراضي الدولة بالأراضي الضاعة وارغام أصحاب هذه الأراضي على زراعة المصنع وتأدية اجارها . وفي هذه الحالة كانت المسئولية اول الأمر مسئولية فردية فكانها غدت مع الزمن مسئولية جماعية . وترتبا الوثائق ان اجار أراضي الأفراد هبط هبوطا كبيرا في النصف الثاني من القرن الثاني . ولعل تسمير

تحظير ذلك ، فرفض القرويون الاستجابة الى ما أمروا به ورقعوا شكواهم الى الحاكم انعام فظفر القضية في النصف الأول من عام ٢٥٠ . وعندما حاول محاسن ارسينوى الدفاع عن تصرفها بقوله : ان القانون الذي يتفرع القرويون بمعانيه قد صدر عندما كانت المدن لا تزال تنعم بالرخاء ، رد عليه الحاكم انعام « ان حجة الرخاء ، أو على الأصح تدهوره ، قائمة بالنسبة للقرى والمدن سواء سواء » ، مما يدل على ان الأزمة الاقتصادية كانت عامة شاملة ، ولا أدل على تدهور مرافق البنية الاقتصادية بوجه عام من تدهور قبضة العملة سريعاً خلال هذا القرن ، فكانت لذلك أيضاً آثار بعيدة المدى في الصناعة والتجارة الخارجية فقد صحبه غلاء المعيشة واحتبدال نظام الاقتصاد الطبيعي تدريجياً بالتقود . وإذا كانت قد بذلت بعض المحاولات في أواخر القرن الثالث على عهد الامبراطور پروبوس ( ٢٧٩ - ٢٨٣ ) لاصلاح وسائل الري مما أدى الى انتعاش كثير من القرى فان هذا الانتعاش كان محدوداً قصير الأمد ولم يطلع في وقت ثمار التدهور يدلل انه قد جاء في خطاب رومس من حوالي عام ٢٨٩ ان منصب « مراقب التسمين » في اوكتوبرينغوس بقي شاغراً فترة طويلة قبيل ذلك التاريخ . فلا عجب اذن أن نصب معين البسلامد بسبب السياسة الخرقاء التي اتبعها الرومان في

قد كان يساعد على هذه العجزة عاملان رئيسيان وأحدهما حاجة المراكز الصناعية بوجه عام والامسكندرية بوجه خاص الى اليد العاملة ، والمامل الآخر شطط المعيشة وتقل الأعباء وسوء الحال في المناطق الريفية حيث كان يزيد الحال سوءاً على سوء ان الحكومة كانت لا تنقص قيمة الضرائب المطالبة من مختلف لواحي البلاد حتى بعد فرار الأهالي . وكانت نتيجة ذلك أن أخذت قبضة الضرائب تزداد على من بقوا في بلادهم بنسبة الذين كانوا يغرون منها وان امتعت الحكومة في الالتجاء الى سلاح الارغام لزراعة الأراضي المهجورة ، ولعل اكبر العبد كان يقع على التاسعين الذين كانوا ملغسون على الاشراف على جباية الضرائب في قرأهم ، « ان الحكومة كانت تستولى على ممتلكاتهم حتى سدد الضرائب جيبهما ، وليس أبلغ في الدلالة على تصور سوء الحالة الاقتصادية في خلال القرن الثالث من الفرائض المتعددة على اقلار الريف من مكانه ، وما تحدثنا به الوثائق عن غرار المكلفين يتولى المناصب الحكومية المحلية أو تمديدتهم بالقرار وعن الصعوبة المتزايدة في شغل المناصب البلدية الى حد ان السلطات في ارسينوى عندما هجرت عن ايجاد المرشحين للامرين من مواطنيها لتشغل المناصب البلدية هناك لجأت الى ايجاد القرويين على ذلك رغم القانون الذي كان سيثيوس سقروس قد أصدره



ويبدو ان مساعدة الصيد في النشاط الصناعي كان مقصورا على المدن الاغريقية وخاصة الاسكندرية ، لكن ليس معنى ذلك ان الصناعة في تلك المدن لم تهم الا على اكتاف المييد وانما مناه ان العبيد أسهموا مع الأحرار في الصناعة هناك . اما في المراكز الصناعية الأخرى فبيدو بوجه عام انه لم يوجد للعبيد مجال فعا بسبب وفرة اليد العاملة وقلة أجرها ودوايتها المتواقة بفتون الصناعة . وبين ان عددا كبيرا من المييد كانوا يشتغلون طحما في الخنازل وكنبة ومحامين في المصانع والمناجر وراقصين وموسيقين في الفسق التي كانت تجوب البلاد للترفيه عن الناس في الأعياد والعجالات العامة .

وكان العبيد يعامل معاملة صاحبه من حيث الضرائب وأعمال الصخرة في تطهير القنوات وصيانة الجسور . ولا توجد لدينا أدلة كثيرة عن تجارة العبيد في مصر وان كانت الوثائق تشير الى وجود تجارة نشطة فيهم والى ان الحكومة كانت تشرف اشرفا دقيقا على تصديرهم وفرض غرامات معينة على الذين يغاللون بمليمانها . وكانت قيمة العبيد متفاوتة تفاوتا كبيرا تبعا لعمده وصفاته ومهارته وكذلك تبعا لنوعه ذكرنا كان أم أنثى .

خلال الثلاثة القرون الأولى من حكمهم معا حله بالامبراطور دقلديانوس الى ادخال تبدلات جديدة على نظام الحكم في مصر . واستكمالا للصورة التي حاولنا إعطاءها لحالة مصر الاقتصادية في خلال العصر الروماني يجب ان نذكر شيئا عن العبيد . وتشير القرائن الى أن لسلطان العبيد في الزراعة كان قليلا نسبيا ويكاد أن يكون مقصورا على المصانع الكبيرة وحتى في هذه المصانع لم يستخدم العبيد على نطاق واسع . وكيف يمكن تفسير ذلك في ضوء ما تحدثنا به الوثائق عن فرار الأحرار من الأرض وترك مصاحبات واسعة غير منزوعة ؟ أو بمعنى آخر لماذا لم يلجأ الناس أو الحكومة الى العبيد لاستثمار الأرض التي هجرها المزارعون الأحرار لا لمل غير تصير لذلك ان الناس كانوا يغفلون إضافة تبعات جديدة الى بئانهم دون الحصول على ما يوضحهم من ذلك ، وان الحكومة كانت تفضل الالتجاء الى سلاح الارغام لاستثمار تلك الأراضي ضمن ناحية كانت هذه الوسيلة اقل كلفة وأكثر ربحا وأضمن عاقبة من استخدام العبيد ، ومن ناحية أخرى لعل الحكومة كان يراودها الأمل في أن يؤدي استغلال العاديين من ازدياد التبعات على ذويهم الذين نقوا في قلوبهم الى وقف فرار المزارعين .

## التصنيف الخامس النظام المالي

نولا - الإدارة المالية :

الذي اقتضاه نثر الظروف . ففي عصر البطالة كان الديونيكيتس على رأس الإدارة المالية وكان الأيديولوجوس مرءوسه ومسئول المختص بجواب معين من الشؤون المالية . أما في عهد الرومان فقد انتقلت سلطة الديونيكيتس إلى الحاكم العام والعط مركزة إلى المرتبة الثانية ويرجح أنه أصبح مسؤولاً للأيديولوجوس في مرتبته وإن كان يتصرف بمحذرة الصلة بينهما ومعرفة مدى اختصاص كل منهما لكن يبدو أن الديونيكيتس كان الرئيس الفعلي للإدارة المالية وأن الأيديولوجوس كان يختص بالتمثيل في قضايا الخزنة العامة ، وإدارة الأراضي التي آتت إلى الخزنة العامة وكذلك بالأحرف على أراضي المقاييد ودخلها ، ولكن يتاح له الاضطلاع بهذه المهمة الصغيرة كان يعمل قلب كبير كمنه مصر ، وعلى كل حال ليس من الأسراف في الرأي اعتبار الديونيكيتس والأيديولوجوس مستشاري الحاكم الفعليين في الشؤون المالية ولا يبعد أنهما كانا يرفضان تصرفاته مرفوعة لمصالح الإمبراطور . وكان هذان الموظفان يشرفان على عهد كبير من المرءوسين الذين كانوا ينتشرون في مختلف

كان الحاكم العام يرأس الإدارة المالية في مصر مثل ما كان يرأس كافة فروع الإدارة الأخرى ولم يكن من اختصاصه تحديد مقدار الجزية التي تدفعها مصر فقد كان من اختصاص الإمبراطور الذي كان يقرر سنوياً مقدار الدخل ويصدر أوامر لمصلحة عن كيفية جمعه وكانت هذه الأوامر توجه إلى الحاكم العام فيبلغها إلى فواد المديرين ومسائر المختصين في المدن والقرى ، ويسير على تنفيذها . لكن لما كان الحاكم العام مسئولاً آخر الأمر عن جمع الضرائب وموافاة روما بنصيبها وكانت نظراً لحولها فوق طاقة البشر تؤثر في المحصول وتستتج اقتاص الضرائب فإنه أوكل إلى الحاكم ربط الضرائب في كل منطقة وتمثيلها بما تقتضيات الأحوال على ضوء التقارير التي كانت ترسل إليه من المختصين ، وكان للحاكم المسمان مساعداً رئيسيان في الشؤون المالية وهما الديونيكيتس والأيديولوجوس اللذان يبدو جلياً أنهما ودنا لقيهما من عصر البطالة وإن كان قد مرأى على اختصاصاتهما بعض التغيير

وكانوا يفتشون بالبيانات المتعلقة بساحة الأرض وحدودها وانتقال ملكيتها أو تغيير غلتها من أجل تقدير الضرائب على الأرض . وتحدثتسا الوثائق عن اشتراك الموقوفين الآخرين في لجساز يبدو انها كانت توفى سنويا من السكان المحليين لبحث حالة الأرض بعد الفيضان وتقدر القيمة المستحق عليها .

وقد ذكرنا آفا انه بعد اثناء مجالس الضرى في عراصم المديرية انتقل الى كل مجلس من هذه المجالس المسئولية عن الشؤون المالية في المديرية بأجمعها .

### ثانيا - هدف التنظيم الثاني :

وتختلف التواعد التي اقام عليها الرومان نظامهم المالى في مصر اختلافا جوهريا عن التواعد التي اليها البطاطة وذلك لسدة أسباب أهمها أولا ان البطاطة كانوا يستهدفون بناء دولة قوية غنية في مصر تكفى نفسها بنفسها وتستطيع الغزو من جياض استقلالها السياسي والاقتصادي فكانوا يريدون ملء خزانهم لتطبيق أهداف سياستهم وسدد تكاليف حكومتهم وفقات قصودهم ونبا لذلك كانوا ينفقون في مصر أكثر ما يجمعونه منها . اما على عهد الرومان فان مصر غدت جزءا من امبراطورية تحكم من روما وكان الأباطرة يستهدفون تحسوة مركزهم وتقوية الامبراطورية وملء خزان

أنحاء البلاد لكتهم يقون على اتصال مباشر بالادارة المالية المركزية في الاسكندرية ، وإذا كان من الممكن تبين مهام بعض هؤلاء المرهوسين مثل پروكوراتور (procurator) نيابوليس وكان يشرف على نقل القمح من داخل البلاد الى المخزن العام على متربة من الاسكندرية موقفة لتسجته الى روما ، ومثل البروكوراتور أو سبائكوس (procurator valetus) ، وكان المسبباعد الأول للأيدولوجوس في الاضطلاع بمهام منصبه ، فانه يتتدر معرفة لخصائص البطن الأخر من هؤلاء المرهوسين .

وقد سبقت الإشارة الى أن قائد كل مديرية كان مسئولاً عن تقدير الضرائب وجمعها واستغلال أراضي الحكومة واحتكاراتها في مديريته والى انه كان لكل مديرية يومارغبان كانا يشرفان على تقدير وجمع مختلف الضرائب في المديرية . وكانت الادارة المالية المركزية في الاسكندرية هي التي تصدر غيات الضرائب المختلفة التي تجبي من كل مكان وشخص في مصر على ضوء البيانات التي يقدمها كاتب القرية والكاتب الملكي في المديرية ويراجعها النودمارغيسان والقائد بعد ان يجمعها عدد من رجال المالية المحليين مثل الـ epikretes والـ zoographos وكانا يختصان ببحث حالة الأشخاص الذين نعرض عليهم ضريبة الرأس والـ geometres والـ zetiodelbetes والـ episkepes .

وكل ما يمكننا استنتاجه من إكديس الوثائق  
عن هذا النظام يتلخص في تقسيم الأراضي  
على النحو التالي في ضوء معلوماتنا الحالية :

١ - أراضي الدولة ، وكانت تتألف من  
فئتين من الأراضي احداهما « الأراضي  
الملكية » التي كانت فيما سبق ملكا للبطالة  
وأصبحت منذ الفتح الروماني أرضا أميرية  
تملكها الدولة . وكانت الفئة الأخرى عبارة  
عن الأراضي التي انتزع الأباطرة ملكيتها من  
المساعدين ومن بعض أرباب الاقطاع  
المكرية ومن بعض الرومان أمهدهاء  
انطونيوس . وقد كان يباع جانب من هذه  
الفئة من الأرض ويعرض عليه من الضرائب  
ما كان يفرضه على أراضي أرباب الاقطاع  
وبغيرها من أراضي الامتلاك الخاص لكنه  
كان يحتفظ بالجانب الأكبر من « الفئة  
من الأرض ويطلق عليه اسم « الأراضي  
العامة » (ager publicus) . وكان  
الدبلوماسي يشرف على ادارة « الأراضي  
الملكية » والاديبولوجوس على ادارة  
« الأراضي العامة » وكان هذان المرعشان  
يلجزان هذه الأراضي الى مستأجرين اما  
يشومون بأنفسهم على امتلاكها أو يلجرونها  
من البائلين . وغربنا كثير من عقود الابعار  
انها كانت لمدة خمس سنوات . وكان مزراع  
« الأراضي الملكية » يدمون « المرعين  
الملكين » و مزارعو « الأراضي العامة »  
يتمون « المرعين الصوميين » لانه سرور

دوما بعد أن نضب مبعثها من جراء الحروب  
الأهلية وتدهور حالة ايطاليا الاقتصادية  
بوجه عام والزراعة بصفة خاصة فعملوا على  
استغلال مصر الى أقصى حد ونقل جانب  
كبير من ثروتها الى روما لتحقيق تلك  
الاهداف . والسبب الثاني في البطالة كانوا  
يستمدون جانبها كبيرا من دخلهم من الحرف  
والصناعات الكثيرة التي احتكروها وكذلك  
من المكوس والمساكن الجبركية التي  
فرضوها على ائورداب . اما الرومان فكانوا  
يريدون ارضاء الطبقات الاجتماعية الجديدة  
في ايطاليا من اصحاب رموس الاموال الذين  
كانوا يستغلون ثروتهم في الصناعة والتجارة  
ويستولون الى استغلال السوق المصرية . فلا  
عجب ان النظام المالي الذي وضعه الرومان  
لمصر لم يكن الاداة لاختصار ثروة البلاد  
بطريقة أو أخرى ، وانه لم يكن من شأن  
التدابير التي أدخلت على تطبيق هذا  
النظام الا جعله أشد فتكا وضراوة للمساكين  
ازدادت البلاد فقرا .

### الثاني - نظام الأراضي

ولكن لتبين موارد الدولة من الزراعة  
يجب أن نأتي أولا على نظام الأراضي . ولا  
يقل نظام الأراضي في عهد الرومان تعقيدا  
عنه في عهد البطالة . وإن كان قد احتفظ  
ببعض مظاهر النظام القديم فإنه قضى على  
بعضها الآخر وأدخلت عليه مظاهر جديدة .

ومنذ النصف الثاني من القرن الأول الميلادي أخذ الأباطرة يتردون أغلب تلك المح ولأنهم رأوا أن في منح نبلاء الرومان هبات واسعة ما يساعد على تقوية شوكتهم ويجعلهم في مركز يهدد سلطان الإمبراطور بل قد يصل بهم إلى حد التطلع إلى العرش ، كما رأوا بوجه عام أن منح الأراضي لأشخاص يقيمون أبداً معها يؤدي إلى اهتال الأرض وقصص لعلها فلم يأت عهد تيوس حتى كان أغلب هذه الأراضي — أن لم يكن كلها — قد عاد إلى حوزة الإمبراطور. وقد اتبع الأباطرة سياسة جديدة منح مائة من المزارعين حق استئصال تلك الأراضي لمدة طويلة . وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى تعيق غرضين : أحدهما ، إيجاد طبقة من المزارعين المومنين تسد اليهم الشاسب ، والآخر ، الاقتران إلى حد استئصال الأراضي وما ينبع ذلك من ازدياد دخل الحكومة .

٣ — أراضي الامتلاك الخاص ( *domus* ) وكانت تتكون من عدة هات :  
١ — الاقطاعات العسكرية التي لم تنتزع ملكيتها ولا يعرف بعهد الأساس الذي اتبع في زرع أو تسيب ملكية أراضي أرباب الاقطاعات . وكل ما نعرفه هو أن جابا من أراضي جى في قبضة أشخاص مختلفين كان امتلاك تلك الأراضي يطمع من الاعلاء من الخدمة في الجيش الروماني ومن ضريبة

الزمن والت الفوارق بين الفريقين وأصبح اللف الثاني يطلق على جميع مزارعي هذه الأراضي كافة . وقد كان يحق للدولة طرد المستجر في أي وقت تشاء ولأى سبب تراء . وإذا لم يتقدم أحد لاستئجار بعض هذه الأراضي كانت الحكومة تلجأ إلى وسيلة من اثنتين وأحدهما إرغام المصدى القرى على زراعة الأراضي غير المستأجرة الموجودة في قرية مجاورة وفتح القرية الأولى بأجمعها مسئولة عن زراعة تلك الأراضي ودفع أيجارها وضرائبها . أما الوسيلة الأخرى فكانت عبارة عن الحذف قطع من أراضي الدولة بالأراضي الخاصة وإرغام أصحاب هذه الأراضي على زراعة تلك القطع وتادئة أيجارها وضرائبها .

٢ — أملاك الأباطرة الخاصة ، *patrimonium* ، وكانت تتكون من الأراضي التي كان البطائفة قد أخذوها على أصحاب المحظوظة لديهم وانتزعتها أثناء القرن الأول منهم ، ويرجع أنهم احتفظوا ببعضها ومنحوا البعض الآخر ثلث من كبار الرومان . وقد كان بعض من تمتعوا بهذه أملاك أفراد من أسرة الإمبراطور مثل دروسوس وزوجته ، وأسلافه الإمبراطور مثل ميكانس ، وفراد من الأسرة المالكة في جودابا ، وكذلك بعض أعيان الاسكندرية . وقد كانت هذه الأراضي المنوطة في أغلب الأحيان معفاة من الضرائب .

في عهد أغسطس ، انتزع ملكية جميع أراضي  
المعابد وأصبحت جزءاً من «الأراضي العامة»  
وإذا كان لا شك في أن ملكية جانب كبير من  
أراضي المعابد قد انتزع ، فإن الأرجح أن  
أغلب ما انتزع ملكيته كان من الأراضي التي  
منحها البطالمة للأواخر للمعابد وكان المكنة  
أعضهم يقومون بإدارتها ، أما الأراضي  
المقدسة القديمة فقد بقيت ملكاً للمعابد إلا  
أن الحكومة هي التي كانت تتولى إدارتها  
على نحو ما كانت عليه الحال في النظم الأولى  
من عصر البطالة ، لكنه سمح للمكنة بزيادة  
جزء من الأراضي المقدسة لسد حاجات  
المعابد ، وكانت الحكومة تجبي ضرائب  
محددة من هذا النوع من الأرض في حين  
أن ذلك الجزء من أراضي المعابد التي انتزع  
ملكته كان يؤجر مثل غيره من أراضي الدولة  
وإن تحصل الحكومة منه إلا على الأيجار .

٥ - أراضي الدخل *proventus* ويمكن  
ارجاع نشأة هذه الفئة من الأراضي إلى  
منتصف القرن الأول على الأقل لكن ماهيتها  
مازالت مثار الجدل بين الباحثين . ومع ذلك  
يبدو محتملاً أنها كانت أراضي آلت إلى التاج  
ملكيتها أما مؤقتاً أو دائماً بسبب أو لآخر  
وكانت تؤجر مثل أراضي الدولة وأما لفظة  
إيجار مرتفع جداً .

٦ - أراضي الكدن ، ويرجح أن هذه  
الأراضي كانت تتكون من الأراضي التي كان  
يملكها مواطنو تلك المدن وآلت إلى مدهم

الرأس ومن الأوغام على استقلال الأراضي  
الملكبة أو العامة المجاورة لهم إذا لم تقدم  
أحد لاستئجارها . وكان عليهم عند انتقال  
ملكبة ما يدهم من أراضي أن يدفعوا ضريبة  
خاصة (*hereditas*) ، وكان أرباب هذه  
الأراضي يؤدون الضرائب التي فرضت عليها  
منذ عهد البطالمة .

ب - الإقطاعات التي منح لعضائه  
المحاربين الرومان .

ج - الضياع التي كان الأباطرة  
في بعض الأحيان يشتقونها من أراضي الدولة  
ويمنحونها لبعض الأفراد مع احتفاظ الدولة  
بحق اسمي ملكيتها . وبسبب تحديد كمية  
مساحة هذه الضياع من حيث الضرائب لكن  
يرجع أنها لم تدفع جميعها للرباب بمعدل  
واحد وإن هذا المعدل كان يتوقف على  
شروط المنحة في كل حالة .

د - جانب من الأراضي التي انتزع  
الدولة ملكيتها وباعها .

ويبدو أن نطاق أراضي الامتلاك الخاص  
قد اتسع تدريجياً ولا سيما في القرنين الثاني  
والثالث . ولعل توسع الحكومة في الزام  
الأهالي بتولى المناصب قد شجع هذا الاتجاه  
إذا كان يضمن حتى الذين يتولون المناصب أن  
تكون لديهم ثلث ملك خاصة إذا أريد تحصيلهم  
تبعاً عدم النهوض بالتزامات مناصبهم .

هـ - أراضي المعابد ، يرى بعض  
المؤرخين أن برونوس ، ثالث حكام مصر

الباشين يرى انه من الجائز ان حشد الاراضى او يمسها كانت جمع خارج العياض وتزوى ربا دائما

ومن اجل ذلك كله كان كاتب القرية مكلفا باعداد سجل يكافئ انواع الاراضى التى قد زمام قريته ويجمع كل نوع منها ومساحتها واربابه ومتدار استحقاق الحكومة من ايجارات او طرلاب من كل قطعة ارض فى منطقته وكذلك باعداد تقرير سنوى عن محاصيل تلك الاراضى وعما كان يطرأ على حالها من تضييع . وكان السجل يراجع سنويا لجعله مطابقا للواقع ، وتوجد أمثلة كثيرة لالتباسات قدمها أصحاب الاراضى او مستأجروها يصفون فيها حالة اراضيهم ويطلبون تخفيض الايجار او الطرلاب بسببها . وفي الظروف غير العادية مثل تأخر الفيضان عن مواعده او هبوطه دون منسوبه العادى كان الحاكم العام يصدر تعليمات لتقديم مثل هذه الالتباسات وكانت توجه للقائد او الكاتب الملكى او كاتب القرية . وكان كاتب القرية او ضوفا يقومون بحث أولي يقدم على اثره كاتب القرية تقريراً عن حالة اراضى قريته والطرلاب او الايجارات المستحقة من كل جزء منها . وكان حشد التقرير يتخذ اساسا للفحص الذى تقوم به لجنة تشكل لهذا الغرض وتستخدم لكاتب القرية تقريراً بنتائج عملها فيقوم بتعديل سجله وفقا لهذا التقرير ويبلغ النتيجة للقائد

بسبب اقراض لى اصحابها او تركهم اياها هية لتلك المدد والقرى ، وفى القرن الثانى كانت مدينة الاسكندرية تملك ارضا قرب قرية بوهسرا فى القيوم ، وفى القرن الثالث كانت كل من مدينتى ارسينوى وهرموبوليس ماجتا تملك ارضا ، وكانت هذه المدن تاجر اراضيها وتعتبر مسئلة عن الضرائب المستحقة عليها امام حكومة المديرية التى توجد فيها الاراضى شأها فى ذلك شأن الاكراد الذين يملكون اراضى ويؤجرونها .

وقد كان دخل الدولة من الاراضى يتألف من ايجار اراضيها ومن الطرلاب التى كانت تجرؤها على انواع الاراضى الأخرى وبعض الطرلاب التى كانت تجرؤها على اراضيها ، وكانت الطرلاب التى تجرؤها الدولة على الاراضى تتوقف على نوع المزروعات ومتدار جودة الارض وحالة فيضان النيل . ولذلك كانت الاراضى تقسم قسمين رئيسيين واحدهما اراضى البساتين والاخر الاراضى الرواحية . وكان القسم الاخير ينقسم أيضا قسمين احدهما الاراضى التى تضرها المياه والاخر الاراضى التى لا تضرها المياه . ولا جدال فى ان الاراضى التى تضرها المياه كانت عبارة عن الاراضى التى تفسح فى العياض وتغطيها مياه الفيضان . اما القسم الآخر فاعلم الظن انه كان عبارة عن اراضى تقع فى العياض ولكنها مرتفعة فلا تصلها المياه اذا كان منسوب الفيضان واما ، لكن بعض

والكاتب الملكى لتصحيح قوائم الضرائب والايجابات .

وبين من الفرائن المختلفة ان كاتب القرية كان يعتمد على جهوده الشخصية لجعل سجلاته مطابقة للواقع من حيث التغيرات في ملكية الاراضي او استئجارها او مستأجرها .

وكانت اهم طرالب الاراضي هي ضريبة العيوب وكانت تجبى فعلا من كل ما يزرع حوبا من اراضي الامتلاك الخاص وراشى المذبح والاراضي المقدسة التي كان الكهنة يقومون على استقلالها ، وكان دخل هذه الضريبة يكون غالبا من جزية القمح التي كانت مصر تدفعها لروما . وكان دخل الدولة من ايجار اراضيها يدفع ايضا نوعا ويكون الجزء الباقي من الجزية . وكان معدل هذه الضريبة يتراوح بين ثلاثة ارباع الأردب وأردبين عن كل أدورة تبعا لحسنة الأرض والنوع الذي تنسب اليه . وكان على ازاراع أن ينقلوا كل محصولهم الى جرن القرية حيث يدرس تحت اشرافه موظفي الحكومة وشيوخ القرية وبعد حصول الدولة على استحقاقها من ضرائب او ايجارات كان يطلق سراح باقي المحصول لكن المزارعين كانوا مسؤولين عن تحمل استحقاقات الدولة الى المخزن المحلى للقمح تمهيدا لنقله الى الاسكندرية ولا تنسب مسؤوليتهم الا بعد حصولهم من أمين المخزن (Sitologos)

على اصال باستلام المستحق عليهم . وكان كل القمح يتطلب جمالا وحميرا لنقله من المزارع الى المخزن المحلى ثم من المخزن الى ثوب مجرى مائى حيث كانت تحمله سفن صغيرة الى النيل فتقوم بنقله سنن كبيرة الى الاسكندرية . وكانت الدولة تملك بعض دواب الحمل لكن يبدو انها لم تكن لسد الحاجة في وقت الحصول ولذلك كانت السلطات المحلية تفرط على اصحاب الجمال والحمير والسفن الصغيرة أن تضع تحت تصرفها ما يكتفيها من هذه الوسائل لنقل القمح الى النيل حيث كانت تتولى امر شحنه ونقله منظمات الملاحين تحت اشراف الحكومة التي كانت تلزمهم بذلك ويبدو ان البسود والاسكندريين كانوا يسمون الى العملية . ولكن حين ضخامة هذه العملية حسبنا ان نذكر انه في عام ٩٩ قبل من أحد أقسام مديرية الفيوم ربع مليون أردب من القمح ، وأنه في عهد أغسطس كان مقدار الجزية النوعية التي تدفعها مصر سنويا يبلغ علمرين مليون (millia) ، أي ستة ملايين أردب . وفي كل ربيع كانت لقائدات أرباب السفن في الاسكندرية تتولى نقل هذه الجزية النوعية من الاسكندرية الى روما . وليس من البير أن تسين على وجه الدقة من الذي كان يتحمل نفقات نقل الايجارات والضرائب النوعية من المزارع حتى تصل الى روما لكن يبدو أن مستأجرى



الأراضي باستثناء الأراضي المنروسة  
بأشجار الزيتون خاتما كانت تدفع ألف  
دراخمة عن كل أورو.

وكانت تعرض على كافة أنواع الأراضي،  
ما عدا الأراضي المقدسة فيما يبدو،

خيرية (exemption) كان مقدارها لا يحدد  
لبما لنوع جلة الأرض وانما فيما لنوع  
ملكيتها. وكان أرباب هذه الأراضي يؤدون  
هذه الخيرية لقاء إعفائهم من العمل شخصيا  
في السخرة على الجسور والقنوات، وريثا  
الوثائق انه في مديرية القيسوم كان أرباب  
الاقطاعات يدفعون ١٠٠ دراخمة بروزية عن  
كل أورو وبأى أرباب أراضي الامتلاك  
الحاصي يدفعون ١٥٠ دراخمة بروزية عن  
كل أورو لكن احدى وثلاثي أوكسجيريخوس  
من عام ١٠٧٢/١٠٨٠ ربما ان معدل هذه  
الخيرية كان ٣٠٠ دراخمة عن كل أورو.  
ويستوفى المقر ان مزارعي الأراضي الملكية  
كانوا يدفعون أيضا ١٥٠ دراخمة عن كل  
أورو مما يوحي بأن هذه الفئة من المزارعين  
كانت تعفى من السخرة تماما دفع هذه  
الخيرية التي لم تكن بها الحكومة الرومانية  
من أجل انهاء وسعاية الجسور والقنوات.  
هذه كانت تعرض لهذا النقص أيضا خيرية  
(chirurgical) بمعدل ثابت قسمه  
٦ درخيمات و ٤ أوبول على كل شخص غير  
سلف من الضرائب.

وزاء الصلة الوثيقة بين الزراعة

أراضي الدولة وأرباب الأراضي كانوا  
يتحملون ثقات النقل حتى القبل على حين  
كانت الحكومة تتحمل ثقات النقل من  
المواني النيلية حتى المخزون الرئيسى عند  
الاسكندرية ومن هناك الى روما.

وكان الذين يدفعون ارضهم ببساتين أو  
كروما أو ببا أو بلحا أو زيتونا يدفعون  
لمسألة من الضرائب تدفع مقدرا. وكانت  
احدى هذه الضرائب (geometria) تدفع  
في اليوم بمعدل ٥٠ دراخمة عن كل أورو  
من أراضي الكروم و ٣٥ دراخمة عن كل  
أورو من باقى انواع أراضي البساتين.  
لكن هذا المعدل لم يكن واحدا في كل مكان  
ولا على كل نوع من انواع الأراضي التي  
تدفع هذه الخيرية. وكانت أراضي البساتين  
تدفع خيرية أخرى (epotoloe) لا تعرف  
شيئا عن معدلها في مصر العليا لكننا نعرف  
انه كان في اليوم ٣٠٠ دراخمة بروزية عن  
كل أورو من أراضي الكروم و ١٥٠  
دراخمة عن كل أورو من باقى انواع أراضي  
البساتين. وعندما كانت هذه الخيرية تجبي  
بالعلة الفضية كان هذان المبلغان يطاولان على  
التوالي بشر دراهمان وخمسة دراهمات  
فضية. وكانت تجبي عن كافة أراضي  
البساتين سواء اكانت ملكا للدولة أم للأفراد  
خيرية ثلاثة (eparourion) بمعدل واحد  
قصره ٢٠٠٠ دراخمة بروزية ( أى ٦  
دراخمة فضية ) عن كل أورو من هذه

الا تحقيق هذا الهدف . ومن أجل ذلك كانوا  
يسعون ثلاث وسائل فقد كانوا لما يمتكرون  
بعض الصناعات والعسكرة احتكارا كاملا  
أو يبيعون لأحد الأفراد حق احتكار مزاوله  
صناعة أو حرفة ما في منطقة معينة ،  
أو يسمحون لمن يشاء مزاوله صناعة أو حرفة  
بذاتها ويلزمون عليهم اداء ضريبة عن مزاوله  
سلم ودفع نسبة من أرباحهم ، وفي الحالة  
الأخيرة كان لا يحدد عدد المستغلين في كل  
صناعة أو حرفة إلا عاملان كان أحدهما مقدره  
كل منطقة على استجواب انتاج أرباب الحرف  
والصناعات هناك ، وكان العامل الآخر ثوابات  
أرباب الحرف والصناعات فقد درجت ثقافة  
أرباب كل حرفة أو صناعة على تحديد عدد  
المستغلين بهذه الحرفة أو الصناعة .

وما زال تنظيم الحرف والصناعات في  
مصر أيام الرومان مثار جدل وعلاف بين  
العلماء بسبب للة الأدلة لغسوسها بحيث  
يتمذر الوصول الى نتائج فاضلة في مسره  
معلوماتنا البطالية . وإذا كان يمكن القول  
بوجه حسام بأنه في العصر الروماني اقتصرت  
الحكومة في تنظيم واستغلال الحسرف  
والصناعات الموصائل ذلها التي كانت متبعة  
من قبل في عصر البطالة فلا جدال في أنه قد  
طرأت بعض التغييرات على تلك الوسائل ،  
ولا في أن الحكومة نزلت عن عدد كبير من  
احتكاراتها الكاملة في عصر البطالة ، فقد  
أورد هابشليم قائمتين بالاحتكارات الكاملة

والحيوان لل هل هنا أنسب مكان للكلام عن  
موارد الحكومة من الحيوان في العصر  
الروماني . وقد مر بنا أن الدولة كانت تملك  
حوايا للحمل وليس في الوثائق ما يدل على  
أن الحكومة كانت تؤجر هذه الدواب  
للأفراد . وكانت الدولة تملك أيضا عددا  
كثيرا من الأغنام والماعز لتزويد الأدة الى أن  
الحكومة كانت تؤجرها لمستأجرى أراضيها  
 لقاء أجر معين سنويا . وكذلك في القرن  
الثالث عندما أخذت الضياع الكبيرة تنضم  
الملكيات الصغيرة وتلك الأجزاء من أراضي  
الدولة التي أصبح يتمذر استقلالها استقلالاً  
متمرا كان أصحاب هذه الضياع يؤجرون  
أغنامهم ويميزهم لمستأجرى أراضيهم . وبين  
من الوثائق أن عاصمة الأقاليم كذلك كانوا  
يملكون الكثير من الحيوانات المنالسة وأنه  
كان يتعين عليهم أن يقدموا مستحقا للإدارة  
المالية في المديرية التي يقيمون فيها تقريرا  
عما يملكونه منها وإن الحكومة كانت تعفى  
ضرائب على الأغنام والماعز والخنسازير  
والجمال والحمور والحمير والخيول بمدد  
معين في كل مديرية عن كل رأس من كل  
نوع .

#### دبعا - الحرف والصناعات :

لما كان هدف البطالة هو أن يستمدوا من  
الصناعات والحسرف أكبر قدر ممكن من  
الفصل فانه لم يدل سياستهم في تنظيمها

أو المعابد وإلى أن المنتجين بوجه عام كانوا يقومون بملء تجار النخلة . ويرى بعض الباحثين أن سيطرة الحكومة على هذه الصناعة في الفيلوم كانت لا تتعدى التزام المنتج الذي يريد بيع زيت أن يحصل على ترخيص بذلك من التومارخ . والواقع أنما نعرف أن صاحب مصصرة زيت في قرية هرقليا بالفيلوم دفع لقاء حق البيع في عام واحد ٨٠ دراخمة فضية و ٨٠ أوبول إلى جانيب بطي الرسوم الاضائية . لكن الوثائق ترينا أيضا أنه كانت تجبي أكثر من ضريبة واحدة على صناعة الزيت في الفيلوم وغيرها من البلاد . وإذا كنا نعرف أن إحدى هذه الضرائب كانت تجبي عن الأدوات المستخدمة في استخراج الزيت فإله ينبغي معرفة ماعية المعنى الآخر ، ولا يبعد أن الحكومة كانت تبيع الاشتغال بصناعة الزيت لمن يشاء على أن يدفع على الأقل ضريبتين كانت محددةا ضريبة مزاوله هذه الصناعة وكانت الأخرى ضريبة على الانتاج وقدر على أساس الأدوات المستخدمة في ذلك ، هذا إلى جانب ضريبة عن الترخيص ببيع الاتاج .

وتتسمم الأداة إلى أنه في بداية العصر الروماني كانت بعض مستنقعات الدلتا في حوزة الأفراد وإلى أنه في الفيلوم كانت بعض المستنقعات على الأقل تكرر جزءا من ضيقة الامبراطورة بوليا أغسطا وورثة هيرمانيكوس ويتبين من الوثائق أن الامبراطورة كانت

في هذين العصورين ويتبين من هاتين القائمتين أن عدد هذه الاحتكارات كان تسعة عشر في عصر البطلمة وأحسد عشر في العصر الروماني . وعلى كل حال فإن الأداة عن نظم الاحتكارات في العصر الروماني يوحى بتناقص أهميتها في هذا العصر .

وليس في الأداة ما يشير الفسك في أن الحكومة الرومانية الخفت اثر البطلمة في احتكار استغلال المناجم والمحاجر واستخراج الملح والصدودا (salina) والقبه (sala) . ولدينا أدلة محدودة على أن الرومان كانوا كالبطلمة يقومون بضريبة على المستثمرين لقاء حق شراء الملح ، ويبدو أنه حينها كانت تجبي ضريبة لقاء استهلاك سلعة من السلع كانت الحكومة تحتكر صنع هذه السلعة أو استخراجها في تلك المنطقة . ويبدو أن صناعة الجمرة في عصر البطلمة أخذت بالتدريج تشكل نظام يقوم على بيع حق التاجير للأفراد أو المعابد وحرص ضريبة على المستهلكين ، وأن هذا النظام ظل قائما في العصر الروماني وأن كانت الدولة لم تعد تصنع الجمرة بما كانوا يحتاجون إليه من الفحم على نحو ما كانت تفعل في عصر البطلمة .

وتوحى الأداة بأنه في العصر الروماني لم تعد الحكومة تحتكر صناعة الزيت احتكارا كاملا على نحو ما كانت تفعل في عصر البطلمة ، فكل ما لدينا من الأدلة يشير إلى أن معاصر الزيت كانت ملكة للأفراد

ترخيص لمزاولة المهنة لكنهم لا يتفقون على الأساس الذي كانت هذه الضريبة تربط بمقتضاها ولا على تفسير ما يبدو في الوثائق من تفاوت في قيمة هذه الضريبة من مديرية الى أخرى . ولما كانت أقمتها اليوم تلعب دورا عاما في الصادرات الى البلاد الشرقية على حين انه لم يرد ذكر أقمتة الموجهة القبلي ل التجارة الخارجية فان أحد الباحثين لا يستبعد ان الاتحاج من أجل التصدير فقط كان يدفع لرقابة المشراف على الأنوال وقد كنا نقل هذا الرأي لو أن المشراف على الأنوال لم يربط الا بالقبلي وحدها لكننا وجدناه في الوجه القبلي كما مر بنا ذكره . ومن ناحية أخرى تبين من وثائق لم يذكر عليها في اليوم فحسب بل أيضا في وكبيرينغوس وهرموبوليس ان الحكومة كانت تفرض على المشتغلين بالصنوع في كل منطقة امدادها بقدر معين مما تحتاج اليه من ملابس لرجال انجيلس والمشرطة وغيرهم لقاء أجر معين ، مما يوحي بأن هذه التبعة لم يتحملها الناسجون في مديرية بنيها فقط وإنما في كل أنحاء البلاد . وإذا كان ما لدينا من أدلة لا يدع مجالاً للشك في انشغال الحكومة على صناعة النسيج واستغلالها استغلالا كبيرا فان غموض الأدلة لا يدع مجالاً لتبين أمر تنظيمها الذي يبدو انه كان أكثر تعقيدا من صناعة الدباغة التي كانت تشمل بها اتصالا وثيقا ويبدو ان الحكومة كانت تباع لتخص

تبع منتجات هذه المستقعات عن طريق ملتزم كان يشتري منها حق بيع هذه المنتجات وكان هذا الملتزم يبيع حقه لآخرين ، وان هذا انقسام مثل متعا بعد ان آلت ضريبة الامبراطورة الى التاج . وتبين من الوثائق أيضا ان الحكومة كانت تجبي ضريبة على النورق في اليوم وفي الاسكندرية . ولا يبعد انه مثل ما كانت عليه الحال في العصر التالي من عصر البطالة كانت توجد في مصر الرومانى مصانع حكومية وكذلك مصانع أهلية للنورق وان هذه المصانع الأخيرة كانت تباع من الحكومة حتى مزاولها هذه الصناعة .

وكانت صناعة النسيج واسعة الانتشار في مصر لكن أمر تنظيمها يستدعي لموض شدد وان كما نرى انه في الوجه القبلي كان المشراف على الأنوال (histonarch) يعطي للناسجين تراخيص باقامة أنوائهم ومراوئهم عليهم ، وان شخصا يدعى هرون قدم طلبا الى داسون والنسبة المشرفين الآخرين ، على تأجير احتسار الدباغة للحصول على حق الاشراف لمدة عام واحد على الأنوال في قرية ارخاليس (Asubelala) بالنجوم لقاء أجر قدره ٥٠٠ دراهمة قضية تدفع على أقساط شهرية متساوية الى جانب بعض الرسوم الإضافية . ونرى كذلك ان الناسجين سواء في الفيوم أم في مصر العليا كانوا يدفعون على أقساط شهرية ضريبة جيل أغلب المؤرخين الى اعتبارها ضريبة

كانت تسبح حق مزاوله الصيد في كل منطقة وكذلك كان الذين يشتغلون بالملاحة في النيل يبتاعون من الحكومة حق مزاوله عليهم في منطقة معينة .

ولا يتسع المقام هنا لتناول مختلف الصناعات والحرف ويبدو أن كل ما يمكن استخلاصه من الأدلة هو أنه إذا كانت الحكومة الرومانية قد ارتت عن كثير من الاحتكارات التي كانت قائمة في عهد البطالة فالأمر احتفظ ببعض هذه الاحتكارات وظلت على كل حال قابضة على ناصبة مزاوله الحرف والصناعات المختلفة إلى حد أنه كان لا ينير لأحد مزاوله أي حرفة أو صناعة إلا بإرخيص من الحكومة أما لقاء نسبة من الأرباح أو الدخل أو لقاء أجر ثابت ، وفي بعض الحالات لقاء الاثنين معا ، وكانت الحكومة إما تعطى الترخيص مباشرة للذين يزاولون بالتصميم أي حرفة أو صناعة أو تلجأ حق مزاوله صناعة أو حرفة ما إلى بعبارة أخرى حق احتكار تلك الصناعة أو الحرفة في مدينة أو قرية لشخص واحد أو جماعة من الأشخاص لقاء ما كانت تحصل عليه لو أنها منحت الترخيص لأفراد مختلفين في ذلك المكان . وكان هؤلاء المستأجرون إما يباشرون بأنفسهم حق مزاوله الحرفة أو الصناعة أو يجبرون ذلك الحق من الباطن . وجسلة القول أن كل من كان يزاول أي حرفة أو صناعة كان يدفع عنها للحكومة

واحد أو أكثر حق الاشتغال بها في منطقة معينة . ويلاحظ أن ذلك كان الحال أيضا في صناعات الأجر والحلى الذهبية والعطشور والمساحق . فالوثائق تحدثنا عن تمهيد شخص بأن يدفع للحكومة ثمانية غراخنة فضية إلى جانب بعض الرسوم الإضافية بتأجير من صنع ويسمح لأجر لمدة سنة في كركتوريس (Kerkira) بالتيسوم مع السماح له بأعباء هذا الحق لآخرين ، وعن رجلين كانتا يدلان للحكومة ٣٦٤ دواخمة فضية سنويا نظير صناعة الحلى الفضية في برجمبريا (Brumbaria) بالتيسوم لمدة أربع سنوات ، وعن رجل يسمى كاستور كان قد اشترى من الحكومة نصف البعنة حق يصنع العطور وصنع المساحق في القليم ثيسنس بالقيوم تقدم اليه رجل يسمى سدايرون ليشتري منه ربع هذا الحق باستثناء حق البيع له آباء الصوفى والأعياد .

وكانت الصناعات العامة في الوجه البحري ملكا للأهالي أو البلديات أما في الوجه القبلي فكانت تملكها الحكومة أو تسطر عليها المخابر . وفي الوجه البحري كان أصحاب الحمامات يدفعون للحكومة حربية مدفوعة تلك الأرباح أو ثلث الدخل أما في الوجه القبلي فكان الأهالي يدفعون ضريبة ثابتة لمواجهة نفقات الحمامات العامة وصيانتها .

والأدلة الخاصة بصيد الأسماك معصورة على منطقة القيوم ويتبين منها أن الحكومة

الغرب ، لكننا نسلك الى الاعتقاد ان الحال استمرت طوال العصر الروماني على ما كانت عليه ايام استرابون . وذلك لان مصر بفضل غنى مواردها الطبيعية لم تقتصر الا على الاخشاب الجيدة والمعادن وتبعاً لذلك اقتضت وارداتها من الغرب بوجه عام على هذه المواد فضلاً عن بعض أدوات التزلف .

أما صادرات مصر الى بلاد البحر الأبيض المتوسط قالها كانت تشمل الى جانب السلع الشرقية مفاير مختلفة من منتجاتها الصناعية مثل الورق والزجاج والمنسوجات والمقايير ، ومن منتجاتها الزراعية مثل الزهور والبلع من الحنّام والمولف من أجل تقديم القرابين وكذلك التماسيح وعجول البحر وغيرها من الحيوانات المائية من أجل الاستعراضات ، ويحصل ان مصر كانت تصدر كذلك جانباً من حبوبها غلاوة على الجزية السنوية التي كانت روما تقتطعها منها .

ويجب الا نفورنا ان الجزيرة النوعية والمالية كانت تلتقي على موارد البلاد عينا قليلا كانه لايد من ان يؤدي سريعا الى لضرب معين البلاد لو لم يمرض الى حد بدلة وسائل كافي مقدماتها زبادة الصادرات على الواردات والمكوس التجارية وأرباخ تجار الاسكندرية من التجارة الشرقية وثقات الساح الذين كانوا ينفدون بكثرة مشاهدة معالم البلاد والاستمتاع بطقسها وكذلك خفقت الطلاب

ضريبة واحدة أو أكثر وحتى الذين كانوا ينفذون الحرف والصناعات كانوا ينفذون الضريبة بمجرد بلوغهم سن الرشد وكان كل الذين يزولون متلة أو حرفة من الصناعات والحرف الرئيسية يزولون متلة سواء أكانوا رجالاً ام نساء وكانت اهتمام تزدى الضرائب المفروضة على أعضاء النقابة اسوة بالرجال .

### خاصة التجارة

#### ١ - التجارة الخارجية ،

نجد الدلائل الى ان الاسكندرية خدت في العصر الروماني اهم مركز تجاري في شرق البحر الأبيض المتوسط . ولما كان الرومان قد ألفوا المكوس التجارية عندهم وكانوا يريدون تيسير التجارة بين مصر والامبراطورية الرومانية بوجه عام وروما بوجه خاص فلا يبعد أن يكونوا على الأقل خفضوا المكوس التجارية المادعة التي كان البطالمة يفرضونها على الواردات الأجنبية من بلاد البحر الأبيض المتوسط . ويحدثنا استرابون بأن السفن كانت تبحر من مصر الى روما مكتظة بالبضائع والمحمود اليها خالية الوطاس أو بشحنات قليلة . وإذا كنا لا نملك في سعة رواية استرابون عن الوقت الذي كتب فيه أي في بداية العصر الروماني فانه ازاء قلة الأدلة يتعذر علينا أن نقرر على وجه اليقين اذا كانت الحال قد استمرت على هذا النوال بمسند ذلك ولم تزد الواردات من

الذين كانوا يأتون لتسليح المسلم في  
الاسكندرية ، فضلا عن ثقات جيش  
الاحتلال والإدارة الحكومية ولقائمة المنشآت  
العامة . وبفضل قلة تكاليف المعيشة وبالتالي  
قلة تكاليف الإنتاج استطاعت منتجات مصر  
الصناعية والزراعية أن تنافس منتجات عالم  
البحر الأبيض المتوسط . ولذا تركنا الجزرة  
جانباً ليمر أن الميزان التجاري كان في صالح  
مصر .

وبروي استرابون أيضا ان الاسكندرية  
كانت تحتكر التجارة مع الهند وبلاد  
الصومال . ومن المرجح أن جابا كبيرا من  
التجارة بين الامبراطورية الرومانية والبلاد  
الشرقية كان يمر بمصر . ويعد لنا بلينيوس  
أن التجارة مع الصين والهند وبلاد العرب  
كانت تستنزف ممتلكاتها من الامبراطورية  
الرومانية قسرا لغير قليل من ذهبها وفطرتها ،  
ومن الجائز أن المبلغ الذي ذكره بلينيوس  
لا يمثل ثمن كل الواردات الشرقية لأنه وفقا  
لهذا الكاتب لعمدة كانت مصر تصدر  
منسوجاتها الكتانية لقاء وارداتها الشرقية .  
ويشبه من مصادر أخرى أن مقادير الصادرات  
الى الشرق كانت كبيرة . ويعد لنا استرابون  
بأنه كانت تجبى مكوس جمركية على السلع  
الواردة الى مصر من الشرق والصادرة اليه  
وبأن أمن الشحنات القادمة من الهند  
والحبشة وأعلى السلع ثما كانت تدفع أكثر  
المكوس الجمركية ارتفاعا مما يوحى بأن ثقات

المكوس الجمركية كانت متفاوتة تبعا لقيمة  
السلع المستوردة . لكن من الجائز أن يكون  
هذا النظام قد تغير بعد عهد أغسطس الذي  
كتب فيه استرابون فأحد مصادرنا القديمة  
الذي يرجع قطعاً الى تاريخ متأخر عن منتصف  
القرن الأول الميلادي يحدثنا بأن الجابية  
الرومانية في ليونكي كومس (Leontekomos)  
كانت تجبى على الواردات مكوسا جمركية  
ثابتة قدرها ٢٥٪ من قيمتها . وقد أثير جدل  
كبير حول هذه المكوس التي كانت تجبى  
في ليونكي كومس لكنه لم يثر من الاعتراضات  
الجديدة ما يدعو الى التفتك الى جباية  
هذه المكوس المرتفعة هناك . ومنح أنه  
لا لوجه أدلة مباشرة عن المكوس الجمركية  
التي كانت تجبى في الموانئ المصرية الواقعة  
على شاطئ البحر الأحمر ، إلا أنه في ضوء  
الرسوم الجمركية التي فرضها الرومان في  
ليونكي كومس ٢٥٪ يبعد أن يكون الرومان قد  
استبدلوا بالنظام البطلمي الذي كان يفرض  
مكوسا جمركية متزايدة على السلع المختلفة  
وكان لا يزال قائما فيما يبدو أيام استرابون ،  
لظلمة قوامه فرض مكوس جمركية ثابتة  
قدرها ٢٥٪ على مختلف السلع الشرقية  
الواردة الى الموانئ المصرية . وعلى كل حال  
لا جدال في أن الرومان كانوا يجبون ٢٥٪  
المواني المصرية مكوسا جمركية على التجارة  
الشرقية ، فالوثائق تحدثنا بأنه في عهد  
الامبراطور كلاوديوس كان حق التزام هذه

المكوس يباع لجماعات من الملتزمين الرومان .  
 وإذا كان من المصور معرفة قبيلة هذه المكوس  
 التجارية فانه من الجائز ان المكوس الجبركية  
 على الواردات الشرقية كانت أعلى منها على  
 الصادرات الى الشرق تشجيا لهذه  
 الصادرات لكي ينقص نيبا لذلك التعز في  
 الميزان التجاري بين الامبراطورية الرومانية  
 والبلاد الشرقية . ويحدثنا پلينيوس بأن  
 الطع الشرقية كانت لا تصل الى روما الا بعد  
 ان ينضاف عنها مائة مرة مما يوحى بارتفاع  
 المكوس الجبركية في مصر - فربما الرئيسي  
 الى روما - وضخامة ارباح تجار  
 الاسكندرية الذين كانوا يقومون بدور  
 رئيسي في هذه التجارة .

ومن المصور أن تبين في ضوء معلوماتنا  
 الحالية النظام الذي كان متبعا في صادرات  
 مصر وواردها في العصر الروماني أو الى أي  
 مدى كانت الحكومة تتدخل على تجارة مصر  
 الخارجية لكن من المرجح أن كل من كان  
 يشتغل في هذه التجارة كان يدفع للحكومة  
 ضريبة أو اجرا لقاء الترخيص له بذلك أسوة  
 بما كان متبعا في التجارة الداخلية .

#### ١٠٠٠ التجارة الداخلية :

وتبين من الوثائق انه كان يتعين على كل  
 من يبيع أي سلعة أن يحصل من الحكومة  
 على ترخيص بذلك وأن يدفع للحكومة مبلغا  
 معيناً كل شهر أو كل سنة . ومن المصور أن

تبين أساس تقدير هذا المبلغ لانه كان يتفاوت  
 في المكان الواحد تبعا لنوع السلعة كما كان  
 يتفاوت كذلك من مكان الى آخر عن السلعة  
 الواحدة . ومثل ذلك انه كان يتعين على كل  
 من يبيع الزيت في ارمسينوى أن يدفع  
 للحكومة ثمانين دراهمة شهريا على حين  
 نرى انه في أوكسرخوس كلف التجار بـ ٥  
 لا يدفع الا ست دراهمات في العام لقاء حق  
 بيع الزيت . وقد سلفت الإشارة الى الرجل  
 الذي تعهد بدفع ٨٠ دراهمة فعبة و ٥٠  
 أوبول في العام لقاء حق بيع الزيت بالتجزئة  
 في قرية حرقيا بالصوم . وهكذا نرى انه إذا  
 كانت الحكومة أحيانا تسمح لمن يقام الاتجار  
 في الزيت بأن يحصل ذلك ما دام يدفع لها  
 ضريبة الترخيص بذلك كانت أحيانا أخرى  
 تسمح لشخص واحد باحتكار البيع في منطقة  
 معينة . وكانت الحكومة تمنح حق بيع الملح  
 في كل منطقة لمن يتقدم لها بأجر عطاء لقاء  
 الحصول على هذا الحق .

وكان ياتمو الضغوطات في مجدد قرية  
 سوكندرا (Sokendrou Nesus) في  
 اليوم يدفعون ٦٢ دراهمة على حين يبدو أن  
 بائعي الخضروات في قرية تينوليس بالصوم  
 أيضا كانوا يدفعون ثمانين دراهمة وثمانية  
 أوبولات . ونلاحظ أن تجار الساجق في  
 ارمسينوى كانوا يدفعون الضريبة أحيانا  
 بمعدل ٣٦ دراهمة شهريا وأحيانا أخرى  
 بمعدل ٦٠ دراهمة بل انه في الشهر الذي



كانوا يدفعون ٣٦ دراخمة كان شخص آخر يدفع ثمانى دراهمات فقط على حين كان المعدل في أوكتوبري ٤٠ دراخمة . ونجد انه بينما كان يأنمو الجبة يدفعون ١٦ دراخمة شهريا كان أحد أو تلك البائعين يدفع ثمانى دراهمات فقط . وفي بعض الحالات كان ترخيص الحكومة باتاج ببلعة ما يسفل أيضا بيعها مثل الحجر والعلى الذهبية على نحو ما رأينا عند الكلام عن الصناعات والمعرفة .

ويبين من المصادر القديمة انه كان يوجد مركز عند سفديا لجباية الموائد على التجارة المتبادلة بين الاسكندرية وداخلية البلاد ، ومركز في منف لجباية الموائد على التجارة بين مصر الوسطى والدلتا ، ومركز في هرميوطيس لجباية الموائد على التجارة بين مصر العليا ومصر الوسطى . وعلى ذلك ان الرومان كانوا يجمعون عوائد على التجارة المتبادلة بين الثلاثة الأقسام الرئيسية التي كانت البلاد تنقسم اليها وكذلك بين هذه الأقسام والاسكندرية باعتبارها وحدة منفصلة من هذه الأقسام .

ويبين أيضا من معاصروا انه كانت تجبي كذلك عوائد عن تبادل السلع بين مديرية وأخرى . وإلى جانب ذلك كانت تحصل رسوم اضافية في بعض أنحاء البلاد لتحقيق أغراض مختلفة ، ففي الفيوم مثلا كانت تجبي رسوم لحماية الطرق الصحراوية وفي منف

واسواو كانت تجبي رسوم لصيانة تلبناء لما في قطع فانه كانت تحصل رسوم على جوارات السفر من هذه المدينة وموانئ البحر الأحمر . وكانت هذه رسوم تتفاوت تبعا لحالة كل مسافر ، فقد كان قائد السفه يدفع ٦٠ دراهمات والبحار العادي ٥ دراهمات وبناء السفن ٥ دراهمات والصانع ٨ دراهمات والماهرة ١٠٨ دراخمة وزوجة الصدى ٢٠ دراخمة الخ .. فقد كان يضمن الحصول على ترخيص لمخافرة البلاد وفرض غرامات على الذين لا يحترمون هذه القواعد

مصدرا - غرامات شتى

وإلى جانب ما ذكرناه من الضرائب على الاراضى والحرف والصناعات والتجارة كانت الحكومة تجبي كذلك سلسلة من الضرائب الممنطة اذ يبدو ان الرومان لم يتركوا بابا دون ان يسطروا زيادة دخل الحكومة . ويمكن ان نوجز بعض هذه الضرائب فيما يلى :

١ - ضريبة الرأس (capitatio) وكانت أهم الضرائب التي يدفع ثمنها ولعلها لم تكن ضريبة استحدثها أغسطس وإنما ترجع الى عصر البطانة عندما كانت تعرف باسم آخر (Sylla). ومن العاى ان يكون أغسطس قد زاد معدلها وفرضها على أشخاص كانوا معفى منها حتى عهده ، فأول وثيقة ورد فيها ذكر أداء هذه الضريبة في العصر الرومانى ترجع الى عام ٢٢/٢١ ق م . وقد كانت هذه الضريبة لا تدفع بمعدل واحد حتى في

المديرية الواحدة ولا في المدينة الواحدة فقد اختلف هذا المبدأ من حي الى آخر في مدينة طيبة . وفي اليوم كان المصريون يدفعون ٤٠ دراهمة اما أفراد الفئات المتنازعة من مواطني عواصم المديرية وسلاطة أرياب الانقطاع فكانوا يدفعون ٣٠ دراهمة . على حين يبدو أنه في مديرية أوكسيريخوس كان المصريون يدفعون ١٦ دراهمة والفئات المتنازعة ١٢ دراهمة « وانه في مديرتي منف وهرموبوليس كانت هذه الفئات تدفع ٨ دراهمات . وهكذا يتبين أولا ، أن هذه الضريبة لم تفرض بمعدل واحد في كل أنحاء البلاد مسواه على المصريين أم على الفئات المتنازعة ، وثانيا « أن هذه الفئات لم تدفع دائما نصف ما كان المصريون يدفعونه . وثالثا ، أنه في بعض المديريات كانت الفئات المتنازعة تدفع أكثر مما يدفعه المصريون . أما المواطنون الرومان وعدد معين من كهنة كل معبد ومواطن الاسكندرية وفيما يبدو أيضا مواطنو المدن الاخرى لانهم كانوا يدفعون من تلك الضريبة التي كان لا يدفعها الا الذكور الذين كان عمرهم يتراوح بين الرابعة عشرة ومن الاعلاء . ويرجع أن هذه السن كانت ١٥ ارسينوي السن لكن يبدو أنها زيدت الى الخامسة والستين ثم السبعين فيما يلوح . ويبدو أنه كان معنى أيضا من ضريبة الرتب أستاذة جامعة الاسكندرية والرياضيون والقائضون في مباريات الفصائل

الدينية وكذلك بعض موظفي الادارة لمحلية مثل الكتاب الملكي وكتاب الاقليم وكتاب القرية .

٢ - ضريبة التاج ، وتشير القران الى زوال هذه الضريبة بعد منح حقوق المواطنة الرومانية لكل سكان البلاد في عهد كركلا . وخرج هذه الضريبة الى عهد البطلمة وتتمتد نشأتها من تقديم هدية للملك لوعا أو تقدا بمناسبة ارتفائه العرش أو بمناسبة أخرى . ويحتل أنه في أوائل عهد الرومان كانت هذه الضريبة لا تجبي الا في مناسبات خاصة لكننا نتبين من الوثائق أنه منذ أواخر القرن الثاني أصبحت هذه الضريبة تجبي سنويا بالنظام حتى النصف الثاني من القرن الثالث عندما أصبحت تجبي كل خمس سنوات . وقد شهدت هذه الضريبة تطورا آخر وهو أنها على مر الزمن أصبحت تجبي من جميع أرياب الأراضي بدلا من جبايتها من فريق معين منهم . وقد وعد الامبراطور سطورس اسكندر بوقف جباية هذه الضريبة لكن يبدو أنه لم يلبث أن عدل عن ذلك لأن الوثائق تربطها بجبت على الأقل مرتين في عهده بعد صدور هذا الوعد .

٣ - ضريبة خامسة لاقامة تماثيل للإلهة ، فمن حين لآخر كانت تجبي أيضا ضريبة لاقامة تماثيل للامبراطور الحاكم في مختلف المدن . وتبين من سلسلة من الوثائق أثر عليها في أموان أن هذه الضريبة جبت

هناك في عامي ١٠٤ و ١١٤ لاقامة تمثالين  
تراجان ، وفي عام ١٢٨ لاقامة تمثال فيبا يندو  
لهادريان ، وفي ١٤١ لاقامة تمثال لانتولينوس  
يوس ، وفي عام ١٦٢ لاقامة تمثال لكل من  
أوريليوس وقديوس وذلك عددا جبايتها في  
الأسيوط ١٣١ و ١٣٩ و ١٤٤ لطلح ، ومن  
تمائيل الإباطرة بالذهب . ولقد كان مقدار  
هذه الضريبة قليلا إذ أن أكثرها ارتطافا كان  
أربع دراهمات في عام ١٤١ وعشر دراهمات  
في عام ١٦٢ لكن مهما كان مقدارها قليلا  
فلا شك في أن تكرار جبايتها كان يلقى عبثا  
تقبلا على كاهل الأهالي الذي أبغضته كثيرا  
الضرائب . ونشير القارئ إلى أنه كانت تجبي  
ضريبة مساقاة من أجل إقامة معابد للإباطرة .

٤ - وكان الرومان يفرضون ضريبة  
قدرها ٢٪ على كل ما يساع في الأسواق  
وكذلك ضريبة على بيع الممتلكات الناجمة  
يبدو أن مقدارها طوال القرنين الأول والثاني  
كان ١٠٪ من ثمن الفراء ثم زيدت في القرن  
الثالث ، وكان الرومان يفرضون على  
الرهونات ضريبة قدرها ٢٪ ، أما ضريبة ٥٪  
التي كانت تجبي عن تحرير الأرقاء والثرثرات  
فإنها كان لا يدفعها إلا الفراطون الرومان ولم  
تأثر بها مصر إلا عندما منيع كركلا حشمون  
المواطنة الرومانية لكل السكان ■ مصر مع  
بعض سكان الامبراطورية .

٥ - مؤنة الجنود الرومان ، أن معلوماتنا  
خفيفة عن الوسائل التي اتبعتها الرومان ■

مصر حتى أواخر القرن الثاني من أجل توفير  
المؤنة اللازمة للحامية الرومانية لكن القرائن  
توحى بأن الحاكم العام كان يحدد مسنوبا  
كمية الخبثوب التي يحتاج إليها كل معسكر  
ويفرض على بعض الزراع في كل مديرية  
تقديم تلك الكمية بسعر منخفض يحدده  
الحاكم العام . ولا بد من أن يكون الأهالي  
قد ضجوا بالشكوى من هذا النظام لأننا نجد  
أنه في عام ١٨٥ قد استبدلت به ضريبة  
منجية (mensura millibus) على أبواب الأراضي  
التي تزرع حبوبا . وكان الأهالي يكتفون  
أيضا بأيواء الجنود الذين كانوا ينزلون بسهم  
في أثناء انتقالهم من مكان إلى آخر ، ويبدو  
أن الجنود كانوا يسيثون استغلال هذا الحق  
فقد وصل إلينا عدد من الأكوام التي اضطرت  
الحكام إلى إصدارها لتخفيف الجنود من  
اقتلاء أموال أو خبثبات من الأهالي دون  
الحصول على إذن خاص بذلك وليان أن  
حقهم كان مقصورا على أيوائهم فقط

وكان يفرض على الأهالي أيضا توفير  
الحاجيات اللازمة للحاكم العام وصحبه عند  
طوافهم بأشياء البلاد ، وكذلك للإمبراطور  
وحاشيته عند زيارته مصر ونقله في أرجائها .  
وقد كان ذلك عبثا ليس حينما أذ تعذتنا اعلوى  
الوثائق بأنه بمناسبة زيارة الحاكم العام  
لهرمبوليس أدرجت أسماء ٥٣ شخصا  
لأعداد الاحتياجات اللازمة وكانت تتضمن  
خبزا ولحما وسككا وجواجن وثقالة ووقودا

فضلا عن علف دواب الحاشية و الحير اللازمة للاقتنالات المحلية . واذ كان ذلك الشأن في حالة زيارة الحاكم العام فانه يمكننا أن نتصور ما كان الأهالي يتكلفون تنديبه ■ حالة زيارة الامبراطور .

٦ - ويمكن اعتبار تمخير الأهالي للعمل في ظهور الترح و صيانة الجصور ضريبة ثقيلة يسد أنه لم يجب من اوائها الا الجواسون والاسكندريون والفتات التي كانت تدفع قدا ضريبة السخرة (agabae) ، وكان نظام السخرة يختلف من مكان الى آخر اذ بينما كان يرض على الصلاح في طيبة أن يشتغل في تطهير أو صيانة مساحة معينة تسمى **choros** كان يطلب منه في اليوم أن يشتغل عددا معينا من الأيام كان عادة خمسة أيام كل عام في الفترة الواقعة بين بداية يونية ونخسف أغسطس . وكانت هناك ضرائب محلية للمبخر أو الضرطة ومواجبة للقات التنبات العامة مثل الحمامات والأسواق والمأبد وغير ذلك . هذا الى أنه من حين لأخر كانت تجبى ضرائب اضافية لسد المعجز في حصيلة بعض الضرائب التي كانت تجبى بالنظام . ونفسلا عن ذلك كانت تفرض ضرائب على فطسات معينة من سكان البلاد لا تدفعها ثبات أخسرى مثل ضريبة اليومود وخريرة أبواب الاقطاعات وخريرة الشرطة .

ومما يجدر بالملاحظة أنه في بداية العصر الروماني كان معدل الضرائب معتدلا لكن على

مر الزمن زيد معدل الضرائب وبعدها ولما لم يكن في وسع موارد مصر ولا غقات روما على شؤون الادارة والتنبات العامة سد كل المعجز الحاج من الجزية النوعية والنقدية التي كانت روما تستولى عليها قصد استتبع ذلك حتما خراب البلاد الاقتصادي .

سابعاً - نظام جباية الضرائب

يتم نظام الرومان الفريسي ■ مصر بظاهرين واحدهما انه باستثناء بسيط الضرائب لم يضرب على كل انحاء البلاد دفع الضرائب ذاتها ولا بمعيار واحد فكانت أنواع الضرائب وكذلك معاييرها تختلف من مديرية الى أخرى .

والظاهرة الأخرى أنه لم يتبع نظام واحد في جباية الضرائب . فقد اتبع الرومان جباية الضرائب بطريق الالتزام حتى عصر ثيودوسي عندما نسم للمرة الأولى عن جباية موظفين (praelatores) فلا أن هذا النظام الجديد لم يقض على سابقه بأكمله فقد ظلت بعض الضرائب مثل العشوائه والمكوس التجارية وخريرة ٢ : على البيعات تجبى حتى أواخر القرن الثاني وفقا للنظام القديم .

وحتى نهاية القرن الثاني كان كاتب كل قرية يعد كنفدا بأسماء أهلها الذين لديهم لمصاب معين ويختار القائم من بينهم جباية كافوا يتردون عليهم لمدة ثلاث سنوات بعد أن يوافق حاكم القسم (epistategos) على اختيارهم . وكان أولئك الجبابة يعتبرون مسئولين عن أي معجز في حصيلة الضرائب المقررة على منطقة

كل منهم ولذلك كانوا يؤمنون لا جمع  
الضرائب تفاديا لحلول هذا المعز . ويحدثنا  
فيلون بأن قرى باكلمها هجرت بسبب  
ما أنزله جياة الضرائب من ارعاف بأهلها .

وكان هؤلاء الجياة لا يتولون أمر ضريبة  
الجبوب إذ أنه حتى نهاية القرن الثاني كان  
أمناء الخازن (vitrogod) هم الذين يتسلمون  
هذه الجبوب ، على حين يبدو أن مهمة جياة  
الجبوب (praktores elikna) كانت مقصورة

على جمع متأخرات هذه الضريبة .  
أما القرن الثالث فإن المؤلفين الذين كانوا  
يدعون (dekaprotai) هم الذين كانوا مسئولين  
عن جمع هذه الضريبة ويتعدو علينا أن تبين  
علاقتهم بأمناء الخازن وجياة الجبوب .  
وللتفريق بين جياة الجبوب والجياة الذين  
كلوا يجبون الضرائب النقدية أطلق على  
الفرق الأخير منذ عهد تراجان اسم جياة  
المالي (praktores alykna) .

## الفصل السادس

### النظام القضائي

والآخر القريبي أصدر بطليموس التماسين يورجيس الثاني في عام ١١٨ ق . م . قرارا يقضي بأن لنة المقد موضوع الخلاف هي التي يجب أن يقرر بموجبها نوع القضاة الذي يطبق للفصل في هذا الخلاف . ولما نعرف إلى أي حد طبقت هذه التسامحة في العصر الروماني وإن كنا نعرف أن طامعة صائفة كانت تطبق على الأقل في قضايا الزواج وذلك أنه في حالة عقد زواج مصري بين طرفين أحدهما مصري والآخر أجنبي كانت أحكام القانون المصري هي التي تطبق أما في حالة عقود الزواج الأجنبي فإن أحكام القانون الأجنبي هي التي كانت تطبق .

وبطبيعة الحال أراء ظهور عنصر جديد من السكان في العصر الروماني وهو عنصر المواطنين الرومان مثل القضاة الروماني مصر لتطبيقه على أولئك المواطنين وصدرت بعض القوانين لتنظيم العلاقات القانونية بين المواطنين الرومان وسكان مصر الذين كانوا أكثرهم في نظر الرومان أجانب (peregrini) ، وكذلك ليأخذ الاختصاصات القانونية التي أعطيت للحاكم العام وإعادة تنظيم الهيئات

لقد مر بنا أن الحالة احتفلوا للمصريين ، بقدر ما تسمح الظروف ، بقوانينهم التقليدية التي أطلق الاسريق عليها اسم « قوانين البلاد » . وتشير القرائن إلى أن الرومان قد ابقوا على هذه القوانين بوجه عام ، إذ أنهم عدلوا بعضها مثل ما عدل البطالة أيضا بعضا آخر .

وقد عرفنا كذلك أن المرقى كلى مدينة لفرطية وجسمية قومية كانوا يخطعون لمجموعة معينة من القوانين تعرف « بقوانين المواطنين » وانه من أجل النسب بين هذه المجموعات من القوانين وكذلك من أجل تنظيم معاملات الأجنبي الذين لم يتسوا إلى تلك المدن والجميات كان البطالة يصدر من أوامر ملكية مختلفة الأنواع . وقد أبقى الرومان على بعض هذه الأوامر الملكية كما أبقوا على قوانين الاسكندرية وبطليميس وكذلك على قوانين قراطيس التي طبقوها في الطينوثوبوليس ، لسكنهم أدخلوا بعض التعديلات على القوانين المعمول بها .

وسبق القول بأنه تنظيما للفصل في اقتضاي التي تشب بين طرفين أحدهما مصري

القضائية التي كان من حقها الفصل في  
القضايا .

ومما يجدر بالملاحظة أن القوانين المحلية  
قد تأثرت بالقانون الروماني عن طريق  
تشريعات الأباطرة وقراوات الحكام وأحكام  
المحاكم .

أولاً - القانون المدني :

١ - الأحوال الشخصية :

ولما كان الرومان مثل الاغريق يعتبرون  
المرأة لأصراً ومن ثم في حاجة الى وصي  
شرعي عليها في كل تصرفاتها فإن المرأة المصرية  
لم تسترد في العصر الروماني مكانتها القديمة  
بل بقيت على حالها منذ سارى البطالة بينها  
وبين المرأة الاغريقية ، ولا سبيل الى العكس  
في أن المصريين كانوا يسهلون في العصر  
الروماني « الزواج الكامل » و « الزواج  
المتعة او التجربة » وهما نوعا الزواج اللذان  
سبب الكلام عنهما في سياق الحديث عن  
الزواج عند المصريين في عصر البطالة .

وكما كانت علي الحال في عصر البطالة  
كان اغريق الاسكندرية وبطوليميس في  
العصر الروماني يحدرون عقدين أحدهما  
مدى والأخر ديني ، وكان باقي الامم  
يمرون نوعين من العقود وهما « عقود  
الانفاق » و « عقود المباشرة » وكلا نوعين  
من التولييق لنوع واحد من الزواج ، لكن  
كثيراً ما كان يكتب بتحرير « عقد الانفاق »  
وبعد هون تحرير « عقد المباشرة » أيضاً .

وكان ثبت قيام الزوجية عند الرومان  
المباشرة الزوجية وعقد الزواج الذي كان  
يسجل في سجلات خاصة تعرفه بسجلات  
الزواج .

ووفقاً لأحكام القانون عند المصريين  
والاغريق والرومان سواء سواء كان لكل  
من الطرفين حق الطلاق ، وكان الطلاق يتم  
بمجرد انفصال الطرفين وتحرير وثيقة من  
صورتين يثبت فيها أنه لم يعد لأحد الطرفين  
حقوق قبل الطرف الآخر وبذلك كان يعنى  
لكل منهما أن يعقد زواجا جديداً .

وإذا كان مسموحاً قبل العصر الروماني  
اتخاذ أكثر من زوجة واحدة فإنه لم يمد  
بتدئه مسموحاً بذلك لأي عنصر من عناصر  
السكان في مصر ، لكنه كان مسموحاً لغير  
الرومان بتزواج الاخوة من أخواتهم الى أن  
اختلت هذه العادة الذميمة بعد القرن الثالث  
الميلادي .

وتلجس القسري الى أن الزواج بين  
اللاغريق والمصريين كان غير مستترف به في  
الاسكندرية وقراطيس ، بطوليميس بدليل  
أن هادريان أصدر قانوناً لأبحاثه في انطونو  
بوليس وإن لوالج الايديولوجوس كانت  
تعتبر الزواج بين « المواطنين » (cives)  
والمصريين زواجا غير متكافئ . وتدل كثرة  
الزيجات المختلطة في الريف على أن القانون  
لم يحظرها هناك .

وأكثر حالات الزواج بين الرومان كانت  
بين طوائف رومانيين ونشر مشروعة  
(iura matrimonii) ومع ذلك كثيراً  
ما تزوج مومخون رومان من اجناب لكن  
هذه الزيجات كانت تعتبر غير مشروعة  
(iura matrimonii) وكان الأبناء من  
الزيجات يعتبرون اجناب ويحصلون  
أساء أجنبية .

وفرق القانون عند المصريين واللاغريق  
والرومان تفرقاً واضحاً بين الأحرار والعبيد .

الأبناء الأسبقية وأفضية مساوية ■ وراثة آبائهم .

## ٢ - الأحوال العينية :

وكان المصريون والافريق والرومان يتعاملون اما بمقتضى عقود مكتوبة او اتفاقات شفوية . وفي حالة انكار دين بمقتضى بمقتضى اتفاق شفوي كانت تتبع القضاة المرونة . البيت على من ادمى واليمين على من انكر .

وقد مر بنا انه من اجل ضمان حقوق الدائنين كان القانون في عصر البطالة يعترف بوسائل اخرى قديمة العهد غير تسجيل العقود والبيع فيها على شروط جزائية . وقد بقيت هذه الوسائل حبيبا معمولا بها في العصر الروماني بل ان ما لم يكن مأثورا منها ■ الرومان مثل ■ البيع الوفاقي ■ وما كانت اللوائح تحظر على المواطنين الرومان اتياءه مثل تسليم عقود ملكية المين المهرولة الى الدائن شاع استخدامه بين الرومان انفسهم . واذا كان البطالة جعلوا سر الفائدة ٣/ شهريا أو ٣٤/ سنويا فاق الرومان جعلوا هذا السر ١/ شهريا أو ١٢/ سنويا . وفي حالة عدم الوفاء بالدين في الوقت المحدد كان يتعرض على المدين غرامة ينص عليها في العقد كانت عادة ■ قيمة الدين الأصلي .

وكان القانون عند المصريين والافريق والرومان يعترف بتأليف شركات تجارية او

وكان المبدأ في العصر الروماني ثلاث فئات وهي عبيد الاسراطور وعبيد الافراد وعبيد المعابد المدين خلفهم فيما بعد عبيد الكنيسة .

وقد كان من حق المصريين والافريق والرومان عمل وصناعات . وكانت وصايا الرومان تحصر باللاتينية ثم ترجمت الى الافريقية الى ان أصدر امكندر سلاطيس قراره بتحرير وصايا الرومان باللغة الافريقية على نحو ما كان يفعل المصريون والافريق . وكانت وصايا الجنود الرومان وقضاء المحاربين تخضع لقواعد عسكرية خاصة . وفي حالة عدم وجود وصية كان القانون المصري يوجب الورثة طبقات ثلثي في ممتلكاتها طبقه الاولاد ، وكان يعطى للابن الأكبر ان يأخذ نصيبا يماثل ضعف نصيب أخيه الأصغر الذي كانت خلفه تسامى ■ في مقدار النصيب . وكان من حق الأخفاء العمسول على نصيب أبيهم اذا توفي قبل جدهم . وفي حالة عدم وجود وصية كان القانون الافريق يعطي الأبناء الأسبقية في وراثة آبائهم . وكانت أفضية الأبناء متساوية ويعطى للبنات المشاركة في الارث اذا لم يكن قد أخذن مهورهن . وفي حالة زواج مواطنة من اجنبي كان قانون الاسكندرية لا يسمح لأبناء هذا الزوجان بأن يرثوا أمهم . وفي حالة عدم وجود بناء وامخاد كان حق الارث يؤول الى الزوج أو الزوجة ثم ياتي بعد ذلك في المرتبة والد المتوفى . وكذلك أعطى القانون الروماني



والنشر والتدليس . وكانت إقامة الدعوى في كل هذه الجرائم من شأن المستندى عليه وأمرته . أما في حصائل مينة مثل قتل الموطنين فإن الدولة هي التي كانت تقيم الدعوى .

٢ - الجرائم التي ترتكب ضد المغرابة العامة وكانت تشمل النزور في الحسابات واختلاس الأموال العامة والسرقة من ممتلكات الدولة أو طياع الأباطرة . ولم يمد مخطورا في العصر الروماني استخدام المعامين في القضايا التي يختصم فيها الأفراد مع الخزانة العامة .

٣ - الجرائم التي ترتكب ضد الدولة وكانت تشمل جرائم الغيلة العظمى وأسادة استخدام الحقوق العامة والجرائم الدينية التي كانت معروفة في مصر البطلمية ، وكذلك حيازة الأسلحة دون ترخيص بذلك واعتداءات العصامات المسلحة التي كانت تهيم على وجهها في أنحاء البلاد .

#### ثالثا - الهيئات القضائية :

إن معلوماتنا عن النظام القضائي في مصر في عهد الرومان طيبة جدا حتى أننا كثيرا ما نعابه مشاكل منطقة به دون أن نستطيع ابتداء رأي فيها ، فكنا نعرف على كل حال أن الحاكم العام كان على رأس هذا النظام وصاحب الكلمة العليا في كل أنحاء البلاد في القضايا المدنية والجزائية (jurisdiction) وكذلك (imperium) فكان

صناعية أو غير ذلك مباشرة أعمال عامة ، وخاصة . وكان يحدد علاقة الشركاء بعضهم ببعض عقد كتابي يثبت فيه حقوق كل شريك وواجباته . وقد حدد هذا القانون حقوق الطرفين اللذين يتعاقدان على استئجار أرض أو مان أو عبيد أو مائنية أو سفن أو عمال ، وأباح مستأجر الأرض أن يؤجرها من الباطل إلا إذا تضمن في عقد الأيجار الأصلي على خلاف ذلك .

وقد استمر المصروف في العصر الروماني بحرورن عظمى المال والتنازل لكل صفقة من صفقات البيع . أما الأفسيرق فكانوا يكتفون عادة بعقد واحد ينظم النص على استلام النافع من العين المباعة وينزله عن كل حق له عليها . وكانت العقود لا تضمن للمبتزين حقوق ممتلكاتهم كاملة إلا إذا حررها الموظفون المختصون وأثبت انتقال الملكية في السجلات الخاصة بذلك وأدت الضريبة المقررة .

#### رابعا - القانون الجنائي :

وكان القانون الجنائي في العصر الروماني يفرق بين ثلاثة أنواع من الجرائم وهي :  
١ - الجرائم التي ترتكب ضد شخص الأفراد أو ممتلكاتهم . وكانت هذه الجرائم تشمل القتل والاعتداء على الغير بالقول أو الفعل أو الإشارة أو التهديد بالاعتداء ، واستخدام القوة لتحقيق مأرب معين ، والسرقة ، والحاق الضرر بممتلكات الغير

مارس وأبريل للفصل في قضايا باقي المديريات  
إلا أنه كان أحيانا يرى دعيا تمتد مجلته  
القضائي في أماكن أخرى سواء في الدلتا أم  
في مصر الوسطى أم في مصر العليا .

ولم يستأثر الحاكم العام بالفصل في  
القضايا إذ يرى بعض الباحثين أن محاكم  
القضاة الإقليميين (eparchiales) التي كانت  
سجودة في عصر البطلمة ظلت قائمة وإن  
الحاكم العام كان يمهّد إليها في الفصل في  
قضايا المشتدات ، وإن الأرخيبيسكس  
أيضا كان يقوم بثلث هذه المهمة إما منفردا  
أو بالاشتراك مع محكمة القضاة الآخرين ،  
وإن الأيديولوجوس كان يحصل في قضايا  
الخزائن العامة .

وكان رؤساء الأقسام الإدارية الرئيسية  
(epitropoi) ينوبون عن الحاكم العام في  
الفصل في القضايا فضلا عن أنهم كانوا  
يقومون بالتحكيم في المنازعات . وكان حكام  
المديريات (strategoi) أيضا يحصلون في  
القضايا ، وإذا كانوا على مر الأيام فقدوا  
هذا الاختصاص فانهم استنبروا يؤدون  
ما كانوا يقومون به منذ عصر البطلمة من  
التحكيم في المنازعات ، وتقدم القضاة  
والشهود للمحكمة بعد الفشل في محاولة  
لفض النزاع وديا والقيام بتحقيق ميداني في  
القضايا ، والقاء القبض على مخالفين القانون.  
وكثيرا ما كان الفلاحون يلجأون إلى  
شيوخهم ورجال الشرطة لفض منازعاتهم بدلا  
من اتخاذ الإجراءات القضائية المعتادة .

يشتمل بعض مصادرة الأملاك والعكس  
بالأشغال الشاقة في المناجم والمناجم وكذلك  
الحكم بالأعدام ، ولم يكن هناك سيّد إلى  
الاستئناف من أحكامه سوى أمام الامبراطور .  
وكان المجلس القضائي للحاكم العام  
يتكون منه نوصفه رئيسا ومن مساعدين له  
يعرف أنهم كانوا بغنارون في الولايات  
الأخرى من جنسية المتخاصمين لكن ليس في  
استطاعة أحد أن يهزم بشيء فيما يتعلق بمصر  
وإن كنا نعرف أن المساعد الأول للحاكم العام  
في الشئون القضائية في مصر كان  
الديكابودوس (Dekapodous) . ولنا نعرف  
إذا كان لهذا الموظف اختصاص قضائي  
مستقل أو إذا كان يستند سلطته القضائية  
من الحاكم العام لكن بما أنه لم يشترط في  
اختيار الحكام معرفة القانون وكانوا يهملون  
لذلك في حاجة إلى خبراء فنيين يعاونونهم في  
أداء مهمتهم القضائية غالبا نرجح أن  
الديكابودوس كان المستشار القانوني  
للحاكم العام ويقوم بدور legal councillor  
في الولايات الرومانية الأخرى ، وتحدثت  
الوثائق أيضا عن موظف قضائي آخر كان له  
شأن كبير في الشئون القضائية في عصر  
البطلمة وهو الأرخيبيسكس .

وكان الحاكم العام يمتد مجلته القضائي  
في الإسكندرية في شهرى يونية ويولية  
للفصل في قضايا مديريات غرب الدلتا ، وفي  
يوليوزيون في شهر يناير للفصل في قضايا  
مديريات شرق الدلتا ، وفي سبتمبر في شهرى

## الفصل الرابع

### الحياة الاجتماعية

أولاً - عدد السكان وحالتهم :

كان ينزل فيها عدد كبير من الأجانب الذين كانوا يمشون فيها بصفة دائمة تقريباً .

وعندما كان أهل الاسكندرية يمشون عيشة راضية هائلة لفرط نشاطهم الصناعي والتجاري مع قلة الأعباء الملقاة عليهم كانت حال أهل باقى البلاد ولا سيما المزارعين تسير من سيئه الى أسوأ بسبب تزايد التزامهم بالمراد غثرنا ولغات القرن الثاني ازدهادا مسترا في عدد الذين كانوا يصرون من قراهم ، وعدداً غير قليل من الأوامر التي كان الحكام يصطلحون بها لثغراتهم على المونة الى مواطنهم ، وأثقلت كثر على الانتباه الى سلاح الارغام لزراعة الأراضي المجهودة وملئ المناصب المحلية والبلدية . وعند القرنين على أنه في القرن الثالث هجرت قري بأكملها تقريباً الى النصارى ، وتناقصت صحوة شغل المناصب المحلية والبلدية ، وازداد عدد الذين كانوا يهربون من مواطنهم ويشكسون قولهم من أعمال الميسرة والنهب . ولا أدل على هبوط مستوى الحياة وفقر الأهالي ■■ القسري من أن البان الذي قدمه لموظفي التعداد وحل يملك عشر منزل مرنا أنه كان

في عهد نيرون كان عدد سكان مصر عدا الاسكندرية يبلغ سبعة ملايين ونصف مليون نسمة وليست لدينا أي معلومات عن عدد سكان الاسكندرية في العصر الروماني وإن كنا نعرف أن الاسكندرية عرفت في هذا العصر أكبر مركز تجاري في شرق البحر الأبيض المتوسط وأكبر مركز صناعي في مصر ولأن مدن الامبراطورية الرومانية ولذلك بحسب أن عدد سكانها لم يقل كثيراً عن عدد سكان روما . ويبدو أنه ازدهار لسطح الاسكندرية الصناعي وزالها وباهج الحياة فيها وشققه الجهاد وبؤسها في الريف المصري أخذ كثيرون من أهل الريف يهاجرون اليها منذ القرن الثاني من أجداد بالامبراطور كركلا الى اصدار قرار في عام ٢١٥ بإبعاد الفرويين عن الاسكندرية . لكن لا بد من أن هذه المدينة قد عانت كثيراً من المذابح والمعامل التدمير التي حلت بها من جراء الدماء بين الاسكندريين واليهود وغضب كركلا على المدينة وغورتها ضد اودرياتيوس . ويبدو أيضاً أنه ازدهار نشاط الاسكندرية التجاري

» المواطنين الرومان « الذين تحدث الوثائق عنهم في القرن الثالث كانوا من الاغريق والشرقيين والمصريين الذين اكتسبوا حقوق المواطنة الرومانية .

## ٢ - الاغريق :

( ا ) وضعهم وفناهم :

كان الاغريق يتألفون من فريقين رئيسيين يعيش أحدهما في المدن الاغريقية ويعيش الآخر في المدن والقرى المصرية . وكان كل من هذين الفريقين يتألف من فئتين رئيسيتين ، فالفريق الاول كان يتألف من فئة مواطني المدن الاغريقية وفئة عامة الاغريق في هذه المدن . وكان الفريق الثاني يتألف من فئة عامة الاغريق وكانوا يعيشون كغنى الحق دون الاندماج في جماعات منظمة . أما الفئة الثانية فكانت أوفر حظا من الثراء والثقافة وحيثما كان يعيش عدد كاف من أفراد هذه الفئة كانوا منذ عصر البطلمية يكمون بوزن جاليات منظمة تنظيما دقيقا حصلوا على أن يولدوا فيها من أسباب الحياة ما يعيشهم عن الحياة في المدن الاغريقية . ولما كان الجيمنازيوم من أبرز مظاهر الحياة الاغريقية لأنه كان بمثابة المنتدى فضلا عن كونه مركزا للتربية البدنية والفنية ، فانه حيثما أنشأ الاغريق مدينة . أو جالية أنشأوا كذلك جيمنازيوم . وكان هذا المركز الاجتماعي والثقافي والرياضي يشمل اتصالا وثيقا بنظام

يمكن في هذا الحيز الصغير ستة وعشرون شخصا . ولا شك في أن هذا المنزل لم يكن بهام ضخما وإنما مثل غيره من عشرات المنازل القروية التي كشفت الحفريات عنها في قرية كرايس ( كوم أو شيم ) وهي مبنية من اللبن وتتألف من عدد من الغرف الصغيرة على النحر المائل .

## ٣ - طبقات السكان :

خرج الرومان منذ عهد البطلمي على تقسيم سكان مصر طبقات متباينة في المرتبة على النحو التالي :

١ - الرومان وكانوا الطبقة العليا في البلاد وهبلي العدد اذ كانوا يتألفون من كبار الحكام وبعض رجال الأعمال وكذلك من قدماء المحاربين الذين منحوا حقوق المواطنة الرومانية عند تسميهم ورجعوا في الاستقرار في مصر . وقبل ادماجهم في هذه الطبقة كان يتمتع بعضهم ( epikleroi ) حالة كل منهم لكي يتمتعوا هم وأولادهم بالعقود والامتيازات التي كان أفراد هذه الطبقة يتمتعون بها ، وكانت هذه العقود والامتيازات تنسب ما كان المقدونيون يملكون به في عهد البطلمية ، ولم يكنوا خاضعين لمصلحة الفؤاد في التدبيرات التي كانوا يمشون فيها وأنا لسلسلة حكام الأقسام ( epistrategoi ) والحاكم العام لمصر . وما جدير بالملاحظة أن غالبية

عندرب النسيب ، وكان التحاق الفنى  
الاغريق بهذه المنطقة في الرابعة عشرة من  
عمره شرطاً أساسياً لادراج اسمه في قائمة  
مواطنى المدينة أو الجالية وللإسراع له بدخول  
الجيمنازيوم .

وسا يجدر بالملاحظة أن الجاليات  
الاغريقية كانت لا تألف أصلاً إلا من  
الاغريق لكن الفرائق تفرقت الى أنه في أواخر  
عصر البطالة كان من الممكن أن يندمج فيها  
عدد من الأعراب ممن توارثت معهم شروط  
محبة لكل الثقافة الاغريقية كانت في مقدمتها .  
ويعتقد أنه للتبميز بين الفريدين كان الاغريق  
من أعضاء الجالية يدعون «أهل الجيمنازيوم»  
(bol spu gymnasion) ولحسبهم ممن  
أعضائها المتأخرين يدعون «الشركاء» في  
عضوية الجالية & (symplektauesmos)  
ولما كان أعضاء الجاليات الاغريقية قد  
أصبحوا في العهد الروماني يؤلفون طبقة  
تنتج بامنيارات معينة وكان التسجيل في أي  
طبقة من الطبقات المسطرة يقتضى لبعض حاله  
الراغب في ذلك والباب المناء الأبوين الى  
تلك الطبقة فانه يبين من ذلك أنه لم يصدر  
ميصورا الساج غرباء متأخرين في عداد  
الجاليات الاغريقية .

ويبدو أنه من أجل المحافظة على الخصائص  
الاغريقية في المديرية ، وتوفر توف من  
الحياة يواتم الاغريق ويسائل ما كانوا  
يسمنعون به في المدن الاغريقية في مصر

وبلاد الاغريق وآسيا الصغرى وسوريا ،  
وكذلك من أجل رفع مستوى عواصم  
المديرية ، عمل الرومان على لم شعث  
الجاليات الاغريقية وتركيزها في عواصم  
المديرية . ولصان تحقيق ذلك اتفوا ما كان  
يوجد من الجيمنازيا في القرى وأخذوا جميعه  
رسمية على جيمنازيا عواصم المديرية  
وأشاروا في تلك العواصم حمامات عامة  
وأعادوا شوارعها ليلا . وأخير الرومان  
أعضاء الجاليات الاغريقية -- سواء أكانوا  
يعيشون من الأصل في تلك العواصم أم  
أخذوا للعيشة فيها -- مواطني تلك  
العواصم ، كما اعتبروا أهل الجيمنازيوم &  
أرفع أولئك المواطنين ففردا مكافآت المناصب  
المبدئية لا تسند إلا اليهم . وسأ يجدر  
بالملاحظة : أولا -- أن مواطني عاصمة أي  
مديرية لم يتسلوا كل سكان تلك العاصمة  
وحتى وإن كانوا من الاغريق . وثانيا -- أن  
أولئك المواطن كاهن يقابلون الرومان  
بأعضائهم أعضاء كاملا من دفع خريبة الرأس  
على أساس أنهم من سلالة أرباب الاقطاعات  
ولتفسير هذا المطلب يجب أن مذكر شينل .  
وأحدهما أن أغلب أعضاء الجاليات إن لم  
يكن كلهم كاهن أصلا من رجال الجيش ونيحا  
لذلك كانوا من سلالة أرباب الاقطاعات .  
والثاني الآخر انه اذا كان الرومان قد زرعوا  
ملكية أراضي بعض أرباب الاقطاعات فانهم  
بنوا ملكية أراضي البعض الآخر ومنحهم

امتيازات مبيسة كان من بينها فيما يبدو  
الاعفاء من ضريبة الرأس اعفاء كاملا .

ويرى فريق من الباحثين أن الحكومة  
الرومانية كانت تفرض ترفقة واضحة بين  
الاعريق الذين كانوا يعيشون في مدن مصر  
الاعريقية ، وكذلك الاعريق والمناغرين الذين  
كانوا ينزلون في عواصم المديريات من ناحية ،  
وبين المصريين من ناحية أخرى باعتبارهم  
deditici ، أي الأهالي الذين خضعوا  
لرؤوسان بعد الفتح بلا قيد ولا شرط  
فرضهم في أسفل درك وفرضوا عليهم كافة  
الالتزامات وخاصة ضريبة الرأس وكانت  
تعتبر رمزا مميزا لفرضهم واستسلامهم .

وقد اتخذ فريق آخر من الباحثين من  
المعلومات المستمدة من الوثائق البردية هي  
ضريبة الرأس أساسا للمناقشة برأي آخر لجند  
وسواء أن الحكومة الرومانية كانت تعتبر  
جميع سكان مصر « مصريين » أو بمسادة  
أخرى أجاب (perpetui) باستثناء المواطنين  
الرومان ومواطني الاسكندرية ولما يرجع  
مواطني نطريس ويطوليميس وناطيسو  
بوليس وسلالة أرباب الاقطاع إلى القوم  
وكذلك هذا معينا من كنهة كل عهد ، وأن  
هؤلاء جميعا « غنوا من دفع ضريبة الرأس  
التي كان باقي سكان البلاد يدفعونها » غير  
أن أولئك الباقين لم يدفعوا هذه الضريبة  
بمعدل واحد إذ أن مواطني عواصم المديريات  
كانوا يدفعونها مخفضة أما باقي سكان هذه

العواصم وكذلك سكان القري فكانوا  
يدفعونها كاملة . ومعنى ذلك أن الحكومة  
الرومانية كانت تقسم الاعريق ثلاث فئات ،  
كانت اعدادها تفصل مواطني المدن الاعريقية  
وغبا يبدو أيضا سلالة أرباب الاقطاع في  
القري . وكانت الحكومة الرومانية تفرض في  
مصابف المواطنين الرومان وتطعيم من ضريبة  
الرأس اعفاء كاملا ، أما الفئة الثالثة فكانت  
جارية عن مواطني عواصم المديريات وكانت  
الحكومة تعتبرهم « كل مكانة من الفئة السابقة  
وتفرض عليهم دفع ضريبة الرأس مخفضة .  
أما الفئة الثالثة فكانت تشمل عامة الاعريق  
من سكان القري وعواصم المديريات والمدن  
الاعريقية على حد سواء وكانت الحكومة  
تفرض عليهم دفع ضريبة الرأس كاملة .

وينبغي هذا دليلا على مدى اجلال  
الرومان للبطشاة الاعريقية ورعيتهم في  
التمييز بين أكثر الاعريق تحضرا من ناحية  
وبين عامة الاعريق وجموع المصريين من ناحية  
أخرى ، فلا عجب أن استبقى الرومان اللغة  
الاعريقية لغة رسمية للبلاد فلم تستعمل  
اللاتينية إلا في الجيش أو في النواحي المتخلفة  
بالتقارب الروماني . فضلا عن ذلك احتفظ  
الرومان للاعريق بالمناصب الكبرى التي طى  
المناصب الرئيسية التي احتفظوا بها لأنفسهم .

وقد كانت لدى الفئات المتنازعة من  
الاعريق فرص واسعة للثراء لكن التبعات  
الثقيلة التي ألقيت عليهم أبهت كاهلهم

وأوق ■ المدن الاغريقية الأخرى التي كانت معاقلة قديمة للحضارة الاغريقية وذات تقاليد واسعة وتصمم أعدادا أكبر من الاغريق ويتيسر فيها المرح بين الاغريق والمصريين على نطاق أوسع . لعل السبب اذ في اباحة التزاوج في انطينوق بوليس هو انه لم يتيسر اجتذاب عدد كاف من الاغريق الى هذه المدينة مما القضي الاقتصاد في تكوين هيئة مواطنيها على كتف من المصريين الذين لا بد من أنهم كانوا من المتأخرين تيسرا للآلاف بينهم وبين رفاقهم من الاغريق . ومن أجل ضمان وحدة المدينة ولجوها شخص في دستورها على إمكان التزاوج بين المصريين . ولعلنا أن لصداء النص دالة ذات معنى ؟ فهذا النص يطوى ضمنا على أنه التزاوج كان غير مشروع على الأقل في المدن الاغريقية الأخرى والا لا نص على تحليله في انطينوق بوليس . بقي أن تتساءل عما اذا كان التزاوج محظورا خارج المدن الاغريقية الثلاث الأخرى ( الاسكندرية ونقراطيس وبطونيبس ) ؟

ينبغي مما أسلفنا ، أولا أنه في مصر الروماني كان يمشى خارج هذه المدن الاغريقية الثلاث ليرى سكان من الاغريق كان أحدهما عبارة عن مواطني عواصم المديرات الذين كانوا يؤلفون طبقة ممتازة وكان العريق الآخر عبارة عن الاغريق الذين لم يكونوا أصلا أعضاء في جاليات اغريقية أو كانوا أعضاء في جاليات وآثروا البقاء في قراهم على

واستنزفت مواردهم على مر الزمن . ولعل لسعد الاغريق حقسا كانوا مواطني المدن الاغريقية بوجه عام والاسكندرية بوجه خاص . ومع ذلك فإن أولئك المواطنين لم يطلوا بين الرضى الى حكم الرومان فقد سبقت الإشارة الى أن عملاء الاسكندرانيين للبهود كان يفتني في طياته عداهم للرومان . وذلك لأن مصادقة اليهود كانت أسلم عاقبة من مناصرة الرومان عداء سافرا . وسبقت الإشارة كذلك الى أن « أعمال الاسكندرانيين » التي صادفت رواجاً كبيراً لا في الاسكندرية لحسب بل في كل أنحاء البلاد كانت تميز عن كراهية الاغريق القديمة لليهود وكرهينهم الأثني للرومان وهذا أبغ دليلاً على أن الاغريق بوجه عام كانوا يكرهسون الحكم الروماني كرها شديداً وينمون ذواله .

وتعدنا وثيقة من القرن الثاني للميلاد أن التزاوج ■ الاغريق والمصريين كان يمشى غير مشروع في نقراطيس ، ومن المرجح أن ذلك كان الحال أيضا في الاسكندرية وبطونيبس بسبب الرغبة في المحافظة على النصف الاغريقي . فلماذا اذن أيجح التزاوج في انطينوق بوليس ؟ يرجع البعض أنه يكون السبب في ذلك هو رغبة الامبراطور هادريان مؤسس هذه المدينة ، في صبغ المصريين بصبغة اغريقية عن طريق مزجهم مع الاغريق في بيته نسودها التأثيرات الاغريقية لكن لو صح أن هذا كان المهدف الحقيقي لكان تحقيقه ثم

ولا جدال أيضا أن الأدب والفنون كانت  
أسس مظاهر هذه الحضارة التي ظلت  
الاسكندرية أهم مراكزها في العصر الروماني  
وبفضلها بقيت الحضارة الاغريقية متمثلة في  
مصر طوال هذا العصر . فقد شهدت  
الاسكندرية عندئذ نهضة غلابسة وكتاب  
وجسرافيين مثل فيلون واجلس لابيوس  
وبطليموس ، وكان للأقاليم أيضا نصيبها في  
هذه الحركة الأدبية فقد ولد العالمان اليناوس  
وبولركس في نقراميس والفيلسوف فلوطين  
في سبوط ( ليكوبوليس ) . والبرديات  
الرقيقة التي كُتبت عنها في اوكسيرينخوس  
( البهنسة ) - وكانت عاصمة احدي  
مديريات مصر الوسطى - خير شاهد على  
شعب المثقفين في هذه العاصمة الريفية بقرأة  
مختلف ألوان الأدب الاغريقي الى حد يثير  
الدهشة . فالرديات لا تقتصر على ميون  
الأدب الاغريقي القديم مثل اشعار هوميروس  
وقصائد هيسود بل تتضمن كذلك أنصافي  
سافو وروايات ملاندر وقصائد كاليبكروس  
فضلا عن كثير من المؤلفات التي كان بعض  
الباحثين المحدثين يظنون أنها لم تكن متداولة  
عندئذ مثل أجزاء من قصائد الشعراء الغنائيين  
كالأشبية الشكر وغيرها من منظومات ينادر  
والشعراء المعاصرين وكذلك روايات  
إسخيولوس المقتودة وروايات سوفوكليس  
وبوريديس واريستوفانيس . ولما لم تكن  
لاوكسيرينخوس أي ميزة خاصة على أي

الانتقال الى عواصم المديريات وتيسيرا  
للكلام عن أفراد هذا الفرع فلنطلق عليهم  
عامة الاغريق . وثابتا أن التسجيل في طبقة  
من الطبقات المتأخرة كان يقتضي بحث حالة  
الراعيين في ذلك لتأكيد من انتهاء الاثيون في  
كل حالة التي تلك الطبقة . وإذا جاز أن  
القانون كان لا يحظر الزواج بين مواطني  
عواصم المديريات وبين المصريين فإنه كانت  
تحظره مراعاة مصالح أبناء أولئك المواطنين  
أي ضمان انتمائهم الى الطبقة المتأخرة . والواقع  
أن لوائح الايديولوجوس لا تدع مجالا  
للشك في أن الزواج كان محظورا بين الذين  
ينتمون الى طبقات اجتماعية مختلفة . وبما  
أن عامة الاغريق لم ينتموا الى طبقة اجتماعية  
متأخرة . فإنه لم يحظر زواجهم مع المصريين  
قانون ولا مراعاة مصالح . ولعلهم نتيجة  
لطول استقرارهم في البلاد وعدم ممارستهم  
أصناف الحياة الاغريقية مع اختلاطهم بأهالي  
البلاد وتبذهم الى الآلهة المصرية أصبحوا  
شبه يدي القبي بالمصريين وزواجوا معهم ولم  
ينقش وقت طويل قبل أن تستوعبهم الأمة  
المصرية فيمن استوعبتهم .

(ب) حضارة الاغريق :

ولا جدال في أن المدارس والمعاهد  
الاجريقية كانت أهم دعامة للحضارة الاغريقية  
نهي التي كانت تتجلى للناس آفاق الفكر  
الاجريقي وتنبذ عقولهم وتوسمهم بشارة



التعليم فقد كان التلاميذ يكتفون بتقلي بعض  
الأميات للتسريع على كتابتها أو شرحها  
والتقليق عليها أو لتكون مصادرة لدرس في  
الأخلاق . وكان يبنى بهذه الناحية عناية كبيرة  
فقد كان المدرسون يختارون كثيرا من الحكم  
والأمثال لتسريع التلاميذ على المطالعة .

ويبدو أن المرحلة الثانية كانت مقصورة  
على أبناء الصفوة المتأخرة في عاصمة كل  
مديرية وهي التي كان يطلق عليها « أهل  
الجبينازيوم » فقد كانت تلك الطبقة تألف  
من المتفوق في حسابهم بنظامه المدرسي  
الشباب وعلما في الجبينازيوم إذ كان  
الالتحاق بهذه المنحة يحول عن الالتحاق  
بالجبينازيوم ويقتضي إثبات انتماء الأب إلى  
هذه المنحة والحداد الآين من « بون هرين » .  
وكان التلاميذ يدرسون في هذه المرحلة النحو  
والبلاغة والأدب والفلسفة والرياضيات .  
ويبدو أن الذين كان يمز عليهم دخول  
الجبينازيوم لكن مواردهم كانت تسمح لهم  
بتابعة الدراسة كانوا يلجأون إلى مدرسين  
خصوصيين لهذا الغرض . وكان ذلك أيضا  
حال الذين يربطون تعلم مواد خاصة مثل  
الموسيقى أو الاختزال . وتعدنا بردية بأن  
أحد مواطني أوكميرينغوس أرسل عبده  
لتعلم الاختزال على يد معلم مختص مدد  
مدة الدراسة بعامين على أن يقتضى أجره على  
ثلاث دفعات : كانت أولاهما في البداية والثانية  
والثالثة عند بلوغ العبد مرحلتين معينتين من  
التقدم .

عاصمة أخرى من عواصم المديريات فلا بد  
من أن الحال كان مماثلا فيها جميعا وهذا  
يدل على أمرين وأحدهما وجود جمهور كبير  
من الثمراء وثبما لذلك وجود تجارة رائجة  
في الكتب ، والأمر الآخر أنه كان في متناول  
المتفوقين في حلول البلاد وعرضا مجموعة كبيرة  
من المؤلفات الإغريقية التي لم يصك منها  
إلا قدر قليل .

وقد مر ما كانت الأمية فاشية بين عامة  
الإغريق كان أثينا وهم وأهل الطبقة الوسطى  
منهم يميلون على التعليم . وكان التعليم  
الإغريقي يبنى بترية الجسم والعقل معا .  
وكانت التربية البدنية تفصل الألعاب الرياضية  
وكذلك التديريبات شبه العسكرية الخاصة  
بالشباب . أما التربية العقلية فكانت على  
ثلاث مراحل يباشر أولاهها المدراس الأولية  
ويرجع أنها كانت من الطراز الإغريقي  
ثالثا وقد نستطيع أن نتبين مما أثر عليه من  
الأفوات التي كان التلاميذ يستخدمونها  
بكثره ( كسر الفخار والألواح الخشبية  
المكسوة بالشمع والأوراق الرديئة ) أنهم في  
المرحلة الأولية كانوا يتعلمون القراءة والكتابة  
سريعا ناديين بالعروف الأبجدية فثكنون  
المطلع فالكلمات فالجمل ثم نقل غرامات من  
كتب معينة والتسريع على الاملاء والانشاء .  
وكان التلاميذ يدرسون الأدب والنحو  
: الحساب . وكانت أشعار هومروس  
تستخدم على نطاق واسع في كل مراحل



أفروا الامتيازات التي اكتسبتها العجالية اليهودية في الاسكندرية منذ عهد البطالة لكنهم فرضوا على يهود هذه العجالية ويهود مصر جبسا أداء ضريبة الرأس كاملة .

ويحدثنا فيلون بأن يهود الاسكندرية كانوا يتسكنون من القنات التالية :

١ - أصحاب دس الأموال ٢ - المشتغلون في السفلي البحري ٣ - تزار التجزئة ٤ - الصناع وأصحاب الحرف ٥ - المشتغلون بالزراعة في الأراضي المحيطة بالاسكندرية . وتضم الدلائل الى أنه منذ عصر البطالة كان يهود الاسكندرية يسيلون اثنى اطفال أسماء المرفضة وارتداء ملابس افرقية ويشغلون على معلم الافريقية والتزود من الثقافة الافريقية . وإذا كان بعضهم قد اعترفوا عن اليهودية أو صابوا فان أغلبهم استمسكوا بديانهم وحرصوا على مراعاة تقاليدهم وعاداتهم . وإذا أضفنا الى ذلك مصالحهم للمرومان فذكرنا لماذا كان اليهود في نظر الافرقيين خصرا غريبا عنهم كريبا اليهم لا يفلونه في مجتمهم وروود الغير كل الغير في قطع ديرة مما ألقى الى تلك المنازعات ادمامية التي سبل الكلام عنها .

وكان المجتمع اليهودي خارج الاسكندرية يتكون من القنات التالية :

١ - أصحاب الأراضي ٢ - أصحاب المن العرة من المشتغلين بالتجارة وأعمال النقل في النيل ومن مواني البحر الأحمر والبحا

٣ - أرباب المن الوضيعة والعبيد المحررين . وإذا كان أكثر يهود الريف تراء حادوا الانتبه بالاغريق فانه لم يسمح لهم بالاندماج في المجتمع الاغريقي . أما جوع يهود الريف وكانوا يشاركون المصريين فيهم ويسامون اليهم والعرفه ذاتها فان القراني عدل على أنهم تشبهوا بالمصريين فتشاعت الاسماء المصرية بينهم بل عثر في مصر الوسطى على تابوت خشبي يحمل صورة صرية ويحسرى على موسىاء محطلة كما عثر أيضا في الفيوم على موباب تحمل صور أساطين وأسماء يهودية ، ومع ذلك إزاء قلة الأدلة التي لدينا ————— العزء بأن كل يهود الريف قد تأثروا بالينه المصرية الى حد أنهم كانوا جميعا يحفظون حبث موتاهم . فقد توافرت لهم في الريف أسماء الاحتفاظ بدينهم ومتابعة حياتهم الخاصة إذ ان القراني تشير الى أنهم في الجوجين البحري والقبلي كانوا ينظمون في جاليات لكل مسا يمتها والى أنهم في بعض المدن مثل ارسينوي وأوكسجيدنخوس وأدلو كانوا يقدمون في أحياء خاصة بهم . وتظهر القران أيضا الى أن ثورة ١١٥ - ١١٦ لم تقض الى القضاء على المجتمع اليهودي في الريف المصري ، وكل ما في الأمر أن هذا المجتمع قد أصابه عنذخ من الكوارث ما عطل وقتا طويلا لبعده بناء كيانه ويتألف تشاطه من جديد .

وإذا كان الرومان قد 'شعروا عظيمهم على

اليهود بالاقراراف لهم باستبازاتهم القديمة فان اليهود لم يرضوا عن الرومان لانهم رفضوا ادماج يهود الاسكندرية في عداد مواشي تلك المدينة وليس يحموهم من عداوة الاسكندريين لهم ورفضوا على يهود مصر ضريبة الراس كاملة ، وكالوا لاسم ضرائب شديدة منذ ثورة فلسطين في عام ٦٦ م صا افضى الى ثورتهم العظيمة في عهد تراچان التي كانت محاولة بالسة حرثة للتخلص من لير الحكم الروماني . ولا بدل استسلام اليهود بعد ذلك ومسانتهم للرومان على وضالهم عن الحكم الروماني بقدر ما يدل على وضالهم بحكم الظروف التي كانت أقوى منهم .

#### ٤ - المصريون

##### ( ١ ) قتالهم

كان المصريون في العصر الروماني يبالغون من عدة نيات ، كان قسرة الكهنة 'مضما شأنا و'رلها عقاما و'وسعا ثروا' ما حدا بالرومان الى اقفاء اثر البطالة الأوائل في اضفاف قوة رجال الدين المصريين . فالتزوا ملكية حاسب من أراضي المعابد و'سندوا الى الحكومة ادارة جانب آخر من هذه الأراضي ووضعوها رجالة الدين تحت سيطرتهم و'قصوا عدد المعابد التي تتمتع بحق حماية اللاجئين اليها . واذا كانت الحكومة الرومانية قد أغضت أول الأمر عددا معيناً من كهنة كل

معبد من دفع ضريبة الراس فلنأها عسكت بعد ذلك على انقاص هذا العدد . ولا جدال في أن الغالبية العظمى من رجال الدين المصريين احتفظوا بثقافتهم القديمة الخاصة التي كانوا يتوارثونها وتعاونون على المحافظة عليها ويعملون على بث تعاليمها في نفوس مواطنيهم . ومع ذلك يصعب أن تتصور أن النابيين منهم على الأقل لم يأخذوا بقسط من الثقافة الاغريقية .

وكانت لدى هذه الفئة في الأهمية غنة أصحاب الأراضي وكان أفرادها على شيء من البر ودأب كثير منهم على الشبه بالافريق فحملوا الاغريقية واتخذوا أسماء اغريقية وملابس افريقية وتزوجوا مع عامة الافريق المنتشرين حولهم في أرجاء البلاد . ومع ذلك لم تكن صفتهم الاغريقية الا طلاء بخارجيا فقد كان من الصعب فهم صلتهم بالمواطني وتعبير طابع عقيدتهم أو دوافع نفوسهم بسبب انسماكهم بديانتهم التقليدية . وعلى كل حال من المرجح أن صفتهم الاغريقية لم تكسبهم أي ميزة من ناحية وضعهم القانوني بمعنى أن الحكومة الرومانية لم تساوهم بمواطني المدن الاغريقية ولا حتى بمواطني عواصم المديرية ، ولم تضربهم الا مصريين عليهم ما على سائر المصريين من تبعات . بل لعلهم من هذه الناحية كانوا أسوأ حظا من غيرهم من المصريين إذ أن الأمر في حالهم لم يفتح عند حد 'فاه الضرائب المعروضة عليهم

المصريين وكانت غالبيتهم العظمى تشغل  
بالزراعة وكثيرون منهم يمارسون مختلف  
الحرف والصناعات . وقد غرض الرومان  
عليهم جميعا كافة الالتزامات وأداء ضريبة  
الرأس كاملة وجرعوا عليهم استعمال اللغة  
الديونيقية حتى في عقود سمارتيم الخاصة.

#### (ب) حضارة المصريين

وإذا كانت الأمية فاشية بين عامة الإغريق  
فلا جسدان في أنها كانت غاشية كذلك بين  
جموع المصريين الذين استمروا يعيشون كما  
كان أجدادهم يعيشون من قبل ، محتفظين  
بعاداتهم وتقاليدهم ، مسيحيين بديانتهم  
الى أن اعتنقوا المسيحية طوعا أو كرها .

وهكذا يبدو أن الغالبية العظمى من  
المصريين كانت تعيش بمعزل عن الحضارة  
الانقرية فلم يلم يلمح بها الا قلة قليلة .  
وإذا كانت المصاهرة الكبرى قد احتفظت  
بالمدراس الملحقة بها فقد انتهى ذلك العهد  
الزاهر الذي طفت فيه بعض هذه المدارس  
نشوا وبدا وزلت مدارس المعاد عن تلك  
لكالة السابعة لجامعة الاسكندرية  
بمدرستها المسيحية الكبرى . وإنشاء اقبال  
المومنين من المصريين على التعليم الاخرى  
وتنفي الأمية بين جموع المصريين وتحضير  
استعمال الديونيقية حتى في العقود الخاصة  
لا يبعد أن تكون سوق المدارس الأهلية  
القديمة قد كادت الى حد اضطرت معه الى

بل كان يمدى ذلك الى الاسهام في زراعة  
الأرض المهجورة وأداء الضرائب المفروضة  
عليها . وقضلا عن ذلك كانت الحكومة تختار  
منهم صغار موظفيها المحليين لادارتهم  
بالانقرية ولما لديهم من أملاك كانت تستطيع  
أن تمتدق منها استحقاقاتها في حالة قصورهم  
عن النهوض بالتزامات وعقائهم على نحو  
يحق لها أخراضها كاملة . ولعله كان يكون  
جلبا من هذه الفئة فئة المحاربين المصريين  
التي ارتفع شأنها في القصر الثاني من عصر  
البطالة ومنح أفرادها اقتطاعات لا بأس بها .  
وطى كل حال فانه لم يمد للغة المحاربين  
المصريين القسيمة كباقي مستغل في العصر  
الروماني فقد منع المصريون من الانخراط في  
سلك الفرع الرومانية حتى في القرن الثاني  
عندما اضطر الرومان الى التجنيد محليا  
فارومان لم يسوا ما حدث في عصر البطالة  
عندما أدى الاعتماد على المصريين في مؤقتة  
رنج ( عام ٢١٧ في م ) الى العاصف الروح  
القومية في البلاد وانفلاق لهيب الشررات  
الوطنية ضد البطالة . ولذلك كان التجنيد  
المحلي في مصر الروماني ... على الأقل حتى  
منح المصريون حقوق المواطنة الرومانية  
بمقتضى دستور كركلا - مقصودا على  
الانقرين والشرقيين القبيين في مصر . ومع  
ذلك كان يسمح للمصريين بالعمل في أسطول  
مسيحوم فقط .

وكان يأتي في مؤخرة المؤخرة عامة

عندما ثارت هيبووثيوليس ( تل المسخوطة في شرق الدلتا ) زحف عليها كوديليبوس جالوس وأخضعها .

ولا تذكر المصادر القديمة نشوب ثورات عامة بين المصريين بعد ذلك الا الثورة المعروفة بحرب الرعاة ، التي وقعت في عام ١٧٣ في منطقة الدلتا الساحلية شرقي الاسكندرية .

وقد تزعم هذه السورة كاهن مصري يدهي اميدوروس واشترك فيها جموع كبيرة من المزارعين تبكثوا من القضاء على العادة الرومانية في منطقتهم وكذلك من هزيمة الكتاب الرومانية التي حصلت اهم ، حتى خيف من وقوع الاسكندرية في عيبتهم مما اقتضى استدعاء نجده من سوريا خف عنى رأسها اليديوس كاسبوس حاكم تلك الولاية ( عام ١٧٥ ) . وقد لجأ اليديوس الى حيلة المفاوضات حتى نجح ■ بث السرقة من صفوف الثوار ثم قاتلهم متفرقين وانصر عليهم فنادب به الكسرك السودية امبراطورا لكنه لم يلبث ان لقي حتفه بعد ذلك بقليل . وليس ابلغ في الدلالة على سوء الحكم الذي أقامه الرومان في مصر من أنه لم يصادف رضا من أى خريف ممن كانوا يعيشون في مصر عندئذ سواه فكانوا من الاغريق أم اليهود ثم المصريين .

اغلاق أبوابها . ولعل أهم ما سحب انتشار المسيحية في مصر الى جانب انشاء المدرسة المسيحية الكبرى في الاسكندرية كان قيام بعض المدارس لاعداد القضاة واستبدال الانجيل بيهويزوس في المدارس التي كانت منتشرة في عوالمهم المديريات وبين الكلايم عنها في معرض الحديث عن التعليم الاغريقي .

### (ج) ثورات المصريين

ورغم القتل المرير الذي انتهى اليه كجاج المصريين ضد البطالة ، ورغم الفورة الكبيرة التي وضعا الرومان في مصر فانه لم تكف تطش شعور قبيله على الفتح الروماني حتى هب المصريون ثائرين على الزاغة الجدد . وقد رفع لواء الثورة ضد الرومان منطقته طيبة التي مر بنا انها أقفست مضاجع البطالة بزعمها الحركات الثورية ضدهم مما حدا ببطلنوس التاسع الى شن حرب ضروس على العاصمة الوطنية القديمة طيبة وتضريبها تخريبا . ويبدو أن الثورة العذبة بلغت من الغظوة حدا اضطر معه بول حاكم روماني لمصر ( كوديليبوس جالوس ) الى تجريد حيلة ثوية لقمعها . ويبدو كذلك أن الثورة لم تقتصر على مصر العليا بل أجمعت فيها الدلتا أيضا إذ أن اسرارون يحددنا بأنه

## الفصل الثامن

### الآداب والعلوم والفنون

الطوليوس يولون ، أو ليرخوس مواسيم في  
سروفا العملية مثل ديون وإيلسوس -  
ارميسيس . وذلك فضلا عن الكثيرين من  
الطلاب الأجانب الذين ظفروا يقصدون  
الاسكندرية لتلقى العلم فيها وخاصة الطب  
حتى 'واخر القرن الرابع على الأقل .

#### اولا - الآداب

##### ١ - علم العلم ( الجامعة ) والكتابة

وقد امتدت الجامعة مدة طويلة مركزا  
للبحث العلمي وممرا للعلماء تصنيفهم فيه  
الدولة على لغتها وتجرى عليهم الترتيبات .  
واذا كان الأصل في التمييز في الجامعة أن  
يتوقف على مكانة الشخص العلمي أو الأدبية  
فإن القسراين توحى بأن المطايير لم تلبث أن  
تغيرت فضلا عن هادريان رجلا يدهي  
بالكرم من كل ما يعرف عنه أنه سجع جسد  
الامبراطور وتحليله انطونيوس في قصيدة  
وعلى الناحية منها . وتحدثنا وثائق القرن  
الثاني بأنه كان بين رجال الجامعة عندئذ بعض  
كبار رجاء الدين والمولعين المدنيين والفساط  
الرومان مل أحد الرياضيين . وقد أضاف

عرفنا أنه في العصر الروماني كانت  
الاسكندرية لا تزال مدينة عظيمة ونظير  
لأي مدينة في الامبراطورية الرومانية بعد  
روما مباشرة وإن الرومان كانوا يطفون على  
العضارة الاغريقية ويبنونها ويكادون جامعة  
( دار العلم ) الاسكندرية برعايتهم . لكن  
الاسكندرية لم تعد عاصمة دولة عظيمة ومقر  
بلاط فظور كان يضع نصب عينيه جعلها  
عاصمة الحضارة الاغريقية وبمى بأن يجتذب  
إليها أبرز رجاء الفكر والفن وأن يفرغ لهم  
من الرعاية ما يحفز همهم ويشد عزائمهم .  
ومع ذلك فإن الاسكندرية تابت نشاطها  
وكان لها نصيب الأسد في حياة مصر العظيمة  
وإن كانت لم تحتكر انجذاب البارزين من  
رجال الفكر والفن فقد ولد في قراطيس  
الملك ثيسابوس وپولوكسي ، ولي  
ليكوپوليس ( اسيوط ) الفيلسوف فلوطين .  
ولا أدل على حفاظ الاسكندرية مكانتها  
العامة عما تنبئ إليه المصادر القديمة من  
سقف الناجين من الغلاء بالوفود عليها حتى  
'واخر القرن الثاني الميلادي لما لبنوا من  
مواردها مثل پلوتارخ ولوكاوس وماركوم

بمعبد قبري ، وقد ظلت هذه المكتبات تمد الباحثين بما يحتاجون اليه من المصادر والمراجع الى ان ذهب بعضها ضحية لأعمال التخريب التي قام بها جنود زوفايا والبعض الآخر ضحية للصراع بين المنيحة والوثبة عندما أصبحت المسيحية الدين الرسمي للدولة .

وقد تابع علماء جامعة الاسكندرية في  
العصر الروماني ما ابتدعه سلاطنتهم في عصر  
الطامة من تحقيق النصوص الأدبية وتحتها  
والتعليق عليها . وقد كان من أبرز هؤلاء  
الباحثين قبلوكتيوس الذي ذاعت شهرته في  
عهد تيبريوس الى حد انه دعى للتدريس في  
روما . وقام بمساره بافيلوس بجمع عدد  
هائل من النسخات القديمة التي استخدمت  
في الآداب الكلاسيكية . وكلف ارسوبيتوس  
بالدراسات المصورية فشرح هوساني  
اريمتارخوس وتحتها وأكملها . وحاول  
الوقت ذاته اخرج ثيون مجعاً للنراجيديا  
والكوميديا ووضع تعليقاتاً لأعماله شعراً  
الدوما واپولونيوس الروماني . وذاعت أيضاً  
عندئذ شهرة ايبوب الذي نال تلمذ تيبريوس  
وان كان الامبراطور نسان فرحاً بثرثته  
والاشادة بنفسه . وقد ألف ايبون مجعداً  
للاشعار الهومرية سطر عليه يوسنانس . وقد  
كان أبرز فقهاء القرن الثاني ابولونيوس  
« المزمتم » وسكانور وابولوس ثيون .

الامبراطور كلاوديوس الى ميني الجامعة ملحقا حتى اسمه وكانت تلى فيه يوميا مؤلفات هذا الامبراطور المؤرخ - ولا ريب في انه عندما اوقف كركلا في صدر القرن الثالث الانشقاق على الجامعة كان لذلك اثر بعيد المدى في نشاط البحث العلمي إذ انه لم يمتد في وسع الاساتذة الانصراف الى يعولهم مع القاء بعض المحاضرات من حين لآخر بل أصبح يشتم عليهم التدريس أو أداء أى عمل آخر لقاء اجر يمشون معه . ولقد ذكرت بالجامعة كتابا آخرى في عام ١٦٩٩ : ٢٧٠ عندما انقض جنود زولوا على حي بروخون وأوسموه بها وتخربوا ولم تنج سبالي الجامعة من هذا التدمير . الذي لم يقض على كل حال الى القضاء على الحياة العلمية والأدبية في الاسكندرية إذ **ع** نزل بها واشاد بها فيما كتبه المؤرخ اميانوس ماركليانوس حوالي نهاية القرن الرابع الميلادي .

وقد مر بنا أنه عندما أحرق يوليوس قيصر الأسطول المصري في خلال ٤ حروب الإسكندرية ، في عام ٤٧ ق.م. ، ولقد ذهب إلى وصيف الميناء وأحرق المباني المجاورة له ، فحقت المكتبة الكبرى طبا للديان مثل أن انطونيوس عوض كليوباترة عن تلك الضخامة الفادحة بأعدادها ٢٠٠,٠٠٠ مجلد من مكتبة رجائون . وقد كانت توجد في الإسكندرية مكتبتان أخريان ، كانت إحداهما ملحقة بمسجد السراوس وكانت الأخرى ملحقة



يحتل شعر الاسكندرية مكانا متواضعا بين آدابها في العصر الروماني ، فالاسكندرية لم تعرف في هذا العصر شاعرا بارزا واحدا يسكن مقارنته بكاليماخوس أو ابونونيوس أو ثيوكريتوس ، والدعوت جبهبصرة من من الشعراء المتواضعين الذين حافظوا على تقاليد الشعر الاسكندري من حيث خلوه من العواطف الساسية والشعور بالنفوق نحو الالهة القديمة وكذلك من حيث كلفه بالعلم المختلفة وتصوير المساهم الانسانية والاشادة بالحياة البسيطة لكنهم لم يكونوا شعراء مطبوعين ولما يصطنعون الشعر استنسخا . ولعل ايزر اولئك الشعراء المتواضعين اثنان كان احدهما ديمس الاسكندري الذي عاصر هادريان وألف قصيدة جنرازية وصف فيها ليجا والجناب الأكبر من آسيا وأوربا مبتدئا في ذلك على خريطة العالم البطلمي اراتو شينس . وقد قدر لهذه القصيدة أن تسمى طويلا فامسا رجعت الى اللاتينية واستخدمت في تدريس الجغرافيا في المدارس . أما الشاعر الآخر فانه كان من أبناء واحة سبره ويدهى سورينغوس وألف قصيدة في وصف مسقط رأسه وأخرى في مدح الامبراطور قنطيلانوس وعددا آخر من القصائد عن ديونيسيوس والاسكندر الأكبر وغير ذلك من شتى الموضوعات .

وقد تأثر نثر الاسكندرية في العصر الروماني باتجاهات مدارسها انقلبية التي تسعت بسكانة كبيرة ولا سيما ان الفلاسفة على اختلاف نحلهم ومذاهبهم كانوا يعتبرون في ذلك العصر أملاء النفسوس . وإذا كانت مختلف المدارس الفلسفية العديدة قد تأمنت نشاطها فان الفيثاغورية الجديدة احتلت مكان الصدارة فيها الى أن الدمجت في طلائع القرن الثالث في الانفلاطونية الجديدة . وكانت الفيثاغورية الجديدة تتألف من عناصر استمدت من الفيثاغورية القديمة ومن فلسفات افلاطون والاشائين والرواقيين ومزجت سويا على نحو يوائم الاتجاهات الدبية المتطورة فقد وجهت عناية خاصة الى انتمالات الدينية والمذاهب الخلفية . وقد كان الفيثاغورية الجديدة اثر كبير أولا في التفكير اليهودية عن طريق الفيلسوف اليهودي فيلون الاسكندري وثانيا في التفكير المسيحية عن طريق كليبيس (Clement) واوريجينس (Origenes) وثالثا في الانفلاطونية الجديدة . ويعتبر فيلون اعظم المفكرين اليهود الذين يسلطون النقاء اليهودية واوثنتية كما منير مؤلفاته نزلها لانفلاج يهود الاسكندرية الاذي في العصر الروماني . ويتبين مدى تأثر فيلون بالفيثاغورية الجديدة من أنه استعار منها الكثير من أفكاره ومنهج في وضع فلسفته التي كانت تستهذه الغروح

ومداها فان التمسك لم يرق املاقا الى قيمتها الكبيرة .

وقد كانت الاعلامية الجديدة مزيجا من فلسفة افلاطون وارسطو والرواقين والفيثاغورية الجديدة . وقد أصبحت الاعلامية الجديدة الفلسفة الرئيسية عند الوثنيين من حوالي منتصف القرن الثالث حتى قضى جوستينيانوس ماغستراي المدارس الوثنية في عام ٥٢٩ . وكان أبرز مفكري هذه الفلسفة امثوليوس صاكاس (Amelius : ٥٢٩) الاسكندراني والوطيلين الاسيوطي وولابيد طولمي .

وكان من اوسع كتاب الاسكندرية في اواخر القرن الثاني علما وقساعة ثينايوس (Athanasius) الفسراطيسي الذي اكسبه شهرة كبيرة كتابه الضخم مدونه افلاطون . وقد حاول ان يحو في كتابه نحو بعض الفلاسفة القدامى في عرض آرائهم في شكل احاديث المآدب لك لم يرق الى مستواهم . وقد دامت مدونة ثينايوس بضعة ايام دار لهما اتحدث في الفلسفة والآداب والعلوم والطب وغير ذلك من الموضوعات التي شاعها عند من الضيوف أجرى المؤلف على لسانهم فيمنصات استملها من عدة كبير من الكتاب . وقد تمتع اجلس نابوس (Achilles : ٥٢٩) ، مؤلف قصة ابوكيبي وكليثوفون (Leukippe & Kleitophon) سكانا كبيرة في العصور الأخيرة وأغاض فساد العصر

بالفلسفة اليهودية من أفتها الضيق الى أفضي . اوسع بعد تجردها من كل مظاهرها العصرية . وعندما قام فيلون بشرح التوراة والتعليق عليها علاج ذلك بالتريفة الرمزية على نصيح البيثاغورية الجديدة فتحو لت المحصيات الدينية في التوراة الى مجرد رموز للأفكار المجردة واكتسبت الجاليم الموحدة مظهرا جديدا حملها رموزا لأفكار اعرضة مبدلة .

وقد كان كليبيس ومن بعده اوريجينيس أبرز اساتذة المدرسة المسيحية الكبرى في الاسكندرية . ويمثل هذان الأستاذان اتجاهها جديدا للمفكرين المسيحيين استبدلوا بمناصبه الوثنية عددا شديدا يكشف عن ضعفها ورد الامتداد من المسيحية — استبدل الامتداد التجديد بذلك الدعوة الى الايمان بثقافة العصر واستخدام مبادئ الفلسفة في نشر العقيدة المسيحية وتعميرها . وقد جمع كليبيس ابي قوة ابناءه بالمسيحية الايام الواسع بالادب الاخرى وبدل جمدا كبيرا للتونجيين بن الثقافة الاغريقية والديانة المسيحية أما اوريجينيس فانه كان أقل من كليبيس الماما والآداب الاغريقية لكنه كان أهم منه تفكيرا وادق فصلا للمذاهب الفلسفية وأكثر دراية بمناهج البحث العلمي وأوسع قدرة على الابتكار . وقد سميت المدرسة المسيحية في تحقيق نص لتانجيل ماثوون به ، ومما اختلف الباحثون في تقدير طيبة هذه المساهمة

شمولا ولذلك بقى مرجعا لكل دارس  
الجغرافيا حتى بداية العصور الحديثة .

## ثانيا - العلوم :

### ١ - الطب والجراحة :

وقد تابع أباندة الطب والجراحة نشاطهم  
في الاسكندرية وظلت الاسكندرية القديمة  
تحتفظ بشهرتها في هذا الميدان على الأقل  
حتى أواخر القرن الرابع عندما كتب لميانوس  
ماركليسوس مقول انه كان يكنى الطبيب  
للكندرية على مهارته قوله انه تعلم في  
الاسكندرية . وبعضه دليلا على مكانة  
الاسكندرية في عالم الطب كثرة عدد الذين  
كانوا يقصدونها من مختلف أنحاء الدنيا  
لدراسة الطب على أستاذتها الذي تابعوا  
أعضائهم بالتفريع وكان كثيرون منهم  
يمزجون بأنهم من أتباع المدرسة النجرية التي  
ترجع الى عهد البطلمة . وقد درس في  
الاسكندرية أشهر أطباء هذا العصر وأعظمهم  
جميعا : كلاوديوس جالينوس الذي ولد  
في باموني في عام ١٣٩ راول حياته بعض  
الوقت في وطنه ثم في روما الى ان تولى هناك  
في السنين من عمره .

وسلطنا كلسوس (Celsus) مسودة  
شاملة عن الطب والجراحة في الاسكندرية في  
صدر العصر الروماني . ويسمى كلسوس  
كتابه عن الطب (de re medica) —  
وهو ينقسم الى ثمانية أجزاء — بتاريخ

اليزنطي في التنا عليه . وأبرز ما يتصف به  
أخيلس تفضيله الواقعية على المثالية وسيله  
الى اثاره مشاعر القارئ بمهارته الفائقة في  
الوصف وأسلوبه الذي يندفع جوية .

وتنقسم كتابة التاريخ في هذا العصر  
باعتبارها بالتأثير في النفس أكثر من عناية  
بتحري الحقيقة : وبطلميديوس خيلوس  
(Chamaeus) من من يمثل هذه المظاهر التي  
نضج في مؤلفه تاريخ جديد للاستزادة في  
فواح كثيرة . ويسدو ان هذا التاريخ  
مجموعة من القصص التي قرأها المؤلف أو  
سمعا . وأمل اپيانوس (Appianus) كان  
أبرز مؤرخي الاسكندرية في هذا العصر لكن  
مؤلفه الضخم في التاريخ الروماني أكثر تأثرا  
بالطابع اللاتيني منه بالطابع الاسكندري .  
اذ ان اپيانوس بعد ان حصل على الجنسية  
الرومانية رحل الى روما وعاش هناك حيث  
يرجع انه وضع مؤلفه في عصر أنطونيوس  
بيوس . وقد شارك في كتابة التاريخ أيضا  
العالم العذ كلاوديوس بطلميديوس لكن شهرته  
كجغرافي ورياسي تيز شهرته كمؤرخ فنكتبه  
في الجغرافيا بذلك من ثمانية أجزاء وأطلق  
وكأن يستهدف على حد قوله استخدام أحدث  
المعلومات في تصحيح خريطة العالم التي  
وضعها جغرافي عاش قبله وكان يدعى  
زينوس الصوري . وبرغم ما يتصفه كتاب  
خيلوس من أخطاء فإنه يعتبر بوجه عام  
أحد المؤلفات الجغرافية القديمة وأكثرها

واذا كانت فروع العلم الأخرى قد أهدلت في العصر الروماني ، فاته كان للعلوم الرياضية شأن آخر . وليس هناك مجال لأن نمرؤ أي فضل في ذلك إلى رعاية الرومان ، فقد كانوا يحتقرون العلوم البهينة فيما عدا ما كالب يمكن إغادته من تطبيقاتها .

وقد عرفت الاسكندرية ورياضيين عظاما مثل مينلاوس (Menelaus) وسرموس (Serapion) وبابوس (Pappus) الذين عثروا بدراسة الهندسة ولهم فيها مؤلفات فيه لكن مؤلفات سرنوس لم تزل إلى مستوى مؤلفات العالمين الآخرين التي ترجعها العرب وبفضلهم وصلت إلى العالم الحديث . وقد كان من الاسكندرية أيضا المسالم ديولايتوس (Diophantus) الذي ابتدع نظاما خطيا بالحساب فطوره واسعة لحر الجبر . أما هرون (Heron) فله مؤلفات كثيرة في الهندسة والميكانيكا لم يصل إلينا بعضها إلا بالبرية والبعض الآخر باللاتينية فقط والبعض الثالث بالأغريقية والعربية واللاتينية ، واستخدمت كنية في المدارس منذ قرون . وتعتبر جهود هرون قبل كل شيء استمرارا لجهود أرخميدس وأفيليس وكليميوس ، فقد كان شديد الاهتمام بتطبيقات العلم فابتدع وسائل لمسح الأرض ورفع الإخمال واستخدام البخار وطلبة لأطبائه الحريق وجهارا شيئا بعدد السيالات .

طرب الطب بنفسن مقارنة بين اتباع المدرسة النظرية واتباع المدرسة التجريبية ويخصص العربون الأول والثاني لتتفدية وعلم للأمراض والقواعد العامة للعلاج . وناقش في الجزيين الثالث والأربع الأمراض الداخلية وفي الجزيين الخامس والسادس الأمراض الخارجية . ويعتبر الجزيان السابع والثامن وهما يتناولان الكلام عن الجراحة ، أهم أجزاء هذا الكتاب . وينبئ من هذين الجزيين أن جراحى الاسكندرية لم يباشروا مختلف أنواع الجراحات المألوفة فحسب بل أيضا جراحة تصبيل الوجه وكذلك جراحة الأسنان . وتعددت الوثائق البديدة بأن بعض أطباء الاسكندرية ابتاعوا عبدا من الأريطة والأجيرة التي عرفت بأسمائهم وكانت تستخدم في حالة حدوث كسر في العظام أو فخر في الأغشية الداخلية

لكن في القرن الثالث لم تعد العروق مواتية للأبحاث والملاحظات العلمية فقد انتهى عهد الكتوف وأصبح هم العلماء مقصورا على اكتشاف المطومات للموالمة بين ما سبق الوصول إليه وبين حاجات العصر . فلا عجب أن أخذ الطب ينحدر ويبدأ ويبدأ وأخذ عامة الناس يلجأون إلى التصاوير والسحر والتنجيم من أجل الشفاء من المرض ؛ بينما أخذ المثقفون ينتمون شفاء الجسم في سعادة الروح .



## (ب) المنازل :

وخرجى الفرمان بأن احرق المدين الاغريقية وبعض مدن القيصوم استردوا يستخدمون انواع المنازل التي القوها من قبل في عصر انطالمة ، وانه غيا يبدو نشئت أيضا منازل مسيحية تشبه « بالقبيلات » الرومانية . أما غيا هذا ذلك غاه يشين في المنازل الكثيرة التي كتلت العفريات عنها في بعض مدن القيصوم وقرأها ان الاغريق كانوا كالمصريين يعيشون في منازل مصرية فغير استمرارية لطراز المنازل التي عرغها مصر منذ أمد طويل تكن يبدو ان الاغريق والمصريين المتأخرين كانوا يستخدمون في تزوين منازلهم ذخارف اغريقية .

## (ج) المنشآت العامة :

أما الرومان في جهات متعددة في مصر صالوا مدينة متعددة الأنواع : كالموايات والأقواس والمسارح والعباريات والعمامات العامة . وبين من غايا المنشآت التي كتف عنها اصلا كانت دفعا للطرار الروماني في تخطيطها وعمارها وزخرفتها وان الطراز الروماني في مصر كان كشأه في روما وباقى أدهاء النماذج الروماني يعيل الى استعمال الأعمدة الكونية تية . وعلى حين ثاب الممارن تى عاده من اللبى كات المنشآت العامة بنى من الأحجار وكثيرا ما استعملهم بها ، ولا سيما في الاسكندرية ، الرخام المستورد من الخارج

وتدل الحفريات على أن الغالية المنظمى من المصريين قد احتفظوا بمنازلهم الجنائزية وطرق الدفن التي ألغوها منذ عهد بعيد . فقد كانوا يدفنون موتاهم إما في مقابر قديمة أعادوا استخدامها أو في مقابر حديثة كان بعضها عبارة عن كهوف طبيعية أو قحوب نجحت في جانب التلال أو آبار ضمرت في باطن الأرض ، وكان لها بئر ينهى بعمق واحدة « غرلين للدفن .

ويشير من التكتسوف الأثرية في أحوه الحبلى ، بالقرب من الإسكندرية ، ان المصريين المتأخرين كانوا يقيمون مصابده ويوموا جسدائهم تحتل في المناصر المصرية والاغريقية احتلالا واسعا سواء في المدايرة أم في الرخرفة أم في طرق الدفن .

وسا يجدر بالملاحظة ان تحيط المولى طل شالما بين المصريين وحتى بين المسيحيين منهم فاهم حتى أواخر القرون الرابع لم يشتهروا بمخالص لمعاليم دياتهم الجديدة

وهكذا يرى لنا أنه جنبا الى جنب التمايرة الجنائزية الاغريقية والمدايرة الجنائزية للمصرية قد ظهرت أيضا المدايرة الجنائزية الرومانية . ويسوقه النظر انه على حين نجد الأثر المصري واضحا جليا في زخرفة المعالين الجنائزيتين الاغريقية والرومانية ، نجد الأثر الاغريقي واضحا جليا كذلك في زخرفة بعض أمثلة المدايرة الجنائزية المصرية .

وقد مر بنا انه كانت للاسكندرية في عصر البطالة مدرسة للنحت الاغريقي ذات سميات خاصة وطرزين احدهما مثالي والآخر واقعي ، وان الاسكندرية اشتهرت فرعاً جديداً من فن النحت كان عبارة عن دراسة اجناس النائم وعلبائهم وحرفهم .

والساد العالم الروماني الجاه قوي ظهر منه تماثيل تحاكي اشكال اصحابها محاكاة دقيقة كأنها من منح آلة تصوير أو ريشة رسام وجد فلانو الاسكندرية في هذا الاتجاه مجسداً واسعاً لآثار مواهبهم واصبت تماثيلهم بطراز مبرس منهم وبطابعها الاغريقي البحت . ويتصل بهذه الصور المصنوعة من الرطام أو الرمرر أو مختلف أنواع الصخور مجسوة رائعة من الصور كشف عنها لآل العصور وكانت تصح بالألوان على لوحات مرسومة بالشمع وتعلق على جدران المنازل في أثناء حياة اصحابها ثم تغطى بها وجوههم بمسح مسامهم . وقد بدأ الناح صمم اللوحات في القرن الأول بعد الميلاد وبلغ ذروته من حيث الشهارة والابداع في القرن الثاني .

وقد تلمع الفنان المصري شاطعه في التماثيل وعلى بدران المعابد ونسب المولى ومختلف البرامى التي كان أسلافه يصنعونها منذ القدم .

وتبين من دراسة فن النحت في العصر الروماني :

ولم يبق من معابد الاسكندرية التي أنشئت في العصر الروماني الا صبور رمزية مصغرة لبعضها على النقود . وإذا اتخذنا هذه الصور مقياساً للحكم على طراز هذه المعابد فإنه يمكن القول بأن طراز أغلب هذه المعابد كان الهيرقليا أو رومانيا على حين كان ضمراز البعض الآخر مصغراً بحت وطرزاً البعض الثالث يطلب عليه الطابع المصري لكنه لا يخلو من بعض العناصر الرومانية .

أما معابد الآلهة المصرية التي اكتملت الرومان أو زخرفوها أو أنشأوها في مختلف القرى والمدن المصرية فإنها اقلعت بدقة تقاليد الفن المصري القديم ولا تظهر فيها أى تأثيرات "جبية". وتشمل ذلك بوضوح في معابد مدينة هابو والقلمنة بالقرب من خبط ودندرة واسنا وكوم اوسبو وفيه ونالمس ودندور وككة والمعركة . وقد سحر الأباطرة على جدران سمعة المعابد في شكل الفرائس وريعم ، اوطاعهم وهم يفسدون القوايين لمختلف آلهة البلاد .

وتبين لنا من كل ما أسلفناه أنه إذا كان يمكن القول بوجه عام أن كلا من العمارة الاغريقية والرومانية ولا سيما المصرية قد اختلفت بطلبها الخاص فإنه مع ذلك قد ظهرت حتى في العمارة الدينية دلائل على نزاج الأفكار والعناصر .

ان دل على شيء فانما يدل على أثر البيئة  
لا على أثر الحضارة .

٣ - ان في الكثير من قطع النحت  
محاولات واضحة وان كانت غير ناجحة لشرح  
انطازيم المصري والاغريقي . وهذه القطع  
أدنى قدرا الى قيمتها الفنية من القطع التي  
طرازها المزيجي بحث أو مصري بحث ، ومع  
ذلك فان بعضها ارقا على مر الأيام . وقد  
كان ذلك نتيجة طبيعية لازدياد الاختلاف بين  
الاغريق والمصريين وازدياد التمازج الاغريقي  
في المصريين . وكان هذا الفن المزيج مرحلة  
الانتقال التي مهدت لقيام الفن القبطي .

١ - ان الفن الاغريقي والمصري أخذوا  
تجسدا رويدا رويدا ولم يصل دون  
المبارهما السريع الا لعمالدهما القديمة ومهارة  
الفنانيين المتوارثة . ولما كان الفن المصري  
القديم يقوم على الديانة ، شأنه في ذلك شأن  
باقي مظاهر الحضارة المصرية القديمة ، فان  
اعتراف الدولة رسميا بالمسيحية أعطى الى  
الفناء عليه قلما مبرما .

١ - ان أكثر النقود التي سكها الرومان  
وكثيرا من قطع النحت التي ابتدعها الفئاتون  
الاغريق اغريقية بحث في طرازها وعناصرها  
وصيغتها ، وان كثيرا من قطع النحت المصرية  
وكل لوحات المعابد المصرية بحث في طرازها  
وعناصرها وصيغتها .

٢ - ان الكثير من النقود وقطع النحت  
تمثلت فيها العناصر دون الطرز مثل تصوير  
اله مصري أو بوابة مهيبة مصري أو نايح  
مصري على تلك السلطة من النقود التي  
تميزت بنقود المديرات ، لهذه عناصر مصرية  
الا ان طراز النقود اغريقي . ومثل صنم  
تماثيل لالهة مصرية بطراز اغريقي أو صنم  
تماثيل لاغريق أو رومان من الميثاق  
أو الجرايت أو غير ذلك من السواد الغريب  
عن الفن الاغريقي . ومثل تصوير الأباطرة  
الرومان بطراز وملابس مصرية . وقد سلك  
القوة ان المقياس الحقيقي في أي فن من  
الفنون هو الطراز باعتباره مظهر تفكير الفنان  
وطابع حضارته . ولذلك فان اختلاط العناصر



# من ديوقنديانوس إلى دخول العرب

للدكتور مراد كامل

## مقدمة

في هذه العصر ، وذلك بسبب فسياد أدلة الحكم واستغلال الحكام ، مما دعا الفصح الذي كان يعيش في هذا الجو الفاسد أن يخطى خطاه ويعتبرهم وأن يتطاع إلى الاستقلال والحرية وحياة أفضل .

وكان دخول العرب فرصة مواتية أحدثت تغييراً كاملاً في السياسة وفي الدين ، ووجهت مصر وجهة جديدة نحو الشرق والاتصال بضموم الشرق ، بعد أن كانت صلاتها العنصرية مقصورة على العرب أو بصارة إلى على الحضارة الاغريقية .

\*\*\*

من ديوقنديانوس إلى هرقل ٢٨٤ - ٦٤٦  
ديوقنديانوس ٢٨٤ - ٣٠٥

تولى ديوقنديانوس الحكم فوجد نفسه أمام مجسدة من اللوائح والقوانين والنظم - التي سجد عليها سياسة الامبراطورية - لا تتسنى وحاجة عصره ، فحاول أن يصلح الموقف بإدخال تغييرات أساسية في سياسة الدولة ، وذلك ليتواءم الإلهيار المتوقع للإمبراطورية وليسع الاستراتيجيات التي كانت تسود الدولة عند موت الامبراطور وتولى خلفته .

في القنطر الثاني من حكم الرومان ، أي من ديوقنديانوس إلى دخول العرب بالترتيب مصر بمسلمين ولبيسطين وهما : المسيحية والسياسة البيزنطية .

وستقدم لهذا العصر بكلمة موجزة عن سياسة الإمبراطرة العامة ، من ديوقنديانوس إلى هرقل ، لم تتجهها بنظام الإدارة في مصر والنظام المالي والجيش والحالة الاقتصادية .

وسنحضر في الفصول الخمسة التي تلي المقدمة الألوان المختلفة لحيات الفصح المصري من سياسية وفنية وفكرية واجتماعية في هذا العصر ، ويوضح لنا من هذا العرض كنهان الفصح المصري للاحتفاظ بشخصيته وكيانه ضد العواكف المنتصب .

ولقد كان للاسكندرية الزعامة الدينية في الشرق المسيحي ، وفي مصر نشأت الرهبنة التي أخذها عنها العالم المسيحي ، وفي مصر ظهر أعظم رجال الفكر المسيحي . وكانت مصر منذ فجر تاريخها المتمدن في التقدم أرضاً خصبة ، بفضل نيلها وطبيعة أهلها الذين اتسموا بالثابرة على العمل والساحة والمسألة . ولم ينس هذا أن يعم اليأس البلاد

أدخل ديوقلديانوس إصلاحات عديدة على النواحي المختلفة في الدولة ، فجعل من الامبراطور شخصية مقدسة عودى لها فروض العبادة بنخض ملئوس دقيقة مرسومة استلها من تقاليد الشرق .

كما ركز في الامبراطور سلطة الحكام المطلقين فاصبح قبض على كل السلطة الادارية . وكن سلطة السانو والفي وقيمة المستشار وجعل كل الولايات خاضعة للامبراطور فلم تعد هناك ولايات خاضعة للمناظر ، كما ألغى الامتيازات الممنوحة للولايات التي كانت من الاصل نظم الامبراطور ، لم ادماج الولايات في وحدات ادارية وركز كل امارات الامبراطورية في ايدي موظفين وادارات عابسة مباشرة للامبراطور ، وفصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية .

وحاول ديوقلديانوس ان يجعل المائتين اللتين كانت توقف عليهما سلامة الامبراطورية ، وهما الدفاع عن البلاد وتنظيم وراثه العرش .

وكان ديوقلديانوس يعتقد ان الدفاع عن حدود امبراطورية مترامية الأطراف لا يمكن ان يتولى امره امبراطور واحد . وقد عساه ذلك على ان يترك ماكسيميان منه في الحكم وذلك في سنة ٢٨٦ وأسند الى ماكسيميان الدفاع عن الغرب واحتفظ لنفسه بالدفاع عن الشرق . اما وراثة العرش فلم يكن لها

نظام متبع ، وكانت المطامع في ارتقاء العرش من المشاكل التي تواجهها الامبراطورية عند موت الامبراطور . وفي سنة ٢٩٣ قرر ديوقلديانوس ان ينولي الحكم امبراطوران في نفس الوقت ، أحدهما للشرق والآخر للغرب ، وجعل كل منهما لقب «أوغسطس» على ان يتبع كل منهما بغيرك يتكون وراثته في العرش ويجعل لقب « قيصر »

من قسطنطين الى يوستنيانوس  
( ٣٢٣ - ٥٢٨ )

فعمرت الدولة رسميا بالمسيحية في عهد قسطنطين الذي هو فاتحة التاريخ البيزنطي . وقد شيد قسطنطين على مدينة بيزنطة القديمة مدينة جديدة استبدت اسمها من اسمه وعرفت بالقسطنطينية ، وأصبحت عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية فأخذت تنمو وتزدهر بغطى سرعة .

وأضفى قسطنطين على اصلاحات ديوقلديانوس الصبغة النهائية ، حتى اصبح للامبراطورية البيزنطية طابعها الخاص ، وانحصرت السلطة الادارية والحكومة في البلاط الامبراطوري ، وكان مركز الدولة ، واصبح الناس يقدمون الامبراطور بمد ان كانوا يقدمون الدولة .

والغنى العرش بعد قسطنطين ما يزيد على العشرين امبراطورا ، اهم ما يعيننا من امرهم مناصرة كثير منهم للحرافقة ومناسيتهم الكنيسة المصرية عداء شديدا بسبب وقوفها في وجه أولئك الحرافقة .

وقد غن يوستيانوس أنه سيميد  
 تأسيس الامبراطورية على أساس سليم .  
 فمما دلى وضع نظام من شأنه أن يجعل  
 الرخاء يسود كما كان في روما أيام محمدنا .  
 وسلك في ذلك طرقا تلخص في أهمياته  
 التشريعية وإلا إصلاحاته الداخلية  
 أهمها التشريعية :

كانت روما في مقدمة البلاد التي منحت  
 بالنسريع بل تعتبر مؤسسة علم القضاة .  
 وعلى أساس هذا العلم أوجدت الدولة نظام  
 الوحيد الذي يلى على سلطة الامبراطور  
 المطلقة .

وقد أدرج يوستيانوس عظم القائدة  
 التي يمكن أن تسود على الامبراطورية إذا  
 جمع مصادر القضاة الروماني الذي كان  
 معمولاً عندئذ ولغرها على نحو يمكن  
 تداوله والرجوع اليه . وقد لخص هذا العمل  
 عدد من أبرز فقهاء الرومان . ومنه ذلك  
 العمل **الذي** هذه المجموعة من القوانين  
 المرجع الذي تعتمد عليه المحاكم ومدارس  
 القضاة في الامبراطورية ، بل أصبحت  
 المصدر الذي استمد منه القضاة المحدثي  
 الحديث .

وقد أطلق على هذه المجموعة من مجموعة  
 قوانين يوستيانوس ٤ . وهي تنقسم إلى  
 أربعة أجزاء .

١ — مدونة يوستيانوس وقد نشرت  
 أولا في عام ٥٢٩ ثم دوجعت ونشرت ثانية

وكانت هذه الفترة مليئة بالفتن  
 والاضطرابات لا استقرار فيها . فتارة يصير  
 الأمر فيها لامبراطور واحد وتارة توزع  
 السلطة بين امبراطورين أحدهما في الشرق  
 والآخر في الغرب . ويرجع عدم الاستقرار إلى  
 أمور مختلفة أهمها : أن القوى الحية  
 لامبراطورية كانت كلها في الشرق . وأن  
 المسيحية تطورت في الشرق بطريقة تختلف  
 عنها في الغرب . وأن هجرات البربر على  
 الغرب كانت أهدأ أثرا منها على الشرق .

امبراطور يوستيانوس ( ٥١٨ - ٥٦٥ )

كان حكم يوستيانوس تطورا طبيعيا  
 وضروريا في تاريخ الامبراطورية . فقد طهى  
 أبخرة القرن الرابع بسلطانهم على الغرب  
 في سبيل سلامة الشرق . ولكن يوستيانوس  
 أخذ بفتح إلى الغرب منذ بداية حكمه ،  
 وسأله مصامحه إلى محاولة استعادة الماضي .  
 واستنفذ جهدا كبيرا ليهت من جديد هذا  
 الجزء المبت من الامبراطورية مما أدى إلى  
 انهالك قوى الجزء المسمى

وكان من جراء فكرته في استعادة مجد  
 الامبراطورية الرومانية ، حروبه العديدة  
 فأصكه أنه يحل من البحر الأبيض المتوسط  
 بحرا رومانيا ولكن سرعان ما اضطرته حروبه  
 في الشرق إلى أن يكف عن الحروب . وأن  
 يقوم بإشياء سلسلة من التحسينات جعلت من  
 الامبراطورية ميدانا معززا .

في عام ٥٣٤ وكانت عبارة عن مجموعة تشريعات الأباطرة التي كانت لا تزال نافذة المفعول .

٢ -- البندكت أو المجمل وقد نشر في عام ٥٣٣ وكان يتضمن منققات مما كتبه أبرز فقهاء القانون الروماني ، ورثت هذه المنققات بحيث تستكمل ما لم يرد في المدونة من أحكام القانون المدني .

٣ -- القوانين وكانت كتابا موجزا وضع خصيصا ليستخدمه طلبة القانون .

٤ -- المراسيم الجديدة التي أصدرها يوستينيانوس بعد سنة ٥٣٤ وعددها ١٦٨ مرسوما .

ومن الملاحظ أن الأجزاء الثلاثة الأولى كتبت باللاتينية وأما الجزء الأخير فكتب باليونانية .

#### اصلاحات الداخلية

التفت يوستينيانوس لتحسين الحياة الداخلية في الإمبراطورية ، فأنفذ عدة وسائل للإصلاح بعد ما شاهد استياء الشعب من الموظفين ومن سياسة الأباطرة مما أدى الي قيام ثورة في القسطنطينية فسنها سنة ٥٣٢ . فأصدر تشريعات لأجل اصلاح الوظائف الحكومية كإلزامها الفاء ان وظائف الزائدة عن الحاجة ، ورفع مرتبات الموظفين واعادة الجمع بين السلطين المدنية والعسكرية ، واتخذ خطوات ايجابية من

شأنها أن تجعل للموظفين بعض الاستقلال في الإدارة مع ربط الإدارات بالسلطة المركزية . وحذ من امتيازات كبار الملوك الذين كانوا خطرا دائما على الطبقة الوسطى ، وعاجها فعلا أن تقدم الدولة ورفاهيتها .

ولكن كل هذه المحاولات الاصلاحية باءت بالفشل ، والسبب في ذلك هو الامبراطور نفسه لانه كان في حاجة ملحة الي المال لمواجهة النفقات الباهظة التي كانت تتطلبها حروبه الكثيرة ومناخه المختلفة ، فآلى على وكلائه أن جمع المال على أية صورة وفرضت ضرائب جديدة ، ثم غير العملة وجعل الموظفين مثقلين بخصمها من جمع الضرائب ، فاتخذوا من جابهم اجراءات تصفية لجمع المال من الشعب ارضياء للامبراطور فكان هو العامل الأول في عدم اصلاحاته .

أما سياسته الدينية فقصده أصدر يوستينيانوس مراسيم منتي ٥٢٨ و٥٢٧ ضد الهرطقة وأصبحت يدفع ثم أمر بالحد من مدرسة ابيا الوثنية سنة ٥٢٩ ، وكان عصره عصر نزاعات مستمرة بين المذاهب المسيحية المختلفة . وعاش الهرطقة باليهن من الاضطهادات بل كان رؤسائهم يسكنون القسطنطينية نفسها . وتشهد سياسته الدينية وكان سبب فشلها على الأكثر سياسة الغرب ، هذه السياسة التي أنهكت قوى الامبراطورية فلم تعد تحتل هيئات العدو

في شرفها ، وهي التي استغلت مالية الدولة وأجبرت الإصلاح الإداري ، وهي التي أضاعت الفرصة على الدولة في النهاية لتوحيد المسيحية في الشرق وهي في أشد الحاجة الى ذلك .

#### الحالة الاقتصادية في بوسنيانوس :

كانت حياة النساك والرهبان الذين يعيشون في صحارى مصر ولسطين داعية لتجميع الامبراطور بوسنيانوس والامبراطورة تيودورا للرهبنة عامة ، فآخذت له الانقياد والنظور ، وكان لهذا اثره في الحياة الاجتماعية ، كان هؤلاء الرهبان يشتمون بصرية ولسعة جفانهم يتدخلون بالتدريج في الحياة السياسية وفي حياة البلاط . واخذ عددهم يزداد ، والاهات عظيم الوفقات والهبات والتبرعات وكانت مغناة من الضرائب في اغلب الأحيان . فظهرت بذلك طبقة جديدة في المجتمع لها امتيازات ولها اثرها في الحياة الاقتصادية .

وهناك خاصية أخرى كان لها اثرها في الحياة الاقتصادية ل عهد بوسنيانوس فقد قام بأعمال انشائية عديدة مثل تهيئة الطرق واتشاء القناطر وتشييد التحصينات والقلاع ومد انابيب المياه وبناء الكنائس والأديرة . وكان المظهر الأول لكل هذه المنشآت يدل على أن الدولة في حالة رخاء ، ولكن مرعان ما اضطرتة المنة المالية — لما استغرقت هذه الأعمال من أموال باهظة — الى وقفها بعد

أن أثقلت الضرائب كاهل الشعب من جديد . أما تجارة الدولة فقد شجع بوسنيانوس بعض المراكز التجارية الأساسية ومنها بعض الامتيازات فزاد من نشاطها . وكانت مشكلة الامبراطورية هي مقتصا بالشرق الأقصى للحصول على منتجات الهند والصين . وكانت التجارة الشرقية تصل الى الامبراطورية اما برا عبر الطريق الشمالي الذي كان يمر بوسط آسيا فبحر قزوين والبحر الأسود ، واما بعرا عن طريق الخليج الفارسي أو عن طريق البحر الأحمر ، ولما كان الفرس ينفلون جانبها كبيرا من التجارة الشرقية فقد حاول بوسنيانوس أن يحول التجارة الشرقية اما الى الطريق الشمالي أو الى طريق البحر الأحمر ، وذلك من ناحية لتهنأدى وسلسلة الفرس ومغالاهم لى فرض الضرائب ، ومن ناحية أخرى ليزيد نصيب الامبراطورية من التجارة الشرقية . ولكن بوسنيانوس فشل في ذلك ولم تتمكن بيزنطة من التخلص من منافسة الفرس الاقتصادية .

هكذا ، بوسنيانوس ( ٤٦٥ - ٤٩١ )

مات بوسنيانوس والدولة في حسنة الفلاس وتسلمه هم البرقي أمراء الشعب . وارواح الجيوش حوته ، ولكن طغصاء لم يجدوا حلا للمشكلة المالية التي ترتبت بها الإدارة الداخلية برياط وثيق . وغامب معارضة قوية ضد سلطة الامبراطور الطاعة . كما نشأ خلاف شديد بين البابا جريجوريوس

وبين بطريك القسطنطينية كل هذا والمدو  
لم يكف لحظة عن مهاجمة حدود  
الامبراطورية .

هوقل ( ٩٩٠ - ٩٤٦ )

كان القرن السابع أكثر مصور التاريخ  
البيزنطى حكمة ، فقد كان عصر أزمة خطيرة  
وضح فيها أن كيان الامبراطورية أصبح في  
مهب الريح .

طرد الروم الى الحضارة البيزنطية في  
القرن السابع فلم يظهر في هذا القرن كتاب  
أو مؤرخون أو قام أحد بعمل المساعي في  
بال . ومع الضعف الناس في هذا القرن  
وانتشرت فيه الفحشاءات .

ولم يكن هذا كله ليدل على سقوط  
الدولة النخالي بل أظهر أن الأزمة متأصلة وأن

على الامبراطورية أن تتأدأها بحاوله تصير  
اتجاهاتها . وكان السبب الأول في هذه  
الأزمة هو محاوله يوستينانوس المناشلة في  
اعادة الروح الرومانية الى الامبراطورية  
وتوحيد الشرق والغرب .

ولم يبق أمام الدولة الا أن تخضع  
للعوامل الجغرافية والجنسية والاقتصادية  
والدينية والادارية ، فظهر اتجاهها تنبرا  
واضحا وأصبحت امبراطورية يونانية شرقية  
بدل أن كانت امبراطورية رومانية . وقسم  
مكنها هذا الوضع من أن تعافى على ما بلوى  
لها بحصد امتلاء الغرب على أهم أقاليمها  
واستيلاء السلاف على شبه جزيرة البلقان ،  
وكتب للامبراطورية البيزنطية البقاء حتى  
القرن الخامس عشر .

## النظام الإدارى والمالى ونظام الجيش والحالة الاقتصادية

### فى مصر ■ المصر البيزنطى

#### النظام الإدارى :

والقضاء وأسندت قيادة الجند الى قائد مستقل . وكانت المقاطعة الأولى لمقاطعة نفط الحاكم العام مباشرة . اما المقاطعات الأخرى فقد كان تولى حكمها رؤساء يقيم كل منهم فى مقاطعة ويخضع للحاكم العام الذى كان بدوره يخضع لـ حاكم أو دون الشرق . وعندما ضمت ليبيا الى مصر منح الحاكم العام لقب مستشارا وقسم قيادة الجيش بين ثلاثة أشخاص .

وقد تمح تنظيم البلاد الى مقاطعات اعاد تنظيم الإدارة المحلية فى أوائل القرن الرابع ، فلم يعد هناك وجود عملى للمديريات فالحا قسمت الى أقاليم أصغر من الوحدات الفعلية فى الإدارة المحلية ، وترتب على ذلك بطبيعة الحال إلغاء منصب المدير أو القائد وكذلك إلغاء منصب الكاتب الملكى . وكان أهم الحكام المحليين مراقب جميع الضرائب (Zecador) ، واليه وانقلت اختصاصات الخائنة فى الشؤون المالية . اما المخصصات القائد المدنية فالحا انتقلت الى حاكم آخر Logistes) كان فى الأسفل سُل السلطة المركزية لكنه أصبح حاكما محليا دائما يتنوع بغزو فى الأقاليم والمند على السواء وأكث

عندها اعلى ديوقلديانوس العرشى كان أول ما اتجه اليه هو فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية وتوحيد النظام الإدارى فى كل أنحاء الامبراطورية . ولذلك أعاد تنظيم مصر فقسمها الى ثلاث مقاطعات هى مصر الجويتية ومصر الهرقلية ونبية . ويشتمل ان هذه المقاطعات كانت تقابل على وجه التفرع تمام الدلسا ومصر الوسطى ومصر العليا الى كانت موجودة فى القصر الأول من المصر الرومانى . وفى عهد السطنتين التالى تكونت فى عام ٣٤١ مقاطعة رابعة ه الاسكندرية من الأقاليم الشرقية فى المقاطعتين الأولى والثانية . ولما عهده ليوديسيوس الأول أصبحت ليبيا الى مصر فأصبحت المقاطعات خمساً . وحوالى أواخر القرن الخامس غير اسم المقاطعتين الأولى والثانية فأسجعتا على التعاقب مصر واركانية .

ولما كان ديوقلديانوس وعقباءه حتى يوحنيانوس يرون ضرورة فصل السطنتين المدنية والعسكرية فقد وضع على رأس السلطة المدنية فى كل أنحاء البلاد حاكم عام كان يمين على شؤون الإدارة والمالية

الضرائب ، وكانت تحدث مرة كل خمسة عشر عاماً . وظلت هذه الطريقة متبعة حتى ألغيت القنصلية في عصر بونتيانوس وأعيد نظام التاريخ بسنوات حكم الامبراطور .

لم يكند بونستيانوس بعثي المرش حتى ادخل تمديد على نظام الإدارة في مصر قضى احدها على اعتبار مصر وحدة إدارية واحدة اذ ان هذا الامبراطور قصر شؤد الحساكم العام على المقاطعة الاولى وسوى بين وبين احكام المقاطعات الاخرى وجعلهم جميعا خاضعين لنوع الفرقي . اما التمدد الاخر فكان الجمع بين المملكتين المدنية والعسكرية واسندهما معا الى احكام المقاطعات لاصبح كل منهم في مقاطعت رئيس الادارة والفرقة والقضاء والمالية ، لكن حاكم المقاطعة الاولى هو الذي كان يجمع في الاسكندرية كل ضرائب مصر نوعا وهذا لم يسطها الى بيزنطة .

وكانت سلطة احكام المقاطعات محدودة فكانوا يلجأوا الى القسطنطينية لتسديهم بالجدد في حالة قيام اضطرابات أو ثورات داخلية . وكان هؤلاء الحكام في اول امرهم بجانب . ولكن رأى الياباخرة فيما بعد أن يختاروهم من بين اليونان المقيمين في مصر . وافر هذا التصرف بونستين الثاني سنة ٥٦٩ . وكان الامبراطور يقر تعيين الحساكم الذي يرشحه الاساقفة وكبار الملاك وعظماء البلاد .

اليه اختصاصات احكام المدينة القديمة فرالوا بالتدريج . وبعد القرن الرابع حل مكان هذا الحاكم (logistes) حاكم آخر (Defensor) . وقد ظلت مجالس الشورى قائمة وألقت عليها المسؤولية كاملة عن الإدارة العامة والإدارة المالية ، وغدت عرفهم المديراب بلديات على النمط الروماني تمنح بهم ذاتي ويدخل في نطاق كل منها منطقة . وكان الهدف من كل هذه التغيرات هو أن تخضع مصر بالتدريج لصادات وقوانين الولايات الأخرى في الامبراطورية بالرغم من اختلاف العوامل الجغرافية . وقد كان من آثار الرغبة في التوحيد والتبسيط أن اختيرت اللغة اللاتينية لغة رسمية حتى في الولايات التي كانت اليونانية لغة رسمية فيها مثل مصر . ولكنه لم يكن لهذا القرار اثر فعال في مصر ، فقد ظلت اليونانية لغة المحاكم والادارات الحكومية ، وكانت القرارات العامة تصدر بها . وربما كان الامر الوحيد لهذا القرار أن الحاضر الرسمية للقضايا أصبحت تصدر في اطار لا يثنى أي أن العنوان والتاريخ وموضوع القضية كانت تكتب باللاتينية ، وقد يكتب الحساكم ملاحظاته باللاتينية ، أما اقوال الطرفين والشهود واحكام القضاة فظلت تكتب باليونانية . . . وكذلك غيرت طريقة تاريخ الوثائق القانونية فاستبدلت بسنوات حكم الامبراطور سنوات الفاصل مع ذكر موقع العام من ثورة هدير



والواقع أن لجيش في مصر في العصر  
البيزنطي كان جيشا حزبيا يتقوده رؤساء غير  
أكفاء، ويتكون من جنود مرتزقة لا يتصفون  
بأية صفة عسكرية. وكان واجبهم هو قمع  
الاضطرابات الداخلية ومساعدة الحكام على  
جمع الضرائب أي أنه عملهم كان قاصرا على  
عمل رجال الشرطة. وقد أصبح للجندى حق  
الزواج واخذ مهنة مدنية أثناء مدة خدمته  
في الجيش.

#### تنظيم المال :

لما كانت بيزنطة - مثل روما -  
تستهدف إزوار ثروة مصر، فإن الضرائب لم  
تتناقص طوال العصر البيزنطي بما كانت عليه  
من قبل بل ازدادت بإطراد فاحت حال الناس  
وأصبح جمع الضرائب مهمة شاقة. ولم  
ينورع للوفود عن استخدام مختلف ضروب  
القوة لجمع الضرائب. ولذلك أخذ الناس  
في الالتجاء إلى الصحرى هربا من المصادمة  
القاسية التي كان يماثل بها كل من تأخر في  
دفع الضريبة، ففقد كانت توقع عليه الغرامات  
والضرائب الإضافية لم تصادر أملاكه ويخرج  
به في السجن ويؤبل لمن حاول المقاومة.

وكانت أكثر الالتزامات تسمع على عائق  
حغار الملاك الذين ازداد عددهم في العصر  
الروماني إلى أن اضطروهم جور الحكومة إلى  
النزول من أراضيهم لبعض جيرانهم الأثرياء  
ذوي الثروة، فأخذت طبقة صغار الملاك  
تختفي تدريجيا خلال القرن الخامس حتى

منذ قرر ديوقليتانيوس فصل السلطين  
المدينة والعسكرة لم يعد الجيش خاضعا  
لحاكم مصر العام فقد استندت قيادة الجند إلى  
قائه مستقل. وعندما ضمت ليبيا إلى مصر  
وبذلك أصبح عدد المقاطعات خمسًا قسب  
لقيادة الجيش بين ثلاثة أشخاص. وعندما  
عبدل يوستنيانوس عن فكرة الفصل بين  
السلطين المدنية والعسكرية لم يؤد ذلك إلى  
توحيد قيادة الجيش في مصر وإنما إلى تقسيمه  
خمس وحدات بمدد المقاطعات وخضوع كل  
وحدة منها لامرة حاكم المقاطعة، وكان حكام  
المقاطعات يخضعون لقائه الفرق الذي كان  
مقره القسطنطينية.

ومرمان ما تعاقبت الإحارل لأن واجبات  
الحاكم المدنية أبدته عن حياة الجيش ونيطا  
أدلت عن مناهضة تطور الفنون البحرية، ولم  
يرد مصر رجال الجيش على ثلاثين ألف جندى  
وزعوا على المراكز البحرية المختلفة على  
الحدود وفي الداخل لم في المبدن الكبرى.  
وكان الوجه البحري محصنا نحصينا قويا في  
الروايا الثلاث للدلتا، في القسما شرقا  
والاسكندرية غربا ولي بايلون « مصر  
القدية » حيث كانت بها عاصمة كبيرة منذ  
فتح الروماني.

وفي الوجه القبلى أنشئت على طول  
لترادى مراكز بحرية في المواقع الهامة مثل  
نقط، وأسيوان.

لم يعد لها وجود في بداية القرن السادس . ولم ينافس هؤلاء السادة إلا الأديرة التي اتخذت تصيف باستمرار أملاكاً جديدة إلى ممتلكاتها ، وأصبحت أقاليم كاملة تخضع لسلطان الأديرة التي تمتعت بأعداد مملوكة من الغنم ، وازدادت تدريجياً انضياغ الواسعة ، فأصبح معظم أراضي الأملاك الخاصة وجانب كبير من أراضي الدولة في قبضة فئة صغيرة من كبار ملاك الأراضي .

### الحالة الاقتصادية :

كان قوام ثروة مصر حاصلاتها الزراعية ومنها الحبوب والكتوم والزيتون والنخيل والمواشي ، وكان الجزء الأكبر من هذه العائدات يدفع لتسديد الضرائب ويصدر الفائض في الحاجة إلى خارج البلاد وعرفت مصر منذ العصر الروماني بصناعاتها الخزفية والحاجبية والزجاجية وبخاصة المنسوجات .

كما عرفت مصر بصناعة أواني البرق التي ظلت تجارتها مزدهرة حتى القرن السابع الميلادي ، وازدهرت مصر بتصنيع الذهب وبعض الأحجار الكريمة والمرمر والبازلت والجرايت وغيرها . ولم يلتفت الحكام البيزنطيون إلى امتثال المناجم في مصر ولكنهم اكتفوا باستخراج المرمر والبازلت والجرايت تصديره .

وكان لصحاب كل حرفة في مصر نقابة ، تخضع لموظف مسئول عليه مراقبة

الأسعار وتحويل الضرائب . وكانت هناك أسواق كبيرة سنوية ، وأسواق أسبوعية في القرى لبيع المحصولات والمنسوجات .

وكانت مصر من الناحية التجارية هي الطريق الذي يتوسط القرن الأفريقي والغرب ، وكانت السفن تأتي من الصين والهند مارة بباب المصب ، وحسلة بالأطوايه والأخشاب والحرير والأكوام الخزفية ، تتحضر في البحر الأحمر ثم ترسو في الموانئ البريطانية التي ورثها يزلطة عن البطالة . وكانت أكثر البضائع تخرج في منطقة القصير ، ومن ثم تحملها القوافل إلى قسط ، ومنها تنس في مراكب تقطع المسافة بين قسط والاسكندرية في اثني عشر يوماً . وكانت البضائع الخزفية تصدر في هذا الطريق لخدمة من عدول ميناء مملكة أكسوم الأثيوبية . وتتضمن الممرات من بلاد الحبشة ، والماج من اثيوبيا ، والأبنوس من أواسط أفريقيا ، والذهب من المنطقة التي أطلق عليها الرحالة كورناس اسم سامو . ومنذ القرن السادس الميلادي فسر التجار أن يسلطوا طريقاً آخر ، لأن الطريق القديم أصبح غير مأمون بسبب هجمات الحبشة . فكانت البضائع تحمل في البحر الأحمر حتى القلزم (السويس) ثم تنج عبر في القناة التي كانت تصل السويس ببابلون (تسمي الآن الآن ترعة ناسعالية) . وكانت البضائع تحمل من بابلون إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط .

عن طريق النيل . وفي القرن السابع أصبحت قناة بايلون غير صالحة للملاحة . وكانت حاصلات بلاد ما بين النهرين وفلسطين تحملها القوافل في طريق يصل الى بزة عنترا ، وهذا هو الطريق الذي تسميه القراصة « طريق حورس » وكانت القوافل تمر بحفنة قريبة من القطر الحانية لتصل الى بليس فأود ( هليوبوليس ) ومنها الى الاسكندرية . وكانت البضائع تملأ اما على المراكب في فروع الدلتا ، واما في قوافل من جنات وحيد ، ولم تستخدم الغبل لانها كانت مخصصة للجيش منذ العصر الروماني . كانت التجارة في العصر الروماني مزدهرة في مصر ، ولكنها أخذت تمثر في العصر البيزنطي . فمواني البحر الأحمر ما فتئت تهيئها تضاماً ، حتى لم يبق على البحر الا ميناء القلزم ، وذلك بسبب منافسة القوس انشيدته التي أضحت الى نهر النيل بجانب كبر من التجارة الشرقية الى الخليج الفارسي . وقد حدا ذلك بالامبراطور يوستيانوس الى الصل على التخلص من وسيطة القوس في التجارة الشرقية واعادة انشطار التجاري في البحر الأحمر الى سابق عهده ، لكنه لم يصب في ذلك نجاحاً مدكوراً .

وفي عصر يوستينيانوس قام كهرماس النجر الاسكندري برحلة في البحر الأحمر والخليج الفارسي ، وزار اثيوبيا والساحل الشرقي لافريقيا حتى وصل زنجبار ، ثم عاد المراكب في فروع الدلتا ، واما في قوافل من

عكف عند منتصف القرن السادس على كتابة ملاحظاته القيسية في كتابه المسمى « الطبوغرافية المسيحية » . وكانت مصر معط انظار رجال الفكر في العالم فتوافدوا اليها لزيارة آثارها ، وللمساهدة الجيلة الديرة المصرية ، ولتقني العلم في مدارسها الشهيرة في ذلك العصر . فذكر منهم اميوس القرطبي ، وجريجوريوس النريزي ، وصديقه باسيليوس ، واوجينيوس ، والقسطنطين هيروليموس ( جيروم ) ، وبولس الأودوسي ، وبطرس الايبيري ، وبلاطوس ، ووفينيوس ، وكاسيولوس .

وقد شاهد هؤلاء الرجال مصر ووصفوها — كما رواها اليوم — بقولها النثرة في الدلتا بحورها القواب وفروع النيل ، كما شاهدوا الوجه القبلي وقد حدث الصحراء من منطقتة المزروعة . وكانت القرى — كما كانت عليه في العصر الفرعوني — لم تتحلق اليها الحصاره الانقرية . وكانت مصر تمتع بالاديرة التي تضم بين جدرانها مخاب من الرهبان .

وقد ندهوت الحال في مصر وحاول الأباطرة عبث اعاشها بنس الطري الادارية فكانت الحكام على بجانب كبر من الضعف ولا هم لهم الا جمع الضرائب وارضاء الموظفين . وعم اليؤس الصلايين فاضفروا منذ القرن السادس اذ يلتجئوا الى كبار الملاك لمانهم فاضاعوا ملاكهم وحرينهم ، وكان في ذلك قضاء على الملكية الصغيرة التي هي كيسان

أبناء الشعب الناجين ظهر ليقبض البلاد من  
رائي الاستعمار الأجنبي ، أو أن يجد من  
مناشطهم الهدام ، أو يطالب بأحقية في الحكم .  
وكان البرلررك — وقد سلمه الشعب  
قيادته --- ينعى مركزه الديني وكرامته  
ووطنيته من الخضوع لأوامر الإمبراطرة ولكنه  
كان مضطرا لمساندتها .

وكان من أهم أسباب انهيار الاسبراطورية  
مقاومة الشعب المستمرة في تأدية الضرائب  
المطلوبة ، فكان ينهب من دهمها ، ويترك  
'راسبه' ، وصناعاته ، ويفصل أن يجب على  
نفسه الخراب على أن يدفع الضرائب . وكانت  
الحكومة الفظة التي بلا لها من جامعي الضرائب  
تضطره الى دخول الديور 'والانصواء تحت  
حيابة كبار الملاك .

ولعل هذا حركة العودة الخفية ، وزاد  
الطين بلة أن رجال الدين والرهبايات القلوا  
كاهل الميزانية فضلا عن أنهم كانوا لا يدفعون  
شيئا للدولة .

وكان لسطط الشعب ونجوراته وعدم  
استتباب الأمن في الأقاليم ، والاضطرابات  
في العاصمة ، والاضطهادات ضد الوثنيين  
واليهود ، أثرها الفعال في التفتت على  
التجارة والصناعة ، وذلك بالرغم من طبيعة  
الشعب في حب العمل .

كانت — الأحوال كلها باعنا للمصريين  
على التحريب بالحرب ، يحدوهم الأمل في  
أن يتمتعوا بحياة فيها رخاء وطمأنينة .

التضاد الدولة المنظمة وقوام حياتها  
الاجتماعية . وازداد عدد كبار الملاك ، بالرغم  
من محاولات الإمبراطرة المتعددة في منح هذا  
الازدياد والحد من تغلم سلطنتهم ، وتكونت  
الانقطاعيات مما كان له أكبر الأثر في تدهور  
أحوال البلاد .



كان اهالك الشعب بالخرائب مصدرا من  
مصادر شقائه ، كما قامى من مفلاء المواطنين  
البرلطين المشرة في ارحافه ليكنولوا لهم  
ثروة خاصة على حسابها . وكانت مصر في نظر  
الإمبراطرة خطلا كبيرا ينتج العيوب فاستغلوها  
كما لو كانت موردها لا تنتهى ، واستغلوا  
أهلها كما لو كانوا منجما من ذهب لا ينضب  
معيته . ولم يهتم أمر رخاء وادى النيل كما  
لم يهتم أمر الأمن في الأرياف ولا الصناعة  
والنخط والجورج الذي كان يجسدهم بين  
وقت وآخر .

وقد جر البرلطين على مصر الخراب  
بسياستهم وبصرف موقوفهم .

وكان يوستينايوس أول من أصدر  
مرسوما ( المرسوم الثالث عشر ) يشكو فيه  
من الرمسالي التي ينفذها الموظفون ومن  
اهالكهم في ترويم المنشآت العامة . وحاول  
أن يعالج الشقاء بصرف مقدار كبير من الصبح  
لفقره الاسكندرية ، وكان لم يصرف لهم أى  
شيء منذ أيام ديوقليانوس .

ولم نسح طوال الحكم البرلطي أن أحد

## الفصل الأول

### الحياة السياسية

مرفس الرسول بعد أن جرّه بالحبال في  
شوارع المدينة حتى مزقوا لحمه .

وكان النزاع في أولى صوره لاما بين  
دينين : المسيحية والوثنية . ولكن ما أن فت  
المسيحية في مصر حتى أصبحت تمثل الشعب  
المصري كله تعريبا ، وظل الحكم الرومان  
يشلون الديانة الوثنية ، وظهر عندئذ بطروح  
أن هذا النزاع كان له نفس الوالت صراعا بين  
شعب وحاكيمه ، أو بين أبناء وطن  
ومستعمره ، وهكذا تركز الشعور القومي  
وتوجد . ولخصه أنباط مصر يتسككون  
بقوميتهم كراهة في كل ما هو أجنبي عنهم ،  
فكان من نتائج ذلك فيما بعد ظهور الحركة  
الوادية القبطية الطالعة التي قادها الإمبراطور  
سنبوختة الثانية الفقة القبطية المصرية من الألفاظ  
اليونانية الخفية ، ورفض أديسات اليونان  
وثقافتهم .

وقد بدأ هذا الصراع بين مصر المسيحية  
وحكامها الرومان منذ القرن الأول الميلادي  
ولم ينته إلا بدخول العرب . وصار أباطرة  
الرومان أعداء سياسيين للشعب المصري ،  
كما كانوا له في نفس الوقت أعداء دينيين

دخلت المسيحية مصر في منتصف القرن  
الأول الميلادي ، في وقت كانت تحبسه أفكار  
الناس حائرة مضطربة بين عشرات المبودات  
التي قدمتها لهم الديانات المصرية واليونانية  
والرومانية بالإضافة إلى الديانة اليهودية  
وبعض الديانات الشرقية الأخرى . ولستطعت  
المسيحية أن تتغلغل في دوح المصري بقدر ما  
كان مستعدا لقبولها بما ورثه من مميزات  
ذلك في ديانته المصرية .

وقد انتشرت المسيحية في مصر انتشارا  
سرعا ، وانتشرت في النحر حتى قطت لها ليا  
على الوثنية وانتشرت على اليهودية حتى لم  
يثن من اليهود سوى طائفة ضئيلة  
أهمية لها .

ولم يتم هذا الانتشار بسهولة ، وإنما لم  
بعد صراع جبار كان له ميدانان : أولهما  
اليدان اشكرى وقد قام بالدور الهام فيه  
مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وعلماء  
المسيحيين وفلاسفتهم ، أما الميدان الآخر  
فكان ساحة الاستعداد ، وقد بدأ عليها  
مجموع الوثنيين منذ ٦٨ م على كنيسة  
أقباط شرقي الاسكندرية وتكلمهم القديس

الأباطرة وولايتهم المزمع أمام شعب شجاع متمسك بدينه ، لا تشبه الانتراوات وطرق الاستمالة المتنوعة ، فاستخفوا منه كافة ألوان التعذيب الوحشية من حرق وجلد وصلب وسلخ ونثر ورجم وتحطيم أعضاء وتجهيم أنفاد وبسرب بالميف والقضاء إلى الوحوش المفترسة وسجن ولجوها مسيما لا يدخل تحت حصر من صنوف القسوة .

ومع ذلك لم نجد كل هذه الوسائل في اصنافهم « بل كان الناس يأثرون من تلقاء أنفسهم إلى الولاء مجاهدين مسيحيين ، حتى أن الألبا الطوليوس الراهب الناسك المتوحد ترك وحدته وبنى إلى الاسكندرية وهو شيخ في حوالي السبعين من عمره لينال شرف الاستشفاد . وتطور الأمر بالولاء والأباطرة ، فبعد أن كانوا يمددون إلى قتل الأفراد أخذوا يبيعون فرى وسيدا بأسرها وصار عدد القبياء يقدّر بمئات الآلاف .

وأشهر الاضطهادات التي مرت بالمسيحية في مصر اضطهادت ثمرجان سنة ٤٨٨ م ، ومبتيسس سبروس سنة ٤٩٣ م ، وديوكليس Decius سنة ٢٥٩ م ، وغليريان سنة ٢٥٩ م . ولكن أعنفها جميعا كانت المذابح التي أولها ديولفديانوس بالمصريين وكانه قد جسد في هدفه أن يقتسم أقباء . ولذلك فإن الكنيسة القبطية تجعل بدء عوسمان سنة ٣٨٩ م وهي السنة التي تولى فيها هذا الامبراطور حكم الامبراطورية الرومانية . رسمى هذا التقويم بتقويم الشهداء .

طوال العصر الروماني . واستحكم الصداه حتى كان الأباطرة المسيحيون أنفسهم يميلون إلى المذهب المخالف لمذهب مسيحي مصر « وكما اضلعت مصر على يد أباطرة الرومان الوثنيين اضلعاها عنيقا ، كذلك اضطهدت بنفس المذهب من أباطرة الرومان المسيحيين . ولا يستثنى من ذلك إلا عدد ضئيل جدا من هؤلاء الأباطرة كانت فترات حكمهم بمثابة هدنة سرعان ما انتهى لتتألف مصر صراخا مع الحكم الروماني من جديد .

ولكن تصح لنا حقائق هذا النزاع يمكن أن نقسمه إلى ثلاث فترات مميزة وهي :

- أ - فترة الصراع مع أباطرة الرومان الوثنيين إلى سنة ٣١٣ م
- ب - فترة الصراع مع مسيح الأباطرة القصارى للمراخنة من سنة ٣١٣ إلى سنة ٤٥١ م
- ج - فترة الصراع مع مسيح الأباطرة القصارى لثابا ووجه من سنة ٤٥١ م - سنة ٦٥١ م

#### ١ - الصراع مع الأباطرة الوثنيين

كان الأباطرة الوثنيون ينظرون إلى المسيحيين عامة كمصدر خطر عليهم « لماضطهدوهم أينما وجدوا . ولكن الاضطهادات التي حلت بمسيحي مصر كانت أشنع قسوة وأكثر عددا لما اتصف « الأقباط من الصلابة والثبات على إيمانهم . وقد شمر

وقد قتل في حركات الاضطهاد هذه بعض بطاركة الكنيسة القبطية وعسدد واقر من شاققتها ورهبانها وعلمائها ، وتطلعت مدرسة اليريداسكاليه اللاهوتية في الاسكندرية مدة من الزمن . وأحرقت الكنائس والكتيب المقدسه ، وقامت البرقات بالدماء ، وصح ذلك صيد المصريون صغودا غنيبا عجبيا ولم يرخصوا للإباطرة الرومانيين ، بل كان هذه المؤمنين ينمو بطراد ، وكثيرون كانوا ينضمون الى المسيحية متأثرين بشجاعة المبشرين واستماتهم بالموت في مسيل هيدتهم .

ولما وجد الإباطرة أن كل هذه الاضطهادات لم تأت بنتيجة سوى زيادة قوة الكنيسة ، وأن المسيحيين قد سرت لهم موجة طافية من « شجرة الاستشهاد » حتى كانوا يثيرون الولاء بتوبيخهم على وثنيهم ولعن أصنامهم لكي ينالوا أكليد الشهادة على أيديهم ، فقول لما لمس الإباطرة ذلك بنسوا أخيرا واضطروا الى وقف هذه المذابح البثرية لعدم جدواها ، ولأنها خلقت عوامل خراب في أجزاء الامبراطورية وأدت الى تعطيل مصادر الايراد من زراعة وصناعة وتدهور الحالة الاقتصادية واقتشار المجاعات والأوبئة .

والكنيسة القبطية نطقت لقب حاتم الشهادة على بغريركها الأنبا بطرس الأول ، وكان السابع عشر في عداد البطاركة ، ليس لأنه آخر شهيد مسيحي ، والسالين قتله كان

خاتما لحركات المذابح العامة التي لمستشهد فيها آلافه المسيحيين ، ولأنه أيضا كان آخر من استشهد من بطاركة الاسكندرية . ولما نبض على هذا البطريك وطرح في السجن اتلف الشعب القبطي حول السجن لينسج الجنود من اخراجه ليقتل . ولكن البطريك خالف علي نصبه من أن يعمل فيه الجنود سيولهم من أجل حماية شخصه فيعلم نفسه سرا للجنود بأن طلب من القائله أن ينقب جدار السجن من جهة لا يحيط بها المسيحيون فتم ذلك وسلم رأسه للجنود فطموه ، وكان ذلك سنة ٣٩١ م . ولم يعلم الشعب المعاصر للسجن بقتل البطريك إلا بعد انصراف الجنود .

في كل ذلك ضرب الشعب المصري وبطاركة أروع المثل في الاستشهاد . وكان البطاركة وأساقفة المدرسة اللاهوتية يصدرن الرسائل والكتيب حثا للناس على الاستشهاد وثيبتا لهم في دينهم . وكان أفراد الشعب يسمعون بعضهم بعضا في مساحات الاستشهاد ، ويزورون القبوض عليهم في السجون ، ويشفون الى جوارهم أثناء المحاكمات ، ويحصلون أجسادهم ليدفونها ، كمثل ذلك في نهر لحوف أو ترود . وكان الشهداء أنفسهم يقابلون الموت في فرح . وكان الكثيرون منهم يترنمون في بحجة خلال أقامتهم في السجون أو أثناء سيرهم في الطريق الى ساحة الاستشهاد .

وأخيراً أوقف الأباطرة هذه المذابح ، ولم  
يلتزموا أن اعترفوا بالأمر الواقع وأباحوا  
للمسيحيين حق ممارسة عبادتهم دون التعرض  
لهم . وقد قرر ذلك الامبراطور قسطنطين  
وهو الذي اعتنق المسيحية ، وفتح بابها أمام  
باقي الإمبراطورية ، وهكذا انتهى على يديه عصر  
اضطهاد الوثنية المسيحية ، ولم يبق من  
الوثنية في مصر سوى غلة ضئيلة ثابتة بمرور  
الزمن .

ب - الصراع مع الأباطرة المنسحقين للمسيحية  
هذه الفترة من تاريخ مصر هي فترة  
ظلام ومجد ، وجه فيها المصريون دفقة الفكر  
المسيحي وقادوا مسيحيي الممالك في المعرفة  
اللاهوتية ، وليس أدل على ذلك من أن قانون  
الإيمان المسيحي الذي اعترف به كنس  
الكنائس المسيحية هو من وضع مسيحيين وصياغة  
أساقوس الاسكندرية .

وفي خلال هذه الفترة وفد بطريرك  
الاسكندرية حلفاء على الإمبراطور القوي ،  
فقاوموا البرطقات وهي انحرافات المسيحية  
على الإيمان أو البدع الخارجة على الدين ،  
وحرموا الهرطقة من عضوية الكنيسة بعد أن  
أظهروا لهم وللعالم عباد معتقديهم .

واشتهر اسم الاسكندرية في العالم كله ،  
واعترفت بها النجاص العالمية ( المسكونية )  
كنيسة من الكنائس الأربع الكبرى وهي  
كنائس روم والاسكندرية والقسطنطينية  
وورشليم . وإذا كانت لروم أهميتها

السياسية كعاصمة للإمبراطورية الغربية فإن  
الاسكندرية كانت أولى كنائس العالم في  
التعليم المسيحي وفهم الدين وشرح قواعده .  
وليس أدل على قوة الاسكندرية من أن  
بطاركتها حرموا ثلاثة من بطاركة الأديانة  
المطرية القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية  
الشرقية بعد أن ألقوا عليهم أنهم مبتدعون  
في الدين وهرطقة ، وهؤلاء البطاركة الذين  
حرموا هم : مقدونيوس الذي حصره  
بيزانتوس ، وسطور اندى حرمه كيرلس ،  
وغلابيانوس الذي حصره ديسفودس ،  
وواعث المجامع على هذه المحرمات ، وسدني  
عليها الأباطرة ، كما حرموا من قبل أريوس  
في مجمع نيقية ، وكان لهم في المجامع  
المسكونية مركزهم البارز فكانوا إما  
رؤساء وإما العصر القوي الموجه لها .

وقد اشتهر بطريرك الاسكندرية  
بشجاعتهم وثباتهم الوطيد على الإيمان .  
فبينما عصفت الأريوسية بكثير من أساقفة  
العالم الاثني عشر حين غاصرها الأباطرة بقوتهم ،  
وبينا وضع لها بعض الأساقفة تحت ضغط  
التدمير عن ضعف لا عن اقتناع ، رأى أن  
أساقفة الاسكندرية لم يبلغوا قيد أنملة عن  
الإيمان المستقيم متحايين النفي والزلزل  
والوفاة شتى من الاضطهاد ووفوا في وجه  
الأباطرة وقعات مجيدة مشرفة . ولولاهم  
لصار العالم كله أريوسياً فاسد العقيدة .

وهذه المقاومة التي قاوت بها مصر



السيف لتحقيق أغراضه وأنه البطارقة  
المتخيلاء لا يشتغلون **✠** شيء عن الجنود  
الرومان المخبرين المحتلين لبلادهم . لذلك  
كانوا يرفضون أن يعاملهم كبطارقة ، وقد  
أقدموا فعلا في إحدى الثورات على قتل  
أحدهم وهو جرجيوس الكبادوكي .

مرحلة أريوس :

ظهرت هرطقة أريوس في عهد الإمبراطور  
خاتم الشهداء ، أي في زمن ديقلقليانوس  
الرومي المظهد . وقد حرم أريوس من الألبا  
بطرس ثم استشهد بطرس دون أنه ينفو عنه ،  
ولكن هذه المرحلة لم تمل قوة ولا انتشارا  
في أيام الاستعداد لانشغال الناس عنها بما  
هم فيه من الوالد العذاب البهيم . فلما  
استراحت المسيحية من الاضطهاد الرومي  
انتقلت الى هذه المرحلة وعملت على حطها .  
فتجدد حرم أريوس مرة أخرى على يد الألبا  
الكسندروس البطريرك التاسع عشر من  
بطارقة الاسكندرية . ولكن أريوس استمر  
على عتاده ولم يتخل عن هرطقته . والنجم اليه  
كثيرون من مصر وغيرها من البلاد المسيحية  
سبا أدى الى عقد مجمع ليقة الكونى في  
سنة ٣٢٥ م بأمر الامبراطور قسطنطين  
لمحاكمة أريوس وأتباعه فواعد الإيمان .

وؤد ضم هذا المجمع ٣١٨ أسقفا من  
أساقفة العالم المسيحى ، كان من أبرزهم  
الإبى الكسندروس بطريرك الاسكندرية  
وشمامه ثناسيوس الذى لم يكن يتجاوز  
التاسعة والعشرين من عمره .

الإباطرة والولاة الرومان ، لم تكن مجرد  
حركات فردية من البطارقة ، وانما كانت  
حركات شعبية شاملة يقوم فيها  
البطارقة بدور الزعامة ، كما كانت أحيانا  
حركات شعبية محضة بغضه عن تأثير  
البطارقة أو غيرهم . كان الشعب المصرى  
حرصا أشد الحرص على إيمانه ، يرفض  
تدخل الرومان في معتقده . من أجل هذا  
استطاع أن يرغم الإباطرة أحيانا على  
الامتناع له ، كما استطاع أن يحتسب  
اضطهادهم في صبر ورحمة . وليس أدنى  
ذلك من أنه في حالة غي البطريرك أو عزله  
أو سجنه ، كان الشعب بأمره — بدون  
بطريرك — يقوم بثورات عنيفة استطاعت  
ل كثير من الأحيان أن ترغم الإباطرة على  
سحب أولمهم والامتناع بقوة الشعب .

ومن المظاهر الواضحة في هذه الفترة  
أن الإباطرة كانوا كثيرا ما يملأون البطريرك  
المصرى ، ويمينون بطريركا آخر في مكانه  
( كبادوكيا مثلا ) إيمانه مخالفه لأيمان  
الشعب المصرى ، تحية قوة مسلطة يستطيع  
بها أن يدخل الاسكندرية بقوة ، وأن يملأ  
في الكنائس آمنا من أن يطرده منها الشعب ،  
ثم يبدؤ هذا البطريرك الدخيل في اضطهاد  
المصرين وقتل الكثيرين منهم لينبأ منصب  
البطريرك المنفى . كل ذلك كان ولا شك  
بدفع بالصرخ الى الشعوب بقوميتهم المصرية  
وبأن الرومان عنصر أجنبي مستمر يستخدم

## أثناسيوس وجهاده :

حياة الأنبيا أثناسيوس سلسلة من الجهاد واللام في سبيل الدفاع عن الأيمان المسيحي . وذلك لأن هرطقة أريوس لم تنته بقرارات مجمع نيقية . فقد بذل أريوس جهده حتى ضم إليه بعضا من الأساقفة ، وتظاهر بالتوبة واقتنع الامبراطور قسطنطين بذلك فطلب من الأنبيا أثناسيوس أن يقبض 'أريوس' ، ولكنه رفض طلب الامبراطور . وهكذا بدأت أول حلقة من حلقات صراع مصر ضد أباطرة الرومان المسيحيين .

وقد احتل أثناسيوس في سبيل ذلك الذي عن كرسية عيسى مرات في عسود كل من قسطنطين وقسطنطيوس ويوليانيوس وفالسي . ووقت أمام كل هؤلاء الإبطرة كالصخرة الصلبة لا يلين . ولو لم يقف هذا فلوقف العازم لصار العالم كله أريوسيا . فلم يكن أثناسيوس رهيما شعبيا في مصر فعصب عليه المصريون عن حب وثقة ويخضعون له بل كان فوق ذلك مثالا للأيمان السليم في العالم المسيحي كله ، نظر إليه كل الكنائس كحلما الأول .

وفي هذا الصراع الذي اجتازه أثناسيوس ضد أباطرة الرومان كان الفصح المزمري كله يؤيده . وقد حدثت الحوادث على أن القيصر لم يكن عملا فرديا من جانب البطريك وانما كان عملا جماعيا صادرا من الأمة كلها . فلما رفض البطريك قيسبول أريوس أمر قسطنطين بنفيه عن كرسية ، وأدى ذلك إلى

ولد أثناسيوس في الاسكندرية سنة ٢٩٩ م من أبوين وثنيين . وجمع بين الثقافة الوثنية بحكم مولده ودراساته الأولى ، والثقافة المسيحية بحكم دراسته في مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وأضاف إليها ثقافة مسيحية روحية ، إذ أنه تلقى ثلاث سنوات في البرية على القديس الأنبا أفطوليوس وقد اختاره الأنبا الكسندروس البطريك لتبنيها له وورسه شماسا واصطحبه في سنة ٣٢٥ م إلى مجمع نيقية .

وفي مجمع نيقية بدأت شهرة أثناسيوس العالمية . واستطاع هذا الشماس الشاب أن يقف معلما للأيمان وسط ٣١٨ أسقفا يمثلون جميع كنائس العالم . وتمكن من تصدي آراء أريوس في براعة واقتناع وتولي بنفسه سياسة قانون الايمان مدققا في اختيار عباراته كلمة كلمة . وأخذ مجمع نيقية بأقوال أثناسيوس ، وحرم أريوس وحزبه من عضوية الكنيسة ، وأقر الامبراطور هذا الحكم . وأفضى المجمع بعد أن نظر في أمور أخرى كانت معروضة عليه ، وأصدر عشرين قانونا كنسيا .

وبعد الزعامة الفكرية وقعت من شأن أثناسيوس في العالم المسيحي ، ولمحنته لأن يخلط الأنبيا الكسندروس ويصير بطريكا للاسكندرية سنة ٣٣٦ م ، غير أنها أثبت عليه حسد ومؤامرات الأريوسيين ، وخاصة من كانوا من حاشية الامبراطور ، مما جعل

قيام ثورة شامية في مصر بقيادة غيلومينوس  
وانهم اتناسيوس بأنه كان السبب فيها .

وبعد موت قسطنطين خلفه قسطنطيوس  
في حكم الشرق ، وكان أريوسيا . فعين  
بطريركا أريوسيا على الكرسي الاسكندري  
بدلا من اتناسيوس وابنه جريجورى . ولما  
لم يسمح له الشعب بدخول الاسكندرية ،  
روحه الامبراطور بقوة عسكرية استطاع بها  
دخول المدينة واستمرت هذه القوة معه  
لحمايته خوفا عليه من حركات الشعب .

فتمثلت كنيسة الاسكندرية مجمعا ضده من  
الأساقفة المصريين ، لتدخل سيربانوس قائد  
الحامية . . وكان أريوسيا . . وعزل على  
نصي المجسم شوهدا بتدمير المدينة كلها .

جهنم الشعب اتناسيوس وهرب الى رومه ،  
فارتجت المدينة لهذا البطل المصري دى المظهر  
البسيط الفقير . وانقد مجمع لى رومه اقر  
براءة اتناسيوس واجوب رجوسه الى  
كرسيه . كما القد مجمع آخر في سرديكيا  
سنة ٣٤٣ م من مائتي أسقف حكم بشرعية  
رئاسة اتناسيوس لكرسي الاسكندرية .

وكتب قسطنطين امبراطور الغرب الى اخيه  
قسطنطيوس ، امبراطور الشرق ، ليطالب منه  
ارجاع اتناسيوس . وقصد كان هدف  
اتناسيوس هو توحيد العالم المسيحي ضد  
الاريرية بعد ان عاصدها الامبراطور ،  
واستطاع بقوته وتأييده ان ينال تأييد العالم  
السبيعي . أما في مصر فكان الشعب في

اضطرابات مستمرة طيلة مدة غيابه عنهم ،  
حتى أنهم طردوا من الأديرة جميع الذين  
اعتنقوا المذهب الارويوس وحطوا كنيسة  
الاسكندرية التي كان الاروميون قد  
اسنولوا عليها . وخاف الامبراطور من  
اندلاع حرب بينه وبين أخيه فكتب الي  
اتناسيوس سنة ٣٥٦ ثلاث رسائل متتالية  
يطلب اليه لى احترام ولياقة ان يرجع الى  
كرسيه . فرجع الانبا اتناسيوس الى مصر  
واستقبله الشعب استقبالا عظيما لم يحظ  
بمثله الا بطريركة .

ولما كان الامبراطور لم يرجع اتناسيوس  
الا بدافع الخوف ، فانه ما كاد يتوفى أخوه  
قسطنطين حتى عاد الى اضطهاد اتناسيوس  
وأمر بطرده من مصر . وعطل اتناسيوس  
هذا الأمر هاما كاملا دون ان ينفذه حتى تقدم  
القاله سريانوس على رأس قوة كبيرة بأمر  
الامبراطور والتهم الكنيسة التي كان يصلي  
فيها اتناسيوس . وعزلها القه الشعب  
المصري حول زعيمه وراعيه . حصل الجند  
سيوفهم في الشعب . أما الانبا اتناسيوس فقد  
حمله بعض الرهبان وخرجوا به من الكنيسة ،  
وفتح الشعب أبواب بيوتهم لاختافته . وأرسل  
الامبراطور رساله الى مصر يحلفون الأوامر  
بضرورة حضار اتناسيوس حيا أو ميتا ،  
لكنهم لم يستطيعوا العثور عليه .

وعقد امبراطور مجمعا في ميلان سنة  
٣٥٥ م ضد الانبا اتناسيوس ، وكانت غالبية

مرة أخرى . غرضي النسب القبطي تنفيذ الأمر ولو أدى الى استشهادهم جميعا . وقامت ثورة عنيفة في مصر واضطر الامبراطور الى الاذعان لرغبات النسب .

وقضى اثناسيوس السنوات المصعب الباقية من حياته في سلام حتى توفي سنة ٣٨٨ م بعد أن احتل الكثير من اضطهاد الأباطرة ومناصرتهم للإريوسية ، دون أن يخطئ أو يلبس في سبيل المحافظة على الإيمان المسيحي في المصالح كله وصونه من الانحراف . ولـ خلال هذه الاضطهادات التي زلزلت به اختبا في مقارنات الرهبان في الجبال وفي أديرتهم في الصحراء وفي بيوت المؤمنين في الاسكندرية ومرة في قبر أبيه ومرة أخرى في بحر جافة . وكان خلال فترات اختفائه يواصل باستمرار نقد كتب كثيرا من المقالات اللاهوتية للروم على المراتقة والدفاع عن موقفه وعن مجمع بقية ، كما كتب رسائل لجميع المؤمنين ولرهبان ، وبفضل كل ذلك استطاع أن يربط العالم أجمع ضد الأباطرة .

واستمر الامبراطور فالتس في اضطهاده للمصريين بعد وفاة البابا اثناسيوس ، فكتبى غلينت البابا بطريرك القسطنطينية (٣٨٨ - ٣٩٨) وعين بدلا منه لوكيوس الأرومى وأيده بقوة الامبراطورية . وأصدر فالتس قانونا جديدا عمل على تنفيذه بالقوة ، وكان يقضى بالغاء امتياز الاعفاء من الخدمة العسكرية الذي كان منوفا قديما مضي للرهبان وكذلك

أعضاء هذا المجمع من الأروميين ، وتنفيذا لرغبة الامبراطور قرر المجمع عزل اثناسيوس ، فاستج على ذلك اصدقاؤه من أساقفة الغرب . وبلا ذلك تبين جورجيوس الكبادوكي بطريركا على الاسكندرية بمساعدة الأروميين ذوي العقول البدي الامبراطور ، ثم اتخذ إجراءات تصفية ضد الأقباط أتباع اثناسيوس ، فخلد استقدم جورجيوس القوة العسكرية لأرقام القصب على جبل المذهب الأرومي ، فلما رفض أمسل فيه القتل ، وحشد الكثيرين من الأساقفة المصريين وزج بأثنى عشر منهم في السجون ، واقترح على الامبراطور لمرض ضربة جديدة على المنازل في الاسكندرية .

وفي عهد الامبراطور يوليانوس ( ٣٦١ - ٣٦٣ ) الذي ارتد عن المسيحية الى الوثنية قام الشعب بثورة عنيفة أدت الى قتل جورجيوس بطريرك القبط ، وحاد اثناسيوس الى كرسية . ولكن حسدا الامبراطور أيضا أمر بطرده من الاسكندرية على اعتبار أنه ما يزال منقيا وأنه عام بدون إذن ، وكتب الي والي الاسكندرية مهندا إياه ليرض فرامة كبيرة عليه وعلى موغليه اذا ظهر اثناسيوس في أرض مصر كهنسا . ولكن اثناسيوس اختبا في قبر أبيه ستة أشهر ولم يغادر المدينة .

ولما تولى الامبراطور فالتس ( ٣٩٤ - ٣٩٨ ) وكان أروميا ، أمر بنفي اثناسيوس

( سنة ٣٨٥ - سنة ٤١٢ ) ، وكان عهده عهد سلام وعمران ، سواء ﷲ عهد الامبراطور ثيودوسيوس أو خلفته ثركادايوس ( سنة ٣٩٥ - سنة ٤٠٨ م ) .

لأنها كيرلس وبديعة فسطوب :

ثم خلفه هذين الامبراطورين ثيودوسيوس الصغير ( الثاني ) ، وكان مؤمنا سالطاً تولى الحكم وهو صغير السن وحكم من سنة ٤٠٨ - سنة ٤٥٠ . وكان معيها للكنيسة وارهبان الإباط ، يرسل اليهم ليتبرك بهم ويستشفهم لما تكبر من أموره الخاصة . وقد تمتع في عهده الأبسا كيرلس الكبير بعوية واسعة في التصرفه ، حتى قيل ان بطاركة الاسكندرية في تلك الفترة من التاريخ كانوا هم الذين يتحكمون في تاريخ مصر ، بل أطلق البعض على هذا البيطريوتك « قرون مصر » .

وكان القديس كيرلس هذا خليفة للقديس الناميسيوس في المسيرة اللاهوتية وقيادة الفكر المسيحي . اعتلى كرسي البطريركية سنة ٤١٢ م في عهد الامبراطور ثيودوسيوس الصغير وتمتع في عهده بشبه استغلال في مصر ، ودافع عن الإيمان المسيحي . تبدأ بكتابة خطاب إلى الأمير فلور وفتح فيه البركة ، وشرح له الإيمان السليم ، ورد على الكتب التي كان قد وضعها فيسلا الأمير فلور بوليانوس ضد المسيحية .

ولما لاحق لأبنا كيرلس أن فسطور

لسكان بعض المدن والمقاطعات التابعة للإدارة مثل القيوم ، وأرخام كل هؤلاء على الانخراط في الخدمة العسكرية بالقوة . وقد نفسل كثير من هؤلاء المصريين أن يلقوا حتفهم وهم يغامرون الامبراطور على أن يدخلوا في خدمة قوات الامبراطور .

فترة هلو ١

ومضت الاضطرابات المنيعة التي لولها الإمبراطور ثيودوسيوس الصغير وخليفته المصريون في شجاعة وسبر إبان عهد البيطريكين الأبسا الثاسبريس والأبنا بطرس الثاني . لم أن مصر أن تمتنع لفترة هذه عندما مات الامبراطور فالنس الأريوس وتولى العرش الامبراطور ثيودوسيوس الكبير ( من ٣٧٨ - ٣٩٥ م ) وهو الذي اهتم بالهداية المسيحية ديانة رسمية للدولة . وساعد هذا القرار على الحذف الوثنية ، فأمكن تحويل الكثير من معابدها إلى كنائس . وقد أرجع هذا الامبراطور الأبنا بطرس الثاني من منفاه ، ولما توفي هذا البيطريوتك سنة ٣٨٠ م اختار الشعب بعده الأبنا ثيودوسيوس بطريركا . وفي عهده وقع مقدونيوس أسقف القسطنطينية في هرطقة حول الروح القدس ، فاجتمع سنة ٣٨٠ م مجمع في القسطنطينية من مائة وخمسين أسقفا وقرر حرمة هرطقته . وقد حضر لأبنا ثيودوسيوس هذا المجمع ، وقام فيه بدور رئيسي .

ثم خلفه في البيطريكية الأبنا ثيوفيلوس

وعندما أقام الآباء أسقفا جديداً على  
القسطنطينية أرسل الى القديس كيرلس  
خطاباً يقول له « ان رغبتك في اعلان الحق  
قد تحققت يا خادم الله ... » وكذلك أرسل  
أسقف روم الى القديس كيرلس يهنئه بقوله  
« هنيئاً لك ، فانت الرجل الجريء المستهين  
بكل خطر » .

والمسؤول المؤرخ سثالي في كتابه  
« معاضرات في تاريخ الكنيسة الشرقية »  
ما نصه « لقد أصبح البربرك الاسكندري  
بعد مجمع القسوس لاضى العالم ، طاع  
أحكامه في جميع أنحاء العالم المسيحي » .  
ولقد طلب كيرلس أيضاً كتباً كثيرة قيمة  
في اللاهوت وفي تفسير الكتاب المقدس .

ج - الصراع مع الباباوة القاصرين لهابا  
وعندما ارتقى مرفيافوس ( سنة ٤٥٠ ) -  
سنة ٤٥٧ ) العرش أخذت العلاقات بين مصر  
وباباوة الدولة الرومانية تدخل في أفك  
وأقسى صورها ، لاجتازت مصر طوال الفترة  
الباقية من حكم الرومان مضطربة اضطهاداً  
مراراً عنيلاً لم يتخلله سوى هدنة قصيرة في  
عهد الملكين زينون واسطاسيوس ( ٤٧٤ -  
٥١٨ )

وقد بدأت هذه الفترة بخلاف بين  
كنيسة روم والاسكندرية أدى الى انقسام  
استمر من سنة ٥٥٩ حتى يومنا هذا . وعرف  
أتباع كنيسة روم باسم « الكاثوليك » بين  
عرف أتباع كنيسة الاسكندرية ومن سا

بطريرك القسطنطينية قد وقع في هرطقة  
لاهوتية أرسل اليه بتأهم معه . لكن  
لسطور تسك برأيه ورفض الاذعان لتعليم  
كيرلس ، واستمال الى جانبه يوحنا أسقف  
أنطاكية ، واعتمد على ما لقيه من عطف  
الامبراطور الصغير ثم تحدى كيرلس علانية  
وأهمه بأنه غيبه وبأنه يقوم في مصر بدور  
فرعون .

ولم يجد القديس كيرلس مناصاً من أن  
يستخدم سلطته كعظم أول في الكنيسة ،  
فكتب الى أساقفة المصالح يشرح هرطقة  
لسطور ، كما كتب الى الامبراطور  
ثيودوسيوس وأمه وأخوته ، وبث رسالة  
الى لسطور نفسه يشرح له ليساً تواجد  
الآباء وما يترتب على مخالفتها من جزاء .

وانتهى الأمر بمقد جميع مسكوني في  
القسوس حضرة مائتان من أساقفة المصالح ،  
وكان مندوب الامبراطور في المجمع تسطوريا  
وهو كاثوليكانيوس . ولقد عمل لسطور على  
تهديد الآباء المجمعين في افسوس بأن دخل  
المدينة مطلقاً بفرقة مسلحة بالسلاح ورفض  
حضور جلسات المجمع على الرغم من  
استدعاء الآباء له أكثر من مرة . وازاء ذلك  
اضطر المجمع الى الاجتماع بدولة . وبعد  
قراءة رسالة القديس كيرلس حكم المجمع  
بخلع لسطور عن كرسى وتجريد من رتبة  
الكنهوتية .. وقد وافق الامبراطور على خلق  
لسطور بمجرد وصول القرارات اليه .

على نعيمهم باسم « الأرثوذكس » وبتبجيلهم  
أيضا السريان الذين أطلق عليهم فيما بعد  
اسم « النساطرة » .

ولما رفض الأنبا ديسقورس بطريرك  
الاسكندرية المواقفة على مسائل إيمان  
أورعما لاون استقروا روما حيول طيبعه  
المسيح ، استخدم لاون شرذ الامبراطور في  
نفي ديسقورس عن كرسيه وفي محاولة ارغام  
المصريين على قبول ما قطعته بطريركهم  
وهرمان كن من لا يوافق على مقالته حيول  
طبيعة المسيح . وتعرض المصريون من أجل  
الثبات على ايمانهم لمذابح مروعة وخاضوا  
حركة استشهاده جديدة كالحركة التي  
خاضوها في عهد أباطية الرومان الوثنيين ، بل  
ان عدد الذين استشهدوا منهم على أيدي  
المسيحيين من أتباع مذهب الطيستن المتعالف  
لذهبيهم قد يزيد بكثير على عدد الذين  
استشهدوا على أيدي الوثنيين .

وكان الملك كلما اختار القصب المصري  
طريركا قبطيا ، أمر بمزله عن منصبه ، لينال  
من مصر أو يهرب محتجيا في أرجائها ، ويعلن  
بدلا منه بطريرك ملكي من المذاهب  
الطيستين ، وينصب هذا البطريرك المغيبل  
بالقوة أولا في ارغام الإقبساط على قبول  
مذهب غير مذهبهم ، فإذا رفضوا هذا  
البطريرك المغيبل ومذهبه أمهل الامبراطور  
فيهم القتل والسجن وكافة أنواع  
الاضطهاد .

ولكن زيادة الاضطهاد بشاعة لها  
بالطامة منذ عهد بوسيتانوس الى حمل  
البطريرك الملكي يجمع أيضا الى وظيفته  
الكهنوتية منصب الوالي المدني لتجنب لديه  
السلطان معا ، ولما كانت جميع كنائس  
الاسكندرية في أيدي هؤلاء الدخلاء فانهم  
استطاعوا أن يطردوا منها جميع البطريركة  
والأساقفة الإقباط وأن لا يسكوههم حتى من  
دخول مدينة الاسكندرية ، ولما كانت في  
أيديهم القوة العسكرية أيضا فانهم  
استخدموها في اضطهاد الإقباط كما يشاءون .  
وقد استمرت هذه الحال حتى دخول العرب  
مصر فكان البطريرك القبطي الألبا بنيامين  
هاربا من الرومان مختفيا في البلاد والأوبرة  
المصرية بينما كان القوقس يجمع بين وظيفتي  
الوالي الروماني والبطريرك الملكي ويضطهد  
المصريين .

وأمام كل هذه الأوضاع الشاذة التي اختلط  
فيها الاستعمار السياسي بالاستعمار الديني  
وقف الشعب المصري صامدا لا يلين ، يرفض  
كل بطريرك متعسلا في سبيل ذلك سنوات  
المذابح ، ورفض كل معتقد يخالف ايمان  
كنيسة المبطريسة ، ويزيد بطريركة القبطي  
وخطيئه وهو غائب عن كرسيه مقررا في  
أرجاء القطر أو متكررا في مكان ما وكذلك  
أشهر البطريركة شجاعة عجيبة وصبرا  
واحتملا ، كلما اضطهدوا اتفعلوا من مكان  
الى مكان يثبتون الإقبساط في ايمانهم

ويجملونهم على الصود أمام عتف المدو  
المسمر .

فعل الأقباط هذا بينما غارت قووي غافية  
أستقيات المسالم الميحي واضطرت الى  
الغضوع لسيطرة أناطرة الرومان  
وبابوات روميه ، ولم تغلب الى جهموار  
الاسكندرية غير استقلية أنطاكية التي لاقت  
صورة مشابهة من الاضطهاد فتدخل أساقفتها  
المزل والنفي ، وتتمسك شجها الفئسل  
والاضطهاد في سبيل الايمان الواحد الذي  
دافع عنه ديسقورس الاسكندري .

به انقسام الكنيسة :

لما قامت هرطقة أوطاخي ، انطقد بسببها  
في انوس سنة ٤٤٩ م مجمع سبي مجمع  
الغوس الثاني وكان رئيسه الابا ديسقورس  
بطريرك الاسكندرية . ولما مثل أوطاخي أمام  
هذا المجمع وسأله الأنبا ديسقورس عن  
ايمانه ، أفكر هرطقته أنكارا ؟ ، وقدم  
ايمانه مكتوبا يوافق ما أمر به الأبا ، ولما  
لوقش شفاه أجاب بنفس الكلام أيضا ،  
خبره الابا ديسقورس أمر أوطاخي نلى  
آباء المجمع ، فظروا براءته مما نسب اليه ،  
وقبوله في الكنيسة هو ورجال ديره الذين  
ناب أعمدهم عنهم في أقبانه مسحة ايمانهم .  
كما قرر هذا المجمع أيضا حرم فلزيانوس  
أسقف القسطنطينية لثبوت تهم قدمضده ..  
ثم حدث أن دعا لاون أسقف رومة سنة  
٤٥٩ م الى غلد مجمع مسكولي ودعا اليه

ديسقورس ، وكان ديسقورس يرى ألا داعي  
لعقد مجمع جديد لأن الكنيسة كانت في سلام  
من جعة الايمان . ولكن الظاهر أن لاون  
أسقف رومة ملكه العصد والغيرة من بطارقة  
الاسكندرية ودفعه ذلك الى أن اتهمهم بأنهم  
لا هم لهم سوى عقد المجمع والترأس عليها ،  
فأراد في هذا المجمع الجديد أن يدبر مكيكة  
للتخلص من ديسقورس .

ولما وصل ديسقورس الى القسطنطينية  
حيث كان المجمع مزعما أن يعقد دهش من  
وجود بعض من أساقفة الناطرة المحرومين  
مجنبيين مع الآباء فأمر بطردهم ، ثم قرأت  
على المجتبيين رسالة من بابا رومة غلبا سميها  
ديسقورس أخذه عليه وقوعه في حرمة  
الطبيعتين ينسب لرتت اقوال الآباء صعبا  
مذهب الطبيعة الواحدة ، ووقف وسط  
الاساقفة بشرح هذه المسألة في قوة واقناع  
حتى مسراح الجميع ، فعن على ايمان  
ديسقورس ، . ونسأ رأى الامبراطور  
مركيانوس ذلك - وكان حاله الاجتماع -  
أوعز الى أتباع لاون بأن يرحطوا جلسة  
المجمع الى اجتماع آخر .

ولم يخلل ذلك دعي ديسقورس الى  
اجتماع خاص في قصر الامبراطور ، ولما أصر  
على ايمانه ، وعلى حرمه للاسقف لاون  
المنادي بمذهب الطبيعتين ، اعتدى عليه  
وسجن وانقصد المجمع في خلفدونية بأسيا  
الضري سنة ٤٥٩ م ، وتحت تهديد القوة



عينوا مكانه بطريركا من مفاهيم اسمه  
بروتوريوس ، قرفصه الشعب المصري وطرده  
من البطركية ، حتى اضطر الى الاستماعة  
بالقوة المسلحة للتمكن من دخول الكنيسة .  
واذ تعرض الشعب عنه وبدا يترك الكنيسة  
له ولم ينصره من جنسهم اليونان ، أمر  
الجمود فأعلنت لهم السيوف مقتل في ذلك  
اليوم عدد غير ، كما قتل كثير من الرهبان ،  
وأحاط الحراس بهذا الطريرك الدخيل ،  
وانحذت بعض إجراءات مدنية كإيقاف  
الأسباب الرياضية وعلني التعامات المسماة  
ونعديه الشعب بسحب امتدادات الصبح .

ولكن الشعب المصري ظل متمسكا  
ببطريركه المنفي الى أن توفى في صفا سنة  
٤٥٧ م . ولم قدم بطريركية بروتوريوس  
أكثر من هذا التاريخ لأن الشعب  
السكندري التزم فرصة استعفاء قائد الحامية  
الرومانية الى مصر العليا في عهد الامبراطور  
ليون الأول ( سنة ٤٥٧ — سنة ٤٧٤ ) وقام  
بثورة شعبة تحلصوا فيها من بروتوريوس  
واختاروا راهبا قبطيا اقاموه بطريركا باسم  
يوساباوس الثاني . ولكن الامبراطور نجس  
الأباط وعزل البابا يوساباوس الذي اختاره  
الشعب وعام كسلكه ديسقورس ، الى جزيرة  
غاغا ، وبين مكانه بطريركا من مذهب  
الطبيعتين اسمه سالوغاسيوس . وكان  
السبب في ذلك هو أنه لم يلبس يوساباوس  
الثاني جمع سنودا من أساقفته في الكرسي

بدا الضبط على الأساقفة حتى قرروا :  
عقيدة الطبيعتين ، وعزل ديسقورس ، واتهامه  
بالأولاحية لتبرئه أوطاخى ، الذى كان قد  
رجع مرة أخرى الى هرطقته ، وأثبت بذلك  
أن توبته الأولى أمام ديسقورس في مجمع  
انيس الثانى بوبة زائفة ، كما حكم المجمع  
أيضا بتهمة لاون أسقف رومه . ولما عرضت  
قرارات المجمع على ديسقورس ، حرم أعضاء  
مجمع خلفدونية كلهم ، بسبب انحراف  
الأيام الذى وافقوا عليه . فمضى ديسقورس  
الى جزيرة لامرا . وأرسل المجمع الخفغدولى  
الى أساقفة الكرسي المكسرى يدعوهم  
للإيمان بمذهب النسطري فرفضوا وقرروا  
عدم الاعتراف بمجمع خلفدونية ، فبدأ  
الامبراطور باستخدام القوة لإرغام رجال  
الدين وأفراد الشعب على قبول مذهب لاون  
والانحراف بقرارات مجمع خلفدونية ، فلما  
رفضوا الأمر قامت مذابح في الاسكندرية  
وفي الأديرة قتل بسببها شعب كثير ، وانقسمت  
المسيحية الى مذهبين ، وسح ان ديسقورس  
وقب وحده وحالف الأساقفة من الانضمام  
اليه بعدما رأوا ما فعلته القوة به وبشعبه ،  
الا أن ثورات شبيبة أخرى قامت في  
أورشليم وبلاذ أنطاكية احتجاجا على قرارات  
مجمع خلفدونية فاستخدمت القوة ضدهم  
أيضا واستشهد منهم عدد كبير .

وظل ديسقورس في صفا حتى توفى سنة  
٤٥٧ م . وكان أصحاب مذهب الطبيعتين قد

الاسكندرية سنة ٤٥٨ وأصدر قرارا بجمع جميع الخلقونية . فاعطى ليون الاول أن ينفه واسترجع سنوات في منفاه الى أن مات هذا الامبراطور فرجع البطريرك الاسكندري اتي كرميه

#### فتوة هيو . ١

لم تمت الكنيسة بفترة هذوه خلال حكم زينون ( سنة ٤٧٤ - سنة ٤٩١ ) . واستطاع البطريرك القبطي البابا ثيموثاوس بمصاد عودته من منفاه أن يعقد مجمعا في اسطنبولية كان من بين أهم أعماله بطرس اقتصار بطريرك أنطاكية وقرر رفض المجمع الخلقودوني ورسالة لاون اسقف روما . كما وزع منشورا بذلك ورفض عقيدة اوطاخي ووجوب التمسك بمذهب الطبيعة الواحدة . ولذلك هاجم المؤرخ الكاثوليكي فلاديمير بيسول في كتابه عن التاريخ الكنسي أن ثيموثاوس الذي وضع هذا المنشور لم يكن 'وثاقيا' .

ولما توفي البابا ثيموثاوس الثاني خلفه البابا بطرس الثالث ( سنة ٤٨٠ - سنة ٤٨٨ ) ، تمتت الكنيسة سلام في عهده أيضا ، وبذلك تمسك بالولاء للتقريب بين كنيتي الاسكندرية والقسطنطينية ، وقد من أجل ذلك مجسم في القسطنطينية سنة ٤٨٩ م اتحدت فيه الآراء القوية التي تمسكت بها الكنيسة المصرية . وأصدر المجتسمون مرسوما أسماه 'كتاب الاتحاد' صدق

عليه الملك زينون . ولكن الاسكندرية اشتركت على أساقفة القسطنطينية ورفض قرارات مجمع خلقدونية مراراً . وبودلت رسائل بين اكاكيوس بطريرك القسطنطينية وبين بطرس الثالث الاسكندري ورفض فيها اكاكيوس مجمع خلقدونية بسماء ٣ مجسم المخلعين ، كما رفض رسالة لاون وأراه مسطور . فقبل بطرس الثالث ، فلم يرق هذا لبعض أساقفة الكرسي الاسكندري واحتجوا على بطريركهم قائلا أن له في كنيسته قبلت اكاكيوس الذي حضر مجمع خلقدونية ووافق عليه ؟ فرد عليهم بقوله : اما قبلته لرجوعه عن ذلك اقراراً . ولكن الظاهر أن هذا الأمر كان انضماماً وتباً الى مذهب الطبيعة الواحدة في عهد ملك اريودكس مثل زينون ، لأنه بمجرد موت زينون عاد اضطهاد مذهب الطبيعة الواحدة وعادت كنيسة القسطنطينية الى التمسك بقرارات مجمع خلقدونية . وفي الواقع انه كنيسة الاسكندرية كانت صابغة في موقفها لاجبة على الإنسان لا تزحزحها هذه الاضطهادات ، ولم تثبت مهمتها في ذلك سوى كنيسة انطاكية .

وقد استمر خبرات العلوم أيضا خلال حكم انطاميسيوس ( سنة ٤٩٦ - سنة ٥١٨ ) ، وفي هذا العهد توطدت أواصر التعاون بين كنيتي الاسكندرية وانطاكية لاتفاقهما في الإيمان الواحد .

## مقدمة لأعمالها :

والولاية » ويكون جميع أساقفة القريضا  
تحت طاعته . فرفض ذلك وقال لرمسل  
الامبراطور « ليس للملك سلطان الا على  
جسدي ... فمما أردتهم قاضوه ولما أنا قانع  
ابن آباءى » ، وترك كرسيه حب أوامر  
الامبراطور : فاجابته الرفض وذهب الى  
الصعيد ، فعاول الامبراطور ملاظفته واخرجه  
فلم يلب البطريرك خفاء وأرسل بدلا منه  
بولس التبيي ليسكون بطريركا على  
الاسكندرية وقام بمراسمات مينيا بطريرك  
القسطنطينية . فلما وصل هذا البطريرك  
الدخيل الى الاسكندرية لم يقبله احد  
وكادوا يسمونه « يهودا الصالح » ، ولم يقبل  
أحد أن يقبل منه . فأرسل الى الامبراطور  
بغيره بذلك فأمره بخلق الكنائس لمدة سنة  
ولم يجد الشعب المصرى مكانا للصلاة فبنوا  
كنيستين مرا للكان المسروقة باسم  
السوارى غربى الاسكندرية . ولم يبق  
للبطريرك القبطى المنفى سوى هاتين  
الكنيستين لأن الامبراطور أمر ألا يدخل  
كنائس الاسكندرية الا اتباع البطريرك  
الدخيل وأقام الألبا لينودوسيوس بالى حياته  
في المنفى .

وقد خطا يوستينوس بظلمة أوسع في  
اضطهاد المصريين وازغامهم على قبول مذهب  
الطبيعتين « فبعد وفاة بولس التبيي عين من  
قبله ابوليناردوس بطريركا على الاسكندرية  
وحاكما لها في نفس الوقت . وقصد من ذلك

ولما تولى الحكم الامبراطور يوستينوس  
الاول ( سنة ٥٢٨ — سنة ٥٢٧ ) وكان على  
كرسى الاسكندرية البطريرك ثيودوروس  
الثالث ( سنة ٥١٧ — سنة ٥٣٥ ) ، حاول  
هذا الامبراطور ارقام كنيسة الاسكندرية  
والطاكية على قبول معتقد جميع المذاهب  
لما رفض ساويرس بطريرك الطاكية لفاء عن  
كرسيه فجاء الى مصر ، وظل فيها حاديا يتنقل  
من مدينة الى مدينة ومن دير الى دير محاميا  
بمذبة المبرعين الذين قبلوه كرمح مطع في  
الكنيسة وظل هو من جابه يسلمهم ورشهم  
في الايمان . كما أخذ هذا الامبراطور يقطعه  
لألبا ثيودوروس بطريرك الاسكندرية وأمر  
بنييه وجرت بسبب ذلك مذبة هائلة قتل  
فيها نحو مائتى ألف نفس من الإيثار أرادوا  
حماية بطريركهم من الجنود الرومانيين الذين  
تسكنوا على الرغم من ذلك من القبط عليه  
وهم فيه ، وبقي في مناه ثلاث سنوات رجح  
بعدها الى مركزه واستمر مدافعا عن الإيثار  
بالاشتراك مع ساويرس بطريرك الطاكية حتى  
توفي سنة ٥٣٥ « في عهد الامبراطور  
يوستينوس الاول .

دخله على كرسى الاسكندرية الألبا  
ليودوسيوس الاول ( سنة ٥٣٥ — سنة  
٥٦٧ ) . وقد عرض عليه الامبراطور أن يقبل  
رسالة لاون وبساعده على نشرها في مقابل  
أن تكون له الرقاسستان « البطريركية

ثم قام البطرك الأنبا دانيالوس  
الاسكندري وخلف بطرس الرابع سنة ٥٩٩ م  
وتقام مدة رئاسته اثني بثلث ستا وثلاثين  
سنة مختمبا في دير تاپور أيضا في درجة  
أسقف .

ثم تولى البطركية اسقاسيوس سنة  
٩٠٥ م وولد اضطهاد الرومان للأقباط حتى  
ان الرومان حرّموا الأقباط الكهنين اللتين  
بنوهما سرا لمحرمي الاسكندرية .

ثم تولى البطركية الأنبا اندرونيوس  
سنة ٩١٩ م واستطاع ان يفهم في الاسكندرية  
متممدا على قوة أسرته التي كانت غنيصة  
جدا ومموبة بمصر المناصب الادارية الكبيرة  
في المدينة . ولم تستطع قوة الرومان ان  
تحرجه عنها . ولعل السبب في ذلك هو ان  
الدولة الرومانية كانت وقتذاك في حالة يرمي  
لها . اذ اجتاحت جيوش الفرس كثيرا من  
اراضيها . واما ازداد ضغط الجيوش الفارسية  
على الحدود الشرقية للإمبراطورية هاجر كثير  
من أهالي سوريا وفلسطين لاجئين الى مصر ،  
وعجز يوحنا البطرك المكناني عن حلهم  
وهم ايهم فهرب من المدينة وترك البلاد  
للفرس . وقد قتل الفرس آلافا من الرهبان  
الأقباط وخربوا كثيرا من الأديرة .

وفي سنة ٩٢٢ م تولى بطركية  
الاسكندرية الأنبا بياض الذي عاصر الفتح  
العربي لمصر . وبعد تسع سنوات من بطركه  
سنة ٩٣١ م بطريركا ملكانيا

ان يجسمل في يد الرئيس الديني القسوة  
المسكرة التي تسكنه من تنفيذ أوامره . وقد  
جد هذا البطرك الدخيل عهده بمذبة  
كبرى قتل فيها عدد كبير من أفراد الشعب  
الدين رفضوا اتباع عقيدته ، وحاولوا رجه  
في الكية حين وقت لخالهم . وبهذه  
المذبة تسكن من الدخيل من أصل الناصر  
المفارسة . وهذا العمل لم يحصل من هذا  
البطرك الدخيل سوى حاكم مدني ، لانه  
لم يتمكن من ممارسة شيء من السلطة الدينية  
التي ظلت في يد البطرك الذي  
اخاره الشعب . ولكن أساقفة الأقباط لم  
يستطيعوا على الرغم من ذلك ان يظهروا في  
الاسكندرية .

ولذلك فعندما رسم البطرك البني  
الأنبا بطرس الرابع سنة ٩٤٧ بعد وفاة سلفه  
مينوديوس ، اقام في كنيسته بصد من  
الاسكندرية بمقدار تسعة أميال ثم اختفى في  
دير تاجور بالقرب من الاسكندرية منتكرا  
في درجة أسقف لا بطريرك . ودير أمود  
الشعب من هناك . ولما سمع بذلك أهالي  
انطاكية ظلموا كنيسة الاسكندرية ، غرسوا  
لهم بطريركا بمسحة وفاة القديس ساويرس  
أسموه ثيودانوس أقدم مخفية في دير  
امونوس لان أصحاب الطيمنت هناك متعوا  
الأساقفة الأرثوذكس من دخول مدينة  
انطاكية متبعين معهم نفس السياسة التي قامت  
في الاسكندرية .

(ملكبا) اسمه كيرس Cyren وهو الذي  
اشتهر باسم القوقس ، وجمع لهذا البطريق  
بن وثيقته الكهنوتية وبن وثيقته الوالي  
ليكون أقوى على قهر الإقطاع وضمهم الى  
مذهب القائلين بالثبوتين . ويبدو أن هرقل  
لم يكن موافقا في اختيار هذا الرجل الذي كان  
حقيق الصبر ، لأنه لما هربت عليه استماله  
المصريين الى ملحقه لمخالفات اخيه  
اضطهادا وهيبا مما فرغ منه في وقت كانت  
الامبراطورية فيه محتاجة لشد الاحتياج الى  
استرضاء الألبان بسبب حرج مولتهم في  
حربها مع الفرس .

أما البطريك القبطي الأنبا بنيسامين  
لاختفى هو وسائل أساقفة مصر جميعا وظل

يتنقل بين الكنائس والإديرة دون أن يتم في  
أيدي الرومان .

واستغل هرقل هذه الفرصة فقام أساقفة  
من الملكيين في بلاد مصر كلها من  
الاسكندرية الى انصسا ، فنكلوا بالإقطاع  
تنكيلا شديدا .

ولكن هذه الحالة لم تستمر طويلا إذ  
أبى عمرو بن العاص بجيوشه القوية الى  
مصر ، ففتحها سنة ٦٤٦ م ولما استتب  
الأمور أعطى أمانا للأبنا بنيسامين فرجع الى  
كرسيه في الاسكندرية بعد حيرة دامت ثلاث  
عشرة سنة وهذا يعد الى الكنيسة أولئك  
المسيحيين الذين طُفد عليهم هرقل في قبول  
قرارات مجمع عقيدونية وصرح عمرو له بفتح  
الكنائس والحامة العبادة فيها .

## الفصل الثاني

### الحياة اللغوية

ب - اللغة المصرية المتوسطة : هي لغة الآداب من الأسرة التاسعة الى الأسرة الثامنة عشرة ، منذ حوالي سنة ٢٤٠٠ ق . م الى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد . وصارت لغة الأهلين نحو التي هذه الحقبة .

ج - اللغة المصرية الحديثة : وهي لغة الأهلين من الأسرة الثامنة عشرة الى الرابع والعشرين أى منذ حوالي سنة ١٥٨٠ الى سنة ٦١٠ قبل الميلاد . ووجد مدولا بها ولائق خاصة بالمعاملات والرسائل ، وبعض التعكبات والقصص الأدبية ، ودولت بها لصوص تارسية للأسرة التاسعة عشرة وما بعدها ، على أننا لم نثر منها إلا على القليل . وقد بدأ فيها ظهور كلمات دخيلة .

د - الديموطيقية : وهي المستشفة في الكتب والوفاق التي كتبت منذ الأسرة الخامسة والعشرين الى آخر عصر الرومان من سنة ٥٥٠ الى سنة ٤٧٠ قبل الميلاد .

هـ - القبطية : هي اللغة المصرية القديمة في صورتها الأخيرة من مراحل تطورها .

فلت اللغة المصرية القديمة في مراحلها المختلفة لغة الكتابة والتخاطب في مصر حتى

اللغة هي الأداة التي يميز بها الانساني عن أفكاره ومشاعره . ولا يحدث أن يرتقى شعب ، وتنمو الأعمال له ، دون أن تكون له لغة غنية تيسر له التعبير عن مختلف أوضاع الحياة . ولما كانت مصر القديمة قد وصلت الى درجة كبرى من الرقى ، فقد تطورت لغتها حتى ساهرت أسباب العبارة فيها بالكمالات المتنوعة والواعدها التي تضبط التركيب ، وتميزاتها ومصطلحاتها في شتى العلوم . كما كان أدبها الواسع في الميدان الديني والعلمي والفني ، وغير ذلك من الميادين داعيا الى لمسات اللغة وحيورتها ، واللغة كائن يولد ويكبر ويختلج .

مرحلة تطور اللغة المصرية :

مرت اللغة المصرية في خمس مراحل .

١ - اللغة المصرية القديمة : وهي لغة الأسر من الأولى الى الثامنة منذ حوالي سنة ٣٤٠٠ ق . م الى سنة ٢٤٠٠ قبل الميلاد . ولقد وصلنا منها وثائق رسمية وجنائية ونصوص مقابر ، ومنها نصوص الأهرام ، وسير لبعض الأشخاص .

ولهذه اللغة خصائص ميزتها في بعض تعبيراتها وألفاظها

قيام دولة البطلمية فأصبحت اليونانية لغة البلاد الرسمية ، وبعضى الزمن أخذ كثير من المصريين بتعلمونها واستخدامها في وثائقهم وخطاباتهم حتى ولو كانوا يجملونها . ولا جدال في أن اللغة المصرية كانت لا تزال تستخدم في الكتابة الدينية والتغليب فضلا عن تحرير العقود والرسائل . ولا يفتونا أن نذكر أن غالبية المصريين كانوا لا يستطيعون كتابة أو قراءة أى لغة وبطيئة الحال كانوا لا يعرفون اليونانية .

وقد صعب ازدياد استخدام اللغة المصرية ونقص استعمال الديموطيقية تدوين اللغة بحروف يونانية ، رتب وضع الأبجدية القبطية تنظيم هذه اللغة المصرية الدارجة لرغمها إلى مصاف اللغات الأدبية ، وأدى ذلك إلى أن ظهرت اللغة القبطية بأدائها منذ أواسط القرن الثالث الميلانى . اسمها « مسيت » بالتبليغ لأن المصريين في ذلك الوقت كانوا يسمون أقباطا ، وقبطى معناه مصري .

كانت الشعوب السامية المجاورة تسمى مصر قديما باسم « مصر » . هكذا تسمى في الآشورية وسيت في الآرامية « مصريين » وفي العبرية « مصرايم » وغيرها للعرب باسم « مصر » . والمصر في اللغات السامية بمعنى الحد وقد أطلقت الشعوب السامية على آشوريين وآراميين وعبريين وعرب ، على البلاد المتاخمة لهم « مصر » كما أسموا

سكانها بالمصريين . ثم أطلقت كلمة مصر على القطر عامة . ( وما يستحق الملاحظة أن كلمة فينيس فقط في اللاتينية بمعنى حد ، وقد أطلق الرومان هذه الكلمة بمعنى الجمع على القطر أيضا )

وسمى القبط بمصر باسم كيمي « السواد » أى الأرض السوداء . وأسماءها الآشوريون في قروشهم الآشورية « هيكروثا » وهم الاسم الذى كان يطلقه المصريون على عاصمة مملكتهم منف ومعناه « بيت روح بتاح » وكان يطلق هذا الاسم على المدينة كلها من سبيل إطلاق العاصمة على القطر كما نمودنا ذلك في المفردات الآن .

وسمى اليونان هذا الاسم فأخذوه عنهم منذ عصور قديمة وأسموها « إيجيوس » وورد اسمها هذا عند مرأت في حشر هوميروس ، فإذا مدقنا علامة الرفع ( وس ) ثم الحركة الأولى التى فيها العرب حرف استهلال خلص لنا بعد ذلك اسم قبط .

أما المراحل التى اجتازتها كتابة هذه اللغة فهي :

« الفصحى » « البربرية » « المزدخنة » « المقدسية » ولذا أعطى هذا الاسم « هيرودوت » « المأخوذ من كلمتين يونانيتين هما « هيروس » = مقدس ، و « غليوس » = جنى .

ب - الخط الديموطيقي : وهو أيسر من الهيروغليفى بعض الشيء . واستعمله الكهنة في كتاباتهم . والنسبة مأخوذة أيضا من اللغة اليونانية ، ومعناها « خاص بالكهنة » .

ج - الخط الديموطيقي : وهو من اليونانية ومعناه « خاص بالسحب » . فالخط الديموطيقي هو الصورة المبسطة التي أخذ السحب المصري يستعملها في كتاباته في العصور المتأخرة .

د - الخط القبطي : عاصب محاولات لردية من المصريين لتدوين لغتهم بحروف يونانية وكان ذلك في العصور الوثنية ، بدليل العثور على نصوص ببطية من العصر الوثني لفتا مصرية وحرفها يونانية وبها بعض حروف ديموطيكية ، وهذه النصوص محفوظة في كل من متحفى باريس ولندن .

وكافة هذه المحاولات كانت وليدة الحاجة لسبب أو لآخر ، دون أن يكون لذلك أى شأن بالمسيحية . وانتهى الأمر بأن استطاع شخص أو جملة أشخاص استحداث ما نسب إلى الخط القبطي ، وكتبوا لغتهم بحروف يونانية وأضافوا إلى الأبجدية اليونانية سبعة أحرف أخذوها من الخط الديموطيقي ، تغير عن أصول ليس لها مقابل في اللغة اليونانية وهي الأحرف السبعة : شاي ( ش ) وفاي ( ف ) وخاي ( خ ) وهوري ( هـ ) وجنجا ( ج ) ونشبا ( نش ) وتي ( ت ) .

اللهجات القبطية : المعروف أن اللغة المصرية القديمة كانت تضم لهجات شتى ، وهذا ما نراه واضحا بين سكان مصر الآن . وهذا طبيعي في اللغات لذا انتشرت في منطقة واسعة وتوالى عليها العصور . ولا ريب أن بعض الاختلافات التي كانت قائمة في المصرية القديمة كانت أساسا لما وجد منها في اللهجات القبطية المتعددة .

نسب العلماء اللهجات الببطية إلى قسمين .  
١ - لهجات مصر العليا :

ومعرف منها الآن المصرية نسبة إلى البحر أي لغة الأوطان المجاورة للبحر أو ربما كانت منسوبة لمديرية البحيرة . وهي اللهجة الأولى التي وصلت إلى درجة اللغة الأدبية . وكان ذلك في مدينة الإسكندرية .

ب - لهجات مصر العليا :

١ - الصعيدية نسبة إلى صعيد مصر وهي لهجة طيبة ، وأصبحت فيما بعد لهجة الوجه القبلي ، وكانت تسمى بالطيبة

٢ - القهيوية : انتشرت في الفيوم

٣ - الأسكينية ، تكلم بها أهل مدرسة منبوم ثم انتشرت إلى الصعيدية .

هذه اللهجات الأربع هي اللهجات الرئيسية وتفرع عنها بعض لهجات :

١ - المنية ، سادت في منطقة منف وحلت محل البحرية .



والمحصركة ولم يعرف الخط القديم إلا  
الحروف الصائتة .

٥ - حصلت لنا القبطية كلمات لم نشر  
عليها في المصرية القديمة .

٦ - وأصبحت القبطية كلمات مصرية  
قديمة .

### اختصاص اللغة القبطية :

أصلت اللغة العربية تناهض اللغة القبطية  
ابتداء من القرن التاسع الميلادي . وطبيسي  
أن حلول العربية محل القبطية في الكتابة  
سببه انتشار العربية كلفة للتخاطب بين أفراد  
الشعب ، فقد أصبحت العربية لغة الدواوين ،  
ثم صارت لغة التعليم ، وقد جاء القرن الثالث  
عشر والعلماء القبط يرفنون في اللاهوت  
باللغة العربية مما يدل على أنها كانت لغة العلم  
السائدة ، وكان يهيمها أغلب سكان مصر ،  
ويتكلم بها أغلب سكان الوجه البحري .  
وظلت القبطية لغة التخاطب في الوجه القبلي  
حتى القرن السابع عشر .

ويقول المقرئ في القرن الخامس عشر  
عند كلامه عن دير موشه : « والأغلب على  
نصارى هذه الأديرة معرفة القبطي الصعيدى  
وهو أصل اللغة القبطية ، وبعضها اللبنة  
القبطية البحرية . ونساء نصارى الصعيد  
وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية  
الصعيدية » . ويقول ماسيرو : « ولكن من  
المؤكد أن سكان صعيد مصر كانوا يتكلمون

٢ - الإغسية القرية أو الإسيوطية ،  
انتشرت فيما بين البهنسا وأسيوط وقصد  
اشتت من الإغسية .

٣ - البهنسورية ، اشتقت من البحيرة  
وقد ذكرها العلماء الأقباط ولكنها ضاعت  
ورجع أنها كانت لهجة قبطية تكلم بها  
اليولا في شرق الدلتا وكتب يعرف  
بولاية عادية .

٤ - والمشتق من النيومية لهجة أخرى  
شر على لس منها في البحوات بالواحات  
الغارية ورجح أنها كانت خاصة بالواحات

هذا وكانت اللهجة الصعيدية تتكون من  
عدد لهجات المنجبت بعضها في بعض كما  
نلاحظ هذا أيضا في البحيرة . ودلينا على  
ذلك وجود صيغ مختلفة لكلمة واحدة .  
ونلاحظ على اللغة القبطية بالنسبة للمصرية  
القديمة ما يأتي :

١ - أنها كتبت بأبجدية يونانية بعد أن  
كانت تكتب بعروف معظمها ديوطونية .

٢ - دخلت عليها مفردات وتغيرات  
يونانية وبخاصة في العصر المسيحي .

٣ - أبدلت بعض العروف في الكلمات  
وبخاصة الحروف المسألة ل م ن ر ، كان  
يقال « لس » بدلا من « لن » أي لسان ،  
كما دخل القلب على بعض الكلمات مثل  
« انبي » بدلا من « بت » أي ساء .

٤ - كتبت القبطية بالعروف الصائتة

ويكتبون باللغة القبطية حتى القرنين الأولين  
من القرن السادس عشر .

وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر  
انتهى الكلام بالقبطية ، ولكنها بقيت لغة  
الكنيسة تستخدم في الصلوات وقرأت  
الكتب المقدسة . ويعرفها بعض الأفراد من  
الأتباط ، في الأديرة أو المدن ، من طريق  
الصلوات بهذه الصلوات واهتمامهم بها . هذا  
طبعاً غير العلماء الغربيين والشرقيين المهتمين  
بدراستها .

#### أثر اللغة القبطية خارج مصر .

بالرغم من أن اللغة القبطية لغة قومية ،  
إلا أننا نرى لها آثاراً عالمية ، فبعض  
الفاظ قبطية انتشرت في اللغات الأوروبية  
مثل الواحة ( وازيس ) ، وكومي أي الصنم  
( في الإيطالية جوما ، وفي الفرنسية جوم ولى  
الإنجليزية جم ) ، والسوسن ، والأليس  
وشبهات ، وهي منطقة إحدى الطرون  
( اسافيط ) ، ( ومنها اسم الناسك في اللغات  
الأوربية ) ، والأبتوس ، ولعل كلمة عبوة  
أي ( الأجر ) مثل من الأصاغل التي يعرف  
ناريخ التناسخ في الطارج ، فقد أخذها  
العرب محمد فتحهم لمصر عن القبطية  
وحملوها معهم إلى الأندلس فدخلت  
الاسبانية . ثم فتح الأسبان جنوب أمريكا  
فاتشرت هناك لفظة ( أدوي ) ثم اتصل  
بالأمريكيون الشماليون بالأمريكان الجنوبيين

مدخل الكلمة في اللغة الإنجليزية  
بشكلها الأسباني .

ومن أثر القبطية أيضاً أن القديسين  
كيرلس المسمى بالفيلسوف وأخاه ميثودوس  
عندما وضعوا الأبجدية الروسية في القرن  
التاسع الميلادي أدخلوا بعض الحروف القبطية  
لما خذوها عن الديموطيقية في الأبجدية  
الروسية .

#### اللغة القبطية وأثرها على العربية

بالرغم من أن اللغة القبطية قد اختلفت  
أمام العربية إلا أن ذلك لم يحصل دون أن  
تضفي شخصيتها المصرية على اللغة العربية وأن  
تصطبغها بصبغة جعلت اللغة العربية في مصر  
تظهر بظهور خاص يختلف عنه في الأقطار  
العربية الأخرى ، كما ظلت العادات المصرية  
القديمة حية حتى الآن في مصر . فمن  
الكلمات القبطية التي دخلت العربية أسماء  
لمسبات مثل برسم ، أردب ، يم ، أم قويق ،  
حلق ، نيس ، بقولمى ، كعلك ، فلة ، كحة ،  
قمة ، لبنة ، ماجور ، تصاح ، ليوت ،  
نوس ، لغو ، الف ، بصارة ، رقال ،  
سلة ، حمان ، ملودية ، نغبة ، تنلة ، سنط ،  
شولة ، شوب ، شولة ، شوربة ، حلوم ،  
رفان ، فوشة ، شيرة ، بلج . ومن أنواع  
المسك : البورق ، والبنى ، واليس ،  
والراى ، والنتال ، والشلج . ومنها أفعال  
مثل شأشأ ، فرقر ، هلفس ، هوكس ، كلكك ،  
نكت ، نط ، تنمت ، ودمس ( دفن ) ،

شبلل ، شن ، شيشي ، وكذلك تعبيرات  
 مثل : الورور للفجبل الصغير ، وقلاق  
 ووجية ( الساعة أو الوقت ) والكانس بمعنى  
 الألف ، وتوت للحاوي بمعنى اجتج ، وليلي  
 بمعنى اقرح ، ونهن ما زلتنا زردعا في  
 « ليلي يا عيتي » ، ويح بمعنى انتهى « وكانى  
 مالى ... » ومنها استعمال أدلة الاستهزام في  
 آخر الجلة ، ولعل من أهم مظاهر القومية  
 المصرية ما نلاحظه في أسماء المدن المصرية ،  
 فبالرغم من اختفاء الأسماء المصرية القديمة

منذ تسعة قرون وهي مدة سيادة اللغة  
 اليونانية ورغم من فرض أسماء يونانية على  
 المدن المصرية مثل : أبولوتوبوليس لقوس ،  
 وأكسينوموس لبيضة ، وليتوبوليس  
 لأوثيم ، وبانوبوليس لأخميم ، وهرموبوليس  
 للأشموليين ، وهيراكليوبوليس لأعناسي فإن  
 الأسماء المصرية لهذه المدن لم تلبث أن ظهرت  
 ثانية بعد دخول العرب ، وكان ذلك لمحافظة  
 اللغة القبطية على هذه الأسماء القديمة .

## الفصل الثالث الحياة الفكرية

### ١ - الإحتاج الدفنى والفلسفة

ولد النضى كل أولئك في سوارخ المدينة وأسواقها . وقامت مناقشات دينية وعقلية حامية كانت تزدى العاصفة لها أحيانا إلى معارك ومنازعات . كما تخالط علماء كثيرون في المكتبة وتناقلوا إلى خصوصية حيناً وفي تهاجم حيناً آخر ، وكانوا يأخذون من الحكام مساعدات مالية ، وهكذا أصبحت مدرسة الاسكندرية المشهورة وأخذت الاسكندرية مكان أثينا كمركز أسمى للعالم اليونانى .

ومن ذلك كنه حصدت لون من الامتزاج التكملى تولدت من أفكار وفلسفات ومذاهب جديدة . بل حدثت محاولات للتوليق بين الأديان المتعددة في حركات عرفت باسم « التوليق » Syncretism :

واليهود الذين كانوا عنزليين عن الأمم ، بقيت جماعة منهم محتشدة بظالمتها بينما لفتلظ الباقون بغيرهم من التعريب ، وصلوا على التعريب بين ديانتهم والفلسفات القائمة فمزجوا بين الاثنين . حتى أنه في القرن الثانى قبل المسيح كتب أرسطوبولس تفسيراً للنسرة حاول فيه التوفيق بين تعاليمها

والعالم الفكرية وقت ظهور المسيحية :

كانت الاسكندرية من وصلت الى درجة عظيمة من الاهمية ، حتى أصبحت لتتبر بحق العاصمة الثقافية للعالم وقلب العالم العلمى النابض . وكانت مكتبتها تزخر بمن يحد إليها من العلماء والفلاسفة وطلاب المعرفة ، لا من بلاد اليونان لمحب وانما من كل جهات العالم ، يجلبون معهم علوم بلادهم وثقافتها . وازدهرت المدينة بأفان من شتى الأجناس والإديان والتخافات ، حتى لكأنها كانت مهدا ثقافيا .

كان فيها المصريون الوطنيين بدياتهم المعروفة ومبادئهم وألهتهم المصرية ، والى جانبهم عاش اليونان بلنتهم العالية وفلسفاتهم وألهتهم الاغريقية والمتنصرة ، والرومان بألهتهم وفرائضهم وثقافتهم وعباداتهم ، وكان هناك اليمسود يمثلون عنصريا هاما في المدينة ولم يمسح حي خاص ومعهم ديانتهم الالهية وكتابهم الموحى به وحقايدهم الموروثة . وكانت هناك أجناس أخرى شرقية في المدينة لها أيضا عبادتها وثقافتها .

والفلسفات المعاصرة « بل قال ان غيتاغورس  
وسقراط وأفلاطون وأرسطو أثروا بكتابات  
موسى النبي واعتصموا عليها في كتاباتهم  
وفيلون القبطيوسف اليهودي الإسكندري  
الذى عاش في القرن الأول الميلادي حاول هو  
أيضا التوفيق بين الفسفل والروح ، وتأثر  
بالأفلاطونية ، وكان له تأثر على المسيحيين  
ليها بعد .

ولكن كل هذه المحاولات للتقريب  
أدت الى الأفكار المتضاربة أفكارا جديدة  
ولم تستطع أن تصل بالناس الى الحق  
الواحد ، بل ظل العقل البشري حالرا يتساءل  
آين توجد الحقيقة . واحتدم النزاع بين  
فلسفات وفلسفات ، وبين أديان وأديان ،  
وبين اللغة والدين ، وبين العقل والأيمان .

**الصراع بين المسيحية والفلسفة الوثنية :**  
وسط كل ذلك ظهرت المسيحية في  
الإسكندرية حوالي سنة ٣٠ م وانتشرت في  
فترة وجيزة في مصر كلها . وكان عليها لكي  
تبقى أن تصمد أمام اضطهاد الحكام ،  
وأن تتصارع مع كل الأديان والفلسفات  
والمذاهب سواء منها الوثنية أو اليهودية .

وهكذا حدثت لمبارزة عظيمة في  
الإسكندرية ، فالتخذ كل من الفريقين أسلحة  
الأخر ليحارب بهما . لدرس المسيحيون  
الفلسفة للرد على الفلاسفة ودرس الوثنيون  
الكتاب المقدس لمواجهة المسيحيين . وهكذا  
لرى « كلدموس » و « بورفيروس »

وصرحا بهاجمون للمسيحية ، تناولها التي  
نوسوها في الإنجيل محاولين أن يخطئوها  
تاريخيا وفلسفيا . ومن ناحية أخرى لرى  
ديديموس الضرر بكتب كتابه عن «الثالوث»  
مستشهدا فيه بكثير من آراء الفلاسفة  
والعلماء والنحباء الوثنيين

وإنهم الوثنيون المسيحيين لدى الحكام  
بأهجمات كشمسية في تصاليمهم وعبادتهم  
وأخلاقهم ، وأدى هذا الصراع الى ظهور فئة  
من العلماء يدفعون عن المسيحية لذكر من  
ينهم أليانغورس أحد أساتذة المدرسة  
اللاهوتية بالإسكندرية ، فقد كتب دفاعه الى  
مرقس أوريليوس قيصر سنة ١٧٦ م .

كذلك حاول أمعاء المسيحية أن يلقوا  
كتبا على نسق الإنجيل لها أبطال سيرهم  
تنسب مسيرة السيد المسيح حتى يغلطوا  
المسيحية بتلك الأساطير الخرافية . ومن ضمن  
كتب هؤلاء « حياة فيثاغورس » التي ألها  
بورفيروس وهي لا تختلف كثيرا عن حياة  
أبولونيوس التي كتبها فيلوستراتوس . ورد  
المسيحيون على كل ذلك متسدين على  
التاريخ والفلسف والملاهوت في  
ردودهم .

هذا الصراع بين الفلسفة والدين ، أضحى  
بين العقل والأيمان الذي يسلم بالمعجزات  
وأموور فوق العقل ، كان من نتائج ظهور  
فلسفة القنوسية « وفلسفة الأفلاطونية  
الحدثية

زعمين الانتصار على الحبس بالانصاف فيه .  
وكان القنوسيون في مصر من النسوع الأول  
الناسك .

ليس معنى هذا أن القنوسيين كانوا  
جميعهم وثنيين ، وانما كان منهم مسيحيون  
أيضا ، ولكن هؤلاء نظروا اليهم تزعيم التي  
اختاروها واعتبروا أنفسهم أشخاصا ووحدين  
على حين اعتبروا باقي المسيحيين كساليين  
فقط غير قادرين على النجاة من الايمان  
الأساسي الي المعرفة الحقيقية ، واعتبروا باقي  
الناس عاقلين أو جسدانيين . ورأوا أن نظرية  
الفداء في المسيحية هدفها تخليص الانسان  
من المادة والجسد ، وقالوا أن هذا كان هو  
عمل المسيح القدائي . ولكن لأن الفريسية  
قد اشغلت على عقائد كثيرة تخالف الايمان  
المبهي فقد طردتها التكنية من صفوفها ،  
وأصبحت من يؤمنون بتلك العقائد ، واعتبرت  
القنوسية بذلك الوضع هيرتة وحادتها .

ومؤرخو الفلسفة يرجعون القنوسية الي  
اياهم تلاميذ السيد المسيح ، ويرون أن  
سيون الساهر الذي حرره بطرس الرسول  
كان أحسن مؤسسا لأول ، على ان  
القنوسية لم تظهر في قوتها الا منذ القرن  
الثاني بعن انتشرت في مصر

وقد تكونت مدارس كثيرة للقنوسية في  
سوريا ومصر وآسيا الصغرى وفي رومة  
أيضا وفي بلاد الفل وقرطاجنة ، وانتشرت  
هذه المدارس على الخصوص في البلاد التي

القنوسية وتاريخها ومدارسها : القنوسية  
منها « المعرفة » واسمها مأخوذ من الكلمة  
اليونانية « جتوسى » ، وقصد ميز  
« القنوسيون » أنفسهم بهذا الاسم عن  
« المؤمنين » ، وغالبا قد دعي قيمة المعرفة  
والعقل من قيمة الايمان . هم وضعوا العقل  
فوق الايمان ، والفلسفة فوق الدين «  
وجعلوا الفكر الخالص رقا على الوحى ،  
بنتائج أن يرفض « بطي المعتقدات ويترك  
المجربات والآليات الخارقة للطبيعة .  
واعتقدوا أن الانسان يتكون من ثلاثة

عناصر : روح وعقل وجسد . وقسموا الناس  
حسب العنصر السائد فيهم الى ثلاث طبقات :  
1 - الروحيين وهم القنوسيون الذين  
رفعهم المعرفة الي مستوى عال فوق المادة  
والحبس وسودهم العنصر الالهي .

ب - الجسدانيين وهم العوام الغاضبون  
تأثير فائدة الحبس .

ج - التمساليين وهم متوسطون بين  
الاثنيين « يسكن أن ترفعهم المعرفة الي درجة  
القنوسيين الروحيين ، ويسكن أن تنحدر بهم  
المادة الي درجة الجسدانيين

وهكذا نرى أنهم حسبوا أنفسهم  
أرستقراطية عقلية قريبة من الله ، وجعلوا من  
قيمة المادة جسدا واعتبروها شرا . فذلك  
بعضهم طريقة تصوفية تحاول السمو عن المادة  
والحبس ، كما التحذر بعضهم الي المعارة

واليهودوس ، وقد نشروا تعاليمه في مسورة متنوعة . وقد هاجم تعاليمه كثير من كبار رجال المسيحية في العالم ، منهم ترتليانوس وأوغسطينوس في افرجيا ، وإريبنوس في بلاد النال ، وإبيفانوس في قبرص وغيرهم .

**الوثائق القبطية :** عثر الباحثون على وثيقة قبطية هامة من الفلسفة القنوسية تدعى « حكمة الايمان » يرجع تاريخها الى وقت ازدهار فلسفة فالنتينوس في أواخر القرن الثاني الميلادي أو أوائل الثالث ، وتجل هذه الوثيقة العقائد العامة لنظام فالنتينوس ، وموضوعها « بنة خيالية بين السيد المسيح وتلاميذه » حدثهم فيها عن كثير من الموضوعات اللاهوتية ، وأسلوبها شاعري مؤثر .

كما عثر سنة ١٩٤٦ في نجع حمادي على حوالي ألف صفحة مكتوبة بالقبطية على البردي بها ٤٧ رسالة في القنوسية ، وهي محلولة الآن في المتحف القبطي بمصر القديمة . وقد أبدى العلماء اهتماما شديدا بها لأنهم يتوقعون أنه تلقى ضوءا على هذه الفلسفة .

**القنوسيون اللاوودوس :** إذا كان قد انطم إلى القنوسية كثير من الوثنيين واليهود أو حسن الميحين الذين طردتهم الكنيسة واعتبرتهم هرامنة ، فإنه قد انضم إليها أيضا جماعة من المسيحيين من كبار مطحن الكنيسة . ولكن هؤلاء لم يؤمنوا بمعتقدات القنوسية التي حاربها المسيحية ، وإنما كان

كانت فيها المسيحية على اتصال قريب باليهودية والوثنية ، وخرجت منها فروع تميز كل منها بطابع خاص مثل النيقولاويين والماركوليين والثانيين . ولكن أقوى وضوح ظهرت فيه القنوسية كان على يد فيلسوفها الكبير فالنتينوس الاسكندري الذي يقول عنه « شافه » انه « أسس أكبر مدرسة للقنوسية ، وكانت له فلسفة خاصة ، ولهذا تمثل طريقته أحسن وضوح انتشرت فيه القنوسية »

**فالنتينوس ١** هو مؤسس أهم مدرسة في الفلسفة القنوسية وأكثرها تأثيرا ورواجا . كان مصري الجنسية واسكندري التصانعة درس القنوسية ونشرها في طابع جديد شاعري له جمال فني . وبعد أن قضى فترة في الاسكندرية ذهب إلى رومنة حيث لمول بترحاب كبير ، وأسس هناك مدرسة قنوسية ، واجتمع حوله عدد كبير من تلاميذه ، وكان من أوائل القنوسيين الذين غلبوا في رومنة . وقضى بها حوالي سبع عشرة سنة أو أكثر من ذلك ، على رأى بعض المؤرخين . لم تركها وذهب إلى قبرص حيث أسس مدرسة أخرى للقنوسية لانت رواجها كبيرا حتى قال عنه القديس إبيفانوس انه « كاد يقضي على الايمان هناك » واستمر هناك حتى مات حوالي سنة ١٦٠ م . وكان له تلاميذ كثيرون سواء في إيطاليا أو في بلاد الشرق ومن أشهرهم بديسان وبطلميوس وهراكليرن

ولكن جيمس هولا — على عكس  
فلاسفة التنوية الآخرين — قد وضعا  
اللاهوت فوق الفلسفة ، والوحى فوق العقل ،  
ونادوا بعدم تناقض الاثنين ،  
«اللاهوتية الحديثة»

وهي فلسفة جديدة ولدت في الاسكتلندية  
على يد «أموليوس حقاص» ، وقد فُلتت  
البشرية لكثرة اسكان الانصهار الماهر  
باللاهوت ، والتثرت انتصارا عظيما حتى  
وصلت الى جميع العقول من عقل الامبراطور  
الى عقل البسيط . وانتشرت بسرعة  
وسط العامة الذين استطاعوا ان يفهموها ،  
وكذلك بين كبار المثقفين لاهتم بدراستها  
وأعجب بها فلاسفة عظام مثل القديس  
أوغسطينوس . وكان لها تأثيرها العميق على  
كثير من ■■■ المسيحية .

اموليوس سقاص : ولد من أبوين مسيحيين  
في الاسكتلندية ، وكان من أسرة فقيرة ،  
ولكنه بعد فترة من الدراسة والتأمل الفلسفي  
مدرسة لاهوتية في الاسكتلندية نشر فيها  
نمايله التي اخذها من دراسة تهنية  
لأفلاطون وأرسطو حاول فيها ان يوفق بين  
آراء هذين الفيلسوفين . وليس ممكنا ان  
نعده بحداد التأثيرات المسيحية التي اجتذبت  
عليها لفلسفة سقاص ولكننا نقول ان الفلسفة  
أخذت على يديه اتجاهات يختلف كلياته عن  
اتجاهات سابقه . لان الأفلاطونية الحديثة  
لم تكن مجرد فلسفة وانما كانت أيضا نظاما  
دينيا « أو كما يقول البعض انها » حولت

لهم رأيهم الخاص ■ التنوية بمعناها السليم  
الذي لا يتعارض مع الدين . وعلى رأس  
هؤلاء القديس اكلينفص الاسكتلندي  
أحد مشاهير من تولوا إدارة المدرسة  
اللاهوتية بالاسكتلندية . وقد وضع كتابا  
مقسما الى ثمانية كتب ومسميا « التنوعات »  
وعارض فيه التنوية الوثنية . وقال ان  
التنوية العقائدية يجب أن تبني على  
أسس من الايمان والمعرفة العليسا التي هي  
الحكمة الالهية . ولم يهاجم الفلسفة كما  
هاجمها غيره من المسيحيين الذين اعتبروها  
خطيرة على المسيحية ، بل انه أعلن ان  
« الفلسفة خادمة للاهوت » ، وان الله أعطى  
الفلسفة ليوناب وليرهم من الأمم لتعدهم  
للايمان المسيحي كما كانت الشرية بالنسبة  
للجمود ، وهكذا اعتبر الفلاسفة « أبهاء  
الوثنية » . ودعا المسيحيين الى دراسة  
الفلسفة وأخذ ما فيها من حقائق ، ودعى ان  
النشوس الحقيقي يجب ان يزود بكافة  
أنواع المعارف لتساعده على الايمان وثبت  
فيه . واعتبر ان جميع المسيحيين الحكماء  
المتحمسين في فهم الحق هم النشوسيون  
الحقيقيون أو النشوسيون الإرلودكي .

وهنا هذا الميدان من أهم أسس التعليم  
في المدرسة اللاهوتية بالاسكتلندية ، وسار  
عليه مشاهير مديريها من أمثال : أوريجانوس  
وديديموس الضرير وغيرهما ، ونشروه بين  
الجموع التي لا تحصى من تلاميذهم .



ولا شك أن اهتمام قادة الفكر المسيحي على أمثال هذا الفيلسوف الخطير كان حليلاً على ما وصل إليه هؤلاء القادة من نبوغ خارق في الفلسفة والعلم .

وبعد مرسوم ميلان سنة ٣١٣ م لم تعد الوثنية هي ديانة الدولة الرسمية ، ولكن الوثنية احتفظت برغم ذلك بنفوذها التتالي مثلاً في الأفلاطونية الحديثة التي أصبحت فلسفة العصر وانتشرت في مدارس الامبراطورية الرومانية .

لأنساً تلاميذ يورغوريوس مدرسة في سوديا ، وذهب إلى هناك كثير من طلاب العلم يدرسون على أيديهم الأفلاطونية الحديثة ليحملوها إلى مدارس آسيا الصغرى واليونان وإلى الاسكندرية ذاتها ، واستمر ذلك إلى نهاية القرن الرابع حتى كانت كتب افولمين تتداول في أيدي المتفكرين أكثر من معارف أفلاطون ، ومثل هذا يقال أيضاً في مؤلفات يورغوريوس .

الهيلينية إلى لاهوت . وقد توفي امونيوس مقاص حوالي سنة ٣٤٣ م دون أن يخلف لنا كتاب . وانما استطعنا أن نعلم فلسفتهم من كتابات تلميذه بلوتينيوس ( أفولمين ) وبورغوريوس خليفة افولمين .

ولد افولمين في أسبوط سنة ٣٠٤ م ودرس الفلسفة في الاسكندرية لمدة إحدى عشرة سنة على يد أموليرس مقاص ، ثم ذهب إلى بلاد الكبرس ليدرس ديانتهم ، واستمر سنة ٣٤٥ م في رومه حيث أنشأ مدرسة للأفلاطونية الحديثة على غرار المدرسة النعوية التي أسسها هناك فالنتينوس الاسكندري . واستمر يدرس في رومه حتى وفاته سنة ٣٧٠ م .

وحلله تلميذه يورغوريوس الذي وضع في مؤلفا شرح فيها تعاليمه ، غير أن يورغوريوس خرج على المسيحية وهاجمها مهاجمة عنيفة . وكان ذا عقلية فلسفية كبيرة وشهرة واسعة ، وقد وطع خمسة عشر كتاباً ضد المسيحية هاجم فيها كثيراً من تعاليمها

## ١١ - مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وأثرها الثقافي

المرحلة الأولى : انتهاء هذه المدرسة :

وكذلك لتقبل المؤمنين أنفسهم ببسائدهم دينهم وتعاليمه وتزويد الرافعين منهم بصا يربونهم من الدراسات العليا والتعمق في فهم الفلسفة واللاهوت . وهكذا تأسست مدرسة الاسكندرية للتعليم المسيحي . ولم تكن هذه الأسباب الايجابية فقط

انتشرت المسيحية انتشاراً سريعاً وازداد عدد المتضمنين اليها ، وكان من الضروري أن يوضع للتعليم المسيحي على أسس منهجية منظمة ، لاخطاء هؤلاء المتحولين إلى المسيحية ما يؤهلهم للمصداقية والانضمام إلى الكنيسة ،

مرقص الرسول ويقول انه هو الذي أسسها في النصف الأخير من القرن الأول الميلادي ، وعهد بادرتها الي تيطس الذي سارغيا بعد استقا للاسكندرية . علي أن شهرتها غمرت بوضوح منذ القرن الثاني وأوائل القرن الثالث علي أيدي مديريها الفلامسينة اثناسيوس ودين شسلي إيتيوس واكليمنطس وأوريجانوس وديونيسيوس ، ثم توقف لشأنها قليلا ، ثم تعطل بعض الشيء في أواخر القرن الثالث ، إذ شئت الاضطهاد أسانذها وملاحا ، إلا أنها ما لبثت أن رجعت في القرن الرابع الي سابق مجدها علي يد مديريها العظيم ديديموس الضرر ، واستمرت الي أوائل القرن الخامس ، ثم سلت زمام القيادة الفكرية للرهبنة في الأديرة .

في الواقع لم تكن مدرسة الاسكندرية هي المدرسة اللاهوتية الوحيدة في العالم المسيحي ، وأما كانت هناك مدارس مسيحية في بلاد أخرى . ولكن لم تسطيع واحدة منها الوصول الي شسلي سيطرة مدرسة الاسكندرية والقولها ، فكانت مدرسة الاسكندرية أهم مدرسة من حيث امتداد نفوذها الي المسيحية ، يأتي المسيحيون اليها من فني الأقطار للدراسة علي أسانذها الذين بلغوا درجة كبيرة من الشهرة ، وتخرج علي أيديهم أساقفة وبطاركة عظماء لكثير من البلدان المسيحية العامة . وكان مدير المدرسة يعتبر الثاني بعد بطريرك في الاسكندرية .

هي الداعية لانتهاها « إنما كان هناك سبب آخر لا يقل عنها خطورة . ذلك أن العالم الوثني كان يقف للمسيحية بالمرصاد يحاول بكل قواه وبكافة الفنون العلمية والفلسفية والاشدية أن يقضي علي هذه الدعاة الجديدة . وهكذا واجهت الكنيسة هجمات فكرية شديدة من فلاسفة الوثنية ورجال السياسة فيها ، وكان لا بد أن توجد مدرسة عليا لزود الكنيسة بمسامة للفكر ، وتقدم للمسيحيين المعرفة الكافية التي تمكنهم من الرد علي خصومهم . سرأ كان ذلك في مجادلالات فردية أو جماعية . وكان غرض الفسجية من هذه المدرسة اللاهوتية هو الرد علي الفلاسفة الوثنيين وأبائهم ، وحماية المؤمنين ما يبروه ليهم من كسوك ، ويشير أولئك جميعا بالمسيحية وتعرفهم طريق الحق .

وهكذا ركزت كل تلك الاحتياجات الفكرية في المدرسة اللاهوتية ، ويشطور تلك الاحتياجات وازديادها كانت المدرسة بعدل في مناهجها ونصيب اليها مواد جديدة لتفي بحاجة العصر ، وهكذا كان نمو المدرسة نتيجة لطبيعة الاحتياجات التي واجهتها ، والتي تشورت بها حتى أصبحت صفة كثر ويد الطلاب بكل أنواع المعصاولة الدنيوية والكنسية .

#### تلويح المدرسة وشهرتها :

وتاريخ هذه المدرسة يرجعه يوسابيوس التيمري والقديس جيروم الي زمن القديس

وكثيرا ما اختير بطاركة الاسكندرية من بين  
مديرى هذه المدرسة اللاهوتية . وقد اعطى  
هذا لبطاركة الاسكندرية مركز الزمامة  
العسكرية والعلمية في العالم المسيحي كله ، إذ  
كان كثير من أساقفة العالم المشهورين  
تلاميذ لهم تخرجوا على أيديهم أو على أيدي  
تلاميذهم في مدرسة الاسكندرية ، وظلوا  
بعد رسامتهم أساقفة ، على صلة بأساتذتهم  
الاسكندريين يستشيروهم في مشاكلهم  
ولذلك لقب بطريرك الاسكندرية بلقب « قاضي  
المسيحية في العالم » . وكانوا يمتدرون في  
المجامع المسكونية حجة ومصدرا للتعليم  
الصحيح .

#### مناهج اسكندرية

قدم النبا القرن الثاني للميلاد ثلاثة  
مديرين للمدرسة كانوا فلاسفة ونبيين ،  
تمسقوا في الفلسفة اليونانية ثم درسوا  
المسيحية لئلا يهملوها أو يندوخوا ، غير أنهم  
ما لبثوا أن آمنوا بها وادغموا عنها ،  
وتطوروا حتى صاروا مديرين للمدرسة  
الاسكندرية اللاهوتية ، وهم أثناسيوس ( سنة ١٨١ م ) ،  
( سنة ١٧٩ م ) ، وبنيثوس ( سنة ١٦١ م ) ،  
والكلينطس ( سنة ١٩٠ م ) ، ولقد ظل  
أثناسيوس يرثي زى البلاطه وهو مدير  
المدرسة المسيحية .

وخلفه تلميذه بنيثوس الذي نجح نجاحا  
كبيرا في ادارة المدرسة بعبء الرعايون في العلم  
والدين بقصودها من كافة أنحاء العالم . وكان

ممن استمعوا اليه تجار من الهند فأعجبوا به  
جدا واعتنقوا المسيحية بحماسة عظيمة ولم  
يكفوا بذلك بل حركتهم غيرهم الدينية على  
خلاص مواطنهم أن يرسلوا — بعد رجوعهم  
الى بلادهم — وقد االى البابا الاسكندري  
ديمتريوس بالتسمون منه أن يسمح بإرسال  
القدس بنيتوس الى بلادهم فبشروا بالمسيحية  
فأولم في ستة الى هناك سنة ١٩٠ م فترك  
المدرسة في يدي تلميذه الكلينطس وذهب لى  
رحله المخوفة الى هنالك . وفي رجوعه من  
الهند عرج في زيارة بشدية على الحبشة  
وبلاء العرب .

ويرجع اليه الفضل في تقديم أقدم ترجمة  
قبطية للكتاب المقدس ترجمها بمساعدة تلميذه  
الكلينطس الذي عاونه في ادارة المدرسة  
وخلفه فيها .

الكلينطس الاسكندري ، وهو واضح  
السياسة المتعقبة الجريئة التي سارت عليها  
مدرسة الاسكندرية المسيحية في كافة  
عصورها ، وكان قبل تحوله الى المسيحية  
فيلسوبا وثنيا ، درس فلسفة اليونان ثم جال  
يطلب العلم في بلاد اليونان وابطاليا وفلسطين  
ومصر وبلاد الشرق الأدنى ، غير أنه لم يجد  
مسلما بخيرا من أستاذ بنيثوس ، وهو مثل معلمه  
نخب في كافة العلوم الدينية والكنسية ، وتظهر  
معارفه الواسعة في مؤلفاته وفي الطابع الجديد  
الذي اخذته على يديه مدرسة الاسكندرية  
وحدد فيه العلاقة بين الفلسفة والدين ، كما

فتح الباب امام تلاميذه لجميع انواع المعرفة .  
وقد وضع كتابا كثيرة لها اهميتها الدينية  
والعقلية . ومن اشتهر كتبه الفلسفية كتاب  
و المتنوعات « ألفه ليحاض به الفئوسية  
المنعرجة ، ووضع فيه الأسس التي ينشئ أن  
يسير عليها الفئوسى العقلي أو الفيلسوف  
المسيحى . ولما لاد الاضطهاد الاميرالمسور  
سبتيموس ساويرس هجر الاسكندرية سنة  
٢٠٢ م تاركا المدرسة في يدي للشيخ العظيم  
العلامة أوريجانوس الذى ❦ شجرة ولما

تابنا مثل أوريجانوس ، فهو أشهر فليسة  
أوريجانوس: لم تعرف المسيحية ليلسوقا  
سبحية في مصر وكى العالم المسيحي كله  
طوال عصوره المتتابعة . وقد سار في قيادة  
مدرسة الاسكندرية على مياة استاذ  
الكليمندس .

ولد حوالي سنة ١٨٥ م وكان له ذكاء  
خارق للمادة وقدرة عظيمة على الاستدكار  
وصبر على الدرس والاطلاع . واستطاع في  
من حكمة أن يستوعب قدرها ضخما من  
المعلومات قائم بالفلسفة والمنطق والهندسة  
والرياضيات والموسيقى والبلاغة ، وجميع  
بين معلومات المدرستين المسيحية والوثنية ،  
فدرس على القديس الكليمندس الاسكندري  
كما درس على أمونيوس السقاس مؤسس  
الأفلاطونية الحديثة . وقى سنة ٢٠٢ وهو في  
السابعة عشرة من عمره ميت والده الى  
الاستهاد في أيام الاضطهاد الذي آثاره

سبتيموس ساويرس . فبينما جرعت والدته  
أرسل هو الى والده يشجعه ويقول ❦  
« لا تراجع ولا تصنف بيتا » .

وتحت ضغط الاضطهاد اضطر القديس  
الكليمندس الى ترك الاسكندرية فمهد  
الطريق لرك ديمتريوس بإدارة المدرسة  
اللاهوتية الى أوريجانوس وهو يمد في الثامنة  
عشرة ، وكان هذا اعتزالا بما وصل اليه هذا  
الشاب النابغ من عبقرية فذة . ولقد أصبح  
فجأة كبيرا جدا في عمله في التدريس بل  
صار اعظم استاذ عرفته الدراسات المسيحية .

وعرفه عليه طلاب العلم من كافة  
الأقطار ، ومخرج على يديه أساقفة وبطاركة  
وقادة للكنسوب كما درس عليه فلاسفة  
ونثيون وحرافقة واستطاع أن يجذب كثيرين  
منهم الى الإيمان . وكان لدوره في الفضيلة  
والسك حتى انه لم يثنى النظر ولا اللبس في  
حياته . ولم يكن له غير ثوب واحد . وقال  
عن يوسابيوس « انه كان مثالا في الأخصال  
للفيلسوف العقلي : كما يتكلم ، هكذا  
أعماله ، وكما هي أعماله ، هكذا يتكلم » .

ولم يثن عن التعليم مع عتبه الاضطهاد ،  
وكان هذا الاضطهاد لا يجعل التعليم سميا  
فحسب بل كان يجعله خطرا أيضا . ولم يكن  
للمدرسة بناء خاص فكان التلاميذ يقطعون  
حول مسكن أوريجانوس أو يأتون اليه لتلقى  
العلم . وقد اشته الاضطهاد على أوريجانوس  
لدرجة أنه لم يوجد في المدينة كلها أى مسكن

له وإنما انتقل من منزل إلى آخر وكان يزد من كل مكان يعلم فيه نتيجة للأعداد الوفية التي كانت ترمز على يديه .

وكان في أثناء الاضطهاد يزور تلاميذه في السجن ويمطعمهم إلى حيث المحاكمه يربطهم إلى مكان الاستعداد : لا ينالي أن يكون معهم تحت سمع وبصر حلائهم ، قبلهم ويشجعهم إلى أن يلبسوا الروح ، بل أنه وطع كتابا في الحرم على الاستعداد .

ما من انتاجه العلمي فهو نظم انشاج مؤلف حتى قبل انه كتب ستة آلاف مؤلف ، وابن خلدون يجعل مؤلفاته حوالي الألف . ولأنه يملئ على عدد كبير من النسخ ، وقد قال عنه جبرون انه كان يفسر أو يملئ حتى وهو يأكل ومن أشهر الأسماء التي قام بها جمع نسخ الكتاب المقدس وترجماته القديمة ، فكاناها ولم اجعنا وتصحيح ما احاج اني تصحيح وقد استمر في هذا الجهد العجيب ٢٨ عاما ، فوضع : انكسلا : في ذات الإصعدة السنة لأنه دارق بين ست ترجمت لكتاب المقدس جميعا في أسفاره الكثيرة . كما وضع كتاب : المبادئ : و كتاب : الرد على كلسوس : وتفسيرات عديدة للكتاب المقدس حتى وصفه انكسندر أستاذ تورشليم بأنه : أسناده الأساقفة وأمير مفرى الكتاب : وراه إلى رتبة الكهوت تشاء مروره بعلطين في أحد أسفاره .

وقد استاء من هذا العمل البطريق ديثريوس وجمع مجعما حرم فيه أوريجانوس ، فتركه الاسكندرية وأسس مدرسة في قيساوية فلسطين على نهج مدرسة الاسكندرية ، وازدهر عليه طلاب العلم هناك . وموضوع حرم أوريجانوس ما يزال حتى يومنا هذا منار جدل بين اللاهوتيين حول أسبابه ومدى الحق فيه . على أن البطريقين اللذين خلفا ديثريوس في كرسى الاسكندرية كانا من تلاميذه أوريجانوس ويقال أن أولهما أعداء من ذلك الحرم .

ولم يقتصر نشاط أوريجانوس على التعليم والتأليف بل امتد إلى البشير ، فسافر إلى روم وإلى بلاد العرب لقصبا ، على بعض الدع فيها كما سافر مرارا إلى أثينا كما ذكر : هارناك : .

ولما تولى ديسوس عرش الامبراطورية الرومانية آثار اضطهاد اشديدا على المسيحيين . ولم ينح أوريجانوس من هذا الاضطهاد بل فبس عليه سنة ٢٥٤ م وسجن وجذب مذابا البيا ، ويقول يوسابيوس : يصعب على الكاتب الماهر وصف ما لحسا أوريجانوس وما احتله في صبر وإرتياح من الصدايات المرة والألام العاسية أثناء هذا الاضطهاد . ولكنه لم يكن فخطي سبيله بعد أن تطورت صحته وكاد يشفى على الموت . ولم يمض بعد ذلك سوى ستين أو ثلاثا حتى انتقل من هذا العالم بعد أن ترك فيه شعرة لا تحصى .

وقد كان مهذباً في نضاله ضد الأريوسيين  
والوثنيين ، إذ كان كل جهده مركّزاً في أن  
يفنهم ويحولهم إلى الحق لا أن يهزمهم .  
وهكذا تحاشى السباب . وجاءت كل كتاباته  
موسومة بروح الاعتدال . ومن أجل ذلك  
جاء إليه كثير من المرافقة يفتشون العلم على  
يديه . كما هبّت لأوريجانوس - وأهتدى  
على يديه كثير من أمثال أوريجانوس إلى  
الإيمان .

وقد ذاع صيت ديديموس وأنتهجه  
القدّيس الأسكندر بقوله : لا يعزّك لقد  
بصرّك إذ لزمّت مسك أعين جديّة كأنّ  
يستنكها الشّرّان والذّباب . وأحرى بك أن  
تسمع لأنّ لك أعيان كالملائكة ترى بهما  
اللاهوت وتدرك نوره ، كما أنتهجه كثير من  
قدّيس الغرب وكتابه . وكان القدّيس جبروم  
يفخر بأنّه تلميذ لديديموس وأنّه أفضله  
قدوة له في دراسة الكتاب المقدّس كما ترجم  
له أحد كتبه ، ومن تلمذ على يده دوفينوس  
أيضاً : تلمذ عليه ثمان سنوات ،

وهكذا استطاع ديديموس أن يهيّد  
لمدرسة الاسكندرية المجد الذي كان أبا "يام  
أكليمنطس وأوريجانوس . وانتشر في عمله  
كعلماء حتى نهاية جيلانه سنة ٢٩٨ . وعظف  
حوالي ٤٨ مؤلفاً فيها في اللاهوت والتفسير .  
وكان سنداً لآنايوس وحصناً فكرياً  
للكنيسة عظم قوة الأريوسية ، وفند كل  
مغالطاتها العقلية .

أما ديديموس اتّصير قسمه ولد في  
الاسكندرية سنة ٣١٤ م في السنة التي وقف  
فيها اضطهاد الوثنية للكنيسة . وفي حوالي  
الرابعة من عمره فقد بصره لمرض أصابه في  
عينه . فبدأ يدرب ذاكرته بديماً دقيقاً حتى  
أصبحت تاعده على حفظ كل ما يسمعه ،  
ولما كبر بدأ يعلم نفسه القراءة بعفء الحروف  
على قطع خشبية يعضها بأصابعه كما تفعل  
المؤرخ سوزين بذلك ، وهكذا استطاع  
ديديموس الضمير أن يسبق طريقة برايد  
بضعة عشر قرناً . وتمكّن من احصاء علوم  
كثيرة ، فأنمّ بالشعر والبلاغة والفلك  
والهندسة والعمارة ونظريات الفلسفة على  
نوعها . كما برع في العلوم اللاهوتية  
ودراسة الكتاب المقدّس حتى استحق أن  
يعينه القدّيس آنايوس مدرساً للمدرسة  
اللاهوتية بالاسكندرية .

وفي ذلك الوقت كانت الحركة  
الأريوسية على أشدها ، وكان التمسك  
محظوظاً بالتأليب بسبب تدخل الحكام المدينين  
بأمره ضد الإيمان السليم مما عرض الأضافه  
والمعالمين للنفس والاضطهاد . ولكن ديديموس  
لم تكنه اضطهاداً بل "باطرة الرومان لبشريته  
الناميوس الذي شق من كرمه خسر مرات  
بل وقف يجاهد معه بكل قوته ■ سبيل  
الإيمان ضد الأريوسية التي ياضرها  
الباطرة ، كما حارب بقايا الوثنية الممتدة في  
الأفلاطونية الحديثة وسائر الفلسفات .

الجديدة ، وترعت ، القومية ، وضرت  
هاتين الفلفتين في أرجاء العالم المتخف لهذا  
كله كانت هذه المدرسة الوثنية القوية متخفا  
خفيرا للمدرسة المسيحية الناشئة التي كانت  
تشمل أعلى مجهود للمسيحيين في فرائهم  
التيكروى مع الوثنية .

ومع ذلك عاشت المدرستان جنبا الى  
جنب ، كل منهما كان لها طابعها الخاص ،  
وكانتا كمرآة تنكس الحسالة الثقافية في  
الاسكندرية وقتذاك . وقد اثر كل منهما  
في الأخرى . مثال ذلك ان أمونيوس سقاس  
كان في المكتبة يحصل التعليم الذي تلقاه  
سابقا عندما كان مسيحيًا ، بل ربما كان  
اتجاهه نحو الأفلاطونية الحديثة من تأثير  
المسيحية . ومن ناحية أخرى ، تأثر  
أوريغانوس بمحاضرات أمونيوس في  
المكتبة ، وانشر كاثليكاغوراس يلبس زي  
الفلافة حتى يسهل أن صار متناذا في  
المدرسة اللاهوتية .

ولكن هدف التعليم في المدرستين كان  
مختلفا ، فتدريخ التدريس في المدارس الوثنية  
يدأنا على أن الطلبة كانوا يعلمون ويقرنون  
لجباؤا مذاهب الدولة ، مما لم يكن هذا  
من أهداف المدرسة المسيحية وإن كان  
خريجوها يصلحون لذلك عن طريق غير  
مباشر . وبينما كان المهتم في المدرسة الوثنية  
هو التقدم الثقافي وكان المستوى الأخلاقي  
للأسانفة منخفضا ، فإن العهدة الفاضلة

سكتب سوسابوس القيسري في منتصف  
القرن الرابع يقول : ان المدرسة استمرت  
الى أيامنا وسنمنا أنه أدلواها وجاه أتواها في  
علومهم ، وعبورون على الأمور اللاهوتية .  
ويكتفون أن الاتنين اللذين خلفا أوريغانوس  
صيارا بطريركين للاسكندرية ، أحدهما  
القدس ديموليس صاحب العميت الذائع  
في المعرفة اللاهوتية ، ولانيهما يوريبوس  
الذي كان ناسبا في الفلسفة والعلوم اللاهوتية  
ويطول عنه الفديس جبروم الله « درس  
تلاميذه كل أنواع المعرفة بمسادة وكف  
مقالا في شتى العلوم حتى لقب بأوريغالوس  
الصغير » .

العلاقة بين المدرستين الوثنية والمسيحية :

كانت المدرسة الوثنية قد بلغت ذروتها  
في العلوم والفلسفة في القرون الأولى  
للمسيحية ، ولم تكن توجد أية مدرسة في  
العالم القديم تعادلها كمركز للدراسات  
الطبيعية والعلمية في الطب والتخريم  
والرياضيات والفلك والجغرافيا وحتى في  
انقده الأدنى . وإذا كانت أفسس قد تبرزت  
بدراسة الفلسفة ووجدت فيها فلسفات كثيرة  
مستغلة الرامدة عن الأخرى فإن مدرسة  
الاسكندرية الوثنية درست فيها كل هذه  
الفلسفات مما ، تدارسها علماء يشلون كل  
فلسفة اجتمعوا معا في المكتبة والبراييوم -  
بل ان الاسكندرية أنجبت « الأفلاطونية

والأخلاق كاتب من أبرز خواص المدرسه المسيحية سواء في المدرسين أو في الطلبة . ولعل أهم اختلاف وأوضحه هو أن الفلسفة والعلوم تأتد تدرس في المدرسه اتوثيقه ل مجرد الثقافة بينما كانت تدرس في المدرسه المسيحية لغرضي ديني .

فأدنى آخر بين المدرستين وهو أنه طلبة ائدرسه الوثنية كالوا من بسوى تقالى واجتماعى معين وكانوا ذكورا ، بينما كان التعليم عاما لى المدرسه المسيحية بثلاثه السيد والعبد ، الكبير والصغير ، الذكر والأنى ، بعضى النظر عن الدين والجنس والثقافة . وهكذا حفظت ائدرسه المسيحية كل العوارى الاجتماعية وفتحت بفسها أيضا للفلسفة اتوثيقه والهراقة ، واداد عدد طلبةا ازيداأا كبيرا .

على أن المسألة الجارة بين ائدرستين كان لها اثرها اضعاف اتقوى في نمضة واذهار العلوم والفلسفة واللاهوت لى تلك القرون الأولى للمسيحية ، فاضطرت المدرسه المسيحية أن تدخل في راسحها كل المواد التى تدرس لى مدارس الوثنية ، حتى لا يشعر طلبةا بأنه ينقصهم نوع من الثقافة تماز به المدرسه الوثنية ، وحتى يستطيعوا الرد على حصان الفلاسفة والعلماء الوثنيين .

وهكذا دخلت الفلسفة الوثنية بشتى فروعها في منهج المدرسه المسيحية على يد العديس اكليمنطس الاسكندري الذى نادى

بأن الفلسفة خادمة للاهوت ، وأن الفئوسى الحقيقى من المسبحين يجب أن يزود بفسه بكل أنواع المعارف البشرية ، أخذا من كل فرع من فروع الدراسة ما فيه من العن . وارشت دراسة الفلسفة لى المدرسه المسيحية حتى أن كثيرا من الفلاسفة الوثنيين كانوا يلجأون الى أوريجانوس لدرسون على يديه الفلسفة الدينية واللاهوت .

وأدخل اكليمنطس دراسة الفلسفة لى المدرسه المسيحية ، ودخل الى جانبها دراسة اللغات والبلاغة والشعر والمنطق والفنود والموسيقى ، العلوم الطبيعية والهندسة والرياضات والفلك والجغرافيا ، كل ذلك وجد له موحا في منهج اكليمنطس ووجدت له علامة بدراسة اللاهوت . وسار خلفاء اكليمنطس على نفس هذا النهج . وهكذا خال أوريجانوس أن أولئك الفلاسفة يتكلمون عن الهندسة والموسيقى والأدب والبلاغة والفلك كماوا لى للفلسفة ، ونحن بنفس الأسلوب نتكلم عن الفلسفة كماوا لى للمسيحية .

ولم يتكف مساندة المدرسه المسيحية بتدريس جميع هذه المعارف فحسب ، وإنما ساعدوا طلبتهم أيضا على القراءة . تحت ارشادهم لى كتابات كافة المؤلفين دون أن يسموهم عن شئ . فكان الطلبة يظفون بكل أنواع المعارف ويحفظونها ، ولم يرفض الأسانده فى محاضراتهم مناقشة أى موضوع يسألون فيه .



ولما كانت المعرفة لا تحد فقد كانت مدة الدراسة في المدرسة المسيحية غير محدودة فالقديس افرنجوريوس صانع المجاثب ( بعد ان اكمل دراساته في النطق واللغة والبراعة في اثينا وبيروت ) تنظف سبع سنوات على اوريجهانوس وكان يسمي لو انجح انه ان يقضى بقية حياته في المدرسة .

فجعت المدرسة المسيحية كل هذا النجاح على الرغم من انه لم يكن لها بناء خاص ولا مكتبة خاصة ، ولما كان اساتذتها يلقون دروسهم في منازلهم او في قاعات يمتلئونها لهذا الغرض . وكان الطلبة والاساتذة يذهبون الى مكتبة الاسكندرية العامة للقراءة والاطلاع .

واضافوا الى كل ذلك دراسة الاخلاق وتدريب الطلبة عليها تدريجا عاليا . وكان المدرسون قدوة صالحة لطلبتهم في الحياء والفاصلة المثالية ، وما حثوهم على فضيلة الا كانوا قد مارسوها هم انفسهم قبلها وتذوقها .

وهكذا كان من نتائج المناهج بين المدرسين قيام نهضة علمية وفكرية واسعة النطاق لا تقهر لها في أي بلد آخر من بلاد العالم المثلث . واصبحت الاسكندرية بحق عاصمة العالم الثقافية سواء للمسيحيين او للوثنيين ، وصارت مقصد كل راجع في الدراسات العليا في شتى العلوم الدنيوية والدينية .

### ٣ - الإنتاج العلمي والأدبي والثقافة الشعبية

الانقباط أسانذة تخرج عنهم كثر من علماء العالم القديم .

١ - ولفسوس فيهم هيرقلياس مؤسس علم التشريح ، وابريسنتراتوس مؤسس علم وظائف الأعضاء ، وديموكريتوس صاحب الفسفية الذرية . كما ظهر المصالح المأهر كريبليوس كالمعروف الذئق وفسم تذكرته الطبية الشهيرة لمنح لطف الإنسان ، وسرايود الاسكندري الذي تنبى في دراسة عقاقير قدماء المصريين ، ولا سيما الكركسة الطعم منها ، وهو الذي قدما للمصور المتنابهة فظلت مستعملة الى القرن الثامن عشر .

#### الإنتاج العلمي

ورث الانقباط عن اجدادهم الفرائنة راحة في الطب والتشريح والكيماويات والصيدة ، والهندسة والملك . واستمروا على بلوهم في هذه العلوم طوال العصرين اليوناني والروماني ، حتى أصبحت مدرسة الاسكندرية الوجة القديمة هي أقوى مدارس العالم في هذه الدراسات . ثم تأسست المدرسة القبطية المسيحية واضطرت ان تدرس هذه المواد أيضا . ونج عن كل ذلك نهضة علمية لا متبيل لها ، ونبع من

بعض أمراض النساء والأطفال وقد وصف كثيرا من العلاجات لأمراض العيون وبعض القطرات والمساحيق منها فطرة قايضة لمنع التزيف . ولا تخل بردية «زيون» أهمية عن هذه البردية أيضا . وهذه البرديات تربيها مدي ما وصل اليه سيادة الأطباء من معرفة بأسول فن صناعة الدواء وتحضير المصقات كما يدل على علمهم الوافر بالأنفعالات الكيميائية المختلفة وبالأخص التي تتم على النار .

ويقول « بيتولنسكي » في كتابه الطب الشعبي المأثور أن كثيرا من العلاجات والمستحضرات الحلاجية المعروفة في أوروبا منذ القرون الوسطى تعمل الطابع المصري القديم كما أن الكثير من هذه الوصفات لا زال مستملا في مصر وفي كثير من بلدان الشرق

وتم بوق البوغ الأبحاث العلمية على الطب والصيدلة والكيمياء وأنصارها في الحساب والرياضة أيضا ، وليس أدنى على ذلك من أنهم تولوا الاهتمام التحصيلي والمالية والإدارية طوال العصر الإسلامي . بل ظفروا إلى عهد قريب يشغلون عابرة وظائف الدولة في هذا الميدان .

ولم يخل نوعهم في الهندسة وأعمال البناء عن نوعهم في الطب والجساب . وتشهد على ذلك الكتابات الفخمة التي بنوها والأكبر ذات الأسوار والحصون الفخمة .

ووضع انقبط في الإسكندرية عالية المصطلحات الفنية ومنها مثلا كلمة medicina عقاقير و medicamentus دواء أو سم و sporbera معزز الدواء . وأخذ عنهم العالم هذه المصطلحات التي ما تزال مستعملة .

وهذه الشهرة التي بالها مصر المسيحية في الطب والصيدلة والكيمياء جذبت إليها العلماء من أقطار العالم للدراسة على أساليبها . ومن أمثلة ذلك جاليلوس العالم المפור الذي ظهر في القرن الثامن للميلاد والذي سب إليه مجموعة العقاقير الجاليلية المستعملة في هذه العصور الحديثة ، هذا العالم تلميذ في الإسكندرية وأخذ من جاسينها فلسفته وطبه وسيدته .

وقد نسط العالم للدراسة المخطوطات القبطية الخاصة بالدراسات الطبية ولحق ما فيها من فائدة وقد ظهر بحث للأستاذ « تل » في العقاقير الطبية القبطية يبين منه مدى تقدم الإقباط في الصيدلة والكيمياء والطب . كما وضع الأستاذ « دوسن » سنة ١٩٤٣ م كتابا عن تاريخ الطب عند الإقباط في القرون الأولى للمسيحية وشرح بالاضافة إلى العقاقير أدوات الجراحة التي كانوا يستخدمونها .

ومن أهم ما وصلنا من المخطوطات الطبية القبطية بردية « شاسيناد » التي تتنازل بعلاج أمراض البيون ومداواة الخراجات وعلاج

د كريسويل « الأثر القبطي على فن العمارة  
الاسلامى المتمدن في مقال له نشره في مجلة  
جسعة الآثار القبطية سنة ١٩٣٩ .

ومن آثارهم في الفلك حساب الأبطي  
الذى وضعه في القرن الثانى للميلاد المؤلف  
ديسيريوس بطريرك الاسكندرية . وسائر  
الأقباة هم الذين يهدد اليهم بتحديد الأعياد  
والأصوام للعالم المسيح كله . ومثال ذلك  
أن مجمع لبقية سنة ٣٣٥ م لموسى بطريرك  
الاسكندرية بتحديد التاريخ المفسوط لعيد  
القيامة بعد أن تصاربت أقوال علماء المسيحية  
في ذلك .

### صناعة الورق

وجدنا من مخططات العصر القبطي الكثير  
من البرديات التى تثبت أنهم أجادوا صناعة  
سبعة أصناف من الورق للكتابة ، وقد استغل  
المصرى هذا الورق أحسن استغلال ف قد تدوين  
طومه وآدابه منذ تقدم عصور حضارته .

فالمصرى لم يكل عصوره .. إذا ما تناول  
الفن أو العلم — أظفر ثباتا على مصرته  
ومخالفة على رآيه . وذكر الأستاذ «جوجيه»  
في معرض كلامه عن مدرسة الاسكندرية في  
مقال له عن عصر الانقراض في مصر من  
أيقونية الى القبطية ما ترجمته « لقد سعى  
الاسكندر الأكبر معه ليصبح الروح المصرية  
بالصبغة اليونانية ، واقضى البطالة اثره في  
ذلك ، وحاولوا جدهم أن يستميلوا المصريين  
ويشغفوا على الفكر المصرى مسحة يونانية

وليس أدل على ذلك من آثار « ألامينا »  
بمريوط ، والدريون الأبيض والأحمر في  
منطقة سوهاج . وغير ذلك من الآثار المعمارية  
الكثيرة الدينية وغير الدينية . بل أن هذا  
الشيخ المشهر معهم فقد ذكر « الأذرقى »  
في كتاب تجار مكة أن الكمية طنى عليها  
قبيل ظهور الاسلام سبل عظيم صدع  
جدرانها ، فأعادت قريش بنائها مستعينة  
في ذلك بنجار قبطي كان يسكن مكة .  
وأثبت الأوراق البردية التى حتر عليها في  
مصر أن الوليد استعان بالقبط في بناء مسجد  
دمشق والمسجد الأقصى ، والقصر أمير المؤمنين  
هناك . ويذكر « البلاذرى » « فطوح  
البلدان أن الوليد استعان بالقبط في إعادة  
بناء مسجد المدينة .

ولما أعاد عمر بن عبد العزيز بناء الجامع  
النبوى في المدينة عهد بذلك الى مصارعين من  
القبط بنوا فيه أول محراب مجسوف في  
الاسلام ، وقد أخذوا شكله من حنية  
الكنيسة . وأثبت العلماء أن قصر المشتى في  
شرق الأردن الذى يرجع بناؤه الى منتصف  
القرن الثامن الميلادى قد تأثر في إخارقه  
بالزخارف القبطية وفي تخطيطه بتخطيط  
الدورن الأبيض والأحمر بسوهاج . وتجلي  
البوابة الفاخرة في بناء مهندس قبطى هو سعد  
ابن كاتب النمرحاني لجامع ابن طولون  
مستخدما في ذلك عودين فقط بعد أن قال  
المهندسون لابن طولون أن ذلك التعميل  
يحتاج الى ما لا يقل عن ٣٠٠ عود . وبين

بحة . وقد تنهوا في هذا السبيل مدة ستة قرون يحاولون فيها الوصول الى غرضهم . وخيل اليهم أنهم نجحوا في الوصول الى هدفهم لا رثوا المشرق وقد شغل بحلف انواع الثقافات . يأخذ منها أينما وجدها . ويستمتع بالفن حينما يلقاه . ولكن المصري له قسوة عجيبة على تكيف الفنون وفق مزاجه . ويستسيغ العلوم بحسب ذوقه ، وهو — بعد هذا كله — مصري أصلت جذوره في هذه التربة التي ازدهرت فوقها حضارته العريقة . فالمصري — مع كل ما بهضمه من علوم وفنون غربية — فخور باسمه ، شغوف بلاده . لهذا الفخر وهذا الشغف متأصلان فيه الى حد بعيد القور ، فهو ثابت في مدرسته بحيث لا يمكن اقتلاعها منه أو تعرجه عنها مهما نوعت المؤثرات .

لنضيف الى كل هذا ان أقباط مصر وبطاركتها ظلوا عند التشريع الكنسي طوال القرون الاولى للمسيحية وكانوا يعتبرون حجة في تنظيم قانون الكنيسة للعالم المسيحي .

### التاريخ الكنسي

١ = التاريخ بطاركة الاسكندرية

كان مصر مكانه رغبة بين دول الممانم في بوحى الحياة كلها مجتمعة اباد عمود الفراغنة . وكانت المبودات المصرية في دلالتها تتم عن فكر سام رفيع . اذا قيسن بمبودات الشعوب الأخرى . بن استمارت

البلاد الأخرى أحيانا المبودات المصرية لمبادتها .

فلما دخلت المسيحية مصر وانتشرت بها ، غدا للكنيسة المصرية نفس المركز الديني الرفيع بين كنائس العالم . وساعد على ذلك ما عرفه عن علماء مصر من تحقق له معارفهم وعلومهم . ولما أخذ الجسد النديس يشهد ابتداء من مطلع القرن الرابع الميلادي ، طغمت امطامع العالمية ( المسكونية ) بدعوة من الباطرة الدولة البرنولية . وكانت رئاسة تلك المحاميع . التي حصرها مساقلة مندوبون عن كنائس العالم انجيح كله — تسند الى ثعلب الأحيان الى بطاركة الكنيسة المصرية .

هكذا كان ابطاركة الكنيسة المصرية مركز سام في العالم اجمع . وكان الإباطرة الميحيون يجلولهم ويلتسسون بركتهم ويعبدون لهم وزرا . لأنهم كانوا زعماء يمثلون قوة شعبة جبارة . سافا نفس مصامح أولئك الأباطرة .

ومن ثم كان التاريخ اعلاها البطاركة — الزعماء الضحيين . أمر هاماً للغاية . فلهذا اشتركوا في المبادات السياسية التي دارت والتي كان لها طابع ديني خلى الأعطب ، فقد يحدث تجانا أن يمتنق الأمر المور الروماني مذهبا دينيا معينا في فطاق الميحية ، ويرى أن يرغم رعيته في تعاء اميرالمورته على اعتناق مذهبه حتى يضمن بذلك الجانسي بين

شعوب الامبراطورية تبعا لوحدة المقدس ،  
 فيسب عبدا بين الشعب والحاكم الصدام  
 والحروب والثورات . وكان البطارقة يحق  
 زعماء شعيين في تلك الاوقات المصيبة ،  
 قادوا الشعب ولم يعبأوا بالعديد والنبار .  
 واضفروا اولئك الاقباسه ان يحثوا الرؤوس  
 لهم اجبالا واحتراما ، فأرج الناس لهم  
 واعصرهم ، حتى تستطيع ان تلم بالكثير من  
 الثقاليد والعادات المصرية بل وبناهي العبادة  
 المختلفة من مشروع هذه التراجم التي تظهر  
 لنا روح العصر الذي عاش نفسه هؤلاء  
 البطارقة .

#### المصادر التاريخية لسير البطارقة :

دريس مؤرخون كثيرون لسير بطارقة  
 ادينية مصرية ولعل من اقدمهم .

#### ١ - مؤرخا النبوس :

في النصف الثاني من القرن السابع  
 الميلادي ، كتب تاريخا جديدا يخلق العالم الى  
 ما بعد الفتح العربي لمصر بزمان يسير .  
 ويهوى تاريخه اعداءا متعلقة من الابهاء  
 البطارقة من مرقس الرسولي الذي بشر  
 بالمسيحية في مصر في القرن الاول الى اسما  
 بنيامين البطريرك الذي عاصر الفتح العربي .

#### ٢ - ساويرس بن الفطح :

سقف الاسمونين ( مركز حلوي ) عاش  
 في النصف الأخير من القرن العاشر واول  
 الحادي عشر وعاصر الغلبة الفاضى المزم  
 لدين الله . وصح كتابا سماه « تاريخ

البطارقة » ويعتبر تاريخه أهم مرجع بين هذه  
 التواريخ جميعها . وذلك نظرا لما امتاز به  
 هذا الأسقف من العلم انزير وتيسكه من  
 قلعت القبطية وايونانية والعربية . بل لعله  
 اول كاتب صنف مؤلفاته باللغة العربية من بين  
 الأقباط . وقد جمع تاريخه من عدة مصادر  
 قديمة عار عليها في الاديرة ثم عن مصادر قبطية  
 عنها . وقد رُخ ساويرس للبطارقة من مرقس  
 الرسولي الى البطريرك يوساب الاول ( ٨٣٠ م )  
 - ٨٤٩ م ) . وقد ذكر ساويرس انه ترجم  
 هذه السيرة الى العربية من مخطوطات قبطية  
 وبولانية ترجع الى عصر المؤرخ له . وقد  
 يليل . وما يجدر ذكره ان معظم هذه الأسس  
 قد خرج من مصر ، وهي موجودة الآن في  
 المكتبات الكبرى في العالم ، ويبدو العاصم  
 بنشرها تدريجيا .

والكتاب بوضعه الراهن يعتبر موسوعة  
 تاريخية من حقائق امير الذي عاش به  
 ابطارقة «صحات الترجسات» . وقد نسل  
 المقريري عن هذا الكتاب جابا كبيرا مما  
 سجله في كتابه « الحفظ » كما اخذ منه  
 أيضا الفلكنندي في كتابه « مسج الاغني » .  
 وقد ترجمه « افيس » ونشره بالعربية  
 مع ترجمة الى الانجليزية في مجموعة الآباء  
 الشرقيين .

#### ٣ - الانبا حيقايل أسقف نيس :

عاصر الانبا ساويرس بعض الوقت وزامله  
 في جمع تواريخ البطارقة من الاديرة . « تاريخ

البطاركة من خاتيل الثالث ( ٨٨٠ - ٩٠٧ م )  
الى سافونيوس ( ١٠٣٢ - ١٠٤٦ ) .

١١ - الأنا يوساب اسقف فوه :

من رجال القرن الثالث عشر الميلادي .  
وقد قام بجمع سير البطاركة ووضع سير  
معاصره .

وقد اكمل تاريخ بطاركة الكنيسة  
المصرية حتى عصرنا الحاضر على يد علماء  
كثيرين من مصر وغيرها . ومعتبر تاريخ  
البطاركة حلقة هامة في تاريخ مصر العام .

١٢ - المستشرق :

وهو الكتاب الذي يضم سير الآباء  
القديسين . ويهوى فصاحيا يصور لنا  
النواحي الاجتماعية في العصر الذي عاش فيه  
الآباء اصحاب التراجم . فهو بذلك يكمل  
التاريخ : يساعد على فهمه . وقد نشره  
١ باسحق : بالعربية مع ترجمة الى الفرنسية .  
ثم نشره : أولري : مرثيا بحسب الحروف  
المجانبة .

ولما كتب اخري تكدي النكار  
ونسره . وأشهر من دولو سير الآباء  
: بلاديوس : الذي كتب سير الرهبان  
المصريين : والثاسيوس الرسول بطورك  
الامكتونية في القرن الرابع : الذي كتب  
سيرة القديس انطونيوس : والقديس  
٩ جيروم : . وجيروم هو الذي دون بدوره  
سير القديسين والشهداء المصريين . وقد

نشرها في مجلدين العلامة : بدج : : كما  
وضع القديس يوحنا كسباز ( القرن الرابع )  
عقد كتب ضمنها بعض سير الرهبان المصريين  
نشرها : لوشانوا : بعد ترجمتها الى  
الفرنسية : كما نشرت ترجمة الى الانجليزية  
في المجلد الحادي عشر من موسوعة : آباء  
يقيية وما بعد يقيية .

١٣ - تاريخ المجامع

أرخ الأقطاب — بطايمم القبطي الخاص  
— للمجامع المدة والعالية : مما كان له  
أكبر الأثر في المحافظة على هذا التاريخ .

١٤ - المجامع المحلية :

وكانت تعد في مدينة الاسكندرية  
برئاسة البطريرك للنظر فيما يوم الكنيسة  
بوجه عام وحل المسائل المختلفة التي كانت  
تعر .

(ب) المجامع المحلية ( المسكونية ) :

وكانت تعقد في القسطنطينية أو في مدينة  
قسطنطينية لخدمة الامبراطورية . وكان  
الامبراطور البيزنطي هو الذي يدعو  
لاستقائها للنظر في البدع الدينية التي تظهر  
في اقليم من اقاليم الدولة . وكان أعضاؤها  
منذوبين يمثلون جميع الكنائس في العالم  
المسيحي وعلى المجمع أن يتخذ القرارات  
التي تلحق تلك البدع من جهة وتحتوي  
الايمان من جهة اخرى . وقد شملت  
الخلاقات المذهبية جزا كبيرا في تاريخ الدولة  
البيزنطية لأنها كانت قوتها ومزقت وصالها .

ولذلك تألف تلك المجامع فصولا رئيسية في تاريخ الدولة البيزنطية .

وفي التاريخ العام كان للإقباط اهتمام الكبير المأمون نجما وضعود من مؤلفات عديدة ليس بالنسبة الى التاريخ الكنسي فحسب ، بل في التاريخ المدني أيضا . ومن أشهر الكتب التي ألقت في هذا المقطار الكتاب الذي أرخ فيه يوحنا النقيوس للعالم من بدء الخليقة الى الفتح الاسلامي ويمتد الجزء الأخير منه هو المصدر الأول لتاريخ فتح العرب لمصر .

#### يوحنا النقيوس :

كاتب معاصرا لصح العرب لمصر . كان في بدء حياته راهبا عرف بالثقوى وكثرة العلم وحسن التصير ، فوسم أسقفا على القيوس (وسكانها الآن قرية بشادى بمديرية المنوفية) ، ثم رقى رئيسا لأساقفة الوجه البحري ، ثم عين في شبخوخته سنة ٩٩٤ م مديرا لإدارة وادى التطرون . وعلى الرغم من علمه وتقواه وخدمنه للكنيسة فقد حكم الأساقفة بوقته عن مباشرة عمله الكهنوتي بسبب عنفه الصغيد في تلاديب راهب على خليته ارتكباها .

وقد خلف لنا كتابا عاما أرخ فيه من بدء الخليقة الى ما بعد دخول العرب مصر بقليل . وكانه مقسم الى ٢٢ بابا . الأحسنه عشر الأخيرة منها خاصة بالفتح العربي حيث تكلم عنه بتفصيل واسهاب . ويمتد الكتاب هو

المراجع الأول والأصيل في هذا الموضوع لأن كتابه سجل ما رآه عيانا بنفسه .

وقد وضع هذا الكتاب باللغة القبطية ثم ترجم الى العربية والعثمانية وربما الى اليونانية أيضا . ولكن لم يصل اليها غير الترجمة العثمانية .

ويدل الكتاب على ما وصل اليه يوحنا النقيوس من علم غزير وتفصيل في البحث واعتماد على المراجع الأصلية القديمة ، كما تظهر فيه الحرية التي عطاها الكاتب في سرد التاريخ .

وليس صحيحا ما ذكره زوتنبرج الذي نشر تاريخه من أن الكتاب وضعت غالبية باليرغالية على حين وضعت الأخبار المطلوبة بالقبطية .

١ - لأنه من المستبعد على كاتب قبطي منسك بنومنه أن يكتب لمواطنيه تاريخ العالم بطفة مسليديهم الروم .  
٢ - . كانت اللغة اتيونانية قد أخذت في الانقراض من مصر منذ القرن الخامس على يد الأبا شنودة .

٣ - صفة أسماء الأعلام في النص الحش يدل على أنها أخذت عن أسس قبطي .

وقد ظل الأقباط يعملون لواء المعلوم الى ما بعد دخول العرب مصر بقرنين . وظهر فيهم كيرلس وكولومس وبزانتس . وعرف في القرن السادس يوحنا فيليو قوس النحوي

من الكتب اليونانية والقيبطية التي تناولت البحث في صناعة الكتابة العملية . وتبعه في هذا المضمار كثير من خلفاء وولاة المسلمين ، وكان استقرار الخلافة في بغداد وإزدهار العلوم فيها باعثا على انتقال العلماء من مصر إلى الشرق ، ويؤلفه المجودي ، قد مروح الذهب أو مجسطي التلميم ( الجامعة ) فصل من الاسكندرية في أيام عمر بن عبد العزيز .

أنى أنصافية ثم نقله المتوكل إلى حران .

الذي أتت في الأدب والفن والرياضة . ومن المعروف أنه منذ القرن السادس كان رجال الدين من الأقباط يتولون تدريس العلوم في المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية ، وذكر من بينهم سرجوس وهارون القس .

وقد ورثت الدولة الإسلامية غيا بعدد كثير من هذا التراث العلمي في حركة الترجمة التي قامت بها . فقد أمر خالد بن يزيد بن معاوية بأن ينعزل إلى العربية كثير

## الإنتاج الأدبي والثقافة الشعبية

على الفضيحة ونقبة النفس . ومن ثلثتها الرسائل المتبرون إلى رسلها القديس أنطونيوس إلى ملاييد . والأطلسه

أتى وضعها القديس باخوميوس لتنظيم حياة الرهبان ، وما جعله القديس بوحنا الناس من صام ( مواضع ) دقيقة في الحياة الروحية ، وكذلك تشمل المواقف والغضب الدينية إلى كانت تلقى في أيام الأحاد أو الأعياد . وبعض المناصب الأخرى ، ومن أشهرها حطب الأنبا شنودة في لقاء كفاحه ضد الوثنية وفي لمررد لتعاليم المسيحية . ومع أن الآباء كانوا غالبا يكتبون أكتفاء بتعظيم الهدف المعلى وهو السامى في صياغة الفصيحة إلا أن ما وصلنا منهم كبير في قدره وفي قيمته .

٣ - صبر القديسين :

وهي كثيرة جدا ترحر بوصف حياة وجهاء الشهداء والزهاد والمتوحدين والصلاك

المختلفات الأدبية الملثة بالشر : وتشمل فروعا كثيرة أهمها :

١ - ترجمة الكتاب المقدس :

وهي في الدرجة الأولى من أدبيات اللغة القبطية . وقد أخذت هذه الترجمة هي اليونانية منذ القرن الثاني ، وعثر من أهل الترجمات لأن الذين قاموا بها كانوا ملحنين دائما باللفظين . وقد كانت الحساسية الدينية بالغة حتى أنه لم يعمل القرن الرابع أو الخامس إلا وكان الكتاب كله مترجما إلى اللهجين المصرية والصعيدية وبعض أجزاء منه إلى اللهجين الآسيوية والبروبية .

٢ - الأقوال والآيات :

وهذه انتشرت على فروع كثيرة منها الأقوال التمسكية التي كتبها آباء الرهبنة أو سمعت عنهم فجعلت . وكلها تحض على انك والتجرد من العالميات وعلى الترويض



لم يصل اليها شعر كتبه الأقباط في  
مخطوطات المنيوية المختلفة إذ كان السك  
السائد في تلك العصور الأولى المسيحية  
يحزن دون ذلك . فقد اتجهوا في الملاح إلى  
الملائكة والمغراء مريم والأنبياء والقديسين  
والشمس في نظم يمسرف باسم  
الذكصولوجيات وهي كلية منها «تمجيد»  
وقد جمع الكثير منها أونيري سنة ١٩٢٤ في  
كتابته المسمى Copied Hymns ، أما مدح  
المغراء مريم فلكثرته اعتمد في تقريباً باب  
اسم النيودوكيات . وقد نشر في أولري ٥  
سنة ١٩٢٣ كتابته المسمى The Hymns of the  
جمع فيه كثيراً من المخطوطات العبرية القبطية  
التي وجدها في دير القديس مقاريوس  
والمكتبة الأهلية ببورس والمتحف البريطاني .  
وقد نال أن هذا النوع من النظم كان مستحباً  
لدى الشعراء الأقباط ممنعوا فيه مواهبهم .  
كما ذكر في مألوف ٥ أن هذه النيودوكيات  
لها مكانة عظيمة في الآداب القبطية .

وقد كان القصص من بين الأغراض التي  
طرفها الشعراء الأقباط أيضاً ، ومن الشعر  
القصص الشعبية قصة أوشيليديس الراهب  
الذي رفض مقابلة أمه وغداً لنذر قطعه على  
نفسه إلا يرى امرأة . وهي قصيدة طويلة  
جداً على شكل حوار تقتر فيه براءة التمثيل  
وقوة التأثير ، والقصيدة تسبب حاجة حادة  
من لشاعر الإنسانية .

وبعض الآباء الباركة والأساقفة . ولم تكن  
هذه السير مجرد تاريخ جاف ، وإنما كانت  
موضوعة في أسلوب أدبي عتيق بالغ الأثر  
حتى كان من نتائجها إقبال كثيرين على الرعية  
وعلى السير في الحياة انفضى وهي في  
الواقع تجسيم تفضائل مدينة يستلها هؤلاء  
القديسون الذين كتبت سيرهم مع لون من  
الأيحاء في الكتابة .

#### ١ - القصص :

وبعضه هني في حبال وتصور مشد  
قصة ملكة ميا ومقابلتها ليمان الحكيم  
أو قصة الملك يوحنا ورئيس ادير . وبعض  
وطني نص في الأقباط عن شعورهم القومي  
الذي ظل مكبوتة غراب طويلاً تحت لبر  
المستعمر . ومن أمثلتها رواية الأسكندر الأكبر  
وقد وجدت ترجمتها القبطية في دير  
الأيص . ورواية قمييز وغسروه لمر ،  
وكلماتها لا صلة لها بالدين ولا بالجهنم  
اللاهوتي وكذلك قصة يودوسيون  
ودير لسيوس .

#### ٥ - الإصلاح الاجتماعي :

تظهر روح الإصلاح في خضم الأقباط  
شعورهم الذي طارب بها التبدع الموجودة في  
عصره كالبدل الطبي والسحر ونورس  
الموالد وباء الهلاك على «جناد النسماء»  
وما إلى ذلك .

#### ٦ - المراضى أخرى :

مثل الآداب الكنسية وندرس العبادة  
وخصوصاً أخرى تتعلق بالتاريخ والفواين  
والسحر .

شعره كان أصيلا وليس تبيجة لاعتناق  
المسيحية .

### لغة الأدب

ينقسم الأدب القبطي إلى قسمين .  
( أ ) أدب قبطي متأثر متأثرات يونانية .  
وقد ظهر أكثره في الاسكندرية التي انتشرت  
فيها الثقافة الهلينية ، حتى اضطر كثير من  
الآباء إلى الكتابة باللغة اليونانية المنتشرة في  
العالم ، وتلك ، وترجمت كتاباتهم في مصر إلى  
القبيلة لينتفع بها الأقباط أنفسهم .

( ب ) أدب لبني صميم كالذي ظهر في  
كتابات الأبأ أنطونيوس والأبأ باخوموس  
الذين لم يعرفا غير القبطية ، وخطب ومواعظ  
الأبأ شنودة الذي لم يشأ أن يكتب بغير  
القبيلة ، كما كان رعييا شجيا يكلم الأقباط  
المضطهدين على يد حكامهم بفتهم القبطية  
لا باللغة اليونانية لغة الحكام .

وهذا الأدب القبطي الصميم كان له  
مركزان : هما وادي المطرون للهبنة البعيرية ،  
والدبر الأبيض والأدبرة الباحوبة بالصعيد  
للهبنة العبدية . وهكذا ترى أن أدب  
الرهبان كانت محافل للأدب القبطي الصميم  
ملهجنه . وفي بعض المخطوطات القبطية  
تسمى اللغة القبطية لغة أهل الجبال . وليس  
الغفود بذات الصعيد لارتفاعه وأدبرة  
الرهبان لوجودها في الجبال . وقد تولى  
الأبأ شنودة رئاسة الدبر الأبيض سنة ٣٨٣م

ثم هناك الإشتغال الكنية وهي صلوات  
أو تأملات مأخوذة من المزامير أو الأعيال  
وتسمى أصاليات ( وهي مأخوذة من الكلمة  
القبطية يصانوسى بمعنى مزمور ) والبعض  
الأخر تسمى العوسبات ( وهي مأخوذة من  
الكلمة القبطية عوس بمعنى تبيح ) . وقد  
التصوا كل يوم بنسبجة خامسة منظومة  
وملحنة بلحن خاص ، وتوجد غالبية هذه  
القطع الشعرية في كتابين هما الأصلودية  
اليسوية والأصلودية الكهنوتية

### النسب

عرف الشعب المصري منذ أقدم عصوره  
نسب الميت ، وقد وصلنا من العصر القبطي  
الكثير من النذب إلى نظم تعني أحيانا على  
الرخام كشواهد للقبور .  
ولظهر لنا عادة البدب من نصيده  
ارثيلبيديس وأمه سنكلينكى التى يدعو فيها  
النساء للندب : أيتها النساء ، ما كاذبة من  
أنجبن أبناء ، نصمن ، وابكنى مى ، وقد  
لشرت ، عاريا كرامى ، كتابا لجه الكثير من  
منظومات النذب القبطية .

وكانت موضوعات الشعر تنطوى على  
كثير من المعاني الأدبية والحكم التى يمكن  
ارجاعها إلى التأثير بنقائرها في الأمثال المصرية  
الفدسية وفي أمثال سليمان الحكيم وباقى أدب  
الحكمة في العهد القديم . ويرى دورل أن  
القبطى كان يغزل هذا اللون من الأدب منذ  
العصور الفرعونية وأن تضمن الحكمة في

الذي نضجى مركزا للأدب الصبدي . وفيه أصبحت اللهجة الصعيدية هي اللغة الأدبية للكنيسة القبطية في أزهي عصورها .  
وتمام هذه النهضة الأدبية التي توحيها الأنايا شهوده أخذت البرغانية تفهقر وتتراجم بمقدار النحر المطرد الذي انتشرت به المسيحية بين الريفيين وبمدول النحاس التي

استخدام اللغة القبطية كلغة أدبية وازدياد الأقباط شعورا بكيانهم وقوميتهم . وعندما فتح العرب مصر كانت اللهجة الصعيدية هي لغة الأدب القبطي عامة . وكل تعرض بعد ذلك للهجة البحيرية كان على أساس ترجمة الأدب الصعيدية التي انتشرت في القرون الستة الأولى للمسيحية .

## ٤ - أقوال الآباء . آثارها وشهرتها

كتب آباء الكنيسة القبطية في أرواح كثيرة أهمها فرعان رئيسيان هما : اللاهوت والسيكيات وقد حظيت كل تلك المؤلفات بشهرة عالية منذ كتابتها .

### كتابات الآباء اللاهوتية

كان أصاولة الاسكندرية وسلاستها هم عمد اللاهوت في العالم المسيحي كله . لذلك كانت لكتاباتهم أهمية كبيرة وشهرة واسعة . كان موقف الزعامة الفكرية الذي وقفه القديس انطانيوس في مجمع نيقية سنة ٣٢٥م باعثا على ذبوع كتاباته في اللاهوت وتوطيحاته ثلاثيان : مسيحية ، وأصبحت كتاباته المصادر الأولى لعلم اللاهوت المسيحي ، حتى اعتبر انطانيوس أباء لعلم اللاهوت في المسيحية . ومؤلفاته التي وضعها عن « تجسد الكنيسة » و « الرد على الأريوسيين » و « الروح القدس » انتشرت هي أيضا انتشارا واسعا ، وعليها بنى

بأق مشاهير اللاهوتيين المكارم حتى أصبح القول الشائع بين الغربيين في تلك المصور هو « إذا وجدنا عبارة من أقوال الانطانيوس ولم نجد ورقة لتكتبها ، فاعلمنا على قبيحها في العدل » ، ونعرف أن القديس « ايلاري » - أسقف بواتيه بفرنسا - لما ذاع صيته ، قبوه انطانيوس الغرب .

وهذه الشهرة والزعامة الفكرية استقلت أيضا إلى القديس كيرلس الاسكندري حتى لقب بعامود الدين . وكان كافها أن يقول الشخص « أنا على إيلاف انطانيوس وكيرلس » لكي يصبح هذا اعترافا منه بالإيمان السليم . وقد نالت كتابات ديدانيوس الشريز حذير المدرسة اللاهوتية في شعلة انطانيوس شهرة واسعة ، حتى أن الأساقفة دانيالوس تمثف رومه لما طلب من القديس جيروم ، الذي كانت شهرته العلمية معروفة في الكنيسة كلها ، أن يكتب له مؤلفا عن « الروح

القدس ج ، وجد هذا أن أفضل ما يجعله هو أن يرجع إلى اللاتينية ما كتبه ديديموس الشرير في هذا الموضوع .

هذه الشهرة التي غالبها كتابات آباء مصر في القرن الرابع وكذلك سبغتها شهره ونسجها في القرنين الثاني والثالث لأساتذة المدرسة اللاهوتية بالأسكندرية . ولعل أكبر مثال لها هو كتابات أوريجانوس التي تلقاها علماء الشرق والغرب فرأعهم ما فيها من قوة وعقل . ومن أجل ذلك قام بترجمة الكثير منها إلى اللاتينية روجيرس وإيلاري أسقف بواتييه والهديس جيروم . إلى أن غالبية مجلسي الكنيسة اللاتينية وعالم اللاهوتيين فيها حرصوا على أن يتقنوا عن أوريجانوس كما يظهر ذلك من شرح لامبروسيو أسقف ميلان معلم أوغسطينوس . وتسمد لسجد 'وسابيوس' أسقف غرسيل في إيطاليا له لم ير فلسفة حقة غير مؤلفات هذا العالم العظيم . وكان القديسان باسيليوس الكبير والفرنسوريوس الشافق بالألهباب يشترانه معلمانها . وقد جمعا مقتطفات من مؤلفاته في كتاب أسماء فيلو كالبا .

#### الحوال الآية في التمسك

تلك الصورة التي عطي بها آباء الأقباط في اللاهوت تماثلها شهرة لا تقل عنها في آداب الرهبنة . ولعل أبرز أمتعتها قوانين القديس باخوميوس وما ناله من شهرة ، حتى لقد نقلها إلى رومه القديس اناسيوس

ابان نفبه عن كرميه كما ترجم القديس حريوم حيلة باخوميوس وقوانينه إلى اللاتينية سنة ٤٠٤ لقائدة رهبان إيطاليا . ووصلت إلى بلاد الغال في ثواني القرن الخامس عن طريق القديس يوحنا كاسيان الذي سبل على تطبيقها جمليا في الدير اندي له في مارسيليا . ووضع القديس 'وغسطينوس' نظامه الرهباني مسترشدا بقوانين باخوميوس ، وكذلك فعل القديس باسيليوس الكبير . مؤسس الرهبنة اليونانية ، والقديس بازيليد مؤسس كنيسة أيرلندة في القرن الخامس بعد أن تلمذ في لوران في دير على النظام الباخومي . وربما يكون من أهم وأبهي آثار المنظمة الباخومية ما تركته من أثر في الأدبرة البندكتية . فان بندكت في القرن السادس أخذ عن قوانين باخوميوس حتى أنه في بعض المواضع يكاد ينقل بالحرف الواحد . ودير مونت كاسين في إيطاليا لا تكاد يختلف عن ذي دير باخومي في قضا . وهكذا انتشرت قوانين باخوموس في أرجاء العالم كله ، وعلى أساسها قامت الحركات الدورية في العالم المسيحي . وما تزال هذه القوانين باقية حتى الآن بالرومانية واللاتينية .

وشاء الرهبه الذين لم يكتبوا واتما احتوتوا مسارة الفضائل عليا وبما يلقونه على تلاميذهم من تعاليم ، هؤلاء كانوا هم أنفسهم موضوعا للكتابة ، فصنفت عنهم المؤلفات العديدة ، واليهي كان تأتي كبار

كتاب المسيحية في العالم ليستطروا أخبارهم ويجمعوا كلماتهم القليلة لتكون نورا للناس . وهكذا في سنة ٣٨٨ م جاء الى مصر بلاذيموس لئسقف هيرنوبوليس ومكث سنة بين رهبان الصعيد ، ثم رجع اليها سنة ٤٠٦ وقضى حوالي سبع سنوات مع رهبان وادي الطرون وكتب كتابه الذي اصطلح على تسميته ليما بعد بـ « بيان الرهبان » ، وكذلك جاء القديس يوحنا كاسيان لزيارة وادي الطرون ما بين سنة ٣٩٠ — سنة ٤٠٠ م وضمن كتابه « المعاهد » و « المقالات » أخبارا كثيرة عن الرهبان المصريين ومنطقتهم من افقارهم . كما زار مصر لنفس الغرض سنة ٣٨٩ القديس « جيروم » ومنه تعبدت « جولا » ، ووضع كتابا عن القديس المصري الأنبا « بولا » المنوحد ، وآخر عن الرهبان المصريين ضمن افقارهم وأخبارهم ، ورجع فأسس — على ضوء ما سمعه ورآه — ديرين في بيت لحم يلبس كل واحد من الرهبان والآخر للرهبانيات . ولعل أشهر كتاب كان له اثر بالغ في هذا المضمار هو كتاب « حياة أنطونيوس » الذي وضعه الأنبا أناسيوس بفريرك الاسكندرية بناء على العلاج أهل رومه . وقد تشمل هذا الكتاب روح الرهبنة والنسك في بلاد العرب ، ويتكفي ان قراءته كانت خطبة التحول في حياة القديس أوغسطينوس الذي تأثر به جدا . كما يذكر في اعترافاته — حتى ترك حياته القديمة ، ولم يصح

مسيحيا فحسب بل أحد مشاهير رجال المسيحية .

ولم تقتصر شهرة أقوال الآباء على عصورهم ، بل لا تزال لها قيمتها وشهرتها في الأدب المسيحي حتى يومنا هذا . وقد تحمس أهل الغرب لترجمتها الى لغاتهم ونشرها ، وهي تستغل جانبها عاما من مجموعتي بني Migne اللتين جمع فيها في أواسط القرن الماضي أقوال الآباء باليونانية Patrologia Graeca وباللاتينية Patrologia Latina كما تشمل جانبها عاما أيضا في مجموعة اقوال الآباء الشرقيين Patrologia Orientalis التي تصدر تباعا في باريس ، وقد صدرت عن الأول الآباء بعوث ومؤلفات عديدة ، وترجمت كتبهم الى اللغات الأوروبية الحديثة مع مقدمة واقية لحياتهم ومؤلفاتهم وأسلوحيهم وشهرتهم . أما آباء الصحراء فقد انتشرت افقارهم في ترجمة كتابات بلاذيرس وكاسيان وجيروم . وفي سنة ١٩٢٣ أصدر عنهم برسيه « كتابه الخاص بأقوال الآباء Apophthegmata Patrum

#### اهتمام العالم بالمخطوطات القبطية

لم تكن كل كتابات الأقباط بالقبطية كما قلنا وإنما كتب بعضها واخر منها باليونانية . ولهذا كان للاقباط فضل على الأديب اليوناني اذ ضموا اليه ذخيرة جديدة قبطية روحية وإن كانت تلبس ملابس يونانية . غير أن الأقباط — وبخاصة الرهبان —

وتزخر مكتبات أوروبا وأمريكا بمسود  
كثير من الثقافة المكتوبة بالقبطية تشمل  
على رسائل وإبصالات ومكوك وغفود وغير  
ذلك حتى لقد بلغ عدد الثقافات القبطية  
Osaka في فينا بالسبا حوالي عشرة  
آلاف ثقافة .

وعثر في مصر سنة ١٩٢٩ على مجموعة  
من الرديات القبطية تشمل على تعليم مالى  
وهى مخطوطة الآن في مكتبة برلين .

كما عثر في سنة ١٩١٦ على برديات قبطية  
تبلغ ألف صفحة تشمل على رسائل قسرية  
وقد استولى عليها المتحف القبطى في القاهرة  
وبهذا كله امتلأت الماحف والمكتبات  
العامه في أوروبا وأمريكا بهذه المخطوطات .  
وما بقي منها محفوظ في مكتبة الدار  
الطروكية وامتحنه القبطى بالقسماءره  
ومكتبات الأديرة والكنايس القديمة .

وقامت هيئات علمية بطبع فهرس لهذه  
المخطوطات القبطية ونشر بعض المخطوطات  
وترجمة البعض منها مع دراساتها والتعليق  
عليها . وقام علماء كثيرون في جينات منفردة  
من العالم لدراسة هذه المخطوطات نذكر من  
ينهم كرم ، وميليتز ، وإجلين هسواين ،  
ونستينغورف ، وورل ، وتل ، وفومور ،  
وبدج ، واغتس ، وكاله ، وبوليج وكراوسه  
وغيرهم . وأصبحت للدراسات القبطية في  
جامعات أوروبا وأمريكا أقسام خاصة يترغ  
لها أساتذة وعلماء .

عادوا فترجموا الى القبطية كتابات آباءهم  
التي كتبت باليونانية . وهذا أصبحت هذه  
الدجيرة الثقافية والإدبية من التراث القبطى  
موجودة باليونانية والقبطية معا .

واعتم العالم اعنما كثيرا بالمخطوطات  
القبطية سواء بها المكتوبة أصلا بالقبطية  
أو المترجمة اليها . وظهر هذا جليا بعد حركة  
المهضة الأوروبية . فأخذ الرحالة والمهمعون  
المعاصرون يجمعون المخطوطات القبطية من  
الأديرة والكنايس القديمة . وهكذا ذكر  
انحراله م لييرك : أخذ هواة الكتب  
بباريس بعد زيارته لمصر سنة ١٩٣٣ م انه  
وجد كتباً نادرة في كثير من الأديرة منها مجموعة  
من حوالي ١٠٠٠ مخطوطة ترجع الى العصر  
الأنطوني يجمدها في أحد أديرة وادي  
اسطرون . وفي أوائل القرن الثامن عشر أرسل  
الفابيان يفتين حصننا على مجموعة طيبة  
من المخطوطات القبطية من دير أبامبار . وفي  
سنة ١٨٥٩ حصل لهنرى تمام على مجموعة  
القبطية التي كانت من لصب مكتبة  
وايلندز بشستر ، وثالت الزيارات على  
مصر لهذا الغرض . فشر على مخطوطات  
بالدير الأبيض استرله على غالبية المكتبة  
الأهلية بباريس . وكان المتحف البريطانى بعضا  
منها . ثم اكتشفت مجموعة مورجان سنة  
١٩١٠ م في دير الحامولى بالقىوم ونسبت الى  
مشتريها « بيريون مورجان » أحد أتباع  
الأمريكيين .

## الفصل الرابع

### الحياة الفنية

#### الفنون القبطية

فيسنجيون . وهكذا نجد الفن المصري القديم يتمتع بأبنا عهد الملوك الذين أولوه رعاية ، ويضعف في عصر الفلاحاء منهم أو الذين أهملوه .

أما الفن القبطي فهو الأول في الشري القديم الذي كانت له صفة الشعبية . فاد الأياطرة لم يمدودوا ينطون مصر كما كان الحال أيام الفراعسة ، أو أيام البطالمة . بل كانت مصر في حدهم ولاية رومانية تابعة لروما . أو مزيلطة ، وصار الأياطرة إذا أرادوا إقامة أهدال فنية يتخلدهم يسمولها في عوامهم لا في مصر ، وبذا فقد الفن القبطي التوجه السياسي واتجه نحو الشعبية البحتة ، فحين إذا مضوا إلى الكنيسة الكبيرة في الدير الأبيض قرب سوهاج وهي من بناء القديس شنودة ، أو إذا زرعوا كنائس مصر الجديدة ، أو دير القديس سمعان في الضفة الغربية بأسموان أو كنائس الواحات الغارجه أو إذا شاهدنا الآثار القبطية في المتحف القبطي أو مختلف متاحف العالم نجد عمالاً فنية قام بها الشعب المصري ووضع فيها الفناء القبطي عصاره روحه ومهارته .

تعالى الفنون في حياتها فترات من الضبول أو الضعف ، فأذا وانتهت ظروف جسيمة للاثمانى عادت حاملة معها مختلف صلاتها القديمة وخصائصها وطاقتها ، ولقد حدث في العصر المسيحي في مصر حين أفسحت الحياة المصرية مجالاً للفرن ، أن نمت الفنون وترعرعت حاملة في طياتها مختلف الصفات الموروثة من عصور سابقة ، وفي هذا فنون ، زوالوشير ، أننا مؤمن لأن أن الفن لا يتقدم في خط مستقيم مطرد ، بل من الثابت أن تباراته تتقابل وتتراكم ثم تحي وتغنى .

ولم نعد إلى الظهور بقوة ووضوح .  
وان طاهرة العبودية إلى الظهور بهذه بجدها مليوسة في الفن القبطي .

#### الصفات العامة للفن القبطي :

##### أولاً - فن شعبي

لم تكن القبطية من خواص جنود الأمم القديمة ذات الحضارة لأنها نشأت تحت كثف الحكام والأمراء وأصحاب الجاه ، واكتسبت وجودها وتوجيهها وتطورها من رعايتهم . وكان هؤلاء السادة يختارون الفنانين وأبرهنهم بصنع كذا أو كذا من القطع الفنية

ونرى الزخارف تصور لنا أوراق النبات المختلفة وأزهارها كالتعب والتعبس .  
الرمات والتسح والاكاتس . كما نرى صور السفينة السراعية تمخر عباب نهر النيل وكلها مألوفة لديه ، ونجد الأساطير القديمة المندوثة بين المصريين سواء بنصها القديم أو بعد أن اتخذت مظاهر جديدة وصورا جديدة تتفق مع الديانة الجديدة التي اعتنقها المصريون .

واجبا - لمرة ما سيطر من فنون ومؤثرات عليه النابض في الفن القبطي أثر الفن المصري القديم والفن الإغريقي والكن الروماني ، وإن كنا في الواقع نجد الروح المصرية الخاصة كلما اتجهنا إلى البلاد جنوبا .

وكذلك تأثر الفن القبطي بالفن السوري وفنون البلاد المجاورة . إذ أن المسيحية قد انتشرت في بلاد فلسطين وانتشرت في الشام وبلاد البحر المتوسط وانتشرت معها بعض فنون تلك البلاد بحكم الاتصال وصار المصريون يتبنون فنونها وبخاصة في الشام .

#### خلاصة - فن جمال لا عظيمة

لم يبلغ الفن القبطي حد الروعة كما بلغ الفن المصري القديم ، كما أنه فقد اتساع الأشياء البسيطة ، التي تميز بها الفن المصري القديم . فمن مصر القديمة وصلتنا الأهرام ، والمعابد العاتلة كالكونك والتماثيل الضخمة كتماثيل رمسيس ، والأعمدة الضخمة والمسلات . ولكن الفن القبطي كان فن جمال جهم بأبراز المعاني في دقة .

خيل للبعض أن الفن القبطي فن ديني ينصل بالكنيسة والمعبدة فحسب ، وما من شك أن هذا الرأي خاطئ ، فهو فن الشعب المصري بأكمله ، يظهر في الأمور الدينية كما يظهر في النواحي المدنية بوضوح . وإن كنا نجد أن أغلب المعاصر الباقية من ذلك العصر عمار دينية مثل الكنائس أو الأديرة ، فمرجع ذلك إلى اهتمام الشعب عادة بشؤون عبادته ومعالفته عليها .

ولا شك أن أهم المعاصر التي وصلتنا من مصر القديمة أو من مصر الإسلامية هي أيضا عمار تنصل بانواحي الدينية مثل المعابد أو الأضرحة والمآجد .

وقد وصلتنا أعمدة وإخاقه من بيوت أفراد الشعب التي جالب ما وصلنا من أديرة وكنائس . وكما وصلتنا أمشة كان يلبسها الكهنة في الخدمة الدينية وصلتنا أمشة عديده كان يلبسها عامة الناس في حياتهم أو يتخفون بها موتاهم . ولدينا الآن أدوات كانت تستخدم في الكنائس وأديرة استخدمت في المنازل أو العقول أو الصناعة .

ثالثا - فن نوع من البيئة المصرية وهو فننا مري قد صور الوجود القبطية بلامح مصري بينه الواسع المستديرين وأهله ولون بشرته كما نرى صور الحيوانات الأليفة التي تملأ البيوت والعقول مثل القط والكلب والبقرة والجمل والحمل .



## سادسا - فن الزينة

أن نشير إلى أن هذه الخاصية ، وخاصة  
التزيين التي سيقفها ، كقنا كثيرا ما نجدها  
نحو أساور رمزية ، وقد دفعت حثان  
الخاصيتان بالنقش القبطي بيدها عن الواقع  
وعصور طيبة الانسان الأمر الذي قد يجر  
إلى مظاهر خلية لا يوافق عليها رجال الدين ،  
وحيث دخل الحرب والإسلام مصر وجعلت طرية  
خصيصة للتعيرات الفنية ، فأخذ الفنانون  
يخرجون القطع الثنية التي تناسب العصب  
والدين الإسلامي ، مما تراه واضحا في  
الإخارف القائمة على الأشكال الهندسية  
والرسوم ذات المعاني الرمزية التي سجد من  
تصوير الأشخاص ، وهكذا نجد صفات  
مصرية أصيلة واضحة في الفن المصري المبني  
الذي سلكه بدوره إلى الفن المصري  
الإسلامي .

وصلنا كثير من أفكار المباني ورسوم  
الأعمدة ، وكثير مما تزين به الجدران  
والأشقف والأعمدة ، وما تزين به التوابيت  
والمصنوعات المعروفة بالصيفساء . كما أثمر  
لنا الفن القبطي ما تزين به النساء من حلبي  
وأحجار كريمة وملابس وخاصة ذات الألوان  
الزاهية منها ، وامتدت الزينة إلى كتابات  
الأقباط لزينوا الكتب وزخرفوا صحائفها  
بإخارف بالغة حد الروعة .

## سابعا - فن مستطعم الإنشغال الهندسية والرمزية :

لجاء في هذا الفن زخارف أساسها المثلثات  
والمربعات والموائر والخطوط المتلاقية  
والمتقاطعة ، مستخدمة في كل شيء ، ولا نسي

## مرد من القرن القبطية

### العمارة :

المصرية القديمة كان لها صدى ووحى بالغ  
الأثر في تشكيل الفن المصري في جميع أنحاء  
العالم . ومن مزايا العمارة المصرية القديمة  
هني الدولة الجديدة أن فيها كانت تنبثق من  
بين خطوطها اشاعات قوية امتدح على ضوئها  
اليونان والرومان معرفة السبيل إلى التكوين  
والانشاء ، إذ عرفوا منها كيف يضعون  
خطوطهم المتوازية لتتلاقى عند هدف واضح .  
والعمارة القبطية هي هي الصارة  
الفرعونية ، وهي العمارة اليونانية الرومانية

المسارة كأي لون من ألوان الفنون  
الجميلة الصكاس للبيئة بكل ما تحويه من  
معان روحية ومادية ، والعمارة المصرية  
القديمة يستل فيها هذا المعنى بشكل واضح  
مجسم . فهي في جميع مراحلها تعبر لنا  
تعبيرا واضحا عن التباين المختلفة التي  
تتأزعت المجتمع المصري في مختلف العصور .  
ولمنا لا نكون مبالغين إذا ذهبنا إلى أن  
التنوع والتناسل اللذين امتازت بهما العمارة

في مصر وهي العمادة الإسلامية في مصر .  
وأما الفوارق التي تمصل بين كل منها : فهي  
فوارق اقلية اختفتها السدعات الزمنية في  
عهد ١٠ ، ثم بعض اعتبارات دينية ، ولكنها في  
الحقيقة تلتقي عند الأصول والانس التي  
قامت عليها العمارة القروية . ومما يكن  
فان ما دخل عليها في كل عصر من تعوير أو  
تكيف بما يلائم ظروف البيئة ، لم يمنعها من  
أن تظل معشقة بروحها وعناصرها الأساسية .

والعمارة القبطية قفزت بروح الفن  
القروى وبصاميره ، وكل ما مرأ عليها من  
تعوير فاه لم يمسى الا مظهرها الفسكى فقط .  
لهي حلة أهدر اكثف حلقات الفن المتصلة  
منذ الحضارة المصرية القديمة والحضارة  
اليولية الرومانية بمصر .

ولما كان الفن المصرى يربط بثقوى الدين  
وبلاسية ، فقد احتفظ في العهد المسيحي  
بكثير من التقاليد والمبادئ المصرية القديمة  
ولازم الدين وبخاصة ما كان منه متصلا  
بالرموز والتقاليد في الحياة اليومية  
والعناقية والاحياء وغيرها . أما مركز  
السبحة في الشرب وهي روما التي تشرف  
على الحضارة الأوروبية الغربية ، لم  
تلقى حظها وهي مركز الحضارة الشرقية ،  
فقد حاولت كرمها ايجاد مراز جديد لعمارة  
تنمى مع الدين الجديد الا انها كادت دلتا  
مقتدين بالحضارات القديمة التي سبقت  
العهد المسيحي ، ووجدنا نفسيهما مضطرين

لتقل كثير من تعاليم هذا الدين الجديد عن  
مصر التي سبقتها في المعرفة والعلم ، ونقلنا  
عنها الكثير من الرموز والتقاليد ، كما نقلنا  
كثيرا من فنون مصر وانخذنا منها نمطا  
للوحداث الزخرفية التي قرب فيها المصرى بين  
نباذجه القديمة وبين دينه الجديد ، ولذلك  
نرى أن مراكز المسجدة بنيت من هذه  
الروحانات الزخرفية القديمة ما استطاعت كل  
منها أن تفسره بطريقة تنفق مع دينها الجديد .  
لو خيلنا مدينة مصرية قائمة من العصر  
القبطى ، لوجدناها تشبه في تخطيطها المدن  
المصرية القديمة . ففي الصعيد حيث يسعد  
المصر كانت البيوت ناي من اللبن كمدنية  
هابرخرى الاقصر ، وفي الوجه البحرى كانت  
البيوت بنى من الطوب الأحمر أو الحجر  
البحرى كما عرفناها من مدينة أيا مينا  
( القديس مينا ) بالصالحه الغربية قرب  
الاسكندرية .

( صورة رقم ١٥ )

وكانت للبيوت أبواب خشبية كبيرة كما  
راء في الريف المصرى الآن ، ولها مزلاج من  
الطشب معروف الى اليوم ، وكانت للبيوت  
أسقف مرفعة ، ولها واجهات منقطة بصجارة  
منقوشة مزخرفة بأوراق العنب عادة . وكانت  
بها كنائس كالتي عثر على بقاياها في سدان  
أيا مينا وعصر القديمة وبويط والهنسا وأما  
وطية وسقارة وأسوان وسوهاج والواحات  
الخارجة ، وتتكون من قاعات فسحة بها  
صفوف من أعمدة رحامية مستديرة ، أو مضلعة

ذات دعوس منقوشة بأبدع النقوش والألوان  
الثابتة الزاهية . ويكون ميكلا متصولا عن  
القاعة بحجاب معنوع من الغضب المنقوش  
أو المنقش ، على أشكال هندسية مختلفة  
ومحلي بصور القديسين وشكال مختلفة  
للصلب . وبعض رفاقه من العاج ، كما نجد  
ذلك في كنيسة أبي سرجة في مصر القديمة ،  
وفي الناحية الشرقية من الكنيسة حبة أي  
جويوف في الحائط .

### التصوير :

كان التصوير المألوف في العصر القبطي  
يسير على الطريقة التي توارثت منذ أقدم  
العصور في مصر وهي طريقة التصوير بألوان  
الأكاسيد ( الترسك ) على الحوائط المغلاء  
بطينه من الجبس . وقد استمر الرسم بهذه  
الطريقة المصرية القديمة إلى العصر الروماني .  
وانضمت هذه الطريقة في الرسم شكلا مسيحيا  
في العصر القبطي ، ومنها انقسم بين مسيحيي  
الشرق والغرب ، وظل الأمر كذلك حتى عصر  
النهضة .

أما في مصر فقد حافظ التصوير على  
الطريقة القديمة حتى القرن العاشر عشر  
الميلادي ، ثم أخذ القبط إلى جانب هذا  
اللون بطرق أخرى في التصوير . ولم يأخذ  
التصوير القبطي أشكاله من الطبيعة المنظورة ،  
ولكنه صور القديسين والشهداء وموضوعات  
من الكتاب المقدس وكان رائده في ذلك المنظر  
العليا التي تظهر فيها صور الأشخاص على  
درجة من الاستفراغ والوفاء حتى أنهم رسموا

والكنيسة تكون أحيانا مستطيلة  
كالكثول المعروف بالطراز البازيليكي ويذهب  
البعض إلى أن تصييه دخل على الأقباط ،  
واقام الأمر أنه مصري صمم لجده أول الأمر  
في قاعة الاحتفالات بجهد الكرنك التي  
شيدتها تحتس الثالث حوالي سنة ١٩٤٠  
ق.م. وتكون الكنائس أحيانا أخرى ذات  
قباب بعيان مطلية من الداخل بصبغة من  
الجبس مرسوم عليها صور للسيد المسيح  
والقديسين أو مزخرفة بزخارف مستطيلة من  
الجبس أو الحجر في براميل عقودها وفوق  
أعمدتها وفوق الأركان المخصصة لصور  
القديسين .

وإذا كانت المدينة قريبة من الصحراء مثل  
مدينة أبو دينا أو مثل الواحات الخارجة أو  
أحد الأديرة الصحراوية فتمسوا لها الأبرار  
والموافي أو خزنها مياه الأمطار في مخازن  
تشبه كثيرا هذه الأبرار التي نجدها في الصحراء  
لأن والتي يسميها البعض كآبارا رومانية ،

المسيح طفلا بوجه كبير ، لا سذاجة فيه ،  
وتعاضوا أن يرسموا ظلالا على الوجوه  
وداعوا بساطة اللباس وهندوه الألوان .  
( صورة رقم ١ و ٢ و ٣ ) .

#### التفنن على الحجر والخشب

نشاهد الآن في المتحف القبطي في مصر  
القديمة وفي متاحف العالم المختلفة تيمنا  
لأحد من الحجر ليعبر فيها بثأير البيئة على  
الخيال الفني ، فمنها المجزول على شكل  
المنجل مجدلا فنن النحات صينه ، حتى  
بدأت يد القبة بالسلاسل المسترعة من القصب  
التي لا زالت متداولة بيننا ، ومنها تيجان  
منحوتة بشكل زخرفي لأوراق النباتات أو  
الفروع النباتية ، أو الزخارف الشبيهة من  
بسات المنب أو الرمان أو قبات الإكاثنس أو  
سممه النخيل أو بسات اللوز ، ومنها تيجان  
مزينة بمجاذيقها بخارف محارية الشكل  
وبعضها ملون باللون الأخضر وهو اللون  
الطبيعي للنبات ، وهناك بعض زخارف عثر  
عليها نبر عن ظواهر الطبيعة كمداحة الهواء  
لأوراق الأشجار ، جاء التعبير عنها تعبيراً  
جداً يكاد يسممنا حيلها .

وكانت النقوش زمر الجدران بالألوان ،  
أو بالحفر ، وكذلك عبر هذا الفن عن البيئة  
تعبيراً صادقاً ، فنجد في المتحف القبطي على  
سبيل المثال واجهة باب من بويط ( وهي بلدة  
قرب منفوط تسع مركز دبروط بأسبوط )  
من الحجر الجيري على شكل نصف دائرة وقد

على رسوم هندية وبخارف ثمار الرمان .  
وهذا يدل على ارتباط المصري قديماً وحديثاً  
وفي مختلف العصور ، بخواص البيئة المصرية  
بل والطاقم المصرية . ولا يزال الرمان ينسب  
إلى منفوط .

كذلك زخرف القبط الجدران والأفاريز  
بصور من الطيور والحيوان ، فنرى ضمن  
زخارف الفن القبطي صوراً لصيادي الطيور  
والأسماك والوحوش المنتشرة كالأسود لظلال  
عن الصيوانات المصرية الأليسة كالارانب  
والغزلان . وأصل الكثير من هذه الزخارف  
يرجع إلى مصر الفرعونية ، ويثبت استمرار  
وحدة الفن المصري في عصوره المختلفة . كما  
لرى ضمن الزخارف المعاصرة صورة للحداد  
القبطي تعجب به أدواته يشكها المعروف في  
مصر اليوم .

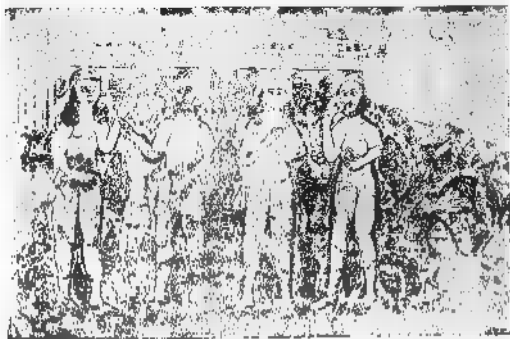
ولم تكن روح الدعاية تنقص الفن  
القبطي ، فأتينا نجد على الأبار القبطية طين  
ما خلفه من الصور والنقوش ، لوحات تمثل  
ولدت التبريد ، تقدم إلى القبط طبقاً للقصص  
المقصورة ، وقد ربح التعبير عما هو الذي  
يمر حتى اليوم علم الصدف والأسنان . كما  
نجد منظر الملاح معفورا في الخشب والملاح  
يداعب تمساحاً بده .

( صورة رقم ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ٩ ) .  
المسوجات :

اشتهرت مصر منذ عصورها القديمة  
بصناعة المسوجات وكانت تصدر منتجات



١ - شرقية ( حلية ) من كنيسة بباويط د بالشرب من ديروط ، وهي من الطس المنظر  
 بطلقة من الجص مرسومة بالألوان الفريسك \*  
 في الجزء الأقل صعود المسيح وتحت ثرى صورة السيد العنقاء والحواريين الاثنى عشر  
 واثنين من القديسين المصريين \*  
 وطريقة رسمها لا تختلف عن طريقة الرسم في الفن المصري القديم \*  
 من أواخر القرن الخامس الميلادي



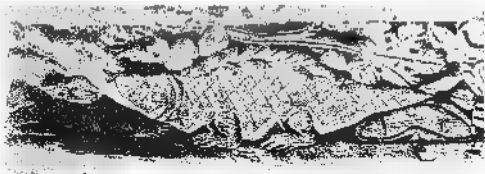
٢ - صورة جسيمة بالفرسك ظهر عليها في اللوسوم في أم الجمال ، وهي تمثل آدم وسراة  
 في الجنة - كل الطعنة - أي حين لم يكن لهما حدى - زينة الطبيعة ،  
 رقة عبر الصلابة في هذه الصورة البسيطة من قصة ( آدم وسراة ) ورفي في التعبير عن  
 المناظر الجميلة وورد ملاطفاً وعقلاً مما جعل من هذه الصورة قطعة فنية فريدة في نوعها .  
 من القرن السابع الميلادي



٣ - أيقونة مالاوان الزيتية وعليها كتابة بالقبطية والعربية وهي للقديسين، بولا  
 وانطونيوس ترمز إلى القصة الغريبة بتدخل اليه من الخبز في كل يوم .  
 من القرن الثامن عشر ( سنة ١٢٩٤ لشمعون )



٤ - لوحة خشبية مطبوعة من تديسية المقلدة يسير القديسة وهي الآن مبروصية في المتحف القبطي ، تمثل دخول المسيح اورشليم يوم أحد آسمع ، وعليها كتابة باللغة القبطية ، من القرن الخامس الميلادي



٥ - جزء من الفرمز طويل من الخشب المحفور يمثل حجر النبل وفيه نسيج ، من العرون الرابع الميلادي





٦ - مذابح لسود من الحجر من حمار دير الأندية أرمينيا بمسكوتة . وهو يمثل حركة تسارح  
 الصنان الإكائنس بفعل الريح ، وفي أعلاه علامة الصليب .  
 من القرن الحادي عشر الميلادي



٧ - منبر من الحجر ذو صحن درجات من حقائق دير الآبائ ارمينا ببقارة ، وهو القسم  
 منبر شتر عليه عى عصر حتى الآن .  
 من القرن السادس الميلادى



٨ = شاهد قبر ، عليه علامة الصليب في أعلى وسطها رمز للصليب الأرميني والأرمينية  
 و الأند واليه ج أي البشارة والنسابة . وفي أسفل الصفحة شاذلان لرمز الحانة مع المعروفة  
 في الفن القري القديم واستخدمها الفن الإسلامي مع ظهورها أيضا جعلت بين معنى القيسة وبين  
 علامة الصليب .

من القرن السادس الميلادي

نسجها الى جميع بلدان العالم . وبالرغم من دخولها تحت الحكم اليوناني ثم الروماني ثم سمر النسيج وعلى محتفظا بطابعه المصري في صورته القبطية .

أتقن الأقباط هذه الصناعة كما اتقنوا معها صناعة الأصباغ ذات الألوان الثابتة وكانوا يصعدون مسوحاتهم الى روما وبيزطة . وقد وصلت لحد كبير من المنسوجات القبطية يرجع الفضل في بقائها الى جفاف التربة المصرية والتي عادة الألباط في تكتين مواضع بأجمل لباسهم ودفنهم في مقابر رملية في الصحراء بعيدا عن وادي نهر النيل طوعا من مياه الفيضان .

كانت المنسوجات تصنع من الكتان والصوف كما صنعت من القطن ، وأشهر ائقن في هذه الصناعة كانت لايس والاسكندرية وبطا وديا وديق والفرما في الدلتا ، وفي الوجه القبلي البهنسا وأخميم والفيوم . وكان الصانع القبطي لا يعرف النسيج بوسم القنبر والأسماك أو نبات القوتس أو عنقود العنب أو أشكال هندسية أو بصور أشخاص أو أوجه .

( صورة رقم ٩ )

#### الفنون المصري

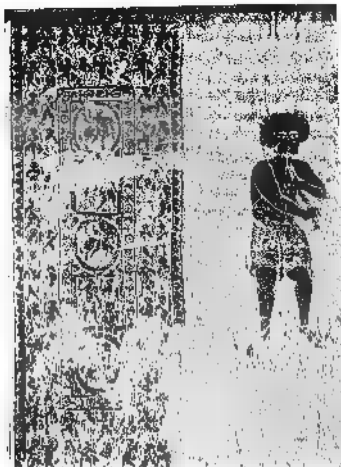
منها الفنون الخاصة بالترزين عند المرأة وصناعة المعادن ، ثم الخط والتجليد . أما عن التزيين عند المرأة فقد كانت المرأة

تستعمل الكحل للرموش ، واللون الأزرق حول العينين والأحمر للوجه . وكانت تضع القرمط الدائري الواسع في أذنيها أو أغرها على شكل عقود العنب ، وتزين معصمها بأساور سبكة تنحى برأس حية من كل ناحية . وبعضها كان مبروما ينتهي برأس حية من طرف وذيلها من الطرف الآخر وكان بعض أهلها الفخيرة يصبغ بالجوهر الكرسي . وكانت تضع عبدا أثب بالة المعروفة الآن في مصر . وكانت تلبس الغلغال الذي يصنع من النحاس أو النضة ، وقد صنعت المرأة اثنية من الذهب .

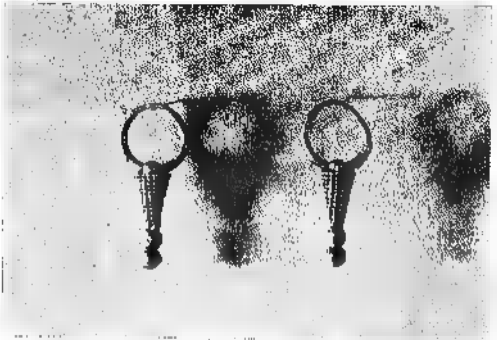
( صورة رقم ١٠ )

وقد وصلت من العصر الفيلس مكاهل وأمشاط من الفاج ، وعلى سبيل المثال نجد معطا رقم ٥٦٩ بالمتحف القبطي تضمنت عليه صورة بدية لملل حستاه مشكلة على سرير تحت كلب ، ويرجع هذا النمط الى القرن الرابع الميلادي ، ويظهر كل الفس لمشاط مصر الفرعونية . وعرفوا أيضا النمط المسمى الآن بالفلاية . وهناك أمشاط من الفاج عليها رسوم دينية مسيحية .

والرسوم المختلفة التي وصلتنا من هذا العصر تبين لنا مسورا حية من الحياة المصرية التي تحبها والتي كان المصري القديم يحبها والتي حفظتها لنا آثار مصر المصري المسيحي ، ومنها الصورة الصغيرة المخفوة في متحف برنيسا لامرأة قبطية جالسة مع ابنتها وأبناها



٩ - سار من السيج المعروف بالبساط وهو من الكتان المنسوج بمخروط من الصوف  
 المثلث . يظهر فيه على اليمين لاعب المصار وعلى اليسار منظر محبلة لرقص من دجال ونساء  
 كما تظهر في العوارض منظر رقص العجل \*  
 من القرن الثالث الميلادي



٦١ - لوطان من الذهب على شكل مفود العنق ، عثر عليهما في سفاتي مصلىة الإناز  
 بالواحات البحرية في حمار الأقباط القديمة .  
 من القرن الرابع الميلادي

كافة اتجاه العالم . وما نحن نجمة الأقطاب  
يكتبون على البردى وعلى الرق ، ثم يتقدم  
بهم الفن فيزيون صحائف الكتب بالرسوم  
ذات الألوان الزاهية اللطيفة ، هذه الصحائف  
التي بلغت دقة كتابتها دقة الحروف المطبوعة  
بأفانج ، والتي يهجر جسمها زهرتها كل من  
يرأها .

( سورة رقم ١٦ و ١٧ )

### الخاتمة

كاتب هذه الفنون في أيدي صناع مدنيين ،  
وكان الرهبان في الأديرة أيضا يتقنونها ،  
عالمهم دسوس ، الرسوم ، ونسخوا الكتب  
وزخرفوها بصناعات الخراف الملوحة الجميلة ،  
وقدوا النجارة والبناء ومختلف الصناعات .  
ولما دخل الاسلام مصر ، اهم الممالك  
الاسلامية بصناعات الأقباط فنجد الظلماء  
يختارون مصر لترسل الكمود المصنوعة الى  
الكعبة لما لمسه من اتقان المصريين لصناعة  
النسيج ، ويغادرون من اتاج هؤلاء الصناع  
ما يظفونه على اتباعهم من الأرواح ويسمونها  
« القبايط » نسبة الى صناعتها الأقباطية ،  
والتمثل كثير من رجاء اعتماد الأقباط في  
انشاء المساجد والحصائر ، ومن الفن القبطي  
أخذ الفن الاسلامي العرب والمسلمة  
والصبا .

وكان العصر الفاطمي بمصر فاتحة لاهلها  
الفن الاسلامي في شخصيته المصرية الاسلامية  
المتنوعة ، وعندئذ أخذ الفن القبطي ينحصر

وبجانبها صندوق حليها العاجي ، وتلصق  
الالبنة بشال من القماش المصري شبه ما نعرفه  
اليوم من المنسوجات ، عليه نقوش من  
الأساطير القديمة ، ومنها حور النساء الثلاث  
التي وجدت في اتبوى وقد أطلق عليهن  
مهنى تاييس وليكيونا وعلي اثنتان السبعة  
البهز نظيرة ، نجد تاييس لأجبة ثلاثة لعمدان  
وحلباين نولي بعضها كما نرى ذلك شامعا  
بين بعض السبكات في الزيف والوجه القلي  
وفي وسط الجلباب منطقة لها اكمام مؤيلة ،  
والجلباب محلي بعقاة حمراء في أسفله ، وله  
خطان رأسيان في الامام من الحرر الأصفر ،  
كما نجد ليكيونا مرتدبة جلبابا من الكتان  
الابيض محلي أيضا عند أسفله وعند الأكمام  
والياعة ثلاث أزول غامق ، ونلاحظ أنها قد  
لفت شعرها بشال جمع الى أعلى في شبه  
ناح . والنسوة الثلاث تعطينا مسورة حدة  
لأنواع الملابس وطورها ، والأنواع الجديدة  
لتصنيف العمر مما يجعلنا نخجل ما كان عليه  
النساء عامة في العصر القبطي من أناقة وذوق  
سليم في ملابهن وزينتهن .

أما عن فن الصناعات المعدنية ، فلما نجد  
المصنوعات المختلفة التي استعملتها ائمة  
لزيوتها ، ولعدة مصاييح في أشكال مخافتة  
وقوامد للشموع وأواني منزلة متعلقات  
الإنكسار .

( سورة رقم ١٨ )

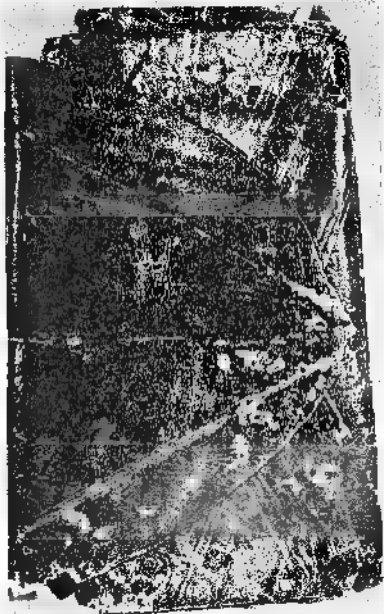
### الحط والتجليد

كان المصريون منذ قديم عصورهم  
يصنعون الورق من البردى ويصدرونه الى

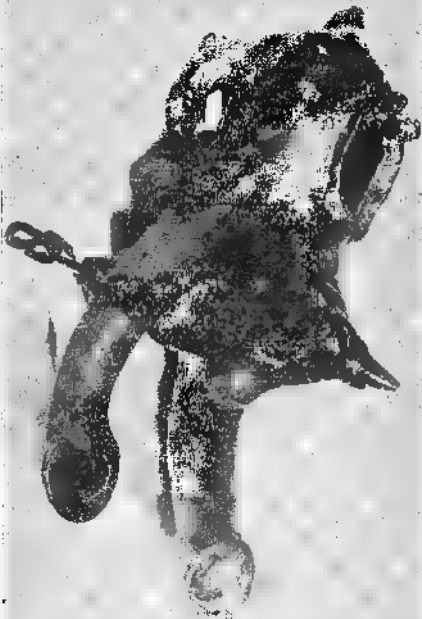


٩١ - غلاف من البضعة لمخط الكتاب المقدس، مصنوع على نمط قبطي قديم ولمعنه فيه  
الزخرفة على الكرمة ،  
من القرن الرابع عشر الميلادي





٦٢ - غلاف من الجلد لمخطوطة من مخطوطات فليحة العازمين بأفد ، وعليه علامة عبج دمر  
 الحياة عند المصريين القديمة وهي رمز للتسليم والمعرفة - وكانت المكتبة تسمى بربطنج أي بيت  
 الحياة - وعلى الغلاف زخرفة سلزونية - من القرن الرابع الميلادي

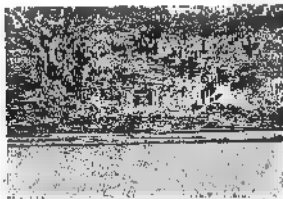


من التزيين الداخلي

١٢ - صورة من التزيين على شكل



١٤ - رسم على الجص يرمز إلى آلهة تعسكي المتعبد بين العذارى واللفظ ويصلب العال الأولى  
نص المعاهدة ويرفع الثاني راية السلام وبمسلك الثالث باناء وضع  
من الكرن الخامس الميلادى



١٥ - النار الكاثوليكية الكبرى (أبو عيسى) بعريوط  
من المعون الخامس الميلادى

بين الأقباط أنفسهم وبخيا مرتبطًا بالنواحي الدينية والعقسية حتى عصرنا هذا .

وقد كانت كتابة المخطوطات وزخرفتها زاهرة في الأديرة القبطية وما زالت هذه البراعة متوارثة بين بعض الرهبان مثل المجالدين الضخمين اللذين تركهما الأتيا . مكارميسي البطريك المتوفى سنة ١٩٤٥ ، وقد رسمهما وهو راهب في أديرة وادي

النطرون وهما يشهدان بدقة هذا النوع من الفنون القبطية . ويعتوى كل من هذين المتجلدين حوالي ٧٠٠ رسم ، كل منهما يتألف الآخر ، هل بعضها عن المخطوطات القبطية وقد اختار أن يرسمها بالألوان الزاهية مثل ملته من الرهبان . وكتب على بعضها الأسماء الذي قل عنه ثم وصف طريقة الرسم التي كان الرهبان يتبعونها .

### الرواسب الفنية

يمشي المصريون في دورات زراعية يشترك فيها النيل والفلاح والجسمان والعلير ، كل يقوم بدوره على وتيرة تكاد تكون واحدة منذ بدء موسم الزرع في هذا الوادي الخصب ، ومن هذا النظام الطبيعي وما ينجلي فيه من تعاون من يدركون وحصاده تكون لدى الفلاح أساس ثابت متين .

ثم مرث على المصريين ديانان تبايت في مظهرها ، وتشابكت في أصولها ، كما تعاقبت عليهم ألوان من الحياة الاجتماعية اختلفت في نيتها وموحدت أغراضها ، فترسبت منها فوق هذا الأساس الثخين رواسب انسانية سليمة عملت على تكوين مبنى للمصري الروحي والفني .

وهذه الرواسب التي يحملها المصري رواسب قديمة معنية في القدم ، تبرز عن غيره من الناس في هذا العالم ، وهذا التراث غير منظور .

أما تراثه القديم المنظور ، فقد أضاف العلماء اللثام عن بعضه ، ولا يزال الكثير منه خافيا أو مختفيا سيظهر المسلم يوما ، ويتداوله العلماء بالتحقق والتعميق . أما التراث غير المنظور فلا يملك لغير المصري الكشف عنه ، فهو من صميم حياته الداخلية بما فيها من رواسب لصبية وقسوة تعاليم لا تنزوها المادة ، ولا تحكم فيها الأوساط . العرفية المتداولة بين مختلف الشعوب . فهي سلسلة متصلة من الرواسب غير مضطربة أو منقطعة أو مصطنعة الاتصال ، وهي وحدة مناسكة العلاقات . والمصري وحده هو القادر على التعامل مع هذه الرواسب بتناولها من طريق الرطب والرهبة ، وعدم الكشف ثم عن طريق الحب والمقاومة . وهي السبل للتوصلون إلى أعناق لقصة ليسخرج منها ثروة كامنة أصيلة في نفسه . يقول الأستاذ حبيب جورجي : وهذا الايمان يذات تجساري للكشف عن كنه

أعمن الطبقات المصرية ، تتميز بحساسية فنية ، ولكنها أبعدت قسداً عن علم الرسم وعن الطرق المدرسية ثم تركها لتخلق في حرية كاملة أعمالاً فنية ابتدعها كل بنفسه وعلى قدرته .

ويطلب هذا العمل مساهمة ومتابعة من الأستاذ حبيب جورجي ، فكان عليه أن يوجه تلاميذه الذين اتخيمهم في رعاية فائقة لحسن إدراك الأبعاد وهم يشككون الطين ، وأن يرشدهم في اختيار مصادر وحجم وفي توضيح طرق التعبير عندهم ، وذلك من غير أن يؤثر فيهم ، أو أن يجعلهم يشكون . كذلك كان عليه أن يدرهم على بحث الحجر ، وكان هذا العمل أقل صقلية من الأول .

وقد ظهرت النتائج ، وفي وسع كل أستاذ أن يحكم عليها . هنا إن القالب الذي صيغت فيه هو قالب مصر العاهرة ، وهذا هو الطبيعي في أيام ، لأن الغرض الذي يهدف إليه ليس أن يحيى الرسم بل غرضه أن يوقظ الروح ويبحث التقاليد في التنوير .

والقوى الذي أدهشني شخصياً في هذه المدونة الناشئة هو أن روحها تنهد وروح مصر القديمة في تناسبتها وفي توزيع أجزائها . ولو أن مثلاً من المصور المزعومة أودع أن يمثل العبادة في مصر الحديثة لما صورها على غير هذه الصورة . وسيظهر المستقبل إلى أي مدى وإلى أية قوة في التعبير تستطيع هذه

الرواسب في الأفعال الذين لم تمتد إليهم الحدود التي تقتضي الفرض ولم تتحكم قيم نظم التعليم والتوجيه . سهلت لهم سبيل الحياة الزاخرة والغالية من الصنعة والكلفة ، ففاضت قلوبهم بثرات مصرى صميم ، أذهل العالم وحذر العلماء لما وجدوا فيه من أوجه شبيهة واضحة مع أسلافهم منذ آلاف السنين .

يقول مدير مصلحة الآثار حين شاهدهم الانتاج الفني لهؤلاء الأطفال :

« من الواضح أن النحت الذي كان الالهجاب به شديداً في مصر القديمة حو ليد التربة أو هو نتيجة لخاصية رافت بفضل تلامب النور الخلاب وسط الأفاق اللانهائية ، حيث الجنب المتناهي يشاين مسح الطعيب الوثير . وبحث يتألف هذا المجموع وينتهي إلى إدراك المأيدية . ولقد استوحى النحت المصري كل أشكاله من الروح وهذا ما يضلي عليه في مجموعته وعلى الأخص في تناسقه الداخلي تلك الصلة التي تكاد تملو على الإلهامية حتى لكأنها تتشارك في اللانهائية والتي لا يمكن أن نجد لها مثيلاً في أي مكان آخر في العالم . وكان الأستاذ حبيب جورجي يرغب في أن يتبين صلة الفن في مصر بالتقاليد الفرعونية التي صنعتها المدنية اليونانية منذ أجيال ، فقام بتجربة ليحصل الترية تتكلم من جذبه وأحضر بعض المراهقين من الطبقة الشعبية التي هي من

ونستطيع الآن أن نؤكد أن العروة قد  
توقفت ، وأن انتقال صيغة الألها هي  
بعينها ، تنال مصر الفرعونية .

المدرسة أن تبلغ ، كما سيظهر للمستقبل بعدا  
من القوانين الذين شاركوا في التجربة وسعدت  
نعم السبل .

## الموسيقى والألحان

بلدة سنجار ، التي تقع شمالي مدينة  
الحرية ، وبرت منذ أيام رمسيس الثاني  
وكانت محورها الأديرة في العصر القبطي ،  
وكذلك الأبرشي له إلى أثيوب القديسة  
( بالقرب من الدين الأحمر والأبيض بمنطقة  
أشم ) .

والكديسة القبطية من نسي كنان العالم  
- - أن لم تكن أغانها - - في فنها الموسيقي ،  
والموسيقى جزء لا يتجزأ من رهبان عبادتها  
المتوعة وطقوسها الطويلة ، وهذه الطقوس  
كما عرفها الآن قد وصلتنا كاملة منذ القرب  
الخاص للبلاد ، لا تقربها موسيقى بيزنطية  
أو لائنية أو غربية أو غير ذلك من أنواع  
الموسيقى المعروفة شرقية أو غربية .

والموسيقى الكنسية - - كما وصلتنا - -  
سوبة بحتة لا تستخدم الآلات الموسيقية  
في دالها . وقد تناقلت الأجيال بالتواتر  
شفاها . ودونت موسيقى الكنيسة القبطية  
أخيرا بانوتة الموسيقية لفصوت وتنع في عدة  
مجلدات لم تنشر بعد . وكذلك سجلت جميع  
الأغاني على أشرطة صوتية في موضع درس  
يمكن أن نقابل بين بعضها وبعض الأغاني

تدل الصور انشتمت على حدران المغائر  
والآلات الموسيقية التي أثر عليها في مصر على  
أن الشعب المصري منذ عرفناه في التساويع  
يميل بطبعه إلى الفناء والموسيقى ويستفهمها  
في المناسبات المختلفة في حياته الاجتماعية وفي  
الاحتفالات العديدة في حياته الدينية .

ولما انتشرت المسيحية في البلاد المتباعدة  
وتكونت كنائسها ، لها معها في كل قطر من  
موسيقى كنسي تفتي مع النزعة القديسة  
الموسيقية لكل شعب . وشكلت الشعب  
موسيقاه بما يعقل مع ذوقه مستندا ذلك من  
تقليده .

وقد ذكر الفيلسوف الإسكندر فيلو  
الذي عاش في القرن الأول للميلاد أن  
الجماعة الأولى من المسيحيين المصريين  
التبست العنان لعبادتها الجديدة من الأنعام  
المصرية القديمة ، وهذا يوضح لنا كيف  
انتمت الموسيقى الكنسية المصرية من القرن  
الوطني المصري ، وليس ذلك على ذلك من  
أن بعض الألحان النائمة إلى الآن في  
الكنيسة المصرية تحمل أسماء بلاد قد اندثرت  
منذ عهد بعيد . فاللحن التجاري نسبة إلى

الشعبية القديمة الساكنة الآن في مصر وأوجه  
الشبه بينهما ملحوظة .

والألحان تتفاوت طولا وقصرا ، ويبلغ  
بعضها خمس عشرة دقيقة ، ومنها ما يتم  
على كلمة واحدة أو بضعة كلمات . وعلى  
الرغم من ذلك فان موسيقى القبطية ليست  
مقدمة وتتكون من صوت واحد أي لا تتعدد  
نغماتها إلى وقت واحد ، ولها من بساطتها قوة  
تأثير على العاطفة مهما اختلفت الأذواق ، وهي  
«الحنن معبره» . وفيها النغم الحزين ولحن  
الفرح . قال أحد علماء الموسيقى عند سماع

الألحان الحزينة «إن أنغامها عريقة في القدم ،  
فيها حض على الزهد ، واسترخاء للنفس  
انطاعية» . أما ألحان الفرحة فيها نشوة تسم  
الإنسان بلذو روحية وتسمو به إلى عالم  
أسمى .

هذا الفن القديم وراثته الكنيسة القبطية  
وحافظت عليه ، ولعل في دراسته القيمة  
« يعود بنا إلى أصوله المصرية القديمة ، فإن  
الموسيقى الكنسية القبطية أقدم مدرسة  
موسيقية معروفة في العالم .



## الفصل الخامس

### الحياة الاجتماعية

(أ) مركز المرأة في الحياة المصرية . . . (ب) الأسرة .

(ج) الصداقات . . . (د) التقويم .

(هـ) الزينة : لباسها في مصر ، أطوارها ، آفانها التبريرة والاجتماعية وانتشارها في أنحاء العالم الحي .

### (أ) مركز المرأة في الحياة المصرية

حتى صارت نموذجاً للوثنيين وقدوة مثلى اجندبت هؤلاء الوثنيين الى دين المسيح بطريقة ميعتها « لأنها كرسيت حياتها للخدمة في خلوص » و« ضمة نصب عيها كلمة يولس الرسول » أنهم هيكلا لله وروح الله ساكن فيكم » . ومن ثم عاشت باستقامة وعلهاة . فاعتزعت احترام الجميع النزاعا . وكأنت العالم التي تسلمها التلاميذ من السيد المسيح عن كرامة الشخصية الانسانية ترداد على مصامع الشعب كل يوم لا كان اكلينفيس الاسكندري يملن عظمة الزواج المعيشي في معاصراته بالمدرسة الاسكندرية . وكان بين لباسيه كرامة هذا الزواج الذي جعلت منه الكنيسة سرامفدا ورباطا روحيا يعقله الكلن يقتضى ما خاله من سلطان

كانت المرأة في مصر منسبة القدم العمود — مصدر الوحي وبسبب العباد الروحي . حتى لقد جعلوا الالهة مات رمز العدالة والبر والحق . وقد سجل لنا التاريخ أسماء الالهات والملكوت والكاهنات ، ولكن العظمة الروحية التي امتازت بها المرأة في مصر لا تركز على هؤلاء وحدهن — اذ هي يؤلفن اقلية — بل تركز فوق ذلك على ان المرأة كانت مسؤولة عن اولادها أمام بطبيهم ، كما كانت مسؤولة عن والديها في شيخوختهم . فهي لم تكن مصدر الوحي فقط بل كانت حاملة الفطلة أيضا .

واعتنق المصريون المسيحية فظلت المرأة مصدر الوحي وظلت حاملة الشعلة ، فقد روت نفسها على السور بأخلاقها وفضائلها



ولقد افه جنال رخاء . فقد شاء ذات يوم أن يرفه ذوجه القداسة التي وصل اليها فرأى في رؤى الليل ملاكا ينبشه بأنه بلغ مرتبة سيدتين ❀ بلدة معينة . فلما أصبح الصباح ترك صومته قاصدا البلدة التي أشار اليها الملاك . ولما وصل الى بيت السيدتين استقبلته بالتكريم والاحلال ثم سألهما عن كيفية معيشتهما ليبرف السبب في ما قالتا من تقدير فأخبرته بأنهما يسكنان معا لأهلما متزوجتان من أخوين . وأنهما افقتتا منذ اليوم الأول على أن لا تنفوا أحادهما بكلمة تجرح الأخرى . وإذا أحست واحدة منهما بأنها أسأت بكلمة الى الأخرى افخبرت لها في الحال دون أن تدع النفس غيب قبل أن تكون قد استسحتت من أسأت اليها وصفت العصاة مع طميرها . وحين سمع الألبا مكارى عبدا الكلام هنه قائلا « حقا انه لا فرق بين الراهب والمتزوجة وبين الناسك والرجل الذي يمشي في القام . فقد وجب الله تعالى لسة الحياة للجميع ولم يطالبهم الا بصمت لواجبهم » .

ولقد أدركت المسيرة المصرية قديمة الأسمه كما أدركت قديمة الزواج تماما . فلم يجد للام المسيحية شاغل الا العناية بأولادها والسهر على تربيتهن تربية تتفق والكبال المسيحي . وقد دفعها هذا الادراك الى التفاني والمحبة . ولم تكن أمومتها منصبية على أولادها الذين ولدتهم فقط بل

تسلحه من الرسل أنفسهم « ومن أن السيد المسيح بارك العرس في قانا الجليل . وكان الوثنيون يعشقون الطهر والعفاف ويتباهون بما هم فيه من فساد . والمجب أن هؤلاء الوثنيين الذين كانوا يصغون الى محاضرات الكليمنس دغيبه من معلمى الكنيسة عن الزواج ان البسلة المفرطة على الزوج وزوجته ومن قدسية الزواج — كانوا يصغون بانتباه تام لأنه كان لا يزال بهم حتى يصعد نفوسهم الى ذروة الحكمة التي بلغها . فإذا ما قارن المستمعون الى محاضرات الكليمنس بين تعاليمه وبين الحباء التي يحياها المسيحيون وجدوها صرورة صادقة للإيمان بقدسية الزواج . لأن الزوجة المسيحية كانت مثالا حيا للكلمة الانسانية التي ترتفع عن الروول الى حياة الرذيلة . وحين أبصر الوثنيون هذا التدريس للزواج وهذا انتمك التسمام بالمعاق تحولوا لتزويجا نحو هذا الذين اندى ارتفع بالصلة الزوجية الى مرتبة الروحيات .

ومع أن التاريخ يذكر سير النساء القواتى بلغن مسكاة روحية سلمية الا أن هناك آلافا من العنديات الجيولات القواتى عرغن معنى التضائل المسيحية وعشن بسوبها « ومن أرى الأمثلة عن هاته النسوة المجسولات فسة يرونها أنبسا مكارى الكبير بنفسه « فانه — على الرغم من حياة التلك والرهينة التي كان يصيها — كان يؤمن بأن كل من يعمل

وكان يحدث أحياء أن يعجن الرجل فتكون المرأة سبية في أن يستعيد شجاعته . وأبرز مثل لذلك السيدة جميلة التي كانت الابنة الوحيدة لمرقس وإلى البرلس . وكانت قد طلبت إليه أن يبنى لها قصرا تقيم فيه يبنى عن العالم ليخلو فيه إلى ربها وتطهى عسرها في الزهد والتقشف ، وفي الصوم والصلاة ، وفي التأمل والعبادة ، فأجابها أبوها إلى رغبتها وبنى لها قصرا في المنطقة المعروفة الآن بالبراري بالقرب من بلقاس ، حيث عاشت فيه في أمن وسلام مع أربعين تلميذا ، تدور في العفة والطاعة مثليا . وعشر جببا في حدوده وطلانة . إلا أن ديوقلدباوس الامبراطور الروماني الفسوم أثارها حربا شمواء على المسيحيين فجرعهم صنوف التعذيب والتنكيل ، وجن ملأ هذا الامبراطور الطاغية اضطهادا طلب من الولاة والحكام أن يذهبوا معه إلى الهيكل ويرفعوا القرايين للذلة . فحين مرقس أبو جميلة وخشي على مركزه وبلاده ، وذهب مسجحا الامبراطور كما طلب .

فلما سمعت جميلة بما كان من خوف أبيها ذهبت لخلافاته وأمررت له عن حزنها الصبي لما أبداه من خوف وراجع . فلم يسح مرقس إزاء كلمات ابنته إلا أن يعود إلى الامبراطور ويطلب له فدية عما قرط منه من تعذيب للذلة ويقرر له أنه مسيح . فأمر الامبراطور بتقطع رأسه بالسيف . ثم أرسل

اتممت لتسمل الأولاد المحتاجين إلى العناية في شتى مسورها . فخلد استشهد أبو أوريجانوس في الاضطهادات التي أثارها سبتيموس ساوريس في ثواعمس القرن الثاني للسبيحية . وكان أوريجانوس لا يزال يافعا مع كونه أكبر اخوته السبعة ، ولم يكتب الامبراطور الروماني القلوم بأنه أفقد هؤلاء الأولاد أباهم وعائلهم بل صصادر أموالهم أيضا . فامتنت بهم سيده غنية من سيدات الاسكندرية لم يذكر التاريخ اسماء وسمرت على تربية هؤلاء الأطفال البنائي وبذلك حيات الترسه لأوريجانوس ليكون من أبرز المعلمين الذين ألجئهم الكنيسة المصرية ومن اعلام الفكر المصري الناصح .

ولقد كان من أثر تلك المرأة بكرامتها وحفظها لطمها وادراكها الصحيح لسؤولياتها أن وثق بها آباء الكنيسة ومعلموها . فوجد أن أوريجانوس ناظر المدرسه الاسكندرية حين سجل الكتاب المقدس في لهجات مختلفة استخدم سبع شابات يعجن الغف كى يكتبن له هذا الكتاب في صيفته النهائية بعد التنقيح والتعديل . ولما بدأت الاضطهادات المروعة التي شنها أباطرة الرومان على المصريين كانت المرأة لمرة راسخة شئت من عزية الرجال إذ كانت تنف إلى جانبهم وهم يسامون انواع العذاب تنجمهم على احتشال ما يلاقون من حزن . وبعد ذلك تلقى هي ما تلقاه الرجال من صنوف التنكيل في سكينه وثبات .

جنته الى حيث تعيش دميانة ومعها الأرمعون  
 عذراء ، فشكلوا بين تنكيلا ، وتحصلت دميانة  
 وصديقاتها كل صفوف العذاب بصبر عجيب .  
 وكان أهل القرية قد خرجوا جيما ليشاهدوا  
 ما سيفعله الجند بالعذاري . فلما رأوا باعهن  
 وشجعاعتهن اعلتوا مسيحتهم فأمسك الضابط  
 الروماني بقتلهم جيما كما أمر بقتل السيدة  
 دميانة والعذاري الأرمعن . وهكذا كانت  
 بساطة السيدة دميانة سببا في افكاح دار العبيدة  
 والامان الثابت في قلوب هؤلاء جيما .

ثم الممس الاضطهاد ، وحل في الامن  
 والطمأنينة . فمادت المزمع الى مزاوله اعمالها  
 العادية . فالزوجة الصرقت الى بيتها ، والام  
 عادت الى حرية اولادها . والى جانب الزوجة  
 والام كانت نوحه من وهيت حياتها القديمة  
 الله والنسائس واختارت ان تكون راحبة  
 او شماسه ( أو كليهما في آن واحد ) .  
 ولم تكن حياة العبادة منصبة على عبادة  
 والتأمل فقط بل شملت العمل اليدوي  
 والعقلي والخدمة الاجتماعية ايضا .

أما درجة الشماسية فكانت تتفاوت من  
 ينالها أن يتفقد المرضي وأشجروين والفسريه  
 والمعوزين ، كما كان عليه أن يزور العائلات  
 ويلتزم تقريرها عن أعماله للكهنة أولا بأول .  
 فكانت الشماسية مسئولة عن التي المنوط بها  
 خدمته ترحي سكرانه وتبذل جهدها على  
 تخفيفه آلامهم وعلى ادخال الطمانينة الى  
 نفوسهم ، وترعى على مصابحتهم الى  
 الكنيسة كي ينالوا حظهم من الرعاية الزوجية.

بل لقد كان الشماس ( أو الشماسية ) يوصف  
 بأنه « عبا الأسقف وأذنائه » لاهمية عمله .

وأنظم من بين الشماسات تلك الشماسة  
 التي لم يذكر التاريخ اسمها والتي اختبأ  
 عندها النابيسوس الرسولي ( الباسبا  
 الالامسكتندري المبرون ) . ذلك أن  
 الأبرسيسيين كانوا يطاردونه بنية قتله .  
 فهدبوا ذات ليلة على الكنيسة التي كان  
 يصلي فيها . ووقف الضمب تلك الليلة في وجه  
 الأبرسيسين . ثم حمل بعض الرهبان خارج  
 الكنيسة . فلما وجد نفسه مرا طليقا أخذ  
 يتمشى في شوارع المدينة وهو يفكر . وكان  
 تلاح الليل سائرا يغطي عن أعين مطارديه ،  
 ونمسا هو يفكر ويصلي اللهم روح الله أن  
 يلعبا الى بيت شماسه لم تتجاوز العشرين من  
 عمرها . ولما فرغ الباب فتحتة بنفسها ففرح  
 فرحا عظيما حين رآته « مكث القديس  
 العظيم في بيتها حوالي صد سنوات خدمته  
 خلالها بأمانة لا تعرف الكلل لمكانت ثلثي  
 له بالمخطوطات من الكنيسة ، وتحمل الى  
 الضمب رسالته النصيحة وخفاياته التي كان  
 يكتبها في مختلف المناسبات مما تثار دهشة  
 أصحابه وأعدائه معا .

لأصحابه كانوا يتفقون تلك الرسائل  
 بجمعة وليلة وهم يتساءلون في شيء من  
 الغوف : ترى اين البيا العظيم ؟ أما خصومه  
 فكانوا يتسبون غيظا لمجزهم عن معرفة مرقه  
 والفتك به . وضاعت جهود الاستدقاء  
 والأعداء في البحث عنه . فلما مات الامبراطور

تسطن الثاني الأروسي — وكان المؤمنون مجتمعين ساعته في الكنيسة للصلاة ... **✠**  
 بالهنايسوس الرسولي واقف بينهم فجأة .  
 فلاقوه بفرح لا يوصف ثم سألوهم أين كان  
 مختبئاً فأجابهم « تم اختبئي عند أحدكم لئلا  
 يسألکم الحكام عن مكاني فتكذبون حرصاً  
 على حياتي ، بل لقد اختبأت منذ تلك التي هي  
 قولي القسيمات مع كوثي شابة جديدة ،  
 فكتب بذلك حياتي وحياتكم » .

هذا المثل الرائع بمطينا مسجودة عن  
 خدمات القساوسة ومدى جهودهم الدينية  
 والاجتماعية « والي جانبهم وقفت الراهبات  
 اللواتي كرس حياتهن للخدمة والعبادة في  
 فناء عجيب . ومن الأمثلة البديعة خادمة  
 الراهبات الروحية والاجتماعية مما تلك المثل  
 الذي قدمته الصغراء « ييامون » حين  
 غضب زاعما بين أهل غريتس بسبب ميساه  
 النيل - إذ كان أهالي كل قرية يريدون دى  
 أراضيهم قبل الآخرين .

وثمة خدمة أخرى لها قيمة كبيرة كانت  
 المراد تودعها . هذه الخدمة هي التعليب .  
 فبعد كانت بعض النسوة يعرفن ما لبعض  
 الأعشاب من فوائد صحية وركبن منهن  
 العقاقير ويصنعنها للمرضى . وكانت هذه  
 الخدمة توهب مجاناً في معظم الأحيان .  
 ولا تزال في بعض بلاد الصعيد مسيرات  
 يردنها . وهؤلاء السيدات لم يذهبن إلى  
 مدارس ولم يتلقين العلم على أساطل . ومن  
 المعروف أن مثل هذه المعرفة جاءت من التسليم  
 — أي من المرأة التي لديها هذه المعرفة كانت  
 تفتخر شابة تتوسم ليها الرعدة والمقدرة على  
 تأدية رسالة الطبيب لتسليمها معرفتها  
 بالممارسة . ولا كانت حاله النسوة يشن في  
 بيئة ساذجة ، ينشر فيها من جرف الضراعة  
 والكتابة كما ينذر أن يوجد فيها من يهه  
 أن يكتب حجة المرأة العاملة فانه لا توجد  
 أدلة مغلوبة وأبنا الأولة قائمة على قيد  
 الحياة لمساها وعلى اكتفيل الذي سارت عليه  
 مصر منذ أقدم العصور .

## (ب) الأسرة

( التي هي العماد — التثبيت — التناول —  
 الاعتراف — الزينة — مسحة المرقم —  
 الكملوت ) ( والسر الكنسي هو أصل مقس  
 به بال المؤمنين ثمة غير منظورة تحت علامة  
 منظورة ) .

لذلك غرابطة الزواج تحتاج الى لمة  
 الية لربط الزوجين برابط رة هي متين بستر

اهتمت المسيحية بعمارة الأسرة كأساس  
 لبناء مجتمع سليم . فمجود ميثاق المسيحية  
 الى مصر اهتمت بأن تدخل ثاليتها وقوانينها  
 الى الأسرة لتدعيمها وحياتها . فتساعد على  
 تهيئة جو من الاستقرار والأمن .

غرابطة الزواج المسيحي نمنير ركنها هاماً  
 من أركان الكنيسة بل وأحد أسرارها السبعة

وتستمر احتفالاتها عدة أيام : الليلة السابقة على العرس وتسمى « ليلة العناء » وتقام وليبتها في بيت العروس تتودع بهما ، وفيها تصنع العروس وتعمل البيت أكرمهم وأرجلهم بالصيغة العبراء التي تركها عبسنة أوردق العناء على أكبلد ، ثم ليلة العرس في بيت العريس - والصباحية حيث يستقبل الزوجان عدايا العائلة والأصدقاء وما يسمى بالفيوط (أي الهدية النقدية) وتشتات فكرتها أصلا كمشراكة عيلة في مصاريف العرس ، وأحيانا تستمر هذه الفصلا إلى عساياه الأسبوع وتختتم بليلة السبوع .

ولما كاث الأظمة التي تقدم في ولائم العرس من الأظمة الفاخرة الدسة . فبعد صمت الكنيسة اقامة « الأكليل » في أيام الأصصوام ، حيث يستمع تناول الأظمة الحيوانية والدسة ، وحيث يتمتع الأزواج عن المعاشرة الزوجية لتفترغ للصوم والصلاة .

وحينا يولد للعائلة طفل ، يكون أول احتفال عائلي به في اليوم السابع ، فتدعو العائلة الكاهن ليبارك الوليد ، ورفع صلاة شكر لله من أجل سلامة الوالدة . وتسمى « صلاة الطفت » نظرا لاستخدام النسب في غسل الطفل في ذلك اليوم . وغفل هذا الطقس يشترك الكاهن مع الوالدين في اختيار اسم تبطي للوليد - يختارونه غالبا من أسماء القديسين والشهداء المشهورين بسلامهم العليا . ولهم في ذلك طرق مختلفة : فالبعض

مدى الحياة ولا يشعه الا اثوث أو الخيانة الزوجية ( الزنا ) . لذلك فمن المضم أن يقوم بطفوس هذا السر كاهن شرعي ، وبالتالي لا يستطيع أحد أن يقسم هذه الرابطة الا الكاهن في حدود الملة الآتية الذكر فقط . وما أن الزواج في المسيحية رابطة ورسخة تجعل من الإثنين واحدا ، لذلك فلا يمكن أن يدخل نفس هذه الرابطة أكثر من زوج واحد وزوجة واحدة .

وعلى الكاهن بصيغته أيا روحيا أن يستوفى من نواير شروط الزواج والغلو من موامته . وفي يتأكد من الرضا الشخصي لكل من الخطبين « يمسأ كل منهما ربه على أفراد بعيدا من مؤثرات أو ضغط العائلة ، حتى ضمن لجاح الزواج وسعادته الزوجين واستقرار العائلة .

ويسن الاتباط حفل تمام طقس الزواج بالأكسل - لأن الكاهن يمسجج رأس العروسين أثناء الصلاة باكليين ، دلالة على النعمة المقدسة التي توجه حياتهما برابطة الزيجة . وتعتبر حفلات الزواج فرصة مواتية تعبر فيها العائلة عن مشاعر الفرح والابتهاج بمظاهر مختلفة . كان من أولها تقديم العسكر له بمحاولة اشراك الفقراء والسييران من أهل المنطقة المجاورة في مشاعر المرسج وذلك بتوزيع الكساء وما طلب من مأكول وحلوى عليهم .

وما العسسالات الثرية فتجر الذبايح

السوى لهذا القديس يتوزع المَـدَاقَات  
وعمل وليمة للشعب أغنياء وفقراء معا .

وحيثما يكتمل للولد أرمصون يوما ،  
تحمله أمه إلى الكنيسة ليُلبَّس سر المهاد فحينئذ  
له الكنيسة عزًّا أبى ( أميينا ) ومعته أن  
ينوب عن الكنيسة في رعاية المثل ووجها إلى  
أن يصل إلى سن الدراسة فيلحق بمدرسة  
الكنيسة .

وهذا الأرباط القوي بين البيت القبطي  
والكنيسة كان يأخذ مظاهر متعددة أخرى  
ترك في حياة أولاد العائلة الطبايعات دينية  
عسقة . فكلما بنت العائلة بيتا جديدا أو نقلت  
مساكنها إلى دار أخرى دعت الكاهن ليبارك  
المساكن الجديد بصلاة شكر خاصة يقوم  
الكاهن في آخرها يرش الماء المقدس في أرجاء  
البيت استنجابا للخبر وطردا للشر . ومن  
الواجبات الرعوية على الكاهن أن يزور بيوت  
رجته من حين لآخر وأعطى ومرشدا . كما  
عليه أن يزور البيت كلما مرضى أحد أعضائه  
فيصلى سر منسلة المرضى ( القنديل ) ويدهن  
المرضى بالزيت المقدس .

ومن العادات العائلية القديمة في الصعيد  
الأمسيات التي يسولها « انهير » . والمسير  
ممناء السرة . فإذا كان على عائلة غُـرَّ ما  
لأحد القديسين ، أو مناسبة فرح وشكر  
لشفاء مريض أو توفيق شخص في تجارته  
أو عمله أو الخروج من ضيقة أو شر محيط  
احتفلت الصائبة بدعوة الجيران والأقارب

بختار اسم القديس الذي ولد الطفل في يوم  
عيد أو ذكرى استشهاده . والبعض يختار  
سبعة أسماء للقديسين مختلفين ويطلق  
أسماءهم على سبع شجرات ، والشجرة التي  
تستمرضيفة إلى آخر الحفل يطلقون الاسم  
الذي تحمله على الوليد . وأحيانا يكون الاسم  
قد أعاد من قبل بأن لهُ أحد الوالدين تسمية  
الوليد باسم القديس الذي استشفح به في  
وقت ضيقه .

وكان حب الأقباط للقديسين والشهداء  
يدفعهم لاطلاق أسماءهم على أبنائهم سرا كان  
اسم القديس من أصل مصري أو يوناني  
أو سرياني . الأمر الذي اختلف على البعض  
فجعلهم يشتككون في مصرية حاملي هذه  
الأسماء . فكانوا يسبون مشاهير العلماء  
والقديسين المصريين إلى اليونان لجره أن  
الاسم أصله يوناني .

وكان في كل بيت قبطي « مقصورة »  
( ومكانا مكان مقصور أو مخصص للصلاة )  
بها أيقونة ( أي صورة ) قديس أو أكثر .  
ويوضح في ركن خاص بالبيت كمكان  
مخصص للصلاة والعبادة . وأحيانا يضيئون  
أمام الأيقونة قنديلا من الزيت أو بعض  
الشموع تكريما للقديس الذي كانت حياة  
الفضيلة والتضحية التي عاشها نورا وهديا  
للصالحين . وأمام هذه المقصورة اعتادت العائلة  
التبعية أن تتجمع لتصلي الصلاة العائلية في  
الصباح وعند الغروب . وتحتفل العائلة بالعيد

كبير في تخفيف وطأة العزّ على قاربه .  
 ويسمى العامة « رفع العصير » أى انهاء  
 فترة العزّ الشديد اثنى فيها يجلس أهل  
 البيت والمعوّز على العصير أرضاً بدلاً من  
 الجلوس على الكرّك أو المقاعد .

وبسبب ذلك تنام القديسات في الكنيسة  
 استمطاراً لرحمة الله في أيام السابح والخامس  
 عشر والأربعين . وتعتبر هذه فرصة مناسبة  
 للتعبير البليغ عن مشاعر العزّ ، إذا  
 ما اقترنت بالتأثير الدينى الذى يعمل دائماً  
 على حفظ الزان الشاعر ، فلا يكون فيها  
 الإفراط متشابهاً لمظاهر العزّ عند الوثنيين . كما  
 لا يكون فيها كبت ، كما يحدث لدى الذين  
 يظنون أن التمدن يتعارض مع مظاهر التعبير  
 عن مشاعر العزّ . لقد أثبتت أبحاث علم  
 النفس التطبيقي أن كبت مظاهر العزّ  
 للظهور بظهور التمدن ، له أدّى في كثير من  
 الحالات إلى أمراض جسدية ونفسية تظهر  
 آثارها بعد فترة من الزمن .

ولكن للأسف المآثرات أحزان الألباط  
 خصوصاً عند النساء في الصمد يعرض  
 المآثرات الوثنية من لحم مؤذ ، وحق  
 للباس ، وحل للفر ، وصبيغ للمعر  
 باليفة ، والقرع على الصدر بشدة ، وفقد  
 زمام النفس حتى تتخلل التكلّي أحياناً  
 باعتزازات فريجة تتشى مع أنغام التعديد  
 الذى كثيراً ما يقترون بقرع الرق أو الطبول .  
 وتختلف أقاليم الصعيد في طريقة « التمديد »

والفقراء ويرتلى الألبان الكنسية الى سمرة  
 يجلبون فيها في حلقة جوسطها من بقرأ  
 « ( مبر ) أحد القديسين . وكلما وصلوا  
 الى فصل جديد في السيرة أو نقطة بطولة ،  
 يتوقفون عن القراءة ويأخذون في ترتيب  
 المايح الشعبية ■ تهلل وبهجة « يتهاوى  
 مرتلو الألبان ■ ارتجان مقطوعات تمجيدية  
 يسرلها ■ الأرباع » ( أى أربة أبيات ) .  
 وتدور سمالى هذه القصائد حول المناسبة  
 التى يحتفلون بها . ويدخل فيها ألفاظ  
 أو أبيات باللغة القبطية لأن القصائد كانت  
 تلقى قديماً باللغة القبطية . ويدخل فيها أيضاً  
 تفسير للكتاب المقدس وحض على الفضيلة .  
 وكلما أعجب الحاضرون قطعة يجلون العطاء  
 ( المنقرط ) على المرتل ( وهو غالباً طرير )  
 وهكذا يقضون سهرتهم طوال الليل في ذكر  
 الله ورجاله الأقياء . وهذه الاجتماعات تسمى  
 في بعض الوقت وسيلة من وسائل الترفيه  
 السمي الروحى .

### للأم

وترتبط عادات العزّ والمجم في العائلات  
 بمظاهر دينية أيضاً ، إذ تنسج الجثة الى  
 الكنيسة حيث تنام صلوات جنازة استمطاراً  
 لرحمة الله على ما قد يكون المنتقل قد فعله من  
 عنوات أو سموات أو أخطاء غير متصورة .  
 وفيها أيضاً طلب التزوية المساوية لأهل  
 الميت . وتقام صلاة خاصة في بيت الميت في  
 اليوم الثالث للوفاة . وهذه الصلاة أثر

وعادة زيارة المقابر ( الطلبة ) — أى الخروج الى المقابر التى تكون غالبا خارج القرية أو على مكان مرتفع جاف — من العادات القديمة . وهى من علامات الوفاء وتكرم ذكرى الميت فى أيام الأعياد التى يمتد فيها أفراد العائلة التجمع معا من بلادهم المتفرقة ونصطحب هذه الزيادة بعادات أخرى منها تسليم ومنها الفسار ، لتلوع الصدقات والمأكولات على الكفراء . ورفع الصلوات لطلب رحمة الله . الا أهم كانوا يخالون فى ذلك هيبتون فى المقابر ويقيمون عدة أيام شادون فى مظاهر الحزن المفرط .

وهى فى الغالب تديد متأثر القتيه ، ومقدار الخائر التى لحقت بفقده . الا أن بعضها يتعرف الى عبارات الكفر والنكر . وهذه المادان والاقتوال لا تفسرها المسبجة ، ويعاربا رجال الدين فى مواعظم . وعندما تمزأ عائلة يفقد أحد أعضائها تسرع العائلات المجاورة الى مشاركتها فى التولية لتخفيف وطأة الحزن ، كما تشارك أيضا فى أعياء حياطة المزيى القادمين من قرى أو بلاد بعيدة ، إذ ترسل كل عائلة ( مبنية ) مأكولات الى بيت الماتم الذى يكون مشغولا فلا تمكن من اعداد الطعام للمعربى .

### ( ج ) العادات

ومن هذا الاسم تميزت الكنيسة بوظيفة اجتماعية وروحية ، إذ أن مهمة السو بروج الانسان تحتاج الى رعاية نفسية واجتماعية بجانب الرعاية الروحية حتى تتكامل الشخصية فلا تحقد أو تنقسم على ذاتها ، لتسير فراغيا فى جسم المجتمع . بل تسعى الكنيسة الى تكوين المواطن الصالح .

ويسهر على توفير هذه الخدمات الروحية لسد احتياجات الشعب ، وعساسة الكنيسة وغدلمها بدرجاتهم المختلفة : الشماس واخفيس والإسقف . وهى درجات الكهنوت الأساسية فى الكنيسة .

والكنيسة بهذا الوضع مصنع اشتراكى ديمراتى ، تتكافأ فيه الفرص الروحية

اربط المصرى بالكنيسة ارتباطا وثيقا حتى تأثرت عاداته النفسية وتقاليد حياته اليومية بالطباعات دبة كتيرة ظهرت آثارها فى أغراضه وأثرأه ، واحتفالاته وعبادته . ولا غرابه فى ذلك لأن للكنيسة معنى اجتماعيا يلمس حياة الشعب التابع لها .

وكلمة كنيسة مصابها جمساعة ، أى « جماعة المؤمنين » . ويطلق الاسم اصطلاحا أصا على المكان الذى يجتمع فيه المسيحيون مهما كان نوع هذا المكان . ففى قديمى المسيحية ، فبال أن تبني الكنائس والكاتدرائيات ، كان يطلق اسم الكية على البيوت التى يجتمع فيها الشعب للعبادة والصلوة .



الغذاء للصغار ويقوم كبار أعضاء العائلة  
بإقسامهم على خدمة أفراد الشعب الفقراء  
والأغنياء على السواء .

وتظهر قبة هذه الولايم في الرابطة  
الأخوية والتقريب بين الطبقات والتقليل من  
التفاوت الاجتماعي ، بجانب ما تقدمه  
من ضيافة بأطعام أفراد الشعب الذين يمسد  
بيوتهم عن سكان الكنيسة .

ولكل عضو في الكنيسة أن يستخدم  
نفس القاعة الملحق بالكنيسة لإقامة احتفالاته  
الخاصة من مرس أو مأتم . ففي تستخدم  
احتياجات الشعب عامة . ويلحق عادة بهذه  
القاعة عدة غرف للنوم لاضافة الضيوف  
والفقراء .

وقد اشتهرت الكنيسة القبطية بالمدرسة  
الملحقة بها ، وكانت في القسرون الأولى  
المسيحية تسمى مدرسة الموعوظين لأعداد  
الراغبين في العماد وتلقبهم أسرار الإيمان  
المتبعي . ثم أخذت فيما بعد شمول  
والكتاتيب ، وكانت تلقى الأطفال مبادئ  
القراءة والكتابة والحساب بجانب دراسة  
الكتاب المقدس واللغة القبطية والآلهان  
الكنيسة .

وكان بجوار بعض الكنائس مستشفى  
لعلاج المرضى كما جاء في مسيرة القديس  
باخوموس ( القرن الرابع ) أما أننا  
مستشفى ☩ أدبرته .  
وأجعل مظاهر الرعاية النفسية التي

والاجتماعية أمام الفقير والغني ، الجاهل  
والمعلم ، الصغد والبالغ ، وأيضا البشارة  
واسودها . فتمتص فيه الجميع بفرض العبادة  
المشتركة فيقف كل هؤلاء خاشعين يصعدون  
الهة واحدا ، ويتمسكون كيفية تطبيق الفضائل  
في حياتهم اليومية ، حتى لا يصبح الدين  
مظهرا منفصلا عن الحياة أو المجتمع ، بل  
يصير وسيلة فعالة للمشاركة في العماء للفقير  
والحتاج ، والتعاون لخير المجتمع .

وظهرت علامات هذه النظم الاجتماعية  
للكنيسة في مصر منذ أقدم العصور .  
فضمن مباني الكنيسة ☩ أسوارها  
مؤسسات تقدم بالخدمات المختلفة لشمعها  
من روحية وإقامة واجتماعية ، ففى كثير من  
كنائس قرى الصعيد والوجه البحري ،  
ما زالت تحيط بالكنيسة «باني » المبوان ،  
أو « الأيوان » وهي المصنفة أو قائمة  
الاجتماعات التي يجتمع إليها الشعب مسيح  
رحاه بعد صلوات قداس يوم الأحد  
لتشاورون في شئون مجتمعهم ثم يتناولون  
معا ما اعتاد المسيحيون بتسميته « الألفاني »  
وهي كنية قبطية معناها محبة . وتستخدم  
استغلاحا بمعنى « ولية المحبة » . إذ بعد  
أن يشترك الشعب مع الكاهن في تسامول  
الأمراز المقدسة في نهاية القداس يرحلون  
الى قاعة الاجتماعات هذه ويتناولون معا  
الغذاء على مائدة واحدة . وجرت العادة على  
أن تتناول عائلات القرية تقديم الغذاء فحدد  
لكل عائلة أسبوع معين من العام تقدم فيه

تقدمها الكنيسة لاحتياجات الشعب ، تتجلى في وظيفة « سر الاعتراف » . وهو كما سنه المخطوطات القديمة « طب روحاني » ، وبلغه العصر الحديث وعلم النفس « صحة نفسية » أو « طب نفس » ، سبحانه الوفاؤي منه أو الملاحي- فمروغه ان الفرد محتاج الى ارشاد وتوجيه وخاصة خلال الأزمات النفسية ، أو عندما تشتت وعاءه مشكلات الحياة أو يزداد الضجور بالألم ، فأسلم طريق لراحة النفس وسلامة العقل هو العلاج كوا من النفس على يد من يستطيع أن يطمئن النفس ويهدئ من روعها ، ويرسم لها طريقا لتجديد الرجاء أو بعثه .

ونحتاج النفس البشرية أيضا الى أن تكون على صلة مستمرة بالله تعالى ، لذلك تفتح الكنيسة أبراما ليفتتح الشعب معا في رفع الصلوات لله مرة على الأقل كل أسبوع — يوم الأحد . وقد اعتادت الكنائس القبطية أن ترفع الصلوات في أيام الأصوام أيضا وبخاصة الأرباء والجمعة من كل أسبوع . وكانت الكنائس قديما تقيم القداسات يوميا . وتحتفل صلوات القداس القبطي على طلبات من أجل الظروف المختلفة التي تمر على الفرد في حياته : من أجل المرض والمسافرين ، والرافدين ( أي الأموات ) .. وكذلك من أجل سلامة العالم . ولم تغفل أن ترفع الصلوات من أجل الحكام والملوك والولاة ، تنفيذا لموصية الكتاب المقدس

القائلة ( فاطلب أول كل شيء أن تمام طلبات وصلوات وإبتهالات وتكررات لأجل جميع الناس . لأجل الملوك وجميع الذين هم في منصب لكي تنقضي حياة مطمئة هادئة ) كل تقوى ووفاء ( ١ : ٢ — ٢ ) .

ولما كانت مصر بلدا زراعيها فقد اهتمت الكنيسة المصرية بنوع خاصي بالصلاة من أجل الزراعة وما يؤثر فيها من طقس وماء . ونظمت هذه الصلوات لتنشئ مع الفصول الزراعية :

( أ ) غني فصل البذار ( من ١٠ بابة الى ١٠ طوبة — أي من ٢٠ أكتوبر الى ١٨ يناير ) تصلي قائلة ( تفضل يا رب الزرع وليت الحقل في هذه السنة باركها ) .

( ب ) وفي شهور الأهوية والعصاء ( من ١٩ طوبة الى ١١ برة — أي من ١٩ يناير الى ١٨ بوية ) تصلي قائلة ( تفضل يا رب أهوية السماء وثمرات الأرض في هذه السنة باركها ) .

( ج ) وفي شهور غيضان النيل ( من ١٢ برة الى ٩ بابة — أي من ١٩ بوية الى ١٩ أكتوبر ) تصلي قائلة ( تفضل يا رب مياه النهر في هذه السنة باركها — أصححها كدفادها ، كصحتك فرح وجه الأرض ليرز حرمها ، لتكثر أنمارها . أعددها للزرع والعصاء ، ودير حياتنا كما يلق . بارك أكليل ( يده ) السنة بصلاحك ، من أجل تفسيره شعبك ، من أجل الأرملة واليتيم والتريب

والضيق « ومن أجلنا نحن الذين نرجوكم  
ونقلب أسلاك الصلوس . لأن أمين الكل  
تطلع اليك » لأتأت أنت الذي تعطهم ضامهم  
في وقته . أصبغ معنا بصبب صلاحك «  
يا معطي طعاما لكل جسد « املا قلوبنا فرحا  
وجهة لكي نكون لنا الكفوف في كل شيء »  
وزداد في كل حين « املا صلواتنا » .

### الاصوم

القبض حسب يميل إلى التصوف والزهد «  
لقد اشتهر بكثرة أصوامه . إذ يرى الصوم  
وسيلة لتدريب الآخرة وطبقت النفس لكبح  
الغشوات ، والتفكير من قيمة الرغبات المادية  
حتى لا تضل على الميول الروحية للنفس .  
فالصوم يمكن التماس بها إلى مستغنى  
روحي رفيع .

ويصوم القبط بالامتناع عن تناول الطعام  
مدة من النهار قد تصل إلى الظهر أو العصر  
أو الغروب حسب مقدرة كل شخص . تناول  
بعد هذا الصائم أطعمة خالية من اللحم لحم  
حيوانية .

وتعنى روح المبادئ على القبط في فترات  
انصرافهم « فيكتفون من الصدقات . وتائر  
حياة العائلة كلها ، والتخفيف أصاليب حياتهم  
الروحية ، فتجري العائلة استعدادات خاصة  
لاستقبال الصوم . وحتى الأطفال يشعرون  
أن للبيت جواً جديداً بعيداً ارتباطاً خاصاً  
بالدين . وعندما كانت مصر كلها مسيحية ،  
كانت آكار الصوم تنعكس على الجبسة

التجارية والاقتصادية أيضاً . فتخلق محلات  
ذبح اللحوم وبمها . ويتجه النشاط التجاري  
نحو البقول والزيت وما شاكلها من سلع .  
وإذا تمتع الأغراس والولائم ، يسود المجتمع  
جو من التفتيح والبهجة .

وأهم وأقدم أصوام القبط هما يوماً  
الأرمناء ( لذكرى التشاور للقبض على  
الطنجين ) والصصة ( لذكرى صليبه ) من كل  
أسبوع . والصوم الأربعيني لذكرى الأربعين  
يوماً وهي التي صامها المسيح ، ويسمى  
أيضاً « الصوم الكبير » ، وقد بلغت مدته  
في وقتنا الحاضر ٥٥ يوماً . والأسبوع الأخير  
منه يسمى « أسبوع الأكلام » . ولهذا  
الأسبوع قدس عظيم لدى الشعب لعظم  
الذكرى التي جعلها . فكانت تشمل فيه  
الأعمال ليتبرغ الجميع للصلاة في الكنيسة  
حيث يتلى معظم الكتاب المقدس ووصاياه  
لنحزن . ويطلق الأقباط على كل يوم من  
أيام هذا الأسبوع اسماً يناسب ذكرى خاصة .  
منها « رضاء أيوب » الذي اعتاد الناس أن  
يشتملوا فيه بالمشبب المسى « رخرج أيوب »  
لذكرى شفاه أيوب النبي به ، و« جلس العهد  
لذكرى غسل المسيح أرجل العذارين ليطهمن  
التواضع ، وفيه أيضاً بدء معهم عهداً جديداً .  
وباستمرار الرهبة وكثرة الزهد أخذت  
الشعب بالرهبان في حفظ أصوام أخرى :  
كصوم الميلاد استعداداً لاستقبال شري  
الميلاد وشرعة العهد الجديد ، ويبدأ يوم ١٦

بالكنيسة أو بالتزاور في البيوت . أما في  
الثلاثة الأعياد الكبرى ( الميلاد — الفطاس  
— القيامة ) فيكون الاحتفال بالقداس مساء  
ليلة العيد ، وغالبا ينتهي بعد منتصف الليل  
فتكون نه بعبدة ، وبالأخص في ليلة عيد  
القيامة حيث امتد الشعب قديما أن يطرح  
من الكنيسة ممسكا بالسروج المضادة التي  
قد يصلوا إلى يومهم .

وترتبط بعض الأعياد القبطية بسواهم  
زراعية خاصة فتدخل في طقوس الإحتفال  
بالعيد أنواع خاصة من ثمار الموسم .  
فياكلون منها ويوزعونها على الفقراء . ومن  
المعادن التي كانت تنسج في عيد الفطاس  
( ذكرى عماد المسيح ) — ويقس في ١٩  
يناير — الاستحمام في النهر أو الترع . وكان  
يوجد في محالي الكنائس القديمة حوض كبير  
يسمى المنظر في الجبال الأبيض من الجهة  
الغربية للكنيسة ( وما زال موجودا لمسير  
مستعمل في كنائس أبو سبئيل وأبو سرجة في  
مصر القديمة ) . كان يملأ بالماء وينزل فيه  
الشعب ليلة عيد الفطاس .

ومن الأعياد ذات الأثر الشعبي البهيج ،  
عيد « أحد الضمائل » أو « أحد السمك » .  
وهو الأحد السابق لعيد القيامة . وفيه  
يحتفل الشعب بذكرى دخول المسيح إلى  
أورشليم . يكتب على جدران ذلك الاستبان  
الاحتفالي الذي رفع الشعب في —  
النخيل وخصان الزيتون . ويكرر الأقسام  
هذه الذكرى بعمل سعف النخيل وأعصان

هاخور ( ٢٥ نوفمبر ) وينتهي بعيد الميلاد  
يوم ٢٩ كيهك ( ٧ يناير ) ، وتبلغ مدته الآن  
٤٣ يوما . وخلال صوم الميلاد يحتفل الشعب  
بليالي كيهك فيجتمعون في الكنيسة ،  
ويزفون المديح والسابيع الشجاعة بذكرى  
الميلاد . وفي ليالي الأحد من شهر كيهك  
يسهرون إلى الصباح في ترديد هذه  
السابيع . وفي هذه الليالي كانت بعض  
العائلات تستضيف القادمين من أماكن بعيدة  
فخدمهم لهم المشاء في المضيئة الملحقة  
بالكنيسة .

وأيضا صوم الرسل ، ويبدأ الانجيل التالي  
لبعيد العنصرة وتتراوح مدته بين ١٢ و ٤٩  
يوما إذ ينتهي بعيد الرسل في ١٣ يوليو .  
وكذلك صوم العذراء ، ويبدأ في ٧ أغسطس  
ومدته ١٥ يوما ، وصارت له شهرة شعبية  
خاصة . وفي أواخر القرن الطاهر بدأ الاحتفال  
بصومون صوم جنوى ومدته ثلاثة أيام  
لذكرى لجاة هيل نينوى ( مدينة قديمة  
بالقرب من الموصل الحالية بالعراق ) عن  
طريق الصوم .

### الاحتفالات

ينتهي كل صوم من الأصوام القبطية بعيد  
يحتفل به الأقباط بإقامة القداس في صباح  
يوم العيد ثم يغطرون بتناول المأكولات  
الدهنية واللحوم والحلوى . بعد أن يكونوا  
قد وزعوا منها على الجيران والفقراء . وبعد  
ذلك يتبادلون أتهانئ معا في القاعة الملحقة

الزيتون الى الكنائس لمضور قداس العيد .  
وعادة تحية القادمين بالسيف . كانت معروفة  
في مصر الفرعونية أيضا .

ومن اليوم التالي لعيد القيامة يبدأ عيد الربيع  
الذي يسمى الآن « شم السيم » ، وغيبه  
بمخرج النعش الى الحقول والحدائق للفرح  
بصالح الطبيعة بعد فترة الصيام والنسك  
المفولة السابقة . ويسمى كنيا « الفصح  
الفصح » . وكانت تستمر أجارة عيد القيامة  
طوال الأسبوع الأول من الصوائف .

وإذا ما جاء عيد الفصح — وهو عيد  
حلول الروح القدس في نهاية الصوائف —  
اعتاد القبط تزيين فواكه المزمع الجديدة  
على الفراع ، وذلك لأن يوم الخمسين هذا  
كان يقابل قديما عيد الحصاد فيكون تمجيد  
الحسك بتقديم « كوربات هذه الطيرات .

وبجانب هذه الأعياد الكبرى توجد أعياد  
كثيرة أخرى ، من أهمها عيد ربادة المسيح  
لأرض مصر مع العائلة المقدسة وهو مفضل  
صغير . وتحتفل به الكنيسة القبطية يوم أول  
بولية من كل عام . وبالإخص في الكنائس  
التي بنيت على الأماكن الأثرية التي زارها  
مثل مسرود حيث البر ، وشجرة الصنوبر  
بالمطرية ، وكنيسة أبو سرجة بمر القديمة ،  
وقسقام حيث يوجد دير المرقى ، وبه  
كنيسة أثرية لهذه المناسبة .

ويحتفل القبط بأعياد الصنوبر ومشاهير  
القديسين والشهداء والملائكة بسبل نوع

خاص من القبط يؤزغونه على القصر  
والجيران . وترجع فكرة القبط الى عبادة  
تقديم « كوربات محصول القمح كعلامة شكر  
له . وقد كان من عادات القبط ألا يذوقوا  
المحاصيل الجديدة ولا تملح ثمارها بيوتهم  
قبل أن يذوقوا منها على الفراع .

### المسائل

وكما اشتهر لدى أو شعيد في منطقة  
أو مدينة ، يتوالد على كنيسة تلك المدينة  
جوع كثيرة من الشعب للاحتفال بذكره .  
وعندما يصل القادمون الى المنطقة بضممة  
آلاف يضطرون الى إقامة الضياف حول  
الكنيسة ليسوا فيها ، ويقضوا أيام العيد  
التي تصل غالبا الى سبعة أيام .

وقد عرفت أعياد القديسين المزدحمة هذه  
في مصر العربي قياسا باسم الموالد . وهو  
اسم لا ينطبق على الواقع ، لأن الاحتفال غالبا  
يكون بذكرى استمجاد أو موت القديس ،  
وهو اليوم الذي أتم فيه البطل جهاده ولا يتم  
الكنيسة يوم الولادة فانه يوم لا يفرح بشيء  
من البطولة أو الاعجاز .

وبدأت مثل هذه الاحتفالات أصلا على  
أساس تكريم القديس يرفع الصلوات وإقامة  
القداسات وقراءة سيرته بالتصلي لتنتبه  
بقدرته الصالحة . ثم بتقدم النذور من  
شوع وبخور وأدوات تلمم للكنيسة الى  
جانب تهر اندباض لاطعام الفراع والمحتاجين .  
ولكن كثرة العدد وما تحتاجه هذه الألوف

من أماكن للمبيت ، ومن مأكولات ونحمر  
 للذباح وبيع لاحتياجات الزوار والتفجور  
 وخلافه احترقت هذه الاحتفالات عن طبيعتها  
 الدينية البسيطة الى مظاهر مادية تجارية  
 كانت سببا في تسرب كثير من الشرور  
 الاجتماعية الى تلك الموالد ، مما لم نره  
 الكنيسة ، لدرجة أن البابا سبعة ( القرن  
 الخامس ) ألقي عظة قوية ضد ضياع تلك  
 الشرور قائلا : « جبل جدا أن يذهب الآلسان  
 الى مقر الشهيد ليصلي ويقرأ ويغنى المزامير  
 ويظهر نفسه ويتناول من الأسرار المقدسة في  
 مخالفة المسيح ، أما من يلعب ليلتكام ويأكل  
 ويشرب ويظهر ، أو بالحري يزني ويرتكب  
 الجرائم نتيجة للإفراط في الشراب والجنى  
 والفساد والاثم ، فهذا هو الكافر بعينه ،  
 وبينما البعض في الداخل يركلون المزامير  
 ويقرؤون ويتناولون الأسرار المقدسة أو  
 الآخرين في الخارج يملأون المكان بالكآبة  
 الطبل والزمر - يتنى بيت صلاة يسمى وأثم  
 جعلتموه سفارة لصوص فقد جعلتموه  
 سوقا لبيع العمل والعلو وما أشبه .  
 جعلتم الموالد فرصة لتدريب بئائكم ولسبائكم  
 حبركم وخبائكم ، جعلتموها أماكن لرفق  
 ما يمرض فيها للبيع ، فائتج الصل بالكد  
 يحصل على قليل من الزبائن المتساحنين ،

أو يستخلص لنفسه شيئا من الفائدة نظير  
 أنمايه . حتى الأشياء التي لا يمكن أن تعدت  
 للباعة في الأسواق العامة تعدت لهم في  
 موالد الشهداء .

يا الفبياء ! إذا كنتم تذهبون لمواطن  
 الشهداء لتأكلوا وتشربوا وتبجروا وتتعفوا كل  
 ما يروق لكم ، فإية فائدة ليبيوتكم التي في  
 مدلكم أو قراكم ؟ يا لغوكم المفلقة ! وإذا  
 كانت بناتكم وأمهاتكم يملتون رؤوسهن  
 ويكعلن عيونهن وينجعلن لخداع الناس  
 الذين ينظرون أبين ، وإذا كان أبناءكم  
 وأخوتكم وأصدقاؤكم وجيرانكم يملتون  
 هكذا عند ذهابهم الى مواطن الشهداء فلماذا  
 جعلتم لكم بيوتا ؟

هناك كثيرون يلجئون الى الموالد لالتقاء  
 هيكل الرب ويجمعوا من أعضاء المسيح  
 أعضاء للآثم والفجور بدلا من أن يحفظوا لها  
 قداستها وطهارتها من كل رجس سواء  
 كانوا رجالا أو نساء . دعوني أقول لكم  
 بصراحة ثمة أن كثيرين منكم يملتون  
 لأنفسهم غفرا قائلين ليست لنا زوجة أو ليس  
 لنا زوج ، فلا تجمعلوا زيارتكم لموالد  
 الشهداء فرصة لتدبر أصدادكم في المسائر  
 التي حصلوها أو المباني الثرية منها أو في  
 إزكانها .

## (د) التقويم القبطي

كل عام ، أنهم أقاموا تقسيم فصولهم على هذه الفاهرة الطبيعية التي تأتيم كل عام ، أى حدوث الفيضان .

لم تعتمد السنة المصرية في حسابها على علم الفلك بل وصل إليها المصري على أساس ظهور الفيضان عاما بعد عام ، هي سنة قلية ، تمتد على طبيعة الفيضان وقبته لدى الشعب الذي تصل حياته به اتصالا وثيقا . ولم يكن من المهم لديهم أن يأتي الفيضان له نفس اليوم من كل عام . بل يكفيهم أن يعرفوا أن فيضان يلهم يأتيهم في نفس الوقت تقريبا .

وليس في الإسكان أن بعده حتى استطاع المصري أن يلهم « حساب السنة المدنية » على هذا الوجه ولكن من المرجح أنه لما في فترة من فترات عصور ما قبل التاريخ وربما كان ذلك في أثناء عصر حضارة نقادة الثانية ، وقد جعلوا يوم بدء فيضان النيل بمثابة أوله أيام العام الجديد .

وحين مضى على هذا التقويم عدة قرون لاحظ المصريون أن أول أيام العام الجديد أخذ يتأخر عن يوم بدء الفيضان بضعه ، كما لاحظوا أن أشهر « بذر الحبوب » التي كانت تقع في الشتاء أخذت تقع في فصل الصيف . وقد نشأ هذا العيب من أن السنة المدنية تنقص عن السنة الشمسية بربع يوم تقريبا ووجد المصريون أن هذا الخطأ صحيح من

وضع التقويم القبطي على أساس التقويم المصري القديم . أدرك المصريون القداماء ضرورة استخدام سنة مدققة تحتوي على عدد صحيح من الأيام وتكون أقرب ما يكون إلى السنة الشمسية ، وتكونت السنة المصرية من اثني عشر شهرا ينقسم كل منها إلى ثلاثين يوما ، ثم أضافوا عليها خمسة أيام في آخر السنة اعتبروها بمثابة الأيام التي ولدت فيها الجوددت الخمسة التي تتكون منها مجبوعة أوزيريس وهي : أوزيريس ، وايزيس ، وست ، وثنيس ، وحوريس ، وجعلوا منها مناسبات لاحتفالات دينية خاصة .

أما السجود الاثنا عشر فقد وزعت على ثلاثة فصول خص كل فصل منها أربعة عشر شهرا . وسوا الفصل الأول فصل « البهتان » والثاني « بذر الحبوب » والثالث « جنى المحصول » .

واعتبر المصريون اليوم الأول من كل عام هو اليوم الذي تظهر فيه بشائر الفيضان وأشهره من يولية إلى أكتوبر . أما أشهر فصل « بذر الحبوب » فهي من نوفمبر إلى فبراير وهي أشهر الشتاء ، وأشهر فصل « جنى المحصول » من مارس إلى يونية وتتفق مع فصل الربيع حاليا .

وبدل على مدى اهتمام المصريين بفيضان النيل الذي يبب أروهم الخصوبة وجندها

ورد ذكرها في التون العذبة القديمة على أنها « الجالبة للنيسل » أي التي تحدث غيظانه ، وقد سوا هذا النجم على أنه صورة من صور إبليس ، وهذا النجم هو الذي نسميه الآن « الثعترى البمانية » .

ولقد أثبتت الدراسات الفلكية الجالبية أن دورة « الثعترى الجالبية » تعادل تقريباً دورة الشمس في عام .

هذا ولم يكن للشهور أسماء عند قدماء المصريين في أول الأمر . وكانت تسب للتصوّل التي تقع فيها فيقال مثلاً الشهر الثاني من فصل الفيضان أو الشهر الثالث من فصل « بذر الحبوب » وهكذا .

ومنذ الأسرة السادسة والمصريين أي منذ منتصف القرن السابع قبل الميلاد تقريباً ، أطلق المصريون على الشهور أسماء تعبر عن الأعياد التي اعتادوا إقامتها ، والأسماء كما وسفنا هي :

Thot	ثعتر	١
Pephi	باؤي	٢
Hathor or Athys	أثيهر أو حاتحور	٣
Khoulak	كحولاك	٤
Tybo	طبيي	١
Mekhar	مخير	٢
Pharmouth	لمسوث	٣
Pharmouthi	فرموي	٤
Pakhons	بخونس	١
Payni	بيني	٢
Epiphi	إيبي	٣
Mesori	مسوري	٤

نفسه بعد مضي ١٤٦٠ سنة شمسية من الحساب بالتقويم « ففي هذه المدة تجمع الفرق وهو ربع يوم في كل سنة فاصح ٣٦٥ يوماً أي سنة كاملة بعد ١٤٦٠ سنة . وهذا عاد التوافق بين السنة المدنية والسنة الشمسية » .

ولاحظ المصريون أن مبتهم النبلية التي تبدأ من اليوم الذي يأخذ فيه النيل في الارتفاع وتنتهي بنفس اليوم من الصيام الثاني ، تتفق بشكل واضح مع الدورة السنوية للنجم ثابت حين يبدو بوضوح بعد اختفاء طوبل ، وذلك مع بدء مجيء الفيضان مره كل عام ، كما لاحظوا أن ظهوره يكون في الفجر المكر قبيل شروق الشمس ، ويكون أنهر وألمع نجم في السماء ، وفي دوران الأرض حول الشمس تأتي لحظة كل سنة يكون فيها هذا النجم في أقصى مسبقه مع الأرض والشمس ، وقد أطلق المصريون عليه اسماً مؤثراً هو « سبت » .

#### فصل الفيضان .

#### فصل بذر الحبوب :

#### فصل جني المحصول :



اليمانية في بدء ظهور الأسرة الثانية عشرة ، كما سجلت بريدية أخرى ( اللاهون ) هذه الظاهرة في عصر الدولة الوسطى . ويؤكد د انوارد ماير ، أن أول الفترة التي تبدأ بمس ٢٧٨٦ ق . م كان التوقيت الشمسي معروفاً ومستعملاً فيها « فلايد اذن أن يقع بدء استماله في أول الفترة السابقة أي سنة ٤٢٤١ ق . م .

\*\*\*

### ١- أهمية التقويم للمصريين

لا يزال هذا التقويم منذ عصور مبكرة في القدم دليلاً نافذاً ودقيقاً للعنق وللفصول وللزراعة وللنبل في لباسه وتعارفه ، ولا يزال المزارعون يراعونه في كل ما يخص البذر والحصاد كما كان يفعل المصري القديم منذ آلاف السنين . ولا زالت تجري على ألسنتنا الأمثال التي تدل على حالة الطقس فنقول : باب : ادخل واقتل البوابه ، كباك : صباحتك مساك ، طوبه : أبو البرد والرطوبة ، أمشير : أبو الهواء والرعاير ، برمهات : الخلع الفيط وهات .. الخ .

والتقويم الزراعي في مصر لا يزال يشجع التقويم المصري القديم ، وأثبت مثال ذلك : شهر توت :

يزرع فيه البرسيم والحبث والكرنب فتلا والتسمير الشتوي والقول ، وتظهر الحفرة الضامى ، وينضج البصل البعلى ، ويتوافر القليمن ، وينضج الزيتون ويكثر السفرجل والتفاح .

النسب . وكانت تسمى به الأيام الخمسة الزائدة على السنة أو الشهر الصغير ، وهي خمسة أيام . وكل من الأشهر ثلاثون يوماً . أن المصري القديم هو أول من وضع تقويمياً يرصد الحوادث بمقتضاه ، وهو أول من ألفه علماً شمسياً من اثني عشر شهراً كل شهر منها ثلاثون يوماً وأضافوا التسعير الصغير ( النسب ) وهو خمسة أيام لكل عام ، كما قسم العام إلى أصول .

واحتفل المصريون بيوم « طلوع القمرى اليمانية » وجعلوا منه عيد أول السنة إلى جانب احتفالهم بالمادى بفره العام انشمسي ( ٣٦٥ يوماً ) ، وأطلقوا على هذا العيد اسم « طلوع سبت » ، ولاحظ المصريون أن عيد « طلوع سبت » يتأخر عن عيد فره العام الشمسي بمعدل يوم كل أربعة أعوام ، كما لاحظوا اتعاد السديين مرة كل ١٤٦٠ سنة ، وهي دورة « الشهرى اليمانية » .

وذكر الكاتب الروماني كنسورينوس Censorinus أن الشروق الاحترافي للشهرى اليمانية حدث في أول نوت من سنة ١٣٦ بعد الميلاد . وعلى هذا أمكن تحديد حدوث ظاهرة الشروق الاحترافي للشهرى اليمانية في سنة ١٣٦ قبل الميلاد وسنة ٢٧٨٦ ق . م وسنة ٤٢٤٦ ق . م وهكذا عرف المصريون في عصر الدولة القديمة تسع العام إلى ٣٦٥ يوماً وسجلت النصوص ( بريدية ابرس ) ظاهرة الشروق الاحترافي للشهرى

### شهر بابه :

بدء الزراعة الشتوية : يزرع فيه الأرز  
والكتان والبصل والثوم ( بالوجه القبلى )  
والقمح والبسلة والفاصوليا والكمون  
والشعير ، ويجنى القطن ، ويظهر البطيخ  
والشمام التيلي والقرع والقنبيط ، ويحصد  
البول السوداني ، كما تكثر فيه الأسماك  
الصغيرة ( البسارية ) .

### شهر هاتور :

ينتهي فيه جنى القطن ، وتضج الأرز  
النيلي ، وتطلع الذرة الشامى ، ويظهر فيه  
البرقال واليوسفى . يزرع المدس والقرع  
والكوسة والطماطم .

### شهر مكهه :

يزرع فيه المشمش والبرقوق والكمون  
شئلا ، والمقات الصيفي والخبيزة والخضراوات  
الصيفية ، ويظهر الفول الأخضر ، ويطلع  
قصب السكر المصغر ، ويكثر التقاس .

### شهر طوبة :

تنقل فيه الأشجار الصنوعة ، وتعلم كروم  
الحنب ، وتزرع الذرة الصيفية والجزر ونوى  
الخوخ .

### شهر اشهر :

يزرع فيه القطن المبكر ( بالوجه القبلى )  
والذرة المودجة وقصب السكر ، وتغرس  
الأشجار ، ويطلع النخل ، ويحصد الكمون ،  
ويغرس شجر التين والتفاح والبرقوق  
والمشمش ، ويظهر الخيار .

### شهر برميهات :

يورق فيه شجر التوت ، وينقى دود  
القز ، وتنضج البسلة البلدى ، وابتداء زراعة  
التنقن الهندي ، ويقطع فيه الكتان ، وتظهر  
الملوخية ، يزرع الكمون والخرفوات .

### شهر برمودة :

يحصد فيه الفول والبسلة والقرع  
والقمح فى بعض جهات بالوجه القبلى .  
ويزرع فيه الفول السوداني ، ويضج أوائل  
المصل ، ويجنى الورد لاستخراج ماله ،  
ويظهر البطيخ الصيفي والتوت ، ويطلع  
البطاطس الشتوي ، يزرع فيه الأرز والفلفل  
شئلا .

### شهر بشني :

يظهر فيه المشمش والبرقوق والتفاح ،  
ويحصد البصل بالوجه البحري ، يزرع فيه  
البسم والقنطاس .

### شهر بؤونة :

يزرع فيه الأرز والذرة الشامى ، ويضج  
فصل النخل ، ويظهر الفاصوليا والقرع  
والكوسة ، ويظهر المنب والخوخ  
والكمون .

### شهر اميه :

يزرع فيه العجبر والكرفس والسلق  
والهيموسى والباذنجان الأسود والجوافة  
والتوت والفخروف والبسامة والملوخية ،  
ويظهر الرمان .

حدد المصريون المسيحيون بدء تاريخهم بيوم ٢٩ أغسطس سنة ٢٨٤ ميلادية الذى استشهد فيه الكثير منهم ، وذلك بنفس التقويم الذى استخدم فى مصر قبل ذلك التاريخ ، وتسمى هذه الحلقة من التقويم المصرى بالتقويم القبطى ويطلق عليه تقويم الشهداء . وهو ينبع الحساب اليولياني ، ولهذا نجد أن الخطأ المتراكم بين الحساب اليولياني والحساب الجريجورى قد بلغ ١٣ يوما فى التقويم القبطى .

\*\*\*

#### المراحل التطوير القبطى ١

للتقويم القبطى غرضان : لغرض ينبع الحساب الشمسى ، وهذه أحصائه الأيام والنصول والأعوام النسبية الكمامة وتعديدها جميعا بالنسبة لموعد الكرة الأرضية حول الشمس ، والغرض الآخر يضع الحساب القمري ، وهذه أحصائه الدورات القمرية وتعديدها بموعد ظهور كل هلال جديد .

وقد نلاحظ اهتمام المصرى بالحساب القمري بدء دخول السبعينية مفر لان عيد القيامة وبعض الأعياد الأخرى التى تصل بعيد القيامة تحدد بالدورة القمرية وتصل بالدورة الشمسية .

\*\*\*

ينضج فيه البلح ، ويؤزرع فيه بصل النرجس والثوم والبصل والطماطم واللفت النخلى ، ويكثر فيه العنب والتين ، ويجمع الزيتون الأخضر .

\*\*\*

#### الدولة الرومانية والتقسيم المصرى :

ألفى يوليوس قيصر استخدام التقويم بأنة القمرية الذى كان شالما فى الدولة الرومانية وألفا تقوينا شمسيا استدان فيه بالملكى المصرى سوسيجينس Sotigenes الذى قدر سنة التقويم ٣٦٥ يوما وربما ، واستخدم طريقة السنة الكبيسة مسرة كل أربعة أعوام ، وأمر يوليوس قيصر باستخدام هذا التقويم رسميا فى سنة ٧٠٨ من تأسيس روما وهى سنة ٤٦ فى . م وسمى هذا التقويم باليولياني نسبة الى يوليوس قيصر . واستمر العمل بهذا التقويم حتى سنة ١٥٨٢ حين لاحظ الفلكيون في عهد بابا روميا جريجوريوس الثالث عشر خطأ فى الحساب الشمسى وأن الفرق بين السنة المسمون بها والحساب الحقيقي ١١ دقيقة و ١٤ ثانية وهذا الفرق البسيط يعادل يوما فى كل ١٢٨ عاما .

وسمح البابا جريجوريوس بالخطأ المتراكم فسمح يوم ٥ أكتوبر من سنة ١٥٨٢ م يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٥٨٢ وهو التقويم المعروف بالجريجورى المائد الآن .

\*\*\*

شمية تعادل ٢٣٥ شهرا تقريبا كاملا بنهر كسور .

واستخدم الأقباط هذه القاعدة متبعة القرن الثالث للميلادى ، وقد وضع قواعدها المسول بها الى الآن البطريك الاسكندرى الانبا ديمتريوس الكرام وهو البطريك الثالث منبر وساعده في وضعها الفلكي المصرى بطليموس . وبهذا يحدد عيد القيامة ( الذى يليه شم النسيم ) ، بأنه الأحد التالى للشمس الكامل الذى يلي الاعتدال الربيعى مباشرة .

ولقد أخذ الفرييون حساب الأقباط وطبقوه على التقويم الروماني اليولياني ، فاهتكت الأعياد المسيحية عند جميع المسيحيين كما كان يحددها التقويم القبطى حتى سنة ١٥٨٢ حين ضبط الفرييون تقويمهم بالاعتدال الجريجورى .

#### الشمهور القبطية

والشمهور القبطية كما نعرف الآن هي :

- توت ( شبشير - أكتوبر ) ،
- بابة ( أكتوبر - نوفمبر ) ،
- هاثور ( نوفمبر - ديسمبر ) ،
- كهنك ( ديسمبر - يناير ) ،
- طوبة ( يناير - فبراير ) ،
- أمشير ( فبراير - مارس ) ،
- برمات ( مارس - أبريل ) ،
- برمودة ( أبريل - مايو ) ،
- بشنس ( مايو - يونيو ) .

حين خطرت فكرة تسجيل الحوادث للأشخاص الأول أخذ يؤرخ بظهور الشمس وبوجهه . ولما قدمت العلوم أخذ يبحث في الاختلاف بين مدة دورة شمسة وبين أخرى ، وكذلك في متوسط مدة الدورة الشمسية ، والمدة الواقعة بين لحظة ظهور هلال جديد والهلال الجديد التالى يسمى شهرا قمريا . وقد يتغير طول الشهر القمري حتى يصل الفرق الى ٩ ساعات تقريبا . ولكن هناك دورة كاملة لحركة الشمس في الفضاء بالنسبة اليها تبلغ مدتها ١٨٠٦ سنة شمسية ، كما أن هناك متوسط عاما لطول الشهر القمري ٣٠ الدورة الكاملة وهو ٢٩ يوما و ١٢ ساعة و ٤٤ دقيقة وثلاث ثوان ، ويثبت هذا المتوسط دققا ، ويمكن التنبؤ بظنشاء من الأهلة الجديدة ووجه القمر لمدة ألف سنة شمسية مثلا دون أن يتجاوز الخطأ يوما كاملا .

ومن هذا نشأت فكرة استخدام متوسط الشهر القمري لحساب ظهور القمر الجديد وأوجه ثنات من الشين ، ويسمى ذلك بحساب الأيكتسفى ( ومعناه الحركة : الباقى ) لأن هذا الحساب يعتمد على استعمال الباقي بعد عمليات حسابية متعددة . وقد بنى حساب التقويم القبطى القمري على قاعدة وضعها الفلكى « ميتون » في القرن الخامس قبل الميلاد ، وهى أن كل ١٩ سنة

بطونة ( يونية - يولية ) .

أيب ( يولية - أغسطس ) .

مري ( أغسطس - سبتمبر ) .

النمن ( سبتمبر ) .

التقويم الأثيوبي :

ومما هو جدير بالذكر أنه التقويم

الأثيوبي هو نفس التقويم القبطي . فلقد أخذ

الأثيوبيون تقويمهم عن الأقباط ، وتبدأ

سنتهم بيده السبعة القبطية ، وتوافق  
شهورهم مع الشهور القبطية .

ويسمى الأثيوبيون حساب سنتهم عام  
الرحمة ، وهو التاريخ الذي كان سائما في  
مصر في القرن الحادي عشر ، ويسمى بالسنة  
الميلادية الشرقية أو السنة الميلادية القبطية ،  
وهي تقس شياى سنوات تقريبا عن التقويم  
الميلادى الغربى .

## ( ٥ ) الرهبنة

### ١ - السلاخ في مصر

المصرى بضمه يسلم إلى التدبى ،  
وتصو صفوه التدبى منهم إلى حياة روحية  
أسمى ، وأسمى سريره ، وأكثر صباه بالله .  
حياة تنون إلى الكمال والر . ومن يصل به  
العين الروحى منهم إلى فرحة القيام بالله ،  
يسمى إلى التخلص من افتتاعه العاطلية  
والاهتمامات المادية ليتفرغ للخلوة والتأمل .

استمال سحر مسحراء مصر مجبى  
الفضيلة والكمال إليها : سلاخها الصداية  
المليئة بالنجوم تنطق بيا ورامها من فرحة بدمعة  
مزهقة ، ولطافها الشاسع يمسح بيمى لمرس  
الحرية الطيفة ، وسكونها الشامل يسامع  
الإنسان على تركيز أفكاره ومتمساعه  
ووجدانه في الله وأن يخلو إليه ويخضع أمامه .

وهكذا اندمع المصريون المبحيون إلى  
البرية لمطالبة الشر والخلوة بالله . وكانوا

يصلون من ذلك إلى أن تسو أرواحهم  
وتزهد للوسم فيستطيعوا التحكم في  
الجسد وأهوائه ، والتحرر من مفراوات العالم  
اللى قد تسبوى الانسان بعيدا عن خالقه  
وتطس القبس الأسمى الكائن داخله .  
ورغم ظهور بعض الحركات التصوفية  
قبل المسيحية كجماعات فطراء الهنود  
والأحبيين اليهود ، إلا أن الرهبنة المصرية  
كانت أمتاها مسيحيا أصيلا خير متأثر تلك  
الحركات النكية السابقة عليها إلا خلافها عنافى  
الهدف والفلسفة والأطوب . كما أن الرهبان  
الأول الذين أسروا هذا الطريق لم تكن  
فرءفهم البهنية أو العلية صا يمكنهم من  
الاطلاع أو السماع عن هذه الحركات منى  
يقطعوها . بل خرجوا إلى الصطارى بدافع  
من الروحانية والزهد كما توحى صا الديانة  
المسيحية . ويظهر ذلك بوضوح من حياطة  
القديس أنطونيوس .

ومع انتشار المسيحية في مصر بدأت  
مظاهر النيك تشر وريدي رويدي . فقدم  
سمع عن شخص يدعى فروتونيوس ( ١٣٨  
— ١٦١ م ) دخل الى بيرة نيريا ( وادي  
النظرون ) وفي صحبته سبعون مسيحيًا  
ليعيشوا حياة الرهبنة والرحمة .

وأعجب الملوك إذ الأشئلة المجهولة لهؤلاء  
النساك الأول أكثر من المروعة . فأصبحون  
الرهبنة في مصر بصفة الغور وداريغها القدم  
من تاريخ القديس أنطونيوس . ولم تكن في  
بدايتها عند أخذت بعد صيغة عامة منظمة .  
وأيضا أخذت وشها انتابت المعروف وصيغتها  
العامة الواضحة انطوائ ابتداء من أنسا  
أنطونيوس .

#### أطوار الرهبنة

مرت الرهبنة المصرية في أطوار مختلفة :

#### ١ - التوحيد :

إذ كانت الرهبنة الأنطوية في مهبها  
الأول تطوى على العزلة الفردية التامة  
المفردة بالشفق الشديد . ولما تفر تساع  
أنطونيوس أخذ نظام العزلة يتطور تطورًا  
بطيئًا الى نوع متوسط من الرهبنة  
الاجتماعية .

#### والقديس أنطونيوس ( ٢٥٠ - ٣٥٦ م )

هو القديس العظيم الذي يلقبونه « أب  
جميع الرهبان » . وله من أسرة غنية في  
الصعيد . ولما توفي والده تاركًا له ثروة

كبيرة تأثر بها جاز في الاصيل . إذ أدركت أن  
تكون كاملاً فذهب بع كل ماله وأعطاه  
للغفراء وتعال قاتبتى . فغذ الآفة حرقا  
ووزع ثروته وتوحد في الصحراء وسكن  
تولا في مقبرة قديمة ثم توغل داخل الغفر .  
وبلغني حوالي عشرين سنة لا يرى وجه  
إنسان وهو في شك ودموع وصلاة وتأمل .  
ولما اشهر أمره واجتمع حوله كثيرون يطلبون  
منه أن يرشدهم الى العبادة مثله ، فخرج  
اليهم وأرشدهم الى حياة الوحدة . وكان  
تلاميذه لا يعيشون في ديرة بل في مغارات  
منفردة في الجبل . وعد تلميذ عليه القديس  
ابلازى مؤسس الرهبنة في فلسطين ،  
والقديسان آمود ومقاريوس مؤسسا الرهبنة  
في وادي الطرون ، والقديس بينوده أب  
أديرة القيسوم . كما تلمذ عليه البطريرك  
الأناسيوس وكثير من مؤسسي الرهبنة .

ومنحه انه مراهب كثيرة منها شفاء  
المريض . وسمح به العلاسفة فأتوا اليه  
يحاورونه لهدوا مدى علمه فأذهلتهم حكمته  
على الرغم من أنه كان في عصف الكبرياء  
الرومانية أيما لسيدهم دراسته اليسوانية  
واللايتية .

ولما حل بالكثيعة اضطهاد مكسيميانوس  
زل أنطونيوس الى الاسكندرية ليخدم  
المستعدين ويقومهم فشتوا هو نفسه إذ  
يستشهد . كما زل إبان هرقلية أربوس  
يحذر الناس منها ، وكان لظهور هذا الشيخ

الناسيك المتوحدة. ثم الكير في أيسس  
البريرك أناسيوس .

وقد أرسل اليه الامبراطور قسطنطين  
و اولاده رسائل يطالبون فيها بركته فلم يرد  
عليهم الا بعد الحاح رهبانه الذين قال لهم  
« لا تمنحوا ان كتب الينا امبراطور مصر  
انما ان . ولكن الاعجب من ذلك ان الله كتب  
الفرصة للالان » .

## ٢ - الرهبنة الاجتماعية

أخذ الرهبان المتوحسون في ركيز  
صنوعهم حول الشخصيات الكبرى من الاءاء  
الروحيين لتتأخذوا على أب روعي اشتهر  
ماقداسه والحكم مع احتفاظ كل منهم بحياته  
التوحيد في مفاوله أو قلايته المنسولة عن  
جاده ، ولكن قلايتهم كانت قرية بعض الغرب  
من بعضها وتقوم حول قلاية ألك الروحي .  
لذلك يسمى هذا النظام أيضا بنظام القلاي .  
وهو مرحلة متوسطة بين الرهبنة الأسطورية  
والرهبنة القبرية . وقاد هذا النظام القديس  
مقاريوس الكبير ، وكان مركزه قرية شبيت .  
أي وادي النطرون بالصحراء الغربية .

والقديس مقاريوس ، حيدر مؤسس  
الرهبنة في وادي النطرون في صحراء مصر  
الغربية . وقد مات ٣٥٠ م من أبوين مصريين  
في إحدى قرى مديرية المنوفية . وكان أبوه  
كاهنا . وقد رسم هو أيضا قسا ولكنه لم  
يشأ أن يتخذ هذه الرتبة له بل حياة  
التوحدة . فبعد وفاة والده وزع أمواله على

الفقراء وذهب الى وادي النطرون سنة  
٣٥٠ م حيث توحده هناك . ثم زار الأديس  
انطونيوس في الجبل الشرقي فاليه انزى  
الرهباني وزوجه بنصائحه ورجع الى وادي  
النطرون حيث تفرغ للمبادة والتأمل . ولم  
يكن هناك غيره في كل تلك البرية . وقد عاش  
الأب مقاريوس مئتين سنة في الرهبنة وتجمع  
حوله تلاميذ كثيرون فبنى لهم كنائس في  
المواقع العالي لديرى البرموس وأبسا  
مقاريوس وادي النطرون . ومن أشهر  
تلاميذه رمانديس والامبران مكسيموس  
ودومايوس .

والمدسة الرهبانية التي تزعها مقاريوس  
هى نظام متوسط بين الوحدة المطلقة التي  
تظهر في رهبنة أنطونيوس ، والحياة المشتركة  
التي تتلها رهبنة باخوميوس . فكان الرهبان  
يعيشون في خلايا منفردة متباعدة ولكنهم  
يجتمعون مرة في كل سبت ليقسروا معا في  
اصلاة وتناول الأسرار المقدسة . ولم تكن  
أهم أسوار ولا حصون ، ولكن هذا النظام  
تدرج فيها بعد حتى شابه النظام الباخومى .  
أما من حيث اتباع هذا النظام على حب  
الوحدة فالحكم الفصلوا سفردين في منازلت  
خروجها في الجبال . ول سنة ٣٩٠ توفي الأب  
مقاريوس بعد أن عمر وادي النطرون بألافه  
الرهبان . وانقسمت هذه البرية الى أقسام  
مشهورة هى غربا والأستيط والقلاي ،  
وأصبحت البرية كلها معمورة معروفة .

واللدة<sup>(١)</sup> من النهار للبتدئين . ودروما  
أخرى عامة بقدها رؤساء الأديرة يومي  
الأربعاء والجمعة في تصدير الكتب المقدسة .  
وكان حضورها اجباريا .

وكانت الأديرة الباخومية مثلا أعلى في  
النظام والحياة الرهبانية والسلام في وسط  
عالم منهار ملاء الفزع والفوضى ، وتسلمه  
الفتنة والفساد . لذلك كان من الطبيعي أن  
يبرع اليها الناس بالثبات والآلاف في عصر  
سلافة الروح الدينية .

والأب باخوميوس ، ولد حوالي سنة  
٢٩٠ م في إحدى قرى الصعيد من أبرج  
وتبين . والتحق في شبابه بجيش قسطنطين  
في حرية لمكسبيانوس . وحدث أن عسكرت  
فرقه في ضواحي أينا فخرج أهالي البلدة  
من المسيحيين بصلوات الجهم الضام والقراب .  
فذهب باخوميوس وتساءل عما حدا بهؤلاء  
الناس إلى ابتداء هذا المعطف فقبل له أنهم  
مسيحيون ينشدون تعاليم ديمس . فقال في  
نفسه « أن كانت هذه هي المسيحية فأنى  
- أن كنت سالما - سأصير مسيحا » .  
ولما التزم قسطنطين وسرح الجيش عكف  
باخوميوس على دراسة المعمية واعتمدها .  
ثم تلمذ على راهب شيخ يدعى بلامون ،  
وازداد في النسك والمعرفة حتى صار أبا

ووضع القديس باخوميوس ( ٢٩٠ -  
٣٤٨ م ) مجموعة قوانين يبين مقتضاها  
الرهبان في دير واحد هو عبارة عن كنيسة  
أو كنائس الصير يحيط بها خلالي الرهبان  
داخل سور واحد .

وتقوم الرهبنة على ثلاث دعائم : الفقر  
الاختياري - العلم والتبشيل - الطاعة  
للمرشد الروحي . وهي مقومات انكار  
الشهوات الدنيوية والملاذبات والفرح للحياة  
الروحية .

وكان يشترط على من يريد الانضمام إلى  
الدير أن يقضى ثلاث سنوات تحت الاختبار ،  
وكان الطعام يقدم للرهبان في قاعة المائدة  
مرتبة في كل يوم ( في الظهر وفي المساء )  
وكانوا يستعملون ثناء الأكل لأحد الأخوة  
يقرأ فصلا من الكتب المقدسة . وكانت  
الأعمال اليدوية في المؤسسات الباخومية  
اجبارية لتوائدها الروحانية التي تفضل الراهب  
عن الشروع في الفكر لا توافقه . كما أنها  
وسيلة لكسب القوت الضروري لكن  
لا يكون الراهب عالة على المجتمع . وكان كل  
راهب يعمل في الحرفة التي يتقنها يجلب من  
تخصصه في كتماية الكتب ونسخها  
المخطوطات .

وكان النظام الباخومي يشتم بالعلم ،  
ولهذا نظم باخوم للرهبان ثلاثة دروس  
يومية عند الباعات الأولى والثالثة

(١) حسب التوقيت الشرقي و أي المساعات  
السادسة والتاسعة صباحا والثانية عتمة ظهرا  
بوتوقيتنا الحالي ) .



لكثيرين وأسس دير الأول في طيبة واستخدم في تديره ما اعتاده من نظام العسكرية ومن مناعة ونسك في الرهبنة. وكثر **الأنبا** المنضمين اليه حتى لم يسمهم الدير ، فأنتسأ أديرة أخرى وصل عددها الى تسعة ، كما أنشأ ديرا للراهبان تحت رئاسة اخيه . وقد ذكر « بلاذريوس » أنه وهبان باخوميوس بلغوا ثلاثة آلاف في حياته وأهم بلغوا سنة ٤٤٠ م مئة آلاف « وقهرهم » كاسيان « بضعة آلاف راهب » وكانت أديرته تضم تسير الأقباط رهبا من اليونان والرومان والآشوريين والبربر . وكان كل هذا العدد الضخم تحت إدارة حكيمة حازمة ، وضع لهم باخوميوس قوانين **المبادىء** والمسلل الديوى والنيلس والسكن والمأكل وما يلزمهم في معيشتهم الديرية ، واشترط في طالب الرهبنة أن لم يكن يعرف القراءة والكتابة أن ينقطعها قبل رهبته لينسكن من قراءة الكتاب المقدس وكتب الآباء ، ووضع للرهبان نظاما في الدراسة . وهكذا لم يساعد أديرته على معصو الإلمية فحسب ، بل كانت معاهد لتثقيف . وقد انتشرت قوانين باخوميوس في أرجاء العالم . ويشير هذا القديس مؤسس العيشة الديرية في الرهبنة المسيحية كما يشير أنطونيوس مؤسس نظام التوحد فيها .

من سوحاج وأخميم . أدخل الأنبا شنودة تصديلات على نظام الشركة الباخومي تصفيق بالثمة والنظام .

شبا الأنبا شنودة في الصعيد من أسرة غنية . وكان في صغره يخرج مع رعاة غنم أبيه فيعطيم بلعامه ويقضي اليوم كله صائما ، كما كان ينفرد أثناء رجوعه عن الرعاة ويقف للصلاة . ولما تنبه والده الى ذلك دفع به الى خاله « يعقوب » الذي كان رئيسا للدير الأبيض من سنة ٣٥٠ م لمسه راهبا . وظل شنودة الصبي يرتفع في درجات العبادة ، ويكثر من الدراسة والتأمل ، ويتدرب على الوحدة والطاعة والتواضع حتى أحب الراهبان جميعا . وبعد وفاة خاله انتخبوه رئيسا للدير سنة ٣٨٣ م ودامت رئاسته للدير ٩٩ عاما حتى تولى سنة ٤٥١ م ، وقد قارب المائة والعشرين من العمر .

وقد كثر عدد رهباله حتى صاروا حوالي خمسة آلاف ، وكان أيضا أبا لآلاف ومناضلة راهبة . وقد كتب لهؤلاء الراهبات عددا وغيرا من الرسائل ثبثن منها تفكيره الملميم ولطفه في الروحانيات . ولهمم ينتخب رهباله حتى صاروا من أكثر الرهبان معرفة . ووطع لهم قوانين وأنظمة أكثر تسممجة من قوانين القديس باخوميوس .

« لكنه كان في زعامته الشعبية يختلف عن باخوميوس في أمرين : فبينا ضمت أديرة باخوميوس أجناسا كثيرة اقتصر هو في

٤ - نظام الأنبا شنودة : ( ٣٣٣ -

٤٥١ م ) بالديرين الأبيض والأحمر بالقرد .

أن المسافر من الاسكندرية الى أسوان في القرن الخامس والسادس لم يكن بحاجة الى أن يحمل زاداً للطريق ، إذ يستطيع أن يزود باحتياجات الرحلة من الأديرة والقلالي المنتشرة بكثرة على أطراف وادي النيل وسجراواته الشرقية والغربية . ومن أهم المناطق التي زكزت فيها جبايات الرهبان :

- ١ - منطقة بسبر في الصعيد الأوسط .
- ٢ - منطقة جبل ترابا أو وادي النطرون بالصحراء الغربية وكانت تنقسم الى ثلاثة مراكز رهبانية :
- (أ) ترابا ،
- (ب) اللاسيط .
- (ج) القلالي .

- ٣ - منطقة مروط على الساحل الشمالي قرب الاسكندرية ،
- ٤ - منطقة الجهنيا وهي بالقرب من بني سويف الحالية وكانت تعرف في العصر الروماني باسم أوكتيدونوس .
- ٥ - منطقة التبنوي بالقرب من ملوي .
- ٦ - منطقة لسكوس بالقرب من اسيوط .
- ٧ - منطقة موحساي وأعظمهم (بانوبوليس) حيث أديرة الأنبا شنودة .

- ٨ - منطقة طيبة وهي منطقة واسعة في مديرية قنا حيث انتشرت أديرة ياخوميوس . ولم يبق من هذا الصيود الضخم من الأديرة ، في وقتنا الحاضر سوى ثمانية أديرة

أديرتة على الأقباط . وبذلك أصبحت أديرتة معاقل مصرية صميعة . وبينما كانت كنائس ياخوميوس خاصة بالرجان فقط ، فتح هو كنيسة الدير الأبيض للشعب بأنون الب في الأحماد والأعياد فيصنهم ويرشدهم . وكان الأنبا شنودة مجابا لبعده يفاسمهم أنباهم كفلاحين يرزحون تحت لوز مصطفيهم من الرومان ، فهاجم ظلم كبار الحكام والملوك ودعا للرفق بالفقراء .

وقد كان نشاطه محصورا في محاربة الوثنية والتلاع جفوز حرافتها من الكنيسة مثل السحر والنعاويز والدجل الطبي وبدع الموالد . كما سافر مع القديس كيرلس الى افسوس واشترك معه في محاربة هرطقة نسطور .

ويعتبر الأنبا شنودة أعظم كتاب الأدب العربي . لقد كانت بلافته الكتابية ولصاحته الحظانية من ظهور مواضعه . وكانت كتاباته صليبة صانعة للإسهمال المباشر ، وكان كثير الانتاح مالكا لنامية اللغة . وقد خلف لنا في جهاده الديني والقروبي الطويل ثراا أدبيا ضخما باللهجة الصعيدية التي لم يكن يكتب أو يخطب الا بها .

وما أن وصلت الوجهة الى هذه الأموار والأنواع المتعددة حتى كانت الصحارى المصرية وبقاع كثيرة من الوجه القبلي على الأخص ، قد امتلأت بالأديرة وقلالي الناك . وامتلات بالرهبان والمتوحدين حتى أنه قيل

مدارس لولية ( كتاب ) في قرى وادى النيل  
لتعليم أبناء الإقطاع .

إن الجو الشعري الذي يحيط بالأديرة ،  
والهدوء الشامل الذى يمشي فيه الرهبان هيا  
لهم فرص التأليف والكتابة وبخاصة في  
العلوم اللاهوتية ، وتفسير الكتب المقدسة  
الى جانب الطوائف النسيكية والروحية التي  
تعتبر من أهم الدراسات المنهجية .

وكان بكل دير مدرسة لتسبح المخطوطات  
بجانب جعلات النساخ التي عملت على  
نشر التراث الثقافي والديني في وقت لم تكن  
الطباعة قد عرفت فيه .

ويجمل ه هناك آثار الرهبنة العلمية  
في عبادة واحدة فائلا ه أن الفن والشعر  
والعلوم قد وجدت في الرهبنة ه فبإحدى  
حضارتنا تعتبر فصلا من تاريخ الرهبنة ه .

#### ٢ - الاجتماعية :

كان للرهبنة آثار اجتماعية عميقة النور  
في نفوس الناس . تأثر بها المجتمع القبطي ،  
فأدته موجة من الزهد والتقشف وتأخذ  
يقضي بالربان وينقل عنهم كثيرا من عاداتهم  
وأصوامهم . ولما اشتهرت فضائل الرهبان  
وداع صيبتها ، اختار الشعب قاداته الروحيين  
من الرهبان ، وكانوا في المصنوع الأولي  
بعمولهم قرا الى المدن لتولى مناصب  
الإسقفية والبطريركية ، ومن ذلك الحين كثرت  
الانطباعات الرهبانية في حياة المجتمع القبطي .  
إن النماذج الحية للعقيدة والتعوى

قبطية مأخوذة بالربان ه والتأقوى منها أمثال  
متروكة يؤمها الشعب في الأعياد لأقامة  
القداسات ه منها أربعة في وادى النطرون  
وهي : أديرة البراموس - البربان - الأنا  
بيسوى - وأبو مغاز ، وفي جنوب صحراء  
النيل ه دير الأنا صموئيل ( القملوى ) ه  
وفي جنوبه بالقرب من دروط : الدير  
المعرق ه أما في الصحراء الشرقية فيوجد  
دير الأنبا الطولوبوس ودير الألبا يولا ،  
ولليسان الأرموذكس ديسر سانت كثرين  
بالغرب ه من الطور في شبه جزيرة سيناء .

وبمدينة القاهرة توجد خمسة أديرة  
للمراهبات في مصر القديمة ه وجيزة زويلة ه  
وحارة الروم .

#### الاد الرهبنة ١

##### ١ - القبطية

حينما أدت الاضطرابات والاضطرابات  
التيالية الى ضم مدرسة الاسكندرية  
اللاهوتية في نهاية القرن السادس انتقلت  
القوى القبطية الى القبطر المصري من  
الاسكندرية الى الصحراء . فصار الدير  
مركزا تربويا عظيما للعلوم الكنسية .

وقد اعتبرت الأديرة مغلان كنوز العلوم  
والحكمة سواء منها الدينية أو المدنية . وهي  
التي قامت الحركة القبطية في مصر خلال  
القرن الوسطى . فيجانب البحوث  
والدراسات التي تركزت داخل الأديرة ه فقد  
عهد أيضا الى عدد من الرهبان ه انشاء

## ٢ - انتشارها في أنحاء العالم المسيحي

نشأت الرهبنة في مصر ففاح غير الآباء المصريين في أرجاء العالم ، حتى شمله غيرهم ، واجتذب إلى مصر جميع الذين طردوا قلوبهم صوت الله ، فجهلوا إلى هذا المواسي لبروتوا من لبح تعاليمهم الصاخية ولتبتدوا بسيرتهم المعلقة .

فوجدت إلى الصغاري المصرية جماعات من القبطيين والسريان والحبش والبرغان والأرمن واللاتين ، وسكان شمال أفريقيا وغيرهم . وكان لكل أسرة معلم من جنسها يفرى على التفاهم مع أبناء جنسه وأرشادهم ، وهذا النظام هو الذي ورثته الجماعات المصورية الوسطى حيث انتشر في دحياتها نظام الاسم ، وأيضاً نظام الأروقة في الجامعة الأزهرية .

وتتميز تعاليم الآباء المصريين من أكبر المفاخر التي جردت بها الفرائع المصرية على العالم المتبدلين .

### ١ - في الشرق :

فمن فلسطين جاء القديس « إيلاري » الكبير ( هيلاريون ) لدرس الفلسفة في مدرسة الاسكندرية ثم تعلم في القديس أنطونيوس . فلما رجع إلى فلسطين أسس الأديرة على النمط المصري مستنينا ببعض الرهبان المصريين . وقد ابتدأ في برادى غزة ومنها انتشرت الرهبنة إلى المنطقة المحيطة بالأردن .

وانكار الذات التي تالفت في حياة أولئك الرهبان المصريين كانت أعظم دليل على أن الفضيلة ، ووصايا الدين ، أمور واقعية يمكن الوصول إليها ، وليست مجرد مثل عابث . فو مبادئ نظرية نجيلها الذين : الأمر الذي ينصر فدى العجز في المجتمع على قوى الشر ، فلا يبلع أتباع الكثيرين في موجات الانحلال والمادة والألغام . بل تشجع تلك النماذج الحية على استمرار الجهاد في سبيل الطفيلة تنها بطلاء العباد . ولعل هذا ما حفظ للمجتمع المصري طامه الدينى على مر العصور .

لغة ظاهرة اجتماعية أخرى . فالمرضى والراشون تحت آلام الحياة وأعبائها ينسبون التزينة والمشاركة والطمأنينة من الناس عربت للوبهم بالإيمان . وعمر السلام للوسهم . لذلك كان القمص يلبأ إلى الرهبان ينسب مهم تخفيف آلامهم بمسبلوهم وتمزياتهم وارشادهم وبلدوهم إلى كان لها أكبر الأثر في تجديد أرجاء لمن يقصدونهم . كما كانت الأديرة أشبه ببناء السلام في أوقات الحروب والحجرات ، إذ يجد اللاجئون إليها الأمن والدواء والطعام ومع ذلك قال « هنالك » المستطرح الألماني .

« ان الساك المصريين كالوا يمتبرون في جميع المصور — حتى في نظر الغرب — آباء ، ونماذج الحياة المسيحية الحقيقية » .

« هناك » من ذلك ومن وجود محمد بن  
البرشبات فيها أنه الكنيسة هناك كانت في  
حالة متظمة في منتصف القرن الثالث .

ويذكر أوسابيوس القيصرى تبشير  
بنتينوس في الهند . ويظهر أن العلاقة بين  
الكنيسة المصرية والهند قد امتدت طويلا ،  
ولا يذكر كتب تاريخ البطارقة مصري ، كاهن  
هندي إلى مصر في أيام البطرك سبطان  
الأول في أواخر القرن السابع يطلب منه  
سبحة أسقف للهند .

أما عن بلاد العرب فإن هناك يستند إلى  
أوسابيوس في تأكيد زيارة أوديجانس للبلاد  
العربية وزيادته مُجمع في مصرى .

أما عن الحبشة . فقد دخلت إليها  
المسيحية على يد فرومونتوس في منتصف  
القرن الرابع الميلادي . وهو مصري كان  
يسافر في صور ويعرب الجوار شمالا وجنوبا .  
والأسم فرومونتوس اللفظ قبلي معناه رجل  
الله ( أفروسي - أنت - تيوس ) .

وقد اعتنق المسيحية أولا ملك الحبشة  
وتبعم في ذلك رجال البلاد ثم اعتنقت  
المسيحية تنتشر بين أفراد الشعب . وكان  
دخول المسيحية الحبشة على هذه الصورة  
مغالبا لما عهدته في البلاد الأخرى حيث كانت  
تجد طريقها إلى الشعب أولا ثم ينتقلها رجال  
البلاد فالمثلث .

ولما عاد فرومونتوس إلى مصر ، طلب من  
الأنبا التامبوس بطريرك الاسكندرية أن

وقد أواخر القرن الرابع جاء « بلاديوس »  
وزار مصر للمرة الأولى من سنة ٣٨٨ إلى  
سنة ٣٩٩ حيث عاش مع رهبان برية شهيت  
لدراسة الحياة النكسية ثم عاد إلى بيت لحم  
ثم إلى أورشليم ورسم أسقفًا لهليونبوليس  
سنة ٤٠٩ م .

ولما دجع من زيارته الثانية لمصر ، كتب  
حوالي سنة ٤٣٥ م تاريخا عما رآه وسمعه  
من رهبان الإسكندرية أشهر باسم « بستان  
الرهبان » وكان هذا الكتاب ميا لا تدار  
الوهنة في جهات كثيرة من العالم .

ومن الذين أسسوا أديرة القوصي وطور  
هذين ولصين رهبانًا تصريون يبلغ  
عددهم حوالي السبعين فحبوا من مصر مع  
راهب سرياني اسمه مار أيون ( القديس  
أوجين ) كان قد عاش في الأديرة القبطية  
بالصعيد .

واتسرت المسيحية في دفاع كنيسته من  
الضرائ على أيدي المبشرين المصريين : فذهبوا  
مصر بمعلمين من مدارس الاسكندرية  
اللاهوتية ثم زالت الكنيسة القبطية المناهية  
بها على أيدي الرهبان المصريين ، فكانوا هم  
الذين تولوا تنظيم الكنائس والأديرة  
ونمحوها في شر المسيحية .

فمنهم من شروا المسيحية في ليبيا والجنس  
ومن الغربية ( بتانجوليس ) . ويذكر بوسابيوس  
المؤرخ اسم باسيليوس أحد أساقفتها في أيام  
دجونيوس الاسكندرية . وسمي مستج

ومنذ القرن الرابع والكنيسة المصرية  
ترسل مطرانا قبطيا كرئيس للكنيسة  
الأنطونية ، وكان له فيها مكانة متنازلة .  
في السموقة :

ذكر المؤرخ يوحنا الأنسي انه في  
القرن السادس كان البطريرك القبطي  
ثيودوسيوس منفيا له القسطنطينية ، وفي هذه  
الثناء أرسل يوليوس الى النوبة لتبشيرها  
بالمسيحية وذلك بمساعدة الامبراطورة  
ثيودورة التي كانت تزامن بذهب الكنيسة  
المصرية على نكس روجها الامبراطور  
يوسنيانوس الذي كان شديد الاصطهاد لهذا  
المذهب . فوصل يوليوس الى النوبة حوالي  
٥٤٣ م وبشرها بالمسيحية فربح ٣ المئنة  
والمئة فمعه وعلمهم الكثير من المسيحية  
وحدوهم من اخطاء مذهب حزب الامبراطور ،  
فلما وصلت بعثة الامبراطور بعد ذلك لم يقبل  
ملك النوبة رسالتها ورفض بقاءها في النوبة ،  
فماجت غاشقة .

وتوالى بعد ذلك البعثات التبشيرية  
فانما من الكنيسة القبطية ، وكان اشهر  
المبشرين الانباط لوليجيوس الذي حاصر  
بعده ، وسار في رحلة طويلة مع الجبال  
المعادية للبحر الاحمر حتى وصل الى ملكة  
علوة ( عند ملتقى نهج العصرة والنيل  
الازرق والنيل الأبيض وعاصمتها سوا قرب  
الغردوم الحالية ) فبشرها بالمسيحية فانت  
بمذهب الكنيسة القبطية ، وقد حاول

يرسل اسقفا لرعايه المسيحيين في اثيوبيا ،  
وبعد ان تشاور اثنايوس مع مجمع الاساقفة  
الاقباط قرروا بسماعه فرومانيوس نفسه  
وترسلوه الى اكسوم عاصمة الحبشة في ذلك  
الوقت .

وهنا كانت لقرارات مجمع خلقيدونية سنة  
٥٤١ التي رفضها القائلون بالطبيعة الواحدة  
أثر في هجرة كثير من الرعايا الى مصر حيث  
وجدوا في أديرتها المزهرة ملجأ لهم ، ومنهم  
من أخذ في الانتقال الى النوبة ومنها الى  
الحبشة ، تدفعهم غيرتهم على نشر الدين  
المسيحي بحسب مذهبهم ، بين انوار لم  
يتطرق الجدل الديني البهي ، ولقد حدا بهم  
خوفهم من المذهب النسطوري الذي لم يكن  
له أتباع في مصر أو الحبشة ، الى ترجمة  
بعض الكتب في معارضة النسطورية مثل  
كتاب كبرلي استمداد الطولوسي

وكان بين الرهبان الذين وفدوا الى  
الحبشة واسفروا في أماكن متعددة من  
مقاطعة النجدي سمحة عرفوا « بالقدسين  
القصص » هم رسل نشر المسيحية في الحبشة  
الذين أسسوا الأديرة وتترا المقبلين  
وقد أخذت الأديرة في الحبشة تزدهر في  
القرنين السادس والسابع ، وأخذ الرهبان  
يتفرغون الى دراسة الرهنة وتقمعها معتبدن  
في ذلك على ما يترجمونه من الكتب القبطية  
أو اليونانية الشائعة عند الرهبان الاقباط  
في مصر .

الامبراطور أن يحرقهم إلى مذهبهم بالقوة  
علم يتحوه .

و قد ظلت الكنيسة المشرقية ترسل سافرة  
وكلمة إلى النوبة وعلوة وكذلك إلى مملكة  
أخرى توسطها اسمها مملكة مملكة  
القرن السابع مع النوبة ومملكة مملكة  
واحدة حاصتها وثقله القديمة .

واسمعت الكنيسة المسيحية في انوبة ناهية  
لكنيسة مصر حتى نهاية حكم المماليك .

#### ب - في الغرب

والسبح انظر لأباء المصريين بلطرس  
الكتاب الذي وضعه الباباوس الرسولي  
بطريرك الاسكندرية في القرن الرابع من سيرة  
الأنبا أنطونيوس . وكانت مسحة من هذه  
السيرة سما في تجديد مساه القديس  
أولسلبوس ( وأخر القرن الرابع وأوائل  
الخامس ) أسقف مدينة هيو بدما أفريقيا ،  
وهو بعد من أكبر فلاسفة الكنيسة الغربية .  
ومن ناحية أخرى حمل اثناسيوس التنباليم  
المسيحي إلى أوروبا الغربية في ذلك .

وجاء القديس باسيليوس الكبير ( القرن  
الرابع ) - وهو يوناني - إلى مصر وعاش  
عدة سنين في أديرة باخوميوس بالصعيد وظل  
نظامها واسترشد بقوانينه في الأديرة التي  
أسسها بجبل آغوس في بلاد اليونان

وفي سنة ٤٤٥ م قام القديس جيروم  
( هيرونيوس الإيطالي ) بترجمة قوانين

باخوميوس إلى اللاتينية بقادر الرهبان  
الإيطاليين إلى اتخاذها دستوراً لهم .

وبعد ذلك بسنوات قليلة كتب كامبانوس  
( الرهبان الفرنسي ) تراجم الآباء المصريين  
وتعاليمهم والتصاوين التي وضعوها وحاول  
جده أن يطق هذه القوانين الرهبانية المصرية  
على الديرين الذين أنشأها في جنوب  
فرنسا ( بالقرب من مرسيليا ) . ثم أن نظام  
الديرية البندكية ( نسبة إلى القديس  
بذكت من المبارك ) منبسط من نظام وقوانين  
باخوميوس ومن طريق البندكية انتشرت  
النظم الباخومية في أوروبا الشمالية واسما .

كما أثرت تعليم باخوميوس في حركة  
الإصلاح الكلاسيكي ، تلك الحركة الكبرى التي  
كان لها أثرها العالم في عوالمه الدينية في  
العصور الوسطى . كما تنها الصاعبات  
الرهبانية Templars - Templars في  
القرن الحادي عشر والثاني عشر . وبينما  
في عهد لاحق جماعات الفرنسيسكان ( نسبة  
للقديس فرانسيس الأسيسي ) وأندومينكان .  
فليس من المبعث القول بأن تلك السلسلة من  
أركانها لأخرها يمكن اقتفاء أصولها ومنابعها  
في وهي باخوميوس المصري . وبالتالي فإن  
المهفة الأدبية الفكرية الأولى في القرون  
الثاني عشر والثالث عشر ، تلك المهفة التي  
تعتبر بقبام العلوم الإنسانية ونشأة الجامعات  
في العصور الوسطى إنما هي أثر من آثار تلك  
الامتات الديرية التي يرجع تكوينها في الأصل  
إلى عبقرية باخوميوس .

طية ، ولا تزال قبورهم مرفوعة في مدينة  
« تريير » Trier

وفي جزيرة قبرص أسس الرهبان الأقباط  
على الجبال الشمالية بالقرب من قرية بلافان  
ديرا أطلقوا عليه اسم دير القديس مقاريوس  
وكان للأقباط هناك تسقف بستد اهتمامه  
على قبرص ويزودس ، كما ذكر « برمنستر » في  
بحث نظره بجملة جمعية الآثار القبطية .

وذكر جطر في مقدمه كتابه « عن الكنائس  
القبطية القديمة » ان المبصرين الأقباط وصلوا  
الى الجزر البريطانية وأنه يوجد الى يومنا  
هذا بيلام أوليفر ديموت بايرلندا قبور سبعة  
من الرهبان انصارين لا تزال تذكر أسماؤهم  
في الصلاة مكنيسة تلك الجهة .

وقد وصل الرهبان والمبشرون الأقباط  
الى سواحل فرنسا الجنوبية ، والى بلجيكا  
حيث يصف « هرنك » كيف عمل الأنبا  
قسابوس وهو في منفاه في بلجيكا على نشر  
المسيحية وتأسيس كنيسة ناهضة هناك . وفي  
سويسرا في مدينة زيورخ اشتهر بهذه القبائل  
ضمن الذين يسموا المدينية كما اشتهر في  
سويسرا القديس موريس ( موريس ) وأخته  
وآريتا ، وهى التى وجهت اهتمام السويسريات  
الى العناية بنظافتهن ، وما زالت تصور هناك  
حاملة مغطا .

ولى ألمانيا استشهد سنة ٣٩٨ م حوالى  
ثلاثة آلاف من أبناء عصر العلياء من فرقة



فہرست

أسماء الأباطرة وحكام مصر وبطاركة الإسكندرية

من عصر ديوقنديانوس الی دخول العرب

[illegible]

[illegible]





القسم الثاني  
العصر الإسلامي



## تاريخ مصر

### من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون

بقلم الدكتور حسين مؤنس

#### الفتح المصري لمصر

بناية المحدث الأيمن على ذكر أسناده ، على ذكر من أخذوا عنهم الأخبار من الرجال . ولو درسا مجموعة هؤلاء الرجال المذكورين في هذه الكتب ، لتبين أن الأخبار كلها ، أو الجواب الأكبر منها ، قد صدرت عن مدرسة من الفصاح أو المهتمين بالتاريخ نشأت في مصر وعينت بهذا الفن ، و ه سبقت في قصة الفتح التي لجدها بين أيدينا متفرقة في ذلك العهد من كتب تاريخ مصر الذي يبدأ بأبن عبد الحكم ويستمر حتى ابن أبي عمير .

وقد آن الأوان لأن نوضح هذه المدرسة كلها موضع البحث ، حتى تبين القبيصة الحقيقية لما لدينا من الأخبار . ولا يتسع المجال هنا لعرض هذه الدراسة ، وإنما يكفي أن نذكر أن ما لدينا من الأخبار لا يخرج في مصادره عن عدد قليل من الرجال معظمهم من تلاميذ الليث بن سعد ( ٩٤ - ١٧٥ / ٧١٢ - ٧٩١ ) ، وأظنهم من ستة سنتج القول بأنهم المسئولون عن أكبر

ندوة قصة الفتح العربي لمصر لم يفردها عند مؤرخي الإسلام — من ابن عبد الحكم إلى ابن أبي عمير — وكأنها زهرة عسكرية لم يصادف الجنيد المصري خلالها من الصعوبات إلا شيئا قليلا جدا لا يقاس بما اعتراه جيوش الإسلام في فتح الشام وفلسطين ، فضلا عن العراق والمغرب ، لأن أرواة الذين أعتمد عليهم المؤرخون جميعا يستقروا الأخبار وأحوالها على نحو أصبح من الصبر معه تتبع الخطوات التي تم بها هذا الفتح العظيم الذي ينير من أهم الانتصارات العسكرية والسياسية التي ظهر بها العرب أبان عصر الفتح الإسلامية .

وفد نمودا أن رد ما لدينا من أخبار هذا الفتح إلى أصحاب المدونات التي وصلت إليها ، وهي كتب جليله القدر كلها متبرخ من أهل الثقة المجمع الموادي وعبد الرحمن ابن عبيد الحكم والبلاذري والكندي والطبري ، مع أن الأخبار التي يوردونها ليست لهم ، وإنما هم رواها ، وقد حرصوا ،

جاءت منا لدينا من المعلومات عن فتح مصر وأخبارها حتى منتصف القرن الهجري الثالث على الأقل ، وهم محمد بن عبد الحكم ( والد عبد الرحمن ) ( ١٥٥ - ٢١٤ / ٧٧١ ) ، وعبد الله بن وهب ( توفي ١٩٧ / ٨١٢ ) ، وعبد الملك بن مسلمة وعثمان بن صالح ( ١٤١ - ٢١٩ / ٧٦١ - ٨٣٤ ) ، وربيعة بن بكير ( ١٥٤ - ٢٣٤ / ٧٧٠ - ٨٤٥ ) ، وسيد بن غفير ( ١٤٩ - ٢٢٩ / ٧٦٣ - ٨٤٠ ) .

وهم جميعا مشاهير من مسالحي ، فان كتب « فتوح مصر والمغرب والأندلس » يدور على روايته قريبا ، وعبد الرحمن بن عبد الحكم يروي عنه نظرة بعد نظرة ، فاذا استطرده يروي عن غيره عاد اليه يقول : « ثم رجعت الى حديث عثمان بن صالح وغيره » ، والشيخ التي وصلتنا من « مسووح مصر والمغرب والأندلس » كلها برواية علي بن قتيبة لمحمد بن عبد الحكم ، وابن قتيبة هذا هو أستاذ أبي عمر محمد بن يوسف الكندي ، وعنه أخذ هذا الأخير الحديث والأخبار ، أي أن عبد الحكم والكندي يلتقيان عند هذا الرجل ، فهو تلميذ الأول وروايته وأستاذ الثاني وسلمه . وهذا يفسر لنا التشابه الشديد بين مادتي كتابهما فيما يتصل بالفتح ، وينتهي بنا الى القول بأننا في الواقع أمام رواية واحدة تنفق أصولها عند الاثنين ، ثم تختلف التفاصيل بعض الشيء هنا وهناك .

ولا قائمة والحالة هذه من الاجتهاد في المقارنة ومقابلة الروايات بمطعنا على بعض ، فان الخلوة العربية ، وهي التي تمنا هنا ، واحدة عند الاثنين . بل ان جل أخبار الفتح الواردة عند البلاذري منسوبة الى محمد بن سعد كاتب الواقدي ، وهذا بدوره زار مصر وأخذ عن أستاذه ، وهذا بدوره زار مصر وأخذ عن المدونة المصرية التي ذكرناها ، وأخباره شديدة التشابه بأخبارنا . وكذلك أخبار الطبري ترجع أحيانا الى محمد بن سعد وأحيانا أخرى الى يونس بن عبد الأعلى ( توفي ٢٩٤ / ٨٧٧ ) وهو من شيوخ المدرسة المصرية ، وهو جد أبي سعيد بن يونس المؤرخ المصري المروني .

والخلاصة أن ما لدينا من أخبار مصر في نسي المراجع يعود في الأصل الى أصل واحد هو مدرسة المؤرخين المصريين ، بل صنع في مكان واحد هو القضاة ، وفي فترة محددة هي النصف الأول من القرن الثالث الهجري . ومن رجال هذه المدرسة من هو ضعيف مشكوك في أخباره كعبد الله بن لبيعة ( توفي ١٧٤ / ٧٩٠ ) الذي سفر منه معاصروه وسموه ؟! غريبة ، ولا يشفع لأخباره أنه ينسب بعضها الى أبي الأسود النضر بن عبد الجبار ( توفي ٢١٩ / ٨٣٤ ) ، وفيه العجبة الكتب كالكاتب بن سعد ، وجلهم من المصريين مولدا وموطنا ، حتى غير المصريين



وقد أشق المؤرخون جهدا عظيما في البحث عن حقائق هؤلاء الأعلام دون أن ينتهوا إلى نتيجة تفسر فيها النفس ، وذهبوا بتمسك ضوا فيما كتب مؤرخو الأقباط مثل ساويرس أستيف ، المؤرخ المعروف بأبي المقفع وسعيد بن بطريق المروزي ، وأوتيفيا وأبي صالح الأرمي وجرجس المكي ، فإذا بسقط أخبارهم منقولة عن الأصول العربية لصها ، ثم التمسوا المعرفة من مؤرخي البيروني أنفسهم مثل سيبوس طرخ هرقل ويوغايس صاحب المدونة المعروفة بالتاريخ Chronographia فلم يجدوا لديهم إلا اشارات لا تنفي ، فسادوا إلى الخطوط الربية الأولى التي فسحها أصحاب الروايات الإسلامية الأولى ، ووقف الأمر عند ذلك ، ولابد من تعقب شخصية القوقس مثلا قبل الشئ في هذا البحث ، فهو في رأينا مفتاح موضوع فتح العرب لمصر ، إذا عرفنا من هو وما هو دوره بنت لنا قصة الفتح تحت ضوا جديد .

وقد حاول ألفريد بطر في كتابه المعروف عن الفتح العربي لمصر أن يعط بعض هذه

(٣) انظر : ألفريد بطر ، فتح العرب لمصر ، ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، ص ٤٥١ وما يليها ومناقشة الأستاذ محمود عكوش في كتابه مصر في عهد الأمويين ، القاهرة ١٩٤١ ، ومادة القوقس بقلم أدولف جرهسان في دائرة المعارف الإسلامية .

منهم كالواقدي أتوا إلى مصر بأخمدوا الأخبار عن شيوخها (١) .

فإذا كانت هذه هي أصول ما لدينا من أخبار الفتح ، فأننا لا نتصور أن يكون بين ما لدينا من هذه الأخبار اختلاف يعين على كشف حقيقة أو حل مشكلة ، فكلهم يقولون شيئا واحدا قريبا ، ويروون الأخبار على لسان واحد ويتفقون فيما يوردون من أسماء الأعلام ، ومعظمها مبهم ثم يجد الباحثون له تفسيراً ، كقولهم : القوقس ، ١ : الأبرج ، ٢ : أبا مامين ، ٣ : أبا مريم الجالليق ، ٤ : أبا مريم الأسقف ، ٥ : الأرخيوط ، ٦ : ومن إليهم .

(١) بالإضافة إلى المراجع العربية المذكورة في المتن ، انظر عن هذه الدراسة المصرية :

مقدمة ورنج جيسه KHUYON GUEST  
لطبعة لكتيب القضاء وكتاب الولاية للكندي  
لايد ١٩١٩ صفحات ٢٢ - ٧١  
ومقدمة تشارلز توري TORREY في لطبعة  
لصوح مصر والمغرب والأندلس لأن عهد الحكم  
نبرهيلي ١٩٢٢

R. Dany, *Recherches* .. 2<sup>e</sup> ed. 7, 96 qq.

ومادة الواقدي في دائرة المعارف الإسلامية بقلم هرزوفس ، ومادتي ابن عبد الحكم بقلم توري والكندي بقلم بروكس في نفس الدائرة ، ومقال الدكتور محمود علي حكي :

*Étude sur les origines de la télegraphie arabique-islamique*

في صحيفة المجلد المصري للأدب الإسلامي  
بدمرية ، مجلد ٥ سنة ١٩٥٨  
وانظر أيضا .

الدكتور محمد كامل عيسى : أدب مصر الإسلامية ، عصر الولاية ١٩٤٥ ، ص ٦٨ وما يليها .

Albert Gasque, *Cronique de l'Afrique du Nord et de l'Égypte par Ibn Abd al-Hakem* ( 2<sup>e</sup> ed. Alger, 1924 ) n 13 sqq.

يسميه المتفرزي « الهاموذك » والواقدي « الهاميرك » ، يقال انه كان من أخشوال المقوقس وكان على دمياط ، وقاتل المسلمين مع واحد من أولاده فقتل ابنه واستثنى هو ، ولحق ابن آخر له اسمه شبطا بالمسلمين وأسلم ، وحسب سرج الي البرلس والدنبرية وأسموه شناع فعند أهل تلك النواحي وقدم بهم بلدا للمسلمين ، وسار بهم فقتلهم نيس ، وقاتل حتى قتل ، وقبره باق الى الآن في دمياط ، وهو معدود في أوليائها وصالحها . وذكر المؤرخون كذلك انها للمقوقس يسمى أندراوس وبنتا تسمى ثولوتية عثر الباحثون على قبرها ، وابن يسمى أحدهما أرسطولس « بل ذكروا زوجه وقالوا انه كان لها شأن في نواحي الاسكندرية » هذا بالإضافة الى ابنة أرمالوسه ذات الخبر المشهور .

وقد يكون في ذلك كله زيادات أسماها القصاص ، ولكننا لا نصرف في القول اذا ذهبنا الى انها قتل عنى أو المقوقس كان قبليا من أهل مصر ، وإن ته كان مسروفا منتقم الأفسراد ، فكيف يقال مع ذلك انه هو « ليرس » أسس نظام فارس الذي يشبه الإمبراطور هرقل سنة ٥٦١ الى مصر لكي يمثل على القضاء على معارضة اقباطها للمذهب الرسمي للدولة البيزنطية ، لقد ذهب العلماء مذاهب حتى في البحث عن أصل هذا الاسم الذي تجده في المراجع

المشكلات ، فلم يخرج الا بنتيجة واحدة فيها الناس زمانا ، ولكنها لأن موضع شك كبير ، ونعني بذلك قوله ان المقوقس هو « قيرس » ، ولم يستد في ذلك القول الا الى عبارات تعتمل أكثر من تفسير وجدها عند ساويرس بن المقفع استقى الأسسولين وفي نص « حياة الراهب شنودة » الذي نشره أميلينو وقصة « أبنا سمويل القلمولي » ، وكل هذه النصوص — فيها عدا قصة سمويل القلمولي — تذكر قيرس دون أن تشير الى المقوقس أو تذكر اسمه ، كان لفظ المقوقس هذا خاص بطرحى العرب وهدم لم يعرفه الأقباط ولا البيزنطيون . حيث لنا لا نجد ما يقابله من الاسماء عند هؤلاء ، فانه يقلب على الشئ انه لقب أطلقه العرب عنى شخص معين ، وليس ذلك بغريب ، فبعد أطلقوا على رئيس حامية حصن بابلون لقب « الأهرج » ، وسوا القسائد البيزنطى في افرقية « جرجير » مع أن اسمه الحقيقي « جريجوريوس » ، ولو أن المقوقس هذا كان هو قيرس بالذات لذكرت ذلك المراجع العربية ، أو واحدة منها على الأقل .

فاذا نحن مضينا في البحث وبدنا ولا أن المقوقس يوصف بأنه عظيم القبط ، ونو أنه كان عامل مصر من قبل البيزنطيين لا وصف بذلك . وعنا ملاحظ أنه كانت له في مصر أسرة كثيرة الإخوة متفرقين في نواحيها ، تذكر المراجع العربية منهم رجلا

العربية : وتقرّب الآراء الى التبول ما ذهب اليه أميلينو من أن العرب حرفوه من لفظ « كادوخوس » القبطي ومعناه الكافر ، فقلل أنصار البيزنطيين طفقوا عليه هذا الوصف نظرا لمعارضته لسياسة الدولة ومذهبها وميله الى التناهم مع العرب : وعنهم أخذ هؤلاء وحرفوه الى الصورة التي وصلت اليها .

أما اسمه الحقيقي كما يرد في النصوص العربية فهو « حريج » ، وهو تصغير جبر : جيوس أو جرجس ، وهو ابن ميسا أو متى أو ابن نوحب ، وتقرّب وما الى ذلك من الصور التي توارد في النصوص العربية . أما عن وظيفته فيقول الجلابري أنه « صاحب مصر » ، وظول الميريزي في « المخلط » أنه كان « أميراً على مصر » ، ويرد هذا القول ابن دقماق في « الأشعار » ، ويذهب ابن عبد الحكم وجرجس المكنى الى أنه كان « ماملاً على مصر » ويقول ابن حجر أنه كان « أمير القبط بمصر » ، وأوتيفيا أنه « عامل على الخراج بمصر » . وليس في هذه الآثارات كلها ما يدل على أنه كان بقرين مصر أو رئيس كتبها ، أو الأسقف المقيم عن التسلطية .

ثم إن المراجعين العربية تذهب الى أن « تيموقس » هذا هو تيمس التيموقس الذي أرسل اليه رسول لله صلى الله عليه وسلم رسالته مع حاطب بن أبي بلتعة في السنة السادسة للهجرة ، أي قبل سير العرب الى مصر فأنشئ

عشر عاما ، وقد نفى كثير من المستشرقين أن يكون الرجلان شخصا واحدا ، لأن مصر كانت في سنة ٦ هـ / ٦٣٧ خاضعة للفرس ، بل ذهب بعضهم الى إنكار الرسالة جملة ، غير أن إشارة عابرة لمؤرخ متأخر هو المتوفى صاحب « كتاب لطائف أخبار الأول قديمين » تصرف في مصر من أيدي الدول « ( القاهرة ١٣٠٠ هـ ) » ربما فسرت لنا هذه الناحية ، فهي تقول أن صاحب الأسر في مصر أيام الرسول ( مسلم ) وأبي بكر وعمر حتى فتح مصر كان المتوفى . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول أن المتوفى هذا كان كبير أئمة مصر : وربما كان يتولى بعض شئون الحكومة : فلما دخلها الفرس واختفى وجال الدولة البيزنطية تولى هو الأمر تحت إشراف الفرس ، وفي أيامهم أتى مصر رسول النبي ( مسلم ) فلم يجد من يتحدث اليه الا كبير القبط هذا ، فأحسن استقباله ورد ردا لطيفا وبحث بهدئته المعروفة الى النبي .

فلما استعاد هرقل مصر ورجع اليها الروم وجدوا هذا الرجل قابضا على أومة الأساور المالية والادارية فتركوه على هذه الناحية ، لأنه لم يكن يحسم من مصر بذلك الا العجاية وكان الرجل جاعا شديدا ، واكتفىوا بأرمال قواد عسكريين لباليون والاسكندرية ، ثم أرسلوا الأسقف قيس ليعالج اختلافه المذهبي بين الأقباط والبيزنطيين ، فأبى قيس الى المصريين وتفر

ناحية أخرى ، وبمثل القبط المقوقس وقرى  
من جنود القبط كانت مشتركة بين الجيش  
البيزنطى وعدد كبير من الرهبان ورجال  
الكنيسة ثم بقية أهل البلاد ، وكلهم على  
المذهب المونوفيزى القريب من توحيد  
الاسلام ، وفي ناحية أخرى تجد البيزنطيين  
تمثلهم حاميات من الجنود في الحائل والحصون  
والمسالح وخاصة في الاسكندرية ، وعلى  
رأس كل حامية قائم معلى ، وبمثل السلطان  
البيزنطى كله قبرس الذى أقامه حوالى بطريركا  
لمصر وأطلق يده في شؤونها .

وهذا المذهب الذى نذهب اليه يحصل  
اشكالا آخر أوقع المؤرخين المحدثين فيه قولهم  
ان قبرس هو المقوقس ، لأنهم يقولون ان  
قبرس هذا أتى الى مصر ، وهو لحرب عنها  
ولا عزوة له فيها ، ليلجأ سياسة هرقى ، فبدأ  
بسنميل الإقباط بالحنى ، فلما فشل انقلاب  
عليهم وأخذ بضطهدهم ، مما يئس عسلى  
عصيته البيزنطية ، فلا يكاد العرب يطردون  
أبواب مصر حتى لجده يلقب على البيزنطيين  
ويسمى في الخارج مصر من أيديهم ، ويترجم  
الانقباط الذين كان يضطهدهم الى ذلك  
الحين ، وهذه كلها قضايا لا يستقيم بعضها  
مع بعض . ودواية الأحداث على هذا النمق  
تجلى قصة الفرنج غير منسجمة ولا متمسكة  
الحتماء ، وهذا هو الذى يفرج به القارىء  
من كتاب ألفريد بطريرك على طوله وعرضه .

منه المصريون وعلى رأسهم المقوقس ، وأصبح  
هذا الأخير مستعدا للتفاهم مع أى قوة يسكن  
ان تغلب الاقباط من اصطهاد البيزنطيين .  
فلما أقبل العرب وتخاذل البيزنطيون وتوزعت  
جهودهم وتواتت عليهم الغزائم تصددى  
المقوقس لاجتاد المخرج ، وتكلم مع العرب  
باسم الإقباط دون البيزنطيين ، وكانت هناك  
لرلى قبيلة في الجيش البيزنطى المدافع عن  
مصر ، فاكثرت بأمره وانضم اليه الرهبان  
ومن اليهم من أهل البلاد ، وعرفوا الرجل  
كبير يحصل من العرب على عهد يؤمن  
القبط على عقيدتهم وأموالهم ، فكانت نتيجة  
ذلك دخول مصر في طاعة العرب .

وقد وثقنا طويلا أمام مشكلة المقوقس  
لأن حلها يفسر قصة الفرنج كلها وبمفينا من  
الكلام الكثير في مشاكل الفرنج التى اقتضت  
من ألفريد بطريرك جادا عظيما ، ليحلها ، ولم  
يفلح مع ذلك ، لأن قضية البداية ، وهى  
التصديق بأن المقوقس هو قبرس لم تكن  
سليمة ، فلم تكن النتائج سليمة بما لذلك .  
أما قولنا ان المقوقس كان زعيم القبط ، وأنه  
كان ينتج وجهة أخرى لمح وجهة الروم  
فيجعل قصة الفرنج مفهومة ، ويفسر السبب  
فيما قلناه من أنها كانت أسيه بنزعة عسكرية .  
وبناء على ذلك نستطيع القول بأنه كانت  
في مصر قبائل الفرنج قوتان متنازعتان  
متعادبتان : القبط في ناحية والبيزنطيون في

المرية ، وهي مشاكل لا تتعلق بصلب الموضوع ، ولكن لا منو من التعرض لها ، أهما - فيما يتعلق بالبداية - رقتي عمر بن الخطاب (الذي لم يروى عن العاصي في السير

- : الثيامن والاعراب غما بأرض مصر من  
الاعراب ، القاهرة ١٩٥٦ ،  
ب : أغنية الأمة بكلمة الشمة ، طبعة  
ريادة والنسيان ، القاهرة ١٩٤٠ ،  
- : العاطف الحظي ، الدكتور جمال الدين  
النسيان ، القاهرة ١٩٤٨ ،  
المصطفى : تاريخ ، طبعة خولسما ، لبنان  
١٩٨٣ م .

أبو المحاسن بن لثري برقي : الجسم  
الزاهر في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار  
الكتاب ، ج ١ و ٢ سنة ١٩٢٩ - ١٩٣٠ .  
حرجي بن المصعب ( المعروف بالهكيني ) :  
أبيروا السطحي ، لبنان ١٩٢٥

Alfred J. Butler, The [Arab conquest  
of Spain, Oxford, 1909

والتدريس في جامعة الأزهر في القاهرة  
 وابتدأ التدريس في جامعة الأزهر في القاهرة  
 في سنة ١٩٣٣.

— 1 The money of Akur, Oxford, 1913.

Lower Cretaceous: Arthur M. Wilson, T. IV, V.  
Mexico, 1917-1972.

W. Ambrose: *Studies on the identification of*  
*Exotic Birds*. 1977

Leah-Feela: in history of Egypt in the Middle-Ages. London, 1932.

REVUE VIREI L'ÉPIQUE médiéval, Vol. IV de  
L'ÉPIQUE de la Méditerranée. Paris, 1960.

= *L'Egypte Musulmane*. Vol. 1<sup>er</sup> du Précis  
de l'histoire d'Égypte. Le Caire.

المجلة ١٤٣٨ هـ / ٢٠١٦ م

الإمام: القاهرة ١٩١٧.

محمود عكوش : مصر في عهد الانبلاام .

القاهرة ١٩٤٩ •

فاذا بدأنا من هذه النقطة ومضينا نضي  
قصة الفتح تعرضنا من أول الأمر لمساكن  
من النوع الذي تعودت أن تخلقه الروايات

(١١) عن فتح العرب لمرء انظر  
ابن عبد الحكم : فتوح مصر والعرب  
والاندلس ، طبعة توري ، ليون ١٩٢٩ ،  
وطبعة توري ماسيه ، عن فتح مصر فقط ، الطبعة  
التركي للآثار القومية بالقاهرة ١٩٤٤ ،  
وطبعة المي جاتو ALBERT GATTEAU بولون  
فتوح العربية والاندلس ، الطبعة الثانية ،  
باريس ١٩٤٣ .

الكندى : كتاب الولاية وكتاب القضاة ،  
طبعة روان سم ( مطبعة جيب الهندكارية )  
سنة ١٣٩٨ هـ

الجلاندى : لغوج البلدان . القاهرة ١٩٥٩ .  
الطبرى : تاريخ الامم والملوك . طبعة المطبعة  
الحسنية بالمدينة . ج ٣

جنا الملبوس ، مبدولة جنا أسلف للبرس

Théorie de Jans, évêque de Nîmes. **■**  
 Historien **■** et traité par M.J. Zumborg  
 (Nouveaux écrits des manuscrits de la Bibliothèque Nationale et autres imprimés, tome  
 1, Paris, 1889).

أبي الأثرم الكامل في التاريخ ، طبعة  
المطبعة المصرية ، القاهرة ١٩١٣ ، ج ٢ و ٣ .

مسافر پرس: بن الملحق: سیر الابد البطاركة

Parisi ١٩٠٤ و ١٩١٠ و ١٩١٤  
 Paris 1904, 1910, 1914

ابن سعد ( كاتب التاريخ ) : الطبقات  
الكبرى ، طهر حسين ، كرايستون نيو  
١٩٠٥ - ١٩٢١ ، طبعة بيروت ( كاعلة )  
سنة ١٩٥٧ -

محمد بن عيسى (المعروف بأبي جعفر).

كتاب القاري في المجموع على التحقيق والتصديق.

جزءان ، بيروت ١٩٠٥ - ١٩٠٩ .

المقريزي : المراجعة والاعتبار في الخطوط  
والشعر . طبعة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٧ م مجلدين .

الى مصر ، ثم موافقته على كره من وتخليقه  
الأمر بخطاب يرسله اليه ، فان بلغه قبل حدود  
مصر ارتد عنها والا صار في طريقه ، وهي  
قصة لا تتفق مع طبيعة مصر بن الخطاب  
أو ملكه في سياسة أمور الدولة . ولو أن  
مصر استردت في فتح مصر وهو المدينة لكان  
من الممكن أن تصعد هذا الإلهذ والره الذي  
تقبل فيه المراجع في هذه المناسبة ، فقد حدث  
مثل ذلك عندما أراد العرب فتح المغرب على  
أيام عثمان ، ولكن مصر بن الخطاب قوتح في  
فتح مصر وهو ، جنح مع قواده ورجاله في  
الجاهلية جنوبي دمشق سنة ٩٧/٩٨ :  
والثاني عمر مسمع ورجاله ■ ذلك المؤثر  
— الأول من نوعه في تاريخ الاسلام —  
تنظيم ما فتح من البلاد والخطوط التي يجري  
عليها المسلمون فيما يلي ذلك من خطوط  
النوسع . وقد أحاط عمر اذ ذلك بالموقف  
تماما ، ووضع الخطوط الرئيسية لما سيقب  
فتح فلسطين من الفوج ، فالقول بأن عمرا  
خلف عمر في الأمر فيما بينه وبينه وخلفه  
بحس له لتسمع مصر ويصون عليه أمرها ،  
أو قد عمرا حاصر قيسارية ثم خلف ابنه عليها  
وسار الى مصر من خلفه نفسه ، فغصب عمر  
لذلك وكتب اليه يعنه ويأمره بالرجوع الى  
موضعه اذ وافاه كتابه دون مصر ، أو أن  
عمرا أمر رجاله بالتسلل ليلا ثم اتبعهم ،  
روايات أقرب الى القصص وربما استطعنا  
أن نخرج من مجموعها برأى وسط يستريح

اليه المؤرخ ، وهو أن عمر بن الخطاب كان  
رأيه قد استقر على فتح مصر ولكنه لم يكن  
قد اطمأن بعد الى عمرو بن العاص وقدرته  
على القيام بهذا العمل العظيم . ولكن نعم  
هذا ينبغي أن نذكر أن عمرو بن العاص لم  
يكن اذ ذلك قد فر من مكائده كقائد من عظم  
قواد الاسلام ، ولم يكن تغلب ... في رأى  
عمر — يكبر قواد الدولة الذين تولوا فتح  
الشام والعراق ، وكان مصر بن الخطاب  
لا يستريح اليه ، فتردد عمر لم يكن اذن في  
الفتح في ذاته ، والما في شخصية الفاتح ،  
ويبدو من مجموع الروايات أن عمر وافق  
فصحت والغب ، وربما كان يشك في اختيار  
فائه آخر ، وهذا الحسب هو موضوع  
الكتاب الذي قال عمرو انه سمره اليه  
أو الذي أرسله اليه فعلا .

على أي لأحوال أسرع عمرو نحو مصر ،  
وينبغي أن نذكر هنا شيئا لا يسير اليه  
المؤرخون مع عظيم اهتبه ، وهو أن المناطق  
الصحيحة المتشعبة من جنوبي فلسطين الى  
أطراف اندلنا كانت تديرها قبائل عربية كثيرة  
محظها من بطون لضاغة وخامسة المجاهم  
منهم . وفي نواحي العريش كانت مسبارة  
بنى راشدة وقبائل أخرى من لعم وبها ،  
وكانت في شبه جزيرة سيناء والتاجية الشرقية  
للندنا وصحراء مصر الترية مواطن قبائل  
عربية كثيرة . وينبغي أن نذكر أيضا أن هذه  
النواحي لم تكن اذ ذاك قاحلة على الصورة

يسمونها وينوكوردور Rhinocorura أو Rhinokolera - غاستولي عليها الملون دون جهد (١٠ ذو الحجة ١٨ هـ / ١٢ ديسمبر ٦٣٩ م) ثم تقدم عمرو بن العاص حتي وصل الي موضع أفعى حصون مصر البيزنطية شرقا عند بلدة الهرما (Pelusium) وهناك وقع أول التحام بين المسلمين وروم مصر ، واستمر القتال بينهم شعرا أو شهرين حتي اقتحمه المسلمون ( حوالي ١٢ محرم ١٩ هـ / ١٣ يناير ٦٤٠ م ) وأصبح الطريق أمامهم الي قلب الدلتا مفتوحا ، فلم يضع عمرو وقته واتجه بمن معه نحو بلبيس .

ولم يكن الجيش الذي مع عمرو بالكبير ، فقد كان عدده ، حسب أقوال الرواة ، يتراوح بين ثلاثة آلاف وأربعة ، ولكننا نرجح أن أعدادا كبيرة من عرب جنوب فلسطين وسينا وشرقى الدلتا انضمت الي ذلك الجيش ، لأننا نلاحظ أن خبر سقوط الهرما واتجاه العرب نحو الدلتا كان له رد فعل عنيف في البلاد ، ومن المستبعد أن يتكون ذلك نتيجة دخول آلاف قبلية من العرب أرض مصر ، فقد كانت عارات القبائل العربية على أطراف مصر الشرقية أمرا عاديا ، ولو كان جيش عمرو بهذه القوة لَمَا كان لدخوله هذا الصدى البعيد ، ونلاحظ أن العرب بعد أن خاضوا معركة عين الشمس وتقبلوا الحصار حصن بابلون كانت لديهم قوة عظيمة لا تتناسب مع بقية ثلاثة آلاف أو أربعة ، فلابد أن

التي هي عليها اليموم ، وأما كانت مناطق متباينة ترعاها الماشية ، وكانت يمرن لثاء بها كثيرة ، وحوث كل عين ما يشبه الواحة الصغيرة أو الكبيرة ، ودللتنا على ذلك ما نذكره أخيسار المصر البيزنطى من أن صحراوي مصر الغربية والشرقية كانتا علمتيا بالدبور والرهبان ، وكان الكثير من أولئك الرهبان نساكا متأبدن وحدهم في الليفاء بقضون عمرهم كله في سياحة دائمة . ولا يتأتى هذا لو كانت هذه الصحارى مغللا كما هي اليوم ، وهذا يفسر لنا مقام القبائل النريية الكثيرة في سينا وصحراوي مصر الشرقية والغربية ، ويفسر لنا أيضا كيف استطاع الجيش العربى ، دون أن يتزود بشيء كبير أن يخترق سينا دون جهد ، وأن يعبر بعد ذلك الصحراء من الاسكندرية الي رقة ، ومن رقة الي ما يعرفه الآن بولس ، ولو راجعنا ما كتبه حضرافى كايي جيبسده انكرى عن المنطقة الواقعة بين مصر والريقة ( تونس اليوم ) لوجدنا الطريق حافلا بالآبار والميون والواحات .

ولم يكن للبيزنطيين سلطان على سينه الشواحي المشيئة كلها ، أي أن الجيش العربى صار من دفع حتى يلى على الأطل وسط بلاد يكسها وسيطر عليها عرب ، ليس للبيزنطيين فيها الا حايات قليلة . ههها في العريش — وهو تعرب لاسمها القديم *Lathis* ، وكان البيزنطيون

دولة ، وأن ملككم اختلع ، وبأمر القبط بتلقى عمرو ، فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما صاروا يؤخذ لعرو أعوانا . ومساء كتب بنيامين الى اخوانه القبط أم لم يكتب . فقد حدد الأقباط موقعهم بعد سقوط القوما وثبتهم أن الصراع الحاسم على مصر بلدهم قد بدأ فعالوا مع العرب على الروم . وكان هذا هو العامل الحاسم في تيسير أمر فتح مصر على العرب . ولم ينضم الأقباط الى العرب علائقة بعد سقوط القوما ، بل بعد سقوط حصن بابليون وفتح اليوم كما يقول يوحنا النقيوسي . أما موقعهم قبل ذلك فكان موقف الحمايد الذي يسمى نصر الصرب و زوال أمر الروم .

وقد وجد عمرو أنه لا يستطيع ترك قوة كبيرة في القوما لئلا يخلطوا ، وكان موقعها هاماً من الناحية العسكرية ، فهي مفتاح الطريق من فلسطين الى مصر ، وخاف أن يعود الروم فينقضوا فيها ، فهدم أسوارها وحصنها حتى لا يستعملوها ، ثم توجه جنوباً بشرق فاستولى على بليخة تسمى النواصر ، ومكانها الآن قرية الجعافرة بمرکز هافوس بمدينة الشرفية ، ثم وصل الى بلبيس لا يداخه إلا بالأسر الضيق ، كما يقول ابن عبد الحكم . وفي بلبيس التحم المسلمون مع حامية رومية قاتله رجالها نحو الشهر ، حتى انتصر عليهم واستولى على البلد . وبذهب القصاص الى أن عمراً وجد أرماتوسة ابنة

آلافاً أخرى من العرب تبعت الجيش الفاتح وانضمت الى صفوفه . وأبسط دليل على ذلك أسماء القبائل التي اتخذت لنفسها خططا في انفساط بعيد اختطاطها سنة ٢٩ هجرية ، فان عدد هذه القبائل يزيد على اثنين وثلاثين قبيلة ، غير أصحاب الرواية الذين سجدوا لهم ، وكان عددهم كبيرا . فلما فرضنا أن الذين دخلوا مع عمرو كانوا ٣٠٠٠ ، ثم انضم اليهم المدد الذي جاء مع عبد الله بن الربيع لكان المجموع تسعة آلاف ، أي بمعدل أقل من ٣٠٠ رجل من كل قبيلة ، وهذا العدد لا تكون له عطة أو قسم من مدينة ، فلا بد أن العدد كان أكثر من ذلك . وقد اقتصرنا في هذا الحساب على من قبل الفسقاط ، ومن المعروف أن عرباً آخرين كثيرين زلوا الاسكندرية والجيزة وواحي شتى من الدلتا .

على هذا الاعتبار لتبلغ أن تجمع السبب لها أحدهم سير هذه القوة العربية من رد فعل بعيد المدى في البلاد . وقد ظهر رد الفعل هذا بصورة جلية في موقف الأقباط ، إذ أدرك رؤسائهم أن الأمر أكثر من الغارة بدوية ، وأن الرض العربى الذى قضى على أمر الروم في الشام وصل الى مصر ، فخرج الإنبا بنهاين بطرك الأقباط الأسبق — الذى عزله هرقل واضطهده سابقا حتى اختفى نحو عشر سنوات قبل الفتح العربى — وكتب الى القبط يقول : « انه لا تكون للروم



حدودها البسيطة تأييدا لما ذهبنا اليه من انه القبط ماتوا الى العرب بعد استيلائهم على انحرما ، فحجب عمرو ان يجامل زعيمهم باكرام ابنه .

#### بابلونيوم مصر :

واتجه عمرو بعد ذلك لحسم مركز القوة القبطية البيزنطية في البلاد ، وكان هذا المركز مساحة عظيمة تمتد من موالشم بين نهر النيل العالية الى الحصن المعروف باسم قصر النسخ ، وكانت هذه المساحة تضم عددا من القرى الصغيرة والحصون والدوريات والكنائس فحرت كلها باسم « مصر » . ونظف مصر أراضي قديم ومعناه الحدد أو الحدود ، أما اسم بلاد مصر عند أهلها الى ذلك الحين فكان « كيسي » أو « شيسي » أو « خيسي » ومعناه التربة الحمراء ، والحرب هم الذين وسعوا مفهوم لفظ « مصر » وأطلقوه على البلاد كلها . نقول ان هذا الموضع كان يضم قرى وكنائس وحصونا وبساتين ، وهضبة اقرب بقايا مدن أو موانئ قديمة المثلث على طول تاريخ مصر القديم في هذا الموضع ، وتضمها كلها الآن مدينة القاهرة العالية ، فيما حدها موانئ منجس القديمة ، نهر النيل الآن لنهر العبيد . وتتمتع من توالي اتخاذ لندن والموانئ في هذا الموضع على اختلاف المصور له الموضع المثالي لحكم مصر والإشراف على الوجهين القبلي والبحري .

وقد بدأ الانشاء فيه على عهد الأسرة

المقوس في بليس . وأصل القصة في « فتوح مصر » المنسوب الى الواقدي ، وهي في خطوطها الرئيسية ممكنة الوقوع : وجد العرب في بليس ابنه المقوس ، فأكسرها عمرو وبنت بها الى أبيها معززة ، ولكن خيال القصص أضاف اليها أطوارا روائية ، فذهبوا الى أنها كانت قد خطبت الى قسطنطين بن هرقل ، لبث بها أبوها ولا جزها بأولها وجراها وبغلمانا لتسير اليه ، حتى ينس بها بمدينة قيسارية ، الى أخير القصة التي نصح حولها شي . ه . بوتر لم جرحي زيدان قصتين شريفتين . وقد نفاها الفريد بطر بحجة أن المقوس كان اسما لا يمكن أن تكون له بنت ، وهي حجة ولعية ، فلم يكن المقوس كما رأينا أسفلا ، ولو فرض وكان دم يكن في قوانين النصرانية اذ ذاك ما يحرم الزواج على رجال الدين ، لأن تحريم الزواج عليهم من النظم التي ابتدعها البابوات . ومثل ذلك يقال عن نبي بطي المستشرقين لاهداه المتوالى جارتين الى رمون لله يسلي له عليه وسلم ، فقد قالوا بذلك على أساس أن المسيحيين ، ففسلا عن رجال الدين ، لا يجوز لهم أن يعزوا الجوارى أو يتزوجوا بأكثر من واحدة ، وهذه كلها دعاوى لا تقوم على أساس ، لأن المسيحية الأولى لم تحرم تعدد الزوجات ولا اتخاذ الجوارى ، وإنما جاء ذلك في زمن متأخر ، وقد قرره البابوات أيضا . وربما كان في قصة أرمافوسية في

الثالثة ، عندما انشأ الفراعنة منف واتخذوها عاصمة لهم ، وفي نفس الوقت عثر الفراعنة موصفا آخر على الضفة الشرقية ، وهو بلدة أون ، التي عريبها العرب الى عين شمس « ولا زالت قائمة الى اليوم . وإلى جنوب عين شمس ، في مواجهة جزيرة الروضة « قام حسن بابليون ، ورجسح أنه من انشاء المصريين القدماء ، وأل اسم الأصلي من - هابي - ن . أون - *Hi-<sup>1</sup>api-n-on* . وبذهب شتايندورف الى أن هذا الاسم كان يطلق أولا على جزيرة الروضة ، وأن صورته المصححة بر - هابي - ن - *Pa-n* - *Hi-<sup>1</sup>api-n-on* ومعناه جزيرة أون النيلية . وسواء أكانت هذه هي الصورة المصححة للاسم ، أم الصورة الأولى ، فانه تعرف الى بابليون . وقد أنكر ذلك كله بطر ، وذهب الى أن الحصن من انشاء البابليين عندما دخلوا مصر ، وهو منسوب اليهم . أما قول العرب « تفسير الاسم باب - ليون لغير مقبول . وقد خلط المؤرخون والرحالة الأوروبيون في العمود الوسطي بين بابليين وبابل *Babylon* ، فأطلقوا اسم بابليون على القاهرة ، بل على مصر كلها ، فكانوا يقولون سلطان بابليوني ، ويريدون سلطان مصر . أما المصريون فكانوا يطلقون على الحصن تسمية قرية من قولنا قصر التمسح ، والإرجح أنه تعرف للاقلى *Casira Chemi* أي حصن مهر . وقد عمله بعض مؤرخي

الحرب تعليقات شتى ، فذهب الواقدي برواية المقرئى ، الى أن هذا القصر كان « يوجد عليه التمسح في رأس كل شهر ، فيعلم الناس أن الشمس انتقلت من البرج الذي حلت فيه الى برج غيره » .

وصل عمرو الى أول قرية من فسيدي منطقة مصر ، وهي قرية إم دين ، وقد وردت عند يوحنا النقيوس باسم تاندولياس *Tandulias* ، ومكانها اليوم المنطقة التي نقرم بها جامع الخنس - ويسمى انهموم بمسجد أولاد منان - وتصل حدودها الى قطرة الدكة والدرب الإبراهيمي ، وكانت بها حامية صغيرة ، فطلب العرب عليها دون صعوبة وملكوها ، وكان النيل يصل إلى ذلك الى حدود افرية ، وبهذا أصبح في أيديهم موقع حصين على النيل ، فحصنه عمرو وشككه بالرجال ، واجهه نحو حصن بابليون ، وكان مركزا لجيش بزلطى كبح يضم عددا هيبا من الفيلة ، وبه عمرو يحتاجه ، ثم بين أنه لن يستطيع الاستيلاء عليه بن معه من الجند القليل ، فبحث بطلب المدد من حاصر بن الخطاب ، واكفى بالتحصن في إم دين وبالانحام مع البيه لطيف في اشتباكات يسيرة .

ويبدو أن عمرا ومن معه تقوا محسدة كبيرة إذ ذلك ، خان الأزواد في المنطق لم تكفهم ، ولهذا نجده يبعث بفر من جنده في القوارب عبر النيل الى الضفة الغربية حيث ساروا بهداء النيل نحو الجنوب حتى بلغوا

موضع مفيس ، ولم يكن لعمرو من غلبة من وراء ذلك الا الحصول على مدد من الاقوات . وقد اختلط أمر هذه الغارة على بعض قدمي المؤرخين مثل حنا القيقوسي ، الذي زعم ان عمرا أرسل في ذلك الوقت حملة لتتسحح اليوم . ورايه في ذلك بطل ، فذهب الى ان عمرا حاول فتح اليوم في ذلك الحين . وهو قول مستبعد ، لأنه لم يكن قد استولى على حصن بابليون ولم يفض على قوة الروم بمدد والحقيقة ما قلناه وبقرده قول السيوطي : ان عمرا بعد فتح مصر أرسل جراند الغيل الى القرى التي حولها ، وبميت اليوم . — سنه لا يعلم المسلمون شيئا عنها ، وسنرى مصداق ذلك فيما يلي من الكلام .

ورأى عمرو الا بطل مكانه في أم دين حتى يصل المدد . فتقدم بين يديه نحو حصن بابليون وبدأ في حصاره . وكان اروم قد حفروا مدقا حول الحصن واستعدوا استعدادا طيبا ، وسرع الخوفس الى بابليون ليكون على مقربة من الحوادث . وبدأ الحصار في جيلادى الأولى ١٩ هـ / مايو ٦٩٠ م . وتقى المسلمون حناء شديدا ، فقد استهان الروم قوة عددهم حتى قال البلاذري ان عمرا كان « يفرق أصحابه ليرى العدو أنهم أكثر مما هم . فلما انتهى الى الخندق نادوه ان قد رأينا ما صنعت ، ولما ملك من أصحابك كذا وكذا : فلم يخشوا رجل واحد . » وأخذ عمرو يشتد على جسوده

ليخذلوا أقصى ما يستطيعون ، حتى ضلوا ذرعهم وصاح فيه رجل من أهل اليمن : « انا لم نخلق من حجارة أو حديد » فقال عمرو : « اسكت ، فاننا أنت كلب » ، فرد الرجل : « فأنت أمير الكلاب . » وعالج عمرو الموقف بكياسته ، فلم يبق الا اني نجاة الرجل ، وذادى لفرار من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم الذين شهدوا معه الوقائع لستين بهم على استنهاض همم المحاربين .

وعجل عمر بن الخطاب برسائل المدد الى عمرو بن انصاف ، ويبدو انه كان لا يزال يمشى في دفرة عمرو على اتمام الفتح فذاع الزير بين العوام في غلبته أمر الفتح . وقد روى الطبري البلاذري ، وقال ان عمر قال للزبير : يا أبا حبيد لله ، هل لك في ولاية مصر ؟ فقال : « لا حاجة لي فيها ، ولكن اخرج مجاهداً وللسلطان مصافوا » . فان وجبت صراخا قد فتحها ثم اعرس لعله ، وقصبت الى بطن السواحل غرابت هـ ، وان وجدت في جهاد كنت معه . فسار على ذلك .

### موقعة عين شمس ( بابليون ) والاستيلاء على الحصن ٣

وبين المؤرخين خلاف على عمدة المدد الذي أرسله عمر ، فذهب بعضهم الى انه كان أربعة آلاف ، وقال آخرون بل اثنا عشر ألفا . والمهم لدينا انه كان مددا قويا عليه أربعة رجال أشداء هم الزبير بن العوام والقناد بن

عبرو « الأسود » وعبادة بن الصامت ومسلمة  
ابن مخلد ، أو خارجة بن حذافة العدوي .  
وقد وصل هذا المدد في ٩ جمادى الآخرة /  
٦ يرفيو ٦٤٥ م . وبعد وصوله مباشرة دخلت  
مركة حصن بابليون في دورها الحاسم .

ورأى عمرو أن يجهل لهذه الممصرة  
الحاسمة بالتحصل بين الروم والأقباط فصلا  
قاما ، فالتصّل برجلين من زعماء الأقباط هما  
أبو مريم جاثليل مصري رئيس رجال الدين  
من الأقباط - وكان مصاديا للفرس -  
والأسقف أبو مريّة ، ويبدو أنه كان مقدما بين  
رجال الدين ، لأنه حضر في « أهل البيعات »  
في القدس ، وكلمهما كلاما رقيقا ذكر فيه  
وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم  
بالأقباط ، وعرض عليهما الإسلام وقال :  
« نحن أجبنا إليه فخلنا ، ومن لم يجيبنا إليه  
عرطنا عليه الجزية وبذلنا له النية » . وكان  
لكلامه أثر بعيد في نفسيهما ، فمدا عليه ردا  
جسيلا ، وعاد إلى القوقس ليستلمه .  
وعندما علم رجال النخبة البيزنطية بذلك  
تذكروا وأصرروا على القتال ، وتوهم ذلك  
الأرمينيون ، وهو قائد بيزنطي اسمه الأصلي  
« أريوس » Arius كان منكرًا في حرب  
المرء في الشام ، فلما انهزم الروم اتجه إلى  
مصر واشترك في دفاع العرب عنها .  
وكان عمرو قد أعطى مثلي القبط مهمة  
خمس أيام للسرود عليه ، فإذا هو ينتظرهما  
فاجأه الروم بالهجوم ، فكانتهم قتالا شديدا

حتى ردهم إلى الحصن . وثني عمرو أنه  
ما دام الروم وراء الأسوار فإن أمر الحصن  
سيطول ، وأنه لابد من إخراجهم من حصنهم  
ومقاتلتهم في معركة في الفضاء ، وعزل على  
ذلك . وكانت سرايا الروم تخرج بين الحين  
والحين فتجول وتصول في المزارع والبساتين  
الواقعة بين الحصن والمسيك الرئيسي العربي  
في أم دنين ، فقرر أن يهاجم من يفرجون منهم  
هجومًا مدبرًا مرثيا يضطر آخرين منهم إلى  
الخروج . فأرسل تمت جنح الليل كتيبته  
أحدها إلى طريق أم دنين واثانية نحو  
الفرق حيث اختبأت في ثنية من ثنايا جبل  
المقطم . ولخرج الروم على غادتهم في الصباح  
الباكر ، وتقدموا نحو القسطنطينية في اتجاه  
ما يعرف الآن بالنياسة ، فلما توسعوا  
الطريق وصاروا بين البساتين والأديرة قدم  
إليهم عمرو بكتلة من جيشه وانضم معهم ،  
فتجمعوا ككتلة ، فلما حسي انطيس خرجت  
كتبة الجبل من مكنتها وهاجمت مؤطرتهم ،  
فحسبوا أنهم محصروا بين جيشين ، وأسرعوا  
هاربين في اتجاه أم دنين ، فخرج إليهم الكمين  
الثاني ، ووقفوا بين جند المسلمين من كل  
ناحية ، واستمر القتال ووقع بهم القتل ،  
وانهزموا ، وأسرع بقيةهم لحصن الحصن  
لننتقم به ، وانتهى اليوم بنصر حاسم  
للمسلمين تقرر به صير مصر كلها .

وتعمرت القوتة بوقعة عين شمس ، وقد  
ترجمها بغير خطأ باسم موقعة هليوبوليس ،

وهي في الواقع لم تكن في المطرية (عين شمس) وفي موقع هليوبوليس الحالية وإنما على مقربة من حصن بابليون ، فهي أولى بأن تسمى معركة بابليون ، وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخها ، ولكن الأغلب أنها كانت في ١٩ / ١٥ / ١٠٠٠ م ، وقد اشتهر موضع انهزام الروم في الروايات العربية المتأخرة بسجده سمي بسجده المستنقع بناء على الرومى الوزير العاطى بالترلة الكبرى ، واستشهد فيها نحو أربعين ألفاً من المسلمين دلتوا بتقبرة واحدة عرفت بتقبرة الشهداء بموضع يعرف بحجرى النصب قرب رباط الأمير مسعود .

ويذهب بطر إلى أنه لم ينج من جنس الروم إلا الذين خلاصوا الحركة إلا ثلاثمائة ، لاأوا بالحصن وأغلقوا الأبواب ، وقد استولى الذعر على من في الحصن ، فخرج جماعة منهم طارئين بأنفسهم وركبوا النهر إلى قرية قروس ، وعلق عليها بقوله : « على أنه بقيت من الروم فئة لا بأس بها ، اجتمع اليها من كان في الحصن في أثناء القتال ، فصارت منهم جيها مسلحة قوية تستطيع الدفاع عنه . ولكن النصر آفاد العرب طراد جنة ، فغدت أصبحت مدينة مصر في قبضة بلعم بن قنقل ( كذا ) وكانت من قبل يحبسها الجيش الذى في الحصن ، وأصبحوا يملكون نامسية شاطيء النهر من ناحيتي الحصن من أعلاه ومن أسفله » ونقلوا عسكرهم بمعد من

هليوبوليس ( الأصح أم دنين ) فغربوه ثم شمال الحصن وشرقه بين البساتين والكنائس ، وذلك المكان هو الذى صار يعرف بالتبساط فيما بعد . وقد صار جيش العرب بعد ذلك النصر كافياً لحصار بابليون لا يموجه عائق من التضييق عليه بعد أن قضى على جيش الروم ، فلم يبق منه إلا القلول التى لاقت بالحصن أو هامت على وجهها في بلاد مصر السطلى .

بدأ عمرو بعد ذلك مباشرة في الاستعداد لاقتحام الحصن ، ففرق رجاله كغالب لهاجة الحصن من نواحيه كلها ، ونصب عليه متجنيبات يبدو لها لم تكن محكمة الصنع والوضع ، لأنها لم تهم بشيء ذي بال . وكان في الحصن جماعة قوية من الروم ذكر منهم حمنا التبوسى قائد بين حمنا تيوور وأوديلانوس ، وذكر العرب قائداً باسمه اسمه الأخرج أو الأبرج ويسمونه المنفور وهو تعريب لكلمة mandmor وهي مرتبة من الراتب العسكرية في الجبلى البيزنطى ، ويفتد أنه كان حاكم الحصن وإن كان بطر — متابعاً مذهبه للعروفة في حل هذه المتساكنة — يذهب إلى أن المراد به جويرج حاكم اقليم مصر ، وقد ذكره حمنا النقيوس . وكانت في الحصن أيضاً جماعة من جند الاقباط وكبرائهم ، وقد نفى ذلك بطر ، وهو حريص أشد الحرص على نفى كل اشتراك للمصريين في الأعمال العسكرية

الغاصة بفتح مصر ، وهو حرص لا معنى له ،  
 إذ أن من الثابت أن فرقا كثيرة من الجيش  
 البيزنطي في مصر كانت من الإقباط . نعم انهم  
 مالوا الى الحياذ بعد سقوط الفرما ، وانضموا  
 الى المسلمين علانية بمسد ستول حصن  
 بابليون ، ولكن ليس معنى ذلك أنهم  
 لم يكونوا موجودين في الحصن في ذلك  
 الحين . وكانت في الحصن ذخيرة طيبة من  
 الزاد والسلاح من كل نوع ، وقد لجأ اليه  
 جمع عظيم من غير الجند من أهل منطقة  
 مصر والديرة المجاورة للاحتشاء بأسواره .  
 ويقال ان المقوقس كان بداخله اذ ذاك ، وهو  
 قول لا نستطيع فيه أو تأكيده : وعلى أي  
 الأحوال فانه لما اشتد حصار العرب للحصن  
 وتناهم لن فيه ، نعى المقوقس وجماعة من  
 أكابر القبط وخرجوا من باب الحصن  
 الجنوبي وعبروا الى جزيرة الروضة وقطعوا  
 الجسر الذي يصلها بالحصن حتى لا يصل  
 اليهم أحد . وبعد قليل خاف الأميرج وتسر  
 معن معه ، فهربوا الى جزيرة الروضة لاختين  
 بالمقوقس ومن معه .

#### معاهدة بابليون :

وفي أثناء المفاوضات تمسك العرب من  
 الاستيلاء على الحصن ، وقد تولى كثير ذلك  
 الربيع بن العرام في آخر شويل . ويبدو أن  
 المسلمين لم يقتصره اقتناعا كما تنذهب اليه  
 الروايات ، لأن المحاصرين فيه لم ينزلوا  
 الا على شروط ، وقد أسرف الرواة في  
 الحديث من تلك الشروط حتى جعلوا حديثها  
 أقرب الى الخيال ، ولكننا نأخذ بالمقول  
 المقبول ونقول انهم سلموا الحصن متصايل  
 عشرين ألف دينار ومتصايل من الأرواح  
 والملابس . وقد زخر الضرب بعد ذلك على  
 أيدي الرواة ، فصاغوه منسوبا الى عبد الله  
 ابن عمرو بن العاص فوجعلوه في صيغة عقبة  
 فيها شيء على الأرض وعلى . على الروموس ،  
 وكل هذه زيادات جدت فيما بعد ، فجاد  
 سبكا الفقهاء لكي ينغذها الحكام أساسا في  
 تقدير جسياسة مصر وليست من الحقيقة

بهذا كان أمر الحصن ، وأصبح الاستيلاء  
 عليه مسألة وقت ، وانتقل مركز الثقل الى  
 جزيرة الروضة ، ورأى المقوقس أن الطرف  
 لا يحتمل طول الانتظار فبدأ الاتصال  
 بالعرب ، وأرسل الي عمرو يطلب المفاوضات ،  
 فأرسل اليه عشرة رجال فيهم عبادة بن  
 العاصم ، وهو الذي تولى الكلام . وقد

التاريخية في شيء . وتسلم القرب الحصص  
وخرج من فيه ، وأصبح من ذلك الحين حصنا  
اسلاميا .

وفد وجد المقوقس في سقوط الحصن  
ما يقوى وجهة نظره ، فأخذ يحض من معه  
على ضرورة التسليم والاذعان للجبرية ،  
حتى قبلوا رأيه وتصلح التوفيق . ولم يكن  
المقوقس مثالا للامبراطور البيزنطي ، ولهذا  
فقد لخص في ملهدة الصلح على أن الأمر  
خاص بأهل مصر أو الأقباط ، وفد أورد ابي  
عبد الحكيم وغيره لخص الملاحظة ، وسنوده  
ليسا إلى لأهنية مقسما إلى فقرات يصب  
موضوع كل فقرة ، حتى نستطيع الرجوع  
إليها فيما يلي من البحث .

١ - بسم الله الرحمن الرحيم . هذا  
ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان  
على أنفسهم ومثلهم وأموالهم وكنازلهم  
وسلبيهم وديارهم وبحرهم .

٢ - لا يدخل صلح عليهم شيء من ذلك  
ولا ينتقص .

٣ - ولا يساكنهم النوب ( أي أهل  
النوبة ) .

٤ - وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية  
إذا اجتمعوا على هذا الصلح واتمت زيادة  
نهرهم خمسين ألف ألف ( دون تحديد  
والأغلب أن المراد درهم ، وسنترد مناقشة  
ذلك ) .

٥ - وعليهم ما جنى لصنوتهم ( أي  
لصوصهم ) .

٦ - فإن أبي أحد متم أن يجب ( يريد  
إلى الصلح ) دفع ( أي خفف ) عنهم قدر  
ذلك .

٧ - ومن دخل في صلحهم من الروم  
والنوب غلبه مثل ما لهم وعليه ما عليهم .

٨ - ومن أبي واختار الفهاب فهو آمن  
حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا .

٩ - عليهم ما عليهم أثلاثا ، في كل ثلث  
جباية لث ما عليهم .

١٠ - على ما في هذا الكتاب عهد الله  
وذمته ودمه رسوله وفعة الخليفة أصغر  
المؤمنين وقسم المؤمنين .

١١ - وعلى النوبة الذين استجابوا أن  
يعينوا بكذا وكذا رأسا وكذا وكذا فرسا  
على ألا يشترطوا ولا يستنعموا من تجارة صافرة  
ولا واردة .

١٢ - شهد الزبير وعبد الله ومحمد أبناء  
وكتب وردان وحضر .

ونصوص هذا العهد واضحة لا تحتاج  
إلى مزيد من البيان ، وهي في ذاتها تلد  
ما قلناه من أن المقوقس كان من أقباط مصر ،  
وأنة كان يتكلم باسم مواشي ، ولو أنه كان  
قيصر عامل هرقل لما عقد الصلح عن أهل  
مصر دون سواهم من الروم ، إلا من قبل من  
هؤلاء الآخرين الذين في ذلك الصلح .  
وبعضنا أيضا ملاحظة أنه صالح عن تبعه من

القبلى والبحرى » غلبت حملات الى  
عين شمس وتبى وديماط وثونة ( اندثرت  
اليوم ومكانها جزيرة بحيرة المنزلة تسمى  
كوم ابن سلام ، شرقى مطرية المنزلة )  
ودميرة ( حاليا قرية بمر كلفنا ، مديرية  
الغربية ) وشطا ( من ضواحي ديماط على  
« كيل مترات منها ) ودقهلة وبسا ( اليوم  
بنا أبو صير مركز سنود مديرية الغربية )  
وبوسير ( اليوم أبو صير بنا ، مركز سنود ،  
غربية ) والبشردات ( اقليم كان يقضى  
الدلتا حول بحيرة البرس ) ثم الى الفيوم  
والاشمونين واخميم وغيرها من بلاد صحيد  
مصر « فاستجمع سرور بن العاص فتح مصر ،  
اصارت أرضها أرض خراج « كما يفصلون  
البلادى . وكان أهل هذه النواحي يدخلون  
على شروط الصلح الذى قلده الفوقس ،  
فراحت مصادير الجبسية ، مما جعل عمرا  
يقرر النظر الى أمرها جملة بمسد فتح  
الاسكندرية .

وبعد أن فتح الفيوم كان أنسبه  
بالمغامرة ، لأن المسلمين لم يفتحوا أول الأمر  
الا الى قرية تتفرقة الى الشمال من قراها  
تسمى المهنسا ( زالت اليوم وفي اسمها  
عنى عوضى المهنسا ثم المهنس بناحية قلمشا ،  
الفيوم ) ، اما الاستيلاء على ناحية الفيوم  
فلم يتم الا بعد ذلك بنحو عام « وتذهب  
الروايات الى أن أمرها ظل مجهولا للمرب  
حتى داهم رجل عليها وعلى الطريق اليها ، وقد

أهل مصر ، لأن نواحي أخرى كانت لم تخضع  
بعد ، فهو غير مكلف بإداه القرية عنها ،  
واذا ثارت ناحية على العرب وقطعت أموالها  
خفف مقدار القرية بقدر ما يخص هذه  
الناحية ( فقرة ٦ ) ، لأن أهل مصر غير مكلفين  
بإخضاع نواحيهم للمرب ، وعلى عكس ذلك  
كانوا مسترلين ، عن الأمن في نواحيهم ، ولهذا  
فعلهم ما جنى لصوبهم ( فقرة ٨ ) ، وواضح  
من الفقرة العادية عشرة أن لغزا من أهل  
النوبة استجابوا لهذا الصلح « فغرضت عليهم  
طرية من الماشية والغنم .

وقد ذهب بطر الى أن هذا الصلح  
خاص بأهل منطقة مصر وحدها ولم يكن  
صلحا عاما عن أهل مصر ، واعتمد على ذلك  
على حجج أهمها قلة قدر الجزية التى تنزرت  
( « مليون درهم ، وهى ٣ مليون دينار )  
وخلل بين معاهدة الصلح هذه وشروط تسليم  
حصن يابلون . وغاب عنه أن مبلغ الجزية  
الذى تنزرت في الصلح كان قدبرا مدنيا ،  
وسداد التدبير بعد تمام فتح مصر كلها على  
ما سنراه .

#### استكمال فتح النواحي البحرية والصحية والفيوم

وبقى للروم بعد ذلك مقتل آخر هو  
الاسكندرية ، وكان لابد من فتحها حتى يتم  
خلاص البلاد من الروم ، ولكن عمرا رأى أن  
يشكل افتتاح ما يستطیع الوصول اليه من  
نواحي مصر قبل أن يخرج الى الاسكندرية ،  
فبعث جرابا سرية الى نواحي الوجهين



كتب في قصصها كتاب قصص خاص يسمى  
 « فتوح اليهنسا » . وذهب يوحنا القتيبي  
 الى أن العرب عندما دخلوا اليهنسا قتلوا  
 كل من وجدوه فيها من رجال ونسوة وأطفال  
 وكذلك فعلوا عند دخولهم قتيوس ، وكلا  
 اللذين مستبعدان ، إذ لماذا يختص العربي  
 هذين البلدين بهذه المعاملة دون بقية بلاد  
 القبط ؟ ولا يفرج الأمر هنا عن كونه إحدى  
 القرعات الكثيرة التي حلا بها هذا الرعب  
 كتابه .

**فتح الإسكندرية :**

ولم يفتح عمرو وقتنا ، بل أتبعه عمرو  
 الاسكندرية رأسا . وللمرة الأولى يرى القبط  
 الى جباب الحرب صراحة ، وذلك نتيجة  
 شعبة لمساعدة الصليح ، فيقول ابن  
 عبد الحكم عن عثمان بن صالح : « وخرج  
 معه جماعة من رؤساء القبط ، وفد أصبلخوا  
 لهم الطريق وأقاموا لهم البصور والأسواق ،  
 وصارت لهم القبط أحوالا على ما أرادوا من  
 قتال الروم ، وسحب بذلك الروم فاستسلم  
 واستجابت ، وقدمت عليهم مراكب كبيرة  
 من أرض الروم ، فيها جمع من الروم عظيم  
 بالعدد والسلاح » . ولم يلق المسلمون  
 طريقتهم أبدا من الروم الا عند ترونت ( حاليا  
 القرافة مركز كوم حمادة ، مديرية البحيرة ) .  
 وكانت بها قرعة يسير النيل عندها في الذهب  
 الى الاسكندرية ، وقد لقي المسلمون بها  
 حامية رومية صغيرة الهزمت أمامهم .

ثم نزل عمرو بنقيوس ، وكانت بها حامية  
 رومية يقودها قائد يسمى دومتيانوس تحت  
 يده سفن كثيرة في النيل ، فلما رأى العرب  
 ترك سفنه ومعداته وفر هاربا مع نفر من جنده  
 الى الاسكندرية ، فأرسل عمرو في أثره سرية  
 يقودها شريك بن سبي المرادي ، فأدركهم  
 عند كوم شريك ( مركز كوم حمادة ، بحيرة )  
 وكانوا أكثر من المسلمين عددا فأحاطوا بهم ،  
 فأرسل شريك يستنجد بعمرو ، لأجبهه ،  
 وراجع الروم حتى سكتطيس ( الهرم )  
 سيطس على حصة كيلو مترات جنوبي  
 دمنهور ) لالتقوا عندها وانهم الروم ،  
 وتقدموا حتى وقفوا عند الكريون ( قرب  
 معمل القزاز ، مركز كفر النوار بحيرة )  
 وكانت مضاجع الطريق الى الاسكندرية . وكان  
 فيها حصن منيع شمالي التربة الذاهبة الى  
 الاسكندرية ، وكان القائل بيودور قد تحصن  
 بها وبعث يطلب التجديد ، فأثته من مواضع  
 ملئ الخيئس ( مكانها الآن قرية ثم حكيمة ،  
 مركز شبراخيت ، بحيرة ) وسطا ( مركز  
 كفر الشيخ ) وبليب . واستمر القتال  
 بضعة عشر يوما ، ثم انسحب الروم وتجمع  
 المسلمون حتى بلغوا غط الحصون الذي  
 يعض الاسكندرية فحرقوها نبله .

ونزل المسلمون ما بين حلوة الى قصر  
 فارس الى ما وراء ذلك ومعهم رؤساء  
 القبط ، بدوهم بما احتاجوا اليه من الأطعمة  
 والعلوفة ، فأقاموا شهرين . وقد استعد

الذين دكروا البحر بذلك ، فدادوا الى الاسكندرية ودخلوها ناقضين العهد ، فقاتلهم المسلمون قتالا عنيفا حتى استولوا على البلد مرة ثانية . ورأى عمرو أن ذلك يبيح له اعتبار البلد قد فتح بمنزلة بغير عقد ولا عهد ، فبعث الى عمر يستأذنه أن يذهبها وأهلها غلبة للمسلمين ، فأبى عمر وأمره بأن يجرى عليها الشرط الأول . وأصرح فبرس الى القسطنطينية ليحصل على تمويش بقبول الصلح ، وعاد بالموافقة واشترط المحافظة على الكنائس وعدم التدخل في الشؤون المدنية للأهالي والسماح للبصود بالاقامة في الاسكندرية ، وأن يبقى العرب أحمد عشر شهرا خارج المدينة حتى يتم جلاء الروم عنها ، وقد قبل عمرو ذلك كله وتم الصلح أوائل ذي القعدة ٢٥ هـ / أوائل نوفمبر ٦٤٦ م ، وأبحر الروم من الاسكندرية في ١٦ شوال ٢٦ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٦ . وكان فبرس قد مات خلال مهلة الأحد عشر شهرا ، في ٢١ مارس ٦٤٦ .

بذلك تم فتح مصر كلها في نحو سنتين وأربعة أشهر ، ولقد وصل عمرو بن العاص الحريش في ١٥ ذي الحجة ١٨ هـ / ١٦ ديسمبر ٦٣٩ . وبارح الاسكندرية آخر جنده بيزنطي في ١٦ شوال ٢٦ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٦ . وضم العرب الى اميرالمؤمنين الناشئة هذا القصر المصري الذي كان أغني وأنعم ما ملكته دولة البيزنطيين ، ووضع العرب قلعا ثابتة

الروم في الاسكندرية استعدادا عظيما ، وأتمم هرقل للأمر حتى قيل أنه استعد للمغاب اليها للمخاع عنها بنفسه لولا أن حال الموت دونه وذلك . وقد عقال وقوف عمرو أمام الاسكندرية ، وكان بطمه رجلا وانر البشامة لا يلبس الى السككون ، فقتل بعض جنده في مراكبا انضمت بعضي فواح من شمال غرب الدلتا والقيم البحرية ، ثم عاد فهدد الهجوم على الاسكندرية حتى طلب المدافعون عنها التسليم مقابل الجزية ورد من مصر أن يكون العرب قد سبواهم من أهلها . ولم يستطع عمرو إجابتهم الى ما طلبوه الا بالذل من الخليفة عمر ، لأن حكم البلد الذي يستولي عليه يصد هذا القتال الصنف هو حكم الفتوة ، لئلا حين أن المدافعين عن الاسكندرية طلبوا معاملة الصلح ، فكتب عمرو الى عمر بالأمر ، فوافق على اجابة المطلب ، ودخل العرب الاسكندرية بصد نحو ثلاثة أشهر من القتال والحصار .

وقد روى ابن عبد الحكم خير الفتح عن رجل من حضروه هو زياد بن جسر الزبيدي . ولم يكن أحد يتصور أن مدينة كالاسكندرية تسقط بحد هذا الوقت القصير ، ولكن هكذا بلغ ضيق الروم واضطراب أمرهم ، وهكذا بلغت قوة العرب وعلو نجمهم . وقد أصرح عمرو بعد دخول الاسكندرية فأرسل جزءا كبيرا من جيشه ليتبع فلول من هرب منها من الروم ، وأحسن

افريقية مكنت لهم غلباً بعد من السيطرة على  
الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ،  
ومن الاسترسال مع الفتح حتى استولوا على  
المغرب كله والأندلس ، وسيطروا بذلك على  
الحوض الغربي كذلك البحر وتمهد السبيل  
لتحويله الى بحيرة عربية . وامتدت حدود  
المشرق حتى وصلت الى المحيط الأطلسي بل  
الى جبال اليرث المعروفة بالبرانس ، وافتتحت  
أسماء المسلمين الطرقي الى قلب القارة  
الافريقية ، فلم يكن فتح من فتوح الاسلام  
"عظم أهمية ولا أبعد أثراً في تاريخه من فتح  
مصر . ولا يتسع المجال هنا لعرض النتائج  
البعيدة المدى لهذا الفتح " فليس أغبر من أن  
تبين ونوضح ، وسنرى بعض النتائج عما يلي  
من دواستنا .

#### مصر جزء من النبوة الإسلامية

تصور المؤرخون أن يملؤوا أن مصر  
أصبحت بعد تمام الفتح ولاية من ولايات

(١) أصول : آل جانب ، سرح مصر والمغرب  
والأندلس . لابن عبد الحكم ، و . كتاب الولايات  
والنضاة ، للكندي ، و . خطط ، المقرئ ،  
طبعة القاهرة ١٣٣٩ هـ ١ و ٢ ، والطبري وابن  
الأثير وبلية التراجع التي ذكرناها في الفقرة  
السابقة ، انظر :

المقرئ : العطاء العلفا ، طبعة الدكتور  
جمال الدين الشيماء ، القاهرة ١٩٥٨ .

ـ : تملوك لمرة دول الملوكة ، طبعة  
الدكتور محمد مصطفى زيادة . الجزء الأول ،  
اقسام ١ و ٢ و ٣ .

ـ . تاريخ الخط ، طبعة نشرعبي  
قسنغله في جوتجن سنة ١٨٤٥ .

أبو المعاسين بن توري يروي . النجوم  
الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١ و ٢ ،  
القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٣٠ .

ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز  
المسماة . ٨ أجزاء ، القاهرة ١٢٢٣ - ١٢٣٥  
مؤلف عمرو بن المسلم وعبد الله بن أبي مروح  
ومطوية ابن أبي مصلحان ومطوية بن حبيب ،  
ابن قتيبة : كتاب الاختصار لوائحه طه  
الأصهار ، ١ و ٢ ، ١ و ٢ ، ١٣٠٦ .

لدانة بن جعفر : ليد من كتاب الجراح  
وصحة الكتابة ، ج ٦ من مكتبة الجفرافية ،  
لبن ١٨٨٩ .

الفتشي : مبع الأعيان في صناعات  
الأمم ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٩ في ١٤ جزء  
يعني بن آدم القرشي : كتاب الجراح ، لبنان  
١٨٦٥ - ١٨٦٦ .

أبو يوسف القاضي : كتاب الجراح ، بولاق  
١٣٠٢ .

يعني الأطاكي : كتاب التاريخ ، طبعة  
لويس شستو ، بيروت ١٩١٩ .

ابن الملايس : ذيل تاريخ حقيق ، لبنان  
١٩٠٨ .

ابن صبيد : المغرب ، الجزء الخامس بمصر ،  
طبعة المكتبة زكي حسن رشوقي صبيد  
وسيدة اسماعيل الكانكف ، القاهرة ١٩٥٣ ،  
ابن فضل الله المصري : مسائل الأخصار  
في مسائل الأخصار ، جزء واحد مصر في دار  
الكتاب سنة ١٩٢١ .

ابن الجيعان : الحظوة السنية في أسماء  
دبلاد المصرية ، القاهرة ١٨٩٨ .

الاسحقى : لطائف أخبار الأول فيمن  
تصرف في مصر من أبواب الملوك ، القاهرة  
١٣٢٨ .

السيوطي : حسن المعاصرة ، القاهرة  
١٣٢١ .

أحمد أمين : فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٢٨ .  
وشفي الإسلام ، ج ١ ، القاهرة ١٩٢٦ .

الدكتور محمد كامل حسين : أدب عصر  
الاستعمارية - عصر الولاة ، الطبعة الثانية ،  
القاهرة ، بدون تاريخ .

احمد فكري : عصر بني عبد الإسلام ،  
القاهرة ١٩٤١ .

الدكتور عبد الرحمن هني : صنع النكبة ،  
القاهرة ١٩٥٨ .

Carl Heinrich Doering : *Entwurf zur Geschichtlichen Ägyptologie unter dem Islam*, Leipzig, 1903.

— *Ägypten, Egypte et le Caire, Hergelographie de l'Égypte*

— : *Palästinatexte*, a Bonn, Leipzig, 1914.

HEB von Dorchow : *Die papyrische Schrift und die Papyri ferner aus der griechischen Welt*, Göttingen, 1916.

— *Revue nouvelle* : *Histoire de l'Égypte*, *Journal Asiatique*, 68 série, tome IX, Paris, Janvier, Février, 1901.

Boscher, Mrs. F.L. : *The Story of the Church of Egypt*, London, 1899.

Bruck Froben : *Kairo*, Leipzig, 1903.

Reichsmayer : *Beschreibung Ägyptens im Mittelalter aus dem geographischen Werke des Araber*, Leipzig, 1903.

Becker : *Papyri Schott Schabert*, Kallenberg, 1906.

Chabas : *Étude de l'écriture hiéroglyphique de la ville d'Uf-Fayoum ou Mûr dans le Mémoires de l'Institut Fr. d'Arch. Orientale*, vol. XXXV, Le Caire, 1911-1919.

Wachsmuth : *Die Stummheit von Ägypten aus dem des Chasidim*, Göttingen, 1873-1877.

مجموعات أوراق بردية ووثائق نخرها  
Göttingen في مجموعات معهد الفونسي بالقاهرة  
سنة ١٩٠٩ ، مجلد ٢٢

HEB von Dorchow : *Ägyptische Papyri aus dem Museum des Kaiserlich-Orientischen Museums*, tome 1, Le Caire 1894-1903.

وقد نشر المجلة الثاني جاستون في  
مصلحة

Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, vol. LII, Le Caire, 1914-1916.

Adolf Urkhan : *Ägyptische Papyri*, Berlin, 1903-1904.

Philae, *Ägyptische Papyri in das Ägyptische Museum*, a Museum, in 1904-1905.

وقد ترجم الحزين الأول والثاني الدكتور  
حسين إبراهيم حسين ، القاهرة ١٩٣٥ و ١٩٤٠ .  
ونشرت أيضا أربع منشورات للاستكمال جوامع  
مترجمة إلى العربية بقلم فريق استكثاري ،  
القاهرة ١٩٣١

Carl Heinrich Doering : *Ägyptische Studien*, in *Lebanon Ägyptenmuseum* (des Schott) Band II, 1911).

Reichsmayer : *Ägyptische Papyri*, Berlin, 1903-1904.

HEB von Dorchow : *Ägyptische Papyri in das Reich Museum* (Der Islam, Bonn II, III, IV, XVII, 1911-1912-1913-1914).

WILH. OSMAN : *Coptic Grammar*, London 1911.  
Götting 1894 et autres : *Ägyptische Papyri*, *Ägyptische Papyri*, 1903-1904.

## أبحاث ودراسات :

الدكتورة سيدة اسماعيل الكانسي : مصر  
في فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٤٧ . وهو أهم  
بحث في الموضوع .

الاسلام . أي ان دولة الاسلام ليست دولة جنس ولا قطر بعينهما ، فدخل مصر أو غيرها من النواحي في طاعة الاسلام لم يكن معناه أنها أصبحت ولاية خاضعة يحكمها جنس غالب أو بلد له السيادة كما كان الحال مع الامبراطوريات المسيحية في التاريخ ، وإنما كان معناه أنها أصبحت جزءا من هذه الدولة العامة ، بل أصبحت قاعدتها لامتدادات جديده لدولة الاسلام .

ومن مصر فتح المغرب كله ، وأصبح المغرب بدوره جزءا من الدولة العامة ، وقام أهله بضم قطر جديد الى الدولة العامة التي أصبحوا مواطنين فيها ولهم جملة أصحابها ، ففتحوا الأندلس ، أو قاموا بأعظم جانب من هذا الفتح ، ومثل هذا حدث في المشرق ، فتح العرب العراق ، ثم اشترك أهل العراق مع العرب في ادخال ايران في دولة الاسلام ، ثم اشترك العرب والفرقيون والايديون في فتح ما وراء النهر واخذوا يدخلون الامراك وبلادهم في دولة الاسلام ، ثم قام الامراك بترسيخ لطان الدولة لهما بلهم شرقا حتى وصلوا إلى الهند . ولوالد هذه الأجناد كلها على قيادة أمور الدولة الإسلامية العامة . كلما ومن جنس من أجناسها نفخ بالأمر من يملع جنس آخر ، حتى صارت أمورها العامة آخر الأمر إلى الامراك العشائين . وإلى هذه الطبقة الخاصة بدولة الاسلام ترجع الجبوية المنصبة التي ميزتها على غيرها من دول العالمين

الدولة الإسلامية . وهذا القول يخالف الواقع بعض الشيء ، وأقل ما يفهم منه أنه كانت هناك دولة رئيسية مركزية كالدولة الرومانية مثلا ، تعتمد على شعب ممتاز حاكم كالنخب الروماني . والحققة فيما يتصل بدولة الاسلام تخالف ذلك ، فلم تكن هناك ، من الجهة النظرية الإسلامية ، دولة رئيسية تقوم على شعب ممتاز حاكم ، بلخضعت له ولايات تعيش لهما شعوب مقهورة مغلوبة على أمرها ، وإنما العنقبة فيما يتصل بالدولة الإسلامية أنها كانت دولة عامة يقوم بشرائها المسطون عامة لا يفرق بينهم في الحقوق والواجبات جنس أو مكان ، فكل مواطن مسلم في هذه الدولة بعد من أصحابها وله الحق في ولاية وطاقاتها العامة وقيادة جيوشها والامتناء لوضع التشريع الخاص بها . ومن عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تولى المسلمون من غير العرب وطاقات عامة ، وابتداء من عصر الراشدين اشتركوا في التشريع والتشريع ، وخلال العصر الأموي قادوا الجيوش وتولوا الولايات ، وخلال العصر العباسي ثلاثت مسألة المسلمون ثلاثيا دائما ، وأصبحت الدولة بالمرس دولة عامة للمسلمين عامة . كذلك انتقل مركز الدولة من جزيرة العرب إلى الشام ثم إلى العراق ، والمروء أنهما ولايات ، ومع ذلك لم ينكر أحد ذلك الانتقال ، ونظر إليه الناس بقرتهم إلى شيء عادي لا يتعارض مع طبيعة دولة

القديم والوسيط . وربما شابهتها من بعض  
الرجوه الدولة البيزنطية ، التي يرجع طول  
صمرها الى أنها كانت في الواقع دولة عامة  
بتولي أمورها الزكاة أو الإمبر من أهلها ،  
وتتالف جيوشها من التتواريين وبطل آسية  
المشرى والأرمين وأهل البلقان إلى الأتراك  
على السواء .

غير أنه في دولة مترابطة مترسطة دائما  
كالدولة الإسلامية تسوطن أراضيها شعوب  
قبيلى لم يغل الأمر من شعب قوى وشعب  
ضعيف ، أو شعب يكون قويا حينما ضجها  
حينما ومن ثم فقد غلبت في داخلها شعوب  
على شعوب وخضعت بلاد لبلاد ، حوذ أن  
يكون معنى ذلك أن الشعب الغالب أصبح  
صاحب الدولة وأن الشعب المغلوب قد  
أصبح رعية محكومة مستتلة ، كما كان أمر  
مصر مع الرومان مثلا ، فقد كان من المفروض  
والمقرر *De jure et de facto* أنها ولاية  
تابعة لروما أو القسطنطينية . فإذا كان  
المصريون مثلا قد غلبوا على أمرهم في بعض  
عصور التاريخ الإسلامي واعتبرت بلادهم  
ولاية خاصة بغيرها ، فمعنى ذلك أنهم  
لم يستطعوا المحافظة على حقوقهم ، وعندما  
استحوى أمرهم بعد ذلك غلبسوا غيرهم  
واستقلوا ببلادهم بل ضبوا اليهم غيرهم .  
والحجاز الذي كان المفروض أن يظل ميد  
الدولة كان أقل بلادها حظا في الرئاسة  
والقيادة على طول تاريخ الإسلام وعرضه .

كذلك لم يغل الأمر في هذه الدولة الإسلامية  
الواسعة من سوء إدارة أو غلب أو فساد  
سياسة ، وما الى ذلك من المساويء التي  
لا تخلو منها دولة من الدول ، ومرد ذلك  
دائما الى صعوبة الحكم في داته والى تعدد  
المشاكل وعمرها والى عجز الحكام عن إيجاد  
الحلول الصالحة ، وذلك أمر لا علاقة له بدولة  
الإسلام في ذاتها ، بل هو مشكلة انسانية  
خالصة تلمس منها بعض شعوب الإسلام كما  
تلمس منها غيرها .

هذه مقدمة لا بد منها قبل النظر في  
شؤون مصر بعد دخولها دولة الإسلام ، فهي  
لم تصبح ولاية عربية أو ولاية إسلامية ، بل  
جزءا من دولة الإسلام يجرى عليها وعلى  
أهلها ما يجرى على الوطن الإسلامي الكبير  
وأهله جميعا ، ويكنى أن نقول أن بلاد المغرب  
وهم الجنس الذي تنسب اليه الدولة كلها ،  
كانت أسوا حالا من مصر أو غيرها من أجزاء  
الدولة الإسلامية بحسب لال مصر الأموى  
وما تلاه ، لا لأن شعبا كان شعبا مغلوبا  
أو مستضعفا ، بل لأن طبيعة القليم الحجاز  
لم تساعد أهله على الصمود لى رحمة الصراع  
الدويل الذي لم يحد تبارك قط على طول  
تاريخ الإسلام . ولم يشعر شعب مصر بعد  
دخوله في دولة الإسلام بأنه شعب مهفوف ،  
ولم يكن موقعه من العرب موقف مغلوب من  
غالب كما يقول نصر من الأوروبيين الذين  
أرخوا عصر الإسلامية ( مثلا يقول جاستون

ليث : Les vainqueurs et les vaincus )  
 بل اننا اذا نظرنا الى الامر مليا استظلمنا ان  
 نقول انهم كانوا — بموقعهم الى جانب العرب  
 اتقاء الفتح — في جملة الغالين ، وهناك عبارة  
 مشهورة لمخالفيل السورى يقول فيها : وانه  
 ليس بالكسب اليسير اننا نخلصنا من قسوة  
 الرومان وشرهم وسخطهم وعصبيتهم العاسية  
 علينا ، ووجدنا انفسنا بذلك في راحة ،  
 وليس هذا كلام رجل يسمّر ان قومه قد غلبوا  
 على امرهم .

على اى الاحوال امسبح المصريون  
 — سواء من اسلم منهم ومن لم يسلم —  
 جزءا من اهل الوطن الاسلامى الكبير ، يجرى  
 حايهم ما يجرى على غيرهم من احكامه  
 وفروقه وتقلب الاحوال به ، فرغبت حياتهم  
 واحضاروا بقية خلافة مصر بن الخطاب والنصب  
 الاول من خلافة عثمان بن عفان ، شأنهم  
 فى ذلك شأن بقية اهل دولة الاسلام ، فلما  
 نشبت أزمة عثمان وتحركت امنه اشتبك  
 اهل مصر لباها وقاموا بدور معروف ،  
 وشاركوا ايضا فى النزاع بين علي ومعاوية ،  
 وكان لهم شأن فى النزاع بين الامويين  
 والزيديين ، بل فترت اسم مصر بالصراع  
 الثمالي بين الامويين والعباسيين ، شئ ان  
 تاريخ مصر خلال هذه الفترة يتر جزءا من  
 تاريخ دولة الاسلام كلها . وهذا فانه يصر  
 ان فكتب لها تاريخا مستقلا من الفتح الى  
 نهاية الدولة الاموية على الاقل .

وبعنا ان نلاحظ هنا امرا كان له ابعده  
 الاثر فى تحديد الدور الذى قامت به مصر فى  
 تاريخ مصر الذى تحدث عنه هنا وما نلاه  
 من عصور ، وهو ان مصر بطبيعتها بلد غنى  
 بقوم غناه على مورد ثابت هو الأرض ، وان  
 شعبها شعب دهب خبير باستغلال اوقهيه  
 وما فيها من موارد الخير الأخرى ، وهو الى  
 جانب ذلك فروع سالم يعيل الى الحياة  
 المستقرة الثابتة . وقد نظم هذا الشعب اموره  
 على نحو ثابت منذ الزمن القديم ، ومن لم  
 قام تكن هناك فى المصور الوسطى مشاكل  
 متمصبة أو طائفة كائنى تفرس لها البلاد  
 ذات الطبيعة الجبلية الوعرة ، أو التى يقتصد  
 أهلها على مطر غير مستظم أو على تجارات  
 رالحة عادية فى البر والبحر ، وما الى ذلك من  
 وجود امشاش المرتبط بالظروف الطبيعية  
 أو العامة . وكل ما تحتاج اليه مصر من  
 حاكمها فى سياسة امورها الداخلية هو ان  
 يكون قادرا على ان يقر الأمن فى ربوع البلاد  
 عادلا فى احكامه وقيما يجهن من اموالها ،  
 ولهذا كان الناس يسمون من الحكم فى العصر  
 الشرقى « بالبطط والريط » أى ضبط الأمن  
 ووطب الاموال . كما ، ما عدا ذلك من الأمور  
 كالتنظيم وتمهد المرافق لمن شؤون سكان  
 مصر أنفسهم ، تعلموا كيف يرتبونها على مر  
 العصور . وكل ما تعرضت له مصر خلال  
 تاريخها من الازمات والمناعب كان مبيه عجز  
 الحكام أو جنسهم أو تدخلهم فى شؤون  
 الناس تدخلا مضعا .

المصريون بصفة عامة من تقبل ضرائب أو مسميات حكما . والفترة الثانية فترة قتل سياسة وفوضى ادولية تهمر فيها مدد الحكام ويناقبون فيها على السيلاد واحدا في اثر واحد ، ويفقد الكثيرون من كبار العمال الهبة وثمة الناس ، وتملأ مبالغ الجبايات ويشكو المصريون الظلم ويكثر ثوراتهم وتعرض امور البلاد كلها للسب . وهذا الاختلاف بين القترتين الماحو سدى للتطور الصام الذي شل الدولة الاسلامية كلها خلال هذين المصريين .

#### الادوية :

وليداً بالفترة الاولى : اقتصر الجصاص الاداري الذي اشتهاء العرب لمصر على وال يعتبر حاكماً عاماً وممثلاً للخليفة وينتخب في اختصاصه كل شيء بصورة مبدئية . فهو الحاكم الاداري الاعلى وامير الصلاة والقائد العسكري والمسئول عن شؤون المال وما الى ذلك الا القضاء ، فتمسك اعتبرته الدولة الاسلامية من اول الامر وظيفة رفيعة القدر يقتضى صلاحها ان يكون ملغاً مساجها مستقدا من الرئيس الاعلى للدولة بمبادرة . وكان الوالي يسمى ايضا السامى أو الأمير أو أمير الصلاة أو أمير الجند ، وتسمى الوثائق البردية انيونايبة سيمبولوس . وتمسك يهرد الخليفة لبعض اختصاصات الوالي موقفا خاصا عينه من عنده ، ويظهر هذا بصورة خاصة في الناحية

لهذا لم تتطلب مصر من العرب ان يضعوا لها نظاما جديدا ، بل الاكتفاء برعاية النظام التقليدى . ولم يكن الرومان أو البيزنطيون من بعدهم قد اقلعوا في حكم مصر ، لانهم اعتبروها موردا للضلال واقلعوها بالمطالب والموظفين المكلفين بصنع المال ، ثم اضافوا الى ذلك التدخل في شؤون العبيدة . وقد تلاقى العرب ذلك كله من اول الامر ، فثروا على البلاد بالاعاق مع أهلها قدرا مهيما من الجباية واختصروا الجهاز الاداري الى أبسط حد ممكن ، وتركوا الناس أحرارا في عقائدهم ، فكان من الطبيعي ان يعود الرخاء والاستقرار .

#### الفترتان الاموية والعباسية :

وينبى ان ترقى عند دراستنا لأحوال مصر — منذ الفتح العربي الى قيام دولة أحمد بن طولون عام ٦٥٤ / ١٢١٨ — بين قترتين تختلف احدهما عن الأخرى اختلافاً بينا في الروح والاتجاه : الأولى تمتد من الفتح الى نهاية العصر الأموي ( من شوال ٦١ هـ / سبتمبر ٦٤٢ الى ربيع الأول ١٣٣ هـ / أغسطس ٧٩٩ ) ، والثانية من بدء العصر العباسي الى استبعاد أحمد مستد بن طولون يشؤون مصر في التصور الاموية من سنة ٨٦٨/٦٥٤ . فالفترة الأولى تعتبر بصورة عامة فترة استقرار ونظام ورخاء ، تطول فيها مدد الصان ويطلب عليهم وعلى من يعاونهم العدل والقدرة وحسن السم ، ولا يشكو



المالية ، فكثيرا ما كان الخلفاء يعينون للقيام بها عاملا خاصا مسئولاً أمامهم مباشرة يسمى عامل الخراج .

ولما كانت شؤون المال أهم جانب من أعمال الوالي فان ذلك التصرف كان يلقى معارضة شديدة من الخولاة ، بل ترك عمرو بن العاص ولاية مصر عام ٦٤٥/٦٤٥ عندما قرر عثمان أن يولي عيذ الله بن سعد على الخراج الى جابه ، وفي خلافة معاوية شكك أخوه عتبة بن أبي سفيان عامل مصر من تولية وردان عاملا على الخراج الى جانيه ، فضم اليه الخراج . وكان الولاة على حق في هذا الاعتراض ، لأن الخراج كان عصب الولاية في ذلك الامر ، واذا تولاه رجل قادر استطاع أن يتغلغل الوالي ، كما حدث عندما ولي هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب عاملا على الخراج ، فقد استبد بالعمال حتى عزل خمسة منهم خلال ولايته القوية على خراج مصر ( ٦٠٥/٦٠٥ - ٦٣٦/٦٣٦ ) ومع ذلك فلم يخلع الخلفاء من المراد الخراج بواله خاص حتى أقام خلفاء بني أمية سبعة منهم في فترات مختلفة . وعندما ولي هشام ابن عبد الملك على مصر الوليد بن رفاعه لم يدخر الوليد وسعا في التخلص من عامله الخراج عبيد الله بن الحبحاب ، وتسكن من اقتناع القليلة بضرورة إبعاده عن خراج مصر ، فاستحله على الشرب .

وكان العامل هو أمير الجند ، فكانت

قيادة الجيوش وتأمين البلاد من البر والبحر من أهم اختصاصاته ، ويتبين أن تقرر أن عمال مصر حتى غاية العصر الأموي كانوا على العجلة قوادسة ، وسرى فيما بعد مقدار اهتمامهم بشؤون الجند والعرب وتوليهم في ذلك .

وكان العامل مسئولاً عن الأمن داخل البلاد ، وجرى العادة بأنه يعين الوالي من قبله موظفاً مسئولاً عن الأمن يسمى صاحب الشرطة ، يكون في الغالب لائبا عنه اذا غاب وتاليا له في الأهمية في السلم الإداري ، وفي أحيان كثيرة كان صاحب الشرطة يخلف الوالي في منصبه اذا غاب أو مات أو تنحى عن عمله . وربما أقام القليلة صاحباً للشرطة من قبله . وولنية الشرطة بصفة عامة من وظائف الادارة التي لا تعرف من أمورها شيئا مفصلا . ولما يتصل بمشتر لدينا اشارات كثيرة من الشرطة ، ونستطيع أن نستنتج منها اختصاصاتها ، ولكننا لا نعرف المدى الذي كان يمتد اليه سلطان صاحبها : هل كان يشمل بلاد مصر كلها أو القسما فقط . وقد ذهب بعضهم الى أنه كان يشمل القطر كله ، وأنه كان لصاحب الشرطة ممثلون في النواحي ، ولكننا لا نجد بين أيدينا ما يؤيد ذلك ، وكل ما لدينا اشارات الى ما يسمى شرطة فوق أو الشرطة العليا وشرطة أسفل أو الشرطة السفلى ، والمراد هنا قسمان إداريان قسمت اليهما السلطة .

بذلك الخليفة نفسه ، فقد أمر عبد الملك بن مروان مثلا بصناعة الأمان — أى تهديد الطرق — وإقامة الزل على المراحل لتحل بها خيول البريد الراحة أو للاستبدال بخيل آخرى ، ولكن صاحب البريد كان موظفا رئيسيا ، لأنه كان مكلفا بإحصاء المكتابات من مركز الخلافة إلى عواصم الولايات .

هذه هي الوظائف الرئيسية التي احتفظ بها العرب للأقسام أول الأمر ، أما مهمة شؤون التنظيم الداخلي فقد تركت لأهل البلاد . وقد أصبحت مصر بمسلة عامة إلى قسطنطينية ، الصعيد ومثل الأرض ، ويقابلان الوجه القبلي والوجه البحري ، وفي حالات قليلة كان الأمير يولى على كل منهما عاملا تابعا له . وينتقل على الفل أن كان يتولى شؤون كل من القسمين رجل من أهل البلاد . - ومعظمها شؤون مالية - وكانت البلاد مقسمة إلى العهد البيزنطي إلى هجرات فاحتفظ العرب بهذا التقسيم ، وأطلقوا على الهجرة لفظ كورة وهو عرب من الجرنالي .

وقد اجتهد باقوت في مقدمة ٥ مجسم البلدان ، في تحديد معنى الكورة ، ولكنه لا زال في حاجة إلى بيان ، فهو لا يداخل « المدينة » في تصنيف الحساني ، بل ربما كانت الكورة تقابل « المراكز » وما يتبع كلا منها من زمام ، فإن ابن دقاق مثلا يقول أن كور مصر كانت ثمانين ، وقال المقرئ فلا

وعلى أي حال فإن ذلك لا ينطبق على شرعة مصر فقط ، بل على شرعة غيرها من بلاد الإسلام ، ففي العراق كانت الشرعة خاصة ببغداد ، وربما كانت هناك شرعة خاصة بالهيرة ، ولكنها تابعة لوالى الهيرة . وفي قرطبة كانت هناك شرعة عليا وشرعة سفلى لحامتين بالمدينة ، وكانت هناك شرعات في كبار المدن ، ولكنها كانت تابعة للوالى ، أى أن نظام الشرعة في العالم الإسلامي كان نظاما خاصا بالعواصم ، ولم يكن جهازا إداريا ضخما مثل جهاز البوليس والأمن العام عندنا اليوم ، بل هو لم يكن — حتى في هذه الحدود — نظام أمن من أول الأمر ، بل كان يطلق في المصور الأدبي على فرقة متنازة من الجند تقوم بحراسة الخليفة أو والى ، ثم امتد سلطان صاحبها إلى الأمن في العاصمة ، والظلمة عرب عن اللاتيني *Securarii* . أما الأمن في الكور فكان من شأن عمال الكور .

وكذلك يقال من البريد : وقد نشأت وظيفته من أيام معاوية بن أبي سفيان على الإقليم ، وقد أنشأ ليرسل أخبار النواحي ، أى أنه كان نظاما مهمته تسهيل المكتابات بين مركز الدولة والنواحي ، وأهم أدائه الترقى التي تسير فيها البرد والخيل التي تحملها وليس لدينا ما يدل على أن صاحب البريد في مصر مثلا كان يقوم على تعيين الطرق المؤدية إلى دمشق أو بغداد ، إنما كان الذى يهتم

أما القسرية فيحكمها رجل يسمى  
اللازوت أي شيخ القرية ورئيسها ، وهو  
معرب من اليوناني أيضا - وله معنى الكاتب  
أو « الجرافوس » القديم .

ويبدو أن عدد الكور وحدها لم تنه  
خلال القرن الهجري الأول عما كانت عليه  
خلال القرن السادس الميلادي ، فلدينا قائمة  
بباجريكات مصر عليها هيروقليس خيلان  
الثلث الأول من ذلك القرن ، وهي تضم  
اثنين وسبعين من مواسم الباجريكات ، نجد  
منها ٤٧ في قوائم الكور التي كانت موجودة  
في مصر خلال العصر الأموي . غير أن هذا  
التقسيم لم يظل على حاله ، واتجه الأمر لنا  
قلينا إلى تقليل عدد الكور بضم بعضها  
إلى بعض ، نتيجة للاضطراب والفساد  
الذين دبا في شئون البلاد عامة خلال  
العصر العباسي .

وهذا التقسيم الإداري يختلف عن  
التقسيم الجغرافي للبلاد ، وقد خلط بعض  
الكتاب فجعل الانقسام الجغرافية أسماء  
إدارية ، مثال ذلك أن تقسيم « مصر جغرافيا  
إلى أسطر الأرض والصعيد أم يكن له وجود  
في التنظيم الإداري ، وكذلك تسمية أسطر  
الأرض بالريف ، وتنسيبه إلى بلى الريف  
( وهو جزء الدلتا المحصور بين فرعى دمياد  
ورشيد ) والخوف الغربي ( وهو ما بلى فرع  
رشيد غربا ) والخوف الشرقي ( وهو ما بلى

عن القضاة أن كور الصعيد كانت ٢٨ فلما  
ذهب يحميها لم يذكر إلا ٢٢ أو ٢٣ ، وكور  
أسطر الأرض ٢٥ أو ٢٣ أو ٢٨ ، والمجموع  
على أي حال لا يصل إلى ٨٠ . والمهم لدينا أن  
الكورة كانت قسما إداريا عاليا يمكنه  
« صاحب كورة » من أهل مصر .

وكانت الكور مقسمة إلى قرى ذهب  
بنسجم إلى أن عددها ٢٠٠٠ ، وقال آخرون  
أن الوليد بن رفاعه قصاصها إحصاء نائما دقيقا  
فبلغت ١٠٠٠٠ قرية ، « فلم يحصى إلى أسطر  
قرية منها أقل من خمسمائة حصة من الرجال  
الذين تفرض عليهم الجزية ، يكون حصة  
ذلك خمسة آلاف ألف ورجل » . وهذه كلها  
تقديرات جغرافية لا تستطيع التعميم عليها ،  
وأبعد ما يحميها أن إحصاء الوليد بن  
رفاعة هذا — الذي يصف القرى ما أتفق  
في عمله من جيد — قدر سكان مصر الذين  
تجب عليهم الجزية بخمسة ملايين ، فكان  
بني أن تكون حصة الجزية وحدها ١٠  
ملايين من الدلاير مع أن جباية مصر كلها  
في العصر الأموي لم تزيد على أربعة ملايين ،  
وكل ما يستطيع قوله هو أن البلاد قسمت  
إلى كور ، كل كورة تضم عددا من القرى ،  
وعلى رأس كل كورة صاحب كورة مسئول  
عن شئون كورته تمام العامل مباشرة ،  
وساوى صاحب الكورة موظف مخض  
يشؤون المال يسمى الجشتال ، وهو معرب  
من اليوناني ومعناه الكاتب أو المسجل .



والضيافة وهو فرض تقبل يستل ضمن المقارم المستتفة في الاسلام . وأغلب الظن أن الفقهاء هم الذين وصموا صيغ هذه النظم رغبة منهم في التوفيق بين الواقع والأحكام الشرعية . وكانوا يتصورون ، أو يحاولون أن يصوروا للناس ، أن الأمر جري منذ البداية على القواعد التي استخرجوها هم أنفسهم من الأصول بعد الفتح بزمان طويل .

وقد بدأ ينظم هذه الآراء من أواخر القرن الماضي ، عندما اكتشفت مجموعات الوثائق البردية الخاصة بالمصر البيزنطي والفرنجي المجرى الأولين . وقد درس ماكس ثون برشم ما استطاع من هذه الوثائق واستطاع — اعتماداً عليها — أن يقرر أنه قد فرغت على الناس خريبتان رئيسيتان : الأولى ضريبة مالية كبيرة تسمى الجزية ( باليونانية : ديوزيا ) تؤدي قداماً بالدينار ، وضريبة ثمنية أخف من الأولى تسمى الضريبة ( باليونانية : إيبولي ) تؤدي بأردب القمح . هذان المصنوران من مصادر الآراء في ميزانية الدولة قبالان وجهين متبذين من وجوه الاتفاق ، فالجزية تغطي مطاء الجند ، والضريبة تغطي ما كان يؤدي إلى الجند من رزاق . وكلتا الجزية والضريبة كانت مروضة على الجباعة كلها كوحدة . كانتا خريبتين فعليتين يسأل عنهما شيخ الناحية أمام الأمير راساً . ثم حدث بعد

وتختلفان في التفاصيل ، فأما الأولى فتذهب إلى أن المقروض لما خافت على نفسه ومن معه سأل عمرو بن العاص أن يفرض العرب دينارين على كل واحد منهم ، وضمنت أن هذه الرواية أن هي إلا محاولة غير موفقة لتقنين الفقرة الرابعة من عهد الصليح . وأما الثانية فنقول : أن الصليح تم على أن يفرض على جميع من بصر أملاها وأسفلها من القبط خاصة ديناران على كل نفس ، ليربهم وروبيهم ، من بلغ منهم العلم . ليس على الشيخ الفاني ، ولا على الصنبر الذي لم يبلغ العلم ، ولا على النساء شيء . وعلى أن للمسلمين النزول ببغادتهم حيث ارادوا ، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك ، كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم . وأن لهم أرضهم وموالهم لا يتعرض لهم في شيء منها ، وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الحسام وفرض عليه الديناران ، رفع ذلك عرفانهم بالأيمن المأكدة ، فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أملاها وأسفلها من جميع القبط فيها أخصوا وكتبوا أكثر من سنة آلاف ألف نفس ، فكانت فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف دينار في السنة . وهذه رواية ظاهرة الضعف ، فهي تذكر أن إحصاء دقيقاً بأهل مصر قد عمل وأن جزية الروم وحدها بلغت ١٢ مليون دينار : غير خراج الأرض ، ثم انها جعلت للمصرب على المصريين حق النزلة

ذلك - نتيجة لما أصاب جمعية الضرائب العامة من اضطراب بسبب دخول الناس في الاسلام واتساع المفاهيم العقارية التي حازها المسلمون -- أن ظهر « الخراج » وتحدد في مسورة ضريبة واقعة على الأرض أيا كان مالكها » .

ثم توغل كارل هاينريش بيكر على دراسة الموضوع منبها على مجموعة الوثائق البردية المعروفة بمجموعة الأرشيدوق رابر Sammlung des Papyrus Erzherzog Rainer ودليل هذه المجموعة الذي وضعه كارباتنيك Fuchrer durch die Ausstellun وعرضي نتيجة دراسته في أبحاث مختلفة أهمها الكراسة الأولى من كراستيه المبر وثنين في تاريخ مصر Medaen zur Geschichte . Aegyptens dem Islam وفي مقاله عن مصر في دائرة المعارف الاسلامية ، وخلاصة رأيه : أن الحكومة كانت نقائب صاحب الكورة بنوعين من الضرائب : الديموزيا والضريبة الاستثنائية . وكان توزيع المستحق من هاتين الضريبتين على الأقسام الفرعية للكورة يتم في الادارة المركزية بناء على قوائم تعد في التاحة ضحما وترسل اليها مفدما ، ويبلغ الى هذه الأقسام يبلغ رسمي يسمى « الانتاجيون » عن عريق صاحب الكورة . وكانت الديموزيا ( الجزية ) وهي الضريبة العادية تشمل :

١ - الجزية تسما وتسمى « خروسيخا ديموزيا » وهي ضريبة مالية صرفة .

٢ - ضريبة الطعام ( سينيخا ديموزيا ) وهي ضريبة عينية تؤدي قمحا أو شعيرا .

وكانت الادارة المركزية تعدد مبالغ هاتين الضريبتين . وكانتا تقرران جملة ، وتقسوم الادارة المحلية بتقسيم مجموعهما حصصا على الأفراد كل بحسب طاقته .

أما الجزية ضحما ( خروسيخا ديموزيا ) فكثافت تألف من مجموعة من العجايات هي : ( ١ ) الضريبة الخثارية ( ديموزيا جيس ) .

( ٢ ) ضريبة الرؤوس ( المبروسوس دياجرافوس ) .

( ٣ ) الضريبة الادارية المحلية ( دابالي ) . ولم تكن الضريبة المقاربة خاصة بمللك الأواني فقط بل كانت تشمل أيضا أصحاب المعرف الدين لا يمتلكون عتارا ما . ولم تكن ضريبة الرؤوس في أول الامر ضريبة عامة ، ولا تعرف على وجه التحديد على أي تاسي كانت تجبي . كذلك كان من الممكن أداء ضريبة الطعام ( أمبولي ) فخصدا ، فيلضع الانسان جثتها أو الشن ( الباريسوسوس ) بحسب مصطلح هذه الأيام . وكان جزء من الأمبولي ينفق محليا لتغطية نفقات الادارة المحلية ، وهذا الجزء يعادل الضريبة الادارية

المحلية (داني) ويرسل الباقي إلى الأهرام الحكومية ■ السطاط أو الإسكندرية .

وكانت القرية الامتثالية نسبة ( اكمنرا اورديسا ) قرية منطية أيضا ، ولكن نوعها كان يختلف بحسب الاقليم والفرق ، كان يطلق على الكورة مثلا أن تقدم العلف وما اليه مما تبني به السفن وكذلك الأدوات والعمال والبهادة وتلطي مجورهم ، ووبها اضطر رجال الكورة إلى شراء بعض هذه الأصناف المطلوبة واحتساب ثمنها من جملة الاموال المقررة . وكانت هذه القرية الامتثالية ترسل مباشرة إلى المستكرات ومراكز جميع الجند . وكانت العولة لا تقلل من الكورة مقابل هذه الأصناف لعدم الا فيما يصل بمؤونة القبل ، ولكن كان من الممكن للأفراد أن يدفعوا الممنوع عنهم لقد لم يقوم رجال الكورة بتدبير المطلوب

وهذا التفصيل الذي أوردها مستخرجا من واقع الوثائق البردية يدل على أن ما ورد عند ابن عبد العتكم ومن اليه ثم يكن الا تصورا نظريا فحيا لما كان يجري في الواقع . ومع ذلك فانه خطط المهرزي نظم خصوصا فريد ما تدل عليه أوراق البردي . فمن ذلك ما يفوه رواية عن يزيد بن أسلم : « وكان عمرو بن العاص لما استوفى له الأمر اقر ميطعا على جباية الروم ، فكانت جبايته بالتعديل ، اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد

عليهم ، واذا قل أهلها ونفرت فتمسوا ، فيجتمع مراعو كل قرية وأمرؤها ورؤسائها أهلها ، فيتناظرون في العادة والغراب ، حتى اذا أقروا من القسم بأزيادة انصرفوا بذلك القصة إلى الكور ، ثم اجتمعوا هم ورؤسائها القرى ، ووزعوا ذلك على احتساب القرى وسعة المزارع . ثم يجمع ( رجال ) كل قرية بقسمهم ، فيقسمون قسمنهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض الطفرة ، فيبتدلون ويشتريون من الأرض لحدادين لكثافتهم وحمياتهم ومدياتهم من جملة الأرض ، ثم يخرج منها عدد الضبغة للسليم ولزول السلطان ، فإذا فرغوا نظروا لما في كل قرية من الضباع والأجرء ، فقسوا عليهم بقسود احسانهم ، فإن كانت لهم جالية قسوا عليهم بقسود احسانها ، وقاما كانت تكون الا للرجل الشاب أو المتزوج . ثم ينظرون ما بقي من الخراج فيقسمون بينهم على عدد الأرض ، ثم يقسبون ذلك بين من يريه الورع منهم على قدر خالتهم . لأن عجز أحد منهم وشكا ضيفا من ردد أرضه وزعوا ما عجز عنه على ذوي الاحسان ، وإن كان سهم من يريد الزيادة اعطى ما عجز عنه أهل الضعف ، فإن تلاحقوا قسما ذلك على عددهم ، وكانت قسمنهم على قرايط الدنانير أربعة وعشرين قيراطا يقسمون الأرض على ذلك .

وقال المهرزي رواية عن هشام بن أبي رقة اللخمي : « قدم صاحب اخا على

عمرو بن العاص ، رضي الله عنه ، فقال له :  
 أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فنصبر لها ،  
 فقال عمرو وهو يشير إلى ركن كعبة :  
 لو أعطيتني من الأرض التي السقفا ما أخبرتك  
 ما عليك . إنما أقم خرافة لنا : إن كثرت علينا  
 كثرتنا عليكم وإن تخفف علينا تخفنا  
 عليكم . ما يلهم منه بوضوح أن مقادير  
 الجباية لم تكن معددة ولا ثابتة ، وإنما يقسم  
 الأمير المطلوب منه عاما لعاما على الكور ،  
 وعلى رجال الكورة أن يدبروه على النحو  
 الأنسب الذكر .

كذلك روى المقرئ عن يحيى بن سميد :  
 « الجزية جزيتان : جزية على رؤوس الرجال ،  
 وجزية جملة تكون على أهل القرية يوطئ بها  
 أهل القرية ، فمن هلك من أهل القرية التي  
 عليهم جزية مساة على القرية ليست على  
 رؤوس الرجال ، فإنا نرى أن من هلك من  
 أهل القرية من لا ولد له ولا وارث أن أرض  
 ترجع إلى قريته لي جملة ما عليهم من الجزية ،  
 ومن هلك من جزيته على رؤوس الرجال  
 ولم يدع وارثا أخذ أرضه للمسلمين . وهذا  
 ينطبق تماما على ما دلت عليه أوراق التبردي ،  
 فالجزية التي على الرؤوس هي الضريبة التقديرية  
 العامة ( خروسيخا ديوزيا ) . والجزية التي  
 تكون جملة على أهل القرية هي ضريبة العظام  
 ( سيبتيخا ديوزيا ) . وكانت الحصيلة  
 الاجمالية لكل من الضريبتين تحدد مقدارها  
 بمعرفة الادارة المركزية .

وهذا يفسر لنا المشكلة التي واجهت  
 الحكام بعد أن فتادهم عهد الاسلام بالبلاد :  
 مشكلة الجزية المستحقة على من أسلم ، فإن  
 الديوزيا العامة كانت تقسم . - كما  
 رأينا - الضريبة العقارية وجزية الرؤوس  
 والضريبة الادارية المحلية . أي أن ضريبة  
 الرؤوس كانت داخلة في جملة الديوزيا ،  
 ولم تكن تعين على الأساس المقتن الذي  
 يجده مفعلا في كتب النظم الاسلامية ، وإنما  
 كانت تحدد حمله على أساس ما كان يجنيه  
 التبريطيون منها ، لم ينسبها أهل القرية على  
 أنفسهم بحسب الساقلة . فلما بدأ الناس  
 يستولون طالبوا بالتقاء هذا الجزء من  
 الديوزيا . إذ لا جزية رؤوس على المسلمين ،  
 ورفض العمال ، لأنهم لم يفرروها كجزية  
 رؤوس بل كجزء من ضريبة عامة تلزم القرى  
 بأدائها جملة أيضا . وقد حال الأخذ بالرد بين  
 الحكام والخلفاء بسبب هذه المشكلة  
 الشرسية ، وانتمى الأمر برفع هذا الجزء من  
 الديوزيا عن أسلم ، ويؤيد ذلك ما يقوله  
 المقرئ من أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى  
 حبان بن شريح أن يجعل جزية موتى القبط  
 على أميائهم . وقد عسر المقرئ ذلك بأن  
 عمر بن عبد العزيز كان يرى أن مصر فتحت  
 عنوة ، وليس الأمر كذلك ، وإنما الحقيقة  
 هي أن هذا البند من الجباية كان متروكا جملة  
 على أهل القرية ، وعليهم أدائه جملة كذلك  
 بصرف النظر عما يصيب الأفراد من الموت .



ويؤكد ذلك قوله بعد ذلك : « وان الجزية  
اضاهى على القرى ، غنم مات من أهل القرى  
كانت تلك الجزية ثابتة عليهم ، وإن موت  
من مات منهم لا يفسخ عنهم من الجزية  
شيئا » .

تلك هي الخطوط العريضة للنظام الذى  
سام عليه العرب فى معاقبة شئون مصر المالية ،  
وهو كما رأينا نفس النظام الذى كان جاريا  
أيام البيزنطيين والرومان مع فرق جوهسرى  
هو أن واقع الضرائب فى تلك الأعصر المماثلة  
على الاسلام كان يدفع فى الواقع أكثر بكثير  
من المقرر عليه ، وربما دفع الضرب ، إذ أن  
عسان الدولة كانوا يحرصون على أن  
يستغلوا لأنفسهم مبالغ جبلة ، وكان  
مع ذلك يقع على الناس ، فلما جاء الاسلام  
انقطع ذلك وأصبح الناس يدفعون المقرر  
عليهم فأولوا عصب ، ويستعرض النظام  
الذى وضعه المسلمون لأن ذلك السامهبر ، ر  
السنين . وقد وجد المييل الى الفساد من  
قول الأمر ، لأن الدولة لم تحصل بدائع  
الضرائب رأسا ، بل كان اعتمادها على طائفة  
من كبار المزارعين أو مستعبدى الخراج ل  
كل ناحية ، وهؤلاء هم الذين كانوا يؤدون  
أموال أهل نواحيهم الى عسان الكور . وكان  
اضطراب الأحوال فى مصر البيزنطى قد زاد  
فى قوة هذه الطبقة وجعلها أشبه بأولياء  
Patriarchi المفسدين والضميراء ، وكان  
الضخاف يدخلون فى ولاهم Paterfamilias .

ولما كانت مصر قد اعتبرت مفتوحة صلحا فقد  
ظلت رقاب الأرض ملكا لساس : وهؤلاء  
الأولياء بصورة خاصة ، ونظرا لحاجة الدولة  
الى المال ، فقد كان اعتمادها على هؤلاء  
الضخاف عظيم : فهم الذين يتقبلون الجباية  
ويضمنون المال ، وشيئا فشيئا أصبحوا  
أشبه بالملزمين .

وقد وصف لنا المنبرى طريقة تسجيل  
الأرض فقال : « إن منزلى خراج مصر  
كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص من  
المسقط فى الوقت الذى تنهى فيه قبالة  
الأرض ، وقد اجتمع الناس من القسرى  
والمدن ، فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات  
صفقات : وكتاب للخراج بين يدي منولى  
الخراج يكتبون ما ينهى اليه مبالغ الكور  
والصفقات على من يتقبلها من الناس ، وكانت  
البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل  
الظن والاستبعاد وغير ذلك . فإذا انقضى  
هذا الأمر خرج كل من كان يتقبل أرضا  
وضمنها الى حاجته ، فيتولى زراعتها وإصلاح  
جسورها وسائر وجود أعمالها بنفسه وأهله  
ومن يتدبه لذلك ، ويحصل ما عليه من الخراج  
فى أهله على المسقط ، ويحسب له من مبلغ  
قبائته وضمانه لتلك الأراضي ما ينقته على  
عمارة جسورها ومدة ترعها وحضر خلعها  
بصرابة مقدرة فى ديوان الخراج . ويتأخر  
من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات القسان  
والمقتولين . يقال لا تأخر من مال الخسراج

٣٠٠ ألف أو ٣٠٠ ألف بحسب اختلاف خاصة مع الأمراء .

وقد كان العرب غلبوا على مصر بتصويرهم أنهم سيجيئون منها من الأموال ما لا يحصى ولا يقدر ، فقد كانوا يسمونهم بحسب ما يقول القويضي ، أنه قرعون كان يستفصل من مال مصر ، بعد استنائه شتى أنواع المظلمات ، ستة وعشرين مليوناً من الدنانير ، ولهذا فقد توجه عمر بن الخطاب بقلة ما يست به عمرو بن العاص من الجباية وشك في أمره ، وجرى بينهما مكاتبات ذات معنى عظيم ، لأن خطابات عمرو تدل من ناحية على تصويره لخص مصر ، وروحه عمرو تدل على الواقع الذي كان يواجهه هذا الأمير الذكي القادر ، ومنساجبي عبد الله بن أبي مرثد مليونين زيادة على ما جاء عمرو فرح الخليفة عثمان بن عفان بذلك وحدث عمرو في الأمر ، فورد عمرو رداً على طيرة وبعد نظر ، وكان معادياً لذلك ، لأن المسألة ليست مسألة ضخامة مبلغ الجباية ، وإنما المهم هو المحافظة على مورد المال سليماً حتى لا ينضب .

وتلازم من هذا النظام المالي الذي جرى عليه العرب في مصر أنهم تركوا الأرض بيد أصحابها من المصريين ، ولم يعتبروها ملكاً للدولة . وقد تناقض الفقهاء في هذا الموضوع وذهب بعضهم إلى أن مصر خضعت صلباً وقال بعضهم الآخر أنها فتحت عنوة ، وكلها

البواقي . وكانت الولاية تشدد في طلب ذلك مرة وتسامح به مرة . وذهباً كان هذا هو النظام المتبع في أيام العباسيين ولكنه منتطور قطعاً عن نظام بدائي شبيه به ، وربما استلزمنا أن نقول أنه في هذه المصور الأولى كان أولئك الأولياء الكبار ينفذون في تعامل الحكومة بجمع المال .

أما جملة المتحصل من هذه الضرائب بشئ صنوعاً لمن السير بتحديدها ، فإن التفسيرات التي يوردها المؤرخون تتراوح ، فيما يتعلق بالسنوات الأولى ، بين عشرة ملايين وخمسة عشر مليوناً من الدنانير ( الدينار نصف جنيه تقريباً ) ويتدخل في ذلك ما يدفعه قداما ولما ما يؤدي لونه . ولم يكن هذا المال كله يرسل إلى مركز الخلافة ، بل كان معظمه يبقى في البلاد ، يستنزله عمال الكور ثم المقتبلون فيما بعد جسرهم منه في مقابل ما يقومون به من أعماله التعمير والإصلاح والصيانة ، ويرسلون الباقي إلى الأمير ، فيؤدي هذا منه إعطيات الجسد وأرزاقهم ورواتب الموظفين والعمال ، والباقي هو الذي يرسل إلى مركز الدولة . ولكي نطهر النسبة بين هذا وذاك نذكر أن جباية مصر بلغت في عهد معاوية بن أبي سفيان أربعة ملايين دينار أرسل إليه منها ٦٠٠.٠٠٠ دينار . وبعد ذلك مبلغاً جسيماً . أما متوسط ما كان يرسل إلى مركز الدولة ابتداء من القرن الهجري الثاني فكان نحو ٦٠٠.٠٠٠ دينار ، وقد يرفع إلى

بعد ذلك فلها ظروف أخرى اقتضاها تطور عام في أحوال الدولة الإسلامية بجملة ، ومن الخطأ القول بأنها استمرار أو اتساع لهذه الشئح .

وقد حدث كثير من المصيرب الذين نزلوا مصر على أرضي بهذه الطريقة ، أي أنها كانت متعا من أراضي صالات الى الدولة بعق النج ، وحصلوا عليها أيضا من أراضي البرد - التي كانت تسمى أرضي الموات - ليستصلحوها ، وكانوا ينفون من ضريبتها فترة ما بحسب ما تقضي به العزيمة في أحكام الأرضي الموات ، ثم يؤمون عنها الضر بعد ذلك . وكان المالك العربي أيا كان وطبعه يؤدي ضريبة الضر عما يهدد ، وكان العرب يسمونها زكاة ترعفا عن دفع الخراج ، ولكنها كانت في الواقع ضريبة عقارية تجري مجرى الخراج . وقد طالب المصريون الذين دخلوا الإسلام أن يماثلوا بالمثل لتمسقط عنهم الجزية ( يفرحوا ) وضريبة الطصام ، وتكتفي الدولة منهم بضريبة عقارية هي الضر وتسمى الزكاة ، ومعنى ذلك فقدل الدولة لحظهم إرادتها ، فرغضت الدولة ، بل ألومت العرب أنفسهم بدفع الخراج كاملا عسبا يشترونه من أرض الخراج ، فلا تحسبون أرضي عراقية الى أرضي عنبرية . ولهذا فقد ظل إيراد الدولة في مصر متوازنا في حين أن إيرادها من أرض العراق حبط حبوطا شديدا . لأن الدولة ، وهي مالكة رقبة لأرضي ، كانت

متناقشات قضية نظرية صرفة ، لأن الواقع الذي يفررونه جميعا هو أن أرض مصر أجريت مجرى الضرع ، وأن الملكية العقارية متت بيد الأهالي ، وقد نص على ذلك صراحة في معاهدة بابليون ، وأكد غسلا ذلك من المعاهدات وما جرت عليه المعاملات . وبصفة اختطه الوضوح القانوني لأرضي مصر من أرضي العراق مثلا ، فقد كانت الأخيرة ملكا للدولة وليس للأهالي عليها الا حق الارضان ، أما في مصر فقد ملك الناس الأرض ملكا كاملا ، ، وقد وثت الأوراق البردية التي ترجع الى عهد الحولاء على أنه كان يعق لأهالي مصر التصرف في الأرضي التي يملكوها بالبيع والبراء والتسوير والهبه . وقد تربت على ذلك نتائج ذات أهمية كبرى فيما ينصل بعقموون الدولة الإسلامية على أرضي مصر ، فبينما جرى الخلفاء على منح الإقطاعات والصباع في العراق من أول الأمر ، لا نجد هذه المنح في مصر الا في حدود ضيقة ، واضطر أمراها في تلك لأرضي التي كانت مملوكة للدولة البيزنطية ورجالها ، فالت الى الدولة الإسلامية ، ومن هذه الأرضي الأخيرة بدأت الدولة تمنح من تيريد من زمن عسمر بن الخطاب . تقول تلج ولا تقول : تقطع ، لأن المراجع تخفي . وتستعمل اللفظ الأخير ، مع ما بين التفلين من خلاف في المعنى القانوني والسياسي . أما الإقطاعات التي ظهرت بمصر

تنفع الناس الصباغ والاقطاعات ، فتحسول الأرض من خراجية الى عشرة ، مع عظم الفرق بين الاثنين ، ويلاحظ ان المقطين في العراق كانوا يتعاضون من الزراع الخراج ويؤدون العشر ، فيكسبون ويخسر اللؤلؤ . بينما كانت أرض مصر كلها تتحول شيئا فشيئا الى خراجية .

والوائل البردية عظيم ككل ، ذكرناه خاصا بمصر ، فلدينا خطابات صادرة من عمال مثل ليرة بن شريك أحدها مؤرخ سنة ٧٩٩/٧٩٩ ينشأ فيه الى أهل شمراشيمو من كورة قسقوطه ان يؤدوا المتأخر عليهم من الجزية لهذا ومن ضريبة الطعام لهذا . وفي خطاب آخر من نفس الوالى الى صاحب أنشوه أيضا يقول فيه انه اذا تعدد عسلى الناس دفع ضريبة الطعام قسحا فلا بأس بأدائها لهذا ، ولكنه يطلب اليه ان يجتهد في إرسالها قسحا . بل يظهر بوضوح من وثائق أخرى ان ضريبة الطعام لم تكن تؤدى دائما قسحا أو شعرا ، بل كان من الممكن استبدالهما بحسب حاجة الدولة بأشياء أخرى من محمولات الناجية كالصن والخل والزيت والتسبيج والجلود .

ونفهم من رواية البلاغوى عن يزيد بن حبيب ان قيمة ضريبة الطعام كانت تعادل الجزية ، فانه ان أهل الجسزية بمصر حولوا في خلافة عمر بن عبد الصلح الاول مكان الحنطة والزيت والعمل و ( صلح )

الحل على دينارين دينارين ، فالزم كل رجل أربعة دنانير ، فرضوا بذلك والحيوه ، ومن الواضح ان الدنانير الأربعة المذكورة منها اثنا للجزية واثنا لضريبة الطعام . غير ان هذا القدر الذى يحدده يزيد بن حبيب لم يكن ثابنا كما يفهم من النصوص العربية ، لأن أصحاب هذه النصوص كانوا يهتمونها على أنها كانت ضريبة الرووس ، مع أنها كانت فى الواقع الديموزيا التى أثرت اليها ، وكانت ضريبة عامة تشمل الضريبة العشاقية ( ديسسوزيا جيس ) وضريبة الرووس ( الدريسوس داجرافوس ) والضريبة الادارية المحلية ( داباي ) وكانت حصيلتها الكلية تظل هي المحددة ، أما حصص الأفراد منها فكان يقررها رؤساء القرية بحسب ثروات الأفراد ، فهناك من يدفع ديناراً او ديناراً ونصف او ديناراً وثلثاً او ثلث دينار وهكذا . وقد ذهب المقرئ الى ان الدولة لم تحصل الزكاة الا في عهد صلاح الدين ، ولكن أوراق البردى أثبتت أنها ترجع الى ما قبل ذلك بكثير ، فلدينا أيضاً مؤرخ عام ١٤٨ / ٧٩٥ عن زكاة بعض الأشخاص وهذا هو المقول .

ولا شك فى ان مبلغ البيضاية أخذت تتناقص مع الزمن بسبب دخول الناس فى الاسلام واضطرار الدولة الى معاملتهم معاملة العرب ، وبسبب تطرق الفساد الى النظام القائمة من ناحية أخرى . على أى

الأحوال تلاحظ فرقا واضحا بين موقف الدولة من مصر أيام الأمويين ، وموقفها منها أيام العباسيين ، ففي العصر الأول كانت للولاة اعتمادات أخرى إلى جانب المنية يشتركون لئلا : كان هناك اعتماد بالامتناء والتميز وبناء الأساطيل وما إلى ذلك : أما في العصر العباسي فقد كان الاعتماد وجها نحو الجباية وحدها ، وهذا لا ينطبق على مصر وحدها بل على بقية أراضي الدولة الإسلامية الأخرى .

ويلاحظ بصفة عامة أن الفنون المأبغة صارت سيرة مليا حتى نهاية العصر الأموي ، والسبب في ذلك يرجع إلى أن عمال الأمويين كانوا بصفة عامة على جانب طيب من الأمانة والتكافة الإدارية واشترفة بما لا بد منه لصالح الدولة وبإلادها . ثم أن خلفاء بني أمية كانوا على البصيرة قوى فهم حسن استئون المال وتدير لما يصل إليهم منه ، وكانوا أميل إلى الاقتصاد في نفقاتهم ، وكانت أمارتهم بسيطة لا تنسكو كثرة الموظفين وقتل روائهم كما سببهم إليه العمال أيام العباسيين ، ولا يتسع المقام هنا للكلام على ولاة الأمويين في مصر ، فإن الكثيرين منهم يستحقون من المورخ وقفات طويلة . ويمكن أن نذكر أن عددهم نحو ٢٨ واليا حكموا نحو ١١٢ سنة ، أي متوسط أربع سنوات لكل منهم ، وقد حالت مدد بعضهم حتى زادت على عشرين سنة ، ولم تقصر مدد

الولاة إلا في أيام هشام بن عبد الملك ، فإنه كان عظيم الإحسان يشتركون المال ، ولهذا فقد كان اعتمادهم الحقيقي على عامل الخراج وخاصة عبيد الله بن الحجاب ، فقد تصرف هذا الأخير في الأمراء حتى عزل منهم أربعة بره ، ولم تحل مدة الخماس وهو الوليد ابن رفاعه إلا بعد أن الطوى تحت جناح ابن الحجاب .

وكان الكثيرون من هؤلاء الولاة من أمراء البيت الأموي ، وأهمهم عبد العزيز ابن مروان الذي تركه أخوه عبد الملك بن مروان على مصر من ٦٥ إلى ٦٨٥/٨٦ . أما أعظم أولئك الولاة جباة فهو عمرو بن العاص دون شك ، فقد فتحها وبولاهها أول مرة من ٢٠ إلى ٦٤٦/٦٤ — ٦٤٩ ، ثم عاد إليها وتولاهها مرة أخرى من ٣٨ إلى ٤٣ . ٦٥٨ — ٦٦٣ ، وهو من مؤسسي مصر الإسلامية ورأى في قواعد الحكم فيها . وكان عمرو رجلا ذكيا واليا فاعلا لشؤون الإدارة والمال ، وكان له فهم عميق لتفانيات الناس وقدرة على كسبهم إلى جانبه . وقد توفقت العلاقات بينه وبين المصريين وطالت ممارسته لشؤونهم حتى أصبح وكأنه مصري يتأصل عن حقوق المصريين . ومواقفه من عمرو بن الخطاب في ذلك معروفة ، وهو من غير شك أول رجال مصر الإسلامية وأقدمهم أثرًا في تاريخها . وكان لمصر أيضا أثر بعيد في حياته ،

ففتح مصر هو الذي تقدم به الى الصف الاول من رجال الدولة الاسلامية ، بحيث أصبح بعد قليل من رجالها المدفونين . وقد تعلق قلبه بمصر فلم يعد له أمل بعد عزول عثمان اباه عنها الا العودة اليها ، وفي سبيلها انفسهم الي محاربة وقام بدوره المعروف في الفتنة التي أثقلت مثقال عثمان . ولو تركه عثمان بن عفان واليا على مصر ، أو لو ولاء اباها على ابن أبي طالب ، لانتجت العواث في دولة الاسلام وجهة أخرى . وقد عرف مؤرخو مصر قدر ضرر لأحاطوه بمقالة من التدبير والاعجاب وتصدوا للدفاع عنه ، واليوم يرجع الفضل فيما يحتلته عمرو من المكانة في كتب التاريخ والمصاحبة .

والحم لدينا أنه وضع لن بعده قلبه العناية بشئون البلاد ومراقبتها والرعاية لأهلها ، وعلى آثار عمرو ما من جاء بعده من ولاء الأمويين . فلما جاء العباسيون غير الأمر جملة ، وتهد الطريق لاستبداد الولاة بشئون مصر ، وهو ما سيحدث على يد أحمد ابن طولون ومحمد بن طنجح الاخشيدي من بعده .

وقد ضللت براه هذا الكثير من أيام ابن جعفر المنصور ( ١٣٦ - ١٥٨ / ٧٥٣ - ٧٧٥ ) فبدأ يظهر بوضوح ترك اهتمام الخلافة في شئون المال . ولم يكن هذا التطور قاصرا على مصر ، بل شمل الدولة الاسلامية كلها ، لأن الدولة العباسية انحالت منذ قيامها الى

اضمار ما كانت تحتاج منه الدولة الأموية . والمجب الاول في ذلك تدمير الأساس العسكري الذي كانت الدولة تقوم عليه . فبينما كان اعتماد الدولة الأموية قائما على اجتاد الشام من العرب ما بين قيسية وكلبية ، أصبح اعتماد الدولة العباسية على الفراسانيين . وكان العفندي المصري أيام الأمويين يكنى بما نعوه عليه أجناد الشام ( أي كثر الشام العسكرية ) ، فقد كاب خراجها لخطا عسكريا لهم ، وما فضل من ذلك من أراد الولايات كان يغطي لنفسه العطف والجيش القاعة ، وتبقى بعد ذلك منه جملة صالحة ينفق شيء منها في المنشآت والبنات وبدخ البالي . وكانت جيوش الدولة في الولايات تنال أوزانها وأعطائها من الايراد المحلي ، ولم يكن للدولة الأموية في الحقيقة جيش لائم ، فقد آمنوا بين جندهم الشام وسرحوا معظم الفوى العسكرية فتتح في كل وجه .

فلما جاء العباسيون احتاجوا الى جيش ضخم يعيهم ، فاستندت لفئات هذا الجيش معقم ايرادهم ، لأنه كان جيشا مرزقا طامعا يحتاج الى المال الكثير ، ثم انه الإدارة العباسية اتجهت منذ أيام المهدي الى الاسراف والأبهة ، وتعقدت الإدارة وأدخل وزراء القصر ميعا كل مساوي الإدارة السياسية القديمة ، فبدأ العجز المالي يظهر من أيام الهادي ، ونص به الرشيد احسانا

واضحاً وسعى لعلاجه ، ثم خرج الأمر عن الضبط جملة من أيام القنصم ، وأصبحت الدولة العباسية في الواقع دولة مغلقة مالياً يجتهد الخلفاء والوزراء في مداواة اقلها بوسائل غير طبيعية ، وابتداء من أيام الواثق أصبح المنشكلة المالية مرضاً عضالاً لا سبيل إلى علاجه ، وعلى منقرة العجز المالي نهضت خلافة بني العباس شيلة قشياً قبل أن تنهطم اندثاراً وسياسياً .

للفراج ، وكافت الخلافة تطلق أيديهم يفعلون ما يريدون حتى يجثوا بما ضنوه من المال ، وابتدع الولاة ضرائب شتى أنكرها الناس ، ولكنهم دفعوها بالغفوف والرهبة ، ونعمد الطريق لاستبداد رجل كاحمد بن طولون بشئون مصر على أناس ضالين مبلغ معين للخلافة .

#### الاسلام والعرب :

فلذا تركنا هذه الناحية المالية جانباً ، وهي حجر الزاوية في البناء الإداري لمصر في عهد الولاة . وجدنا أمور المصريين تجري في مجراها العبادي بعد الفتح مباشرة ، وكأني لم تغير الأحوال ولم يذهب زمان ، وقبل زمان ، وتبلو البلاد خلال السنين العشرين الأولى من الفتح في هدوء ، يسوق النظر ، ربما كان ذلك نتيجة لما عايناه العربون من متاعب وفتائل خلال التمرتين الخامس والسادس الميلاديين ، فلما خلصوا أخيراً من لطف البيزنطيين مالوا إلى الدعة والسكون كأنهم يستجدون . ثم إن العرب خلال هذه السنوات الأولى كانوا في شغل بشؤونهم وفتوحهم ، فقد كانت الدنيا ممتلئة أمامهم من كل وجه ، قمضت جيوشهم فتوح شرقاً وغرباً ، وأجلبت غلبت الجيوش جماعات من مهاجرة العرب تستقر في البلاد المفتوحة . قعى خلال القرنين الأول من تاريخ الاسلام انتشر عشرات الألوف من العرب المهاجرين إلى العراق وفارس ومصر

وقبلاً ينهل بمصر بدأ هذا التحول العظيم من أيام أبي جعفر المنصور ، فقد فكر في أن يضم خراج مصر ، أي يبعث عن رجل يصن خراجها بمبلغ معين ، فعرض على والده جلساً محمد بن الأشعث أن يصن له خراج مصر ، فرفض محمد بن الأشعث ختية العجز ، فالأم الطليفة على الفراج رجلاً خاصاً هو فوق بن الفرات . وحضت مطالبة الخلفاء بالأموال تشتد ، وكثر عيال الفراج إلى جانب الولاة ، وقلت ثقة الخلفاء في هؤلاء فأخذوا يهزلون ويولسون ، فتولى مصر للمصور لحماية ، ولهمدي تسعة ، ولم شيد ثلاثة وعشرون ، ولعماموف سبعة عشر وهكذا . وبدأ الناس يهتكون من قتل العجايات بل يثورون بسببها ، واحتاج الولاة إلى القيام بحملات على السواحي لجمع ضرائبها ، وفي القرن الثالث الهجري تجد الإدارة تستخدم القوة والضرب في استخراج أموالها ، وأصبح الولاة في الحقيقة مستأجرين

في منتصف خلافة هشام بن عبد الملك حتى بدأت اللغة العربية تحمل محل الآرامية و نجد هذه الأخيرة تعود الى مكانها في نهاية العصر الأموي ، ثم انتهت سيادة العرب واللغة العربية بمجيء العباسيين ونفطسليم الخراسانيين على العرب . وبدأت العارسية تلبس على السنة العرب الباقين هناك حتى نسي الكثير منهم لشت وأخذ يتكلم الفارسية . وكان من الممكن أن يحدث مثل هذا في مصر: ثولا أن الظروف هنا اختلفت عنها هناك، ولم يبلغ القبة ١١١١ مصر مثلما يمكنها من منافسة الكلبة ، فخلال البلدان قريبا لهذه الأخيرة ، فصار في طريقها مستغلة بقوتها ١١١١ هبة القوية والصرب أمام السكان ، وتمكنت من نشر العربية والاسلام ١١١١ كما فعلت في المغرب والأندلس .

كان معظم رجال الجيش العربي اللاحق من عرب اليمن . نستنتج ذلك من أسماء القبائل التي نزلت الفصا ط وانضدت بها خفيا ، أي أحباء . فإذا استثنينا نرا من فربى ، وكان عددهم قليلا ، وجدا أنفسنا أمام أغلبية يمنية تستوقف النظر : مصر ، نجيب ، لخم ، جذام ، بنو بحر ، غافق ١١١١ حضرموت ، بصعب ، معافر ، سبأ ، بنو وائل ، مذحج ، غطفان ، بكري ، فحلان ، المصمك ، وغير هؤلاء كثير . ولا شك أنه كان بين هؤلاء كثيرون من عرب جنوب فلسطين وسيناء وشرقي الدلتا وصحراء مصر

والمغرب والأندلس ، وكانت الأرض واسعة وفي رحابها متسع لأولئك العرب المهاجرين ، وكان جانب كبير من أراضي هذه النواحي قد ضيعه الإهمال ، وكان في حاجة الى نظام مادن يطمئن اليه الناس وإلى أيد عاملة . فلما الاستقرار فقد أتى به الفتح الاسلامي : وأما الأيدي العاملة فجاءت العرب المهاجرة التي أشرنا اليها . وهنا نجد عرب اليمن يقومون بالعباد الأكبر من ذلك العمل ، وأما كان حرب الشمال — وفي مقدمتهم قريش — قد حملوا عبء الفتح واشتغلوا بالسياسة والادارة ، فإن عرب اليمن حملوا كلف الجنود الثمرات ، فقد كانوا شعبا مبالا الى الاستقرار له عهد بعيد بالزراعة وما يشمل بها من أعمال الحضارة .

بعد فتح العراق مباشرة لجند بطون لخم فزحمه شرقا واستقر في بواحيه ، وتوسع اليها جماعات زرد اتين ، فبكثر عددها حتى غلبت على أرضي السواد ، ثم رجعت لغروج منها عربا قصعت غربي إيران ثم امتدت الى خراسان ، وشبنا لشينا أصبحت هذه الواحي وأكلها مستعمرة يمنية عقدت زمامتها لجواه أرو اليمن ، وكانوا أكثر القبائل عددا . أما المسببال وبنصهم فكانت غالبيتهم من القبة . وبدأ التنافس بين الجانبين ، ثم انتهى الى صراع دموي انتهى بانحسار جانب العرب في فارس وخراسان . فبينما ساد العرب هذا الجناح الشرقي من دولة الاسلام



الفرقية ، فمن انتسب منهم الى قبيلة من هذه القبائل انفسهم اليها ، والا اندرج تحت جماعة عامة كانت تضم أبناء من القبائل ، سميت أهل الرابية . وكانت هنالك أيضا جماعات قديمة قديمة ، وتمر من العرب الذين كانوا يسكنون بلاد الدولة البيزنطية ويسمون الصمراء ، وهم قليل من بقايا النمرسي الذين استبرؤوا وكانوا يسكنون القارصين وعلى طول النهر الأموي كان يسكن الهجرة العربية فهو مصر معتمرا ، ويبدو أن غالبية المهاجرين كانوا كذلك من انفسهم وقد بلغ من أمر البنية أن من ولي مصر من البسبيين كانوا يحرصون على أن ينفذوا باستقدام قبائل نيسية الى مصر ، حدث ذلك في أيام عبد العزيز بن مروان والوليد بن رعاة وولاية مبيد الله بن الحبصار على الخراج ، فكثرت جماعات القبيصة بمصر ، ولكنها لم تنزل المصاط ، والما شرقي لها : حوالي بليسي أولا ثم امتدت شمالا وجنوبا حتى صارت ما عرفه بالعوف الشرقي ، ونزلت كذلك في غربي الدلتا ، لها يعرف الآن باسم البحيرة تعرف بالعوف الغربي ، أي أن كتلة كل جند من جندى العرب الكبيرين نزلت ناحية غير ما نزلت الأخرى ، وربما كان هذا هو المنبج في أنه لم يعم بمصر هذا الصراع البسوي بين فطان وعدنان الذي قضى على سلطان العرب ■ غارس وخراسان وكاد يقضى عليه في الأندلس .

وقد حرم عمر بن الخطاب على جند العرب المدون الاستيطان بالزراعة أو الانصراف الى مطلب آخر من مطالب الحياة ، ولكنه لم يحرم ذلك على العرب عامة ، لأن الحريم على الجند ضروري وعليهم ، أما على عامة العرب فغير مهم أو ممكن . ويتبين أن ذلك لم يكن العرب لم يكونوا جندا مديونين ، فكيف يحرم من العمل على مربي عادي هاجس بنفسه وأهله الى بلد كعصر ليزون ويحيى من القبيصة أن تكون غدا وجدت في مصر وغيرها جماعات عربية مدنية ، وهذه هي التي امتلكت بالزراعة والفرج وشرن المطاش دون أو يكون في ذلك مظالفة لأمر مصر ، وهذه الجماعات يصعب احصاؤها ، وهي التي البت من أول الأمر بين الأهلين في كل ناحية واحتللت بهم ، وهي صاحبة الفضل الأكبر في حرب السنة الناس ومحوهم الى الاسلام ، لأن الجند العربي ظل منفصلا بنفسه في معسكراته ، وأنها القضاة ، ولذلك لم تنجح له الفرصة للاتصال بالناس ، ومن هنا قاد دوره في التعريب وادخال الناس في الاسلام قبل .

وسموا بجند في العراق أو في مصر أو الأندلس ، فانا نجد القبايلة العظمى من هؤلاء الذين ابتثوا بين الناس كانوا من عرب اليمن قول آخر : ثم لما غلب الأصار على أمرهم في معترك الحياة العربية ، وانزعج

انما جرون الأمر منهم ، ترك الأملصار ميدان السياسة وانصرفوا الى مطالب العيش ، والأملصار يمدون في جملة البنية . وكلما اصحز فريق من العرب في ذلك المترك انصرف أمراده الى طلب العيش في الأملصار أو الزراعة في الأرباب . ولهذا فقد كانت السياسة علمي في ميدان الحياة العامة بفريق من العرب بعد فريق ، وهذه الجماعات المتخزمة هي التي حققت للإسلام والعربية نصرهما الحقيقي في بلاد مثل مصر والمغرب والأندلس ، ومن أمراءها تكونت معظم الجماعات التي امتثلت بالعلم والدين في مركز الدولة والأملصار .

ولهذا نحن الخطأ أن يقال ان العرب بدلوا يتفعلون عن سياسة الترفع عن الاختلاط بالأهالي من أيام هشام بن عبد الملك مثلا ، لأن الأمر هنا لا يتعلق بسياسة بل بعملية طبيعية بدأت منذ البداية . وجدير بنا أن نلاحظ أن أولئك الذين اشتغلوا بالعلم وطلب المعاش والزراعة لم يخلصوا عن عروبهم أو اعتزلوهم بها ، بل خالطوا الناس محتلطين بشعورهم العربي ، وتزوجوا معهم وأورثوا أولادهم أو منهم العربية ، فأولاد العرب عرب ، ومن ثم فإن أعداد العرب في الأندلس كانت في زيادة ، وكانت لهم امتيازات معنوية ومادة بحكم الدين والأصل واللغة . وهذه الامتيازات كانت مما حجب الى الناس الانتساب اليهم ، ودخول الإسلام واتخاذ اسماء عربية ، بن اصطناع أسباب عربية .

من هنا كان من المعبر تبع حركة الإسلام والعرب : لا في مصر وحدها بل في نواحي الدولة الإسلامية الأخرى ، فهي عملية طبيعية بدأت منذ البداية وسارت سيرها لم ينتبه اليه أحد ، وتعرضت هنا وهناك لظروف أمانت عليها أو عطلتها حينما ما ، ولكنها مضت في طريقها ، فلم تارس مثلا نجد الإسلام ينتشر بخطوات أوسع من انتشار اللغة العربية ، وفي الأندلس سمار الاستعراب بأسرع مما سار الإسلام ، وفي مصر سمار لأموال جنبها الى جنب لأسياب تملق بحالة المسيحية واللغات التي كان الناس يتكلمون في مصر غلبها العرب .

لأما لماذا يتصل بالمسيحية ، فقد كان اختلاف المذاهب النصرانية قد بلغ مبلغا عرص أصول العقيدة النصرانية للإلهام والضموض في نظر الناس . ولم تكن العقيدة المسيحية اذ ذاك ~~مستقرة~~ المعالم أو مستقرة القواعد ، وكانت المعامع الدينية تسمى نحو الكنائس ومعمل على الكثير ، ولكن شئون المعامع شائتها أجواء الانحطاس وعصبانية النواحي ، وأفسد أمرها بمغفل الأباطرة للمعاصر سياسية جنبنا وشخصية جنبنا . وكانت مصر من بين بلاد الدولة الميزنطية ، قد اتجهت في تعير مضللات العبيدة النصرانية اتجاها واحدا عرص البطاركة والقساوسة والرهبان على الامتناع من لؤن الصراع الى نهايته وهو القول بطبيعة واحدة للسيد المسيح ،

وقد كسب رأى المصريين أنصارا كثيرين في  
الشباب وآسية الصغرى بل في القسطنطينية  
نفسها ، واستطاع بطارقة عظام من أمثال  
ديونيسيوس وكيرلس الاسكندراني أن  
يكتبوا انتصارات كبرى في المجالس الدينية ،  
واستغللت القومية المصرية أثناء هذا الصراع  
حتى أصبحت المونوفيزية -- وهي المذول  
بالبطبيعة الواحدة -- مظهرا من مظاهر القومية  
المصرية .

وقد تنبب الدولة البيزنطية الى هذه  
النتيجة ، وبذلك انتهى جهدها حتى المنسرت  
على رأى المصريين في مجمع خلقيدونية ،  
الذى سمي في كتب التاريخ القبطي بمجمع  
اللموصى . ومن تاريخ ذلك المنجب المفضل  
المصريون انفصالا روحيا تاما عن كنيسة  
القسطنطينية وكنيسة روما ايضا ، واخذت  
الدولة البيزنطية تستعمل مع المصريين نفس  
وسائل الاضطهاد لصرفهم عن عقيدتهم دون  
جدوى ، فلما غزا الفرس مصر نذر المصريون  
منهم أول الأمر سب ما ارتكبه من أعمال  
المنف والقسوة ، ولكنهم أحسوا لأول مرة  
بعضائل الاضمحلال فكسبتهم عن تلك الدولة  
البيزنطية التي لم يملحوا في إيمانها الا انتخاب  
والاستبغاد . فلما خرج الفرس وحساد  
البيزنطيين عذب معهم الاضطهادات والتعاب  
ومدبت الدولة ذلك الأسقف المتعصب فيرس  
أسقف فارس ليقضى على مقاومة المصريين  
ويهدم كنائسهم .

وقد كانت نتيجة هذا الصراع الطويل  
وما تخلله من بلبلة الأفكار بسبب المذاهب  
الكثيرة التي اقترحتها الدولة رعية منها في  
التقريب بين المذاهب المختلفة ، واجتهاد رجال  
الدولة في فرض هذه الآراء ، كانت نتيجة  
ذلك كله أن ضمما أمبر المسيحية في مصر  
ضمما شديدا ، وتبللت أفكار الناس ، بحيث  
لا يمكن القول بأنه عندما فتح العرب مصر  
كانت هناك وحدة دينية أو مذهبية على الأقل ،  
حتى ذهب بعض مؤرخي الحضارة الى أن  
المسيحية لم تحفظ في أهدان النفس المصرية ،  
وقال ليفغر ، « ان المسيحية لم تغير شيئا من  
روح الجنس المصري » ولم تصل الى التأثير  
في الحياة الخاصة للأفراد ، ولم تحوّل  
الأوضاع تحولاً سادها الى المسيحية . « وقد  
حاستون ثين . » ان الشيء الذي لم يكن  
له اثر في مصر عندما دخلها العرب هو العقيدة  
والروح الديني . ان لمرأية الأقباط اقتضرت  
على منازعات عقيدية مع البيزنطيين ، وانسأ  
لنحط عدهم منذ زمن مبكر معارضة تقوم  
على كبرياء ، بل ربما امتلأنا أن نول اننا  
فلح عندهم شعورا قوميا بسلما . وقد ظهر  
هذا الروح القومي المصري بأجلى مظاهره  
بعده مجمع خلقيدونية . وكان هذا من  
الروصوح بحيث يعنى لنا أن تسأل عما اذا  
كان تعصب الأقباط للمونوفيزية في حقيقته  
كرعة للسلطان البيزنطي قبل أن يكون اقتساما  
بعقيدة .

مصر والشام ومن اتهم في ذلك الحين كان مخرجاً مريباً من متاعه المذاهب المضاربة ومشاكل النبوة الواحدة والطبعين ، حتى ان بعض المسيحيين لم يروا ﷺ الاسلام اذ ذلك الا مذهباً جديداً من مذاهب المسيحية ، فالانقياد مما كانوا عليه الى الاسلام لم يكن في نظر الكثيرين منهم خروجاً من دين الى دين ، لذا اُغتفنا الى ذلك ما اصاب كنائس الاقباط من هدم ورجال دينهم من اضطهاد وتفريد على أيدي البيزنطيين ، بحيث بات الكثير من النواحي بلا كنائس ولا قساوسة ، تصوراً سهولة انتقالهم الى الدين الجديد .

ثم ان الدخول الى الاسلام ينقل المصري أو المغربي أو الاسباني الى مرتبة الحكام وأصحاب الدولة ، ويرفع عن كواهلهم مطالب ومخاوف كثيرة ، ويجعلهم بنجرة من المعاملة الخاصة التي كان بعض العمال يشعرون بها الدمين . وقد أشار المفريزي إشارة غير مقصودة الى العلاقة بين انتشار العرب في الأرياف والنضال الاسلام فيها ، قال : « ولم ينتشر الاسلام في نرى مصر الا بعد المائة من تاريخ الهجرة ، عندما نُزل عبيد الله بن الجراح مولى رسول قيسا بالعوف الشرقي ، فحلبا كائنه المائة التالية من سبيل الهجرة ، كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها » .

وربما بدا غريباً ان نقول ان مراكز تجمع الجند العربي ، في المسطاط والاسكندرية والجزيرة مثلا ، لم تكن بذات اثر كبير في

وهذه الاقوال كلها لا تقوم على فهم صحيح للنشر المصرية ، وتتجاهل حقيقة حال النصرانية خلال القرن السادس وأوائل السابع الميلادي . فالواقع ان القيسية المسيحية نفسها كانت الى ذلك الحين في طور التكون ، وكان الاسس القائمة والرهبان ورجال الكنائس يحاولون تعديد اصولها ، أما الرجل العادي فكان في حيرة من أمره ، لم يستقر بده على شيء واضح فيما يتصل بأصول دينه ، وكانت آمار الوثنية باقية في اوتار تعتلط بعلوم المسيحية عند معظم النوام . وقد اثبتنا في دراستنا لفتح العرب لبلادنا ان نواحي كثيرة من شبه الجزيرة الابيرية كانت لا تزال على الوثنية ، ويطلق هذا على مصر ، ضمن المغالاة ان نقول ان أهل افقر جميعا كانوا في أوائل القرن السابع مسيحيين ، أو ان المسيحيين منهم كانوا عارفين بأسرار العقيدة ولغريتها ، بل كانت مراكز المسيحية المعروفة في مصر ، مثل الاسكندرية وابلون وقهوس ، في خلاص بعضها مع بعض .

وكان الرأى السائد عند زعماء الأقباط قريبا جدا من الاسلام ورأيه في السيد المسيح عليه السلام ، ولم يكن من السيد لهذا ان يتحول الكثيرون منهم الى الاسلام دون جهد كبير ، خاصة وأن الاسلام دين سهل لا تعقيد فيه ، واقتناع الناس به لا يحتاج الى شرح أو تفصيل طويلين ، وهو بالنسبة لمسيحيي

انتشار الإسلام في البلاد . ولكن هذا هو الواقع ، لأن هذه المراكز ظلت مراكز عربية صرفة ينزلها حر من المصريين ، ولكنهم لا يتصلون فيها بالعرب هذا الاتصال الذي يؤدي إلى التفاهم وانتقال الآراء والعقائد فقد كانت البسطاط مثلاً محسراً لا ينزله أهل البلاد ، ويعيش فيه العرب في أحياء كل حي منها خاص بقبيل من العرب ، وهذه الأحياء هي التي تسمى الخبط « وفي الإسكندرية عاش الجند العربي في مساكن خاصة به عرف باسم الأخلأ ، وكذلك حول العرب بومسج و الجيزة » الذي اختطرسوه إلى حصن ، وقسموه خططاً منسب خطط البساط . وقد ظلت المسكنات مغلقة على من فيها ربما طويلاً ، فلم تكن يذات أثر في انتشار الإسلام ، إنما كانت ذات أثر في انتشار العربية وثقافتها ، فقد كانت مراكز عربية صرفة ، ونشأت في البسطاط بصفة خاصة مدارس علمية وضيعة كان لها أبعاد الأثر في تحريم آسوس الناس ، وقد جعل مصر مركزاً من مراكز الثقافة العربية الرئيسية .

وانتشرت المصرية جنوباً إلى جنب مع انتشار الإسلام ، وقد ساعدتها على الانتشار أن المصريين في ذلك المعين لم تكن لهم لغة واحدة يتفاهمون بها في كل مكان ، فقد كانت اللغة البسيطة إذ ذلك في دور التكون . كانت كلمات أوربا مثلاً خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين : بقايا لهجات لاحتمية

منحطة تعرفه بلاثينية العصور المتأخرة .  
 لا نحو لها ولا نحو باط ،  
 أغارت عليها لغات الجرماني في كل ناحية ،  
 واختلطت هذه بتلك وبدأت تنشأ لهجات في النواحي ، ثم أخذت اللهجات تتغارب حتى نشأت اللغة المحلية ، سواء أكانت فرسية أو إسبانية أو جرمانية . ولم تكن لهذه اللغة البسيطة صورة ثابتة بعض الشيء إلا في بعض النكامل وفيما كتب بعض قساوستها . ثم انما ، حتى في هذه الدوائر البسيطة ، تأثرت تأثراً عظيماً باللغة الأخرقية ، بل فقل بعض كتاب مصر أن يكتبوا بالأخرقية .

وكانت الوثائق الرسمية تكتب بالأخرقية أي أن البلاد لم تكن لها لغة ثابتة لا في الكتابة ولا في الكلام .

ثم دخلت اللغة العربية لغة كاملة غنية فاهوة على النسيج من كل شيء ، ولها كتابة ثابتة معروفة ، لم هي لغة الإسلام والقرآن والحكام ، فلا غرابة في أنها غلبت غيرها دون منقطة وأخذت تظلم على السنة أهل البلاد . وهذا الكلام لا ينطبق على مصر فقط بل على المغرب والأندلس أيضاً . وليس معنى ذلك أن اللغة العربية حلت محل اللغات المتداولة في مصر ولغة واحدة ، وإنما نحن بسطنا الأسباب التي مهدت الطريق أمامها ، أما انتشارها نفسه فمهمة بليغة تمت على مر السنين . وإذا نحن قرأنا كتاباً متسلسل « القضاء والولاية » للكندى استطعنا أن نتبع بعض خطوات

ويبدو أن اندماج العرب في الجيمنة العامة بمصر كان اذ ذلك قد سار شوطا بعيدا ، لأن هذا اقرارهم بغيره يمكنه رد فعل عنيف بين العرب ، فبينما كنا نتوقع أن ينكروا عرب مصر على بكره أبيهم ، لا نلاحظ الا استيثارهم بمصر من لخم وبنوهم لم يزد عددهم على خمسمائة ، فطعنوا الى علي معاومتهم وانتهى كل شيء . وقد استتج فقيمت من شواهد القصور أن العرب احتفظوا بالانساب لمصالحهم حوالى قرنين من الزمان ، فكانوا يحرمون على أن يكتبوا على شاهد القبر — الى جاب اسم الميت — القبيلة التي ينسب اليها ، ولكن ذلك تلاشى خلال القرن الثالث الهجرى ، وأصبح الناس ينسبون الى اقبائهم .

وعلى أى الأحوال نستطيع القول بأن اللغة القبطية فقدت أهميتها عماها خلال القرن الرابع الهجرى ، فانا نجد كتاب الأقباط — مثل سعيد بن البطريق وساورس الأسمويني — يكتبون بالعربية ، وكانت كتاباتهم موجهة الى الأقباط ، فلو كانت القبطية احدى على لسانهم لكتبوا بها ، لما وقد كتبوا بالعربية ، فذلك دليل على أن اللغة العربية كانت قد أصبحت لغة الشاهس اقباطا وغير اقباط . وذلك أكثر انطباقا على لغة الكتابة ، ولا ينمى أن الكثيرين من أهل النواحي تلووا يتخاطبون بالقبطية ، ولكنها كانت في طريقها الى الزوال ، حتى لم يبق منها

هذا الانتثار ، وذلك من خلال عشرات الحكايات التي يوردها الكندي في أخبار القضاة . ولكننا فهم من كلام الرحالة أن اللغة العربية لم تسد السنة أهل مصر جميعا حتى القرن السادس الهجرى ، فعلى بن سعيد مثلا يشكو من أنه الناس في مصر لا يفهمون ولسانه العرب تمام الهم ، بل إن الشريفي صاحب « هز القصور » يقول أن الفلاحين في بعض النواحي كانوا يتكلمون في أمهات بلجات خاصة بهم .

وجدير بنا أن نشير الى أمرين كان لهما تأثير في انتشار الإسلام واللغة العربية في مصر : الأول قرار عبد الملك بن مروان سنة ٧٠٩/٨٧ بتعريب المولدين ، فقد كانت نتيجة ذلك أن اضطر كثير من الأقباط — ممن كانوا يتكلمون بالقبطية — الى التحول الى الإسلام وتعلم العربية حتى يحتفظوا بوطائفيهم . نعم أن قرار عبد الملك لم يطبق بعدها ، وظل كثير من الأقباط يتكلمون بالقبطية ، ولكن معرفة العربية كانت ضررا لازما لاحتفاظهم بهذه الوطائف . والأمر التالي هو قرار المتعمد بإسقاط العرب من الموالدين وقطع أعضائهم النساء ولاية كيدر نصر بن عبد الله فيما بين سنتي ٦١٩ و ٦٣١/٦٢٩ — ٦٣٤ — فقد أصبح العرب بذلك رعية ، شأنهم وشأن الأقباط سواء ، وزالت العواجز بين اتجانيين ، وأصبحت الواحدة على الدولة وأتراكها .

في مطالع العصر الحديث الا بقايا قليلة في  
دوائر ضيقة .

ونلاحظ - الى جانب ذلك - أن هذه  
العملية تمت في مصر دون ارماف أو ضبط ،  
بل لم تتم نتيجة لباسة خاصة للمولة  
الاسلامية ، فإن الدولة لم تكن لها سياسة  
مبينة في نشر الاسلام ، أو اللغة . وكان ذلك  
من حسن الحظ ، فاختار الاسلام من اختاره  
طائفا من القثاع ، وتعلم العربية من تعلمها من  
ناقاه نفسه بدافع من مصلحته . بل ان المتنبي  
لاحبار مصر « خلال القرن الاول الذي تلا  
الفتح ، يلاحظ وكالما كانت سياسة الحكام  
وافعة الى احياء المسيحية المصرية ، فقد فطم  
الحرب صلة مصر بالدولة البيزنطية لتتنس  
الحوار غيريون الصمداء واقبلوا يرثون ما  
وهي من أمور غنيدهم وكنالسها ، وتركهم  
العرب ينضمون شئونهم الدينية كيف شاءوا :  
يتخبون البطرك الذي يريدون ويميدون بناء  
الكنائس المتهدمة ، بل ينزل كنائس جديدة ،  
ويزلون الاسماء الاخرقية عن قراهم  
ولواحيهم ليحلوا محلها أسماء بطرية .

ومعظم الكنائس القبطية الكوري الناقية  
الى لأن النابست أيام الأسويين ، مثل كنيسة  
أبي مفلح وكنيسة القمصين مرفص  
بالاسكندرية ومارجرسي والكنيسة الحمراء  
المروفة بأبي ميا وما إليها ، بل كان كبار  
القضاء من أمثال الليث بن سعد وعبد الله بن  
لهجة يرشون عن ذلك ويقولون انه « من

عمارة البلاد » . ولم تطبق على أقباط مصر  
القيود الخاصة باللباس والركوب والمساكن  
والكنائس - التي نسبها عمر من التقضاء  
الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه - الا في  
مناسبات قليلة ، ولا تكاد نجد واليا متشددا  
في « الناحية الا « عقبه وال متسامح رحيم  
الصدر يعيد أمر الأقباط التي ما كانوا عليه ،  
لغرض من أراد الاختلاف بدينه في مصر في  
سلام حتى نهاية العصر الفاطمي بل يمدد ، فذا  
كان قد اصحابهم بعد ذلك حيف فقد اصحاب  
المسلمين مثله ، وكان الرعايا جميعها مسيح  
حكاهم الى بلاد منذ القرن السادس الهجري ،  
مسلمين وغير مسلمين .

نفسا لا ينبغي ان نقف طويلا عند ما  
يحببهم بمس المستشرقين من ثورات الأقباط  
على حكاهم المسلمين ، ولو أننا احصا  
ثورات المسلمين أنفسهم على حكاهم  
لوجدناها أكثر وأبعد مدى وخاصة وأن هذه  
الثورات لم تقتند وأخذت هيئة جسيمة  
بالملاحظة الا في مصر على النجاس ، وأسباب  
هذه الثورات كلها مالية ، وهي جبره من  
المتاعب المالية التي ارتبكت الدولة العباسية  
فيها . ويمكن ان نذكر أن أكبر هذه الثورات  
كانت في سنة ٢١٩/٢٢٠م أيام المأمون . وهي  
الثورة التي أزجعت المأمون وجاءت به الى  
مصر لبتلاف أمرها - فلم تكن هذه الثورة  
التي حمت الوجه البحري كله ثورة أقباط ،  
بل شارك فيها العرب أيضا ، أي أن الحيف

الذي دفع اليها كان عاما على الجميع ، وهي نتيجة مباشرة لسياسة المعتصم عندما ولاء أخوه الخليفة المأمون أمور القسم العربي من دولة بني العباس . وقد أرسل المعتصم قائده الاخير فآخذه ثورة العرب المشتركين ■ الهتة ، ولم يستمر عليه الا اهل البصرة ، وهي الحية بمسائل الدلتا جنوبي بحيرة البرس ، وكان اهلها قوى غلب وشدة ، ينتمون بشتتات هاجهم فلا يصل اليهم احد . وكانوا في حالة ثورة دائمة على الحكم العربي ، وقد حاول المأمون الاسفاعة عليهم بانين من بطارتهم دون جدوى ، ووجه كل قوته لحرهم حتى اخضعهم في اواخر سنة ٢٦٩ / اواخر سنة ٨٨٣ ، وكانت هذه آخر ثوراتهم ولوردات الاقياط ايضا . ولما اكسب رابرة المأمون هذه مصر حدثت قصة المثيرة مارية القبطية بقرية ماء النسل ، التي استضافت المأمون واصحابه ولادست له هدية غيرة اكيساس من الذهب ، وكذا رواتها المتبرزي في خطه . ومهما استبعدا من مبالقاتها ، لمي تدل على رخاء هذه الفاحية من نواحي شرق الدلتا ■ تلك الأيام ، وبين هذه الثورة وقيام دولة احمد بن طولون سنوات قليلة لا تزيد على ثلاثين .

#### الأحوال ■ - الزراعة والصناعة والتجارة :

هكذا جرت الأحوال في مصر بعد افتتح الاسلامي عاما فعاما : ازدهرت شتوتها وأمن أهلها ورغبت أحوالها خلال العصر الأموي ،

ثم بدأ يصيبها ما أصاب غيرها من نواحي الدولة الاسلامية من الاضطراب والضييق والفتن ابتداء من العصر العباسي . ولكن الأحوال على البصلة سارت سير طيبا مقبولا : أقبل المصريون على معلم الأبدى ■ الأرض صحتين على عبادة الحكم الاسلامي ، ولا حاجة بنا الى تعداد محاصليها ، فهي هي التي لمرها في كل عصرها القديمة والوسطى ولكنني بالإشارة الى الكتاب ، فليد كان - بعد الفصح - أهم معاصيل مصر الاقتصادية ، وكان المصريون ينسجونه في نواح فتي المستعرت بالمناسج . وكانت المنسوجات النهاية المصرية مشهورة في العالم الاسلامي كله ، ولما كان القطن والحرير فلبين فقد كان لسج السكان هو الغالب ، وكان المصريون ينسجون به نوعا عاديا ورخيصا خاصة القام وأنواعا أخرى دقيقة غالية يساع الدرهم من بعضها بقرهم ففة ، وقد انتشرت بهذه الأنواع الرقيقة الاسكندرية وثيس ، وكان عساجوها يطرحون ليابا غاية في الرولة يسمى الواحد منها البدة ، لا لا يدخل فيه من القز سداة ولحسا غير اوقنين ، وينسج باقيه بالنصب بصناعة محكمة لا تحتاج الى تعصيل ولا خياطة . وتبلغ قبة هذا الثوب ألف دينار . وكان أهل دمياط ينسجون نوعا يسمى القصب يغلب أنه كان نوعا من الدتلا . واشتهرت بالنسج أيضا شطا ودميرة وثولة ، وكلها



قرب تيبس وحمباط . وكان الصوفاء واقطن  
ينسجان بالبهنسا والقيس والشمسونين  
والخيم والهناس وجوسير قريش من بلاد  
مصر العليا ، واشتهرت اخميم خاصة بالحرير .

ويبدو ان الحكومة كانت تحتكر اتواصا  
من النسيج ، وقد وردت الادارة الاسلامية  
في مصر ذلك عن الادارة البيزنطية التي كانت  
تحتكر الحرير . وكان التجارون المصريون  
يخرجون ما يصنعونه ملونا وسادجا ( وهذا  
أصل لفظ « سادة » ) وقد ينسجونه بخيوط  
الذهب والفضة ، وقد يرنونه بالكتابات .  
وكان النسيج الذي يخرج من المناسج التي  
تحتكرها الدولة يسمى بالطراز ، غير أن لهذا  
اللفظ مدلولات كثيرة ، أهمها أقلمة خاصة  
بالدولة ورجالها ، ثم أصبح معناه مصنع  
النسيج . فكان يقال « طراز العامة » أي منسج  
عام ، « طراز الخاصة » أي منسج تملكه  
الدولة ، وعلى النجفة فقد كانت مصر أعظم  
مركز للنسيج في العالم الاسلامي ، ومن  
مناسج مصر لیس الطلفاح والأمراء ، ومن  
مصر كان التجار يحملون النسيج في كل وجه  
وكانت كمسة الكتبة تصنع في مصر منذ ايام  
عمر بن الخطاب ، ولا زال الأمر على ذلك الى  
الآن عاما بعد عام .

وإذا النسيج في الاهمية من صناعات  
مصر صناعة السفن ، فقد دلت الأبحاث على  
أن مصر كانت اذ ذاك أعظم مركز لهنا في  
البحرئ الشرقي من البحر الأبيض المتوسط .

وقد بدأت عناية المسلمين بالسفن والاساطيل  
بعد فرارهم من أمر تعصيف سواحل البحر  
الأبيض التي تحت سلطانهم ، واقامة المحارس  
على السواحل وشكها بالمقاتلة ، واقامة  
« المناظر » وهي أبراج تقام لمراقبة الشواطئ  
وتنظيم « المراكب » وهي موانع توقد فيها  
النار للاشارة ، ففي مصر مثلا كانت التيارات  
المراكب تنتقل من موقد لموقد حتى تصل  
الأخيار من الساحل الى القساط في زمن  
لليل . لم بدأ المسلمون بعد ذلك بالعناية  
بأساطيلهم ، وظهرت هذه العناية بوجه خاص  
في مصر ، فحضر العرب خليج أمير المؤمنين ،  
وجو قناة تفرج من النيل شمال القساط  
وتصل الى خليج السويس عند القلزم .  
واهتموا بإنشاء السفن التي تحمل الترح  
وما اليه من القساط الى القلزم ومنها الى  
الحجاز ، فأنشأوا لذلك دار صناعة عند  
جزيرة الروضة بمصر ، ولهذا سميت بجزيرة  
الصناعة ، وقد أظهر المصريون فاعية  
في بناء السفن ، فبنا أسطول فوري . ثم  
خطوا بعد ذلك خطرة أخرى فأنشأوا سفنا  
كبدا فطرس الماركة انجربة .

وكان اهتمام المسلمين بصناعة السفن  
جزءا من اهتمامهم العام ببحرئهم في شرق  
البحر الأبيض المتوسط ، وصاحب الفضل في  
تلك الحركة سادوية بن أبي سفيان ، فقد اهتم  
اتناء ولايته على انشاء السفن في موانئ  
الشام اهتماما اخافه الدولة البيزنطية ، فقرر

ابن عبد الملك ، أن صناعة السفن كانت زاهرة في مصر ، في جزيرة الروضة وفي القلزم ، الاسكندرية . فبعض تلك الاوراق يدلنا على أن الوالي قرة بن شريك كان كثيرا ما يطلب من صاحب كورة اشفاق أن يرسل اليه ممالا وجناتا وملاحين للعمل في دور الصناعة والمساعدة في اعداد الاسطول المصري العربي . كما تدل تلك الاوراق على أن الوالي كان يشق مقاما على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون في الاسطول المصري ، كما كان يفرس على اشكورة قدرا من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن وتنظيفها . كذلك كان يفرض عليها لموين الملاحين الذين يعملون في الاسطول ، كما كان والي مصر يرسل بعض الملاحين للعمل في اسطول المغرب أو اسطول المشرق والمساعدة في المشروعات البحرية الخاصة للدولة الاسلامية .

ولقد استمر ذلك طوال العصر العباسي وعصر الفاطميين والأيوبيين ، ولم تنصرف مصر عن الاهتمام بسفون البحر إلا في أيام المماليك كما يقول القريزي . ولدينا وثيقة يردية يرجع لاوليها الى سنة ٣٤١ / ٨٥٠ هـ تعطينا فكرة عن عظيم اهتمام ولاة مصر بطبع القيرزنطين عن سواحل مصر ، ومقدار ما كان المصريون يعاونه من المتاعب للقيام بالخدمة في الاسطول وحماية شواطئ الاسلام . وكانت مصر تستورد الخشب اللازم لبناء

امباراطورها فحسبان أن يقضى على ذلك القوة البحرية الاسلامية ■ ■ ■ مدها ، فتصدى له المسلمون وأوقعوا بالأسطول البيزنطي هزيمة موقمة الصواوى ثم ذات الصواوى ٣٤ / ٦٥٥ التي قتلت سيادة الحرض الشرقي للبحر الأبيض الم أبدي المسلمين ، وكانت نواة الأسطول الاملاسي الذي كسب هذا النصر شامية ، ولكن القوة العاجية امت من مصر . فبينما سار معاوية يسكن الشام الى قيسرية بأسيه الصرى ، خرجت عبارة بحرية مصرية من مصر على رأسها عبد الله بن محمد بن أبي سرح وكان يقودها ثمانية من المصريين ، بل كان من يهتاج لمن ليس فيها الا اقباط . وكانت هذه الموقعة حافزا للمسلمين على الاهتمام بسفون الاماطيل ، ويبدو أن دار الصناعة في جزيرة الروضة فتحت عشرين المسلمين على أهمية هذه الدور ، فقد قال البلاذري : « انه لما كانت سنة ٤٩ هـ هاجم الروم سواحل الشام ، وكان دور الصناعة بمصر فقط ، الأمر معاوية بن أبي سفيان بالقاء دار للصناعة في عكا » . وظلت مصر طوال العصر الذي تحدث عنه في هذا الفصل مركزا من أهم مراكز بناء السفن ، وظل غبطها معهودا لهم بالنفوق في اخضاع التفرد البحرية حتى كان يستعان بهم في كل ناحية من نواحي المملكة الاسلامية .

وقد أظهرت اوراق البردي التي كشفت في كوم اشقاو ، والتي ترجع الى عصر الفوليد

المعقن من الشام ، وربما من آسيا الصغرى  
وبعض بلاد أوروبا .

وكان البردى خلال عصر الولاة من أهم  
منتجات مصر ذات القيمة الاقتصادية ، فقد  
كانت أوراق البشنين تسمى بكترة في  
سنتقعات الدلتا والنهر ، وشهرة المصريين  
بممل الورق منه معروفة . قالت الدكتور  
سيدة الكاشف : « ويذكر ابن الفقيه في  
أواخر القرن الثالث الهجري أن لأهل مصر  
القرايين التي لا يتركهم فيها أحد ، ويذكر  
البهوتى أن القرايين كانت تصنع في بورة ،  
وهي على ساحل البحر من جبل فمياط ، وفي  
مدينة تخينر وهي على ساحل البحر لحي فرج  
رشيد ، ويقال لها وميه . وطائفا كان الناس  
يستعملون البردى للكتابة كانوا يعتمدون على  
مصر . أما في القرن الرابع الهجري فيحدثنا  
اثمالي أن كوافيد سمرقند عطلت غرائيس  
مصر والجنود التي كان الأوائل يكتبون عليها  
لأنها أحسن وأنعم وأوفى وأوغل ، ولا تكون  
إلا بسمرقند والصين . ويذكر كرابانليك  
أن صناعة ورق البردى للكتابة انتهت في مصر  
بالاجبال حوالي القرن الرابع الهجري ،  
والواقع أن ورق البردى المؤرخ الذي وصل  
إينا ينتهي في عام ٤٣٣/٤٣٤ هـ على حين أن  
الوثائق المكتوبة على الكاغذ يبدأ تاريخها  
عام ٣٠٠/٩٦٦ هـ . وهكذا نرى أن مصر كانت  
طوال عصر الولاة قريبا تكاد تحتكر صناعة  
الورق . وكان صنع الورق في كثيرهم من

الصناع في مصر ، من المصريين . وكانت  
أغنيبتهم ، أو كلم ، في أول عهد الفتح من  
الأقباط . وإلى أواخر القرن الهجري الأول  
وأوائل القرن الميلادي كانت صيغة الطابع  
الذي يطبع على الورق : آلب والابن وروح  
القدس ، ومع أن هذه الصيغة استبدلت  
فيما بعد بما يتفق والدين الاسلامي ، إلا أن  
الكتابة ظلوا يرسون علامة الصليب على  
ظهر أوراق الحكومة .

والى جانب هذه الصناعات الرئيسة  
اشتهرت مصر بصناعات تقليدية أخرى  
كالمجارة والحجر على الخشب والخشوف  
والزجاج وصناعة المعادن ، وكل هذه  
صناعات متوارثة من العصور القديمة . فإذا  
أضنا إليها ما كانت مصر تصدره من الحبوب  
وتستورده من العمامات بينا أن مجارة مصر  
في ذلك العصر كانت نافقة ، وأن القلزم  
وحياط والاسكندرية ورشيد كانت وأغرة  
انتشاط . فلم يشجع أمر الاسكندرية  
وتحول الى قرية لا أهمية لها بعد التفتح  
الاسلامي كما يقول بعض المستشرقين ، فقد  
زارها بعد الفتح الاسلامي بنحو ثلاثين سنة ،  
أي سنة ٥٠ - ٥١ هـ / ٦٦٠ ، أوكوتيه  
أحمد عجاج بينه اتقدس ووصفها بأنها ملتقى  
التجارة العالمية . ويذكر آدم ميزر أن  
الاسكندرية وبنداد كانتا تخرجان في القرن  
الرابع الهجري الأسعار العالية ، ولا سيما  
في البضائع الكمالية .

## الفسطاط والجيزة ومنازل الغرب في الاسكندرية

وفيما عدا ثورات الاقباط التي اشتهرت  
انها ، لا تذكر اصول تاريخ مصر الاسلامية  
من الحوادث التي وقعت فيها الا ما يتصل  
بمنزلها من العربيه سواء تمكن ذلك خارجها  
بين اقاموا في مراكز البسرب كالفسطاط  
والجيزة والاسكندرية او من تفرق منهم في  
فواح من مصر السفلى كالحوفين الشرقي  
والغربي ، بحيث يسكن القبول بأن تاريخ مصر  
الذي نقره عند ابن عبد الحكم والكندي  
مثلا لما هو تاريخ الجاليات العربية في مصر .  
فقد عاش العرب في الفسطاط خاصة منفصلين  
عن بقية الاهليين ، الا فيما يتصل بما تعلق  
به ضرورات الحياة ، وتفرده الفسطاط من بين  
ما اشبا المسلمون من مدن في ذلك العصر  
القول بأنها كانت مركزا عربيا خالصا كالمنا لم  
يغادر عربا جزيرتهم . فبينما لجند الكوفة  
والبصرة فاحتل بأهل العراق الاصلاء ،  
والقيروان مدينة غالبية سكانها ممن أسلم  
من البربر ، وقرطبة مدينة اسبانية حلت فيها  
الكثافة الاسلامية ، نجد الفسطاط يبدو من  
قول الامر مدينة عربية خالصة لا يسكنها غير  
العرب ويسودها جو عربي خالص .

وهي ، على خلاف البصرة والكوفة ،  
ظهرت مدينة كاملة واضحة التخطيط مبتنية  
البيوت ، في حين ان هاتين اثنتين اول الامر  
بالقصب ، ثم استبدل القصب بمباني اللبن  
فيما بعد . ولا يتصور هذا الا على فرض أن

وكانت العملة المستعملة في مصر هي  
الدينار الذهبي ، وكسور الاندراهم النقية ،  
وربما استعملت كسور هذين وهي الدواقي  
والانساش البرونزية ، ولكن الأساس هو  
الدينار الذهبي بوزنه البيزنطي . وقد ظل  
وزن الدينار البيزنطي ثابتا معتزقا به حتى  
أجام الأسرة الفاطمية . وكان ثبات وزنه  
أساس الثقة فيه وقصا سلالة الميزان  
الاقتصادي للدولة البيزنطية ، حتى ان اختلال  
وزنه اعتبر من العلامات العاسدة الدالة على  
انهيار أمر هذه الدولة ، ومن البيزنطيين أخذ  
المسلمون الدينار بوزله ووزنه اول  
الامر ، ثم بدؤوا يكوون دينارا اسلاميا  
من عهد عبد الملك بن مروان . ولكن  
الدولة الاسلامية لم تحافظ على وزن  
دينارها ، فاضطرت قيمته وقلت  
الثقة فيه ، واصبحت الدواقي سلمة كغيرها  
تقدر بوزن ما فيها من الذهب ، وظل الناس  
يفضلون الدينار البيزنطي الثابت الوزن ،  
وظلت العملات مستعملين جلبا الى جنب مع  
اختلاف في قيمتها .

ولقد احتفظت مصر بالدينار كأساس  
لعمالتها ، في حين أن العراق مثلا أصبح  
يسال بالاندراهم الفضية قللة الذهب وتعرضه  
للفس . وكان وزن الدينار المعري ثابتا على  
العالب ، وذلك لأن الأمراء وعمال الخراج  
وولاة القرملة حرصوا على تثبيت أوزان  
العملة على أساس منتج زراعية رسمية  
مطبوعة بأسمائهم .

القط ، وكان الود بينه وبينهم متبادلا ، فكان  
يشاورهم في الكثير من شؤون البسلط .  
والغالب أيضا أن هذه المساحة بالذات كانت  
من أملاك الدولة ، فاستصفاها عمرو ، ثم  
قسمها قطعا هي المروقة بالقطط ، ويرجع  
أن الخطط لم تكن متساوية ، وأن كلا منها  
لم يكن حيا واسعا ، بل قسمت الأرض  
بحسب الظروف والحاجة ، لأن الرواة يذكرون  
لنا مثلا خطة عبد الرحمن بن ملجم ، أعطيت  
له بأمر عمر بن الخطاب ليتخذ فيها منزلا يعلم  
الناس فيه القرآن ، وابن ملجم هذا هو  
الغاصي المشهور الذي المتقال على بن  
أبي طالب رضوان الله عليه .

ومن الدلائل على أن أهل البلاد كانوا  
يلتزمون في الالتقاء ، أن عمرو بن العاص  
بنى حياما فاستخبره القطب وقالوا : يصنع  
للغار ، أي أن القمام لم يعجبهم . أما حمامات  
مصر فكانت ديباسات كبارا ( جمع داموس  
وهو البناء الكبير ، من Diabas اللايتي ،  
لم أطلق على ما يعرف اليوم بالستود ، ومنه  
يقال : قول منسي ، أي متفجع في الداموسي  
أو الديباسي ) ، ثم كانت حمامات القسطنطين  
بعد ذلك كديباسات نتيجة للاستيلاء لولئك  
المصريين . ثم الخطط عمرو مسجده ، وهو  
أقدم ما جد مصر ، وإن كان قد عدل وهدم  
وبني من جديد بعد ذلك مرارا ، ولا زال  
باقيا إلى اليوم ، ويعرف لقومه بالمسجد العتيق .  
ثم اتخذ عمرو داره شرق المسجد وبني

القسطنطين أما نشأت على أساس موضع كان  
منسكونا قديما ، أعاد العرب تخطيطه وتنظيمه  
بمعاونة أهل البلاد . فلم يكن العرب باثنين ،  
وليس لدينا ما يدلنا على أنهم بنوا مدينتهم  
هذه بأيديهم ، وما تقوله المراجع من أن اسمها  
مشتق من قسطنطين عمرو بن العاصي فرض  
لا يمكن رفضه تماما ، وإن كان من المحتمل  
أن يكون الاسم مشتقا من لفظ «توساطون»  
أي لاني بمعنى الصبر أو الصديق . وقد سبق  
أن أشير إلى أن المنطقة الواقعة بين قصر  
الشمس ( حصن بابليون ) إلى ما يعرف الآن  
بمعين الشمس كانت عاصمة بالقرى والمزارع  
والأديرة ، فاختار العرب أن تكون مدينتهم  
بشما .

ولقد كانت عادة المسلمين في ذلك العهد  
إذا أرادوا أن يبنوا مدينة ، أن يبدؤوا ببناء  
مسجد جامع تقوم من حوله المباني بعد ذلك .  
هكذا حدث مع الزكوة والقيروان مثلا ،  
أما في حالة القسطنطين فقد بدأ العرب بتخطيط  
المدينة ، أي بتحديد المكان الذي ستقوم فيه  
وتقسيمه قطعا ، بل أقام عمرو بن العاص  
رجلا من أصحابه مشرفا على هذه العملية  
وهو معاوية بن أذينة الكندي ، الذي  
سيكون له دور عظيم في نصرته معاوية بن  
أبي سفيان ثم في فتح المغرب بعد ذلك .  
ونستبعد أن يكون هذا الأسلوب المرتب في  
الإنشاء من عند عمرو نفسه ، بل يغلب أنه  
استرشد فيه برأي من كان حوله من كبار

تسمى خطة الليف . وكان الوافدون من العرب يتوزعون في خطط قبائلهم ، فلما ضاقت الخطة أنشئت خطة جديدة عرفت بخطة أهل القاهر .

وكانت ههنا الخطة أول الأمر بسيطة : تنقسم القبيلة منازل على حدود خطتها ، وتترك ما تدور عليه لفساد ، ولقد ضاقت هذا الفساد شيئا فشيئا بانفاسه ، فكان جديدة فيه وتعود الى جوار من اثباتي تغلغلها الدروب والأزقة . ولهذا فلم تكن في القمم القديمة تنوارح ريفية أو صحبات تأخذ من طرف لطرف . قال ابن زولاقي : « وقرى عسرو بين الروم والفرس » وجعلهم في طرفي البلد ، فاستكن الروم الصحراوات ، واستكن الفرس بني وائل وراشدة وبساتين بني وائل ، ولهم الى اليوم مسجد يعرف بمسجد الفارسيين ، وأمكن القبط انقصر ، واستكن العرب الغلطة ، أي أله جبل من الغم الى جبهه من عرب المسلمين الذين كانوا يعرفون بالحصراء في طرف البلد الجنوبي على شاطئ النيل في الغالب ، لأن الموضع الذي غلوه يعرف بالحصراء الدنيا فيما بين حصن بابليون والنيل . ثم انتهى الناس صفوها من المنازل على شاطئ النيل زحفوا بها الى الشمال ، وقد نقا عن ذلك ما عرف بالحصراء الوسطى ثم الحصراء القصوى . أما القصر الذي أسكنه الإقباط ، فأكبر به ما يلي قصر الشمع الى الجنوب ، أي أنه أنزلهم خارج البلد .

أصحابه الدور فيما يجاوره . وكانت الدور أول الأمر من طبقة واحدة ، ولا تزيد غرف البيت عن ثلاث أو أربع . ولابن دقماق صاحب كتاب « الاستثمار لواسطة عقد الأمصار » مبالغات فيما حرص المسلمون عليه من البساطة في الأبنية . ولم يكن بحاجة الى تكلف ذلك كله ، فإن الأمر بطيئه لم يكن يخرج عن هذه البساطة .

وقد استطاع دولي جئت أن يطرح دسما للتسطاط الأولى اعتمادا على أطلالها وبقية أسس بيوتها التي تم كشفها ، وأتم عمله الأخرى المصري على بهجت . وقد ذهب الى أن البلد كان يمتد من القرية الواقعة جنوبي القاهرة والتي كانت تعرف بدار الطين ثم عدل اسمها الى دار السلام وتصل حتى بركة الحبش وقد جئت الآن « وكانت تقع قرب المرتفع الذي كان يعرف قبل بجبل يشكر ويعرف موضعهم الآن باسم أرض طولون » وعليها تقع جامع أحمد بن طولون . وكان في كل خطة منسوبة الى قبيلة ديوان أو سجل بالمعبد في الجند الرئيسي من أهلها ، وفي دار الاسماوة كان يوجد السجل العام أو الديوان وهو ادارة اعمالية صغيرة تقوم بتسجيل العرب المستقر في الجيش وأبنائهم من لهم الحق في الاقتحام في الجندية والحصول على العطاء والرزق . وكان لأهل الراية ديوان خاص في خططهم ، وكانت هناك خطة للعرب الذين لا ينتمون الى قبيلة معينة ، وكانت

وشينا قسباً احتفى اسم بابليون وبقي اسم القسطنط . وكان اسم مصر يطلق على القسطنط أيضاً ، وأطلق قسباً بعد ذلك على القاهرة . أما النصوص اليونانية فأتلفت على البلد اسم فساطون ، وهذا هو الذى حدا بالمستشرق دوزي الى القول بأن تخطيط الصلطان مشتق من فساطون اليوناني . ويقوى هذا الرأي أن بعض النصوص العربية تقول قسطنط ، ويسفنه أن البلد لم يحط أول الأمر بفسطاطي وإنما حصن بزوب أو ذرية ، وهو السر يتخذ من فسات ذى شوك .

ولابد أن نضيف أن العرب لم يضعوا اسم مصر لهذا الموضع وإنما كانت تستعمله قبل دخولهم القبائل العربية الحاربة في شمال الجزيرة بسنى الحيدود أو الحد ، وربما استعمل أيضاً للمسكر الذى يقوم على الصدود . ويرجح أن أصله نبطي ، فلما انتشر العرب مراكز العسكرية سموها مصاراً ، فقالوا مصر الكوفة ومصر البصرة . ويرجح أنه كان يطلق أيضاً على موضع حصن بابليون ، ثم قالوا مصر القسطنط ، ثم أطلقوا الاسم على بلاد مصر كلها . أما الأفسريون فكانوا يقولون Aegyptos . وقد أخذ هذا الاسم طريقه الى اللغات الأوروبية . أما اسم مصر القديم وهو خيمى أو شيمى أو كيمى فقد اختفى نهائياً .

ولم تكن القسطنط عاصمة مصر بقدر

ما كانت مركزاً للعرب ، غنى أنشاء العصر الأموي نجد عبد العزيز بن مروان ينقل دار الإمارة الى حلوان . ولم يغم السائل خلال العصر العباسي في القسطنط وإنما موضع بالحيرة القصوى عرف بدار الإمارة . وقد ثبتت حول دار الإمارة بلدة صغيرة هربت باسم مدينة العمكر ، قسم فيها مسجد جامع جديد عرف باسم جامع المسكر أو جامع ساحل الفل . وقد أضافت القسطنط من ذلك لأن يسكني الجبلدين الصل ، فغدت الى القسطنط أمينة كعاصمة ، وأنشئت لها شرطة خاصة عرف باسم الشرطة العليا . وقد امتدت القسطنط واتدمجت بالقاس شيناً قسباً ، ولكنها لم تسور . وفي سنة ٦٨٢/٦٩ حفر عامل ابن الزير على مصر خيراً حصول القسطنط ليحتميها من جنود الخليفة مروان ابن الحككم . وقد أنشئت فيها المنشآت العكوبة الواحدة بعد الأخرى ، فمصر الجامع المشرق ، وأنشئت مساجد صغيرة في الخلط عرفت بالمصليات ، ثم أنشئت أهرام كبيرة كلقصع فكثر في النصوص الأهرقية ، ثم أنشئ بيت المال على مقربة من الجامع . وكان يقوم على أساطين هي أمصة ، وكان يتصل بالجامع ، وبابه الرئسي داخل المسجد ، ولهذا كان المسجد يغلي من المعلن بعد الغمشاء . وقد أصبحت القسطنط بكوارث كبيرة خلال العصر الذى ندرسه ، أقامها أعرلق مروان بن محمد أياما سنة ١٢٢/٧٥٠

أنشاء قراره أمام الباسين ، حكى ذلك  
ساويرس بن المتق . وقد استمرت مدينة  
العسكر مقام الأبراء حتى قدم أحمد بن  
طولون مصر وأقام دونه معتددا على جنده  
الأتراك ، وأنشأ القلاع . ومنجحت عن ذلك  
فيما بعد .

ولقد ذكرنا أن نورا من العرب نزلوا  
موشح الجزيرة واختطوا مدينة الجزيرة  
وجعلوها خططا ، وكان معظم من نزلوا من  
العرب من قبلي همدان وياض . وقد بنى  
عمر بن العاص في المدينة حصنا قويا بين  
سنتي ٢٩ و ٢٢ / ٢١ - ٦٤٢ ، ثم بنى فيها  
مسجد جامع عرف باسم مسجد همدان  
وينسب إلى مروان بن حمر بن بكيل ، وقد  
عرف أيضا بالمسجد الأعظم لاسيما وكان  
ملاصفا للحسن . ولقد تلاصق الحصن والجامع  
فلا يجد لها ذكرا عند ابن دقان .

أما الإسكندرية فلم يبنى بالمسرب  
الأولون فيها شيئا ، وإنما نزلوا في مسابكن  
كانت بعض الروم دخلت بغزوهم من مصر ،  
فكانت تسمى الأخاف . وكان المسلمون  
يسكنون هذه البوادي رباضهم ، فإذا قلقوا  
سكنوا الروم وعلينهم مومنا ، ثم استقروا بها  
بصورة نهائية .

#### أهم أحداث مصر من الفتح العربي إل قيام دولة أحمد بن طولون

هذه هي المراكز التي تجمع فيها العرب  
من أول الأمر ، وقد عاشوا فيها كما قلنا

حياتهم العربية الخالصة متصلين اتصالا دائما  
ومباشرا بأبناء عمومتهم في الجزيرة العربية ،  
ولهذا فقد كان تأثيرهم عظيما بكل ما يقع  
في شبه الجزيرة من الأحداث ، منهم في ذلك  
مثل عرب الكوفة والبصرة وما إليها . ولهذا  
فإن تاريخ هذه الجبايات يستمر جزءا من  
تاريخ الخلافة عامة لأن تاريخ مصر فحسب  
وينبأ ظل أهل مصر بعهد بنى من القرن  
الكبرى التي عزت كيان الدولة الإسلامية  
خلال القرنين المجريين الأول والثاني اشترك  
عرب مصر في هذه المشاكل كلها وقاموا بدور  
حاسم في الكثير منها . فقد اتى عرب مصر  
بأقسامهم في مصحات القتلة التي انتهت بقتل  
عشائه بن عفان .

وليس هنا موضع تفصيل ذلك ، وإنما  
بعضا لنلاحظ أن عبد الله بن سبا الذي يقال  
أن أصله من يهود اليمن وجد أذا صافية  
من اليمنيين في مصر ، فكان الذي دفع عرب  
مصر إلى الاضطراب في هذه الفترة هو استنكار  
جباة اليمنية لما ألهمهم إياه بعض البعاع من  
أن يرقوا من لرش مستبد بالأمر مضيق  
لشؤون المسلمين . أما من انضم إلى الحركة  
من القرشيين فكانوا ينكرون اسم مستبداد  
بنى أمية بالأمر دون غيرهم من القرشيين  
باسم الخليفة عثمان ، وقد زاد نفورهم تولية  
عثمان أمور مصر أخاه من الرضاع عبد الله  
ابن سعد . وقد بذل الرجل جهدا عظيما ليثبت  
أنه جدير بتة الخليفة ، فقام بحملة كبرى على



المغرب ، وانصرف على الروم في سيطرة سنة ٦٤٧/٦٧ انتصارا لا يقل عن انتصار عمرو على الروم عند بابليون ، ثم غزا الثوبة وخرج أهلها على معاهدة المسلمين سنة ٦٥١/٣٦ = ثم كتب انتصار ذات الصواري سنة ٦٥٤/٣٤ ، ولكن ذلك كله لم يفتح له ، وأسر حرب مصر على الكاراء وكراهنهم له .

وربما كان من أسباب هذه الكراهية اجتهاده ﷺ جميع المال والارتفاع بالفراج حتى جمع منه لورق ما جمع عمرو بن العاص ، وبهذا كان عبد الله بن سعد مشتبلا بهذه الفتوح كان ابن سبأ ومن انضم اليه يثيون له ، فلما عاد من غزوة ذات الصواري سنة ٦٥٥ هـ / ٦٥٥ تبين حقيقة الأمر ، فاستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني ومضى الى المدينة ليلقي الغلبة . فلم يكده يخرج من مصر حتى لار حربسا على عقبة وطردوه وترهبهم محمد بن أبي حنيفة ، وربما كان غرضهم الأول التخلص من والي عثمان عليهم ولكنهم وجدوا من عثمان اصرارا على واليه ، فزادوا سطحا . وتلقوا عندما علموا انه يخرجهم من حرب الامصار الاخرى يشاؤكولهم الراي في ولادة عثمان ، فلهبوا الى المدينة بجساعة منهم يظان ان عددهم كان ٦٠٠ رجل ، وفي المدينة التي حولا . بفيرهم من الثوار وتطور الامر حتى انتهى بمقتل عثمان بن عفان في ذي الحجة سنة ٦٥٥ هـ / مايو ٦٥٥ . وقد انكشف المناصرون . لشان على

انفسهم اثناء ذلك كله ، وعرفوا بالعمانية ، وعلى رأسهم معاوية بن حديج وخارجة بن حذافة وسلفة بن مخلد وبسر بن أبي أوطاة ، وعرفوا كيف يحافظون على وحدتهم ومركزهم اثناء ذلك الوقت العصيب . واخذه حولهم ثمر من حرب مصر ، وبثوا الخصومهم ، ولهم ما بذله محمد بن أبي حذيفة والي علي على مصر من الجهود ، ثم اقبل اليهم معاوية ابن أبي سفيان بنفسه واتلى بهم ﷺ سكتت من كورة عين شمس سنة ٦٥٦ / واحتال على محمد بن أبي حذيفة حتى تخلص منه ، فوالى علي حتى مصر فبس بن سعد بن قبيصة الانصاري ، فدخلها سنة ٦٥٧ / ولكن معاوية وعسرا عرفا كيف يوقمان منه وبين علي فزله ، وولى مصر الاشتر بن مانك بن العارث التميمي فغير معاوية الخيال ، فوالى علي محمد بن أبي بكر فلم يستطع الثبات لانه كان رجلا طائفا قليل التدبير ، لم يلبثه عمرو بن العاص ان انتصر عليه واستعاد مصر لمعاوية سنة ٦٥٨/٣٨ هـ أي قبل مقتل علي بستين .

ويبدو أن هذا الابتكار لاستئثار بني أسية بالامر دون غيرهم هو الذي دفع بغالبية حرب مصر الى تأييد عبد الله بن الزبير عندما طلب الخلافة لنفسه عام ٦٦٠/٦٦٠ . ولم يكن يقتصر ذلك على حرب مصر بل شمل حرب الحجاز واليمن والعراق وكثيرا من عرب الشام . ومن الواضح ان عامة العرب لم يكونوا قد سلخوا

بحق بنى أمية في الخلافة ، وإن كانوا قد خضعوا للقوة . ويبدو هذا بصورة واضحة عند عرب النواحي ، فقتلوا عبيدين عن مركز الخلافة يتمتعون بجانب كبير من الحرية ، ويبدو ذلك بصورة واضحة في حالة حرب مصر ، فقد كان لهم وضع خاص يختلف عن وضع حرب العراق مثلا . فقد كان هؤلاء الأخيرون يعيشون من أرض تملكها الدولة وليس لهم الأمل بها . أما حرب مصر فكانت رغبة أرضهم بأديم أو بأبدى المصريين ، ولم يكونوا يفتشون أن تنزعهم الموتة من الأرض أو يحاربهم بالأسلحة التي حارب الحجاج حرب العراق بها .

ومهما كان الأمر فقد كان عسرب مصر مستبدين لتأييد أي منافس لبنى أمية في الخلافة ، سواء أكان المنافس ابن الزبير أو غيره ، وخاصة عندما اقتصر الخلافة مروان ابن الحكم سنة ٦٨٥/٦٨٥ فقد بدأ يوضح أن المسألة مسألة مهارة وخداع وتغصب بالقوة ، ومن قهر على الخلافة حازها بصرف النظر عن الحق أو رأي الأمة . وقد بدأ مروان من الحكم أمره بأساسة مرج راعط حيث أولى القيسيون بالكثبيين هزيمة فاحشة تردد صداعها في نواحي الدولة كلها ، ولم ينمن اليمينيون محمية مرج راعط أبدا ، ومنل الحقد ينلى في صدورهم ، ولم يغادروا فرصة لزراعة بناء دولة المروانيين إلا ابتدوها ، بحيث يمكن القول بأن انهزام بنى مروان

وخروج الأمسر عن أيديهم بدأ يوم مرج راعط .

وقد انهم مروان بأسم مصر اهتماما عظيما ، وأسرع إليها ليستعيدا من وإلى عهد ابن الزبير عنها وهو عهد الرحمن بن حنبل بن حنبل بن حنبل ، وقد أبلى ابن حنبل بلاء عظيما في دفاع مروان بن الحكم وجنده ، ولحقه حرب الفسطاط لموه ، وكانت طائيفهم يمنية ، ولكنهم انغمروا للنسب الذي حرّم اليمنية في صراها مع انشامية في كل ناحية من نواحي الدولة ، وهو أنهم كانوا أكثر امتسكا بما كانوا انصرفون إليه في الولايات من زرع وشنون وعاش ، في حين أن انشامية كانوا قليلي الاهتمام بهذه الناحية ، أما همهم الحقيقي في السياسة وعلم السلطان ، فكانوا أصبر من اليمنيين على الكفاح السياسي والعسكري ، وربما كسب اليمينيون الفصصارات أولى ، ولكنهم لم يكونوا يصبرون في الصراع الطويل ، ولهذا عقدت الانتصارات النهائية دائما بطواه القيسية . وقد دخل مروان بن الحكم الفسطاط سنة ٦٨٥/٦٨٥ وبأمره حرب مصر الا أنه قليل تغلب منهم مروان يوسافي شني وقد انصرف يمنية مصر بعد ذلك عن المناوأة واستغرقوا في شنون وعاش ، فعدت أعمالها إلى نهاية العصر الأموي .

غير أن اليمنيين شربوا منذ أيام يزيد بن الوليد أن أمر بنى مروان إلى زوال ، فقد

ضخف أمر القيسية بعد ذلك الجهد الطويل الذي بذلوه في تثبيت بني مروان منذ أيام مروان بن الحكم . وإذا كان اليمينيون قد عجزوا عن مواجهة الخلافة المروانية جملة واحدة ، فإن جماعاتهم في كل ناحية من نواحي الدولة أخذت تناوئ ، من معها من القيسيين ، ولعل ذلك بصورة واضحة جداً عندما ولي الأمر مروان بن محمد ، فقد اعتمد على القيسيين اعتماداً كاملاً مخرج سدور البنيين في كل ناحية . وفيما يصلح بصر نجد والهاشمي بن الوليد الحفصيين ، وكان يسيئاً ، يستعلى من ولاية ، مر حطب سابعه للمصيب مروان بن محمد خليفة ، فولي مروان عليهما حسان بن عثاية وعلى خراجها قيس بن أبي عطاء وعما مضربان قبيان ، فالتصم اليمينيون بقاومونهما حتى اضطرروهما إلى الخروج من مصر ، ولجسوا على أنفسهم حفص بن الوليد مرة ثانية .

وكانت دعوة الباسيين قد قوى أمرها وتولمت أخبار تجمع قواهم في شرار الدولة الإسلامية ، وربما وصل إلى مصر خبر من دعائهم ، فتجمع اليمينيون وصارحوا مروان ابن محمد بالعداء ، وقد اجتمع الخوارج فولي مصر حنظلة بن صفوان الكلبي ، وكان يسيئاً من المختلصين لبني مروان ، وكان قد خاض مارك طويطة في المغرب لم يوفق في شيء منها ، فرغض المصريون الاختراف به وأخرجوه من القضاة . وظل حفص بن

الوليد واليا على مصر حتى أوائل سنة ١٢٨ / ٧٤٥ ، وقد روج مروان روعاً شديداً لخروج مصر عن سلطانه ، فالتصم لاختراع عرجا رجلا من خيرة رجاله هو حوثر بن سهل الباهلي ومعه سبعة آلاف من جنده حفص والحيرة وقنسرين ، فخلف عسرب مصر ، وتعلّى حفص بن الوليد عن الأمر وطلب أنصاره الأمازيغ ، فأنهم ، لم يلبس بهم وقتل زعماءهم بما قيم حفص بن الوليد سنة ١٢٨ / ٧٤٥ .

ولم تمض سنوات حتى كانت هزيمة مروان بن محمد أمام قوات الباسيين على نهر الراب ( جمادى الآخرة ١٣٧ / يناير ٧٥٠ ) ، ولعل بنو مروان وولائهم أن أمرهم قد انتهى . وهنا لعبت فكرة التحصن بمصر تدور بفكر مروان بن محمد ، وحدته بعض أصحابه بالعسارة التي لا ترال تردد في أحداث مؤرخي مصر الإسلامية : « هي أكثر بلاد الأرض مالا وخبلا ورجالا » ، وهي « كليلية » لا يزال يتردد على ألسنة رجال الدولة ، دون أن يحاول أحد منهم الاستفادة منه ، حتى جاء أحمد بن طولون .

وبينما كان مروان بن محمد يفكر في هروب يلبياً إليه كان إليه علي مصر عبد الملك ابن مروان يستعد لحماية إخيه من الباسيين ، وقد ارتكب في ذلك السبيل حماقات ما كان اقناع عنها : حادد أموال الناس واستولى على ما قدر عليه من نحاس وحديد ليستخدم

وذكر مكافأة المبشرين لآخوانه على ما قاموا به من حرب مروان ، فقد خففوا عنهم الخراج وطلتوا سراح الأقباس ميخائيل وبسطوا حمايتهم على الكنيسة المصرية وأملكها ، وأعفوا أهل الكشور من الخراج ومنعوه من مالا على سبيل المكافأة .

هكذا دخلت مصر في طاعة المبشرين ، وتولى أمرها صالح بن علي عم أبي عبد الله السفاح أول خلفاء بني العباس . ولم يعلم عرب مصر الذين استسلموا في المقاومة على القضاء على بني مروان أن هلاك آخر مرواني إنما هو إيذان بنهاية امتيازهم في مصر ، فبعد كانت للمبشرين وجهة أخرى في الحكم طير وجهة الأمويين : فاست دولتهم على يد العرب واختارت عاصمتها على حدود أرض الفرس في بغداد على الضفة الغربية لنهر دجلة ، واجتمعوا بذلك عن الجناح الغربي للدولة الإسلامية ابتداء كاسما ، وبدأت وحدات هذا الجناح تنفصل عن كيان الدولة الإسلامية الواحدة بعد الأخرى : بدأ الأمر في الأندلس بقيام دولة عبد الرحمن الداخل ، ثم انفصلت إفريقية عندما استولى بأمرها بنو الأغلب على أيام الرشيد ، وفلت مصر بين طاعة وهشام وحرب وخوشى متى استبد بأمرها أحمد ابن طولون .

وفقد كثر الطارحون على المبشرين في مصر كثرة تستوقف النظر ، ففى خلافة المهدي وأثناء ولاية إبراهيم بن صالح بن علي ( ١٦٥

ذلك كله في شئون الدفاع ، فتغيرت النفوس عليه ، ورموا بني مروان عن قوس واحدة ، حتى إذا بدأ مروان بن محمد يسير إلى مصر هاربا من بني العباس اجتمع قتر من الجند إليه من دخولها ، ثم أقبل مروان بغلول جيشه ، فوجد مصر مدمرة مدمرة مدمرة ، من الاستكسرية إلى أسوان مع المبشرين عليه . ثم انظم اليهم أهل الكشور ( ويسمونه أيضا أهل البشور ) وانضمصموا بمستنقعاتهم ، وقضى مروان في مصر نحو الشهرين يحاول أن يجبع أمره دون جدوى .

فلما علم بأن قائد المبشرين صالح بن علي وأبا عون في الطريق إلى مصر أمر باحراق القساطل ، ثم أحرق جميع المراكب الراسية في دار الصناعة بالروضة ، ثم مضى جنده يطربون ما استطاعوا فخر به من أراضي الوجه البحري ، كالما على أن سياحة الأرض المحترقة *La terre brûlée* . وقد تنقذ من مصيره المحتوم . ولم تكن لذلك نتيجة إلا تفتت أهل البلاد جميعا — حربا ومسلمين وأقباطا — فقد شاء له رأيته الذي أن يطحن على البطرك الأبا ميخائيل لأنه لم يرد إليه مالا معلوما ، وانتهى الأمر بالقبط عليه وقتله في بوعبر الملقب ( مدينة البيرة ) في ٧ من الحجة ١٦٣/٧ يوليو ٧٥٠ . وبهذا لقي آخر خلفاء بني مروان مصره على ترق مصر ، وأصبح لساويرس بن المقفع مؤرخ الأقباط أن يعنى المتأخرة في تاريخه ،

١٦٧/٧٨١ - ٧٨٣} كاد يستقل بصعيد مصر داعية أموى هو دحية بن مصعب بن الأصمغ بن عبد العزيز بن مروان . وكانت كفة المظرة قد شالت وآذ الاوان للبيعة لترد اليها ما اسلفت من المساءات أيام عز بني أمية ، ووقفه العهائد وجها لوجه يتقاتلان في نواحي مصر حتى عمت العوضى ، وزاد الأمر سوءا لن ولالة بني العباس ثم يتكولوا على قدره أو كفاية ولم يميز أحد منهم بين من الخيرة أو حسن الإدارة ، وكانت الدولة لا تكاد تولي واحدا منهم حتى تمزله ، لا بسبب العجز في ذاته ، بل لأن سياسة العباسيين الضامة نفسها قامت على تغيير الولاة لحول من استيادهم بالأمر .

ثم ان الولايات بالنسبة لبني العباس كانت قد أصبحت مجرد مصادر للإيراد ، فمن مرضى على الخليفة أن يأية بفراج أكثر ولالة الأمر ، وهي سياسة سامانية فديمة أدخلها خذراء بني العباس ، وكما كانت هذه السياسة من أسباب زوال بني ساسان فقد كانت من أسباب اضمحلال طقت العباسيين ، ومن غريب الأمر أن خلفاء بني العباس كانوا مولعين بالنظر في تاريخ الفرس : فلو أن الاسان اعثر بالتاريخ لاعتبره العباسيون ، ولكن التاريخ قلنا فاد صيرة أو اعفى درسا ، وكل من دلى أمرا يحسب أنه أول عاقل تربع على عرش . وليس تاجا .

والتأمل في أحداث تاريخ مصر خلال

المصر العباسي يشر وكألبا قد تحولت البلاد إلى ميدان فسيح الذكر والفر ، بين رجال الدولة وخصومهم حينما وبين بعض قبائل العرب وبعض حينا آخر . وقد بدأ الأمر بفتنة دحية بن مصعب بن الأصمغ المرواني الذي ذكرناه ، وقد طال أمره ( من ١٦٥ - ١٦٩ / ٧٨١ - ٧٨٥ ) ولم يشكن ولالة بني العباس من الخلاص منه الا بعد عناء شديد . وكانت ثورات حرب مصر مع العلويين كثيرة كذلك ، وأول فتنة علوية نسمع بها كانت في خلافة المنصور ، فادها أحد العلويين في مصر وهو على بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب . فقد دعا لأية محمد المعروف بالنفس الزكية وانتهى أمره بالنهاة أمر آية في وقعة ياخرا بين الكوفة وواسط في أول ذي الحجة ١٩٥/٧٩٣ .

وبعد أن دمر بدت لدعاة العلويين وكألبا قرية خسة لدعواتهم فكثروا فيها واشذروا بسببون المشاعب للولاة ، حتى ضائق العباسيون بأمرهم ، فأمر الخليفة المنتصر بالله على مصر بالأا يتقبل علوي طيمة ولا يركب فرسا ولا يخرج من القضاة ، ثم أخرج كل من عثر عليه بمصر من العلويين إلى بغداد في رمضان ٢٤٨/٨٩٣ أيام خلافة المستنير .

ولا ينبغي أن نصرفنا نورا هؤلاء العلويين عن الحقيقة التي عتتر تحتها ، وهي كراهة عرب مصر وأهلها تعجد الشرك الذين اعتمد عليهم العباسيون ، فقد كانوا

خلافا على الناس شديدي الوطأة على البلاد ، ومن ثم قلم يكن الناس يسعون بسعة علوى الا يسرعون انى تأييدها ، وفي بعض الاحيان لم يكونوا بحاجة الى انتظار علوى ليؤدهم في الثورة ، كما ترى في ثورة جابر ابن الوليد المندلي بالاسكندرية في ربيع الآخر سنة ٢٥٢ / نوفمبر ٨٦٦ أيام الحضر ، فقد اشد أمره حتى بسط سلطانه على الكتبة من بلاد الروم البحرى وجبى خراجها ، وقد اصطر الخليفة الى ارسال جيش كبير الى مصر ليقتض على جابر هذا ، فأتى الجيلى بغيره بزعامته بخلطان وقضى على الثائر وتولى مزاحمة أمر مصر في ربيع الأول ٢٥٣ / ٨٦٧ .

وعندما ثارت الفتنة بين الأميين والعاميين أحس أهل النواحي أن هيئة الدولة زالت ، فقد اتهم كل منهما الآخر بكل رهينة ، ولم يكن النزاع بينهما إلا أول أمره لئلا بين الثغر والمغرب كما ذهب كثير من المؤرخين ، لأن كلا المعسكرين كان يضم عربا وغربا ، ولكن الأميين عندما بدا له ضياع أمره فكر في الاستعانة بعرب الشام ، وأخذ دعائه يصورون دعوة الأميين على أنها دعوة العرب ودعوة المأمون على أنها قضاء بهم على العرب . وقد برع في كتب التاريخ حسدى هذا الدور الأخير الذى أخذ ذلك النزاع المحزون بين ابنى الرشيد في مصر ، وتزعج جابا من عرب مصر في الدعوة للأميين السرى ابن الحكم بن يوسف وظل يدعو للأميين

حتى بعد هزيمته . ولكن وإلى المأمون على مصر عباد بن محمد بن حيان استطاع أن يتغلب على خصمه ويأخذ بيعة أهل القسطنطينة في جمادى الآخرة ٢٦٦ / مارس ٨٦٧ .

وقد وقعت في البلاد فتنة عنيفة بعد ذلك ، إذ خشي السرى بن الحكم وولده ساره على أنفسهم ، واسنظفوا أن يكسبوا عرب الحوف الى جانبهم ، وبعث الأميين الى ربيعة ابن ليس زعيم الليبيين بالعوف يوليه أمر مصر ، فتمضى ربيعة بن قيس بهم وقبلوا يعاضد القسطنطينية . ورأى عباد بن محمد بن حيان عامل المأمون أن يكسب الى جانبه ثرا من حرب مصر بتقى بهم بلاه أنصار الأميين ، فاختار للأمر عربيا ضوحا الى السلطان هو ■■■ العزيز بن الوديع الجعوى ، فالتزم الجعوى في ذى القعدة ٢٦٧ / سبتمبر ٨٦٣ ومضى بفتول قومه من لغم وجندام الى فافوس ، وعناد ألقى المسار في نفسه فكرة الدعوة لنفسه . ولم لا / ألم يصبح الأمر لومى لا ضابط لها ، وبالفعل ، دعا عبد العزيز بن الوديع الجعوى لنفسه والى على مصر وبعث ساه لجباية الخراج من الوجه البحرى ، وتصدى له السرى بن الحكم ومن معه ، وأصبح النزاع في الحليقة بين فريقين من عرب مصر ، على أحدهما السرى بن الحكم وعلى الثانى عبد العزيز الجعوى . وقد طال النزاع بين انجائين ، حتى سنة ٢٧٠ هـ / ٨٦٥ حين أجمع جنده

القساط على السرى ، ولكن الحسروى  
اعتصم بشرق الدنا من شطونف الى الغرما  
وجيى خراجها ، بل استقل بالاسكندرية  
وما حولها بمضى زعماء الصرب ، وتفرقت  
البلاد أبدى سباعت نواحها القوضى .

وليس أدنى على ذلك من استيلاء  
البرنيزيين الأندلسيين على الاسكندرية  
واستبدادهم بأمرها في ذلك الحين ، وأسر  
أولئك الأندلسيين أقرب الى الأسطورة ،  
لقد كانوا في جملة من لاء على الحكم  
البرنيزي الأندلسي وكانوا يصبون عليه ، فلما  
أخذت قسنتهم واستمر له الأمر أخرج أهل  
دبش قربة الجنوبي سنة ١٩٨/٨٩٣-٨٩٤  
من الأندلس مقابا لضم على قيامهم بهذه  
الفتنة ، فذهب بعضهم الى الدولة الأخرينية  
واستقر بفاس وأندلس فيهما حيا خاصا  
يعرف مدوة الأندلسيين ، وأما الباقول فقد  
ساروا بهرا ونزلوا على مفرقة من الاسكندرية  
عام ١٩٩/٨٩٤-٨٩٥ يهودهم رئيسهم  
أبو حصي عمر بن حصي بن شبيب بن الوليد  
البكلسي . ولم يؤذن لهم بدخول البلد لأن  
الولاة كانوا لا يسمحون لجساعات  
الأندلسيين بدخوله ، وكان محمد حسولا  
الأندلسي المزيين نحو ١٥٠٠ رجل  
عدا نسايتهم وأطفالهم ، وقد ظافوا خارج البلد  
حتى وقع خلاف بين عامله عمر بن حلال  
وعبد العزيز الوزير الحسروى صاحب  
السلطان على الدنا إذ ذاك . فأسرع الوالى

عمر بن حلال يستج بالأنديسين وأدخلهم  
البلد ، ولكن الأهلين أنكروا ذلك ، وتاوروا  
بالأنديسين وأخرجوهم بعد أن قتلوا منهم  
وطردوا عمر بن حلال أيضا .

وقد استطاع هذا الأخير أن يعود الى  
ولاية الاسكندرية اثر خدمة وتقنية بين السرى  
ابن الحكم وعبد العزيز الجوى ، فلما استقر  
فيها طلب اليه الأندلسيون أن يدخلهم مرة  
أخرى ، فخاله أن يلح له ما وقع لى المرة  
الأولى ، فلما كان منهم إلا أن اقتصروا البلد  
بمناولة طائفة عرفت بالصوفية ، كانوا  
يقولون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر  
ويعارضون الولاة ، وماونهم كذلك فر من  
بين لضم كانوا في الاسكندرية ، وداوت  
بينهم وبين عمر بن حلال حرب قت فيها سنة  
٢٠٠/٨٩٥ . واستقر الأمر للأندلسيين  
والفخمين في الاسكندرية ، ثم اختلوا فيما  
بينهم ، ووقعت الحرب فالتصر الأندلسيون  
واصبوا سادة البلد ، ووفروا عليها عبد  
الرحمن الصولى رئيس جماعة الصوفيين الذين  
ذكرناهم ، ثم عزلوه ودولوا رجلا منهم يرمونه  
بالكناني ، وهكذا فصلت الاسكندرية عن  
بقية البلاد وحكمها أولئك الأندلسيون .  
وأراد الجوى أن يشتغل البلد ، فحاصر  
البحا في جيش عده غضون ألفا ، ولكنه لم  
يتسكن من ادراك غايته ، لأن متاقه السرى  
أراد أن ينتهر العرصة ليستولى على مقره في  
نيس ، فماد الجوى مصرعا .

وقد استمر النزاع بين السرى والجروى  
ثم بين ابنيهما كذلك ، ولم ينته الا عندما قدم  
الى مصر عبد الله بن طاهر قائد المأمون ،  
فانضم اليه على بن الجروى ومن معه ، ثم  
دخل عبد الله بن السرى مكة طابعت سنة ٢١١ /  
٨٢٩ على امان وعهد . وبعد ذلك سار عبد الله  
ابن طاهر في صفر ٢١٢ / ٨٢٧ الى الاسكندرية  
وصالح الأندلسين على أن يسبروا من  
الاسكندرية الى أي موضع يريدون ، فخرجوا  
في البحر الى جزيرة كريد فاعتزلوها من أيدي  
البيزنطيين فمروهم زعيمهم أبو حفص عمر بن  
عيسى البلوطي .

وعلى هذا النحو من الأسطرلاب والقوطي

توالى ولاية بنى العباس على مصر ، لا يكاد  
أحدهم يستمر حتى يزل . وكان أمر الولاية  
كذلك قد هان ، لأن الخلفاء ، أو من يديرون  
لهم الدولة ، حرصوا على أن ينصلوا الخراج  
عن الولاية ، ويعهدوا فيه الى رجل ضليح في  
شؤون التجهيزه يضمن لهم خراج مصر بأقصى  
سبلح مستطاع ، وقد اشتهر من أولئك رجل  
يسمى أحمد بن المديفر ، وكان ماليا قديرا  
يميزان تلك الأيام ، تولى خراج مصر وأهل  
الناس بالجبايات حتى لم يبق شيئا حول  
خريبة ، وكان لهذا محل ثقة الخلفاء ورجالهم ،  
وفي أيامه دخل أحمد بن طولون مصر واستقر  
في القسطنطينية ٢٣ رمضان ٢٥٤ / ١٢٥٦  
٨٦٨ وكيلا لعميره عامل مصر للخليفة الموفق .

## دولة بنى طولون<sup>(١)</sup>

### أحمد بن طولون<sup>١</sup>

ولد أحمد بن طولون في ٢٣ رمضان ٢٢٥  
/ ٢٥ سبتمبر ٨٣٥ في بغداد أوسر من راقى ،  
وكان أبوه طولون تركيا من سواى نوح بن

### (١) أصول

الى جانب المراجع العامة التي أوردنا ذكرها  
نقلنا هذا البحث ، انظر :

أحمد بن محمد بن معروف بإبن الداية :  
مسيرات أحمد بن طولون ، نشرها Vossler في  
فايسل ١٨٩٥ .

— : كتاب التكتيكات ، القاهرة ١٣٢٢ / ١٩١٤  
البلوطي ، عبد الله بن محمد بن عمر بن  
محمود المديفر : مسيرة أحمد بن طولون ، نشرها  
محمد كرد علي ، دمشق ١٣٥٨ .

أحمد الساماني عامل بطارقي وخراساني ، أهداه  
الى المأمون في جملة ممتلكاته ، لرفاه المأمون  
حتى صار في حداد أمراء <sup>السلجوقيين</sup> ، ويقال ان  
أحمد لم يبق ابنه بل تبناه لما تومسه فيه من

كتاب الدين أبو الفضل حيدر بن علي  
الأدهري : الطالع السعيد الجامع لأسماء الخلفاء  
والرؤساء بأهل القمم ، القاهرة ١٣٣٣ .

المصنفين بن العباس القوطي : الفرج بمسند  
السلطنة ، القاهرة ١٣٤٧ .

— : جامع التواريخ المسمى بكتاب  
الخلافة وأخبار المماليك ، طبع مصر  
١٩٢١ ر ج ٨ طبع دمشق ١٩٢٠ .

الجهشياري : كتاب الوزراء والكتاب .



مقابل الحجابة، وقد أنكر ذلك أحمد بن يوسف الكاتب المروفي بآين الداية صاحب كتاب مرة أحمد بن طولون. قال أبو المعاسن: « ونشأ أحمد بن طولون على مذهب جليل، وحفظ القرآن وأتقنه، وكان من أطلب الناس صونا به مع كثرة العرس وطلب العلم وتفتحه حلقته الأساطفة السلف والابهارى وحسبى » الفاهرة ١٩٣٨ .

إبراهيم بن محمد المصري المصروف بآين الداية: الإحصاء إلى من نال الوزارة، طبعته المطبع القروى ثلاثى الشرقية، الفاهرة ١٩٢٤ . محمد بن علي بن طباطبا المعروف بآين الطقطقي: الفهرى في الآداب السلطانية والقول الإسلامية، الفاهرة ١٩٢٧ .

جمال الدين علي بن طاهر الأندى المصري: كتاب الدول المتقلبة، سورة كسبسية نادر الكتب المصرية لحن، من مخطوطات المكتبة البريطاني. وهناك مخطوطة أخرى في جوتكا نصر منها يستغل كتابه الذي سميت بالشارفة آليه من حكام مصر أيام الخديعة، »

بدر الدين محمود البيني: عقد الجمال في تاريخ أهل الزمان، مخطوط بمسند الكتب المصرية، ج ٦٦ .

أبن كثير: البدايات والنهاية، ٦٤ جزء، الفاهرة ١٩٢٣ ( الجزء الخاص ) .

أبو المعاسن: النجوم الزاهرة، طبعة ١٥ الكتب، ج ٢ .

القرينى: السموك، الأجزاء المشار إليها سابقا .

أبن إياس: بدائع الزهور، ج ١ .  
أبن خلدون: طبعة بولاق ج ٤ هي ٢٦٧ وما بعدها .

على مذهب الامام الأعظم أبن حنيفة . ولما فرغ أحمد تزوج بأبنة عمه خاتون قولدت له المعاسن سنة ٢٤٢ ، ولما مات أبوه طوكون قوض اليه الخليفة المتوكل ما كان لآبيه . ثم تنقلب به الأحوال الى أن ولي مرة التتور امرة دمشق ثم « دار مصر » .

وقد قال كارل هاينريش بيكر اذ أحمد بن طولون يعتبر نموذجاً لغيره من الأتراك « وهى ملاحظة لم يعالسه فيها التوفيق ، لأن أبن طولون كان يختلف عن زملائه الأتراك في كل شيء ، فبعد كاذن سياسياً أوربا واسع الصدر حسن التدبير بعيداً عن التتور عارفاً بشؤون المال . وكان إلى ذلك مثقفاً ذا اطلاع واسع » وهذه كلها خلال لا نعلمها الا في القليل جداً من معاصره الأتراك ، بل كان هو يتكرخل

#### أبحاث وفاسات :

أصل كتاب في الموضوع هو : الطرولون Ishtak al-Dawla للدكتور ذكرى محمد حسن ، بالفرنسية ، باريس ١٩٢٣ .

ملوك الطرولونيين : بلم كملون هاينريش بيكر ، وماعة أحمد بن طولون نفسه بالفرنسية في دائرة المعارف الإسلامية .

آدم سينر : العشيرة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٤٠ .

Al-Mulki : The Islam in Aegyptus and the Sudan , 1901 .

Leah L'Oré : A History of Egypt in the Middle Ages , pp. 39 399 .

Corbett : The life and work of Ahmad ibn Tulun (F.R.A.S. 1901) 52 .

Carl Heinitz Bucher : Beiträge zur Gesch. Aegyptens unter den Isma' , p. 148-149 .

أولئك الأتراك قد هبطوا بحرمة الدولة والخلفاء إلى درك اضطرب معه ميزان العدل وتلاشى معنى النظام وأمنشولية ، ففضى ابن طولون سنوحت شبابه الباكر بعيدا عن ذلك الوسط كله ، وصاد من برموس فأبسا مكتمل الأدوات ودخل في خدمة الظهيرية المستعين فأعجب به وقربه وأهداه جارية تسمى مياس أُنجب منها ابنه خسارويه سنة ٦٥٠/٨٦٤ .

وعندما فُقد الأتراك المستعين ، طلب هذا أن يكون الموكل بشأه أحمد بن طولون . ثم طلب الأتراك إلى ابن طولون أنه يقتل المستعين فأبى حفظا للجبل ، فبشوا تركيا آخر فقتله ، وقام أحمد بن طولون بدفته بما ينبغي له عليه من حرمة . ثم عاد إلى سر من رأى وظل بها إلى أن حصل صهره بانيكباك — وكان من كبار أجناد الأتراك — على ولاية مصر لبعث أحمد بن طولون إلى مصر وكيلًا له . وكانت الولاية إذ ذاك لا تخرج عن فساد الخراج ، أي أب بانيكباك ضمن خراج مصر للخلالة يبلغ مئة ، وأرسل صهره وكيلًا عنه ليدبر البلد ويحصل المال بمعاونة عامل الخراج ، وأقام هو في بغداد ليكون على مقربة من وكتر السعيات والمؤامرات مظافة أن يدبر أحمد حلمه عن الولاية أو اغتياله .

دخل أحمد بن طولون القسطنطينية ٦٢٣ رمضان سنة ٦٥٤ كما قلنا ، ولم يلبث صهره أن توفي فصارت إليه الولاية ، وقد تنبه من أول الأمر إلى أن الحكم لا يستقيم له ما دام

الأتراك . روى أحمد بن محمد بن خاقان ، وكان خصمًا عند ابن طولون أنه قال يوما : يا أخي ، إلى كم تقيم على هذا الاتم مسح هؤلاء الموالى ! ( يعنى الأتراك ) لا يتألون موطنًا إلا كتب علينا الخطأ والاثم ، والصواب أن تسمأل الوزير أن يكتب أوزاقتنا إلى الأثر . فكتب له ، ولحقنا إلى طرسوس ، فلما رأى ما عليه الناس من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سر بذلك .

وكان لخروج أحمد بن طولون إلى طرسوس وأقامته فيها أثر بعيد في تكوينه وتاريخه ، فقد كانت إذ ذاك قسرا عامرا بالمجاهدين والفرسان والمراطين ، يقضون أيامهم في منازلة من يلهم من الروم والتتيد والفرقة ، فاحتجى الفروبة وحصل جانيها كثيرا من الثغافة . وقد انتفع بذلك بقيته أيامه ، وكانت ذكرى أيام شببته في ذلك الأثر عزيزة عليه ، وسراه فيا بعد يذلل جهدا ومالا عظيمين في سبيل الحصول عليه .

وأهم ما أفاده ابن طولون من أقامته بالثر ابتعاده عن مجتمع الأتراك في بغداد وسر من رأى ، فقد كان البحر الذي يبتسبون فيه قائما حافلا بالمأوى والمؤامرات ، نفتلت فيه شؤون الدولة والرؤساء بشؤون القدم والبحورى اختلاطا جعل الحياة فيه أشبه بالمغامرة ، إذا سلم بلد الإنسان من الملب لم يسلم خلقه . وقد كاد أحمد بن طولون نفسه أن يفقد حياته نتيجة لمحبته جارية من جوارى أبيه ، وكان

الخروج خارجا عن يده ، وكانت الدولة تعرض على أن يقل الخراج في يد عامل خاص ، وكان العامل إذ ذاك أحمد بن المدبر ، فما زال يكتد لابن المدبر حتى عزله ونصار إليه الخراج . ثم عهد إليه الخليفة في أن يخرج لعرب أحمد الثوار في الشام ، فاستأذن في أن يجمع جيشا لهذه المهمة فأذن له ، فأرسل يشكروا فرقة قوية من الجند كانت نواة جيشه الذي أصبح بعد قليل أكبر قوة عسكرية في بلاد الخلافة العباسية . وكانت نواة هذا الجيش من الأمازيغ ، عبر أنه لم يلبث بعد استنفراده في مصر أن ضم إليه قرقا من السود ، ووصل بعد قليل إلى ما يقارب المائة ألف جندي ، وهكذا اكتملت له أدوات السلطان وسار في طريقه قدما .

وبعد القوة العسكرية استطاع أحمد بن طولون أن يقضي على كل متاعيه في مصر ، وقد لجأ في ذلك إلى كل مسيل مشروع أو غير مشروع ، ووضع على أساس الجواسيس وأخذ بالفتنة حتى اشتعل أمره بالفساد والظلم والبطش . وقد حكى ابن الأديبة فيما رواه من سيرة أحمد بن طولون كثيرا من مساوئه ، وحاول البلوي الضائع والدفاع عنه ، ولكن يبدو أن ابن طولون كان قاصبا ممرقا في اللداء ، ويبدو ذلك واضحا في كلامه من دافعا عنه ، ويبدو أيضا أن ذلك كان في أول أمره ، ثم صلحت سيرته بعد أنه استقر له الأمر ومال إلى الخير والعدل تكفيرا عما سلف من أعماله .

وقد تعرض ابن طولون لأول خطر حسيم على سلطانه بعد استنفراده في مصر بوضع سنوات ، فإن الأمير الموفق كان قد غلب على أجيال الخليفة للمتمتع وحصل منه على تفويض يحكم الولايات الترفعية من أملاك الخلافة ، حتى أن تكون الترفية - ومنها مصر - تحت حكم الأمير الموحدين في الموصل ولكن الموفق فعل بما تقتضيه حرب ثورة الزنج من حال وطلب أن يضم إليه مصر ، طمعا في مالها ، وحصل على موافقة الخليفة على ذلك ، وكتب الموفق إلى أحمد بن طولون يطلب الأموال ، فرفض ابن طولون ، وأراد أن يظهر للموفق قومه ، فالتزم فرصة موت عامل الشام سنة ٨٧٧/٨٧٨ وسار بجند واحد الشام وفتحت الرملة وحقق وحسن وحماه وحلب في طاعه ، ثم استولى على أنطاكية بعد حصار قصير . وقد فرغ الموفق لذلك ، وبينما كان ابن طولون في الشام حرج عليه ابنه العباس في مصر ، وكان يفر من الثوار قد فرروا به ، فعاد أحمد بن طولون إلى مصر مسرعا ، وأحمد العتبة وقتل المسؤولين منها واكتفى بسجن ابنه العباس . ثم عاد إلى الشام سنة ٨٧٩/٨٨٠ - ٨٨٠ ، وس ذلك الحين يبدو ابن طولون حاكما على دولة واسعة تأسس مصر إلى التوبة ، وثبتت غربا إلى يرقنة ، وتشمل الشام أيضا .

هكذا انضمت مصر والشام تحت سلطان واحد ، وبدا وكأن هذا التركي التبريد عن مصر قد سار في آثار الرعاية الأندلسية في ضم

التسام ومصر تحت راية واحدة . ولم يكن ذلك سوى المصادفة ، وإنما هي ظاهرة تاريخية لا تزال تظهر على طول تاريخ هذين القطرين : إذا قامت في مصر حكومة محلية قوية لم تلبث أن ضمت الشام إليها ، أو لم يلبث التسام أن انقسم إليها . حدث هذا في تاريخ مصر القديم ابتداء من أيام الأسرة السابعة عشرة ، ثم ظهر عنها قام في مصر مثلك البطالمة ( وإن لم يوفقوا إلى الاحتفاظ بالشام ، وكان ذلك من أقوى أسباب ضعف دولتهم ) ثم ظهر في أيام ابن طولون هذا والاخشيد والساطيين والأيوبيين والملك ، ثم ظهر في أيام محمد علي وتجدد على أيامنا هذه ، كآلها وعلتها هذين البلدين ضرورة منطقية تستلزمها سلامتهما وسلامة الشرق العربي كله .

اتفصلا المرء بمسا ويجريهما المتسلطون والمتهدون . وقد عرف الطاعمون في الشرق العربي هذه الحقيقة في العصر الحديث ، فمنعنا أرادت فخطرت أن تهدد لنفسها طريق الاستيلاء على ما تستطيع الاستيلاء عليه من بلاد الشرق العربي بدأت باقتضاء على قوة محمد علي في الشام فعمل عليها الأمر بمسد فلذلك . وما يجري تحت الظارنا من أحداث أباسنا خير مصداق لذلك . والكلام هنا ينبغي على الشام بمنسأ التاريخي الكامل ، لأن التقسيم العالي لبلاد الشام في جديد فرصته مصالح الطامعين في الشرق العربي خلال النصف الأول من هذا القرن ، وهو احدي النتائج للحكم العشائري في البلاد العربية .

وفي خلال المصور الإسلامية تلاحق أن الضامهم لم يأخذ صورة سيطرة أحد منها على الآخر ، بل أخذ صورة القوة الموحدة ، قصواء لشرقنا في تاريخ العصر الطولوني أو الاخشيدي أو الأيوبي أو المملوكي ، نجد أن أمراء مصر وسلاطينها يقيمون بالشام قدر ما يقيمون في مصر ، ويولونه من الصابة قدر ما يولون مصر ، بل أكثر بكثير . فقد حارب أولئك جميعاً في سبيل الشام أكثر مما حاربوا في سبيل مصر . وكان رجال دولتهم ثمانية ومصريين على حد سواء ، وقد ارتفعت سلامة الجناح الشرقي لنام الإسلام بانهضاد مصر والشام ، فإذا اتعدا ارتدت عنه الكطامع ، وإذا

وخالف الموقفي أحمد بن طولون بعد أن اصبح سلطاناً إلى ذلك الحد ، وبدأ يدير عليه . وكان ابن طولون وإميا لأمسه منتبها لكل ما يصدر عن خصمه ، وكان إلى جانب ذلك حرصاً على ألا يصل المصباي على الخلافة ، بل نل يدعو على مناره للخليفة المنهد ، ولم يقطع ارسال الأموال إلى بغداد ، بل ظل يرسل إلى الخليفة ما لجا من مسال ، حتى ذكره أبو الحسن أنه حبل إلى الخليفة المنهد في ٥٥٠٠٠٠ دينار أي بمعدل ٥٥٠٠٠٠ دينار في العام ، أي نحو ثمن خراج مصر كله ( كان الخراج على أيامه ٣٠٠٠٠٠ دينار ) . ومع انهضاد بن

طولون بعد أن ضم الشام الى سلطانه حصل  
عبد الحرب مع الروم ، وسد عن الفتنة هذا  
الباب الثقيل بالتكاليف ، الا أن ذلك كله لم  
يقن عنه شيئا في نظر الموفق ، وانتصب هذا  
يكبد له حتى استعان قوتوا قائد احمد بن  
طولون على الشام ، فاققلب على يده والضم  
للموفق .

ولمخرج أمر بن طولون والمسلر الى  
منازل الموفق خلاصة ، فأعلن نفسه حاميا  
للخليفة المتمدن المفلوب على أمره وسجن  
أخيه ، واستخرج من القلعة قنوى بإبطال  
دعوى الموفق في السلطان ، وقد شد عن ذلك  
القاضي بكار بن قتيبة ، وكان من أكبر فقهاء  
العصر وصاحب لابن طولون ، فلم يرض ابن  
طولون حرته وحبسه ، وكان ذلك من خطأ  
ابن طولون التي أخذت عليه ، وزد عليه هو  
السه بعد فوات الوقت ، وأراد استصلاح  
القاضي وهو على شفا القبر ، فرفض القاضي  
وقال فاجته المشهورة : « شيخ فاذ وعيل  
مدلف والمتنن لريب والقاضي انه عز وجل » .  
وكان تسمه العبادرة وقع شديد على ابن  
طولون ، حتى يقال انه قضى عليه عندما  
سببها ، ثم أمر بنقله من السجن الى دار  
الكرين له ، ولم يلبث الشيخ أن مات ، وهو  
آخر القضاة الذين ترجم لهم التندى في كتابه  
عن قضاة مصر .

وكان الخليفة المتمدن ضجرا من أخيه  
الموفق وما يسطه عليه من سلطان ، وكان

بضمه رجلا عاجزا قليل الملكات ، ولو ترك  
وحده لفضى عليه صاحب الزنج أو القواد  
الارتك ، ولكنه كاذ دائم الانتكار لاستبداد  
أخيه الموفق من دونه بالأمر . وكان ابن  
طولون يعرف هذا ، وكان له في دار الخلافة  
جيون وأرحاد ينشرون بكل شيء ، فأوعز الي  
المتمدن أن يفادر بلاده أخيه ويلجأ الى مصر ،  
ومع غلبة الفكرة -- لأن حال المتمدن مع ابن  
طولون لم تكن تكون أحسن من حاله مع  
الموفق -- فقد رقت له الفكرة ، لأن ضجرا  
بأخيه بلغ به الى حد حقه مستعدا لقبول أي  
مخرج . فاستمر فرصة غياب أخيه وقواده  
وخرج لي تمر من أصحابه متوجها نحو الموصل ،  
ثمضى من هناك الى حلب وهي من أعمال ابن  
طولون ، ويبدو أن الخبر مضى الى اسحاق بن  
كنداجيو عامل الموصل ، فقبض على المتمدن  
وأبعده ، وبيع الخليفة على ما قبل ، ثم رده  
الى سرمن داي . وجننا من تفاصيل هذا  
الطبر قول اسحق بن كنداجيو لأصحاب  
المتمدن : « الكم قادتم عمل ابن طولون »  
والأمر أمره وتصبروا من جنده ونعت يده ،  
أفترسوا بذلك وقد علمتم أنه كراحمه  
منكم ؟ » مما يدل على أنه حدود ملك أحمده  
ابن طولون كانت واسعة يتبعاني قواد  
الخلافة التطريبي اليها ، وعلى أن سلطانه كان  
بالفعل جباريا في ملكه الراسع حتى هذه  
الناحية القامية ، ويدن أيضا على أن رجال  
الموفق كانوا ينتظرون الى ابن طولون على أنه  
ند لهم ، لا يزيد عنهم في شيء .

وأصبح المدهاء بعد ذلك بين أحمد بن طولون والموفق مسافرا ، فطلب الموفق إلى أخيه المعتد أن يصدر أمرا بجلس ابن طولون على المنار ، ونفذ هذا الأمر على رغم المعتد ، وقطع ابن طولون الأموال التي كان يرسلها إلى دار الخلافة ، بل حاول سنة ٦٩٧/٨٨٠ أن يستولي على مكة ، فبعث جندا واستعان بنصر من الصالحين والجزارين ليرقى فيهم حالا ، ووفق ابن طولون أول الأمر ، وهرب هارون ابن محمد عامل الخلافة على مكة ، خوفا على نفسه ، ثم تمت أعداد مكنت له من القضاة على محاولة ابن طولون . وقد رد الموفق على ذلك بتولية اصحاب بن كنداجين عامل الموصل أعمال ابن طولون ، ولم يجسر عامل الموصل هذا على صود جنود ابن طولون ، ورد ابن طولون بأسقاط اسم الموفق من الخطبة بالقرار ، ولكنه ظل يخطب للمعتمد .

وقد ظل هذا المدهاء بين الرجلين حتى سنة ٧٧٠/٨٨٤ عندما تبين لهما أن الخلاف بينهما لا يؤدي إلى خير ، فبدأت مفاوضات الصلح بينهما فلما تأخرت على الانتهاء أدرك أنوث ابن طولون بعد عودته من طرموس في ذي القعدة ٧٧٠/ مايو ٨٨٤ عقب أسفاله شديد . وكان ابن طولون عبره كله نهبا إلى الأكل مسرفا فيه ، حتى في عتته الأخيرة كان يأكل سرا حتى لا يعلم بذلك الخلفاء ، فلما زاد الأمر عليه اعترف لهم فأسقط في أبيهم .

وكان آخر جهود ابن طولون محاولته

لاستعادة ثغر طرموسين ، وكان هذا الثغر من أحب بلاد مملكته إليه ، لا يفتأ يطم به المرة بعد المرة معاودة لذكريات الشباب ، فزارت القادير إلا أن تفجعه فيه في آخر أيامه ، فقد وثب به أحد خدمته من الجنود وقبض على عامل ابن طولون ، فأمرج ابن طولون إلى هذا الثغر القصي الذي يقع جنوبي آسية الصغرى ، ولزل أذنه ، وكتب إلى خادمه يستبيله دون جدوى ، بل لجأ الخادم إلى كسر حدود ثغر كان يمر بالبلد فاندفع الماء فأغرق عسكر ابن طولون . ولأزم ابن طولون هذا الثغر وألح في طلبه ، وأقبل الشتاء وامتد البرد وتساقط الثلج وعظمت لفتة ابن طولون وتضحياته في سبيل هذا الثغر العوير عليه ، ووضح العسكر ، فاضطر إلى الرحيل عنه محتقا ، وكتب إلى ذلك الوائب بالبلد يقول : ه لم أرحل إلا خوفا أن تخرق حرمة هذا الثغر فيطرح فيه المدهاء . وعاد إلى طلاكية ، وهناك مرض ومات .

وقد اختلفت الآراء في ابن طولون ، فبعض الرواة يصورونه رجلا قاسيا غليظا لا يشورع عن شيء في سبيل ذلك مآربه ، وبعضهم يصورونه رجلا قويا كريما لا يتكاد يقدم على شيء فيهساس بالحرمة أو الخلق الكريم ، بل يتألى بعضهم فيجعله تشبه بالأنبياء ، لا يفضل شيئا إلا رأى الله عز وجل . أو الرسول صلى الله عليه وسلم في نومه يهديانه إلى الطريق السليم . والغلاصة في

الوحيدة فيها لسلامة من أذى خصم هي قتله ، وكانت قاعدتهم للذهبية التي لم يظنوها هي قول دوميير : أرسل أعداءك الى المتصلة قبل أن يرسلوك .

ومن هنا كان رجال أحمد بن طولون علموا بحول دائم منه ، خطية أن تصل اليه وشاية لي حطمه ، فيكون فيه أسرخ الى رعايهم من دفاعهم عن أنفسهم الى أذنيه . وقد خبر من ذلك طبيب سعيدي بن توفيل النصراني ، فقد عجز عن علاجه عطشا اشتد عليه الاسهال الذي قضى عليه ، فقبل له : لست بمداقي ا فقال : والله ما خدمسي له الا خدمة القمار للسور ، وان فتلى لأهول علي من صعبته ؛ وقد بلغ به الطيف أثناء مرضه الأخير الى درجة أن تعذر عليه الانتقال الى مصر برا ، فحمل في البحر ، فلم يكن يسلم حتى هدد أطباءه بالقتل اذا لم يعالجوه ، فعاجله الموت قبل أن ينفذ وعيده .

ولا شك أن توفيل ابن طولون يرجح أولا وقبل كل شيء الى سياسته الادارية والمالية ، فقد أدرك الرجل من اول الأمر أن مصر بلد غني كثير الخير ، وآله اذا أحسنت ادارته أعطى من المال أكثر مما يعطيه لغيره من التواضع ، واذا أحسن مديرة الحاصل أمكن الوصول به الى الكثير . ولهذا فقد وجه همه من أول الأمر الى تنظيمها وترتيب شؤونها ، وكان ابن أندبر ومن سبقه من ولاة العباسيين قد سونوا الادارة الى مجرد أدلة

هذا الموضوع أن شأن ابن طولون كشأن غيره من الطامحين ورجال الدولة ومؤسسي الممالك في تاريخ الاسلام : يستحلون كل شيء في سبيل الوصول الى السلطان والحفاظه عليه ، ولا تعرف قلوبهم الرحمة لذا اتصل الأمر بسلطانهم ، خلا محجوبون عن شيء ، ينصرون أنه يثبت ملكهم . أما فيما عدا أمور سلطانهم لهم كرماء ذور حطم وسسمة صدر وضو وحطب على الفقراء والمساكين ، ومهما بلغ خطا الانسان فالعفو رجو حننهم ما دام الأمر بعيدا عن تهديد السلطان او المناقضة في الحكم وما الى ذلك .

وهم يبررون سلوكهم بأن كل شيء جائز في سبيل القضاء على الفتنة ، ويكفرون عن قصورهم ببناء المساجد والمدارس وأعمال الخير والاحسان : هكذا كان شأن معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان وأبي عبد الله الصفاح والمنصور والرشيد وابن طولون والاضيد والمنصور بن أبي عامر وسلاطين المماليك ومن بعدهم . ومن لم فقد اختلافه الحكم عليهم ، فمن نظر الى حناهم ومأثرهم ومنشأتهم ومباليهم هو بهم بأهل العلم والفضل والمساكين لم ير غير الناحية المشرقة من مظهرهم ، ومن نظر الى كراههم السياسي رأى الناحية القاتمة . ولا يد من اعتبار الوجهين معا في الميزان ، وما دنا قد عرفنا مناسخ سلوكهم فلا معنى لتشديد الحكم عليهم ، فقد عاشوا في أزمان كانت الوسيلة

لجميع المال • قرضوا من الضرائب والمغارم  
والمكوس ما اتفق كامل الأهلين • وأحصلوا  
الى جانب ذلك العناية ببرافق البلاد وميوز  
الثروة ، فبطلت الأحوال الاقتصادية هيوطا  
شديدا ووقفت الحياة عند ٨٠٠,٠٠٠ دينار ،  
ونجم العجائبات الاستثنائية والمغارم .

فلما جاء أحمد بن طولون عسوله على  
اصلاح الحال ، ولم تكن له وسيلة الى ذلك  
الا بتسييس الادارة واحكام الرقابة على  
الموظفين ، وخفض المبالغ التي كانت ترسل  
هدايا ورشي الى مراكز الخلافة ، وقد نبه  
أحمد بن طولون الى ما لم ينتبه اليه أحمد  
من تولي البلاد قبله من الأمراء ، وهو أن  
أهل مصر أقدر على تدبير شؤونهم المالية من  
الأجانب ، فاستكثر من الموظفين المصريين حتي  
أصبحت الادارة المالية كلها في أيديهم . وقد  
انكر الترك وغيرهم ذلك ورووا عن سادى  
هؤلاء الموظفين كثيرا من الأخبار البعيدة  
عن التصديق ، كهمذا الخبير الذي يرويه  
أبو المعاسين عن ابن دوشومه ( برسومة ؟ )  
شورلى المال ونصبه لأحمد بن طولون  
بالاستمرار في العجائبات الثقالة (سمى المظالم)  
وكيفه أن ابن طولون رفض ذلك ، ثم عرضه  
الله عما نازله عنبه يكثر عظم عن عظمه .  
والمقرزى يتحدث عما يسميه «مكر الأقباط» ،  
ولكن ذلك كله أن هو الارد فعل لما عمله ابن  
طولون من وضع الأمور المالية في أيدي  
المصريين وما أدى اليه ذلك من الخير ، فقد

ارتفع الإيراد من ٨٠٠,٠٠٠ الى ١,٣٠٠,٠٠٠  
ووجد ابن طولون نفسه في سعة .

أما الكنز الذي عثر عليه ابن طولون  
وبنى من ذهبه جامع فلم يكن ثمرا غريبا ،  
فقد كان الناس على ملوك تاريخ الدول  
الاملاية يحملون بالاعتور على شيء من كنوز  
المرافقة كما يحلم الناس اليوم بالثور على  
البتروول ، وكانت هذه الكنوز تسمى بالمخازن ،  
وقد بلغ من اهتمام الناس بها أن ابن خلدون  
عقد لها في مقدمته فصلا . وقد استفاد ابن  
طولون من حكمة أحمد بن محمد الواسطي  
الموكل بشؤون المال ، فقد كانه رجلا شديدا  
صالحا حاول بعض المؤرخين أن يجعله من  
واسط ، ولكننا نرجح أنه مصري من  
الواسطي . واستعان ابن طولون أيضا بأبي  
بكر المادرائي ، وكان مالبا شديدا ، وأصله من  
مادرايا ، ولكن المقرزى يحكي ■■■ حكايات  
تدل على سوء إهتمامه بالسلطان واعطائه  
القبالات لنفر من أصعابه في مقابل حصص  
معينة له ( وكذلك كان بقية المادرائين ،  
وستنحدث عنهم فيما بعد ) .

ونلاحظ أن تصرفات ابن طولون المالية  
شيئا من الشبه بتصرفات محمد علي ، فقد  
استكثر بعض المصنوعات كالتييل ، وتاجر في  
المحاصيل ( ولو أن المؤرخين يقولون أنه عدل  
عن ذلك لأنه وجدده معطبا بشيائه ، ولكن  
الثابت أنه عاد الى التجارة في المحاصيل ■■■  
أواخر أيامه ) . وكانت نتيجة هذه الادارة



المالية الحازمة أن كثر المال في يدي ابن طولون ، فأقبل على شراء الجند واستكثر منهم حتى يقال أن جيشه بلغ ٦٠٠٠٠٠ جندي ، وإلا راجح أن معظم الجيش كان من البربر ، فقد ذكر المؤرخون أن ٤٠٠٠٠ من جنده كانوا من البسود و ٢٤٠٠٠ من الأتراك ، أما الباقي فمن أصفه جسدي من المرتزقين ، فيهم نفر من الروم والنصارى . ومن هذا المال الكثير بنى أحمد بن طولون مبانيه الكثيرة ، وأحيا جامع الباغي إلى اليوم ، وهو من معالم تاريخ المسارة الإسلامية ، فقد بنى على صورة جامع سائرنا وخاصة بمذبة ذات السلم العساوي الحزولي . وقد شرح ابن طولون لمهندسيه كيفية بنائها في خبر لطيف ساقه أبو المحاسن وقد عثر ما حول الجامع عمارا عظيما حتى جرت مسطبة بنا على جره التبحر لمرض بضائعهم بالى عشر فرهما في اليوم ، مع أن مساحتها لم تزيد على ذراع في ذراع . وثمة ابن طولون أيضا البيمارستان ، وأنشأ في بنائه ٢٠٠٠ دينار غير نفقته اليومية ، وهذا البيمارستان يعتبر أول مستشفى عام في تاريخ مصر الإسلامية ، وكان مقاما أقصاما بعصب الأمراض ، وفيه الأطباء والكهنة والمرضون ، وكانت الأدوية والأغذية تصرف للمرضى . وأنشأ قصره الكبير على طرف قصور خلفه بغداد ، وجعل أمامه ميدانا فيها لمرضى العسكر ، مهدا وأقام فيه المظلات ، وكلفه ذلك ٥٠٠٠٠ دينار .

وكانت هفاته في أبواب الخير كثيرة ، فكان يوزع الأكلمة والصدقات على الناس وفق نظام معين وضعه . ووقع ذات مرة حريق في دمشق ، فالتفت في تمريض خسائر الناس ٦٠٠٠٠ دينار . ومع ذلك فيقول بعض الرواة أنه لما تمته لم يبق له كمل ذنوبه . فقد روى محمد بن علي المادري أنه قارى القرآن على خريح ابن طولون انقطع عن الفرامدة مدة ، فلما سأل عن السبب قال : « رأيت في النوم وهو يقول : أحب ألا تحرق عني ، لما نشر آية الا قرعت بها وقيل : أما سمعت هذه ؟ » .

وقد سكن أحمد بن طولون أول ولايته « العسكر » على عادة أمراء مصر من قبله ، فلما كثر جنده بنى لهم ضاحية للفساطح سميت « القطائع » ، وكان موضعها من جهة الهواء ( موضع قلعة القاهرة العالية ) إلى جامع ابن طولون ، وعرضها من الرملة إلى حي ربن العابدین . ولم تكن مدينة ، وإنما هي ضاحية . قال أبو المحاسن : « وكانت مساحة المطائع ميلا في ميل . وقبة الهواء كانت في المطح الذي عليه قلعة الجبل : وتحت قبة الهواء كان قصر ابن طولون ، وبوضع هذا القصر الميدان السلطاني الآن الذي تحت قلعة الجبل بالميلة ، وكان موضع سوق الخيل والعير والبعال والجنان سابقا ، ويجاورها الميدان الذي يعرف اليوم بالقليبات ، فيصير الميدان فيما بين القصر والجامع الذي أنشاه أحمد بن طولون المروقه به ، ويجاور

وهو أكبر أبنائه وهو الذي تآمر به فقبض عليه  
وحبس ، وخمارويه الذي خلفه على الولاية ،  
وعدنان ومضر وشيبان وريسة وأبو العنتر .

وقد ذهب نفر من المؤرخين المحدثين الى  
أن استبداد أحمد بن طولون بمصر بعد حركة  
غورية مصرية ، وأنه بذلك بدأ عصر الاستقلال  
لمصر في خلال الاسلام . وذلك اسراف في  
تأويل التاريخ مع الحقيقة ، فإذ ابن طولون  
أولاً لم يستقل عن الخلافة بل ظل تابعاً لها ،  
وهو لم يقطع الخطبة لبني العباس أبداً ،  
والمصر يرسل المال الى بغداد معظم أيامه فلم  
يقطعه الا عندما وقع الخلاف الصريح بينه وبين  
الموفق ، ومن ناحية أخرى كان المصريون يسيرون  
عنه وعن حركته ، نعم انه اعتمد عليهم في ادارته ،  
أكثر ، ولكنه لم ينصر ولا شعر انه يعمل لحساب  
مصر أو يتر بمقومة مصر . وكل ما هنالك  
انه كان رجلاً ذكياً عادوا أحسن الاستفادة من  
الظروف واستخدم امياً : مصر في ادراك  
ما تمسح اليه للمسه من الانفراد بالسلطان  
باحية ما . وكان من الممكن أن تنصر دعوته  
لو خلفه أبناء قادرون على مواصلة سياسته ،  
فإن مصر لخلافة على من يقيم فيها ، وقد بدأ  
الرجل أول خطواته من خطوات التمسح فتغلّى  
نسباً فحسبنا عن تركيته وترب ، وقد رأينا أنه  
كان يحرم الثقافة والدوق . وقد عرف مؤرخو  
مصر الاسلامية قدره ، فاحاطوا به بالتقدير  
والاجلال ، ونسجوا حول سيرته الأساطير .

الجامع دار الامارة في جهته القبلية ، ولها باب  
من جدار الجامع يخرج منه الى المقصورة  
المحيطة بمسكن الأمير الى بحوار المعرب ،  
وهناك دار الحرم . والقطائع عدة قطع يسكن  
فيها عبيد الأمير أحمد بن طولون وسباكره  
وغلمانا . وقد قسم القطائع الى اقسام  
تشبه خطط المساطم ، قال القاضي : وكان  
للوية قطيعة مفردة تعرف بهم ، وللرؤم قطيعة  
مفردة تعرف بهم ، وللغراشين قطيعة مفردة  
تعرف بهم ، ولكل صنف من النبلان قطيعة  
مفردة تعرف بهم ، وبني القواد مواضع  
منفرقة ، وعمرت القطائع حجارة حسنة ،  
وتفرقت فيها السكك والأرصفة ، وعمرت فيها  
المساجد والمدارس والطواحين والحصانات  
والأقراة والحوالين والقوارح .

وقد خلف ابن طولون في خزانته من  
الذهب النقد ١٠٠٠٠٠٠٠ دينار ومن  
المطالين ٧٠٠٠٠ مائة ، ومن الفلوس  
٣٤٠٠٠٠٠ قلام ، ومن الحيل المبدئية ٧٠٠٠٠  
رأس ، ومن البغال والحمير ٢٠٠٠ رأس ،  
وذكروا أنه كان يدخر في كل عام ١٠٠٠٠٠٠  
دينار ، ففاق في ذلك القليلة المتخذ ، لقد  
أراه هذا الأمير أن يستفصل كل عام بعد  
خفائه ميفر دينار . حتى اذا اكملت بحيرة  
ملاينة صاغها قطعة واحدة وجعلها أمام باب  
فصره حتى يعلم امره النواحي أنه أغنى منهم ،  
فبات دون هذه العاية . وترك ابن طولون من  
بعده ٣٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ذكرنا أهمهم العباس ،

## خمارويه وابو الحسن بن جني وهارون بن خمارويه

وخلفه ابنه خمارويه ، وهو ثاني أولاده ، وقد كان ابن طولون أوصى له بالامارة وبأبيه الجند عقب وفاة أبيه في ذي الحجة ٢٧٠ / مايو ٨٨٤ ، وقد احتج العباسي على ذلك وهو في الحبس فمجلوا بقتله . وكانت مفاوضات الصلح بين ابن طولون والمرق دأره عندئذ مات الأول ، وكاد الجانبان قد اتفقا على أن ينقل مصر والقاهرة له ، فلم يكد فواد الموفق يسعون الخبر حتى حازوه على التوقف ، وكان منهم قد ولي على النعم قبل ذلك - وهو ابن كنداجين كما ذكرنا - فالضم اليه أبو الساج عامل شالي العراقي وقررا السير الى القمام ومصر واتزامعا من أيدي خلفه ابن طولون ، والضم اليهما عامل شالي لابن طولون وزل لابن كنداجين عن الطاقة وحلب وحمص . وبث خمارويه بجند ملاقاته خصومه ، فمكروا عند شذر ، وحل النساء فتراجع الجبابرة .

ولي النساء النساء التمس ابن كنداجين وأحمد بن الموفق الفرصة وقررا مهاجمة معسكر المصريين على نصرته ، وقد فوجئ المصريين بذلك الهجوم ، فتهشموا حتى الرملة . ثم وقع الخلاف بين أحمد بن الموفق وقواده ، فتركوه فله نحو ٤٠٠٠ من جنده . وفي هذه الأثناء وصل خمارويه من مصر ومعه ٧٠٠٠ من جند مصر الطولونيين ، وقرروا

الهجوم على معسكر العدو . وفي شوال ٢٧١ / أبريل ٨٨٤ وقع اللقاء بين الجانبين عند نهر أبي فطرس المعروف بالطولعين شمالي يافا . ولم يكن خمارويه قد حضر قبل ذلك تمثالا ففرع عند اللقاء وهرب مسجلا الى مصر ومعه معظم جيشه ، واقتضى جند أحمد بن الموفق على معسكر المصريين ينهبون ويأسرون . وفي هذه اللحظة تقدمت فرقة من الجند المصري بقيادة قائد يسمى سعد الأمير فهجمت على جند أحمد بن الموفق ، فغصب هذا أن خمارويه عاد من مصر بالجند ، ففر هاربا واحتل الشام جيشه ، فتمسك عليهم المصريون وهزموهم هزيمة كبرى بزيادة سعد هذا ، ثم شرع المصريون فاحتلوا دمشق .

وقد استخف سعد الأمير بخمارويه وبدأ يفكر في الانفراد بالقمام ، ولكن خمارويه طلب عليه وقضاه . واستمر الضالعة بين خمارويه والمرق طاعة زمان ، ثم عقد الجبابرة صلحا ثم تركت فيه مصر والقمام لخمارويه لقاء مبلغ سنوي معين . واستمرت الأحوال بين الجانبين حتى مات الخليفة المعتمد وخلفه أحمد بن الموفق باسم المعتضد في رجب ٢٧٩ / أكتوبر ٨٩٢ ، فتأكد الصلح بين مصر والخليفة وعرض خمارويه أن يزوج ابنته غنار الندي لابن الخليفة المعتضد ، ولكن هذا الأخير فضل أن يتزوجها هو ، فاستحقاق مليون درهم ، ودخل بها عام ٢٨١ / ٨٩٥ . وقد بالغ خمارويه في تجهيز ابنته حتى قبل أن المعتضد أراد



تحتكم بواسطة جند أجنبي مرتزق ، وكان هذا من أكّد أسباب زوال هذه المملوك جميعا . وكان كبير الدولة والمندم في هؤلاء الحسد أبو جعفر بن أبي ( يكتب خطأ باني ) فكلّمه القواد في أمره : ولا موه إذا فسر في تدبّيه وتمسّكه ، وانتهى الأمر بتقلته ونهب داره . فوجه في يدهي الجند من ليهما ما يسلا قلوبهم ويهونهم ، حتى أن بعضهم من كثرة ما حصل له ترك الحنيدية وسكن الريف ، وصار من مزارعيه وتجاره .

ثم خلفه أخوه هارون بن خنادويه ولم ينك بأحسن حالا منه فلم يكن يرجى للدولة صلاح على يديه ، فهذه المملوك لا تقوم على أساس من سياسة أو هدف أو سند من أهل البلاد ، وإنما يشتغلها ضروح رحل فرد ومكافاة ، فإذا انقضى أمره زالت الدولة . تولى هارون في ١٠ جمادى الآخرة ٧٨٣ : سبتمبر ٨٨٩ وكان جند الدولة قد قد أمره وتفرقت وحدته ، إذ كان هذا الجيش يقوم على فرق من البرك وأخرى من السود وجماعات شتى هم أخلاد من المرتزقين أصعب الروم ، وكان أمر هؤلاء الأخيرين قد عسلا بفصل ثلاثة من موادهم هم بدر وفائق وإساقه وكانوا من خيرة القواد عقلا وغدرة ، فحفد عليهم الباقيون ، وخاصة السود ، وكان ربيعة ابن أحمد بن طولون ، وهو عم هارون ، قد أنكر ولاية هذا الغلام وحدته نفسه بطلب الأمر لنفسه . ويبدو أن عباد هارون كان على

السود : فضرب فواد الزوم ، واجتهد كل منهم في أن يحور لنفسه ملائمة من الجيش يستولي على عطاياهم ويوزعه عليهم كالأسم غطائه وقد تمكن هارون بفصل جسده السود من العضاء على ربيعة وفعله : فزاد اجتراس بدر وموفق وصافي منه .

وتولى أمر هارون أبو جعفر بن أبي ومضى يحاول إصلاح أمر أسبح من السير إصلاحه . وفي هذه المناسبة أفرج قواد الروم سماعة وبرأ يستوقاف النمل ، لأذهبرا للصح واحدا بعد واحد وأشدوا بعض منشآت البر . فبني بدر مبشاة لجاسع ابن طولون وسبلا لشرب الناس وأكثر من فمريق المال والطعام على المساكين ، وفعل فائق وصافي مثل ذلك ، وأظهروا من الإحلاس طربت الطولوي ما لم يظفر غيرهم ، رغم منباسة هارون . الأعداء بعدهم ، وقد أصد أبو جعفر بن أبي مع الروم وفرق قواصم البلاد . وفي ذلك الحين بدأت حركة انقراضه جناح السلام ، فصدى لها جند الطولونيين وتكلموا من الباب في وجهها ، فاستند ذلك جابا كبيرا مما كان قد بنى لهم من قوة .

وكان أمر هارون قد ساء وفر منه جند الزوم حسنة ، وتسامح وجار الخلافه بذلك فما شرع ما لمحواف استعادة سلطانهم على مصر ، ونهب الحليفة المكتنى ووزيره القاسم ابن عبيد الله الكاتب المائد محمّد بن سليمان الحنفي للقيام بالمهمة . وكان محمّد بن

حتى صاروا يتدبحون جماعة جماعة بين يدي القائد العباسي ، ثم أحرقت القطائع ونهبت الممتلكات فيها ذريعا وأصاب الناس أذى شديد ، وامتدت دولة بني طولون ، ولم يحكم شيان غير تسعة أيام . وقد اجتمع محمد بن سليمان في إزالة آثار الطولوليين جملة حتى لم يبق منها شيء ، واستنصف أموالهم ونهبها وحمل إلى بغداد جزءا وسرق الباقي ، ولقد حاسبه الخليفة على ذلك أحمر الحساب . ولم يطل مقام محمد بن سليمان بمصر ، إذ استبدله الخليفة المكتفي يعقوب النويري ، وهاجت مصر ولاية عباسية كما كانت ..

#### لظور عامة في دولة بني طولون

حكم بنو طولون مصر ثمانية وعشرين عاما ، وإن من يصح صيتهم في تاريخ مصر يحسب أنهم حكموا أصحاب هذه المدة ، وهم كما رأينا لم يدخلوا على مصر جديدة ولم يتقدموا بأمرها عظيمة ، إنما كانوا كسجاية صيف ، أما صيتهم الجديد هذا فيرجع انفصل فيه إلى المصريين ومؤرخيهم . ولكن يبدو أن ما يقوله أبو المحاسن من أن الدولة الطولولية كانت من « غر الدول وأيامهم من معاسي الأيام » لم يكن مبالغة ، فقد أمنت البلاد في أيامهم وورخيت أحوالها ، وخاصة في أيام أحمد ابن طولون وخسارويه . أما ما أتينا بطرف منه من النزاع بين الجند فكان أمره مقصورا على المحاربين : بنصارعون وبنغاطون في واد

سليمان هذا من خدم ابن طولون ، إذ استخدمه لؤلؤ الطولولي كاتبه له ، فلما أحرقت لؤلؤ عن بني طولون وانقسم إلى رجال الخلافة انصرف منه محمد بن سليمان ، وما زال أمره يرتق حتى أصبح في جملة القواد ، ثم نادبه المكتفي للقضاء على أخير الطولوليين .

وبنما كان جند العباسيين يستولي على أملاك الطولوليين في الشام ، وثب شيان بن أحمد بن طولون على ابن أبيه هارون وذهب به يده في ١١ صفر ٢٩٢ / نوفمبر ٩٠١ ونولى الأمر مكانه . وكان شيان ه هوج جسيما جلدا شديدا البدن في غنموان شبابه ، فصار يسرع في أموره ، وذلك بعد أن تم أمره . وكان جند الطولوية قد أسروا من الأمر ، فالضموا جماعة بعد جماعة إلى جند الخليفة المكتفي . ووصل محمد بن سليمان إلى العباسية (بدمرية الشرقية) وقد تغلب الناس من الطولوليين وأسرع ديمانة قائد الأسطول المصري فأحرق جسر مصر الشرقي وبعض الغربي حتى تمزق القسطنطين من الصعيد . وأقبل محمد بن سليمان بن منعه ووقف دون القسطنطين ، ولحق شيان بن يقي منعه من الجبل السود وطاول الدفاع . ثم كتب إليه محمد بن سليمان يؤمنه وأحمله جميعا . فاستأمن وسار إليه بأهله نازكا جند واقفين في المصاف وهم لا يملكون تخليه عنهم . فلما علموا بالأمر تفرق أمرهم وانهاز عليهم الناس

والناس في واد آخر ، إلا إذا دار القتال ■  
العاصمة مثلا فيصيب الناس أدنى .

وقد تمس الناس الصعداء مع آل طولون  
وانكف عنهم نهب ولاية الباسيين ، وبدأ ينمو  
في البلد وعنى بالشخصية المصرية ، ولكنه كان  
وعيا ضعيفا خائفا يحتاج الى متواتر طوائف  
ليتنجس ويأخذ صورة واضحة . ولو تبه آل  
طولون لذلك لكان لدولتهم شأن آخر ،  
ولكنهم مضوا في أحقاب طيرهم من الاعتماد  
على الصبكر الأجنبي ، فحبل بهم وبين  
اقتطاف ثمر ما غرسوه ، وظلموا أجانب  
مزعزين تعصيف بهم رياح السياسة  
والعسكرية ، وللاشئ أمرهم مع أمم الدابر .  
ومع ذلك فقد أسف المصريون عليهم وقالوا  
في رثائهم شعرا كثيرا ، بل تراحم الشعراء على  
أحمد بن طولون حتى قاله القاطن أبو عمرو  
علاء النابلس في كتاب ■ حسن السيرة في  
اتخاذ الحصن في الجزيرة ٤ : رأيت كتابا  
قصر الننى عشرة كراسة مطسبونه فهرست  
شعراء الميدان الذي كان لأحمد بن طولون ،  
فاذا كان اسم الشعراء في الننى عشرة كراسة ،  
فكم يكون شعراهم ٤ ٤ .

ولقد كان أحمد بن طولون أجنبيا عن  
مصر ، ولكنه يمد يده بدهون شك من رجال  
التاريخ المصري . فقد كانت تلك أيام لا تعرف  
غير القوة الإسلامية ، فأحمد بن طولون  
مصري في مصر وشامي في الشام وعراقي في  
العراق ، وهو إما كان موضعه وأصله منسوب

الى البلد الذى كرس معظم جهوده للنهوض  
بأمره ، ودولته دولة مصرية إسلامية ، وفي  
الاطار العام للتاريخ الاسلامي يعد ابن طولون  
من اغداذ ذلك التاريخ ومن أبطال التاريخ  
المصري تبعا لذلك . وإذا قارناه بنبيه ممن  
استبجوا يتوحي الدولة الإسلامية ■ ذلك  
المصر رأياه يمتاز عنهم بذكورة واضعة عن  
الدولة وما يبغى لها . وقد كان متفعا بإيضا  
ومتظنا ماليا متنازا . وكان ذلك من حسن  
حظ مصر ، بل ربما كان ذلك ثم مصر فيه .  
وإذا كان عمرو بن العاص صاحب الخطوة  
الأولى في بناء مصر الإسلامية ، فإن ابن  
طولون صاحب الخطوة الثانية .

وهو صاحب أول تجربة لإنشاء كيان  
مصري خاص داخل الكيان الاسلامي العام ،  
وفضله من هذه الناحية عظيم ، فهو النموذج  
الذى جرى على مثاله محمد بن طنج  
الأخشيدي ثم الفاطميون ثم الأيوبيون . فإذا  
كانت التجربة قد انتهت الى الفشل فإن ميراثها  
ظلت باقية وأصبحت معصور تاريخ مصر  
الإسلامية . ومن ذلك العين سيجد كل من  
واقته الفرصة في إعادة إنشاء دولة في مصر  
والاعتماد عليها ، ساجسلى تاريخ مصر  
الإسلامية خطا متوهلا مستغلا عن التيار العام  
لتاريخ الشرق الاسلامي . وقد هيأت البيئة  
المصرية ذهن أحمد بن طولون للاتجاه في  
الوجهة التى ينفيا تاريخ مصر العام : فقد  
استبد بها ثم ضم اليها برقة واتجه بعد ذلك

الا ان نعمت مصر بالهدوء بضع عشرات من  
السنين حتى عادت اليها غاييها وبدأت تسجرتها  
تورق ثم ثمر . وعهد حقيقة لم ينته لها ابن  
طولون ورجاله وخلفاؤه . وكان في ذلك خياع  
أمرهم . ولكن شح مصر شعر بها شعورا  
غير راجع كما يحس المريض بالاحتياش يسرى  
في كسائه دون ان يصدق أنه في طريق العافية .  
بقي سؤال قبل ان تترك هذه التجربة  
القولونية : ما الذي جعل رجالة الدولة  
العباسية يفسون هذه القسوة على نقايا  
الطولونيين ؟

لو أننا نظرنا الى الدولة العباسية في  
مجموعها اذ ذاك للاختضا ان يلى طولون ،  
رغم كل شيء ، كانوا أكر الناس بها وانهم  
لها ، فهم لم يطرحوا على العامة ولم يمنوا  
مالا ، حتى السنوات التي فطسح فيها ابن  
طولون ما من مصر عن الخلافة عوضها ابنه  
حصاروه فكان يدفع ٢٠٠ و ٠٠٠ عن سنوات  
انافية و ٣٠٠ و ٠٠٠ عن كل عام جديد . وفي  
ملك السنوات المظلمة الى عث بها الزنج  
بمصار دولة العباسيين وجب عليها ربح  
انتمطة لم يكن للخلافة من عداد حقيقي  
الا ما يرد من مصر من دناير الذهب . ثم ان  
الطولونيين هاجروا الخلفاء ووسموا عليهم  
فسر ما استناعوا وحملوا عن الدولة عبء  
الحرب مع البيزنطيين ، فما الذي جعل محمد  
ابن سليمان الكاتب وجنده يفعلون بقايا بني  
طولون ما فعلوا مع حلوهم الى بغداد

الى الشام ، وجعل من ذلك كله وحدة واحدة  
وسيفعل ذلك كل من يجيء بعده . والتجربة  
القولونية من هذه الناحية عظيمة القيمة في  
تاريخنا ، فقد دلت على ان مصر قاعدة القوة  
الاسلامية ، فاذا اضيق اليها انشام أصبحت  
العهد العربي تدولة الاسلام ، وتنبأ فنتينا  
سيصبح ذلك حقيقة واقعة ، وتصل مصر  
عبء الاسلام والخلافة والثقافة العربية .

وفيما يتصل بمجرى التاريخ المصري  
لعمام دلت هذه التجربة القصيرة المدى على ان  
مصر لا زالت تحتفظ بعناصر القوة في كيانها ،  
فعلى الرغم من الكوارث التي توالى عليها  
منذ دخول الفرس ارضها سنة ٦٣٥ قبل  
الهجرة ، وقضائهم على مقابر العنصرة  
الفرعونية ، وما تلا ذلك من محاولات للقضاء  
على الجذور البعيدة لتجربة الحياة المصرية :  
من عث الفرس في مصر وتخريبهم امانها ،  
وعلى الاغريق وثقاتهم خلال العصر البطلمي ،  
ثم ما نزل بمصر من مصعب الرومان ونهب  
البيزنطيين واضطهادهم ، ثم الفتح العربي وكل  
ما أتى به من مقومات حضارية وقبهم مصوية  
روحية جديدة ، وما صاحب ذلك كله من  
الانقراض من الوثنية الفرعونية الى النصرانية  
فالاسلام ، ومن تغير اللغة من لهجات مصر  
القديمة الى لغة اللغة القبطية ومراعها مع  
اليونانية ، وذهاب هذه وتلك وجريان كمينه  
أهل مصر باللغة العربية : على رغم ذلك كله  
خلت الجذور مليئة والروح واحدة ، وما هو



زنور على الغزاج وولى أصحابه التواحي ،  
وهي بحسب ما يذكره أبو الحسن :

الاسكندرية وفرنسيس ودمياط والأخوصاف  
وبرقة ، والصعيد وأسيوط . وربما كانت هذه  
هي أهم التواحي ، ويقتضي أن نلاحظ أن برقة  
كانت معدودة جزءا من مصر في ذلك الحين .

ثم جمع النوشري نقايا رجال الدولة الطولونية  
وأخرجهم من البلاد موكلا بهم ، أما بليغ جند  
الطولونية فقد ساروا مع محمد بن سليمان  
حتى بلغوا دمشق ثم تقوى أمرهم ، فسلمهم من  
ذهب إلى العراق وسلمهم من عاد إلى مصر .

وكان من بين هؤلاء الثماليين شاب من  
الجند يسمى محمد بن علي الضلنجي  
( يلقب أيضا بالطنجي والخلنجي ) كان قبل  
ذلك في قيادة صفاء الرومي ، وقد وصل إلى  
مصر ورأى ما حل ببني طولون وما فعله ضد  
العباسيين بمصر أعت نفسه وقرر القيام على  
الدولة . واجتمع إليه نفر من الجند وبايعوه .

فأسرع بين معه نحو الرملة في شعبان ٢٩٢ /  
يونيو ٩٠٥ وأقضى على العامية العباسية بها  
وملك انشد وخطب فيه لمخليفه ولايراهم بن  
خمارويه بن طولون ونفسه . ثم كر إلى  
مصر ، وطارق عيسى النوشري أن يضدي له  
فأهزم أمامه ، ثم فر إلى الجيزة وأحرق  
المصريين المؤيدين من التمسك إلى الجيزة ،  
ودخل الخلدجي القسطنطينية . ثم هرب النوشري  
إلى الاسكندرية فأرسل الخلدجي ورقة من  
جيشه تنبهه بقيادة جندى نوبى يسمى سيفاً  
فأنهز هذا الأخير

مصنفين في العديد كأهم أمرى حرب ، ثم  
عاثوا في بلاد مصر وأحرقوا وهدموا كأنهم  
يقنعون بهذا معاديا ؟

الحق أن ذلك يدل على انحطاط المستوى  
الخطفي العام لرجال الدولة العباسية ، فقد  
كانوا شرذمة من القذاز والغباء شقيت بهم  
بغداد ودمشق كما شقيت بهم القسطنطينية ،  
ولمسي الخلفاء منهم غير ما قالى بنو طولون  
كانت بلاد الخلافة العباسية كلها غريبة أولئك  
الطغاة ، وإذا تأمل الإنسان أفعالهم أدرك أن  
حمدان قرط لم يكن أصوا من هؤلاء الرجال  
بحال ، وأنه لم يكن بدعا بين أهل زمانه خير  
أعلن الحرب على هذه الدولة ورجالها واسحق  
دماءهم ، وفعل ما فعل مما تقصير منه الأبدان ،  
فلم يكن رجال الدولة خيرا منه ، وكانت  
موشاهم قد قضت على كل مفهوم للدولة أو  
الحق أو النظام .

#### من الطولونيين إلى الاخشيديين

عادت مصر مرة أخرى إلى بحسب الدولة  
العباسية الجاهل بالمواصل . ولم يكن من  
المأمول أن تستقر حالها أو يبدأ أمورها  
والدولة ورجالها على ما وصفا . فلما هو أن  
استقر محمد بن سليمان الكاتب حصر شعورا  
حتى عزله الخليفة المكتفي بعيسى بن محمد  
النوشري ، وكان من حملة فواد محمد بن  
سليمان ، فبدأت أمارته عليها في جمادى الآخرة  
٣٩٢ / مايو ٩٠٥ وبدأ يرتب أموره فجمعت  
الحسين بن محمد المادرائي المعروف بأبي

عليه وزالت دولة بني أن حكم مصر مسبعة أشهر وأياما .

وهذا الحادث يكشف عن ضعف بناء الدولة وقلة غناء القائمين بأمرها من الرجال ، فقد استطاع هذا الشاب الغامر أن يحول دون الدولة ورجالها ، وسيطر على مصر وهزم جيوشها ، وأخرج عامل العباسيين حتى أصبح يحكم أمامه من الصلطان إلى الصبيد إلى الاسكندرية . ولولا أنه هو نفسه لم يكن كفتا لل مطلب الذي أراد لما استطاعت الدولة أن تنقلب عليه . ويمكن أن نذكر أن سنة ٢٩٩ / ٩٠١-٩٠٥ شهدت أربعة ولايات لمصر ، هم شيان بن أحمد بن طولون ومحمد بن سليمان الكاتب وعيسى التوشري ومحمد الفاطنجي .

## الإخشيديون<sup>(١)</sup>

كاملين ، وكل من قدر على طاعة استبد بها . فلما لم يبق للدولة ، أي فيما يلي الممران شرقا ، فقد أصبحت البلاد تنقسم موزعا بين الانقطاعيين الكبار والصغار . فلما الطائفة الأولى فكانت تنحاز من الأغنياء حازوا مالا مكن لهم من استطاع جند مركزى ، وبهذا الجند المرتضى حازوا ما استطاعوا حيازته من الأرضين وقاموا الدولة حليه بمال معلوم . وأما المحاربون فكانوا أجناسا من الترك والديلم والفرس والخراسانية ومن اليوم ذوى ملكات وهيئات تصلح للحرب والقتال ، وظهر فيهم أفراد يمكن أن نشجعهم بالكوندوتيري Coudotieri الإيطاليين في القرن الخامس

وكان اضطرب أمر الفتنجي بعد تلك الهزيمة فأخذ يطلب الناس بالأسلحة ليؤدي لجنده أوزاقهم . وقد بلغ الذعر رجال الدولة أن الحسين بن أحمد الماذرائي أخذ الدواوين — أي دفاتر الأموال — وخربها حتى لا يرقف على معرفة أصول الأموال ، فلجأ الفتنجي إلى إكراه الناس على أداء ما يطلبه ، واجبرى أعماله على الظلم والجور وصادر أحيان الطلبة فلقى الناس منه شتاتة ، إلا أنه كان إذا أخذ من أحد شيئا أعطاه خطه ، وبعد أن يرد له ما أخذ منه أيام الخراج ، ولم يستقم الأمر لهذا الرجل ، فقد اضطربته الأحوال وتكاثر عليه رجال الدولة وتوالت قواتها ، فقبض

وقد فتحت التجربة الطولونية أعين رجال الدولة على ما يمكن أن تقدمه مصر للستوى أمورها من امكانيات . وقد كانت الدولة العباسية إذ ذاك في حالة شلل ونصبذع

(١) جميع المراجع التي اشربا اليها في الحديث عن الطولونيين تحدث عن الاخشيديين . وبالإضافة إلى ذلك نذكر أهم دراسه في تاريخهم للسيدة المذكورة سيدة اساميل الكاشف . مصر في عصر الاخشيديين ، المنشورة ١٩٤٠ والمراجع المسترفان المذكورة في ذلك الكتاب . ومادة . اخشيديين . بدائرة المعارف الإسلامية بقلم كارل هاينريش بيكر . وانظر :

C.J. Tooraberg : *Abhandlungen zur Geschichte der Arabischen Welt* (Zur Zeit der Araber) Berlin, vol. II.

مصر ، وهم متعهدون جنود ، يقدمون منهم الى من يريد لقاء أجور مينة ، وقد يقودون هم هؤلاء الجنود ويقربون انفسهم ومن معهم لمن يريد .

وقد بلغ من الطائفتين — ملاك الاراضى والمجاريين — أفراد تمكنوا من ان ينفذوا دولا ، بل منهم من دخلوا في خدمة الدولة المباسية وأصبحوا أصحاب الأمر فيها ، كالبرصيين والسلاجقة من بينهم . غير ان هضاب ايران وتركستان وما عليها حتى حدود الصين كانت بلادا غفيرة قليلة الخير ، لا تبنى دولة على الصعود زمنا طويلا ، وغاية ما كان يرجوه أصحاب الدول فيها أن يفرسوا انفسهم على قوة الخلافة ، ولئلا يلاط الظفراء المضطرب العاقل بالاحلايات والدسائس ضاع أمر معظم أصحاب هذه الدول ، فكانها في تنابها كانت موجات بحر يلى بعضها بعضا ولائى بعضها بعضا .

وقد رأى هؤلاء الناس جميعا منذ الجاهل الغربى من الدولة المباسية يقدم للطامع فيه فرسا أحسن ، فهناك مصر القاعدة العسكرية الاقتصادية الكبرى ، من تمكن منها استطاع أن يحصل على مال وغير متصل ، وهذا دلال الوهم يستطیع أن يقطع مطامع أهل الدولة ويقيم لنفسه ملكا يدوم بدوامه وربما أوتره أعطاه . وهذه هى عبرة التجربة الطولونية في نظر رجال الدولة المباسية ، فمضى بدأ أمر بنى طولون بضعف شرهت انتظار رجال الدولة

الى مصر وأصبح الأذكىء منهم حرصين على أن ينبتوا أقدامهم فيها محاولين إعادة التجربة الطولونية لحساب انفسهم . وأكبر من حاول هذا الأمر القائل تكنى التركى ، ثم محمد بن طنج الاخشيد . فاما تكنى فقد تولى مصر فيما بين سنتي ٢٩٨ / ٩١٠ - ٩١١ / ٣٢٣ - ٩٣٤ - ٩٣٥ أربع مرات حكمها في مجسوعها قرابة ستة عشر عاما . فاذا ذكرنا أن عمر دولة بنى طولون كملسا لم يزد عن ٣٨ سنة والاخشيد عن ٣١ ، تصورنا طول المدة التى سيطر فيها تكنى هذا على مصائر مصر وجانب كبير من الشام أيضا .

غير أن جميع من طمعوا في مصر من أولئها القواد لم يرفروا شيئا مما رزقه أحمد بن طولون من ثلواهب والكفايات ، حتى أحمد ابن طنج الاخشيد نفسه ، لم يكن يتناز عن تكنى بشيء ، فلم يكن على ثقافة أو اصباح ذهن أو سموح بعيد ، بل كان بغيا اميل الى العجب وسوء التصرف . ولولا أن امور مصر المالية كانت في ايامه الى أسرة المادرائين لما استطاع أن يقيم لنفسه في مصر كيانا ، ولولا قيام كالدور الاخشيدى بشؤون بنيه بعد وفاته لتلاشى أمر بنى الاخشيد غيب وفاته . والافارقة بين محمد بن طنج وكالدور لرجعت كلمة هذا الأخير ، فقد كان أعقل وأقدر وأعرف بشؤون السياسة ، وهو عماد هذه الدولة ومحوور سياسة مصر خلال العشرين السنة التى انقضت بين موت محمد بن طنج وزوال أمر بنى الاخشيد على أيدي الفاطميين .

خدمتهم ، وهبوا الذي قبض على قتلته  
خمارويه في الشام ، مع أن خمارويه كان قد  
أزعج الفلك به ثم حال مصرعه دون ذلك .  
ومثل طنج واليا على دمشق وطبرية أيام أبي  
المعالي جيش . وفي أيام هارون بن خمارويه  
بجده وإبنا على الشام مستبداً بالأمر فيه ، ثم  
تمكن رجال الدولة العلوية من استرجاعه  
واستماله ، فدخل في طاعتهم وأقرروه على  
الشام . وعندما قتل ثيبان هارون لم يترك  
طنج بمشايخه ، وانضم إلى محمد بن سليمان  
الكتاب ، وفارقه في القضاء على دولة  
العلويين . ثم انتقل طنج إلى بلاد الجبال  
ولاله ما كان يدل وجبات الدولة إذ ذاك من  
الأذى ، فغلبه القلقة المتكسرة بالله مع ابنه  
محمد وعبد الله سماعه الوزير المباشي بن  
الحسن . وقد مات طنج في السجن سنة  
٩٩١ - ٩٩٧ هـ وحرب محمد وعبد الله .  
وكان محمد أكبر أبناء طنج وبكى أبي بكر  
لما أخوته الآخرون لهم أبو الحسين محمد  
وأبو المظفر الحسين وأبو نصر الحسين  
وأبو القاسم علي ، وسبكون لمعظم دور في  
أمر مصر أيام دولة طنج وأبنائه .

ومثلت الأحوال بمحمد بن طنج حتى  
مصر ثم سنة ٩٩٧/٩٩٤ هـ وكان في الخدمة تكيين  
والى مصر ، فقد اشتبك في رد غزوة فاطمة  
على مصر ، ففر به تكيين حتى أصبح منه بمنزلة  
الولد . وعندما قتل تكيين عن مصر صمحه  
محمد بن طنج ، فلما تولى دمشق جعله نائباً

ومن هنا فاه يبدو لنا أنه من المباعدة أن  
نحسب دولة الاخشيديين في مصر بين الدولات  
ذات الخطر أو الأهمية في تاريخ مصر العام .  
ملاهم أنشأوا شيئاً ذا بال أو وضعوا رسماً  
أو سلكوا سياسة تجعلهم في عداد دول  
التاريخ المصري ، ومن الانصاف ألا يقال دولة  
الأخشيد ، بل دولة الاخشيد والمعاديين  
وكافور .

وقد ظهر أمر محمد بن طنج أثناء خلافة  
الراضي بالله ، حتى يقال أنه هو الذي منحه  
لقب الاخشيد عام ٩٩٧/٩٩٩ هـ على أصح  
الآراء . والذين يروون هذا التحريض يقولون أن  
محمد بن طنج هو الذي طلب إلى الراضي أن  
يحتسبه بهذا اللقب ، ويقال أن الاخشيد كان  
لعب ملوك فرغانة . كما أن أخصيخاً لعب  
ملوك خراسان ، والاخشيد لقب ملوك  
أفروسة ، وما إلى ذلك . ويقال أيضاً أن  
منه ملك الملوك ، وهذه تفسير لا يمكن  
القطع بصحته ، مثله في ذلك مثل قولهم أن  
معنى « طنج » سيد الرحس . وعلى أي  
الأحوال فقد اتصلت بيت محمد بن طنج بن  
جيف العباسيين من أيام المنصور ، فقد كان  
جيف من رجائه المقربين إليه ، وقد أقبله  
المنصور أقطاباً شديداً ، ولحق جيف في البلاد حتى  
توفي في السنة التي قتل فيها المتوكل من سنة  
٩٩٧/٩٩٩ هـ .

وخلفه ابنه طنج بن جيف وكان من كبار  
الجنود وأصحاب الولايات ، وقد دخل  
في خدمة العلويين وتولى لهم الشام وخلص

يعزل محمد بن طنج ويصل محله - ودخل مصر  
والألمة للمرة الثانية في شوال سنة ٢٧١/٩٣٣ ،  
أى أن محمد بن طنج تولى مصر للمرة الأولى  
نحو ٣٠ يوما دون أن يدخلها . ولكنه لم  
يأس ، وتسم يزل يسمى حتى حصل على  
ولايتها مرة ثانية من الخليفة الرافى ، ودخلها  
والألمة في رمضان سنة ٢٧٣ / سبتمبر ٩٣٥  
وطول حكمها من ذلك الحى الى وفاته سنة  
٩٥٩/١٠١٥ .

ولم تكن الظروف التى تولى لها محمد  
ابن طنج الاخشيد مصر موافقة فقد كان ضيق  
رجال الدولة فيها عظيما . أما من جهة الغرب  
فقد اشتد طبع الفاطميين ، ولم يندرس عام  
دون أن يوجهوا الى مصر حملة . وقد عاش  
الاخشيد وخلفاؤه ١١١١ حبرى الرضى هذين  
سؤال مله حكمهم مصر ، والتمس أمرهم عندما  
طلبهم الحزب الفاطمى على البلاد ، وفصل مصر  
عن الخلافة العباسية جملة .

ولم يكن محمد بن طنج الاخشيد يتولى  
مصر مصر حتى لهى محمد بن رائق . وكان  
هذا من قهر الرجال وفتاة ذلك الزمان ، لم  
يزل أمره يملو حتى اضطر الخليفة الرافى الى  
تقليد جميع أمور الدولة « ويطل حينئذ أمر  
الوزارة والعواوين وبقي اسم الوزارة لا يبرء »  
كما يقول أبو المعانس ، أى أن ولايته كانت  
نهيدا لشئ ، وليفة أمر الأمراء فيما بعد .  
وقد غرغ الاخشيد من الثغرات محمد بن رائق  
الى وسار لحره ، والتمس الجانبان عند

عنه فى حياه وجبل السراة . فلما عاد تكتن  
لولاية مصر ولألمة الاسكندرية ، وهناك اتبعت  
له الفرصة لرد الفاطميين عن مصر مرة أخرى .  
وفى أثناء ذلك وثق محمد بن طنج علاقته بأبى  
بكر محمد بن على المادرائى والعصين بن  
أحمد المادرائى المعروف بأبى زبور ، وعرف  
منهما شيئا كثيرا عن شؤله مصر المالية ائتمن  
به فيما بعد . ثم ولألمة تكتن أمر الصوفين  
الشركى والغربى ، وفى أثناء ولايته على  
الاسكندرية ثم العرفين بدأ يظهر شره الى  
أهل ، فأقبل على مصادرة الأمصار والاسيلاء  
على التركات . وقد أئتمن ذلك منه تكتن  
وبدأت العلاقات سوء بينهما .

وأحسن محمد بن طنج بذلك ، فسمى  
حتى دبر له بعض مدارفه ولاية الرملة بالشام  
ثم حرب من تكتن الى الرملة . ثم حصل على  
ولاية دمشق سنة ٣١٩/٩٣١ ومكن لنفسه  
لها . وما أخذ يكون نفسه قوة عسكرية  
يعتمد عليها فى سراع السلطان الذى كان  
دارا فى ذلك ، ثم استفاد أخوه عبيد الله  
والعصن والعصن ، وأخذ يستعد لانتهاز  
أول فرصة تسبح . ولا شك أن عبيد الله كان  
متربعا على مصر ، فاشفى يجمع المال  
بالمصادرات وطمس التركات ، وكلما اجتمع  
له مال اصطحبه جندا يربونه من غايته .

واستطاع وهو فى الشام أن يستصدر من  
الخليفة القاهرة أمرا يضم مصر الى ولايته فى  
الشام ، ولكن أحمد بن كيتيخان استطاع أن

اللاجئون على مقربة من طبرية في فلسطين .  
وقد انتصر الاخشيد ، ولكنه أحس وعظم  
انتصاره أنه لن يستطيع الصمود لآين رائق ،  
فصالحه على أن يحمل إليه كل عام ١٤٠٠٠٠  
دينار على أن تكون له الرملة ، ويترك باقي  
الهام لآين رائق ، وكان ذلك في المحرم ٣٢٩/  
أكتوبر ٩٤٠ ، ثم توفي الخليفة الراعي في  
ربيع الآخر من السنة وخلفه أخوه المنقلى ،  
وقتل ابن رائق في الشام التالي ، فسار  
الاعشى ودخل دمشق وهم الشام إلى  
ولايته ، وأقر المنقلى على ذلك . وقد عرف  
محمد بن طنج كيف يكسب لفة المنقلى ، بل  
دعا إلى ترك بغداد والمجيء إلى مصر ، فقلده  
في ذلك ما قلده ابن ملول مع المعتد ، ولكن  
المنقلى لم يقبل هذا الرأي .

وفي ذلك العين كان أمر بني حمدان في  
حلب قد اشتد ، وبدأ الصراع بينهم وبين  
الاعشى ، وهو صراع كتب النصر فيه  
للاخشيد ، فظلت ولايته على مصر والشام  
خلال بقية أيام المنقلى ثم المستنكى لم المطح .  
وفي خلافة هذا الأخير توفي الاعشى ﷺ  
دمشق في ذي الحجة ٣٣٤/ أغسطس ٩٤٥  
وخلفه ابنه أبو القاسم أولوجور أو أشوجور  
أى أن الاعشى غلن واليا على مصر ١٦ سنة  
و ٣ أشهر ويومين كان في معظمها واليا على  
الشام أيضا ، وكانت سنة عندما توفي ٦٦ سنة  
ودفن بالقنس .

وقد استطاع محمد بن طنج الاعشى أن

يحفظ بسلكه خلال هذه السنوات بفضل  
القوة العسكرية التي استطاع أن ينشئها ، ثم  
أنه كان إلى ذلك جيشا مداورا يستطيع أن  
يراوغ ويدور ويتخفى للمواصف ، وما كان  
أكثرها إذ ذاك ، وقد رأينا موقفه من ابن  
رائق . وكان الزمان مصيبا لا يسلك في متابعته  
إلا من كانت له هذه الضلال ، فقد كانت  
تمارت القرامطة لا تنكشف عن الشام والعباز ،  
وليس هنا موضع تفصيل لتاريخهم ، والصا  
المهم أن نقول إن الله رحم المسلمين بموت  
أبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي  
انقرمطى في سنة ٣٣٢/ ٩٦٣ بعد أن فشل  
بالشام والعباز والعباج الأماويل ، وسرى  
رجال الصبر الأسود من الكعبة عشرين سنة ،  
ولم يردوه إلا بعد قتله . هذا والأثر  
المستبدون بدولة بني العباس ينهزمون أمامه  
مرة بعد أخرى ، وكلما انهزموا لم يجددوا  
أمامهم إلا الظلفاء المساكين يمدونهم  
ويسلون أعينهم ووطنونهم . ولم يكن أولئك  
الظلفاء على شيء من المعابة واحترام النفس ،  
وقد بلغ من أحدهم وهو القاهر ، وكان  
قد خلع وسلب عيانه - أنه لما بلغه خبر  
قبض توتون التركي على المنقلى وسلبه عينيه  
قال : « صرنا اثنين ، وفتاح إلى ثالث »  
يمرض بالمستنكى الذي يبيع بعده . ولم يكن  
الوزراء بخير من الخلفاء ، ويكفى أن نذكر  
أن الوزير ابن شيراز وزير المنقلى كان قد  
أمن لهما فاتكا وخطع عليه ، وشرط عليه

أن يصله كل شهر بغصنة عشر ألف دينار ،  
وكان يكبس يوت الناس بالشسمل والشمع  
ويأخذ الأموال .

وكان محمد بن طنج يحاول التنبه بأحد  
ابن طولون ، ولكن شتان بين الرجلين من كل  
ناحية . وقد ألبسنا بصفة ابن طولون والمنا  
شيء من خصال محمد بن طنج ، وبقي أن  
نضيف أن جعله إلى المال واستهاته بما  
أيدي الناس وثقة بصفه جعلته موضع الزرابة  
والاكتار والتندر . بل كان يطعم في الليل ،  
حتى لقد طعم في فرو كان يلبسه أحد رجاله ،  
فجعل يصر له به لعل الرجل يهديه إياه  
ولكنه لم يفعل . فلما أيس منه حرض بعض  
غلمانه ففصبوا الرجل الفرو وهو خارج من  
عند الاخشيدي لم أنكروه . ثم أراد الاخشيدي  
أن يتفرقه فلبس الفرو ، فلما دخل عليه الرجل  
مرة أخرى وراء عليه ضحك الاخشيدي وقال :  
« كيف رأيت ؟ ما أصفل وجهك ! ولكنك  
ابن أبيك .. وكم حرطت لك وانت لا تستحي  
فلم تفعل ، حتى أخذناه بلا شكر ولا منة ! »  
وربما عطف من ذلك أن الرجل كان  
شديد التقى ، ولكن ثناء لم يكن يظهر إلا بعد  
قيامه بالأذى . ولم يكن حاله الاخشيدي من  
هذه الناحية يختلف عن حال غيره من رجال  
الدولة والسياسة في ذلك الزمان ، فقد كانوا  
يظهرون لأست والندم على ما يفعلون بعد  
فوات الوقت ، وكانت ضراعتهم إلى خوف  
من العذاب لا عاطفة جبنية كريهة . وكان

الاخشيدي من هذه الناحية حريصا على  
الاعتناء فرصة لطلب القتران ، حتى لقد  
تكاسل مرة عن حضور ختم القرآن في جامع  
عمرو ، وكان حريصا على ذلك أثناء شهر  
رمضان ، فعدته لحدى جواره إلى المقود  
على أن تمتق عنه عشر رقاب فقال : « أغبر  
رقاب ! ويحك ! لعله يكون في هذه الليلة  
رجل صالح له عند الله منزلة فيقول في دعائه :  
اللهم اغفر لجباعتنا ، فمضى أن يدخل بهم ،  
ثم ركب إلى الجامع الطيل فحضر الصلاة  
والختم . وقد حاول أن يشبه بأحمد بن  
طولون في مظهره ، فلم يوفى . وظل الناس  
لا يوفروه توقير الملوك حتى أصبح يطلب  
ذلك ويصر عليه ، وقد قرب نورا من يتأيا  
الطولونيين فأصبحوا من بعدهم ، وربما جلس  
للعلماء والشعراء .

وجدير بنا قبل الانتقال إلى خلفاء  
الاخشيدي أن نلف وثقة عند المادائين ، فهم  
كما قلنا يفاسمونه فضل ما أدرك من تولى  
وقد سبق أن ذكرنا أن أفراد هذه الأسرة كانوا  
في مصر أيام الطولونيين . وهم في الفنا  
أسرة فارسية الأصل إلى أولهم إلى مصر أيام  
أحمد بن طولون وأصبح من حواشي ، ثم  
تداعوا بعد ذلك حتى كثروا في البلاد . وأهم  
رجالهم ثلاثة : أحمد بن إبراهيم أو محمد  
ابن أحمد بن إبراهيم المادائي الأطروش ،  
والحين بن أحمد المادائي المعروف بابي  
زبور ، وعلى بن أحمد المادائي ثم ابن هذا  
الأخير أبو بكر محمد وأبو الطيب علي .

٩٢٦/٣٢١ وأصبح صاحب السلطان القلى  
 فى البلاد . ويبدو أنه كان يعتمد على قوة  
 عسكرية خاصة به تعينه من خصومه ورد  
 عنه أيدي الطامعين فى ثروته . ولم تكن  
 الحسين بن أحمد المادرائى المعروف بابى  
 زنبور بأقل كفاية ولا مهاراة من ابن أخيه  
 أبى بكر ، فقد صار إليه الأمر بسبب ذلك ،  
 وعندما توفى سنة ٩٢٩/٣١٧ كانت شلوك  
 مصر والشام المالية والإدارية فى أيدي أهل  
 بيته . وكانوا جميعا ينجون أموال الدولة  
 ويوزعون فى الأوقاف ، وكان رجال الدولة  
 يحامون ذلك ويستعملون مصادره ، وكانت  
 المصادرة جزءا من الثقة العادية عندهم ،  
 يدخرون المال لما ينزل بهم منها ويقتى لهم بعد  
 ذلك الثراء الطائل مخبأ فى مراديب وأماكن  
 لا يعلم بأمرها أحد .

وكان العمل الرئيسى للمادرائين أنهم  
 كانوا يضمنون الخراج للصفلاة أو لصاحب  
 الأمر فى مصر ، فبدفعون مبلغا ميسرا ثم  
 يستخرجون من الناس ما يشاءون . وقد  
 اشتهر أمرهم بذلك ، حتى أن أصحاب الأمر  
 كانوا يكرهونهم ويحبسونهم ولكنهم  
 لا يستغلونهم ، نظرا لمعرفتهم بوجوه  
 الأيراد والاتفاق ، ولم يكن هناك من يجرؤ  
 على شكاى الخراج بالمبالغ التى كانوا  
 يضمنونها .

وفى سنة ٩٣٨/٣٢٧ — ٩٣٩ أو التى  
 بعدها استدعى الاخشيده أبى بكر المادرائى

فأما أحمد بن ابراهيم فقد ولى خراج  
 مصر سنة ٩٢٩/٣١٧ شركة مع ابن شعيب  
 المدائنى ، وبطلب ابن الذى وضعه فى هذا  
 المنصب كان أحمد بن طولون نفسه ، ثم اضرد  
 أحمد بن ابراهيم المادرائى بخراج مصر . وبعد  
 قليل عهد ابن طولون الى الحسين بن أحمد  
 المعروف بابى زنبور فى عهد من عهد الخراج  
 فى الشام . ثم ظهر من بين الخسراد البيت على  
 ابن أحمد المادرائى وعلا أمره أيام خسادويه  
 حتى قال المقرئى أنه كان يملك النظر فى  
 جيش مصر لأبى الجيش خسادويه بن  
 أحمد بن طولون ووزاره . وفى سنة ٩٣٦  
 عندما استقدم على هذا ابنه أبى بكر محمد بن  
 على وأما الطلب أحمد بن على ، واستخلف أبى  
 بكر على الخراج لم على الرسائل ، وهكذا  
 أصبحت الأمور المالية والإدارية كلها فى مصر  
 بأيدى أفراد هذا البيت .

وقد قتل على بن أحمد المادرائى مع أبى  
 العساكر جيش ، فنهض ابنه أبو بكر مكانه  
 وتولى أمور خادون بن خسادويه . وعندما  
 دخل محمد بن سلجاق مصر انضم إليه  
 أبو بكر محمد المادرائى ، ودافقه الى بغداد ،  
 ثم عاد الى مصر وتولى خراجها الى سنة  
 ٩٦٦/٣٥٤ أيام تكين وأصبح صاحب السلطان  
 انطلق فى البلاد وحاز ثروة واسعة . ثم أبعد  
 هو وعنه أبو زنبور عن مصر وطولبا فى بغداد  
 بأموال جليلة ، وظلا بعيدين عن خراج مصر  
 ٩٤٠ سنة ، ثم عاد أبو بكر الى خراج مصر سنة



ولعود الى خلفاء الاخشيد : بعد وفاة محمد بن طنج خلفه ابنه أبو القاسم أونوجور ، وكادت سنة أربع عشرة سنة عندما تولى الأمر . وانتهز كافيون الاخشيدى الفرصة ووسخ بدو على الأمور كلها . ومن ذلك التاريخ الى دخول الفاطميين مصر سيطر كافور هذا على مصائر مصر وجزء من الشام الى بعض الأحيان . وهو عبد أسود يصنفه المؤرخون نبيح الشكل وكبير البطن والقدمين وثقل البدن ، وقالوا انه كان مثقوب الشمة السفلى . ويبدو أن هذه مبالغات من المؤرخين . رافدا بما أن يجعلوا كافورا مثالا لقدرة الله على إعطاء الدنيا لم يشاء . ويرجح أنه ولد بين عامي ٩٢٩-٩٣٠م و٩٤٠م بالنسبة أو العتبة ، ويسمى في بعض الأحيان باللابي نسبة الى ناحية الالب من بلاد النوبة . ويقال أن الاخشيد اشتراه بشاية عمر ديناراً . ومهما يكن من أمر فقصته اخلص كافور للاخشيد اخلاصاً عظيماً لادنى معلة ورفع قدره . وعهد اليه في تربية ابنه أونوجور وعلى .

وكان الرجل ذكياً عالم بالثقير من شطرون الدولة ، ورأى خلفاء الاخشيد سفاراً لا ربحي منهم خير ، ورجائي الدولة لا يشاركون بمأنة ولا اخلاصاً ، فنظر الى الأمر وعده بمصعد لنفسه بكسب الصداقات والاعوان . فلما صارت الأمور الى أونوجور أصبح هو صاحب الرعي الأعلى ، ودام له ذلك على أيام أخيه على . وقد حاول كلاهما أن يتخلص

ويفوض اليه أمور المال ، وخلص على ابنه الحسين بن أبي بكر ، وأصبح أبو بكر أشبه بوزير للاخشيد . قال ابن سيد : « ورد اليه الاخشيد التدير بمصر والشام والرملة ، ولبس البنداعة وزرع الطبلستان ، وكان الاخشيد لا يصدور الا عن رأيه ولا يخفيه من حضور مجلسه ، ويقول للناس اذا انصرفوا : كم قبلت يده ووقفت بين يديه ؟ » - والبنداعة هي شارة الوزراء ، فكان إذا بكر المادرائي قد أصبح بالفعل وزيراً وإن لم ينسب بذلك . وقد غضب عليه الاخشيد سنة ٩٤٣/٩٤٣ - ٩٤٣ وعزل وحبس في بيته مكرماً وجري عاهة رزقا يبعث اليه في سجنه .

وولبت العاهة بأبي بكر ، حتى اذا توفي الاخشيد وتولى أبو القاسم أونوجور ظهر أبو بكر همه عظيمة في تأييده . فاعاده الى ما كان عليه . ومن غريب ما حدث بعد ذلك أن قالوا يسي غلبون خرج بالصب وطلب جيش أونوجور وتولى الأمر فضدهم أبو بكر وضمن له الفراج . فلما عاد الأمر الى أونوجور حبسه وصادره وشره ، فلما مبار الأمر الى كافور أخرجه من سجنه واعاده الى ما كان عليه . في أن هذا الرجل استطاع أن يظهر على السطح رغم كل شيء ، وفيه ذهبت دولة وغنمت دول والمعارضة على حالهم من السلطان والغني والجاه . وقد توفي أبو بكر المادرائي في الثامنة والعشرين من عمه أيام كافور سنة ٩٤٥/٩٤٥م وكان قد ابتعد عن الأعمال في أواخر أيامه .

والعباسية ، وله قنصاء « وكان عظيم الحرمة ،  
 وله حجاب يستع عن الأمراء » وله جهور  
 مغنيات ، وله من العظماء الروم والسود  
 ما يتجاوز الوصف « زاد ملكه على ملك مولاة  
 الاختيشية ، وكان كريما كثير القلع والمهات  
 طيرة » بالعباسية فظنا ذكيا جيد العقل داهية ،  
 كان يهامي المزم صاحب المغرب ويظهر ميلا  
 اليه ، وكان يذهب بالضاغة لبنى العباس  
 ويداري ويشدح هؤلاء وهؤلاء ، ولم له  
 الأمر . وكان لا ينفك عن إرسال الأسراف  
 والمهات الى الحجاز . وكان ينشأ أمام  
 الناس بكل ما يحبه الى قلوبهم . « ذكروا أن  
 عظيميا مرض به في إحدى مواعيد وذكره في  
 مرض التذليل على هوائل امر الدنيا على الله ،  
 فسمع كافور بذلك فأرسل اليه خلعة ومائة  
 دينار ، فصار الواعظ يقول بعد ذلك :  
 ما ألجب من ولد حام الا ثلاثة : لقمان وللال  
 القزاذل وكافور » .

ويكنى للتذليل على ما بلغه كافور من  
 المكانة ما وقع له مع المتنبى ، وقصته هذا  
 القاهر الكبير اياه ومدحه والتعرب اليه ، حتى  
 لقد كان المتنبى على احتفائه لكافور يضافه  
 ويركب في موكب . ولم يبلغ المتنبى من كافور  
 شيئا لا حاجة الى وجل من منافسه هو أبو  
 شجاع فائق الرومي المعروف بالجنسون ،  
 فمدحه ، وحصل منه على ألف دينار وهدايا  
 أخرى ، ثم خاف كافورا فعرب من مصر ،  
 وعندما صار على حدودها أطلق لسانه فيه .

منه دون جردى « وظل كافور صاحب  
 الأمر المطلق في البلاد مستعينا بأبى بكر  
 فلادرائي وغيره من رجال الدولة . وبذهب  
 بعض المؤرخين الى أن كافورا تخلص من  
 أبى الغاسم فونوجور ثم من أخيه على  
 باسم ، وذلك غير متبذ وأن كما لا نستطيع  
 القطع به . وبعد أن توفي على لم يعد هناك  
 الا ابنه أسيد ، وكان حبيبا في الناس من  
 صره ، فأراحه كافور جلة ودما لنعمه على  
 الخاير وأصبح أمير مصر ولكنه اكتفى بلقب  
 الاستاذ ، فكان يقال « الاستاذ أبو الملك  
 كافور » . وقد صيد كافور في الحفاظ على  
 كيان الدولة ورد عنها الفاطميين أكثر من مرة  
 وحماها من عدوان رجال الدولة العباسية ،  
 ولولاه لضاع أمر بنى الاحشيد عقب وفاة  
 محمد بن طليح ببالفة ، أى أنه طلى يحكم  
 مصر فعلا من سنة ٣٣٤/٩٤٥ الى سنة ٣٥٧/  
 ٩٦٧ ، ولد سقط مصر في أيدي الفاطميين  
 بعد وفاته بعام واحد .

وكان رجال الدولة يمشون بأبى كافور ،  
 أما جمهور الناس فكافوا يعبرونه . وقد جمع  
 من الصفات ما أهله لهذا وذاك ، فلما مع رجاله  
 الدولة فكان حاسما حازما بل قاسيا ، ولم  
 يمنعه ذلك من القدرة على الترويع والمطاول .  
 ولما مع الجمهور فكان يظهر التنى والتواضع  
 وحب آل البيت . قال الفذهبي : « وكان  
 كافور يذني الشعره ويحيزهم ، وكانت تجري  
 له في كل ليلة السير وأخبار الدولة الاموية

وبعد أن تولى كافور اجتماع رجال الدولة وولوا أحمد بن علي بن محمد بن طنج الاخشيد في جمادى الأولى سنة ٩٦٧/٣٥٧ وجعلوا الحسن بن عبيد الله بن حجاج (ابن عم أبيه) خليفته ، وتولى أموره أبو الفضل جعفر بن الفرات . وكان أحمد قد الحصادية عشرة من مصر ، لا يستطيع أمرا ، وقد أماء جعفر بن الفرات التصرف وصادر بعض الناس وفي جبلتهم بمقوب بن كلس وكان من سروات الناس ، ففر إلى المنز لدين الله وأخذ يحرضه على دخول مصر ، وقد بلغ ابن كلس بعد ذلك مركزا عظيما أيام الفاطميين .

وكان الفاطميون لمصر بالمرصاد منذ أيام الاخشيد ، وقد أشرفوا على كلامنا عن الاخشيد إلى بعض محاولاتهم لتنتحيا . والواقع أن الفاطميين منذ أن قامت دولتهم في القيروان لم يتركوا راحة ولا اطمئنا ، فقد ناصبهم أهل البلاد العداء وكرههم وحاربهم ، حتى ضاقت ذراعهم . وكانت البلاد فقيرة لا تعينهم على ادراك ما كانوا يؤملون من ملك عظيم ، ثم انهم عجزوا عن السيطرة على المضربين الأوسط والأقصى ، وبدأ لهم بوضوح أن لهم إلى زوال إذا لم يلقوا في هذا الفرقن الذي شاعت المقادير أن تقوم دولتهم فيه . فانجحت أنظارهم إلى ضم بلاد أخرى إلى إفريقية ، وبعثوا الميون والجواسيس في كل ناحية ليعلموهم بأحوال بلاد مثل الأندلس ومصر ، غير أنهم بعد أن مات الاخشيد اتجه

اهتمامهم نحو مصر ولمعوا فيها بسبب ما كانت عليه أحوالها من الاضطراب ، وقوي طمعهم عندما صار الأمر إلى كافور ، ولكنه عرف كيف يرد طمعهم عن بلاده . وكان الفاطميون قد دعوا الاخشيد إلى الدخول في عاتقهم ، فجعل يراوهم ، حتى ولد خلافته مع العباسيين والعلما من ناحية رجالهم ، فوالب من الفاطميين موقفا حاسما . فلما مات الاخشيد عاقبوا يعاقبون مع كافور ، فأخذ يراوهم هو الآخر : لم يرفض طلبهم ولم يعبه ، وطلب يجتهد في المحافظة على مركزه بين العباسيين من جهة والفاطميين من جهة أخرى .

وقد بدأ للسفح الفاطمي بوضوح أن فرصته لفصل مصر قائمة يوم يموت كافور ، وبدأ بالفعل يستعد للأمر ، فبدأ في حصر الآثار على الطريق من إفريقية إلى مصر من سنة ٩٦٥/٣٥٥ ، وعندما وصلت الأخبار ب موت كافور سنة ٩٦٧/٣٥٧ عجل بأعداد الحصة . وزاده حمة في ذلك ما تسامع به من سرور سياسة الوزير جعفر بن الفرات . ويبدو أن دعاة الفاطميين في مصر كانوا كثيرين ، لأننا نقرأ في أخبار هذه الشهور العباسية ما يدل على أن الجموع في مصر كان مهبا لاستقبال الفاطميين الجيود ، وعندما اقتربت عساكر الفاطميين من مصر اجتمع جعفر بن الفرات بكبار رجال الدولة ، وقرروا مفاوضة القائد جوهر على شروط التسليم ، ثم اجتمعوا بجوهر وحصلوا منه على أمان لأنفسهم وأهل

البلد وقد أورد المقرئ في نص هذا الأمان في  
و اتعاظ الحنفاء ، وهو لا يخرج عرج تأمين  
الناس على أرواحهم وأموالهم ، ولكنه حافظ  
بما اشتهر عن الفاطميين من تعجيد لأنفسهم  
والسعاء على غيرهم وانتان على الشاس  
بطاعتهم . وفي شعبان ٣٥٨ : ٩٦٨ هـ على جوهر  
الصقلي مصر بجيوش الفاطميين بعد مفاوضات  
سيرة ، وبدأ في تاريخ مصر عهد جديد .

ولم تكن للاخشيديين أثناء حكمهم في  
مصر عناية حقيقية الا بشؤون المساء ، وقد  
ولفوا في ذلك بفضل الممارتين ، ولعلوا  
يصبون مال مصر كل سنة نحو مليونين من  
الدنانير على قول و ٣٥٧٠٠٠٠٠ على قول  
آخر . والراجع ال الرقم الأخير أقرب الى  
الصحة . وقد تشدد الاخشيديون في ذلك  
حتى أدهقوا الناس بالمخار والجبليات ، حتى  
كان الجاه يستخرجون من الناس طرائب على  
أراضي البور . وقد قرر المقدسي أن الضرائب  
والمكوس كانت ثميلة ، وبخاصة في شمس  
ودمياط وعلى ساحل النيل . وقد ذكرنا أن  
الاخشيدي كان لا يتورع عن مصادرة الأموال  
كما كانور فهد كف يده عن ذلك ، ثم نادت  
المصاهرات بعد وفاته ، وأسرف جفتر بن  
الفرات في ذلك ، وبسوء أن رجال الدولة قد  
أهتوا صيانة الخراف ، فقد عوانث على البلاد  
العلوات ، وفي السنة التي دخل الفاطميون  
مصر فيها كانت الحالة قد بلغت مبلغا جعل  
البلاد على حافة الخراب ، وقد تدارك الأمر  
ذلك لأول دخوله .

تلك هي التجربة الاخشيديية : أراد  
صاحبها من ورائها أن يبدع تجربة ابن طولون  
فلم يوفق ، وانقضت سنواتها الأربع والثلاثون  
وكانها كل مر على حائط دون أن يخلف أثرا .  
وإذا كان ولابد أن نجد لها دورا في تاريخ  
مصر الغويل فلنا انها تالحت للشعب المصري  
عدوا من السموات عاشها بسدا عن النواصف  
التي هزت بقية أجزاء الدولة المباسية في ذلك  
العين . فلقد شقت الجزيرة العربية والشام  
والعراق بغارات القرامطة ، وتهددت الدولة  
البيزنطية حدود مملكة الاسلام من الشمال  
واجتاحها في مواضع ، وبقيت مصر هادئة  
تجرى الحياة فيها على ماألف عهدها في تلك  
المصور من النشابة والتكاسل ولا شك أن  
محمد بن طنج كان حريصا على الدفاع عن  
مصر والابعاد بها عن المسعة الدائرة ، وخص  
في سبيل ذلك بمظم الشام ، فلم يخطئ منه  
الا بالرمقة . وهي مفتاح مصر من ناحية  
الشام .

ورسا استطعنا أن نقول انه لولا الاخشيدي  
وكافور لتقدم استيلاء الفاطميين على مصر  
يضع سنوت . لقد وندب الدولة الفاطمية في  
أفريقية بعد زوال دولة آل طولون بأربع  
سنوات ، ومنذ أن تربح في دمنها عبيد الله  
النهدي في سنة ٢٩٦ : ٩٠٨ هـ قضت عيناه على  
مصر وأخذت حملاب الفاطميين تنوش حدودها  
الغربية . وقد دافعهما ولادة بني القساس  
ما أمكنهم اندامعة ، فلما جاء الاخشيدي اعتم

بالمنافخ وأعد له عدته وتمكن من رد كل محاولات الفاطميين ، وأضاف إلى ذلك سياسة مرنة جعلته يصانع الفاطميين حيناً ويتصدى لهم حيناً ، حتى ليدور في بعض سنواته أميل إلى الدخول في طاعة الفاطميين والخروج من دولة بني العباس ، ولكن قوى الفاطميين لم تبلغ أياها المبلغ الذي يتخيله أو يدفعه إلى ساعته ، ففضل البقاء على طاعة العباسيين ، فهم مهما كان أمرهم أضف من الفاطميين ، وهم مخفولون عنه بما حزبهم من انتساب ، فكانوا ينعون منه بما يرسل ، ولم يكن الفاطميون يبرسونه بأحداً ذلك .

ثم جاء كافور فبني على سياسة مولاه ، وأخذ يراوغ الفاطميين ويدافعهم ، حتى إذا انتهت أيامه كان على عرش الفاطميين تميم أبو محمد أعظم رجال دولتهم ، ولما خدمته قائد مظهر ماهر هو جوهر ، جاس خلال المغرب كله يمزو ويعارب ، حتى تجبعت له تجربة عسكرية جعلته من أكبر قواد زمانه ، وقد يشي المعز وقائده من مصر دولتهم إلى المغرب وتحتل أمالهما بدخول مصر ، ووجها لهما كل قواهما ، فصارت بينهما دون كبير جهد .

ولابد أن نصيف إلى الأخشيدي جانباً من الفضل في مدافعة البيزنطيين عن بلاد الإسلام ، فقد كانت الدولة البيزنطية قد نهضت إذ ذاك نهضة كبيرة على يد قنطور فوقاس ثم يوحنا السيميني من بعده . وأغاروا على بلاد الإسلام وغرباً شمال الشام فسقطت أنطاكية وحضمت حلب الجزيرة وهدم القلعة دمشق ، وتصددى لمدافعهم الحمانيون أصحاب الموصل وحلب والأخشيديون ومثبوعة المسلمين الذين تكاثروا في الثغور الإسلامية بفهمهم الحسية الدينية ، وخاصة عمر طرسوس ، وعلى الرغم من أن دولتي الأخشيديين والحمانيين لم تستطعا رد هادية البيزنطيين عن بلاد الإسلام بصورة حاسمة ، إلا أنهما تمكنتا من القاذ ما أمكن إقاده ، ورسل الأخشيديون لقواتهم لصاية الثغور وأخرجوا الأموال لأفنديه أمرى المسلمين ، وقد هاجبهم المهرنثيون وكانبوهم رأساً متغطين رجال الدولة المباسية . وكانت سياسة الأخشيدي وكافور مع البيزنطيين سياسة ملاينة ومودعة إلى الضال ، ولم يكونا يستقيما أكثر من ذلك على أي حال .





المختلفة من سجن وقتل وتفرقت ، ولهذا لم يدرج الاسماعيلية لحركتهم بأنفسهم ، لأن السر أصل من أصول مذهبهم ، ومن ضعف العقيدة عندهم كشف المستور ، وكانت النتيجة أن كل ما نعرفه عن عهد السر - وهو العهد الذي يبدأ بوفاة جعفر الصادق وينتهي بفيسام الدولة الفاطمية - يسوده المناقش والاضطراب ، ولا يمكن الركوز إليه أو الوثوق به .

### الحزب الشيعي - نشأته وتطوره

الى اليوم ؛ وتولى معاوية زعامة المعارضة ، وكانت حجته الكبرى أنه إنما قام للمطالبة بثار عثمان ، والانتقام من فتنه ومن حذاه هؤلاء القتل ، غير أن رأى أن هذه حجة عاصية اتخذها معاوية شعارا ليشير شيعور المسلمين على ملى ، أما الصراع العقلي غير صراع سياسي تمتد جذوره الى الماضي البعيد ، الى عصر ما قبل الاسلام ، عندما كان ائتلاف على أشد بين بنى أمية وبنى هاشم في سبيل السيادة فلما ظهر محمد برسائه كان بنو أمية من أشد الناس عداوة له وكان أبو سفيان - زعيم بنى أمية - حامل لواء المعارضة والمقاومة .

ونصر الله هذه محمدا ، وانتقلت السيادة الى بنى هاشم ، فمنهم اختار الله نبيه ، وقد استجاب العرب جميعا لرسالة وخضعوا لشفوذه بعد أن كوز دولته الجديدة التي

اولهما أنا لا نعرف على وجه التحديد متى بدأت الدعوة الاسماعيلية أو من بدأ بها ، فقد بدأت مرية ، وما كتبه المؤرخون الشيون عن أصولها ومبداها فيه تناقض كثير واضطراب ، ويحتمل في أكثره ممحلي الدائعات المتفرقة .

ولاهما أن الاسماعيلية أنفسهم لجأوا في أول الأمر الى التلغى فقد كان العهد عهد سمر ، وخضع الشجة لمواصل الاضطهاد

المعمور الذوات أن محمدا عليه السلام تولى ولم يوص لأحد بالخلافة من بعده ، وترك الأمر شورى بين الصديقين ، ومن طريق هذه الشورى اختبر الغدقاء الأربعة الراشدون ، وإن اختلفت أساليب الشورى عند اختيار كل واحد منهم .

وكان على بن أبي طالب يطمح في أن يأن هذا المنصب منذ اللحظة الأولى التي نشأ موب الرسول عليه السلام ، ولكن المنصب فاته في الحالات الثلاث الأولى ، ولما أدركه في الحالة الرابعة أدركه في شروعه عسيرة مصيبة ، فقد تولى على الخلافة في أعقاب الفتنة الكبرى التي انتهت بقتل عثمان بن عفان .

وحدث الانقسام الأول الذي فشت الوحدة الاسلامية وجز الويلان الكبار على المسلمين والعالم الاسلامي منذ تلك اللحظة



وحدث المؤمنين والمسلمين من الحرب جميعا  
ليكونوا أمة واحدة من دون الناس .

آلم بنى أمية أن ينال بنو هاشم هذا  
الشرف كله ولكنهم خضعوا على مضض ،  
وخافية بعد دخولهم في الاسلام ، غير أن  
ينجور هذا النزاع لم تست بل ظلت كاسية في  
التعويض التي أن ولي عثمان - وهو من كبار  
بنى أمية - الخلافة فاستبطلت بمواصل  
الخلافة من جديد ، والتف رجال هذه  
الأسرة حوله يلونون سياسته باللون الذي  
يريدون ، فلما لارت الفتنة وقتل عثمان ،  
وولى على الخلافة خشوا أن تستقر السيادة  
ثابتة في بيت بنى هاشم ، فعملوا المعارضة  
معاوية - كبير بنى أمية في ذلك الوقت -  
وقاد معركة النضال في عناد واصرار شديدتين  
مستعملا كل ما أوتي من مكر وجدها .

فلم يكن الصراع بين علي ومعاوية إلا  
صراعا للأغصان بنار عثمان أو للانتقام من  
قتله ، والبا كان حلقة جديدة في سلسلة  
النزاع القديم في سبيل السيادة بين بيتين  
كبارين من قرشي هما بنو أمية وبنو هاشم ،  
ولقد كان تقى الدين أحمد بن علي المقرئ  
- زعيم مؤرخي مصر الإسلامية - أول من  
قفز إلى هذه الحقيقة ، وأول من عالجا  
معالجة طيبة في كتابه الصغير القيم : « النزاع  
والخلاصم بين بنى أمية وبنى هاشم » .

إبان هذا الصراع ظهر الحزب الشيعي  
وهو الحزب الذي يضم من ينتسبون لعلي

أو يتشيعون له ، وقد انضم إلى هذا الحزب  
كل الشائئين والمتفرجين من أقرب وغيرهم ،  
ومن الموالي بوجه خاص ، وصنع رجال هذا  
الحزب لأنفسهم مبدءا خاصا ، وفلسوا هذا  
المبدء فلسفة تأثروا فيها إلى حد بعيد  
بنتريات الحكم عند الفرس التي كانت  
تؤمن بعن الله المقدس وحجر الزاوية في  
هذا المبدء عقبتهم في الإمامة ، وبنوا هذه  
العقيدة على حديث لبي ، فقالوا أن  
الرسول عليه السلام مر عند أخته من حجة  
الوداع بندير خشم - وهو مكان بين مكة  
والمدية - وعنه هذا الحديث آخى بينه وبين  
ابن عمه علي وقال : « علي مولاي ، اللهم  
وإن من والاه ، وعاد من عاداه » .

وقالوا استنتاجا من هذا أن هذا الحديث  
يشتمل مباحة طسية من محمد لعلي ، وإن  
عليا وصي الرسول ، وصي له بالإمامة من  
بعده لشروط خاصة ينشرد بها ، ولطوم لديه  
تلقاها عنه ، وإن الإمامة يجب أن تنتقل من  
علي إلى أولاده أو واحد بعد الآخر لأن  
الشروط والعلوم تنتقل في سلس على بطريق  
الوراثة من الآين إلى الآين .

ولهذا وقد أتباع هذا الحزب فيما بعد  
إلى جانب أولاد علي يحرضونهم على المزايدة  
بضهم في الخلافة ، وحشروا أولا الحسن بن  
علي ليلي أمر المسلمين بعد مقتل أبيه ، ولكن  
الحسن كان رجلا بعيد النظر ، قرأ أن أهل  
الشام ومصر والحجاز واليمن قلوبهم مع





وبعد ثلاث سنوات من وصوله الى بلاد المغرب أي في سنة ٢٩١ هـ ( ٩٠٣ ) بدأ جهوده الحربية فخضعت له مدن كثيرة وبعده على هذا النجاح ما كان قد أصاب الدولة الأغلبيّة صاحبة الحكم في تونس حينذاك من ضعف وانحلال .

وعند ذلك أرسل أبو عبيد الله الى عبيد الله المهدي - الامام الاسماعيلى صاحب المصخرة - وكان يقيم في مدينة سطية بالشام ، يستدعيه للظهور الى بلاد المغرب ، فأسرع تجلب الدعوة ، وخرج من الشام ومعه أموال وفيرة ، ويقال ان الخليفة المباسى علم بخروجه فأرسل الى قسالة في مصر والغربية بوصيهم بالقبض عليه ، ولكن عبيد الله استطاع بانتشار لارته ، وببذل المال تارة أخرى أن يفر من مراقبة الولاء ، واشتد به الرحلة الى مدينة سجلماسة في المغرب الأقصى حيث قبض عليه وألبها وسجنه بها .

وفي سنة ٢٩٦ هـ تم لأبي عبد الله النصر النهائي على الممويولات القائمة في شمال إفريقيا : دولة بني مدرار في سجلماسة ، ودولة بني مسمم في تاهرت ، ودولة الإغلبية في أفريقية ( تونس ) ، وأطلق سراح عبيد الله ، فعاد الجيش بنفسه ، وسار حتى دخل مدينة رقادة في سنة ٢٩٧ هـ ، وزل بقصر من قصورها ، وفي يوم الجمعة خطب باسمه على منابر رقادة والقيروان

— بعد أن قضى نهائيا على تلك الإغلبية — ولقب بأبى المؤمنين عبيد الله المهدي .

وهكذا نجح الشيعة الاسماعيلية في الوصول الى عرش الخلافة بعد جهاد طويل مرير ، كان بعضه في السلن الى عهد محمد بن اسماعيل بن جعفر المداقي ، وبعضه في السر وبسره ، بن محمد بن اسماعيل الى نجاح الدولة والظهور عبيد الله ، وبصرف هذا العهد الثاني بعهد الكتفان ، لقد كنت فيه أسماء الالهة تجبه وطولا وكان يقوم بالدعوة العلنية ويشرف على توجيهها الالهة المستودعون من ليل عبد الله بن ميمون القداح ، ومن هنا لار الجهاد حول محبة النسب الفاضل فقد أصبح كتمان أسماء الالهة المستقرين من محمد بن اسماعيل الى عبيد الله المهدي جزءا من المذهب ، ولم يكن الخلفاء الفاطميون يسمون اعلان الله الاسماء حتى بعد نجاح الدعوة وتولهم الخلافة ، ومن هذه الفترة دخل أعداء الدولة الفاطمية من المباسين في المشرق والأماويين في الأندلس للظن في نسب الالهة الفاطميين يريدون بذلك أن يهوضوا الدعائم التي قامت عليها الدولة .

والى هذا القدر — الذى لار حسبول نسب عبيد الله المهدي منذ اللحظة الاولى — يرجع بعض المؤرخين السبب في النزاع الذى قام بين عبيد الله وقائده أبي عبد الله ، والذى انتهى بقتل هذا الأخير بعد قيام الدولة بنحو عام .

# الخلفاء العاطميون

## ١ - في المغرب

٣٢٢	ت ١٤ ربيع الأول	المهدي أبو عبد هيد الله	١ - ٤ ربيع الآخر ٢٩٧ (٩٠٩)
٣٣٩	ت ١٣ شوال	القائم بأمر الله أبو القاسم نزار	٢ - ١٤ ربيع الأول ٣٢٢ (٩٣٤)
٣٤١	ت ٢٩ شوال	المنصور بنصر الله أبو الطاهر اسماعيل	٣ - ١٣ شوال ٣٣٤ (٩١٥)
٣٦٥	ت ٣ ربيع الآخر	المعز لدين الله أبو نجيم محمد	٤ - أول ذي القعدة ٣٥٦ (٩٥٣)

## ٢ - في مصر

(ولي شعبان ٣٥٨ حلت مصر ، ولي رمضان ٣٦٢ دخل المعز القاهرة )

٣٨٩	ت ٢٨ رمضان	العزيز بالله أبو منصور نزار	٥ - ٤ ربيع الآخر ٣٦٥ (٩٧٥)
١١١	انقضى في ٢٧ شوال	الحاكم بأمر الله أبو علي منصور	٦ - ٢٩ رمضان ٣٨٩ (٩٩٦)
٤٢٧	ت ١٥ شعبان	الفاخر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي	٧ - ١٠ ذو الحجة ٤١٦ (١٠٢٠)
٤٨٧	ت ١٨ ذو الحجة	المنصور بالله أبو نجيم محمد	٨ - ١٥ شعبان ٤٢٧ (١٠٣٥)
٤٩٥	ت ١٤ صفر	المستعلي بالله أبو القاسم أحمد	٩ - ذو الحجة ٤٨٧ (١٠٩٤)
٥٢٤	انقضى في ٢ ذو القعدة	الآخر بأحكام الله أبو علي منصور	١٠ - ١٤ صفر ٤٩٥ (١١٠١)
٥٤٤	ت ٥ جمادى الآخرة	الحافظ لدين الله أبو يمين عبد المجيد	١١ - ١٥ المحرم ٥٢٥ (١١٣٠)
٥٤٩	انقضى في ٣٠ المحرم	الظاهر بأمر الله أبو منصور اسماعيل	١٢ - ٦ جمادى الآخرة ٥٤٤ (١١٤٩)
٥٥٥	ت ١٧ رجب	الناصر بنصر الله أبو القاسم عيسى	١٣ - أول صفر ٥٤٩ (١١٥٤)
٥٦٧	انقضى في ٣ المحرم ، وبات ١٠ المحرم	العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله	١٤ - رجب ٥٥٥ (١١٩٠)

الأيوبيون





## الفتح الفاطمي لمصر

الثاني ، فاستبد الأتراك يستنون بالحكم  
العملية حتى غدا الخلفاء كالدلي في أيديهم  
يعركونهم كيف شاءوا ، وانطبق عليهم عند  
ذلك قول الشاعر :

خليفة في قلبي

بين وصيف وبني

يتسول ما لالا له

كما تقول البغا

وأدى هذا الضعف إلى اجترأ كل  
طموح أو محب للشب أو رغب في السلطة  
إلى الثورة ، فقامت ثورة الإلج في اليم  
البصرة والجزء الجنوبي الغربي من فارس ،  
وعملت منطقة خسر عشرة سنة ( ٢٥٥ —  
٢٧٥ هـ ) ، ثم تلقوا ثورة القرامطة الذين  
تقدموا حتى ملكوا بأبدة الشام وجنوبه  
وهددوا حدود مصر الشرقية ، وغاثوا في  
الجزيرة العربية شادا ، واستلبوا الحجير  
الأسود حيث بقي معهم مدة النزل وعشرين  
عاما ، ولم يردوه إلا بعد أن دفع لهم الخليفة  
المباني مبلغا كبيرا من المال ، وصاحب هذه  
الثورات انفصال الأطراف وقيام دول مستقلة  
فيها .

وفي الشرق قامت الدولة الغزنوية  
والسامانية والظاهرية ، وفي الغرب قامت  
الدولتان الطولونية والأخشيدية .

وفي قلب الدولة نفسها ، في العراق  
قامت دول ملكت زمام الحكم في أيديها :

كان الفرض الأساسي الذي سعى  
المملوكون دائما لتحقيقه هو تكوين خلافة  
جديدة تقضي على الخلافة انبساطية السنية  
وترثها في ملك العالم الإسلامي ، وقد رأينا  
كيف نجح الفاطميون في تحقيق القطر الأول  
من غرضهم فأقاموا دولتهم في المغرب ،  
ولكنهم لم يفسروا بعد لجأهم للشطر الثاني  
والأهم وهو القضاء على الدولة العباسية  
ومصر هي أول جزء من أملاك العباسيين  
يجاور الدولة الفاطمية من ناحية الشرق .

لهذا كانت مصر حطم الفاطميين عند  
المعركة الأولى ، ولهذا لم تكن الأمور تستمر  
نوعا ما للصهيدي — الخليفة الأول — حتى  
أمد العدة للإتجاه شرقا وغزو مصر ، فأرسل  
في سنة ٣٠٦ جيشا لتحقيق هذا الغرض ثم  
أرسل في سنة ٣٠٧ حملة أخرى ، ولكنهما  
منيا بالفشل ، وقد هذا جذوه إبه القائم  
فأرسل في سنة ٣١٦ حملة ثالثة — ولكنها  
لم تكن أسعد حظا من سابقتها ، ولم يكتب  
النجاح إلا للفرقة الرابعة التي تمت في عهد  
المعز لدين الله .

وقد ساعد على نجاح هذه الفرقة الرابعة  
أمور كثيرة : أهمها ~~ضعف~~ الخلافة العباسية  
صاحبة السيادة على مصر ، وضعف الدولة  
الأخشيدية صاحبة السلطان الفعلي فيها .

أما الخلافة العباسية فتد بدأت عوامل  
الضعف تسال إلى كيانها في مصر المباني



المحارب ، فمات رجليل وامرأة في الزحام ، ولم تحصل الجمعة يومئذ .. ■

■ وفي سنة ست وخسين لم يبلغ النيل سوى اثني عشر فرسًا وأصابع ، ولم يقع مثل ذلك في الملة الإسلامية ، وكان على أنارذ ممر حينئذ الأستاذ كافر الأختيدى ، فغلب الأمر من شدة الغلاء .

وفي سنة ٣٤٧ هـ مات كافر ، فظهرت المقاومة ، وكثر الاضطراب ، وتعدت الفتن ، وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء قتل فيها خلق كثير ، وانتهت أسواق البلدة ، وخرجت مواضع عديدة فاشتد خوف الناس ، وطاعت أمراءهم ، وتغيرت نياتهم ، وارتفع السعر ، ونقص وجود الأقوات حتى بيع الفصح كل وية بدنان ، واختلف السكر : فلعن الكثير منهم بالعمى بن عبد الله بن شجاع — وهو يومئذ بالرملة — وكاتب الكثير منهم المعسر لعين الله الفاطمي ، وعظم الأراجاف مسير القرامطة إلى مصر ، وتواترت الأخبار بمجيء عساكر المعز من المغرب ، إلى أن دخلت سنة ثمان وخسين وثلاثمائة : ودخل القائد جوهر بمساكن الإمام المعز لدين الله .. (١١).

هذه صورة راحة لساعة في مصر قبيل التمزق الفاطمي ، ومنها بقية المبدع في الدين الكردي رعيصم مؤرخ مصر الإسلامية ، ويستطيع أي قارئ أن يعلمها برؤيته والرواية إلى لوحة ناعمة نرى فيها

(١٢) القرني : إعادة الأمانة بكشف الغممة . شر وياض والتمثال . ص ١٢ - ١٣ .

ففي الشمال قامت الدولة الحمدانية في فواحي الموصل وحلب ، وطالما حاولوا دخول بغداد نفسها ، وفي العاصمة بغداد قامت الدولة البويهي في سنة ٣٣٤ هـ ، واستبدت بأمر الخلافة جيمًا ، وأصبحت للبويهيين الكلمة الأولى والعليا في تولية الخلفاء وعزلهم . ولناهم ، وصادق بذلك قول البيروني فيهم : ■ إن الدولة والمملكة قد انقلبت من آل عباس إلى آل بويه والذي بقي في أيدي الدولة العباسية الماهر أمر ديني اعتقائي ، لا ملكي ديني . (١٣) .

وفي مصر انتهت الأمور بعد موت محمد بن طنجح الأختيد إلى سنة ٣٣٤ إلى الضعف . إذ لم يخلفه أحد من نسله له مقبل ورجل . وحجته ، حقيقة لقد استبد كافر بالحكم دون ولدي الأختيد ، فاستطاع أن يجمع الثروات التي لم يصب وأن ينشر على الحمدانيين ، ولكن هذه الولية كانت أشبه شيء بصورة الموت ، فقد ماتت أعمال البلاد الاقتصادية في سنة ٣٥٣ هـ قهر النيل في فيضاته ، وحدث بمصر غلاء شديد نتجت عنه مجاعة ظلت نحو سبع سنوات ، قاسى المصريون في خلالها الشدائد ، فحدث في سنة ٣٥٥ هـ مثلًا أن عظم الفيضان ، والتفتت الأعمال لكثرة الفتن ، وذهبت الضياع والغلات ، وماج الناس في مصر بسبب مصر : فدخلوا الجوامع العتيق بالتمسك في يوم جمعة ، وازدحموا عند (١٤) البيروني : الآثار الباقية . ص ١٣٣ .





بالستان الكافوري ، ودير النصارى يعرف  
بدير النظام وبناء يعرف بقصر الشوك ، وقد  
بنى مكانه بعد تأسيس القاهرة أحد قصور  
الفاطمين الكبيرة وسمى بقصر الشوك .

وقيل في سبب تسمية المدينة بالقاهرة أن  
جوها لما أراد تأسيس العاصمة الجديدة  
أحضر النجيني ، وأمرهم باختيار طالع سعيد  
لوضع الأساس ، حصلوا بدائرة السور قوائم  
من خشب ، ووصلوا بين كل قائمتين بحبل  
معلقا فيه أجراسه ، وقالوا للمسال : إذا تحركت  
الأجراس فالتوا بما بأيديكم من ملين وحجارة ،  
وسا المسال منظرون لا وقف هراب على  
أحد تلك الحبال ، وتحركت الأجراس جميعا  
ودأ المسال في البناء ، فصاح المنجوني :  
لا ، لا ، القاهرة في الظلم ، فسميت المدينة  
بالقاهرة . - والقاهر هو المربح .

ولكننا لا نسير إلى تصديق هذا الرأي ،  
فهو أقرب إلى القمص الخيالية ، ويؤيدنا في  
شكنا المقريري نفسه راوي هذه القصة ، فإنه  
يقول في موضع آخر أن جوها « لا سار  
من الجيزة بعد زوال الشمس من يوم الثلاثاء  
لمسح عشرة خلعت من سمحان سنة ٣٥٨  
بمسارده ، ولعلنا إلى مناخه الذي رسمه له  
عولاه الإمام المزمع لدين الله أبو تميم سعد ،  
ومستقرت به الدار اختط القصر وأصبح  
المصريون جنوده فوجدوه قد حفر الأساس  
في الليل ، فدار السور اللين ، وسموها  
المنصورية ، إلى أن قدم المزمع لدين الله من

بلاد المغرب إلى مصر ، ونزل بها فسموها  
القاهرة » (١) .

وهذا فيما نرى السبب الصحيح لتسمية  
القاهرة ، فإن جوهرنا عندما وضع الأساس  
للمدينة الجديدة سماها « المنصورية » ،  
ولعله كان يريد أن يتفرب إلى خليفته المصن  
بأحياء ذكرى والده الخليفة المنصور ، فسمى  
العاصمة الجديدة باسمه ، واختار لها موقعا  
خارج العاصمة القديمة المصطاط لينزل بها  
الجند ، كما كانت المنصورية خارج القهروان ،  
وسمى بابها من أبواب المدينة الجديدة  
باسم زويلة والفتوح ، وهذا اسمان  
لبابين بمدينة المنصورية في المغرب . فلما إلى  
المزمع إلى مصر سماها « القاهرة » ثمأولا ،  
يريد بذلك أنها ستعمر المولة القديمة التي  
قام الناصيون لمناخها والتقاء عليها ، وهي  
الخلافة الناصية ، فالمصن نفسه هو صاحب  
هذه التسمية ، وقد اختارها ، وهو بعد في  
المغرب ، فقد روى أنه قال عند وداعه لجوها  
أمام جمع من شيوخ كتامة : « والله لو خرج  
جوهر هذا وحده لفتح مصر ، ولتدخلن إلى  
مصر بالأردية من غير حصار ، ولنزلن إلى  
خراجات ابن طولون ، وتبنى مدينة تسمى  
القاهرة ، تعمر الدنيا » (٢) .

ومما ينبغي قصة المزاب والحبال نفيها

(١) المقريري . الخطط . ج ٢ . ص ٢٠٤ .

(٢) المقريري : التمام النعناع . نشر  
السيال . ص ١٦٢ .

باتا أن السمودي <sup>(١)</sup> يروي قصة شديدة  
التشبه جيداً بهذه القصة ونسبها إلى  
الاسكندر عند بنائه الاسكندرية ، فحصل  
المقريزي نقلها عن مراجع متأخرة شُبه عليها  
الأمر عند الكلام عن القاهرة المزعزعة ، فلتفتت  
ما قيل من اسكندرية الاسكندر .

وأول ما بني في القاهرة القصر الكبير  
ليكون سكناً للخليفة وأتباعه ، ومفسراً  
لنواوين الحكم ، وضع جرحه أساس هذا  
القصر ليلة أول مناسخ .

وفي يوم السبت لست بدين من جاعاتي  
الأخرة سنة ٣٥٩ هـ ( ٥ مايو سنة ٩٧٠ م )  
اخطت القاهرة فزلزلت كل قبيلة أو فرقة من  
فرق العبيد في مكان خاص بها ، وسببت  
خطتها بالعارات ، ومنها حارة زويلة ، وزلت  
بها قبيلة زويلة ، وحارة كناسة ، وزلت بها  
قبيلة كناسة ، وحارة البرقية ، وزلت بها قوم  
من فرقة . وهكذا .

وبقال في سبب اختيار جوهر لهذا المكان  
كي يبنى مدينته عليه أنه رغب أن تصير  
حصناً قوياً بين القرامطة وبين مدينة مصر  
لهما فلم ين دولها ، فأدار السور اللبن على  
متاخة الذي أول فيه يدساكره ، وأثنى من  
داخل السور جامعاً ولعمره ، وأعدّها مغللاً  
يتحصن به وتزله عساكره ، واحتفر الخندق  
من الجهة الشمالية لمنع اقتحام عساكر

القرامطة إلى القاهرة وما ورامها من  
المدينة <sup>(٢)</sup> .

وكانت القرامطة عند اختطافها صغيرة  
المساحة ، ويقدر على مبارك في كتابه الخطط  
أن كل جانب من جوانبها كان يبلغ وقتذاك  
ألفاً ومائتي متر ، وأن مساحتها كانت ٣٩٠  
فداناً ( الفدان ٢٧٠٠ متر ) ، وكان القصر  
يشغل خمس المساحة أي نحو سبعين  
فداناً ، وكان بستان كافور يشغل عشر  
المساحة أي ٣٥ فداناً ، وكان الميدان الممد  
لعرش الجند يشغل ٣٥ فداناً أخرى ،  
أما الباقي وقدره مائتان فدان فقد خصص للزول  
فرق الجند المختلفة .

وكان السور الأول الذي بناه جوهر من  
اللبن ، وقد أدرك المقريزي قطعة منه كانت  
باقية حتى سنة ٨٠٣ هـ ( ١٩٠٦ م ) ، وأصبح  
بنيانه ، وذكر أن القبة الواحدة منه كانت قدر  
فراخ في ثلثي ذراع ، كما ذكر أن عرض  
جدار السور عدة أذرع ، وأنه يسح أن يمر  
به فارسان .

وكان للسور خمسة أبواب في جهاته  
المختلفة ، فكان في جهته الغربية بابان  
متلازمان يقال لهما « بابا زويلة » ، وفي  
جهة البحرية بابان متساويان ، هما : باب  
الفتوح ، وباب النصر ، وفي جهته الشرقية  
بابان ، هما : باب البرقية ، والباب الجديد .

(١) السمودي : مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٢١٥ .  
(٢) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

وفي جهته الغربية بابان ، هما : باب القنطرة  
وباب سمادة . ثم أصبحت أيواب أخرى بعد  
نمو المدينة وتجديد السور .

ولم يكن هذا السور هو الوحيد الذي  
بنى حول القاهرة ، والما بيني بعده سوران  
آخرا : أحدهما بنىه أمير الجيوش بدر  
الجمالي وزير الخليفة المستنصر في سنة ٤٨٠هـ  
( ١٠٨٧ م ) ليعيط بزيادات أضيفت إلى  
القاهرة في الجهتين البحرية والقبالية ، وكان  
هذا السور من اللبن وأبوابه من الحجارة ،  
ولا زال بابان من أبواب هذا السور ، وهذا  
باب النصر وباب الفسح موجدون حتى  
اليوم وعليهما قنوت تحمل اسم منسهما  
( بدر الجمالي ) وتاريخ الناحية .

وبنى السور الثاني صلاح الدين يوسف  
ابن أيوب ، بدأ عمارته سنة ٥٩٩ هـ وهو  
وزير للخليفة الفاطمي العاضد ، وفي  
سنة ٥٩٩ هـ عيّن قائده بهاء الدين قراقوش  
للإشراف على إتمامه ، وقد بنى هذا السور  
كله من الحجر ، وكان يضم داخله مدينتي  
القاهرة ومصر — أي القسطنطينية — ولا تزال  
أجزاء منه باقية حتى اليوم جنوب أسوار  
القسطنطينية ، وكان يحيط هذا السور ٤٩٣٠٤  
فراخ ، وكان يبدأ في الشمال عند قلعة المعين  
( ميدان باب الحديد الحالي حيث كان يجري  
النيل وقتذاك ) ميناء القاهرة على النيل ،  
ويحيط حول القاهرة والقسطنطينية جميعا ثم  
ينتهي جنوبا عند ساحل مصر ( القسطنطينية ) .

وكان خارج السور خندق لحياته وحماية  
المدينة ، وبذلك كان هذا المدينة الشاهي  
والجوي يتهيأ عند السور ، أما الحيد  
القريب فكان خليج عمير المؤمنين ، كما كان  
جبل المقطم هو الحد الشرقي .

وكانت القاهرة في العصر الفاطمي ضاحية  
عسكرية ، يسكنها البلطجة وحرمة وجند  
وجواميسه ، وكان — كما وصفها  
المفريزي — « مثل قبال يتحصن بها ويتجأ  
إليها » فلما قدم إلى مصر أمير الجيوش  
بدر الجمالي أثناء الشدة العظمى التي كانت  
في عهد المستنصر وجد أن القاهرة مدينة خالية  
غير عامرة ، فأباح للناس من الكربة  
والملاحية والأرمن ، وكل من وصلت قفوره  
إلى عمارته وأن يصر ما شاء في القاهرة مما خلا  
من غطاط مصر ومات أهله ، فأخذ الناس  
ما كان هناك من أنقاض الدور وعمرها ،  
وعمرها به المنازل في القاهرة وسكنوها (١) .  
ولما انتهت الدولة الفاطمية وولى حكم  
مصر السلطان صلاح الدين ، نقلها مما كانت  
عليه من الضبابية ، وجعلها مبنية لسكن  
العامة والجمهور ، وحط من مقدار قصور  
الخلافة ، وأسكن في بعضها ، وتهدم البعض  
وأزيلت صالته ، وتغيرت مداخله ، فصار  
خطلا وحارات وشوارع ومساكن وأزقة ،  
وزل السلطان ( صلاح الدين ) منها في دار  
الوزارة الكبرى .. الخ .

(١) المفريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٦٨١ .

❖ الأقاليم المجاورة نحو أربع سنوات ، ولما تم له اغضاض مصر والشام والعجاز ، وبعد أن أكمل تأسيس القاهرة وبناء القصر والمسجد الجامع أرسل للمز للمز يستعنيه الى مصر ، وخرج المز من المنصورة يوم الاثنين لشباز من شوال سنة ٣٦٦ هـ ، وفي يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان سنة ٣٦٦ هـ وصل القاهرة ، ولما دخل القصر خرج ساجدا له تعالى ثم صلى ركعتين .

## الجامع الأزهر

❖ فقد كاذ الغرض الأساسي من الفتح الاسلامي لمر الدين الجديد ، ولذلك كانت ولاية الصلاة ذات أهمية كبرى ، فكان الوالي على مصر يجمع بين الولاية على صلاتها وخارجها ، أو يقتضى بولايته على صلاتها ، ويعين الى جانبه وال آخر على خارجها .

وكانت المساجد أيضا مقرا لدواوين الحكم ، ومجلسا للقضاة ، ومعهدا لنشر العلم ، ومنبرا لأذاعة الأوامر الحكومية .

بنى الجامع الأزهر اذن وفي مصر مسجدا جامعان : جامع عمرو وجامع أحمد ابن طولون ، لأن جامع المسكر كان قد هدم وذالت معالمه ، وقصد الفاطميون ببناء هذا الجامع أن يكون مضى للخليفة بجوده ، وأن يكون مسجدا جامعاً للعامة الجديدة ، وأن يكون مركزا لنشر الدعوة الشيعية ، وأن يكون رمزا لانتصار الدولة الجديدة على الدولة العباسية .

ثم تخطيط القاهرة بعد الفتح الفاطمي بعام ، وفي يوم السبت ثلثه بقرن من جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ هـ ( = مايو سنة ٩٧٠ م ) بدأ جوهر عمارة الجامع الأزهر في الجنوب الشرقي من القصر الكبير ، وتم بناؤه بعد عامين ، ففتح للمسلة أول مرة في شهر رمضان سنة ٣٦٦ هـ ( ٩٧٢ م ) .

وظل جوهر يصمم مصر ، ويمد الفتح

كانت القاهرة — كما أسلفنا — رابعة المراكز المصرية في العصر الإسلامي ، وكان سياسة الدول الإسلامية تلمح بأن تبدأ في كل عاصمة جديدة مسجد جامع ، وترجع هذه السياسة الى عهد عمر بن الخطاب ، فقد كتب الى ولاته على الأقاليم المنسوخة — ومنهم عمرو بن العاص — أن يخذ كل منهم في عاصمته مسجدا للجماعة ، وأباعد له هذه السياسة بنى عمرو مسجده في أول الفسطاط ، فلما ألفت العسكر في أول العصر العباسي بنى فيها مسجد جامع ، وعندما تمس أحمد بن طولون مدينة القطائع بنى فيها مسجده للجماعة كذلك .

فهذه المساجد الجديدة كانت رمزا لظفر المسلمين ، وكانت مركزا للدعوة الدينية ، وفيها كانت تقام صلاة الجماعة ، وكان يؤم الناس في الصلاة — في العصر الأول — ولا

بدى. في إنشاء الجامع الأزهر في ١٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (أبريل ٩٧٠ م) وتم بناؤه في عشرين وثلاثة أشهر ، وافتتح للفتاة أول مرة في يوم الجمعة السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ ( ٩٧٣ م ) .

وسمي الجامع عند التسمية جامع القاهرة — أي باسم العاصمة الجديدة — ، وظلت هذه التسمية غالبية عليه طول العصر الفاطمي ، ولم يُسمَّ بالجامع الأزهر إلا في تاريخ متأخر ، ودليلنا على ذلك أن معظم مؤرخي العصر الفاطمي - وفي مقدمتهم النحوي وابن الطوير - يذكرون هذا المسجد دائما باسم جامع القاهرة ، وقبلنا بشيرون إليه باسم الجامع الأزهر .

ويرى البعض أن هذا المسجد سمي بالجامع الأزهر بعد إنشاء القصور الفاطمية في عهد العزيز بالله ، فقد كانت هذه القصور تسمى بالقصور الزاهرة ، ومن ثم أطلق على الجامع اسم الطمع الأزهر . ولكننا نرجح أن هذه التسمية مشتقة من لفظة الزهراء ، لقب السيدة فاطمة الزهراء ، ابنة الرسول وزوج علي بن أبي طالب ، وبها انتسب الدولة الجديدة ، وباسمها تسمى .

وثبت الجامع الأزهر موضع رعاية الخلفاء الفاطميين جميعا ورعايتهم فكان كل خليفة منهم يتولى الحكم يعمل على تجديده والزيادة فيه وترتيبه حتى زالت الدولة ، وبدأت في مصر دولة صلاح الدين ، وهي دولة متينة

قامت للقضاء على المذهب الشيعي ، فأهل الجامع الأزهر ، لأنه كان لمركز الرئيس نشر الدعوة الشيعية ، وأبطل الخطبة في الجامع الأزهر قاضي القضاة في عهد صلاح الدين ، واسمه صدر الدين عبد الملك ابن درباس ، ففسد كان شافعي المذهب ، والمذهب الشافعي ينتج إقامة خطبتين للجمعة في بلد واحد .

أبطل هذا الفاطمي الخطبة من الجامع الأزهر ، وأقرها بالجامع الحاكمي ، وظل الأزهر معطلا من إقامة الجمعة فيه نحو مائة عام حتى وفي عرش مصر الظاهر بيبرس ، فأعيدت الخطبة إلى الجامع ، وعادت إليه أهميته ، وعنى به كثيرا في عصر المماليك والتمصور اللاحقة إلى وقتنا الحاضر .

كان للأزهر عند انقضاء الصفه الدينية الرسمية — شأنه في ذلك شأن المساجد الجامعة الأخرى — ولكن لم يلبث أن اتخذ صفة أخرى عامة هي الصفة العلمية التعليمية ، وذلك منذ فكر الفاطميون في نشر مذهبهم الجديد بواسطة دروس تلقى في حلقاته ، وقد كانت المساجد الجامعة التي بنيت لمصلحة — وخاصةً جامع عمرو — مراكز لنشر العلم ، وفي حلقاتها كانت تلقى الدروس في اتقنه والتفسير والحديث واللغة والأدب وسائر العلوم المختلفة ، نعيم أن مسجدي عمرو وابن طولون كانا قد اتخذوا لصا في العصر الاسلامي الأول تجاليد علمية خاصة ،



فكان من الأوفق اذ أن يكون المسجد الجامع الجديد هو المركز الجديد لنشر المذهب الجديد .

يقول القزويني : « وفي صفر سنة خمس وستين وثلاثمائة جلس على بين النعمان القاضي بجامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر ، وأملى مختصر إياه في الفقه عن أهل البيت .. وكان جمعا عظيما ، وأثبت أحماء الطائفتين » ، وكانت هذه أول حلقة عقدت للتدريس في الجامع الأزهر ، لم تتأمت حلقات بني النعمان بعد ذلك لتدريس المذهب الطبيعي .

وفي رمضان سنة ٣٦٩ ( ٩٨٠ م ) جلس يعقوب بن كلس - وزير الخليفة العزيز بالله - وقرأ على الناس كتابا ألفه في الشيعي على مذهب الاسماعيلية ، وكان يجلس بعد ذلك لقرائه في الأزهر ، وبعض دروسه الفقهاء وانقصا وكار رجال الدولة . ويعتبر الوزير ابن كلس أول من فكر في جعل الجامع الأزهر ممهدا للدراسة الشيعية المنتهية ، ففي سنة ٣٧٨ هـ ( ٩٨٨ م ) استأذن ابن كلس الخليفة العزيز بالله في أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء ( أي السلاط ) للدرس والفراغة في أوقات منتظمة مستمرة على أن تقدم حلقاتهم في الأزهر كل يوم جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ، وكان عددهم خمسة وثلاثين فقيها ، ورثب لهم العزيز - تنفيذا لاقتراح ابن كلس - أرواقا

وجرايات شهرية « وبني لهم دارا لسكناهم بجوار الجامع الأزهر ، « وخلع عليهم يوم عيد العطر ، وحملهم على بغلات .. » ، « وكان لهم أيضا من مال الوزير صفة في كل سنة .. » ١١٦ .

فمنذ هذا التاريخ اتخذ الأزهر صفة التعليمية الجامعة ، ففتح له طلبة متزعمين للدراسة ، ووفرت الدولة لهؤلاء الطلاب كل ما يعينهم على الدراسة والتحصيل حتى لا تشغلهم مطالب الحياة أو السعي وراء الرزق ، قربت لهم الأرواق والجرايات ، وبلت لهم المساكن ، وقدمت لهم الكسوة في كل عيد ، ويسرت لهم مسجل الركوب والانتقال .

ونلت هذه الصفة التعليمية الجامعة صفة للجامع الأزهر طول العصر الفاطمي فزاد مدة طلابه وأساتذته ، وكثرت أرواقه وحلقات التعليم فيه ولبت الدراسة وازدهرت حتى بدأ يجتذب إليه الطلاب والطماء من خارج مصر ، وتمثلت هذه الصفة التعليمية وقتا ما في العصر الأيوبي ، ولكنها لم تلبث أن عادت إليه مرة أخرى أقوى وأعظم مما كانت عليه ، وذلك منذ عهد الظاهر بيبرس ، وبرزت هذه الصفة برونزا واضحا في مصر المماليك وما تلاه من عصور ، وساعد على هذا أن تروى المول في المشرق ففت على

(١) القزويني : المحطوط . ج ٤ ، ص ٤٩ ، والتميمي : صحيح الألف . ج ٣ ، ص ٤٦٧ .

العلم من مختلف جهات هذا العالم الاسلامي. وقد مرت بالأزهر محصور ازدهار وعصور ازدهار ، ولكنه قاوم الأعاصير التي قابلته ، وحافظ على المكانة المرموقة التي يتتبع بها ﷺ قلب كل مسلم في جميع أنحاء الأرض ، فانه يعتبر حتى اليوم أكبر معهد للدراسات الإسلامية .

معظم المدارس فيه ، وأن معاهد العلوم والمساجد الإسلامية المزدهرة بالمغرب انتهى أمرها أيضا حوالي هذا العصر الى الضعف والانهيار ، وتوافد العلماء من الشرق ومن الغرب الى مصر يجدون فيها الملجأ والملاذ ، فاصبحت القاهرة في العصر المملوكي مركز العالم الاسلامي واصبح الأزهر قبلة طلاب

## العصر الأنسلاحي الأول

### عصر الفلوة والأزهر

ولها امتد النفوذ الفاطمي الخارجي حتى وصل أوجه واقضاء ، فخصمت لاسم الهين والعباز ومصر والمغرب وسفلية الشام ، ومطلب لهم في الموصل وبغداد وقتا ما .

وغير ما يريد هذه السمات التي اتسمت بها الخلافة الفاطمية في السطر الأول من حكمها أن تستعرض جهود الخلفاء الذين تولوا الحكم في هذه الفترة :

كان أول الخلفاء الفاطميين في مصر هو المعز لدين الله ، وقد حكمها ثلاث سنوات ( ٣٦٣ — ٣٦٥ هـ ) ركز جهوده في خلالها لتنظيم مركز حكمه الجديد ، فأسس أول ما أسس يشقون مصر المالية ، لأن مصر كانت وشبكة الخروج من المعاناة الخطيرة التي أصابها قبيل الفتح الفاطمي وابانه ، فمنع المن اتداء بزيادة النيل — كما كانت العادة قديما — وأمر الا يكتب بذلك الا ابيه وإلى قائده جوهر ، حتى اذا تم الفيضان ووصل

حكمت الدولة الفاطمية مصر مدة ثمانين على القرون ( ٣٥٨ — ٥٦٧ — ٩٦٩ — ٩٦٧ م ) غير أنها تستطيع أن قسم هذه المئة تسعين على وجه التقريب ، كانت الخلافة الفاطمية تنقسم في كل منها بسمات وصفات خاصة ، ففي القسم الأول ومدها قرابة قرن من الزمن وينتهي في النصف الأول من حكم المظفر المستنصر تقريبا ( حوالي سنة ١٠٥٧ هـ ) بذلت الخلافة الفاطمية جهودها لتنظيم شؤون مصر الداخلية ، فنهضت الأمن في ربوعها ، ووضعت النظم الادارية الدقيقة ، ونمت بالجيش والأسطول ، ونمت الزراعة ، ونهضت بالتجارة الداخلية والخارجية ، وشجعت الآداب والعلوم والفنون .

وفي هذه الفترة أيضا امتياز خلعاء الفاطميين بقوة الشخصية فكانت السلطة كلها في أيديهم ، ولهم على الشعب ورجال الدولة النفوذ الأول ، ولوزراء المكانة الثانية .

عصر المز قد امتاز بالتنظيم الداخلي للدولة الجديدة ، فان عصر العزيز قد امتاز بالتوسع الخارجي ، وامتدت الدولة المصرية ■ عهده من المحيط الاطلسي غربا الى الخليج الفارسي شرقا ، ومن أقصى اتسام شمالا الى بلاد النوبة واليمن جنوبا ، وقطعت له حصص وحماية وشيزر ، وخشب له القسطنطينية المتكثلي — صاحب الموصل — بالموصل واتصالها في الحرم سنة ٣٨٩ ، وشرب اسمه على السكة واشتره ، وخشب له باليمن ، ولخاب بأمر امطور الدولة البيزنطية قطع وبه وارسل اليه رسلا يعملون الهدايا ، وبطلبون الصلح والهدنة ، فأجابهم العزيز واشترط شروطا شديدة التزموا بها كلها ، منها : انهم يعطون أنه لا يبقى في مملكتهم سفير الا اطلقوه ، وأن يغضب للعزيز في جميع القسطنطينية كل جمعة ، وأن يحصل اليه من أتمة الروم كل ما اقرضه عليهم ، ثم دفعهم بمقد الهدنة سبع سنين (١) .

وهكذا بلغت مصر الذروة في عهد العزيز فأصبحت امبراطورية واسعة تضم — كما أسلفنا — المغرب ومصر والس والجزيرة العربية والعمام وجزيرة سقلية ، وبهذا غابت الخلافة العباسية قوة وعمودا واتساع ملكا ، وأصبحت الدولة الاملاية الكبرى في الشرق ، وبددت تهديد ما بقي في يدي

الى اقاصم اعلى ذلك للناس ، واشترك في الاحتفاء بوفاء النيل ، ثم عهد بادرة شؤون مصر المالية جميعا الى رجلين من قدير رجال ذلك العصر وهما يعقوب بن كلس وعملوج ابن الحسن ، فقاما بما عهد به اليهما خير قيام حتى زادت إيرادات الدولة ■ وقت وجيز زيادة كبيرة ملحوظة .

وتأكدت لاستقلال مصر الاقتصادي عن الدولة العباسية أمر المز فضربت سكة مصرية جديدة باسمه ، وفصل الدينار النجدي في المعاملات الحكومية على الدينار العباسي ، فقلت قيمة هذا الأخير وطرده من السوق شيئا فشيئا .

وفي عهده اشتد خطر الترامعة وهددوا مصر برا وبحرا ، ووصل أسطولهم الى مدينة تبس ، فقاتلهم لعلها ، وأخذت عدة من سننهم ، وأسر عدد كبير من جنودهم .

وأهرك المز ما قد تعرض له مصر من خطر الهجوم عليها من ناحية البحر ، فعنى بالأسطول حماية كبيرة ، وبنى دارا جديدة لصناعة السفن في أقصى — بينا القاهرة — وأقصى بهذه الدار في عهده القصير ستمائة سفينة حربية ، ثم يثر مثلها فيما تقدمه كبرا ووثاقه وحضنا (٢) .

وولي الخلافة بعد المز ابنه العزيز بالله ، وكان رجلا سمعا كريما شجاعا ، ولش كان

(١) ابن تقي برقي : النجوم الزاهرة ،

ج ١ ، ص ١٥٦ - ١٥٣ .

(٢) المقريزي : المختصر ، ج ١ ، ص ٣١٧ .

( عن المسجي ) .

عهد أكبر دولة إسلامية في الشرق الأوسط .  
وقد عرف العزيز بالسامح مع أهل الفقة  
فقد فعلوا في عهده بالحرية التامة في أداء  
شعائر دينهم وزرع كنائسهم ، وبناء كنائس  
جديدة ، ولا غرو فقد كانت زوجته — أم  
ولده الحاكم — مسيحية رومبة ، وقد عين  
العزيز أخضرياً بطريركاً لمكائين ☩  
الاسكندرية وأورشليم ، وكان من عذرائه :  
يعقوب بن كلس اليهودي ، وعيسى بن  
سطورس المسيحي .

وفي عهد العزيز نمت لروء البلاد وزادت  
لرؤتها لغاشي الناس في رلاية وعاشي الطلبة  
حياة كلها بدخ ورف ، وبني لنفسه قصرا  
جديدا — عرف بالقصر الغربي — مقابل  
القصر الشرقي الكبير الذي بناه جوهري السعدي ،  
وكان يفصل بين القصرين ميسدانه مسبح  
يستخدم لارض الجند ، كما بدأ بناء جامع  
الكبير الذي أتمه ابنه الحاكم فيما بعد ،  
وعرف باسم الجامع الحاكمي .

وكان من حسن حظ مصر أن طالت مدة  
حكم العزيز ، فقد حكمها واحدا وعشرين  
عاما ، وتوفي سنة ٣٨٩ هـ ، فخلفه ابنه  
الحاكم بأمر الله ، وهو بعد طلي لا يجاوز  
العادية عشرة من عمره .

والحاكم شخصه جبية هي في الحقيقة  
جماع التناقضات مما يدل على أنه كان ملثات  
العتل غير حترن التفكير ، فقد امتاز عهده  
بالقسوة والعنف وكثرة سفك الدماء .

العباسين من ملك » وفي الوقت نفسه كان  
العزيز يرمو بصره نحو الخلافة الثالثة  
وهي الخلافة الأموية الستية في الأندلس ،  
يريد أن يرثها من الوجود لتصبح في العالم  
الإسلامي خلافة واحدة هي الخلافة الفاطمية .  
لهذا أرسل العزيز إلى خليفة الأندلس بهجوه  
وتشدهه ، فسير آل الأندلس كانت في ذلك  
الوقت في عنفوان قوتها ، فأرسل صاحبها ردا  
على خطاب العزيز — الجملة الملهورة التي  
يعرض فيها بسبب الفاطميين والتي يقول  
فيها : « أما بعد ، فقد عرفنا هجوتنا ،  
ولر حرفناك لأجناك » .

وقد رأى العزيز أن الجيش القوي هو  
السياج الطبيعي لحماية هذه المولة الكبيرة  
المترامية الأطراف ، فصرف همه للعناية  
بالجيش ، وهو أول من استعان من الفاطميين  
بالمتمصرين التركي والسوداني فأصبح في  
جيش مصر فرق من هذين العنصرين بعد أن  
كان اقتصاد الفاطميين على المضاربة الذين  
ساعدوهم في فتح مصر وإقامة ملكهم بها ،  
وقد كانت هذه العناصر مصدر قوة في أول  
الأمراء لما امتاز به الترك والسودان من الشجاعة  
والإقدام ، فسير أنها لم تلبث أن أصبحت  
سببا من أهم أسباب ضعف الدولة واختلالها  
عندما صب النزاع وقامت أسباب المنافسة  
والنضال بينها .

ولم تكن عناية العزيز بالأسطول أقل من  
عنايته بالجيش ، حتى لقد أصبحت مصر في

واتهم به الأسر إلى أن ادعى الألوهية  
وتكونت طائفة جديدة تنادي بآلهيته هي  
طائفة الدرزي ، ( نسبة إلى الدرزي أول  
دعاتها ) .

ورغم هذا التناقض المريب في تصرفاته  
كان الحاكم شخصية قوية جبارة ، يخافها  
ويخضى بأسها الجميع ، وكان للخلافة الفاطمية  
في عهده الشأن الكبير والمقام العظيم ، ولم  
يكن لأحد من وزرائه ورجال حيله وهولته  
ثمود إلى جانب هؤلاء .

ومع هذا فقد كان لفسطمية الحاكم  
المضطربة وسياساته الخرقاء أثر جسد خطير  
على الدولة ومستقبلها ، ففي عهده بدأت  
براعم كثيرة مهتت لضعف الدولة واضعائها .  
بدأت هذه البراعم بأجراء الخلائن  
البيتين المعاصرتين عملن مهاجمة الدولة  
الفاطمية ومحاولة القضاء عليها ، وقد حالت  
شخصيتا المعز والمعزى المزلتان من قبل دون  
هذا الاجراء وهذا الهجوم .

أما الخلافة السباسة فلم يكن لديها من  
القوة المادية ما يمكنها من تدبير هجوم  
إيعاني ، ولهذا فقد اتخذت هجوما شكيلا  
سليبا ، فصبح الطفلة القادر عتدا من علماء  
بنداد وقضاها وكثروا محضرا طعنوا فيه  
في انب الفاطمي واضلوا فيه أن الحاكم  
وسلفه « أدعياء خولج » لا نسب لهم في  
ولد على بن أبي طالب ، وانما هم « كسار  
فساق زنادقة ، ملحدون مطغورون ، وللإسلام

وأوضح ما يميز الحاكم الناقض والزدواج  
الشخصية ، فهو حيناً دكتور جيكل وحيناً  
آخر مستر هايد : وهو تارة شجاع متقدام  
محب للمعلم والمعلماء وهو تارة أخرى جبان  
متردد متحتم من العلماء قاتل لهم ، وكان  
الغالب عليه السوء ، غير أنه ربما يخل بما لم  
يخل به أحد قط ، وأقام يلبس المسووف  
سبع سنين وامتنع من دخول الحمام ، وأقام  
سنين يجلس في الجبع ليلا ونهارا ، ثم « من »  
له أن يجلس في الظلمة فجلس فيها مدة ،  
وكتب على المساجد والجوامع ساء أبي بكر  
وعمر وعثمان وعائفة ومطعة واليزير ومطوية  
وعسرو بن العاص في سنة خمس وتسعين  
وثلاثمائة ، ثم محا ما كتب في سنة سبع  
وتسعين ، وأمر بقتل الكلاب ، ثم نعى عته يولي  
عن الاشتغال بالنجوم وكان ينظر فيها ، ومنع  
من صلاة التراويح عشرين ثم « بأحباء » ومنع  
من بيع الحب ، وقطع الكروم ، وأرق  
خمس آلاف جرة على البحر طولاً من  
أن تعمل ليلاً ، ومنع النساء من الخروج  
من بيوتن ليلاً ونهاراً ، وجعل لأهل الذمة  
علامات يرمكون بها ، وهشم الكنائس في  
بلاد - ومن بينها كنيسة القيامة - ثم أمر  
بإحاطة بنائها (١) . وهكذا .

وقد قتل الحاكم عتدا من وزرائه ،

(١) للموسم الزاهية ص ٢٩  
ص ١٧٦ - ١٧٨ نقلا عن سبط بن الجوزي  
مراة الزمان .

جامعون ، ولذهب التنوية والمجوسية  
معتقدون .

كتب هذا المحضر في سنة ٤٠٢ هـ ووقع  
عليه المحضرون من العلماء والقضاة وأرسلت  
منه نسخ إلى مختلفه أنحاء العالم الاسلامي ،  
فكان له صدق قوي .

وأما الخلافة الأموية في الأندلس فقد  
اتخذ هجومها شكلا آخر أكثر ايجابية  
وخطرا ، فظه خرج في الصحراء القريبة لخارج  
اسمه أبو ركة - وادعى أنه ينسب إلى نبي  
أمية ، وجمع هذا الرجل جيشا كبيرا ، وهاجم  
محدود مصر الغربية والضم اليه بنو قره -  
من حرب البعيرة - وكافوا لافين على  
الحاكم لكثرة ما وقع بهم وغنم من أموالهم ،  
واشد خطر أبو ركة فأرسل اليه الحاكم  
جيشا لمقاتلته ، فهزم الجيش ، فأرسل اليه  
جيشا آخر فكتب له النصر ، وتبع أبو ركة  
في الصيد ، واتهم الأمر بالقبض عليه في  
بلاد النوبة وأرسله إلى القاهرة وقتله .

لقد اكتفت الخلافة العباسية بأضيف  
الإيمان ، فأصدرت هذا المحضر وأرسلت إلى  
أطراف العالم الاسلامي ، واتصب ثورة  
أبي ركة التي كانت ثريدها الخلافة الأموية  
الأندلسية بالقتل ، ولكن هاتين الحركتين  
أثرتا دون شك في الدولة الفاطمية ، فأضاعتها  
ما كان لها من هبة قديمة ، وبدأ الكل  
يجترعون عليها ، وتطور الأمر إلى أن قام  
النزاع في الداخل بين العناصر المختلفة المكونة

للجيش الفاطمي من مغاربة وأتراك وسودان ،  
واشد النزاع بين كل فريق والآخر ، ولم تعد  
الفترة إلا بعد أن قتل عدد كبير من قادة  
الجيش .

ومن الأمور التي بدت تزعزع كيان  
الدولة الفاطمية ما أقدم عليه الحاكم نفسه من  
محاولة تنهيد أصله هام من أصوله المذهب  
الاسماعيلي ، وذلك أن نظام الوراثة عند  
الشيعة الاسماعيلية يقضي أن تكون الإمامة  
في نسل علي بن أبي طالب دون غيرهم ، وأن  
تنتقل دائما من الأب ، لأنهم كانوا يعتقدون  
أن للإمامة صفات وعلوما خاصة تنتقل  
بالوراثة كما تنتقل الصفات الخلقية تماما ،  
وقد التزم الفاطميون منذ إقامة دولتهم هذا  
النظام ، فكان كل خليفة ابنا للخليفة السابق ،  
وكن الحاكم حاول مطاقه هذا المبدأ فأوصى  
بولاية المهدي لابن عمه عبد الرحيم بن السباس  
وأصدر أوامره بأن يضرب اسمه إلى جانب  
اسم الخليفة على السكة ، وأن ينقش على  
البندود والمرايا ، كما أمر أن ينوب ابن عمه  
دولى بعده عنه في الخطبة والصلاة والنهر  
والنظر في المقام ، وأن يسيره في المراكب .  
وكادت هذه المحاولة أن تؤدي إلى  
انقسام خطير بين الشيعة الاسماعيلية لأن في  
تنفيذها هذا لركن قوي من أركان المذهب ،  
لولا أن الحاكم قتل ، وقضت ست الملك أخت  
الحاكم على هذه المحاولة ، فأرسلت إلى  
عبد الرحيم من قبض عليه وقتله وأجلست  
الظاهر بن الحاكم على عرش الخلافة .

مدة حكمها خليفة مسلم ، وقد بلغت الخلافة القاطمية في القسم الأول من حكمه أوجها في المظلة داخليا وخارجيا ، وزار مصر في هذا النصف الأول الرحالة الفارسي ناصر خسرو ووصفها ووصف أهلها ومدنها وغناها وثورتها وحضارتها وصف الممجب بما رأى وشاهد .

وبدأت مصر في هذا النصف الأول تروى بأبصارها لآلية نصر العراق وبغداد مقر الخلافة العباسية المتهاوية ، وأسس الخليفة العباسي برادر الطغر قائمدر في سنة ٤٤٤ هـ محضرا لأفيا قبيها بالمحضر الأول الذي صدر في عهد الحاكم للطن في لاسب الخلفاء القاطميين ، ووقع عليه كبار الطاء والقضاة في بغداد وأرسلت منه نسخ إلى ثلث ممالك العالم الاسلامي .

ولكن ربه المستنصر كان قويا وإيجابيا ، ففي سنة ٤٤٨ هـ خرج على الخليفة العباسي أحد قواده وهو أبو الطارث الباسيري ، واتى للخليفة المستنصر فأرسل اليه الأموال والسلاح ، وتقدم الباسيري لى سنة ٤٥٠ هـ فدخل بغداد لمر منها الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وأرسل الباسيري ثياب هذا الخليفة القار وعصامته الى القاهرة ، وعلقب للمستنصر على منابر بغداد نحو عشرة شعور ، وحذت مدن العراق الأخرى حذو بغداد ، فخطب للمستنصر في هذه السنة على منابر البصرة وواسط وأعمالها .

يتضح من هذا كله أنه هلكت العوامد الأربع : المحضر العباسي بالطن في انشعب القاطمي ، وثورة أبي ركوة ، والنزاع بين عناصر الجيش القاطمي ، ومحاربة الحاكم الخارج من أصول المذهب الاسماعيلي ، كان لها أثر قوي في عز كيان الدولة القاطمية فبدأت عوامل الضعفة تعمل في بنائها .

وولي الظاهر في سنة ٤١٦ هـ عرش الخلافة بعد أبيه ، وكان عند ذلك صبيا مراغلا في السادسة عشرة من عمره تحت وصاية عمته ست الخلك ، فترك أمور الحكم بين يديها وبين أيدي رجال الدولة من وزراء وقادة وقضاة ، وأبرز ما يميز عهد أه أباح كل ما كان قد حرمة أبوه ، بل أنه قد خلأ لأهل هو نفسه على شرب الخمر ، ورخص للناس بشربها فأقبلوا على حياة اللهو .

ومما يبعد له أنه عمل على تحسين العلاقات بين مصر والدولة البيزنطية بعد أن كانت قد بلغت من السوء مبلغا كبيرا في عهد أبيه ، فجدد الصداقة مع صاحب الروم في سنة ٤١٨ هـ بشروط كان أهمها أن يقتنع جاسبع القسطنطينية وأن يعين فيه مؤذن ويطلب فيه للظاهر ، وأن يعيد الظاهر بناء كنيسة القيامة بمدينة القدس .

وفي سنة ٤٣٧ هـ ولي الخلافة المستنصر بن الظاهر ، وعمره ٧ سنوات ، وقد طالت مدة خلافته حتى بلغت ستين عاما ، وهي أطول

## المصر الفاطمية الثاني - عصر الضعف والانحلال

حتى تعطلت الأراضي من الزراعة ، وشمل  
الخوف ، وخيفت السبل برا وبحرا ، وتمنر  
السير الى الاماكن بالقتادة الكثيرة وركوب  
الفرار ، واستولى الجوع كندم القوت حتى  
أبيع وغيب خبز في النداء بزقاق القناديل من  
القنطرة كجيج الطرف بطبقة عشر دينارا ،  
وأصبح الأرعب من الفصح بشائين دينارا ،  
وأكلت الكلاب والقنطاط حتى قلت الكلاب ،  
لبيع كلب ليؤكل بطبقة دنانير ١٠ وزياد  
العمال حتى أكل الناس بمطعم بمطما .. ثم  
آل الأمر الى أن باع المستنصر كل ما في قصره  
من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح ونجده ، وسار  
يجلس على حسيبه ، ولعلقت حواويله ،  
وذهب وقاره ، وكانت نساء القصور تخرجن  
فاخرات شحورهن نصن : « الجوع !  
الجوع ! » تردهن المسير الى العراق ، وتمسكن  
عند المصلى ، وكنن جوعا .. الخ .. الخ<sup>(١١)</sup> .  
وكان من نتيجة الغلاء الذي صاحب  
هذه المجاعة أن منعت مصر ما كانت ترسله  
الى العراق من خلال ومؤل ، فغضب الخليفة  
للمستنصر في مكة والمدينة ، وخطب للخليفة  
المباسي في سنة ٤٩٣ هـ : « وإن كانت قد  
أعيشت للمستنصر في سنة ٤٩٩ .

وهكذا توالي انقضاء أجزاء الدولة ،  
فانفصل شمال أفريقيا كله وخطب للعباسيين ،

(١١) المقريري : عائلية الأمة ، نشر زيادة  
والنبيل ، ص ٣٤ - ٣٥ .

وهكذا بلغت الخلافة الفاطمية المصرية في  
النصف الأول من حكم المستنصر أوج عظمتها  
وأقصى اتساعها فامتدت من المحيط الأطلسي  
الى العراق ، ولكن بمراحل انضغته الكامنة  
لم تلبث أن بدأت تنخر في كيان الدولة في  
النصف الثاني من حكم هذا الخليفة ، فتمثل  
ظفر بك السلجوقي بمسدد ، وقسطن  
الباسيري ، وأمساد الخليفة المباسي الى  
مرته « فاقطعت الخطبة للمستنصر وعادت  
للقائم .

وقبل هذا بليل للسب نزاع بين اليازوري  
— وزير المستنصر — والمزبن باديس عامل  
الفاطمين على المغرب ، وآل الأمر الى أن قطع  
ابن باديس الخطبة للفاطمين بالمغرب وألماها  
للباسيين .

وفي سنة ٥٠٧ هـ أصيبت مصر بالمجاعة  
الخطية التي قلت سبع سنوات ( ٥٠٧ هـ —  
٥١٤ ) فكانت الطامة الكبرى ، وتدهورت  
أحوال مصر الاقتصادية تدهورا خطيرا ،  
والقروى بسى هذه المجاعة « بالنسبة  
المظنى » ، ويرجع أسبابها الى « ضعفه  
السلطنة ، واختلال أحوال الملكة ، واستيلاء  
الأمرء على الدولة » وانفصال الفتن بين  
العربان ، وقصور النيل ، وعدم من زرع  
ما شمله الرى » .

وكان من نتائجها — في رايه — أن :  
« زرع السمر ، وتزايد الغلاء ، وأغيب الوباء



« وقد قاتلته أمير المؤمنين جسيم جوامع  
تديره ، ونزل بك النظر في كل ما وراء سريره ،  
فباشر ما قلده أمير المؤمنين من ذلك مديرا  
للبلاد ، ومصلحا للفساد ، ومحمرا للأهل  
البلاد .. » .

وأصبحت الأسبوع كلها مخصصة إليه ،  
والإتصال بين الخليفة وبينه اتصالا مباشرا ،  
وجعل له تعيين قاضي القضاة وهدى الدعاء  
— وكان فينبو من اختصاص الخليفة دون  
غيره — ، ولهذا لقب بـ « كافي لسان المؤمنين »  
وهادى دعاة المؤمنين .

وقد كان وزراء العصر الأول جميعا من  
أرباب القلم ، أي من رجال الفكر والفكر ،  
أما بدر فقد كان من أرباب السيف — أي من  
رجال الحرب — ولهذا لقب أيضا بالسيف  
الأجمل ، أمير الجيوش ، وهو اللقب الذي  
توارثه من بعده وزراء التفويض في العصر  
العالمى الثاني ، فقد كانوا جميعا من أرباب  
السيف .

ولم يحدث أن وثى الوزارة ابن بدر أبيه  
في العصر الأول ، وإنما حدث هذا في العصر  
الثاني ، فولي الوزارة بدر بدر الجمالي ابنه  
شاهنشاه ، ففور لم يستمر ثم لم يستمر ثم  
لكم ، ولد زيد في ألقابه « الأفضل » وبه  
اشتهر حتى أصبح يعرف بالأفضل شاهنشاه ،  
وقد أضيف هذا اللقب أيضا للوزراء من  
بعده .

ومنذ عهد الخليفة الجاهل لقب الوزير

ثم قطعت الخليفة من بغداد والعراق بعد أن  
أقيمت للفاطمين عشرة أشهر ، ثم انقطعت  
الخليفة لهم في الحجاز لمدة سبع سنوات ،  
وأخيرا في سنة ٤٣٣ دخل النورمان صقلية  
واستولوا عليها ، فخرجت بذلك عن حكم  
الفاطمين بعد أن ظلت جزءا من أملاكهم منذ  
قامت دولتهم في سنة ٣٩٢ هـ .

وفي سنة ٤٦٦ هـ غلب الحصار ،  
واقطرت أمور مصر اضطرابا شديدا  
واخلت أحوالها ، وعجز المستنصر عن أن  
يصنع شيئا لملاجئها ، فاستدعى إليه علي  
حكما بدر الجمالي ، فلبى الدعوة وتولى بدر  
مجيئة أمور مصر كلها ، وثلاثت — منذ  
ذلك الحين سلطة الخليفة ، وبدأ عهد سيطرة  
الوزراء .

وقد جرى المؤرخون الإسلاميون على  
تقسيم الوزارة إلى نوعين : وزارة تنفيذية ،  
وفيها تكون السلطة ككل السلطة بيد الخليفة  
وإنما يقوم الوزير بتنفيذ أوامره ؛ ووزارة  
تفويض وفيها يكون الخليفة مظلوما على  
أمره ، والأمور كلها مبنية للوزير .

وطبقا لهذا التقسيم النظري نستطيع  
أن نقول أن وزراء العصر الفاطمي الأول  
كانوا جميعا وزراء تنفيذية ، أما وزراء العصر  
العالمى الثاني فكانوا جميعا وزراء تفويض ،  
وكان أولهم أمير الجيوش بدر الجمالي .

وقد انتهى بدر سجل خاص بتفويض  
أمور الحكم إليه ، جاء فيه :

بلقب « الملك » ، وأول من لقب به رعوان  
 ابن وقشعي وزير الخاقان لدين الله ، فقبل له :  
 « السيد الأجل الملك الأفضل » ، ولقب به  
 كذلك من أتى بعده من الوزراء ، فقبل  
 للمصالح خلافة بن رزيق ، لذلك المنصور « ،  
 ولقب ابنه رزيق بن ملائح « بالملك  
 العادل » ، ولقب شاور « بالملك المنصور » ،  
 ولقب صلاح الدين — وهو آخر وزراء  
 الدولة من أبواب السجود — « بالملك  
 الناصر » .

ولما تبدل عليه هذه الألقاب إذ الوزير  
 في العصر الفاطمي التالي أصبح هوكل في  
 الدولة ، فقد أصبح « السيد الأجل » ،  
 ثم « أمير الجيوش » ثم « الأفضل » ثم  
 « الملك » ، يقول القرطبي : « وصار وزير  
 السيف من عهد أمير الجيوش بدر إلى آخر  
 الدولة هو سلطان مصر ، وصاحب العدل  
 والقدر ، وإليه الحكم في الكفاة من الأمراء  
 والأجناد والقضاء والكتاب ومسائر الرعية ،  
 وهو الذي يولي أبواب المناصب الديوانية  
 وأدبته » . (١)

ولهذا عرف العصر الفاطمي التالي عند  
 المؤرخين بمصر الوزراء الحظام ، وتأسست  
 لسلطانهم بيت لهم دار خاصة في القاهرة  
 بالقرب من قصر الخليفة يشار إليها الوزير  
 شؤون الحكم ، وعرفت باسم « دار الوزارة  
 الكبرى » .

(١) القرطبي : الخطط . ج ٢ . ص ٢٠٥ .

وكان لتولي بدر الجصالي الوزارة نتائج  
 أخرى كثيرة أهمها إضافة عنصر جديد إلى  
 العناصر المكونة للجيش الفاطمي ، فقد كان  
 هذا الجيش في أول أمره مكوناً من المصاربة  
 — وخاصة قبيلة كتامة — الذين أتوا مع  
 جوهر لزو مصر ، ثم استعان العزيز بالله  
 بالأمراء واستخدم عدداً كبيراً منهم في  
 جيشه ، ومنذ عهد الحاكم بدأ دخول السودان  
 في الجيش الفاطمي ، فلما ولي المستنصر  
 استكثرت أمه من السودان — فقد كانت  
 منهم — حتى يقال لهم بقصوا نحوها من  
 لمسين ألف أسود واستكثروا من الأمراء ،  
 فتجدد النزاع بين المنصرين ، وقامت بينهما  
 — كما يقول القرطبي — « المعربة التي  
 آلت إلى خراب مصر وزوال مجتمعها » .

ثم قدم بدر الجصالي من عكا ، وفصل  
 رجال الدولة وأقام له جنداً وعسكرًا من  
 الأرمن — فقد كان هو أرمني — ، وصار  
 معظم الجيش منذ ذلك الوقت من الأرمن .

وهكذا تعددت العناصر المكونة للجيش  
 الفاطمي ، فأصبح يتكون من المصاربة والعرب  
 والأمراء والسودان والأرمن وغيرهم من  
 الأجناس وبدأت أسباب النزاع بين كل عنصر  
 وعنصر ، وكثيراً ما أدى هذا النزاع إلى  
 خراب البلاد ونهب أموال الأهالي ، وكانت  
 أسوأ نتائج ضعف الجيش الفاطمي وبالتالي  
 ضعف الدولة نفسها .

ولم تكن هذه وحدها هي الأسباب التي

أدت إلى ضعفه الدولة وانحلالها ثم زوالها ،  
وانما كانت تصاف بها كالمستخدم الزمن بالدولة  
عوامل جديدة ، منها أن معظم خلفاء العصر  
الثاني تولوا الخلافة وهم بعد أطفال صغار  
مما راد في شوكة الوزراء واستقلالهم بأمور  
الحكم ، فقد ولي الخليفة الأمر وعمره خمس  
سنوات ، وولي الخازن في نفس العصر ونوفي  
في العادة عشرة من عمره ، وولي القاضي  
كذلك وعنده أحد عشر عاما .

وقد ولي هؤلاء الخلفاء في هذه السن  
المبكرة لأن نظام الورثة عند الشيعة  
الاسماعيلية كان يفضى — كما ذكرنا — أب  
تكون الإمامة — أي الخلافة — في نسل على  
ابن أبي طلب دون غيرهم ، وإن تنقل دائما  
من الأب إلى الابن<sup>(١)</sup> ، فهم في هذا يختلفون  
عن أتباعهم الخلفاء السنيين من الأمويين  
والعباسيين ، الذين كانوا يبيعون أن تنتقل  
الخلافة أحسبا إلى الأخ أو إلى ابن العم  
أو إلى أكبر أفراد الأسرة منا ، لأنهم كانوا  
يشترطون فبين يتولى الخلافة شروطا أخرى  
كثيرة من أهمها أن يكون بالغًا عاقلًا سليم  
الحواس ، وقد كان لنظام الورثة عند  
الفاطميين قواعد كثيرة أهمها أنه كان عاملا  
من عوامل الاستقرار ، وأنه يشب الأسرة  
والدولة — إلى حد كبير — عوامل المناصب  
والنزاع والتخاصم في سبيل العرش .

(١) التنبيل : مجموعة الوثائق الفاطمية ،  
الطبعة ١٩٥٨ م ، ص ٢٠ -

غير أن هذا النظام كانت له — إلى جانب  
هذه الفوائد — مضاير وميوب ، منها أنه  
كان يوجب تولية هؤلاء الخلفاء ~~العلماء~~  
لا لشيء ، إلا لأن كلا منهم كان ابنًا للخليفة  
السابق وقد تضمن على توليته ، مما أتاح  
الفرصة لاستبداد الوزراء بمنزلة الحكيم ،  
وقيام أسباب التنافس والنزاع بين وجوه  
الدولة المتطلعين إلى منصب الوزارة .

وكان من الشروط الهامة لصحة الإمامة  
« الشيعة الاسماعيلية الروسية أو النصية » ،  
أي أن ينسب الإمام السابق على الإمام  
اللاحق من أولاده ، فهم يعتبرون النص بمثابة  
أمر بالتمتع صادر عن الإمام السابق ، ولذلك  
هو عندهم شرط هام من شروط صحة الإمامة ،  
ويشترط في النص عندهم أن يصدر عن  
الإمام وقت تملكه ، أي عند موته ، بمعنى  
أنه إذا صدر عن الإمام أكثر من نص لأكثر  
من ولد من أولاده فإنه لا يؤخذ إلا بالنص  
الأخير الذي صدر عنه وقت تملكه وانتقاله  
إلى الدار الآخرة ، لأنه « لا يتم يجب كل »  
النصوص الأخرى السابقة .

وقد ألزم الفاطميون منذ إقامة دولتهم  
هذا النظام الوراثي بجميع شروطه فيما عدا  
ثلاث حالات :

— في الحالة الأولى حاول الخليفة  
الحاكم بأمر الله أن يعمر ابنه ، فبعد بولاية  
العهد لابن عمه عبد الرحيم بن إلياس ، وقد  
أئسنا إلى هذه المحاولة وأثرها فيها سلفه ،

وقد لعبوا دورا خطيرا في التاريخ الاسلامي  
في القرنين الخامس والسادس .  
— والاسماعيلية المستعلية أتباع الخلافة  
الفاطمية في مصر .

وقد غاصب الوزارة الصوباطم في مصر  
العداء ، ولم يلق الخلفاء الفاطميون — منذ  
عهد المستعلي — أعداء أشد قسوة من  
الوزارة ، بحيث استطاع أن يقول أن تاريخ  
الحركة الاسماعيلية بوجه عام ، وتاريخ  
الدولة الفاطمية في مصر بوجه خاص كان من  
الممكن أن يتخذ لسكلا آخر غير الذي عرفناه  
لولا الاسماعيلية الزنارية ( المعهشة )  
المتحدون مع الفاطميين في مصر بدلا من  
انتهازهم كل فرصة ممكنة للمكيدة لهم  
والاضرار بهم .

والحقبة أن ابعاد زرار وعمولية المستعلي  
يعتبر انقلابا سياسيا ( Coup d'état )  
واضح المعالم ، قام به الوزير الأفضل  
شاهنشاه معافضة على السلطان القوى الذي  
كان يتمتع به منفردا منذ أواخر عهد  
المستنصر ، فقد كان زرار — عند موت أبيه  
المستنصر — رجلا مكتمل الرجولة ، ولم  
تكن العلاقات بينه وبين الأفضل — أئمة  
عبادة المستنصر — علاقات طيبة ، بل تعدت  
كالت على العكس علاقات يشوبها افكره  
التيادل .

والانقسام المذهبي الثاني حدث بعد  
وفاة الخليفة الأمر ، فقد خولت أصول

ورائنا أنها لم يكتب لها النجاح ، فقد قتل  
الحاكم قتلة تحولها الرب والتسكوك ،  
وسمت أخته « ست الملكة » حتى أقامت  
« الظاهر » ابن الحاكم على عرش الخلافة .  
— والحالتان الثانية والثالثة خولف فيهما  
هذا المبدأ صلا ، وتولى الخلافة ابن العم  
لا الابن ، وبعد وفاة الخليفة الأمر بأحكام  
الله ولي الخلافة ابن عمه الحافظ لدين الله  
وبعد وفاة الخليفة الفارز ولي الخلافة ابن  
« الناصر لدين الله » وهو آخر خلفاء  
السولة .

وفي كل مرة خولف فيها نظام الوراثة  
— كما نص عليه المنهج — حدث انقسام  
مذهبي سياسي ، وهذه الانقسامات المذهبية  
السياسية — وقد حدثت كلها في العصر  
الفاطمي الثاني — عزت الدولة هزات خيفة ،  
وكانت من أهم العوامل التي أدت الى إضعاف  
الدولة وإفلالها .

فبعد وفاة المستنصر حدث خلاف في  
تعيين النسي ، فقال زرار — الابن الأكبر ،  
بأن النسي والوصية له ، وقال الوزير القائم  
بالحكم الأفضل شاهنشاه بأن النسي والوصية  
للابن الأصغر أبي القاسم أحمد — الذي  
ولى الخلافة باسم المستعلي — ؛ واتى  
النزاع بعزيمة زرار وتولية المستعلي ، وانقسم  
الاسماعيلية منذ ذلك الحين الى فرقتين .

— الاسماعيلية الزنارية التي نجح دعاها  
في إقامة ملك لهم في قلعة الموت ثم في الشام

الذهب ، وولى الخلافة الحافظ ابن عم الأمر ،  
 حين أنه كان قد ولد للأمر قبيل وفاته ابن  
 اسمه « الطيب » وأخذت له البيعة بولاية  
 العهد ، ولهذا اتسمت الاسماعيلية مرة ثالثة  
 الى :

• اسماعيلية حافظة .

• اسماعيلية طيبة .

وقد مرت الدولة الفاطمية عند مقتل  
 الخليفة الأمر بأزمة عيفة كانت تؤدي بها  
 وتضح حدا لعبائها ، وذلك أن بعض جواسيس  
 الزارية تسللوا الى القاهرة وعرضوا للأمر  
 وقتلوه في ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ ( ١١٣٠ م ) ،  
 وتذكر المراجع المطبوعة المتداولة — ومنظما  
 مراجع سنية — أن الأمر لم يكن عند قتله قد  
 أعقب ، وإنما ترك من بعده إحدى زوجاته  
 حاملا ، فتمن الحافظ ابن عم الأمر حاكما  
 موقفا ، على أن يكون وليا للعهد وكفيلًا للطفل  
 الذي يولد أن أن ذكر ، ولكن الزوجية  
 أنجبت بنتا فاستقر الحافظ خليفة

كان هذا هو الرأي الذي تعرضه المراجع  
 السنية المتداولة الى عهد قريب ، ولا تذكر  
 رأيا غيره ، ثم بدأت تظهر في عالم المطبوعات  
 مراجع تاريخية سنية تشير الى رأى آخر ،  
 وأول هذه المراجع لتاريخ مصر لابن ميسرة ،  
 وقد أورد المؤلف فيه نصا يشير الى أن الأمر  
 كان قد ولد له قبل موته بشهر وله سمى  
 أبوه « الطيب » واحتل بمولده احتفالا  
 عظيما ، وأعطته وليا للعهد ، وأرسلت

السجلات بتولية الطيب ولاية العهد الى  
 اليمن ، وأعلنت هناك ، ولهذا سيطر اسماعيلية  
 اليمن — في معظمهم — بعد ذلك طيبة ، ثم  
 يكونون لهم جالية أخرى في الهند تتبع نفس  
 المذهب والفرقة .

ولكن بعض المؤرخين لا يزالون مع هذا  
 — وحتى اليوم — يشككون في هذه القصة  
 وفي وجود الطيب ، لأنه منذ مات الأمر لم  
 يظهر الى الوجود ، بل أظفت القصة الجديدة  
 قصة وجود زوجة من زوجات الأمر حاملا ،  
 وقصة كفالة الحافظ للمولود المنتظر .

ثم ظهرت للنور بعد ذلك بعض المؤلفات  
 المعنية والقصية تعمل خصوصا جديدة عن  
 الطيب ، وكلها ثبت وجوده وأنه ولد في  
 ربيع الأول سنة ٥٢٤ هـ ، وأنه أهلك بعد مولده  
 وليا للعهد ، وزينه القاهرة ومصر زينة حافلة  
 بهذه المناسبة ، وورد في كتاب « البستان  
 الجامع » الذي نشره الأستاذ كلود كاهن نص  
 يفيد أن الحافظ دس لهذا الطفل — بعد مقتل  
 أبيه — أحد أتباعه « فأخذته عنده ، ولم يظهر  
 له خبر الى الآن سموت أو بنه » (١) .

وهذه النصوص تفيد أيضا أن الطيبة  
 — أتباع الطيب — انتصروا بعد ذلك في  
 اليمن والشام دول مصر .

اختفى الطيب لأذن من الميدان — بعد  
 مقتل والده — واستلمت السلطة الفاطمية الى

(١) التنيل : مجموعة الروايات الفاطمية :  
 ص ٧٩ - ٨٥ .

في خزانة قيسا بين الايوان وباب العبد  
وتسكن أبو علي ، واستولى على جميع ما في  
القصر من الاموال والذخائر . . .

هذا انقلاب جديد واضح المعالم كاد يضع  
حدا نهائيا للدولة الفاطمية الاسماعيلية ، غايو  
على قائد قوام الجيش له مكانة خاصة في  
الدولة ، فهو ابن وزير وحفيد وزير ، وابوه  
وجيده كانت لهما السلطة الفعلية الكاملة  
والمكانة الاولى في الدولة ، ثم وزارتهما ، وقد  
ثار أبو علي ثورة عسكرية اتهمت بقتل الوزير  
القائم ، والتبسط على الكتيك وسجنه ، ثم  
توثبه هو السلطة كلها دون منازع أو مضاركة ،

ويضاف الى هذا كله أمر هام بالغ  
الاهمية ، وهو أن علي لم يكن اسماعيلي  
المذهب ، بل كان اماميا ، ولهذا بدأ بانتطاف  
اجراءات كثيرة تهدف كلها للقضاء على المذهب  
الاسماعيلي والفناء ، والاعتراف بالمذهب  
الامامي ، ومعنى هذا انتهاء الدولة الفاطمية  
الاسماعيلية ، وتقيام دولة علوية امامية ، يقول  
المقرئ : « وكان ( أبو علي ) اماميا منتسبا  
فالتفت عليه الامامية ولموا به حتى انقهر  
المذهب الامامي » . . .

ومن بعده الاجراءات التي اتخذها  
أبو علي لانقراض المذهب الامامي أنه : — رتب  
في المحكم أربعة قضاة — قاضيا لشافعية ،  
وقاضيا للمالكية ، وقاضيا للاسماعيلية ،

الذين من رجال الجيش هما : هزارة الملوك  
وبشر غش ، واختار هذان القائدان عبد المجيد  
— ابن عم الأمر — ليلي السلطة من الناحية  
الشكلية فقط وليكون كفيلا للمولود المرتقب  
أن أتى ذكرنا .

واختار عبد المجيد ( المعتمد ) هزارة الملوك  
ليكون وزيراً له ، ولكن هذا الوضع الجديد  
لم يصبر غير نصف يوم ، فقد دمعت العبرة  
برغش الى تحريض قائد آخر له مكانته على  
الثورة ، وهذا القائد الآخر هو أبو علي أحمد  
ابن الأفضل شاهنشاه — الملقب بكنيتات —  
وقد ثار هذا القائد لملاء ولار معه الجيش  
عقب الاحتفال بتولية هزارة الملوك الوزارة ،  
وانتصت الثورة بالقبطى على هزارة الملوك  
وقتلته .

« واستمرت الوزارة لأمي على أحمد بن  
الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر  
الجسماني ، وكان يلقب بكنيتات » في يوم  
الخميس سادس عشر ذي القعدة ١١١٠ .

« واستدعى ( الحافظ ) الخلع لأمي على ،  
فألبست عليه يوم الأربعاء خامس عشرة ،  
وركب الى دار الوزارة ، والجماعة مشاة في  
ركابه ، فكانت وزارة هزارة الملوك نصف يوم  
ينتهي تصرف » . . .

وكان أول عمل بإشراف أبو علي أحمد بعد  
توليته الوزارة أنه : « أحاط بالحافظ وسجنه

(١٦) المقرئ : مخطوطة تصاع الحنفا .  
ص ١٣٣ ب .

(١٦) المقرئ : مخطوطة تصاع الحنفا .  
ص ١٣٣ ب .

وعاشيا للامامية — وسار كل قاض يحكم  
بمنهجه ، وبورث بمنهجه ، وعلق المقرري  
على هذا بقوله : « ولم يسح بمثل هذا في  
الاملة الاسلامية قبل ذلك » (١) .

— واسقط اسم اسماعيل بن جعفر  
الصديق — الذي نسب اليه الاسماعيليه —  
واسم الحافظ من الخطبة .

— والى الاذان الاسماعيلي الفاضل .

— وجعل الخطبة على اثار له وحده  
باعتباره « لاصر امام الحق في حالتي لحيته  
وحضوره ، والقائم بنصرته بماضى سيته  
وصائب رآيه وتديره » .

— وضرب دراهم ودنانير جديده باسم  
الامام المنتظر .

حكم أبو علي أحمد ابن حكيم مطلقا ،  
واتخذ هذه الاجراءات الكثيرة التي تصنف  
جميعا الى القضاء على الاسماعيلية ومذهبهم ،  
غير أنه ظل يشغله أمران : أمر الحافظ كبير  
أفراد الأسرة وولي العهد والكفيل السابق ،  
وأمر المولود الجديد الذي ولد للامر .

أما الحافظ ، فيبدو أنه لم يكن ذا خطر ،  
ولم يكن له أفعال يفسدون أوره ، وقد سجنه  
أبو علي أحمد ، وشهد عليه الرقابة في سجنه ،  
وقد فكر أكثر من مرة في قتله ولكنه لم يفعل .  
وأما المولود فقد ظل أمره يقلق بال أبي  
علي أحمد ، وظل دائب البحث عنه ، وقد

— (١) المقرري : مخطوطة تصانف الحنفا .  
ص ١٤١ .

تضاربت الأحوال في شأن هذا المولود ، فبعض  
المراجع المنشورة المتداولة تشير الى أن المولود  
جاء بنتا ، وبهذا أمن أبو علي أحمد واطمان ،  
وبعض المراجع التي لا تزال مخطوطة تشير الى  
أن المولود جاء ذكرا ، وأن أمه عملت على  
إخفائه خوفا عليه من الوزير أبي علي ومن  
الحافظ الذي أن قبضي عليه الحافظ فيها بعد  
وقته .

والرأي الثاني ذكره المقرري في كتابه  
« انماط الحنفا » خلا عن الشريف محمد بن  
أحمد الجبرائي « وهو الصحيح ، بدليل  
ما يذكره المراجع أيضا من أن أمر هذا المولود  
لم يشغل بال أبي علي أحمد كثيرا أثناء السنة  
التي القرو فيها بالحكم ، وأنه ظل طول هذه  
السنة دائب البحث عن ، فقد قال المقرري في  
نفس المرجع : « واستند طرده ( أي طرد  
أبي علي أحمد ) على أهل القصر من الأرحاء  
والأبراق ، وأكثر من أوجاعهم ، والتمشيش على  
ولد الأمر » .

وليث أبو علي أحمد يحكم — خلا  
ما يزيد على السنة قبل مولود ثلاث مدة حكمه .  
لكننا قد لفتنا على الدولة الفاطمية والمذهب  
الاسماعيلي لهايا ، ولكن الاسماطيلية لم  
يرضوا عن حكمه ، وتكونت منهم ممارسة  
قوية تولى زعامتها النساء باض ، وظلوا  
يتربصون بأبي علي القرمس للقضاء عليه ، الى  
أن تمكنوا من قتله في المحرم سنة ٥٣٦ هـ .

قضى إذن على أبي علي أحمد ، وقضى

وأخذ له العهد على أنه أولى عهد كعبيل لمن لم يذكر اسمه» (١٦).

ويؤكد هذه الحقيقة التاريخية وجود عملة ضربت في الاسكندرية في سنة ٥٣٦ م (ومن المؤكد تبعا للحوادث التاريخية أنها ضربت في السنة من هذه المدة بين المحرم وريج الأول من هذه السنة) تحمل اسم عهد المجيد ولقبه كوفي للعهد، ونصها عليها: «أبر الميرون عبد المجيد، ولي عهد المجيد» (١٧).

ويبدو أيضا أن العاقب تليد منذ تلك اللحظة يسيل جاهدا للبحث عن هذا الطفل لينخلص منه لياثيا، ولتخلص له الخلافة من كل شائبة، ولم يفلح بالعاقب الوقت، فقد عثر على الطفل بعد نحو شهرين، وحسم الأمر بقتله، ورأى أن يعلن على الملأ توليه الخلافة، فان المقرري يصول في حوادث سنة ٥٣٦ هـ:

«وفيها استقرت حال العاقب لدين الله، وجميع له بيعة ثانية لما عدم الحمل» (١٨).

وأخيرا، ولي العاقب الخلافة، وتوليته حدث القطار في الفرع الفاطمي الأصيل، فقد كان الطفلاء الفاطميون الذين حكموا حلبه كلهم من نسل عبيد الله المهدي، وكل خليفة

(١٦) المقرري: مخطوطة اتصال السببا - ص ١٩٣٤.

(١٧) الضال: مسبوقة انزلاق الفاطمية - ص ٩٨ - ٩٩.

(١٨) المقرري: مخطوطة اتصال العنقا - ص ١١٣٥: «أبر الميرون عبد المجيد، ولي عهد المجيد، ٧٥»

بطبيعة الحال على المحاولة التي حاولها لجملة الدولة الأمية، وعادت الدولة اسماعيلية كما كانت، وأعيد العاقب - بعد اطلاق سراحه - الى منصب الخلافة.

واعتبر هذا اليوم الذي قتل فيه أبو علي أحمد وأعيد العاقب الى الحكم يوم مجيد قوس - لا للعاقب نفسه بمناسبة اطلاق سراحه واعادته للحكم - بل للدولة كلها، وللذهب الاسماعيلي وولائه، فقد كان المذهب على وشك أن يقضى عليه، ولهذا اعتبر هذا اليوم عيدا للاسماعيلية، وسمي «عيد النصر»، وسمي الى قائمة الأعياد الرسمية، وطلب الدولة تحتفل به سنويا في عهد الطائفة، وفي عهد من أبي بسند من الخلفاء الى أن دالت الدولة والراث.

ورغم تولي العاقب الحكم كانت المشكلة الشرعية المذهبية لا تزال قائمة، فالمذهب الاسماعيلي - كما أسلفنا - لا يسمح أن يتولى الخلافة من ليس ابنا للعلوية السابق، والعاقب ليس ابنا للزهر، بل هو ابن عمه، والطفل الذي ولد للأمير بعد مقتله والذي أخفت أمه كان لا يزال موجودا، ويبدو أن العصاة كان يعلم بوجوده، فلا يصح إذن أن يتولى الخلافة مع وجود الشك، ولهذا لم يجرؤ رجال الدولة وشيوخ المذهب على تعيين العاقب خليفة، بل أعادوه - كما كان - وليا للعهد وكفيلًا للمنتقل المظني، يقول المقرري: «فاقتسم الناس،



اليه ، ففرى على الناس ، فمسا زاده ذلك  
الا جريمة عليه ، وانصاده له »

ولم تخمد هذه الفتنة الا بعد ان قتل  
حسن ، ولكنها كانت عاملا جديدا من عوامل  
اضعاف الدولة بعد انقسام الجيش على نفسه  
وقتل عدد كبير من كبار قواده .

ولم تقلب الصعوبات في عهد مصر  
الثاني في الداخل وحسب ، بل لعبت فيه  
صعوبات اخرى في الخارج ، اخذت لثرا في  
كها الدولة وفصل على فصل اخر لها طرفا  
طرفا ، وقد اشرا من قبل الى انفصال شمال  
افريقيا كله ثم اقتطاع الضفة الفاطمية في  
البحار لغزة ما ، ثم انفصال جزيرة صقلية .

وقد استمرت حركة الانفصال في طريقها ،  
ففي عهد المستعلى بدأ عدوانا خطيرا في يهددان  
"ملاك الدولة في الشام ، فاستولى الامراء  
السلاجقة على دمشق والاجزاء الداخلية من  
الشام وقطعوا المنطقة للمستعلى وحلوا  
للخليفة العباسي ، وفي عهده "بضا ، في  
سنة ١١٩٠ م تحركت الحملة الصليبية الاولى من  
القسطنطينية لاختد سواحل الشام فماتوا  
الطاكية ، وفي سنة ١١٩٢ م فلكوا بقية الساحل  
مريم المقدس ، ولم يبق بأيدي الفاطميين غير  
مدينة عسقلان .

وفي عهد الامر استولى الفرنج على عدد  
آخر من مدن الشام وخاصة طرابلس وبانياس  
وصور .

منهم ابنا للخليفة السابق ؛ وسيمعج الحافظ  
اصلا لفرع جديد ، ولكن هذا التحول فتت  
الاسماعيلية ففتيتا جديدا ، فانقسموا — كما  
املنا — الى اسماعيلية حاقضية وهم "نياع  
الخلافة الفاطمية الجديدة في مصر واسماعيلية  
طهية وقد انتشروا في اليمن والهند .

وفي عهد الحافظ حدثت أزمة اخرى كانت  
معدلا جديدا ساعد على تعظيم ما بقي للدولة  
الفاطمية من قوة ، فقد اراد الحافظ ان  
يتخلص من سلطة الوزراء واستبداهم  
بشؤون الحكم ، كما اراد ان يسهل لاستقرار  
الحكم في أسرته ، فاصدر في سنة ٥٢٨ سجلا  
بنوبة ابنه الاكبر سليمان ولاية العهد واقامه  
مقام الوزير .

ولكن سليمان توفي بعد صدور هذا  
السجل بشهرين ، فاصدر الحافظ سجلا آخر  
بنولية لابنه الثاني مهدي ولاية العهد ، ففقد  
ذلك على اخيه حسن ففقد كان اكبر اولاد  
الحافظ منا بعد وفاة سليمان ، وقام حسن  
بثورة حرية خطيرة ، وانضم الجيش الفاطمي  
تتجه لهذه الفتنة على نفسه ، وكانت هذه  
الوقعة — كما يقول المؤرخون — اول  
مصيبة نزلت بالدولة من لقد رجالها ونصر  
عند عسقلان . . .

وحاول الحافظ محاولات كثيرة لاختصاص  
هذه الثورة واسترضاء ابنه حسن ، ولم يجد  
بدا من معاراة حسن ، وتلاى امره عمام  
ينصليح ، وكتب سجلا بولايته العهد ، وأرسله

وفي عهد الحافظ قطع الصليبيون الخطبة له في اليمن ، وغطبوا الطيب وهكذا تجسعت هوامل الضعف لتعمل مجتمعة على انهاء الدولة ، وأمسيح وزراء الدولة هم أصحاب السلطان الفعلي ، بل لقد أصبحوا هم الذين يختارون الخلفاء ، ومن النبواهد القوية على عظم هذا النفوذ أن الصالح طلائع بن رزيك حصد إلى اختبار طفل صغير ليلى الخلافة بعد

موت الطائر ، وهو الذي سعى فيما بعد باسم «العاصد لدين الله» ، واجتمع الناس للاحتفال بتوليته وأحدثوا ضجة كبرى ، فمال طلائع عن مصدر هذه الضجة فقيل له إن الناس يفرحون بالخليفة ، فقال : « كآني بصغلا » الجعلة يقولون : ما مات الأول حتى استخلفه هذا ، وما جلسوا أني كنت من مساعده أسترضهم أمشراض الفلم » (١) .

## انتهاء الدولة

كان أهم الأسباب التي أدت إلى ضعف الدولة — كما أسلفنا — هو استبداد الوزراء بدئون الحكم ، لهذا أصبح منصب الوزارة محط انظار ثوادر الجيش وكبار رجال الدولة فقامت » بينهم والبعض فيأخر مناصبات دلمية في سبيل الوصول إلى هذا المنصب ، وكان اقتراع الذي قام بين شاور — وزير العاصد آخر خلفاء الفاطميين — وصرغام — صاحب الباب — هو آخر حلقة من حلقات هذه المناقصة ، وقد انتهى الصراع بين الرجلين باتتصار صرغام وتوليته الوزارة ، وفرار شاور إلى الشام .

نور الدين ، وماله أن يرسل معه جيشا إلى مصر ليساعده في نضاله مع خصمه صرغام ، وفي اعادته إلى منصب الوزارة ، وعرض أن يدفع له — مقابل هذه المساعدة — ثلث إيرادات مصر ، وأن يدين » بالولاء أن عادت إليه مقاليد الحكم والوزارة . ورحب نور الدين بشاور واستضافه ، وردد أول الأمر في اجابته إلى مطلقه ، ولكنه لم يلبث أن وافق » ففي هذه الموافقة تحطيق لغطله التي كان يمدق من وولتها إلى توحيد الجبهة الإسلامية توتئة لمقاومة الخطر الصليبي والقضاء عليه .

وأرسل نور الدين مع شاور جيشا بقيادة قائده أسد الدين شيركوه وصاحب أسد الدين معه ابن أخيه يوسف صلاح الدين ، وعلم

وكانت القمام قد انفساقت من مللك الطاميين ، واتسست ملكها قوتان : قوة نور الدين محمود بن زكي » الداخل » وقوة الصليبيين في الساحل وفي فلسطين .

وقد لجأ شاور إلى القوة الإسلامية ، إلى

(١) المغربي . مخلوطة انقاط بالحنفا .  
 من ٦٥ ب : رانظر : الشبيل : مجموعة الوثائق  
 المناطبة من ١٢٠ - ١٢٣ .

ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله الى مصر ، فأصابه الفزع إذ لم يكن الجيش القاطن في حالة تمكنه من المقاومة أو إحرار النصارى ، وأرسل ضرغام يستنجد بالقوة الثانية في الشام ، بالمليين .

ووصل أسد الدين شيركوه الى مصر - ولى بمهت شاور - ، واقتصر على جيش ضرغام ، وفرق عن ضرغام قواده وأهوانه ، لم قبض عليه وقتل ، وأُعيد شاور - نتيجة لهذا النصر - الى تحت الوزارة .

غير أن شاور كان من خلفه الضعف والضيافة ، فلم يلبث أن حدث بوعده ، ورفض أن يدفع لـ شيركوه المبلغ المتفق عليه « بل طلب اليه الانسحاب بجيشه والعودة الى الشام ، وآلم شيركوه ملك شاور ، وأبى أن يستمع له ، وعسكر بجيشه في مدينة بليس ، وتحصن بأسوارها ، وهنا فعل شاور ما فعله ضرغام من قبل ، فلبأ الى عموري Amalric ملك بيت المقدس الصليبي ، وأرسل يستنجد به ، ورحب عموري بالدعوة وأسرع بالخروج بجيشه ، لأنه كان يظن أن يملك نور الدين مصر فيصبح أقوى الصليبيين وأملاكهم في الشام معاصرة بقوى نور الدين من الشمال والجنوب .

اتجه عموري بجيشه في سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤م) نحو مصر ، وحاصر أسد الدين في بليس شهورا ثلاثة ، وأحس نور الدين بما يهدد جيشه في مصر من خطر لا يبدأ بضغف

على أملاك الصليبيين في الشام ، وهاجم بانياس ، مما جعل عموري يفكر جددا في الانسحاب ، واتفق أخيرا مع شيركوه أن ينسحب معا في وقت واحد من مصر .

خرجت القوتان من مصر ولكن لتعودا اليها ثانية وثالثة ، وكل منهما كانت تحاول في كل مرة من المرات الثلاث أن تستولي على مصر للقضاء على القوة الأخرى ، ولكن النصر كتب أخيرا في الصلة الثالثة لقوى نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه .

وقتل شاور لغدره وخيائته واستماتته بالصليبيين مرة بعد الأخرى ، ولم يجد العاصد من بين رجائه من يصلح للوزارة ، فاختار أسد الدين ليكون وزيره ، لغير أن أسد الدين لم يمتد في الوزارة غير شهرين ثم مات ، فاختار العاصد ابن أخيه صلاح الدين وزيرا .

كان موقف صلاح الدين منذ ولى الوزارة موقفا خريفا ، فهو وزير لصاحب مصر الغلبة العاصد المملوكي الشيعي ، وهو في الوقت نفسه قائد لجيش نور الدين صاحب الشام السني ، فهو موزع الولاء ، ومع هذا كان يتبع في سياسته اذاه الرجلين الحكمة والظرف .

لمسير أن نور الدين كان يود أن يسادر صلاح الدين بالقضاء على الدولة القاطمية ، وقطع الخطبة لآخر خلفائها العاصد ، والخطبة للخليفة العباسي ، وكان نور الدين مدفوعا في هذا بسنيته ، وكرهه للشيعية ، وبرغبته في

نور الدين يستأذنه في أن يرسل إليه أباه نجم الدين أيوب وأهله ، فأرسلهم إليه ، وكان نجم الدين أيوب بعد وصوله خير عضد ونصيح لابنه صلاح الدين . فقد كان الرجل ذا دهاء ومكر وخبرة طويلة .

وبدأ صلاح الدين كذلك بتعميم حركة العلماء المدارس في مصر ، وقد كاب المنع من حركة إنشاء المدارس منذ بداها السلاجقة وبقيهم فيها الأتابكة هو محاربة المذهب الشيعي ، والدعوة للمذهب السني وتدريسه ، وقد كانت أول مدرسة أنشأها صلاح الدين في مصر هي المدرسة الناصرية التي أنشئت في القسطنطينية لتدريس المذهب الشافعي ، ثم أنشأ مدرسة أخرى لتدريس المذهب المالكي ، ثم تبعه أفراد أسرته ورجال دولته ، فأنشأوا مدارس أخرى كثيرة في مختلف المدن المصرية .

وخطا صلاح الدين خطوه أخرى ، فعين صدر الدين **الملك** **درباس** الشافعي قاضيا للقضاة ، فجعل القضاة في سائر الدمار المصرية شافعية ، يقول ابن واصل مقابا على حركة إنشاء المدارس ، وعلى حركة تحويل القضاة من المذهب الشيعي الأسماعيلي إلى المذهب الشافعي : « فاشتهر مذهب الشافعية ، والمدارس مذهب الأسماعيلية بالكلية ، وانحى أثره ، ولم يبق أحد من أهل البلاد يسكنه الظاهرية » ، وليس أبلغ من هذا القول للدلالة على قيمة **الخطوة** التي كان بخطوها صلاح الدين في حرص وحذر

اجابة الخليفة العباسي إلى طلبه ، فقد كان دائم الالاحاح عليه أن يقيم له الخبطة في مصر ، ولكن صلاح الدين كان أعرف من نور الدين بأحوال مصر ، ولهذا أكر التمثل ، وأن يسهل الطريق قبل أن يضرب خبرته الأخيرة فقد كان رجال القصر والدولة الثاملية غاضبين ، ويودون لو استطاعوا أن يضفوا على صلاح الدين ومن معه ، ليمتعدوا لقوتهم وسلطانهم المألوف ، وكان صلاح الدين يظن أن هو أسرع بقطع الخبطة والقضاء على الدولة أن يتبع هؤلاء في الثورة عليه ، يقول ابن واصل في كتابه « ملوح الكروب في أخبار بني أيوب » : « كان العادل نور الدين لما تحقق ضعف الدولة المصرية ، وأنه لم يبق لهم منعة ، كتب إلى صلاح الدين بأمره أن يقطع خبطة العاضد ، ويطلب للخليفة من بني العباس ، فاعتذر صلاح الدين بن أيوب بالخوف من ثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة لذلك ، لميلهم إلى العلوية ، فلم يسخ نور الدين إلى قوله ، وأرسل إليه يلزمه ذلك الزاما لا تحسنة فيه .. »<sup>١١٤</sup> .

وبدأ صلاح الدين بالخطوات السعيدة لتقليم أطراف الخليفة العاضد وقواد جيشه ، ورجال مصر ، عايده هؤلاء القواد عن القاهرة واستولى على أقطاعاتهم ، ومنعها لقواده هو ، ليضمن ولاهم وإخلاصهم » ثم أرسل إلى

(١١٤) ابن واصل : مرجع الكسروب . نشر الشيبان . ج ١ .

المباصي في مجاهد القسطنطين والقاهرة جميعا ،  
وبذلك انتهى آخر خيط في حياة الدولة  
الفاطمية .

أما الخليفة المعتمد فيقال انه كان مريضا ،  
فلما سمع بهذا النبأ اشتد به المرض ، وتوفي  
في يوم عاشوراء ، أى في اليوم العاشر من  
المحرم من هذه السنة ؛ وهكذا انتهت الدولة  
الفاطمية بعد أن حكمت مصر قرابة ثلث قرن من  
الزمان كانت مصر في خيالاتها امبراطورية  
مستقلة واسعة مترامية الأطراف ذات حضارة  
مجيدة مزدهرة .

للتسديد لتحقيق رغبة الخليفة المباصي وغور  
الدين يقطع الخطبة للمعتمد .

ولما تم له ذلك كله جمع أمراء جيشه  
نائبشيرهم في أمر قطع الخطبة ، فترددوا  
كثيرا ، وأخيرا تقدم غقبه يلى الأمير العالم  
بالموقع أن يبدأ هو بتنفيذ هذه الفكرة ؛ وفي  
يوم الجمعة الأول من المحرم سنة ٤٦٧ هـ  
خطب هذا الرجل ، ولم يدع " للخليفة المعتمد ،  
والما دعا للخليفة المباصي المستفىء بنور الله ،  
فلم ينكر ذلك أحد عليه ، فلما كانت الجمعة  
التالية أمر صلاح الدين بتعميم الخطبة للخليفة

## الدولة الأيوبية

دكتور محمد مصطفى زبادي .

مصر حقيقة تامة . ولكن هذه السنة المختارة ١١٣٧ م ، لا لأهمية تاريخية خاصة أو عامة ، بل لأهمية تسمية مملكة ، وهي أن عماد الدين زنكي أمير حلب بعث رسالة إمارتها عن أبيه صار لها أميراً كذلك على الموصل ، بعث تيمنه عليها من قبل السلطان محمود السلجوقي والتخليفة المسترشد العباسي ، وبهذا أصبح بحكم موقعه الجغرافي أمير أقوى دولة إسلامية في غرب آسيا في زمانه . ثم جاءت الصدمة التاريخية في زنكي والأخوين الكرديين مجسم الدين أيوب ومحمد الدين شيركوه ، وأولهما أبو صلاح الدين يوسف مؤسس الدولة الأيوبية في مصر ، وهذا هو الأصل العائلي لهذه الدولة

وولدت هذه الصدمة سنة ١١٣٧ م ، حين وصل زنكي إلى قرب قلعة تكريت متوجها يريد عبور نهر دجلة ، كيلا يقع بجيشه في يد أعدائه ، فساعدته نجم الدين أيوب حاكم تلك القلعة على العبور ، ومن حينه المروءة لتألف صداقة بين زنكي وأيوب وشيركوه . ثم حدث سنة ١١٣٨ م ما حمل أيوب وأخوه وأهلها على الرحيل في شيء من السرعة لئلا عن تكريت ، ويقال أن ميلاد صلاح الدين يوسف تلك الليلة لم يستمع أب أبؤخر ذلك

يقترب المؤرخ الحديث من تاريخ الدولة الأيوبية في مصر من زاويتي متكاملتين ، وهما البيئة السياسية التي نشأت فيها هذه الدولة ، والأصل العائلي الذي بنت منه ، وهذا التكامل يجعل العبارات الافتتاحية في قيام الأيوبيين بمصر مزيجاً من هاتين الزاويتين . أما البيئة السياسية التي نشأت فيها هذه الدولة فهي الفرق الأوسط في منتصف القرن الثاني عشر الهجري وأما أهم عناصر هذه السياسة وأوضاعها ثلث في قيام الدولة الأيوبية فهي الخلافة الفاطمية التي سوف يحل الأيوبيون محلها في مصر ، ثم الخلافة العباسية التي عدت مستنداً لونها من السلطة السلجوقية المقيمة في بغداد عاصمة العباسيين ، ثم المملكة الصليبية التي تأسست في بيت المقدس وما حولها ، ثم الدولة الزنكية التي أسسها عماد الدين زنكي ، وهي الدولة التي تستطيع أن تكون نقطة بداية تاريخية لظهور الأيوبيين .

والمؤرخ الحديث يحسن حسناً إذا هر أخار سنة من السنوات لوقتة يقفها هيمنة لاستراتيجي أحوال في الدولة الزنكية ، ثم يتقدم من هذه السنة المختارة بعد ذلك ويبدأ دويدا حتى يندو تأسيس الدولة الأيوبية

الرحيل ، مما يشي بأن سببا خطيرا هو الذي دعا الى انتقال الاخوين أيوب وشيركوه وأمرتهما عن تكريت .

وذهب أيوب وشيركوه الى زنكي بالموصل ، ودخلا في خدمته ، ولم يلبثا أن شاركوا في حروبه وسياساته ، وهي المبني على تكوين جبهة اسلامية قوية لاجراج الصليبيين من الشام . وقد سبيل ذلك لم يخرج زنكي من الهجوم على مدينة دمشق سنة ١١٨٩ ، على انه فتح من هذا الهجوم باستيلاء قائديه أيوب وشيركوه على بعلبك التابعة للامارة المسيحية ، وعين أيوب حاكما عليها . وبفضل هذين القائدین وغيرهما من رجالة الدولة الزنكية استطاع زنكي أن يتقدم بمشروع الجبهة الاسلامية المتحدة خطوات معنوية واسعة ، أهمها استيلاؤه من الصليبيين على الرها سنة ١١٩١ م . ثم توفي زنكي بعد ذلك بسنتين ، إذ اغتيل وهو على حصار حصن جسر الواقع على نهر الفرات الى الجنوب الشرقي من حلب .

ثم بعد وفاة زنكي فرصة لبعض أمراء البلاد المفتوحة أن يستردوها من ولديه ، وهما نور الدين معصود الذي آل اليه القسم الغربي من المملكة الزنكية وعاصمته حلب ، وسيف الدين غازي الذي آل اليه القسم الشرقي منها وعاصمته الموصل . ومن تلك البلاد بعلبك التي حاول الدمشقيون أمراؤها الاقدمون استرجاعها من حاكمها نجم الدين أيوب ، ولم

يؤثر أيوب على دفعهم عنها بالقتال ، ففضل الصلح للواقع وسلم بعلبك سنة ١١٩٦ ودخل خفعة أمراء دمشق ، ولم يلبث أن أوغل في سياسة الامارة الدمشقية وحوادثها حتى أصبح القائد العام لجيوشها . أما شيركوه فالتحق بعد وفاة زنكي الى خدمة ابنه نور الدين معصود بحلب ، ولم يلبث هو الآخر أن صار القائد العام في الدولة النورية . وفي سنة ١١٩٤ جهز نور الدين حملة للاستيلاء على دمشق ، تحقيقا لسياسة توحيد الجبهة الاسلامية التي ورثها عن أبيه ، وعين شيركوه لقيادة هذه الحملة . ومن ثم بدأ شيركوه في مفاوضات أخيه أيوب لتسليم دمشق بالحسن ، وانتهت المفاوضات أواخر تلك السنة بأن أصبحت الدولة النورية سيطرة على معور عاصمتها حلب الى دمشق .

أما الأخوان أيوب وشيركوه فلبثا ذرء القوة والنفوذ بعد تسليم دمشق ، إذ عين أيوب حاكما على هذه المدينة من قبل نور الدين ، وميزه نور الدين عن سائر رجاله باعطائه حق الجلوس في حضرته ، رعاية لسابق علاقته بأبيه زنكي . وتعين شيركوه نائبا للسلطنة بأقليم دمشق كله ، كما استقر باتفاق كبير في حصن . ولما انتاب صلاح الدين يوسف بن أيوب فليس بوجوده بالخصوص المعروفة ما يشرح تفاصيل حياته ( إذا أردت توسعة فعندك على بيومي ص ٨ - ٨٤ ) ما عدا أنه عاش بالبلاط النوري بدمشق ،

وأنه نقب في بيتة عالية ، ولابد أنه قضى معظم أيامه في تعلم علوم طبقة وفنونها ، ويستخلص كذلك ما هو معروف من اشارات مبشرة أن السلطان نور الدين عين الشاب صلاح الدين ، وهو في الحادية والعشرين من عمره ، أي سنة ١١٦٠ م للهـ ونيفه سنة دمشق ، وهي وظيفه رئيس القنطرة والموكل بالأمن بها .

هذه خلاصة حائرة لبعض أحوال الدولة النورية النورية التي نشأ فيها مؤسس الدولة الأيوبية في مصر ، ولا أَل هنا من عرض مشابه لبعض أحوال الدولة الصليبية بالشام والدولة الفاطمية بمصر ، وكلاهما قد شأن في تأسيس الدولة الأيوبية ، والمقصود بالصليبيين هنا مملكة بيت المقدس سنة ١١٥٣ م بالذات حين استولى ملكها بالدين الثالث على ميناء عسقلان الواقعة على الطريق بين الشام ومصر ، إذ ترتب على هذه الحركة العربية قيام نور الدين بالاستيلاء على دمشق في السنة التالية كما ترتب عليهما كذلك تطور السياستين النورية والصليبية إلى مبان جدي للاستيلاء على مصر من خلفائها الفاطميين .

وكانت الخلافة الفاطمية في مصر وقتذاك في دور الاحتضار ، وظيفتها العائد العربية لينة وسط حزبية فاسدة ، ولا سيما بعد أن دعا شاور أحد زعمي الحزبية السلطان نور الدين لمؤازرته ، على حين دعا ضرغام — وهو الزعيم الآخر — الملك عموري الأول لمؤازرته . ولذا جرى السباق النوري الصليبي

بين ثلاث حملات عسكرية صليبية ومنهجها نورية ، وأولها سنة ١١٦٣ ، وآخرها ١١٦٩ ، وانتهى السباق حين استطاع القائد شيركوه أن يخرج الصليبيين من مصر ، وأن يتخلص نهائيا من الزعيمين ضرغام وشاور ، وأن يصبح وزيرا للخليفة الفاطمي العاضد . وهذا حقيق شيركوه رغبات نور الدين ، ما عدا اعتلاءه الوزارة لأن نور الدين رأى في ذلك شيئا من الضروح الخطير .

ومع شيركوه في حملاته الثلاث صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب ، وشارك صلاح الدين في حروب هذه الحملات ومؤامراتها ، ودل على مهارة ملحونة . فلما تولى شيركوه ( مارس ١١٦٩ ) بعد ثلاثة أشهر فقط من توليه الوزارة الفاطمية ، اختار الجيوش بالخليفة العاضد بمده للوزارة فلما منهم أن السلامة السياسية تقترح عليهم إحلال الشاب محل عمه ، وعمره وقتذاك إحدى وثلاثون سنة ، باعتبار أنه أقل ضباط الجيش النوري خبرة بشؤون الصرب والسياسة . غير أن صلاح الدين لم يلبث أن اتقى على رجسالة القصر الفاطمي درساً عموده ولم يستطيعوا نجاته ، وهو أنهم يبتوا له سيف تلك السنة مؤامرة بزعامة خصم نوري اسمه مؤمن الدولة نجاش ، واتصلوا بالملك عموري لترتيب هجوم داخلي وخارجي على القوات النورية في وقت واحد . غير أن صلاح الدين علم بتفاصيل المامرة قبل تنفيذها ، فقبض على زعيمها



وشركائه بالقاهرة وأمر بإعدامهم وأخذ حركة  
حماية الجيش الفاطمي ، كما استطاع إجلاء  
أسطول صليبي بيزنطي بنفسه عن دمياط .  
وذلك صلاح الدين بذلك كله على مقدرة فائقة  
في غير جلبة ، كما دأب سلفه نور الدين بحركاته  
الحربية المتوازية ضد الصليبيين بالشام على  
عزيمه على مساعدته ، ما دامت أهدافه تقوية  
مركز الدولة النورية بالقاهرة .

وكان إجلاء الصليبيين عن سواحل دمياط  
تلك السنة لقلة تحول في تاريخ صلاح الدين ،  
وفي تاريخ الحسابات الصليبية على مصر .  
فإنه أن رجوع هذا الوزير العسكري من  
دمياط منتصرا ، أثنى الخلافة الفاطمية والباقيين  
من رجالها ، وكذلك القاهرة وأهلها بأنه  
يستطيع حماية الدولة من أغارة المغيرين ،  
فضلا عن حماية مركزه من مؤامرات المتآمرين  
وبدأ بذلك ما جعل على يده لنفسه في قلوب  
الخاص والعام . واغتنم صلاح الدين هذه  
الفرصة فأرسل إلى سيده نور الدين يطلب  
أموال الباقيين بالشام من أهله حتى وفند ذلك  
إلى مصر ، ليستعين بهم ﷺ وفائف الدولة ،  
فوصلوا إلى القاهرة في شهر ربيع سنة ١١٧٠ هـ ،  
وعلى رأسهم أبوه السباعي القاهرة نجم الدين  
أيوب ﷺ فجعله صلاح الدين على بيت المال ،  
كما جعل بهاء الدين قراقوش مملوك عنه  
شبه كرم واليا على القاهرة ، وأقطع أخوته  
وأعمامه وأولادهم أقطاعات الفاضلين الذين  
تقوا إلى الصعيد بعد حدم ثورة مؤمن الدولة .

ويبدو من تطور الحوادث بعد ذلك أن  
تجم الدين جاء إلى مصر بتعليمات معينة من  
عند نور الدين وأن قيامه إلى جانب أبيه  
يوسف شافع من حركة هذا التطور فاعتقب  
وصوله إلى القاهرة مثلا تأسيس مدارس  
( كليات ) لتدريس الفقه على المذهب الأربعة ،  
وبهذا بدأت مناهضة فقه المذهب الشيعي  
ومراكزه الرسمية ، ثم أخذ صلاح الدين إلى  
إزالة كثير من مظاهر المذهب الشيعي في  
القائمان ، كما أخذ في إضافة أسماء الخلفاء  
الراشدين في الخطبة ، فضلا عن الدعاء  
للسلطان نور الدين بعد الخليفة العاضد . ثم  
حدث أن مرض الخليفة العاضد فاتفق صلاح  
الدين مع أبيه أيوب على استئصال ذلك بقطع  
اسم الخطبة الفاطمي من الخطبة وإحلال اسم  
الخليفة العباسي محله في أحد جوامع القاهرة ،  
وتم ذلك في الجمعة الأولى من شهر المحرم  
سنة ٥٦٧ هـ ( ١٠ سبتمبر سنة ١١٧١ م )  
وتقرر أن يتم ذلك أثناء القاهرة في الجمعة  
الثالثة ، لكن العاضد لم يمتد به أجله إلى هذا  
الميعاد ، إذ مات خلال الأسبوع الواقع بين  
هاتين الجمعةين ، وسقطت الدولة الفاطمية  
سقوطا صامتا بعد قيامها في مصر قرنين ونصف  
قرن من الزمان .

وكان لسقوط الخلافة الفاطمية في مصر  
أصداء كثيرة في الشرق الأدنى كله ، فأرسل  
الخليفة المستنصر السباعي نور الدين بسنتين  
أحدهما رمزا لسيطرته على الشام بما في ذلك

حشيق ، وثانيهما رمزا لامتداد سلطانه الى مصر ، على أن يكون نائيه فيها صلاح الدين ( على يومي ١٨١ - ليهول ١٩٥ - مذكرات ج٣ ) . أما صلاح الدين نفسه فأصبح القوة الكبرى في مصر ، غير أنه لم يشأ أن يظهر بمظهر المنتقم بأمانة الفاطميين ، فظل مثلاً في دار الوزارة ، ولم ينتقل الى قصر الخلافة حتى لا يثير انتقاه شيئاً من القتلون ، وفتح القصور الفاطمية ، لا ليهنئ على ما فيها لنفسه ، بل ليعرض موجوداتها على أبنائه وأنصاره ، وليرسل لنور الدين الدين منها هدية ضخمة ، وأما أبناء البيت العاطس وأقاربهم فأودعهم صلاح الدين دوراً مختلفة ، ومنع الاختلاط بينهم بتحديد أماكنهم .

ثم عتف صلاح الدين على التمسكين لنفسه لهاليا في مصر ، وساعف من جهوده في حرد سور القاهرة حتى لحدا محيطها بالفسطاط والقطائع والسكر ، وبدأ في تقييد القلعة على الأطراف الغربية من جبل المقطم ، لتكون مشرفة على جميع أجزاء هذا السور ، ونفذ حملة الى بركة ، وأنبعها بحملة لاهية الى فلسطين لتأمين الدولة التي أُرجم النساءها في مصر وظلويتها عسكرياً واقتصادياً ، ولم يشأ أن ينظر قسوم نور الدين الى فلسطين ، بل قتل راجعا الى مصر اجتنباً لقلته .

وبدا الشك يساور نور الدين بسبب هذه الحركات الداخلية والخارجية ، وشاع في الأوساط الصديقة والمعادية للأيوبيين في

القاهرة وحشيق وحلب أن نور الدين يوشك أن يسير الى مصر على رأس حملة كبيرة يؤكد بها تبعية مصر وصلاح الدين للدولة النورية أو يقوم بعزل صلاح الدين ، واستدعت هذه الاشارة مجلساً جمع بالقاهرة أبناء البيت الأيوبي وأقاربهم وخواصهم ، وأوددت المراجع الرئيس محضراً بها دار في ذلك المجلس ، وجب دلالات على ما جال في قلوب الوعامة الأيوبية من مختلف النبات المعهودة على تكوين دولة البيت الأيوبي في مصر أو في غيرها من بلاد الشرق الأوسط . وهو على أية حال يشرح نظرية المقرري في تكوين الدولة الأيوبية ، ولما : « ولها ابتداءات الوعامة بين .. نور الدين .. وصلاح الدين .. وعمر ( نور الدين ) على دخول مصر وقلم صلاح الدين منها فبلغ ذلك صلاح الدين ، فخاف وجمع أهله وخواصه واستأجرهم ، فقال تقي الدين عمر ابن أخيه : « اذا جاء ( نور الدين ) فأبنا كلاً ، وصددناه عن البلاد » ووافقه جماعة من أهله على ذلك . فبهم نعم الدين أيوب ، وأنكر عليهم ، وكان ذا رأى وضار فقال لابن ابنه تقي الدين : « اقعد ، وسه . والثقت الى ولده .. صلاح الدين » . وقال : « أنا أيوك ، وهذا شهاب الدين الحسامي خالك أتمن في هؤلاء من يحبك ويريد الخير لك أكثر منا » قال : لا ، فقال ( نجم الدين ) : والله لو رأيت أنا وخالك هذا السلطان نور الدين لم يمكننا الا أن نرجل له ، ونجسلي

الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف قطعنا . فإذا كنا نحن هكذا ، فكيف يكون غيرنا ؟ وكل من تراهم من الأمراء والصائرين لو رأى السلطان وحده لم يتجاسر على الثبات ، سرحه ، وما يسمه الا النزول وتقبل الأرض بين يديه . وهذه البلاد له ، وقد أقامته فيها لاتباعه ، قال أولاد عزك غاي حاجة الى الحج ، فأمرك بكتاب مع لجباب حتى تصد خفست ، ويولى البلاد من يريد ، وقال للجماعة كلهم : « قوموا عنا ، فنحن ممالك السلطان نور الدين وعبيده ، نضل بنا ما يريد » . فتفرقوا على هذا ، وكتب أكثرهم الى نور الدين بهذا الخبر ، ثم ان نجم الدين خيلا بأنه صلاح الدين وقال له : « أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع الكثير ، وتظلمهم على ما في نفسك فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلت أهم أموره وأولاه بالقبض ، ولم قصدك لم تر معناه أحدا من هذا المسكر ، وأسلموك اليه . وأما بعد هذا المجلس فانهم سيكتبروا اليه يقولوا فاكذب أنت أيضا في هذا المضي ، وقل له أين حاجة الى لصدي ؟ نجاب يجي ، فلما عدلي بئدي يفسح في عنقي ، فانه فإذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج ، والله عز وجل كل يوم هو في شأن » . فضل صلاح الدين ما أشار به أبوه ، فانخدع نور الدين وعدل عن قصده ، واندرجت الأيام كما قال نجم الدين .

غير أنه يدعو أن صلاح الدين لم يطعن الى هذا الموقف السالب ، فعاد الى عمليات تأمين مركزه داخليا وخارجيا ، بل تنبى بعض هذه العمليات عن تفكيره في الاتصال عن مصر الى غيرها من البلاد المجاورة إذا أخفقت طموحات تكوين دولة يمنية في القاهرة ، مثال ذلك تقريره غزو بلاد النوبة وإرساله حملة كبيرة الى تلك البلاد بقيادة تورانشاه وهو أكبر أخوته . وسار تورانشاه الى أسوان وأواخر ١١٧٢ ، وحظ جنوبا حتى استولى على ابريم ، ثم عاد الى مصر بعد أن وجد أن تلك البلاد لا تصلح للأغراض التي فنيهاها صلاح الدين . ومثال ذلك تقرير صلاح الدين إرسال حملة بقيادة أخيه تورانشاه أيضا لمحاولة فتح اليمن ، حيث تكللت هذه المحاولة بالنتاج أواخر سنة ١١٧٣ . وأما من الناحية الداخلية فإن صلاح الدين استطاع أن يهدم ملامحة لأية لاعادة الدولة الفاطمية إذ قضى على هذه الملامحة وهي في مهدها ، بأن قبض على زعمائها ورئيسهم حارة اليمن ، واستغنى القضاء عليهم فاضوا بقلمهم ، فقتلهم جميعا في أبريل سنة ١١٧٤ . وفي الشهر التالي توفي نور الدين واندرجت الأيام ، كما قال نجم الدين أيوب الذي كانت وفاته في السنة الصابئة لغزاة نور الدين .

على أن الجو لم يصبح بذلك خاليا تماما لصلاح الدين ، ولذا تم إعلان استقلاله بمصر مباشرة ، بل عمد أولا الى معالجة الموقف

الذى تشع عن وفاة نور الدين ، وقيام ابنه الطفل اسماعيل في المملكة النورية الشاملة للمشرق وحلب . ثم كان هناك سيف الدين غازي ملك الموصل ، وهو ابن أخى نور الدين ، ولا بد لصالح الدين أن يحسب له حسابه وهذا فضلا عن ملكة السلاجقة بالروم ( أى آسيا الصغرى ) ، وهو خليج أرسلان الثالث ، على أن صلاح الدين لم ير في هذا أو ذاك مداه له أو منافسا أو بديلا ، إذ لم يحدث عنده أنه هو الراوث الكفء لمصالح لورد الدين وسياسته في تكوين جبهة اسلامية متحدة لمجاهدة الصليبيين ، وأنه هو الذى يستطيع النهوض بذلك الصب المزدوج .

وبدا صلاح الدين عمله في سبيل تكوين جبهة اسلامية متعددة بالتسام ، حيث كان المحبطون بالطفل اسماعيل في نور الدين حزينين ، احبدهما فشقى يريد أن تكون صديق حاصصة للمملكة النورية ، وتكون اقامه الملك الطفل اسماعيل بها ، وتأتيهما حلب يريد أن تظل حلب عاصمة للمملكة النورية كما كانت منذ نشأتها . وتطلب الحطرون بمساعدة الصليبيين ، واستنجد الدماشق لصالح الدين ، فطف اليهم بفرلة قليلة من الجند ، وأعلن أن غرضه حاية مصالح الملك الطفل ، وفشل دمشق في نوفمبر سنة ١١٧٤ . وذهب منها الى حمص ثم حماة ثم حلب ، حيث كان الملك الطفل مقبلا . غير أن مدينة حلب أغلقت أبوابها في وجه صلاح الدين ، فحاصرها حصارا

قصيرا ، ثم ارتد عنها قائما مؤقتا بولاء الشام له ما بعد حلب . وهنا تحرك سيف الدين غازي ملك الموصل ، ولم يكن من المنتظر أنه أن يقف صامتا ، على حين صلاح الدين يعلن أنه يمثل لمصلحة الملك الصغير . وكذا أرسل سيف الدين غازي حملة الى حلب لموازنة الحطيين ، فبدأ سيره يقومون به من حركات لمقاومة صلاح الدين ، وانضمت هذه الحملة الى الجند الحطيين ، والتقت بجيش صلاح الدين قرب حماة بين بلدة اسمها قرون حماة في ابريل سنة ١١٧٥ . وأعقب صلاح الدين اقتضاره هناك بانتصار فاد على القوات الحطية الموصلة في ابريل من السنة التالية (١١٧٦) عند بلدة اسمها بئر الركبان ، ودخل مدينة حلب وعقد مع الملك اسماعيل بن نور الدين صلحا تم فيه الاعتراف بشرعية تملكه صلاح الدين على جميع ما بيده من البلاد التي امتدت ولذلك من مصر الى قرب أطراف العراق .

ومنذ هذه السنة ( أى ١١٧٦ م ) لحدا صلاح الدين ملكا مستقلا بمصر والشام إذ شهدت بذلك معاهدة الصلح بينه وبين الملك اسماعيل بن نور الدين ، كما شهدت به توفيقات وصلت اليه من عند الخليفة المباسي ، وهذا وذلك فضلا عن سك النقود الذهبية والفضية والنجارية باسم صلاح الدين بمصر والشام . وانصرف صلاح الدين مسددا السنوات التالية حتى سنة ١١٨٢ الى أعمال

داخلية ، ومنها بداية بناء القلعة وتكليف  
السور المحيط بالقاهرة وأسلانها من العواصم  
الاسلامية ، وتجديد بعض تحصينات دمياط  
والاسكندرية وترميم الأسطول بإضافة ستم  
جديدة . ومن أعمال صلاح الدين في تلك  
السنوات كذلك تأسيس المدارس - أي  
كليات التخصص في علوم الدين على المذهب  
المسني - . لناهضة الشيعة التي توطئت بصغر  
على أيدي الفاطميين ، ومن هذه المدرسة  
الامام الشافعي والناصري والقمعية والسيدي  
بالقاهرة والسيوط ، والشافعية والسلفية  
بالاسكندرية ، وبعض هذه المدارس يرجع  
أصله الى ما قبل أيام صلاح الدين . على أن  
هذه السنوات التي صرف صلاح الدين  
معظمها في أعمال سلمية داخلية لم تخل من  
أعمال عسكرية وميابة أهمها بدء اصطدامه  
بقوى مسلحة بيت المقدس الصليبية بقيادة  
أولاد أمير الترك والبرامه أمام تلك القوى  
عند الزمعه سنة ١١٧٧ ، مما كان بمثابة درس  
نافع للمستقبل . ويبدو أن هذه الصدمة  
أججعت صلاح الدين الى فكره مهذونة  
الصليبيين مؤلفا ، بدليل عقده سنة ١١٨٠  
هذه لحمة ستين مع مسلحة بيت المقدس ،  
وبعده هذه مضايقة الى أواخر تلك السنة مع  
فتح أرسلاز تلك الملايكة بالروم ، وأمره  
الموصل والجزيرة وأربل وكنة وباردين .  
ودلت هذه الهدنة الناتجة على مبلغ ما وصل  
اليه صلاح الدين من مكانة بالشرق الأوسط  
ولما يفض على استقلاله بصغر والشام سوى  
بضع سنين .

ثم توفي سيف الدين غازي أمير الموصل  
في أواسط سنة ١١٨٦ ، وتوفي بعده اسماعيل  
ابن نور الدين في ديسمبر من تلك السنة .  
واضطربت شئون الهدنة القائمة بين صلاح  
الدين والأمراء المسلمين ، حين عهد بعض  
أولئك الأمراء الى مفاوضة الصليبيين ليكونوا  
بدا واحدة على منع صلاح الدين من  
الاستيلاء على الموصل أو حلب . وجعل  
صلاح الدين من هذه المفاوضات سببا للوحف  
من القاهرة في مايو سنة ١١٨٧ ابتداء القضاء  
على جميع أنواع المقاومة ضد نهج هذا الاعلان  
الجهاد ضد الصليبيين . على أنه لم يلب أن  
يكون قيادي بالمدون ، احتراماً للهدنة  
المفردة ، قتل يدمشق حتى انتهى أجل هذه  
الهدنة . في سبتمبر من تلك السنة ، ثم  
تحرك منها نحو الفرات ، فحربه عند مدينة  
البيرة ومما بعث التصارات صلاح الدين في  
الأراضي الفراتية إذ سلمت له الرها وسروج  
والرقه وقرقيسيا ونصيبين وتقدم صلاح الدين  
أخيرا نحو الموصل في نوفمبر من السنة  
نفسها ، لكنها استعصت عليه ففضل الاستيلاء  
على غيرها من المدن مثل سنجار وآمده ، وما  
زال يعمل في تلك الأطراف حتى سلمت له  
حلب في يولية من السنة التالية .

وأضحى صلاح الدين بعد تسليم حلب  
أقوى ملوك المسلمين في الشرق الأوسط  
وأحسن هو نفسه بأهمية هذا الحادث ، بدليل  
قوله للمجبيين به وهو يساعد الى اقلعة  
الحلب ما سررت بفتح مدينة كسروري بفتح

هذه المدينة ، والآن قد تبينت أني مُملك  
البلاد ، وعلت أن ملكي قد استقر  
وثبت .. ٤ ..

والواقع أن دولة صلاح الدين بعد  
تسليم حلب غمت من حيث القوة والسمعة  
والمناعة البحرية أعظم دولة في الشرق الأوسط  
قده ، كما أصبح اسمه موضع التمجيد  
المصيق ، ومصداق ذلك قول ابن جرير في  
مذكراته بصدد صلاة الجمعة أن العجاج  
حين سمعوا دهاء العطيع لمصلاح الدين  
« ارتعد صوت الطالبين بالتأني بالمنة  
نمدها القلوب انخاله والنيات المبادعة ،  
ونفيل الالبسة بذلك طمعا يذيب القلوب  
خسرها لما وهب الله لهذا السلطان المبادل  
( صلاح الدين ) من إنشاء الجبل ، والتي  
عليه من معة النباس » . وليس عجبا أن  
يشعر صلاح الدين بمد أن صارت له كل هذه  
التوفيقات أن واجبه أصبح متركزا في الجهاد  
ضد الصليبيين ، وإذا كان ثمة ما يمنعه من  
الإقدام الكلي على الجهاد حتى ولتلك  
كيفية الموصل وبعض البلاد المجاورة خارجها  
عن حوزته ، هان صلاح الدين سار لأخطاح  
هذه البطايا سنة ١١٨٥ ، ولم تته السنة التالية  
حتى دخل أمراء الموصل وشهرزور وادبل  
وغيرها في طاعته ، ولم يبق أمامه من كردستان  
إلى السودان سوى مملكة الصليبيين وغيرها  
من الإمارات الصليبية بفلسطين .

وكان صلاح الدين عليا بمواضع القوة  
والضيف في الأوساط الصليبية ، وذائق مرارة  
الهزيمة على أيديهم في وقعة الرملة سنة ١١٨٧ ،

كما ذاق حلاوة النصر عليهم في وقعة مرج  
عيون سنة ١١٧٩ . على أن صلاح الدين لم  
ينسأ أن يجعل مشروع توحيد الجبهة  
الإسلامية مرهونا بما يأتي به الحوادث من  
هزيمة أو نصر في ميدان القتال ضده  
الصليبيين ولذا فصل الانصراف إلى شؤون  
توحيد الجبهة الإسلامية ، وفتح سنة ١١٨٥  
إلى مهادة مملكة بيت المقدس مؤقتا لمدة  
سنتين . نجي أن هدوا صليبيبا أنفسهم جو  
الهدنة ، وهو أرناط أمير حصن الكرك ، إذ  
عقد هذا الأمير في أوائل سنة ١١٨٣ إلى  
القيام بحملة بحرية من خليج العقبة للإغارة  
على شواطئ البحر الأحمر ، تمهيدا لمزاحم  
على المدينة أو مكة . وأرسل العادل أخو  
صلاح الدين ، وهو وقتذاك وإلى مصر سنا  
مصرية تعبت السبلن الصليبية حتى اشتمكت  
مها في ميناء الحوارة شمالي بنيم ، وألحقت  
بها وبجنودها هزيمة فادحة . حدث كل ذلك  
وصلاح الدين مشغول بأعمال توحيد الجبهة  
الإسلامية مرهونا بما يأتي به الحوادث من  
الصليبيين لمدة أربع سنوات تبدأ من ١١٨٥ .  
ولمسه التالية كان أرناط أمير حصن الكرك  
سيلا في الصنادير الهدنة القائمة بين الطرفين ،  
ولذلك أنه هاجم قافلة تجارية مسلمة وهي تمر  
على مقربة من حصن الكرك سنة ١١٨٧  
فامتدلى على سناجرها ، كما احتجز أمتا  
لصلاح الدين كانت على سمر مع تلك القافلة  
على ما قبل . ولذا أقسم صلاح الدين إحتلت  
أرناط إذا وقع في يده يوما من الأيام واعتبر  
حادثة القافلة إعلانا بانتهاء الهدنة وبداية

المدون ، وأرسل إلى طلب الجند من مصر والشام والبلاد القراية . وخرج صلاح الدين من دمشق في مارس سنة ١١٨٧ مسعداً لقتال ، فعسكر عند عسري جنوبي قصر يعقوب ، حيث تلاقت إليه أجناد مختلف البلاد ، واستقر الرأي بين أرباب مشورته على السير نحو طبرية ، تمهيدا للزحف منها نحو صفورية حيث اجتمع عساكر سلطنة بيت المقدس ، وهي قرية في منتصف الطريق بين طبرية وعكا . على أن الاصطدام وقع أخيرا بين الفريقين عند قرية حطين ، وهي في منتصف الطريق تقريبا بين طبرية وصفورية ، وذلك في يوم السبت ٤ يولية سنة ١١٨٧ ، وأغر ذلك الاصطدام عن هزيمة صليبية فادحة ، ذهب فيها معظم جيش مملكة بيت المقدس ، فضلا عن جيوش الإمارات الصليبية التي اشتركت في المعركة ، كما وقع فيها ملك بيت المقدس وأرناؤد أمير الكرك ، وغيرهما أسرى في يد صلاح الدين .

لذلك كانت هزيمة الصليبيين عند حطين بداية النهاية لسلطنة بيت المقدس في فلسطين ويكنى للبرهان على ذلك تسجيل خطوات صلاح الدين بعد يوم هذه الواقعة ، ففي اليوم التالي عاد صلاح الدين إلى طبرية ، فسلمت إليه قلعتها من غير مقاومة ، وهي التي استعصت عليه بعد استيلائه على طبرية نفسها قبل حطين . ثم وجه صلاح الدين هجومات خاضعة نحو بلاد الساحل ، لينطلق بالأسبلا عليها بما عساه يرد من نجدة

أوربية لمملكة بيت المقدس ، فحصل ما أنه يصل بها بين مصر والشام . وكان اقرب هذه البلاد من مواقع صلاح الدين وقتذاك مدينة عكا ، فسلمت له في ١٠ يولية ، وكانت شروط التسليم أن يرسل الصليبيون عن البلد إذا شاءوا ، أو يقيموا حيث هم بفرض دفع الجزية المقررة ، فمن شاء الرحيل ضابت عليه أملاكه الثابتة ، ومن شاء ابقاء بقية أملاكه في يد . وأسرع إلى التسليم بهذه الشروط معظم عدد الساحل شمالي عكا وجوبها ، فضلا عن كثير من المدن الداخلية بما في ذلك مدينة بيت المقدس نفسها التي كان يسكنها له بعد حصار قصير ، وكل ذلك في مدة لم تتجاوز ثلاثة أشهر من وفاة حطين . والواقع أنه لم تات سنة ١١٨٩ م حتى سقطت معظم المدن الصليبية في يد صلاح الدين ، ولم يبق في حياة الصليبيين سوى امارتي املاكية وطرابلس وبعض المدن الساحلية ، وأنها صور التي نجحت في مقاومة الحصار لما مرتين ، بسبب ما اجتمع بها من جاليات المدن التي استولى عليها صلاح الدين ، ووصول حملة صليبية ضخمة إليها وقتذاك .

ومن صور نجحت المقاومة ضد صلاح الدين ، فغتها سارده ورسل إلى أوروبا تستنصر ملوكها لتجبر الحملة المروفة باسم الحملة الصليبية الثالثة ، ومنها تحركت القوات الصليبية نحو عكا ، لمعاصرتها املا في استعادتها من صلاح الدين . وغدت عكا منذ اواسط ١١٨٩ م ميدانا لمعارك حربية

أرسوف مباشرة الى فكرة المفاوضات والمصالحة ، ليصل الى تسوية مرضية لهما تكفل بقاء دولة صليبية أوروبية بالشرق الى جانب دولة صلاح الدين . وانتهت هذه المفاوضات بمقتضى صلح الرملة ( سبتمبر سنة ١١٩٢ ) الذى اتفق فيه الطرفان على أن يظل المدن الساحلية بين عكا وإياد بيد الصليبيين ، وأن يؤخذ ثلثات الحاج المسيح بزيادة بيت المقدس على شرط قدمها من عكا .

وتضح من هذا الصلح أن صلاح الدين حقق في عهده أقصى ما تطاعت اليه أجيال المسلمين بالشرق الأوسط ، من حل مشاكل المسلمين بفلسطين ، وأحى صلاح الدين وهو في أوجه هذا أن مهنته تعففت فعلا ، غير أن الحروب والجهود انتهى تجمعا من أجل ذلك أنهكت صحته فأصابه المرض ، وتولى بنسحق ( مارس ١١٩٣ ) ، ولما بلغ من العمر سبعمائة وخمسين سنة ، وقبره على مسافة مسيرة من قبر آستانه لورد الدين بن زكى ، ومن الجامع الأموى .

والباحث لا يستطيع إلا أن يشعر بالفرح الكبير الذى أحدثته وفاة صلاح الدين ، وما يزيد في هذا الفسحور أن الدولة الأيوبية المتحدة سرى عليها بعد صلاح الدين ما سرى على أمثالها من العصور الوسطى من تسميم بين أفراد البيت الأيوبي ، إذ قسم صلاح الدين دولته في وصيته بين أولاده وأخوته وأولادهم . غير أنه لم تعض سبع سنوات على وفاة صلاح الدين حتى طوى أخوه

نصف دائرية تحريا ومركزها حامية أيوبية تحاسرها قوات صليبية ، وعنده القنوت الصليبية حاجها صلاح الدين تبعد طيها حصارها للحامية الأيوبية المركزية . ثم لم تلبث الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة أن وصلت كذلك الى عكا بقيادة ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، وانضم السفن والجنود الانجليزية والفرنسية الى القوات الصليبية المحاصرة ، وشددت على عكا الحصار من الجبهى البر والبحر حتى سقطت في يدها بعد حصار طويل حتى أواسط ١١٩١ ( يولية ) أى مدة سنتين مبروتين مغلغلتهما حوادث بطولية حقبية وللصية ، وكثير منها يدور حول صلاح الدين ودلشاده قلب الأسد .

ثم رحل فيليب أغسطس ملك فرنسا عن الشرق الى بلاده بعد سقوط عكا ، على حينبقى ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا سقة كاملة بالفسام ، وجعل من عكا قاعدة لاستمادة مملكة بيت المقدس ، وفي هذه المدة استطاع ريتشارد أن ينتصر على صلاح الدين مرة واحدة في أرسوف ، وأن يستولى على يافا ، غير أنه أخفق في جميع محاولاته للزحف ضد بيت المقدس . ولم تنجح أعماله الحربية كلها شيئا من مجرى الحوادث ، لأن ما أحدثه صلاح الدين بالصليبيين تطلب مجهودا لا تستطيع حملة واحدة أو شخصا واحدا أن تمحوه في بضعة أشهر ، ومن الدليل على ذلك أن ملك إنجلترا عبد بعد اتصاره في



أوروبا والشرق أنه لا قائمة من معارضة القوى الإسلامية بالشام ، ما دامت السلطة الأيوبية قائمة بصر . وشجعت المدن التجارية الإيطالية على تنفيذ هذا المشروع ، لأن الاستيلاء الصليبي على مصر سوف يسكن لهذه المدن من امتيازات جاليات تجارية لها بالموانئ المصرية ، على غرار ما تم لها بالمدين الفلسطينية وسوف يفتح لها الطريق إلى البحر الأحمر ومراكز التجارة الشرقية . ووافق هذا التحول في النشاط الصليبي دعوة البابا الويسنت الثالث ١٢١٦ م لأعداد مشروع حملة صليبية هي المعروفة بالغامضة . ومن تنفيذ هذا المشروع سنة ١٢١٨ م بوصول أسطول صليبي كبير والغائه الحصار على دمياط . وأسرع السلطان العادل بالتقدم من شمال الشام إلى مصر لرفع هذه الحملة الصليبية ، لكنه تولى في الطريق قريبا من دمشق ، وأغضب وقاله تقسيم الدولة الأيوبية مرة أخرى بين أفراد البيت الأيوبي ، وكانت مصر من نصيب ابنه محمد المنقب بالملك الكامل ، تولع عليه عبء الدفاع عن البلاد المصرية .

واستطاع الصليبيون الاستيلاء على دمياط ، ومع هذا أظهر السلطان الكامل روح المسألة التي صار عليها الأيوبيون عموما نحو الصليبيين منذ أوائل أيام ابنه العادل عند إلى معالجة المشكلة الصليبية الرابضة بسخنها وجنودها في دمياط ، يعرض للمفاوضة والمصالحة مع المحافظة على كرامة الطرفين . وحلصة ما عرض السلطان الكامل أن

الأكبر وهو العادل هذه الموصية ، وملا هو الفراغ الذي أحدثته وفاة صلاح الدين ، وذلك بعد أن أخضع لسلطانه جميع أبناء البيت الأيوبي ، ووجد معظم أملاكهم تحت يده . وأعلن العادل موقفه هذا سنة ١٢٠٠ ، حين خطي الخطوة النهائية في ميله لتوحيد الدولة الأيوبية مرة أخرى ، بطلب مفيد صبي من أحفاد صلاح الدين بالقاهرة ، لم قال في مجلس من أمراء الدولة : أنه قبض على أن أكون أنا بك صبي ، مع الشيطونة والتقدم ، والملك لس هو بالأثر ، وأنا هو لمن لحبي .... والرؤى أن يمضي هذا الصبي إلى الكتاب وأقيم له من يؤدبه ويعلمه ، فإذا أهل وبلغ أشده نظرت في أمره وقست بمصالحته . وامتد عهد العادل في الدولة الأيوبية ثماني عشرة سنة ( ١٢٠٠ - ١٢١٨ ) وظلت السلطة بيد أولاده دون غيرهم من أبناء البيت الأيوبي ، ولذا كان تاديخ اندولة الأيوبية بعد صلاح الدين ، ثم بعد العادل كذلك ، سلسلة من المنازعات الداخلية حتى اتصت الدولة الأيوبية المتحدة سنة ١٢٥٠ . وتأثرت هذه المنازعات الداخلية سياسة الدولة الأيوبية نحو الصليبيين ، فلم يستطع سلاطينها القيام بمجهود مشابه لما قام به صلاح الدين ، بل عسوا إلى ميساة المسألة رغبة في تجنب البلاد زيلات الحروب . وفي السنوات تحول التسلط الصليبي نحو مشروع الاستيلاء على مصر بالذات ، إذ اعتقدت الزعامات الصليبية في

تياهم البليدة ، لأنهم لم يصلوا الى قرارهم  
 هذا الا بعد ثمانية عشر شهرا من تفكيرهم  
 فيه . وقبالة بلدة ملخا ، وشمالا المنكر  
 الأيوبي عند بحر أشموم طناح ، توقفت  
 القوات الصليبية في البر والبحر استعدادا  
 لمعركة الأيوبيين الى الوداء ، وارتأى من  
 الطريق الى القاهرة ، عبر أن السلطان الكامل  
 أمر بفتح كثير من السدود والجسور ، فمكنت  
 مساحات شاسعة من الأراضي ، ولم يلبث  
 الصليبيون أن وجدوا المياه تمزقهم عن التقدم  
 الى الأحام ، وتمزحلهم عن قاعدتهم العسكرية  
 بدمياط ، ما عدا ضيقا ضيقا ببلدة أشموم  
 طناح . هكذا انصرف الصليبيون ، وذهبت  
 آمالهم في الزحف جنوبا نحو القاهرة ، ولم  
 يبق لهم سجنس الا أن يشقوا لأنفسهم طريقا  
 شمالا عن قاعدتهم في دمياط ، وأهبطوا  
 فرصة المسيحية الانسحاب في حني الظلاء  
 فعال الماء والمنكر بينهم وبين منصودهم  
 ولحقهم هزيمة فادحة . عند ذلك - وليس  
 قبله - رضى الصليبيون بالهجرة التام من  
 الأراضي المصرية ، في غير مبد أو شرط ،  
 أواخر سنة ١٢٢١ .

على أن فكره معالجة المشكلة الصليبية  
 بالمفاوضة والمصالحة لقت هوى في نفس  
 الأمير المنصور الأيوبي فخر بك الثاني ، وفارت  
 بينه وبين السلطان الكامل مراسلات وصلت  
 التي مرحلة الاتفاق على معاهدة سلمة بين  
 الطرفين ، وجاء الأمير المنصور فخر بك الثاني  
 فلسطين على رأس قسمة ومربة من جسده

يجلو الصليبيون عن دمياط والنواحي  
 الثميرة بجلاء تماما ، ولا يقدم السلطان  
 للصليبيين مقابل ذلك مدينة بيت المقدس ،  
 ومعظم المدن الفلسطينية التي أخذها منهم  
 صلاح الدين ، أي مملكة بيت المقدس  
 الصليبية وبلاطها كلها تقريبا ، ما عدا بلدتين  
 صغيرتين واقعيتين عند الأطراف المصرية  
 الفلسطينية ، وهما الكرك والقبوت لما لهما  
 من أهمية استراتيجية ، غير أن الصليبيين  
 رفضوا هذا العرض السخي ، ولو كان  
 لهم ضم ديتا فقط لما ترددوا في قبوله ، بعد  
 أن وضع لهم أن السلطان الكامل ينزل لهم  
 عن مدينة بيت المقدس وغيرها من المدن  
 المتعلقة بأصول الديانة المسيحية . أما  
 الأسباب التي دعت الى رفض عرض السلطان  
 فهي أن المنصور الأيوبي في المنكر الصليبي  
 واسمه بلاجدوس رأى أن المفاوضة لا تكون  
 الا بعد هزيمة الأيوبيين ، وأن المصالحة  
 لا تكون الا بعد دفع هدية يسلمها  
 الصليبيون قبل أن يتحركوا من دمياط . ثم  
 أن المدن الإيطالية التي اشتركت في هذه  
 العملية ببنودها وأموالها وأطباعها من عابها  
 أن تكون هناك شروط معانها الجلاء عن  
 دمياط ، وهي ولقد تلك الشر التجاري الهام  
 الذي تستطيع المصالح التجارية الإيطالية أن  
 تنفذ منه الى جوف البلاد المصرية .

وفي صيف سنة ١٢٢١ م ، والنيل على  
 وشك الانحلال ، جاء المضاف المنصور ، تحرك  
 الصليبيون من دمياط ، حسبما انعقدت عليه

تجمعت وقتذاك فوق أطرافه غرب آسيا حيث الدولة الخوارزمية ، ولم تلبث أن محت هذه الدولة محو تاما جعل جثرتها فلولاً ومناسر مبعثرة تحاول الدخول في خدمة الرابعين في استخدامها ، كما جعل الشرق الأوسط كله عريضة لما سوف يقوم به انمول من زحفه آجل أو عاجل طوامة القنصيات حركتهم التوسعية المترامية ، وأدخل الملك الصالح أيوب بن الكامل من **الفرات** الخوارزمية فثبات عدتها مظرة آلاف لارس ، ووصلت هذه الفئات الى القسام ، فهاجمت ضواحي دمشق العادية ، كما هاجمت مدينة بيت المقدس الصليبية واحتلتها باسم الملك الصالح سنة ١٢٤٤ ، وهكذا اختل التوازن السياسي احتلالا لقلن الدوائر الصليبية في أوروبا والشرق الأوسط من جديد .

ومن باب الأمل في تصحيح التوازن السياسي تمحيطا صليبا حاسما وصلت الى التواطع المصرية حملة ملبية لرئيسه نقادة لويس التاسع ملك فرنسا وألفت هذه الحملة مراسيها كما فعلت الحملة الصليبية السابقة خارج دمياط ، وكانها أراد الملك لويس التاسع بذلك أن يبيد بهذه البداية من بجارب الصلبة السابقة ، على حين أنه وقع في معصم أخطائها الى درجة جعله الكتاب مضمرا هنا الى استعمال تعبيرات متشابهة لوصف حوادث متشابهة في الحملتين .

وكان الملك الصالح بن الكامل مريضا ، لكنه لم يستسلم للعرض بل عكف على تجهيز

سنة ١٢٢٩ ، لتوقيع هذه المعاهدة الثريمة في تاريخ العصور الوسطى . وعصت هذه المعاهدة على أن يلم السلطان الكامل مدينة بيت المقدس للإمبراطور فردريك باعتبارها ملك الدولة الصليبية ، وأن يسلم له كذلك بيت لحم والبصرة وخرق الحج من عكا الى بيت المقدس ، على أن تظل منطقة المسجدة الزاقي للسلام من بعض المدن الفلسطينية بيد الأيوبيين . ولعمد الإمبراطور فردريك الثاني مقابل ذلك بأن يصل على منح أية حملة صليبية من أوروبا ، وأن يوفد الأمداد الأوربية عن الإمارات الصليبية بالطاكية وطرابلس ، وأن يكون حليفا للسلطان الكامل . غير أن هذه المعاهدة الكلامية المهرورية نقت نفدا مرورا في الأوساط المسحية الأوربية ، فضلا عن الأوساط الإسلامية في مصر والشام ، مع العلم بأنها ضمنت السلام بين المسلمين والصليبيين لهذه سنتين . ومن الدليل على ذلك أن حركة أو حملة صليبية كبرى لم تحدث رغم ما انتشر من أخبار النزاع والتخاصم فيما بين أبناء البيت الأيوبي بمصر والشام ، وبرغم وفاة السلطان الكامل سنة ١٢٣٨ ، واضطراب أمن الدولة الأيوبية مدة الملك المنصور السائل الثاني بن الكامل ، وهو الذي خلفه أخوه الصالح بن الكامل سنة ١٢٤٠ م .

غير أن خلوا الحق السياسي من سحب صليبية كبرى لم يكن معناه سلام عام دائم في الشرق الأوسط ، وذلك أن غيوما مغولية

قواته في البير والنهر ، فجمع جيوشه أولا عند بلدة أشموم طناح جنوبي البحر الصغير ، وكان مغفلها من الكبارك الأتراك ، وجمع مركز قيادته في بلدة المنصورة التي غدت مشهورة باتعمار أبيه الكامل على الصليبيين في الحملة السابقة ، وأكثر الملك الصالح في تعيين دمياط بالأصلحة والإفادات استمدادها مما عساه يقع عليها من هجوم أو حصار يتطلب دفاعا قويا ، وألف القائد فخر الدين بن حمويه بجسر من الجيش المزول على اثر العربي قبالة دمياط نفسها على البر الآخر . طير أن القائد فخر الدين كان مشغولا بفكرة احتلال ولاة الملك الصالح ، وضرورة وجوده هو غربيا من المعسكر الأيوبي ليستترك في الحركات والمناورات التي تنفذ أخبار الوفاة ، والسحب بسكره الى أشموم طناح ، وبانت مدينة دمياط محرومة من الجيش المكلف بحراستها ، ولم تلبث أن وحل عنها أهلها جافلين . ولذا همل الصليبيون دمياط دون حاجة الى قتال أو حصار ، واستولوا على ما فيها تقنية باردة .

ثم انتصر الرأي الصليبي على الرصاص جنوبا نحو المنصورة ، وخرحت الجيوش العديلية من دساح في نوفمبر ١٢٤٩ . وبينما الصليبيون في أول زحفهم جنوبا توفي الملك الصالح ، خراى الملك لويس التاسع أن التقارير في منيتها كتبت للصليبيين نصرا مريعا ثم تنقصت الأخبار عن قيام زوجة الملك الصالح واسمها شجر الدر على شؤون

الدولة وشما يصلح ولي العهد الى مصر ، فاعلم أن الصليبيون الى سرعة النصر الذي شاعته لهم التقارير . وأخيرا استطاع الملك الفرنسي أن يصل بالجيش الصليبي الرئيسي الى بلدة الهرموز الواقعة على البحر الصغير ، وأصبح هذا البحر فاسلا بين المعسكر الأيوبي المفتد من أشموم طناح الى قرية جديدة وبلدة المنصورة وبين المعسكر الصليبي المركز . البرموز وتباوش الجيشان من هذين الموقعين مدة شهرين ونصف شهر - أي حتى أواخر يناير سنة ١٢٥٠ . وكان الملك الفرنسي في هذه الأثناء مشغولا بإقامة جسر من الخشب في عرض البحر الصغير ليمر منه الى المعسكر المصري الأيوبي ، عهد أن هذا المشروع غدا مستحيل التنفيذ ، ووقعه العمل فيه بعد أن جاء أحد الخوذة الى المعسكر الصليبي وأرشد الملك الى مغاضة لعبور جبل متعا الى مواقع الجيش الأيوبي . وغرت الطلائع الصاعدة ذات يوم قبل البحر بقيادة أخي الملك ، وتقدمت حتى حصدت فجأة على المعسكر الأيوبي في جديدة . وانبثك الطرفان اشتباكا عاما عات القائد فخر الدين قتلا في أوائله وتمهلت الجنود الأيوبية الى المعسكر الرئيسي بالمنصورة ، ووراءها الطلائع الصليبية . فعلن أنو الملك الفرنسي أن النصر الصليبي السريع اضعى فاب قوسين أو أدنى . غير أنه لم يلبث أن رأى منه في النصر السريع يخيب كل الغيبة ، إذ دخل بلدة المنصورة فوجدتها خالية من المقاومة ، ثم لم يكده يقرب

من القصر الملكي حتى انحلت بعبثه حركة تطويقية متفق عليها . وبذا انقلب النصر الصليبي عند جديفة الى هزيمة طامة عند المنصورة ، حيث بلغ عدد قتلى الصليبيين ما يقرب من ألف وخمسمائة في بضع ساعات ، وهو معظم عدد الطلائع الصليبية .

أما الملك الفرنسي فمهر البحر الصغير ، وتقدم استمدادا ٥ سوف يقسم به الجيش الأيوبي من حركات هجومية . وتنتهز حتى القتال بين الفريقين ، وتبادل الأيوبيون والصليبيون النصر والهزيمة ٥ وظل المعسكر الصليبي في مواضعه خارج المنصورة ، لملا في أن يدب النزاع في المعسكر الأيوبي ٥ السلطة شجر الدر وولي العهد نورائشاه هند وصوله الى مصر ، لكن لانا لم يقع ٥ الصورة أو في الرملة التي تطامن اليها الملك الفرنسي ، بل وصل الملك الجديدي الى المنصورة وسلم زمام الموقف ودل على مهارة فائقة بما اتخذ من تدابير حريصة مشنوعة . وكان أول هذه التدابير أن أمر نورائشاه باحطار أسطول من السفن الغنية ، وحملها وهي منفصلة على نفوذ الجبال الى مكان بعيد شمالي المنصورة ، حيث تم تركيبها وتفويسها في النيل واستخدامها لمنع المراكب الصليبية الواردة يائزونه من دسائس من الوصول الى معسكر الصليبيين . واستطاع هذا الأسطول أن ينهض بهذه المهمة ، وبانت الجيوش الصليبية مهتدة بالمجاعة . ثم لم تلبث المجاعة أن تعقبها الأمراض الوبائية

الغنية ، ولا سيما حمى التيفويد التي اشتعلت في المعسكر الصليبي اشتعلا ممتدا . وكذا جمع الملك الفرنسي مجلس قادة جيشه ، وقرر معهم وجوب التفتقر الى دسائس ، على أن تكون عودة المرضى والجرحي على المراكب الصليبية الباقية في النيل ، وأن تكون عودة الجبلين من حلبين اليرموك وغارسسكور ، وبدأت هذه الحركة التفتقرية في البر والبحر أوائل أبريل سنة ١٢٥٥ ، وكانت هذه البداية مؤذنة للمساكن الأيوبية أن تخرج من المنصورة لمطاردة الصليبيين وعرقلة تفتقرهم . ثم لم تلبث هذه العملية أن انقلبت من مقارعة وعرقلة الى حركة تطويقية عرقها الاحاطة بالجيوش الصليبية واجبارها على التسليم وتراحت الهزيمة المحتومة للملك الفرنسي وهو يعالج آلام المرض بالعصى وقتذاك ، ولا يكاد يستطيع الجلوس على ظهر فرسه ، ولذا رضى بالتسليم قبل قوات الأيوبي ، وجاءت طائفة من الجند الأيوبي لفصل الملك الفرنسي سجرا مكبلا في السلاسل الى المنصورة حيث سجن عدة بدار قاضيا بمرافهم بن لقمان ، وهي دار لا تزال قائمة بفارح الصرار بالمنصورة الحالية . ثم اتفق الطرفان على أن يجلس الصليبيون عن دسائس جلاء تاما ، وأن تبصر السفن الصليبية عن الشواطئ المصرية في سرعه ، وأن يتعهد الملك بدفع فدية مالية تعين مبلغها وموعده دفعها وأن يدفع كل من كبار الصليبيين فدية عن نفسه ، وكل ذلك مقابل إطلاق سراح الملك وكبار الصليبيين ، فضلا

عن عامة الأبرى الذين تم الاتفاق كذلك على  
إطلاق سراحهم بعد الوفاء بأخضر غرض من  
تسليمات العدة الملكية .

ثم كان زوال الدولة الأيوبية بعد هذه  
الحوادث التي ظهرت فيها جملة معاليت  
السلطان الصالح وشجاعة ذوجه شجر الدر  
ومهارة خلفه تورانشاه ، ذلك أن تورانشاه  
أساء الظن بماليت أبيه ، وهم أصحاب الفضل  
في دولة المنصورة ، واعتقد أنهم يعملون مع  
شجر الدر على خلعهم ، فأخذ يضيق شجر  
بمخلفاته الوصالي ، ويضيقه بجوارحه أموال أبيه  
وإخفاها عنه ، وهر مؤامرة للفتك بها وإزعاج  
الماليت . فحين أن هولاة سيقوه إلى مثل  
ما دبره لهم ، إلا قتله شر قتلة في مارسكور  
سنة ١٣٥٠ . وهكذا كانت نهاية الدولة  
الأيوبية في مصر .

وبما يتبادر للذهن هنا أن تاريخ الدولة  
الأيوبية لا يبدو أن يكون تاريخاً مكتوب  
جهة إسلامية منجدة ، واستخدام سلاح  
الدين لما نأدى له تلك العجبة المتعددة من مرة  
عسكرية هدم بها مملكة بيت المقدس الصليبية  
قريباً وهذا وذلك صحيح في جملة وتفصيلة  
ويدل عليه ما تحقق لعظم سلاطين الأيوبيين  
منذ أيام صلاح الدين إلى أيام نور الدين من  
توفقات في ميادين العرب والسلام وما بينهما  
من دبلوماسية ماهرة اشتهر بها السلطان  
العاقل صاحب الفضل في معاهدة البندقية التي  
أبعدت الحملة الصليبية المروقة بالرامة عن  
مصر ، والسلطان الكامل صاحب المعاهدة

الكاملة الصليبية التي عطلت مشروعات  
الصليبيين لمدة عشر سنين ولدينا من الوثائق  
المقولة من تحقيقات القاضي القاضي  
ما يساعد على تقدير أعداد القوات البحرية  
والبحرية التي استعان بها صلاح الدين في  
أمهاته البحرية المخلصة وتقدر القوات البحرية  
مثلاً بها لا يقل عن خمسة عشر ألف فارس من  
الأتراك والأكراد ، وثلاث مائة فارس من  
الجزيرة ، وهراب الأقاليم المصرية والشامية .  
واستلقت القوات البحرية على سفن مشرقة  
عدها خمسمائة سفينة لحماية السواحل  
المصرية والشامية ، وثلاثون لأعمال الهجوم  
البحري على موانئ الصليبيين . وتوحدت هذه  
السفن ، فكان منها الشين والغراب والطريدة  
والحرافة والسلمندية والبطة والحسانة ،  
والركوش والنفوقل وجرى الاصطلاح على  
تسمية رجال هذه السفن بأسماء رجال  
الأسطول ، كما بلغ من حدة سلاح الدس  
بشجون البحرية ما جعل لها ديواناً خاصاً سماه  
ديوان الأسطول .

واستحدثت لغات هذه القذواب البحرية  
والبحرية ، كما اختص جزء كبير من لقيات  
الدولة عسوما ، على تنظيم إقطاعي أحده  
صلاح الدين بمصر والندم محل نظام الرواتب  
والأعطية ، أسوة باللاجئة والركيين قبله  
نذا سارت الأراضي كلها إقطاعات للسلطان  
وأبناء البيت الأيوبي وأمره الدولة الأيوبية  
واجتادها . وانقسمت هذه الإقطاعات إلى  
نوعين ، وهما الإقطاعات الإدارية التي يختص

قصرى الزمير والصيف حين تصدو ملاحاة  
المصور الوسطى في البحر الأبيض المتوسط  
أقل تعرضا للأخطار .

وجلبت هذه السفن وأمتاعها من أوروبا  
إلى ميناء الاسكندرية وسائر الموانئ المصرية  
والشابة كميات كبيرة من اثراء والجسوخ  
والقطنان والحديد والأخشاب والأصباغ ،  
وذلك رقم تحرير المرسومات الباقية على  
التجار إذ يتاجروا مع مصر في المواد البحرية  
التي يمكن استعمالها في أغراض حربية .

وأغلل التجار الأوروبيون — ومعظمهم من  
البنادقة واليهاداة والجنوية هذه المرسومات ،  
لأنهم اشتروا بالمان بضائعهم هذه بضائع  
شرقية غدت الأسواق الأوروبية التي تطلبها  
بكميات متزايدة منذ عهد آخرى ، وأهمها القطن  
والقرفة وجوز الطيب والقرنفل واللبند  
والكافور والطاج والبخور والشر والبهلة  
والخزف والزمرد والسب والظرون والأفضة  
الرفيعة والمنسوجات الكتانة والعمريرة  
الحوشاء بالذهب والفضة والبسط والسكر  
والخلوى .

وأنتجت مصر جزءا كبيرا من هذه السلع  
المعدنية والصناعية فأخرجت مناجمها الزمرد  
من قرب قوصي ، والنسب من قرب أسوان  
والواحات والنظرون من وادي القطرود  
ومن بعض الغنسانة ، كما أخرجت مراكزها  
الصناعية في تيس وديسان والاسكندرية  
ودقيق أنواع المنسوجات ، فضلا عن  
المعاصر التي أنتجت كميات وغيرة من المعكر  
بالوجه القبلى .

بها السلطان وأبناء البيت الأيوبي وكبار  
الأمراء والموقعين وكل من هذه فتن عاد مع  
وحده اقلية إدارية ، ثم الاقناعات الحرية  
التي يستحقها السلطان مقابل ما يؤديه التسلح  
للدولة من خدمات حربية باقتناء عدد من  
الفرسان وتقديمهم للجيش العامل بين العرب  
ولم تكن هذه الاقناعات يوحيا وراثية بل  
للسا طل الاقناعات في يد واحدة مدى الحياة ،  
وكفى دليلا على ذلك أن الوضائف الكبرى  
كانت مربوطة إلى الاقناعات مبنية لا تتغير ،  
لذا انتقل صاحب وظيفة ما إلى وظيفة أعلى  
انتقل بذلك إلى اقناعات جديدة وهكذا .

وبالإضافة إلى التنظيم الاقناعات وموارده  
انني استمدت الدولة منها جزءا كبيرا من  
شققها ، استمدت الدولة كذلك على عدة منابع  
مالية أخرى ، وأهمها الخراج المتحصل من  
الأراضي المزروعة ، وخراج المعادن مثل الزمرد  
والسب والنظرون ، وأموال الزكاة التي كانت  
صلاح الدين من أجلها دبرانا خاصا ، وأموال  
الطمس المفروض على التجار الأجنبية الواردة  
من أوروبا إلى دسباط والاسكندرية ، وأموال  
المقوس المرسومة على البضائع التي يجلبها  
التجار الكارمية في البحر الأحمر إلى عيذاب  
والعصب والنظور والسويس .

ونشطت التجارة في ذلك العصر الأيوبي  
مقاطعا على ذلك أعداد السفن التجارية  
الأوروبية الراسية في ميناء الاسكندرية وحدها  
بلغت في سنة ١٢٨٨ م سبعة وثلاثين  
سفينة ولابد أن هذه الأعداد زادت كثيرا في

هذه الاحمال في الطريق بسبب اعياء الابل  
 الحاملة لها بقيت مطروحة لا حارس لها حتى  
 ينقلها صاحبها مصنوعة من الآفات والسرقات ،  
 تنوبها بأحوال الأمن والرخاء الاقتصادي في  
 مصر زمن السلطان صلاح الدين غير أن هذه  
 العبارات الوضعية الدافعة على مركز مصر في  
 تجارة الشرق زمن الأيوبيين لم تطل من قد  
 مرير لأعمال رجال الديوان ( الجسر ) في  
 مختلف الحواشي والمدن ، لأنهم لم يميزوا أحياء  
 بين الحاج والتاجر ، ليمحصوا متاع هذا  
 وذات بحثا عن المال ، ويفرضوا الزكاة على  
 ما يجدونه ، سواء حال عليها الحول أو لم  
 يحل ، مع العلم بأن صلاح الدين أبطل  
 المكوس على التجار ، وهي سبحة دلائل  
 ونصف دينار من الدلائل المصرية يلزمها  
 الحاج الواحد من نفسه بحداد أو جسد ،  
 برسم ميرة مكة والمدينة .

وكان الغاء هذا المكس الثقيل جزءا من  
 حيلة سياسية ضخمة استعمل صلاح الدين بها  
 عهده من باب الدعاية الطيبة لدولته المسنية  
 وللتخفيف عن كواهل الناس . ولذا بلغت حداد  
 المكوس التي ألغاه صلاح الدين مرة واحدة  
 في مرسوم واحد خمسين مكمسا ، قيمتها مائة  
 ألف دينار سنويا ، أي مليون دينار في عشر  
 سنوات ، ذلك فضلا عن كميات هائلة من  
 التلال التي سامح بها ، وأبطل تحصيلها من  
 المستحقين عليهم . ومن هذه المكوس ما كان  
 معروفًا باسم مكس البهار ، ومكس البضائع  
 والقوافل ، ورسم الخشب الطويل ، ورسم

على أن الظاهرة الكبرى التي استقامت  
 لحصر في هذا الميدان التجاري هي كونها  
 المستودع الدولي انعام لتجارة مناجر الغرب  
 والشرق ، فكما تكندت البضائع الأوروبية في  
 الموانئ المصرية الشمالية ، امتلأت موانئها  
 الجنوبية على نهر النيل والبحر الأحمر بحركة  
 تجارية فيها من كميات البضائع الشرقية ما يملأ  
 الطريق النهرى من القاهرة الى المنيا ومن المنيا  
 الى أسيوط ولوص ، ويغذاب ، أشبه بئى ،  
 بطريق الاسرطورية البريطانية الى الصد في  
 القرن الثامن عشر الميلادى . ووصف ابن جبير  
 هذا الطريق الدولي العظيم **بمن** حاج ناء  
 بفشون الحج والتفوي عن شئون المشاجر  
 والأموال وللكوس ، إذ تنقل بين مراحل حتى  
 يغذاب ، فوصف فوص مثلا بأنها كانت مدينة  
 حافلة الأسواق منحة المرافق لكثرة الصادر  
 والوارد إليها من التجار المصريين والمغاربة  
 والبنين والهنديين ولتجار أرض الحبشة ،  
 كما وصف غذاب بأنها كانت من أحل مراسي  
 الدلي في العصور الوسطى ، سبب أن مراكب  
 الهند كانت تهبط إليها وتقلع منها ، وهذا  
 فضلا عن مراكب الحجاج الى جدة ، وهي  
 التي كانت تسمى الجلاب ، وواحدتها جلبة .  
 وشهد ابن جبير من فوافل البضائع في هذا  
 الطريق ما أعجزه عن الإحصاء ، ولا سيما  
 اقوافل العذابة لفحولة بطن الهند الواسلة  
 الى اليمن ، ثم من اليمن الى غذاب ، وخيل  
 اليه أن أحمال القمل والقرقة في هذه القوافل  
 توازي التراب في كثرة كمياتها ، فإذا تعطلت



التحتيى ومسمرة الكتان ، ومربعة العسل ، وغير ذلك من المكوس الثيرة للسخط . أما معنى هذه السياسة القبرية الحكيمة فهو أن المجتمع الأيوبي المصرى تمتع بكثير من الرخاء الاقتصادى سواء من ناحية هذه الاعفاءات العامة من المكوس ، أو من ناحية الجسركة التجارية النافذة فى البحر والبحر ، ومن ناحية النهضة الصناعية التى تطلبها حركة التجارة الداخلية والخارجية ، بالإضافة الى ما تطلبه العيوش البرية والبحرية من أنواع الملابس والأسلحة والسكنى والأطعمة .

ويبدو أن هذا الرخاء الاقتصادى فلسف صفة للمجتمع المصرى الأيوبي حتى بعد سلاح الدين بدليل المعاهدات التجارية التى عقدها حلفاؤه من السلطان العادل فصاعدا مع الجمهوريات الإيطالية والامبراطورية ، وبدليل الصدام ثورات الصلاحيين فى مصر الأيوبي كله ، وهذا وإن كان مضللا عن حقيقة ثلث هو استطاعة القوات المصرية الأيوبية أن تنقلب على حطتين صليبيتين كبيرتين ، وهما الحملة المعروفة بالقاسية بقيادة حنا برت ، والعملة المعروفة بالمصامة بقيادة لوس التامع ملك فرنسا .

وللدولة الأيوبية آثار روحية عميقة فى الحضارة الإسلامية فى مصر والشام ، نتيجة انتقال الحكم من الصليبيين النصارى الى الأيوبيين المسلمين ، وأول ذلك ما عهد اليه صلاح الدين وحلفاؤه من تعضيل معاهد الدعوة النصارى ومذابها ، وأسس المدارس

النسبة بالقاهرة والاسكندرية ودمشق وغيرها من المدن الكبرى . وأهم هذه المدارس التى رادفت لواحدها منها الكلية الجامعية فى العصر الحاضر ، المدرسة الناصرية الصلاحية التى بناها السلطان الناصر صلاح الدين بجوار مسجد الامام الشافعى لتدريس فقه الشافعية خاصة . وهذه المدرسة زادها ابن جبير قبل أن يكتمل بناؤها الفصح الأثين ، ووصفها بأنها لم يمر بالشرق الأوسط مثلاً من حيث المساحة والبهاء ، حتى أنه لبخل لمن يطوف عليها بأنها بلد مستغل بذاته ، وبازالها العوام والمساكين للطلاب ، الى غير ذلك من المرائى . ولقى ابن جبير شيخ هذه المدرسة الناصرية الصلاحية ، وهو نجم الدين الفيضاني ، ولم يلق من كبار رجال مصر غيره ، ولتته صادق أو عمل على لقاء صلاح الدين ، أو أخيه العادل ، أو بهاء الدين قراقوش ، أو القاضي الفاضل ، وهم أصحاب الفضل الأول فى اقامة الدولة الأيوبية .

على أن هذه المدرسة الناصرية الصلاحية لم تكن أولى المدارس التى أنشأها صلاح الدين فى مصر ، كما أن فقه الشافعية الذى اتخذه مذهباً رسمياً للدولة الأيوبية ، وخصص هذه المدرسة لتدريسه ، لم يكن كذلك المنصب الصنى الوعيد الذى حظى بمعاية . والواقع أن أول مدرسة أنشأها صلاح الدين بمصر هى مدرسة أسسها كذلك المدرسة الناصرية ، بجوار جامع عمرو بن العاص ، ثم لم تلبث هذه المدرسة أن اشتهرت باسم مدرسة ابن زين التجار ، نسبة الى أحد أعيان الشافعية

هذا الأمير . ومدرسة ابن الأرسوف ، نسبة  
إلى التاجر عفيف الدين عبد الله بن الأرسوف .  
واشتهر بعد هذه المدارس الجديدة ❁

ازدياد ونمو من الأيوبيين ، كما تطور التعليم  
فيها تطوراً ملحوظاً ، فظهرت المدارس  
المخصصة لتدريس علم الحديث ونموذجها  
المعروف هو المدرسة الكاتبة التي أنشأها  
السلطان الكامل بن العادل ، وكانت الأولى  
من نوعها في مصر ، وتم بنائها ❁ هذا  
النحصر سوى المدرسة العادلية بدمشق  
نسبة إلى السلطان العادل نور الدين محمود  
ابن ركني ولهاجة أخرى من ذلك النوع أن  
بعض المدارس أخذت تسمح بتدريس فقه  
الحنابلة ، بحيث صارت ❁ المدارس شاملة  
المذاهب الأربعة ونموذجها المعروف المدرسة  
الصالحية التي أسسها السلطان الصالح أيوب  
أواخر أيام الدولة الأيوبية .

ولم تنحصر هذه النهضة الثقافية الأيوبية  
على مصر ، بل تمددت إلى الشام ، بحيث بنيت  
العادلية الكبرى ،

وفي هذه المدارس جرى تدريس عدة  
علوم مساعدة إلى جانب الفقه والحديث  
والتفسير والتجريدات والمنطق والمصائب  
فاستعملت برامجها على التفسير والبلاغة  
والهندسة وعلم الهيئة والموسيقى ، على  
مستويات مختلفة بحسب الحاجة إليها ،

ولمنا في هذه النهضة السنية اجتذبت  
الدولة الأيوبية جماعات من الفقهاء الصوفية  
من مختلف بلاد الشرق الأوسط ، وجعل  
السلطان صلاح الدين من أولئك المتصوفة

الذي بدأ التدريس بها ، وصارت تعرف بعد  
ذلك باسم المدرسة الترفيفية نسبة إلى الشرف  
قاضي العسكر الذي درس بها كذلك .  
وبجوار جامع عمرو بن العاص كذلك قامت  
المدرسة الفقهية التي أنشأها صلاح الدين  
للتقهاء المالكية ، وعرفت باسمها هذا لأن  
القمح الذي جاء من أوقافها بالقبور كان  
يوزع مباشرة على مدرسيها وطلبتها وأنشأ  
صلاح الدين كذلك المدرسة السبغية  
لمذهب الحنفية ، واشتهرت هذه المدرسة  
باسمها هذا من أجل أنها طُحلت على سوق  
السبغيين بالقاهرة وتذلل ،

واضدت ❁ القوى الخبيرة بالحصانة  
المعمورة إلى أبناء البيت الأيوبي وسماء الدولة  
الأيوبية وكبار موظفيها ونسائها فأنت الملك  
العادل محمد آخر صلاح الدين المدرسة  
العادلية ، وأقام أخوه الآخر تقي الدين عمر  
المدرسة المعروفة بشارع الغز أو المدرسة  
الشمسية نسبة إلى الأمير تقي الدين نفسه ، كما  
أنشأ هذا الأمير مدرستين بالقاهرة بعد أن  
صارت بلاد القبر جزءاً من إقطاعه . وأنشأ  
القاضي الفاضل وزير السلطان صلاح الدين  
المدرسة الفاضلية للشافعية والمالكية ، وهي  
المدرسة التي احتوت على مكتبة بلغت كثرتها  
فيما قيل مائة ألف مجلد في مختلف العلوم .  
ومن هذه المدارس كذلك المدرسة الأركسية  
انحفية نسبة إلى مؤسسها أركش أحد  
أمراء السلطان صلاح الدين ، والمدرسة  
العاشرية نسبة إلى البت عاشره زوجة

سكونه وخشوع . وعند وصول هذا المركب الى جامع الحاكم ، يدخل الصوفية مقصورة اسمها وتذرك مقصورة البسطة » اشارة الى البسطة المكتوبة في صدرها بحروف ضخمة ، فيصلى شيخ انشيوخ ركني تحية المسجد ، ثم يجلس الصوفية ، وتوزع عليهم أجزاء الرتبة للقراءة قبل الأذان والخطبة ، ثم اذا قضيت الصلاة قام قارئ من قراء الضائقة ، ورث بطسح آيات من القرآن ودعا للسلطان صلاح الدين ولسائر المسلمين ، وكان ذلك الدعاء بشاية اشاره لاستعداد المركب للعودة الى الخانقاه ، حيث يكون الناس في انتظارهم للشرك بهم .

وبالإضافة الى هذه الخانقاه والمدارس التي غيرت ملامح المجتمع المصري وطوقته زمن الأيوبيين اختط صلاح الدين القلعة بالقاهرة وشرع في تسوير القاهرة ومصر بسور واحد من الحجارة ، الرجوع أن صلاح الدين بدأ في هذين المفسرودعين الكبيرين ■ وقت واحد ، أفراد من بناء القلعة أن يجعل لنونه وحكومته وجيشه سكنا جديدا ، لا صلة له بالقاهرة الفاطمية وتصورها وذكرياتها ، كما أراد بناء السور أن يجعل من القاهرة ومصر وحدة حربية واحدة ، بحيث لا يحتاج كل منهما الى حربية خاصة من التجند . وتعتبر القلعة من الناحية العسكرية أعظم ما يده صلاح الدين من منشآت ، ومن المعروف انه توفي قبل أن يكتمل بناؤه ، وأن خلفاء من السلطان العادل فصاعدا اختلفوا

دعاة للمذهب السني ، وخصص لهم دورا تسمى الواحدة منها الخانقاه وهي كلمة فارسية معناها بيت العبادة ، كما شجع كثيرا من المتصوفة المخلصين على سكنى الربط والروايا ليكونوا هداة ووعاظا منجوتين بين الناس . وأولى خانقاه أيوية هي الخانقاه الصلاحية وأصلها دار فاطمية كبيرة اسمها مسجد السعداء بجوار دار الوزارة ، واختار صلاح الدين هذه الدار عمدا لهما يصدر لتكون للفقراء الصوفية ، وجعل لها رئيسا منهم ، وثقف علما بمعدة جهات ، ورب لسكانها طعاما يوميا ، كما بنى بجانيها صنادقا خاصا . واتخذ رئيس الصوفية مكان هذه الخانقاه شيخ الشيوخ ، وترثي هذه الوظيفة أولاد ابن حمويه الجويني مع ما كان لهم من الدولة الأيوبية كلها من الوزارة والامارة وتدير الدولة وقبادة الجيوش وتقدمه الساكر ، على قول المقرئى ، والمهرهم فخر الدين يوسف الذى قتله الصليبيون ■ وقعة جديدة قرب المتصورة .

وأضحى لهذه الخانقاه الصلاحية صيت ديني ذائع ، وصار اسمها رمز الصوفية ، وغدا المتاد في كل يوم جمعة أن يأتي الناس من مختلف البلاد الى القاهرة ليعهدوا صوفيتها ، وهم متوجسون في دوكهم الى صلاة الجمعة يجامع انعامك الفاطمي ، دون غيره من الجوامع ، ويبدأ هذا المركب بخروج شيخ الشيوخ من الخانقاه ، وبين يديه خدام الرتبة الشريفة وهي محبولة على رأس أكبر الخدام ، والصوفية سائرون وراءهم في

اليها اخلافت انتائية ومدعية كثيرة ، فبنى  
 العادل الثلاثة الأبراج الكبرى الكائنة  
 بالجباب القبلى ، كما أتم بناء اليرجين  
 الكبيرين الواقعين في الركن الشمالى الشرقى  
 ثم جدد الكامل فبنى الابواب والقصور  
 السبع لمناخية وباب السلم المؤدى اليهسبا ،  
 والاصطبلات وقاعة المساجد الوزير ، وأبراج  
 حمام الزاجل اتى غدت مركز البريد بين مصر  
 وسائر بلاد الدولة الأيوبية من أسوان الى  
 حلب ، وخزانة الكتب التى ضمت مكتبة  
 القاضى الفاضل ، وغزل الكامل الى القلعة  
 دواوين الادارة والحكم ، وتحويل هو من دار  
 الوزارة الناطقية التى سكنها صلاح الدين  
 وأخوه العادل بسده الى أحمد القصور  
 السلطانية الجديدة ، ثم بنى السلطان الصالح  
 أيوب بن الكامل القاعة الصالحية التى اهدت  
 لخصمها لتكون مسكنا سلطانا يبعدها عن  
 سائر المباني الحكومية . وهكذا صارت القلعة  
 مقر الحكومة والبلاط والجيش في مصر ،  
 منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادى ، غير  
 أن هذه المباني الأهلية لم يبق منها سوى  
 اسماء أو موزعها ، وحلت محلها مباني جديدة  
 العصر المملوكى والمصور التالية .

أما أهمية بناء القلعة والسور هى أولا :  
 أن تركيز الجهاز الحكومى والإدارى والجيش  
 في القلعة جعل القاهرة تسمى فوا جديدا من  
 ناحيتها الجنوبية ، حتى تم الاتصال الفعلى  
 بينها وبين القباط ، كما أن امتداد السور  
 الجديد الى التبل من ناحيتها الشمالية جعل  
 من القيسر أن تنمو القاهرة كذلك في هذا

الاتجاه . ولهذا وذاك امتلأت العاصمة  
 الأيوبية بحركة بنائية واسعة ، وشهد الرحالة  
 عبد الطيف البندادى الذى زار القاهرة  
 أواخر عهد صلاح الدين ، وتل بها مدة غير  
 قصيرة ، ما نجم عن هذه الحركة البنائية من  
 دور سكنية عالية البناء ، وحمامات عامة  
 وحنية وأسواق مستوفى .

واتصل بهذا الطيف البندادى في أثناء  
 رحلته هذه بأعظم رجال الدولة الأيوبية أمثال  
 الوزير القاضى الفاضل ، والكاتب المؤرخ  
 عماد الدين الأصمغالى ، والادارى الشهير بهاء  
 الدين قراوش ، وكثير غيرهم ممن أسهموا  
 في خلق حركة عظيمة أدبية كبيرة ، وشجعت  
 الدولة الأيوبية بدورها الحركة العلمية  
 تشجيا واضحا منذ أيام صلاح الدين ، ولذا  
 فمن حق هذه الدولة وسلاطينها أن يهتم هذا  
 التلخيص الحضارى للأدب والعلوم بالاسم  
 لأسماء العلماء والأدباء ورجال السياسة الذين  
 أنجبتهم هذه الدولة ، وهم بالإضافة الى  
 المتقدمة أسماؤهم ، العالم الزاهد نجم الدين  
 الحنوشانى شيخ المدرسة الناصرية ، والأستاذ  
 ابن مثنى فاطر الدواوين ، وموسى بن ميمون  
 الطبيب ، وشيخ الشيوخ صدر الدين بن  
 حبيب شيخ الطائفة الصلاحية سعيد  
 المصعد ، وبهاء الدين بن شمس الدين المؤرخ  
 وزميله شمس الدين عبد الرحمن المعروف  
 بابى شامة والشاعر العظيم بهاء الدين زهير ،  
 والقاضى جمال الدين بن فاضل صاحب  
 التاريخ الحافل بحوادث انقضاء الدولة  
 الأيوبية وبداية عهد سلاطين المماليك .

# الدولة المملوكية الأولى

للكاتب محمد مصطفى زياد

( ١٢٥٠ - ١٣٨٢ )

وبالإضافة الى حصفه التوفيقيات الكبرى  
أسهمت السلطنة المملوكية الجديدة بسهم  
كبير في تطور الحضارة الإسلامية وثقافتها ،  
نيجة انتقال مركز الخلافة من بغداد الى  
القاهرة ، وهذا فضلا عما أسهمت به من دور  
فعال في التجارة الدولية منذ القرن الثالث  
عشر الميلادي حتى كلفه الطريق الى رأس  
الرجاء ، بل الى الهند وأمريكا في أواخر  
القرن الثامن عشر .

والممالك - كما يدل عليه اسمهم -  
أرقاء أصبحوا في حيازة أو ملكية عهدهم من  
طريق البيع أو ابتداء أو الأسر في الحرب  
أو المهاداة ، أو كجزء من الضريبة المفروضة  
على أحد الحكام التابعين . ولكن إذا كان كل  
مملوك في أصله وقتما علم يكن كل رقيق من  
طبقة الممالك ، وذلك ان الرقيق في الإسلام  
لما أسود أو أبيض ، وفق أصولهم والبلاد  
المصدرة التي جلبوا منها ، فالنوع الأول كان  
من الزنوج والمواد عامة وخير مثل لهم  
جساعت الزنج بجنوب العراق في القرون  
التاسع ليلادي .

وكذلك الأمير كافور الاخشيدى الذي

لم يكاد النصر يحقق على حملة لويس  
التاسع الصليبية سنة ١٢٥٠ حتى شهدت مصر  
قيام سلطنة الممالك ، وهي السلطنة التي  
تمثلت في عز أيامها مساحات واسعة تمتد  
في مجالها الرئيسية الامبراطورية الأيوبية  
التي سقتها في الشرق الأوسط . ذلك ان  
السلطنة المملوكية شملت جميع الأقاليم  
الحديثة المعروفة باسم مصر وفلسطين وسورية  
وبنيان ، فضلا عما كان لسلطان الممالك من  
سيادة متقطعة على بعض القلاع والمدن في  
أطالي افرات والجهات الجنوبية الغربية من  
آسية الصغرى وشمال السودان وبرقة  
والعجاز .

والا أصبحت السلطنة الجديدة في أن  
البيت الأيوبي في الحكم ، فان عوامل  
هذا النجاح لا ترجع الى النصر الذي أحرزه  
القادة المماليك على حملة لويس التاسع  
الصليبية لمعصب ، بل الى عوامل بائنة مكنت  
لهؤلاء القادة من إقامة دولة استطاعت أن  
تكسر موجة الغزو المغولي في وقعة فاصلة وأن  
تتزعزع حركة الجهاد ضد الصليبيين في المرحلة  
الأخيرة من مراحل الحروب الصليبية بالشرق .

حكم مصر فيما بين سنتي ٩٦٦ ، ٩٦٨ م .  
أما النوع الثاني وهو الرقيق الأبيض  
— فهؤلاء هم المالكين ومعظمهم في الأصل  
ترك جاماوا من مختلف أقاليم آسيا  
الوسطى ، أوقات السلم والحرب . ثم لم يلبث  
لفظ ملوك أن أصبح متزايدا حتى شمل جميع  
أنواع الرقيق للجنوب من غرب آسيا وكثير  
من أقاليم أوروبا ، بما فيها الجماعات المحلية  
بالبحر البلطي .



تدفق أولئك المالكين على المجتمع الإسلامي  
في أعداد كبيرة بآيات باختلاف البلاد التي  
يتسببون إليها ، وذلك منذ أيام الخلافة  
العباسية في بغداد عندما أصبح العبيد  
العباسي يهوى أعدادا متزايدة من الرقيق  
لأبيض . ثم كثرت أنواع الممالك نتيجة  
لنشاط حركة التوسع الإسلامي عن طريق  
الفتح والغزو أو التجارة فكان منهم التركي  
والبيرواني والافريقي والكرج والافغاني ،  
ولكنهم تباهاوا جميعا بنسبة أصلهم  
« أولئك » ، من باب إطلاق الجزء الغالب على  
الكل ، ولا سيما بعد أن أخذوا أصحاب كُر  
واضح في توجيه السياسة الإسلامية في  
الهند والوسطى ، كما أصبحت حركاتهم  
موضوع دراسة المؤلفين . ومن أمثلة ذلك -  
وسيد ابن حنون المتوفى سنة ١٠٥٨ للملوك  
التركي بأنه : « لم يرض إلا بأن يساويه سيده  
في مطعمه ومشربه وملبسه ومركبه ، لا ينفذ

في خدمته إلى ما ينفذ إليه سواء من العاهل  
في الرق ، والمجلوبين بالسبي ، ككنس الدار  
وسياة القواب ، وما أشبه ذلك مما يستخدم  
فيه سائر الرقيق . وليس يرضى التركي إذا  
خرج من وثاقه إلا بزمامة جيش أو التوسم  
بعبابه أو الزمامة على فرقة ، والإلمر وانهي  
على عصبية » .

وتدل شواهد تاريخية كثيرة في المصور  
المقدمة والمتأخرة على مدى العناية بتربية  
هؤلاء المالكين وتدريبهم ليصبحوا عساة  
الجيش التي انضمت عليها الدول الإقليمية  
المستقلة في العالم الإسلامي . ومن هذه  
سلطنة السلاجقة ( ١٠٣٧ - ١١٨٧ م )  
إذا اعتمد سلاطينها على هذا النوع من الجنود ،  
ووسعت وريثها السهم نظام الملك (ت ١١٩٢)  
في مؤلفه « سياسة نامه » مختلف المراحل  
التي يمر بها المملوك منذ دخوله ملكية سيده  
إلى وقت حقه ، حين ينفذ حرا ويصبح  
فارسا ، ومن ثم يستطيع أن يرتقى إلى سلك  
الوظائف العسكرية والسياسية وفي أيام هذه  
السلطنة السلجوقية هم النحور من الاقتصاد  
التقدي إلى الاقتصاد الاقطاعي العسكري ،  
بحيث صار أبواب الوظائف العسكرية  
والإدارية — ومعظمهم من الممالك يتكونون  
على أساس اقطاعي شخصي حري .

وساروت الدولة الأيوبية ( ١١٧٤ -  
١٢٥٠ ) التي تفرعت بطريق غير مباشر عن  
الامبراطورية السلجوقية ، على هذه القاعدة  
من حيث الاعتماد على الممالك إلى مسدى

النصف تقريبا في تكوين الجيش الأيوبي .  
 ومن حيث التسمية ■ الممالك الاقطاعية  
 لأولئك الممالك وغيرهم في مصر والشام  
 وسائر اقاليمها ■ الشرق الأوسط . ومن  
 الأدلة الباهرة على ذلك ان صلاح الدين  
 احاط به بهمسومة مختارة من الممالك  
 الذين انضوا بناية ودرجوا تدريجيا فانتمى الى  
 قنوق الحرب ، وأخذ هذا النظام المملوكي  
 الاقطاعي ينمو على نطاق أوسع زمن خلفاء  
 صلاح الدين في ممالكهم واماراتهم ، وكانت  
 كل جماعة من الممالك الأيوبيين تنسبها الى  
 مؤسسها : أمها كان أو سلطانا ، فالأسدية مثلا  
 نسبة الى أسد الدين تركوه هم صلاح الدين  
 ورسلة في السيطرة على مصر ، والصلاحية  
 نسبة الى صلاح الدين نفسه ، وهكذا .  
 وأسهمت هذه الجماعات الصلاحية  
 المملوكية بسهم كبير في حروب صلاح الدين  
 قبل (قعة حطين وبسحها ، وتدل كثرة أسماء  
 مواليهم وجراحهم على مدى اشتداد هذا  
 السلطان في حروبه وحملاته على جند الممالك  
 الى جانب جنده الأحرار الذين كان معظمهم  
 من الأكراد .

ولمة دليل آخر على ضخامة النصوص  
 المملوكية في امبراطورية صلاح الدين ، وهو  
 ما تحصله الآثار والمؤسسات الخيرية والأوقاف  
 من أسماء أولئك الممالك بالفاخرة ودمشق  
 وغيرها من المدن الكبرى في العصر الأيوبي .  
 ثم ترتب على حروب الأمراء الأيوبيين بعد  
 صلاح الدين لزيادة أعداد الممالك وتضخم

نفوذهم ، ولا سيما زمن الصالح أيوب بن  
 الكامل ( ١٢٤٠ — ١٢٤٩ ) وهو السلطان  
 قبل الأخير من سلاطين البيت الأيوبي في مصر  
 — ذلك ان الملك الصالح لم يشعر ببيل  
 نحو الجند من الممالك الأكراد .

كما انه لم يتق كثيرا في الكامية وغيرهم  
 من طوائف الممالك الذين دأب لهم بمساعدته  
 في الوصول الى السلطة . ولذا أكثر من  
 شراء الممالك الجديد ، واستوردتهم من مختلف  
 الأسواق ، وان كان معظمهم من الأتراك  
 المتحدثين بالتركية ، وبعد ذلك شيد الصالح  
 أيوب بجزيرة الرعدة قلعة لنفسه تطل على  
 بحر النيل . وانتقى من هؤلاء الممالك صفة  
 لتكون حرسا خاصا له بتلك القلعة . وأطلق  
 التنظيم المملوكي على هذه الفئة اسم الممالك  
 البحرية الصالحة ، تمييزا لهم عن سائر  
 طوائف الممالك الصالحة السابقة واللاحقة ،  
 كتمييز البحرية العادلية وغيرها من طوائف  
 الممالك المشابهة التي عرلها التسارع قبل  
 قيام الدولة الأيوبية وبسدها .

على أن تسمية هذه الفئة باسم البحرية  
 ليس مصدوره بحر النيل ، إذ لفتت همسة  
 التسمية بفئات معينة من الممالك في مصر  
 والشام ، بل قد البس كذلك زمن الرسولين  
 ولذا يبدو أن هذا اللفظ جرى على الممالك  
 المجلوبين من البلاد الشمالية أو بلاد ما وراء  
 البحار ، وشرح جواثيل هذا اللفظ شرعا  
 يطابق هذا المعنى تماما ، وهو المؤرخ العربي

عرش مصر ، باعتبارها زوجة السلطان الصالح  
أيوب ، وربما أيضا كوسيلة لوضع حد  
لاحكام بعض الأنصار الطامعين كذلك في  
الاستبداد يشنون السلطة ومنهم الوزير  
جو على الهذلي والزعيم المنوكي اقطاي .  
لم عرخص بمسئ ذلك بمسب أمانيكية  
المسكر - وهو من أهم مناصب الدولة -  
على أحد الأمراء الذين ظلوا مضربين حتى  
فذلك الوقت وهو اييك اشركمان ، فقبضه  
وهكفا تم مولد دولة المماليك ( مسايو  
منه ١٢٥٧ ) التي لم تكن في الواقع سوى  
استمرار للدولة الأيوبية في سياستها الداخلية  
والخارجية ، لأن أماليك القسم صنائع  
سادتهم السابقين . وعبرهم في شئون  
الحكومة والادارة محدودة ، فالرأ الطام  
الاقطاعي الذي قام في مصر والقام في مصر  
الأيوبي .

وكان أول اجراء اتخذه السلطنة شجر  
الدر هو الهاء ذيول العنة الصليبية الفرنسية  
بأقرار شروط الفدية التي تم الاتفاق عليها بين  
تورالطاد وويس التاسع ، واستطاعت زوجة  
الملك لويس في ديهات أن تجتمع نصف المبلغ  
المتفق عليه ، واجتث العنة الصليبية من  
الشواطئ المصرية التي تمكنا بعد قيام الدواه  
الجديدة بضغط أيام على الرغم من المعارضة  
الشديدة التي لقيتها في مصر فكرة اطلاق  
سراح الملك الفرنسي .

ثم أخذت شجر الدر تصرف في توزيع  
العطاءات والمناصب والاقطاعات على جميع

الذي عاش مدة بين المماليك البحرية في مصر .  
ومما يؤكد هذا التغيير أن المؤرخين العرب  
المعاصرين رأوا على اطلاق لفظ الحرية على  
الحماعات الصليبية الواقعة من وراء البحار .  
ولقى أولئك المماليك البحرية الصالحة  
صدمه الهجوم الصليبي على المنصورة ( شهر ابر  
سنة ١٢٥٠ ) والهجم يرجع الفضل إلى النزاع  
النصر من أبواب الزينة في وقت كاد مصر  
بدون سلطان بعد أن توفي سلطانها الصالح  
أيوب في نوفمبر من العام السابق . على أن  
حسن الحظ شاء عندئذ أن تستأنف زممام  
الدولة امرأة فديده ، هي شجر الدر زوجة  
السلطان الصالح أيوب المتوفي ريثما يصل  
ابن وحليف تورانشاه من مفره بحسن كيفا  
بأعلى العراق . ثم وصل هذا الابن إلى  
مصر ، فصلته شجر الدر مقابل الدولة  
ومستلزمات القتال ضد الصليبيين ، على أن  
مقتل تورانشاه ١٢٥٥ م على أيدي زعماء  
المماليك البحرية الصالحة - وهو الحادث  
الذي أنهى الدولة الأيوبية في مصر - أدى  
إلى فراغ كان لا بد من الاسراع إلى ملته ،  
قبل أن يملأ زممام الموقف من أيدي أولئك  
الزعماء . ذلك أنه كان بالشهد عدد كبير من  
نصارى البيت الأيوبي الذين قطعوا منذ سنين  
إلى العور بالسلطنة على مصر ، وهذا فضلا  
عن الحقوق من محيى نجده صليبية حرية إلى  
مصر للانتقام مما حل بعنة الملك الفرنسي  
لويس التاسع . ولذا وقع الاختيار على شجر  
الدر لمواجة الأمراء الأيوبيين الطامعين في



التخلص منه فيما بعد » ولذا تم تمضي بضعة أيام على قيام أيك في السلطنة حتى استقر الرأي بينه وبين بعض المباليك المعادين لأقطاي على اشراك أحد أمراء بني أيوب في السلطنة ، وسواء جاءت هذه الفكرة المتفاجئة نتيجة الاحتماسي بعدم مسيحية أيك أو لمواجهة المعارضة المتزايدة من جانب الأيوبيين « فموضع الأهمية هو : » وقص الاختيار على طلق من بني أيوب اسمه موسى لم يتجاوز العاشرة من عمره ، ليكون شريكا لأبيك في الحكم .

لكن هذه الصلة لم تطل على اصحاب العمل الدرمي من أمراء البيت الأيوبي الذين أخذوا يحثون فعلا تنحصر مصر ، وزعماء الناصر يوسف أمير حلب ودمشق ، ثم أن ثمة من المباليك في القاهرة نفسها احتاثت أميرا آخر من بني أيوب — وهو الأمير الخنثي عمر أمه الكرك — ليعتقد سقاما على مصر ( سبتمبر سنة ١٢٥٠ ) أما أيك الذي طرد البعض أنه شخص سهل يمكن التخليص منه دون صعوبة غالبية أنه أكثر مهارة مما تراهي للناس ، إذ أعلن أن مصر تابعة للعائلة المباسية في بغداد ، وأنه يتولى السلطنة بها بوصفه أئمة من الخليفة المباسي . ثم لجأ أيك إلى الحصول دون أي تقارب بين الأيوبيين الراغبين على مصر والملك الفرنسي تومس التاسع الذي لم يزل مقيما وقتذاك في عكا ، بأن أطلق مراح بعض الأسرى

فئات المباليك الذين دأبت لهم بوصولها إلى منصب السلطنة ، على حين بدأت الهيئات تتردد في القاهرة مستنكرة قيام امرأة في السلطنة ، على أن حركة خطيرة في هذا الصدد بدأت من دمشق حيث رفض الجند الأكراد أن يضموا إلى الولاء للسلطنة المسلوكة المهددة ، وأعلنوا الثروة واستعاد هؤلاء الثوار بالملك الناصر يوسف الأيوبي أميرا حلب ، وطلبوا منه أن ينهض — وهو سليل صلاح الدين — ضد منصب الحكم في القاهرة . ولذا زحف الناصر يوسف على دمشق التي فتحت له أبوابها ، فقبض على جميع من كان فيها من المباليك . ثم أن الخليفة المباسي في بغداد لم يفر قيام امرأة في حكم الدولة الأيوبية ولا سيما أنها كانت في وقت ما من جوانب ، وهذا فضلا عن وجود بعض آراء دينية تنكر قيام امرأة في حكم أية دولة إسلامية .

لذلك استقر الرأي أخيرا في القاهرة على أن تزوج شجر الدر من أئمة المسكر أيك ، على أن تترك له العرش . وتم الاحتفال بزواج شجر الدر من أيك وأتمنى أيك عرش السلطنة المملوكية في شهر يولية سنة ١٢٥٠ . وعلى هذا الوجه السعيد انتهت مدة التدوين يوما التي قضتها شجر الدر في دست الحكم على أنه يبدو أن هذا الاجراء تم يرضى المباليك ورعيتهم وقدأقضى ، ولكنهم اغرغوا بأيك مؤقنا لهم بسخطهم

عن الأجراء الساحلية حتى نابلس ، على حين  
يظل الناصر يوسف وغيره من أمراء البيت  
الأيوبي على أماراتهم بسائر فلسطين والشام .  
وهكذا اجتازت الدولة المملوكية العقبة الأولى  
التي اعترضت طريق تأسيسها في القاهرة ،  
ولو إلى حين على الأقل .

على أن اعتماد أيك على المماليك البحرية  
الصالحية في معارضة الأيوبيين زاد من سلطتهم  
بعيث صار من الصعب قهدهم أو إخضاعهم  
لأي شخص عدا زعيمهم أقطاي . ومع هذا  
ظل أيك حريصا حذرا في تصرفاته نحوهم ،  
طالما كان الضلع الأيوبي قائما ، حتى إذا  
اقتضت معاهدة الصلح بينه وبين الناصر  
يوسف ، أخذ أيك يتحرك في سرعة ، فأبعد  
الطفل موسى الأيوبي عن منصب المفارقة في  
الحكم ، وعين مملوكه قطر في منصب نائب  
السلطنة ، ولم يبق لديه من الشخصيات  
سوى المماليك البحرية ، لير أن قيام لودة  
الربان ، ومناذاة زعمائها بأن المماليك — وقد

مسمهم الرئي — لا يصح أن يحكموا لوما من  
الأحرار ، جعل أيك في حاجة إلى قوة المماليك  
البحرية الصالحية مرة أخرى . فحشد إلى  
أقطاي بأخضاع هذه الحركة الضميرية التي  
ضمت أعدادا ضخمة من البدو ، ولجج أقطاي  
في حدهما في وقعة حربية قرب بليسي ( سنة ١٢٥٣ ) .

لكنه إذا كان النجاح في إخضاع هذه  
الثورة أدى إلى إزالة عقبة أخرى خطيرة

الفرنسيين الذين لم يزالوا بمصر . ومع  
هذا لم يشأ أيك أن يتحرك مجالا لاغراء لويس  
التاسع أو غيره من الصليبيين فأمر بهدم مدينة  
دمياط القديمة وتحصيناتها في أكتوبر  
سنة ١٢٥٠ ، تحديدا لبنائها من جديد في  
موضعها الداخلي الحالي ، بعيدة عن ساحل  
البحر . وفي هذه الأثناء تمت الاستعدادات  
في مصر لإرسال حملة لنزع الأيوبيين الزاحفين  
من فلسطين إلى مصر ، ودارت معركة بين  
العابدين قرب الصالحية العاتية ( فبراير  
سنة ١٢٥١ ) أي داخل البلاد المصرية ، وحلت  
الهيبة بالغزاة في هذه المعركة ، ووضع كثير  
من أمراء الأيوبيين أسرى في أيدي المماليك  
وإن استطاع زعيمهم الناصر يوسف الفرار .  
على أن أيك لم يفتح تماما بهذه النتيجة ،  
فأرسل أقطاي لهدم معازل المقاومة الباقية  
بفلسطين ، حتى لا يتسكن الأيوبيون بعد ذلك  
من الزحف إلى مصر أو اجتياز حدودها في  
سهولة .

وحوالي ذلك الوقت تراءى الخطر الممولى  
واضحاً في غرب آسيا ، تهدد الخلافة العباسية  
نفسها في بغداد ، ورأى الخليفة أنه من  
الأمور الحيوية أن يتناسى أموره الدول  
الاستعمارية ما بينهم من الخلافات لمواجهة  
الخطر الجديد . وعقدت معاهدة ( إبريل  
سنة ١٢٥٣ ) بين أيك والناصر يوسف بحيث  
تكون لأيك مصر وجزء من فلسطين حتى  
نهر الأردن بما في ذلك بيت المقدس — فضلا

اعترضت قيام السلطنة المملوكية في مصر ، فأن  
هذا النجاح زاد من خطر أقطاي والممالك  
البحرية الصالحية .

وبعد ذلك واضعا عندما أخذ أقطاي  
يحتل نفسه ببعض السلطات والسمائر التي  
هي من حق السلطان وحده ، ومنها ركوبه  
من داره بالقاهرة الى مقر السلطنة بالقلعة في  
موكب حافل ، ثم تزوج أقطاي من إحدى  
أميرات البيت الأيوبي في حفاة بالتمام ، وطلب  
من أيبك أن يسمح له ولورثته بالإقامة في  
القلعة ، على أساس أنه أصبح زوجا لسلطنة  
أيوبية . وعند ذلك أحس أيبك أنه أمام أمر  
واحد لا ثاني له ، وهو التخلي عن أقطاي  
قبل فوات الأوان ، واستناده الى القلعة  
لبعض مهام الدولة ودبر مؤامرة سرية لقتله ،  
وعندما التقى يرأس أقطاي الى أبواب المتظرين  
أسفل أسوار القلعة ، أصاب الدهر فئات  
المماليك البحرية الصالحية ، فهرب كثير منهم  
الى مختلف البلاد الخارجية كما بعض أيبك  
على الذي بقي منهم في القاهرة . وهكذا يبدو  
أن أيبك أخذ سلطنته ولكنه في الوقت نفسه  
الاز على نفسه مشكلة كبرى بهروب كثير من  
المماليك البحرية الى بلاد طبرستان وسومرة من  
الأيوبيين بالشام حيث عاشوا لأكثر من مائة سنة  
يحرزون النصر يوسف وغيره من أبناء  
البيت الأيوبي على مهاجمة مصر ، فضلا عن  
انقراضهم المستمرة على فلسطين والأشرف  
المنصور . لذلك قضى أيبك معظم الثلاث

السنوات الواقعة بين ١٢٥٩ — ١٢٥٧ بربط  
حركات المماليك البحرية في الشام ، ولجأ الى  
أسلوبه القديم بإعلان تبعية للخمسة  
وارساله بيته الى بغداد لعقاب الخلع والتقاليد  
اللازمة ، ثم أنه جدد العدة مع الصليبيين  
وجالط الأمير الأرميني الأصل بامر الدين  
لؤلؤ أمير الموصل عسلي أن يتزوج ابنته  
ويتخلص بذلك من سيطرة فخر الدين  
ولضربها من أهل المماليك البحرية لمصردين .  
غير أن هذه الخطوة الزوجية أمارت شجر  
الدر التي لم تتوقع أن يصل لكرن الجبيل  
بالسلطان أيبك الى هذا الحد ، وهو الذي  
أصبح سلطانا بفضل مساعدتها . وأحسبت  
شجر الدر بأن كبرياءها خدشت بعد أن  
هجرها أيبك ليقيم في منزل صيني قرب حية  
باب اللوق العالي . ودرت مؤامرة للاتقاء  
مع لمعتته الى اجتماع المنوفين والصلح ،  
ولقى بمصره في هذا الاجتماع على صورة  
وحشة في حسان النصر السلطاني بالعلمة  
( أبريل سنة ١٢٥٧ ) . وأذاعت شجر الدر أن  
أيبك مات ميتة طبيعية فجاء ، غير أن الحقيقة  
الكشفت ، فصرخت هي الأخرى للقتل على  
صورة وحشية كذلك ، بعد ثلاثة أيام من  
مقتل أيبك .

ولذا تبنا تاريخ أيبك في شيء من  
التفصيل ، فذلك لأن سنوات حكمه بمثابة  
اختبار لمقدرة الدولة الجديدة على البقاء  
غير أنه لم يكن للصبي على بن أيبك أي حق

في وراثة السلطنة بعد أبيك ﷺ ظل الطامح العسكري المفلوكي ، ما عدا رغبة من ناحية كبار الأمراء في احترام وصية سلطان داخل ، وذلك حتى يمكن الانصاف على أن يتولى السلطنة بين أولئك الأمراء أنفسهم ، وعندئذ يتخلصون من السلطان الصبي في غير جلبة أو اضطراب . وتكررت هذه التشنجية مرة بعد مرة عقب نهاية حكم كل سلطان مملوكي ، فأقام زعماء الماليك ابن السلطان المتولي مؤقتا ، ثم تخلصوا من هذا الأبن بالنفي الى بعض جهات مصر أو الخارج .

وإذا استطاع بعض أولئك الأبناء أن يظل في سلطنة صفة من الزمن ، فلم يكن ذلك راجعا الى اعتقاد الماليك في مبدأ الوراثة .

بل الى مجزهم أحيانا من الإنفاق على من ينشئ أن يقول البسه السلطنة من بينهم ، أما مبدأ الوراثة نفسه فلم يكن مقبولا أو مقبولا في أوساطهم .

هكذا خلف الصبي على أبيه أيك .  
وتحين الأمير قطز — وهو أقدم مماليكها — في منصب نائب السلطنة . وقال هذا الصبي سلطانا اسما لمدة سنتين ، لم يدل في أثناءها على شيء سوى مهارة في ركوب الحمار والطواف بها داخل أسوار القلعة على حين كان قطز يسهل لنفسه بممارسة السلطات الفعلية ﷻ الدولة ، وفي خلال هاتين السنتين بالذات كان الخطر المملوكي على نفسه في غرب آتية فسطحت بممداد والخلافة العباسية

على يد هولاء وجنوده في فبراير سنة ١٢٥٨ واتسرت موجه من الذعر في جميع البلاد الإسلامية المجاورة وبخاصة بلاد الشام حيث أعلن الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق عزمه على مقاومة الممولى في أول الأمر والفصل من أجل ذلك بالسلطنة المملوكية ، واستغل نائب السلطنة فطر هذه الحوادث وصرح لمجلس الثورة أن التصديق للممولى سوف يلتهم مصر بعد الشام ، وأن الموقف يستدعي قيام رجل قوي في الحكم بدلا من صبي قليل الخبرة بشئونه . وبذا خلع السلطان الصبي على بن أبيك من السلطنة دون عناء وأعلن فطر سلطانا في أكتوبر سنة ١٢٥٩

ولم يمض شهر على هذا الانقلاب حتى أخذ هولاء يحرقون نحو حلب الأيوبية وسط مظاهر التدمير والهلكة ، وشاورته في الاستيلاء عليها في فبراير سنة ١٢٦٠ فرقة عسكرية من عند هيتوم ملك أرمينيا الصغرى ، وبهزيمة السادس أمير السلاكية الصليبية ، وفي حلب جاءت الأخبار الى هولاء بوفاته الغان الممولى الأعظم منكوقان ، فاضطر الى الرحيل عن الشام الى مقر الممولى العام في جنوة آسيا للمشاركة في الحصار الغان الجديد ، بعد أن لبس قيادة جيشه الى كتيما وهو أحد الممولى الذين اعتنقوا المسيحية على المذهب النسطوري . ثم لم يلبث كتيما أن رحل جنوبا نحو دمشق ، وهي كذلك

وبذا أسس قنطر سيادة السلطنة المملوكية على جميع بلاد الشام وفلسطين ما عدا إمارة الكرك الصغرى التي ظلت بيد أميرها الأيوبي ، وذلك فضلا عما حققه السلطنة المملوكية من هيبة داخلية وخارجية بفضل هذا النصر العظيم ، لأن عين جالوت لم تنفذ مصر وحدها من المنون وقبلة الله ، بل ألحقت كذلك أودعا المسيحية التي تعرضت أطرافها الغربية للخطر المغولي .

على أن قنطر لم يلبث أن جرى على انتصاره هذا جزءا عكسيا ، إذ وقع غريبة مؤامرة XXXX وهو في طريق عودته إلى مصر في أكتوبر سنة ١٢٩٠ ، على يد صديقه الأمير بيبرس البندقداري . وأسرع الأمير بيبرس إلى دخول القاهرة حيث انتصب عرض السلطنة وسط مزيج من الدهشة والرهبة . وقال أن بيبرس قام بارتكاب هذه الجريمة لا لرخص قنطر يمينه على حلب فعصب كما يتوثر في معظم المراجع ، بل بسوية كذلك لأثر قديم يرجع إلى مقتسبل الزعيم أقطاي وتفريد المماليك البحرية ، وهي حوادث كاد للأسير قنطر فور هاهم فيها .

ومن الواضح أن دستور بيبرس إلى منصب السلطنة كان صفاء عودة ثلوث المماليك البحرية ، ولم يلبث السلطان الجديد أن دل على ذلك كما دل على براعة فائقة في شؤون الإدارة وقيادة الجيوش خلال حكمه البائع سبعة عشر عاما ( ١٢٩٠ - ١٣٠٧ ) والواقف

أيوبية ، فانهزت أمامه قوات ملكها الناصر يوسف الأيوبي ، وسلمت له دمشق ثمها أخيرا في مارس سنة ١٢٩٠ . وزحفت بعد ذلك قوات مغولية نحو الجنوب ، وهددت أراضي السلطنة المملوكية في فلسطين ، فهب قنطر لللاقة هذا الزحف الداهم بجيش كبير . واستطاعت طلائع هذا الجيش بقيادة الأمير بيبرس البندقداري أن تطرد الطلائع المغولية من غزة حيث وصل لغز بعد قليل للزحف فورا نحو القنال .

أما كنيها القائد المغولي فرعد الصليبيين في عكا أن يعاليمهم ويساعدتهم ضد السلطنة المملوكية ، متسائل قيامهم سرقة الرعب للملوكي وعدم السماح للسلطان قنطر بالمرور شمالا . غير أن الصليبيين لم يأمنوا لوجود المغول واستطاع قنطر أن يحصل على حبات عكا الصليبية في هذه الحرب ، وأن يغير بجيشه في غير صعوبة إلى منطقة الجليل . ولذا لم يلبث المغول أن طوخوا بوصول المماليك إلى طبرية ، وبفضل هذه المواجهة تمكن السلطان قنطر من إزال الهزيمة بالمغول في وقعة حاسمة عند عين جالوت قرب بلدة الناصرة ، في سبتمبر سنة ١٢٩٠ ، وهي أول هزيمة لحقت بهم في تاريخهم الصالح منذ أيام جنكيزخان ثم أعقب ذلك تفرق مغولي عام قانجبت القوات المغولية عن دمشق ، وحلب ، على حين عكفت القوات المملوكية على مطاردتها إلى ما وراء الفرات .

إدارة شؤون الدولة أثناء أسفاره الكثيرة من مصر والشام . ووضحت هذه المواهب في بضعة أشهر الأولى من حكمه ، حيث عمل جاهدا على ترتيب شؤونه الداخلية ليتفرغ لمشكلة قطنت منه جميع ما أوتي من مصارة سياسية وشجاعة وحزم ، وهي مشكلة العراق الذي لجم عن سقوط الخلافة العباسية في بغداد . وتذكير بمضى ملوك الدول المجاورة **■** إحياء **■** الخلافة **■** بلده . ومن أولئك الناصر يوسف الأيوبي حين كان أميرا على حلب ودمشق . إذ حاول استمالة أحد الباسين الفارين من وجه المقل إلى القيام ليعينه خلفه عنده ، ولستعين **■** في مقاومة الزحف المغولي بقيادة حولاكو ، عبر أن سرعة الهوانت أفسدت عليه محاولته . وقام السلطان قطز بسئل هذه المحاولة بعد أن دخل دمشق ظاهرا لمساعدة عين جالوت ، إذ أعلن خلافة لاجي عباسي آخر . وأسبده بفروات وأسلحة للميل على استرداد بغداد . وحذا بپرس هذا العدو ، أي أنه لم يكن منكرا لهذه الفكرة ، ولكنه كان صاحب الفضل النهائي في إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة سنة ١٢٦٢ . وهكذا استطاع بپرس أن يجعل مصر لادعة الخلافة الإسلامية ومهبط انظار المسلمين ، وأسست القاهرة مركز العالم الاسلامي ، وهي تقرب إلى حواضر البلاد الاسلامية من بغداد . لذلك أخذ كثير من علماء المسلمين يقدون إلى مدينة النيل : حيث وجدوا بتاييد والفرح من الرعاية

أن أعمال بپرس اكتسبت لقب مؤسس دولة المماليك ، لأن هذا السلطان قام فعلا بنظم جهازها الاداري والحربي على أسس متينة . عبر أن اغتصاب بپرس للمسلطنة لم يرق في عين نائب دمشق وهو الذي أعاده قطز إلى منصبه بعد بريد المقل ، ولذا رفض هذا النائب أن يمتدحه بذلك الاغتناب ، وأعلن نفسه سلطانا في نوفمبر سنة ١٢٦٥ ، ودعا الأمراء الأيوبيين والنواب والمماليك بالنسبات العباسية إلى الاعتراف به ، وأرسل بپرس حملة ضد هذا الأمير انقاراج ، فقصت على حركته في سرعة ، وجاءت به إلى القاهرة مكبلا بالسلاسل ( يناير سنة ١٢٦٦ ) بعد أن أقامت محبته في ليلة دمشق الأسير علاء الدين البندقداري ، وهو الذي كان في وقت ما سيد بپرس ، أي أسناده الذي اضطره ورباه على قول المصطلح المشوكي ، وفي تلك الأثناء قامت بالقاهرة حركة من نوع آخر برعاية رجل من الشيعة اسمه الكوراني ، وناهت بنداوات بدت كأنها صدى لثورة الصرب أيام أيبك فهدها بپرس إلى الأخرى في سرعه كذلك ، إذ نجس على رجالها وزعيمهم الكوراني القبيح ، وشتم جميعا على باب زوينة ( بوابة المنولي الحالية ) .

وامتاز بپرس في جميع أعماله بسرعة التنفيذ ، كما امتاز في سياسته بالحزم والشجاعة وبعد النظر فضلا عن المقدرة على القيام بعدة أعمال في وقت واحد ، وتصره

والتسجيع وأحدنوا بمصر نهضة علمية في مختلف الدراسات ، على حين أسس العقلاء الميسميون في القاهرة فتياناً لسلطين الممالك .

وحق لبيبرس أن يختر هذه النتيجة التي جعلت السلطنة المملوكية صاحبة الفضل في احياء الخلافة الممارية ، وأمنت السلطين على مستقبلهم في الفرق الأوسط وسائر الصالح الاسلامي باعتبارهم حماة الخلافة والتمتعين ببيعتها . غير أن مشكلة أخرى عاجلة تطلبت من السلطان حلاً عاجلاً ، وهي ان الخيف عمر الأيوبي - أمير الكرك - ظل متعلماً بعلمه الفرمي في السلطنة بمصر ، بخلاف غيره من أبناء البيت الأيوبي الذين ركنوا الى الهدوء بالتمام ورضوا بالعيش في سلام في ظل الحكم المملوكي . وعرف بيبرس انصاع الخيف عمر جيد المعرفة منذ لجوله الى اماره الكرك أيام تفرده بملك للممالك البحرية ، واشترك معه في الاغارة أكثر من مرة على الأسراف المصرية . ولذا أسرع بيبرس على عادته الى مهاجمة الكرك رغم وساطة الخليفة العباسي ، ولم يلبث أن ألقى القبض على الخيف وأرسله أسيراً الى القاهرة ، حيث أقيم بالانحصار بالقبول والتأمر معهم ، وحكم بإعدامه في أبريل سنة ١٢٩٣ .

وعمل بيبرس في هذه السنوات الانتاحية الثلاث من حكمه على تنظيم الجيش المملوكي وتجديده بناء الأسطول واعادة توزيع

الاقطاعات على الأمراء والأجناد فضلاً عن عنايته بإنشاء الطرق وإصلاح الجصور وحفر القنوات في مختلف البلاد المصرية على مقياس لم تنهض مصر سوى أيام صلاح الدين . كذلك لعتم بيبرس بقوة حصون الشام وشحنها بالجنس من المقاتلة ، كما نظم المواصلات البرية بين دمشق والقاهرة بحيث صار تبادل البريد بينهما مرتين في الأسبوع . أما الاسكندرية فعنى بيبرس بإصلاح حصونها والسهم إليها ، كما عني بدخول النيل عند رشيد ودمياط بالقامة الأبراج والسلاسل لحراسها ، وكل ذلك خفية حملة صليبية مرجحة ، وفي هذه السنوات الانتاحية كذلك بدأ بيبرس ببناء الجامع والمنومة المنسوين إليه ، كما ألقا ملحمة للفراء .

وتدبر هذه الأعمال الداخلية المتنوعة على أن يبيبرس كان يبنى لنفسه وللسلطنة المملوكية في قلوب الناس ، وأنه كان يمد القوة العربية للقيام بشروعات عسكرية ضخمة ، والواقع أنه أراد أن يحصل من نفسه صلاح الدين الثاني ، واستطاع أن يحرز نجاحاً لا يقل عن نجاح سلفه العظيم ، وذلك في أكثر من جهة واحدة . ذلك أنه تعين على السلطان بيبرس حماية الأمراء القرابية لسلطته من اقاربت الدولة المفسولة التي تأسست بعد هولاكو في فارس والعراق ، وعقاب الامارات الصليبية مثل أنطاكية التي

دأبت على مخالفة تلك الدولة ؛ وذلك فضلا  
عن الاستعداد لمواجهة أية حملة صليبية  
جديدة تأتي من أوروبا . وضيبيى انه لم يكن  
لدى بيبرس أية معلومات عن الدول الأوروبية  
وأحوالها السياسية التى جعلت إرسال حملة  
صليبية كبرى إلى الشرق أمرا غير ممكن  
أو مستور ؛ تدليل قيامه بالأعمال النحسينية  
المقتضية لتأمين القوافل المصرية والشامية ؛  
وإهتمامه بمقعد سلطة من المعاهدات  
والعلاقات الودية مع حكام البلاد المجاورة ؛  
ومنهم الأمير بطور البرقى ميخائيل  
والدولمى — وهو الخصم القديم للصليبيين  
بالشرق ؛ ومثلت مشكلة ما فرد هو هنشواوى  
ابن الأمير بطور لحروبى الثانى . ويبدو أن  
هذا الحلف بين بيبرس وما فرد جدا بالأمير  
شارل لأتجوى هو الآخر إلى إرسال بعثة  
لتأكيد حى علاقته بالسلطان بيبرس .  
واستقبل بيبرس \$\$\$ البعثة ، وأكرم وفادتها  
بالقاهرة سنة ١٢٦٤ . وحالف السلطان بيبرس  
الملك بركة خان صاحب القبيلة الذهبية  
أو منغول القصبالى وعاصمتها سرائى فى  
ولدى المولجا ، وهو أحد أحفاد جنكيز خان  
وكان بركة خان على دين الإسلام منذ  
نشأته ، غير أن العلاقة الدينية وحدها لم تكن  
هى التى أدت إلى هذا الحلف ، بل كان إتمام  
الدولة المغولية الفارسية نحو الأقاليم المجاورة  
تحتل القبيلة الذهبية هى التى أدت إلى تبادل  
الرسل والبعثات بين القاهرة وسرائى ضد  
هذا العدو المشترك .

أما تحالف بيبرس مع دولة السلطنة  
بالروم ( آسيا الصغرى ) فلم تقل أهمية عن  
هذه التحالفات السابقة ؛ لأن الوضع الجغرافى  
لهذه الدولة السلجوقية جعلها منبع خطر على  
الأقارب المغولية الفارسية من ناحية ، وأطراف  
مملكة أرمينيا الصغرى المسيحية من ناحية  
أخرى . على أن أهم ما احتتم له السلطان  
بيبرس وقتذاك هو احتشال قبضة الدولة  
المغولية الفارسية بهجوم مفاجئ على الأطراف  
الملوكية الشرقية من طريق أعلى العراق ؛  
ولذلك حارب طريق الفزو ومعاينة بين آمد  
وعلاط ؛ على حين أصلح الفلاح الشابة  
التي سبق لهولاكو وجوهره تغريبها أثناء  
الزحف المغولى الأول

لم يكن عجبا \$\$\$ هذه الاستعدادات  
والتحالفات والاحتياطات ؛ وبمسد الماوشات  
التجريبية الناجمة التي قام بها بيبرس أوائل  
سنة ١٢٦٥ ضد الصليبيين والمغول أن يفهم  
هذا السلطان منذ أواسط هذه السنة بهجمات  
حربية صيفة \$\$\$ أكثر من جهة واحدة . وإذا  
اصطبحت حركته الذاتية إلى هذه الجهاب بكثير  
من الفهم والتكت والمروءة ، فإن هبذه  
الحركات كانت فى ذاتها سلسلة من انتصارات  
متواصلة دالة على أن السلطان بيبرس امتاز  
بعزيمة لا تنكسر ، وعناية ناشطة ، ومقدرة على  
استمرار التنقل بين مصر والشام ، غارة لإدارة  
\$\$\$ الحكم ، وغارة لتنظيم شؤون القتال .

وبدا بيبرس هذه الانتصارات المتواصلة  
بالاستيلاء على قيسارية وعثليت وبعضا



وارسوف من الصليبيين قبل أن تنتهي سنة ١٢٦٥ ، ثم عاد إلى مصر كيستأنف رحلة تفتيشية لمعرفة أحوال حصون الإسكندرية ، ويديم فوائده ببعض جديد من الممالك . ثم رجع بيرس إلى الشام سنة ١٢٦٦ ، وأسر بحاجة المدن الصليبية على امتداد الساحل الشامى ، على حين استولى هو على صفد ، وعاد منها إلى دمشق للسفر بنفسه على رأس حملة ضد مدينة حيس عاصمة أرمينيا الصغرى وانتهت هذه الحملة الأرمينية بتطريب حيس ، وكل ذلك في سنة واحدة . وبعد زيارة قصيرة للقاهرة أوائل سنة ١٢٦٧ ، ذهب بيرس إلى الشام حيث عقد تحصينات صفد الجديدة ، ثم عاد إلى القاهرة مرهوا بنتائج حروبه . ثم رجع بيرس إلى الشام أوائل العام التالي ( سنة ١٢٦٨ ) فاستولى على بلاط وحقيقت أرلون ، وألقى الحصار أخيرا على مدينة طلائكة ، وهي وقتذاك عاصمة أهم الإمارات الصليبية الباقية بالشام . وحقق الاستيلاء على هذه المدينة للسلطان بيرس نصرا واثنا ، فغضى أيام سنة ١٢٦٩ منتقلا في سلام بين مصر والشام وبلاد العرب ، وأدى فريضة الحج في جبل غلبم ، وأكده السيادة المملوكية على مكة والمدينة والحرمين الشريفين وعاد إلى القاهرة بعد أن عين واليا في مكة للإشراف على الكسوة التي أعدها السلطان للكعبة مفرزة باسمه محروف من الذهب .

وفي سنة ١٢٧٠ أجرى السلطان بيرس

مفاوضات مع طائفة الاسماعيلية الحثيئة بالشام ، وتم الاتفاق على أن يدفع شيخ هذه الطائفة — شيخ الجبل — جزية سنوية شتا لسلام بين الطرفين . وفي هذه السنة نفسها قام الملك لويس التاسع بعقد الصلح على تونس ، فرأى بيرس أن يظل بالقاهرة فيربض آمنا هذه الحجة عن كثب ، وأعلن استعدادا لمساعدة تونس ضد الغزاة الصليبيين . غير أن موت الملك لويس التاسع في تونس بددت جميع مخاوف بيرس فصار إلى التمسك سنة ١٢٧١ . حيث استولى على صافيتا وحصن أكراد وعكا ، وأعقب ذلك بحركات خاطئة استولى فيها على بعض قلاع الاسماعيلية غنابا لهم على نفق ما بينه وبينهم من الفائق وحزيرة وسلام . ثم رجع بيرس إلى القاهرة لواخر تلك السنة ، لكنه عاد مره أخرى إلى الشام سنة ١٢٧٢ ، حيث عقد حاميات المدن التي استولى عليها من الصليبيين في حملاته السابقة .

وفي هذه السنة نفسها ( ١٢٧٢ م ) أرسل بيرس أسطولا عدته إحدى عشرة سفينة للأغارة على قبرص ، فحطمت عاصمة قرب لفساوس ولم تسلم سفينة من سفنه أن تصل إلى الصليبيين انقربس . وفي العام التالي أي سنة ١٢٧٣ غادر بيرس دمشق إلى البيرة على الفرات : لدفع فجارة مغولية تلك السنة . فأزول بالغريقين هزيمة كبرى بعد أن عبر النهر سابحا على رأس قواته لملقاتهم . وفي طريق عودته إلى دمشق استولى بيرس على بقية

في أغسطس سنة ١٢٧٩ « حين خلعهم حمود  
فلاوون ، وأقام مقامه ابنا ثانيا ليبرس ، وهو  
مقل في السابعة من عمره اسمه سلامش . ثم  
لم يلبث فلاوون أن خلع سلامش كذلك »  
نوفمبر سنة ١٢٧٩ ، وأقام نفسه سلطانا .

وكان السلفان فلاوون — مشعل  
بيبرس — من الممالك البحرية ، وعبادك  
لعملاء زمن أليك ، وعاد إلى مصر مع  
بيبرس تلبية لنداء الظفر في تمبة القوى لصعد  
المغول ، ولما آلت السلطة إلى بيبرس خلعهم  
فلاوون أحسن خدمة ، وظهرت كفايته في  
الحرب ضد المغول وأرمينيا الصغرى ، ولكنه  
بدأ منطويا عليه أولفر أيام بيبرس لأحباب  
غير واضحة ، وواجه فلاوون معارضة قوية  
لسلطته ، واضطربت هذه المعارضة بشيء من  
الولاء لأبناء بيبرس ، وهي في الواقع لم تخرج  
عن أن يقضي أمراء الممالك الذين أسسوها  
بقسط واقف في الانتصارات البيرية أحصوا  
بأن لهم حقا مثل فلاوون في السلطة .

ومن هؤلاء سقر الأشرف نائب دمشق  
الذي أعلن نفسه سلطانا بها ، ووجد تلبية  
لحركته في الشام وفلسطين . واستطاع فلاوون  
أن يقضي على هذه الحركة في وقته حربية  
جنوبية دمشق ، غير أن سقر تمكن من  
الفرار ، وذهب إلى بلاد الألبان أيضا بن  
هولاكو يطلب نجده . وكان أيضا من أشد  
الدعاة لشرودح التحالف بين الصليبيين والمغول  
ضد المماليك ، مستعندا تمام الاستعداد  
لمساعدة أية حركة ثورية ضد السلطة

قلاع الاسماعيلية ، على حين كانت قوات  
مملوكية تعمل في برقة وأرمينيا الصغرى ،  
فضلا عن النوبة التي اعتدت منذئذ على  
العمالة المملوكية في حل مشاكلها الداخلية ،  
ولا سيما وراثه عرش مملكة النوبة .

وشملت الامارات الصليبية وتذلك بأن  
مستبهاها يطلب هدية عامة عقدها بيبرس مع  
كل من هذه الامارات سنة ١٢٧٤ ، وريسا  
كانت هذه المدينة هي التي شجنته على الزحف  
بنفسه على أرمينية الصغرى سنة ١٢٧٥ ، حيث  
استولى على سيس وإياس ، كما شجنته على  
الزحف بطوق حربية مرة أخرى إلى القس  
السياني سنة ١٢٧٩ ، حيث أحرق التصار  
كبيرا على قوات المغول والسلاجقة بالروم ،  
ودخل العاصمة السلجوقية قيصرية وجلس  
على عرش سلطنتها ، وأخيرا عاد بيبرس إلى  
دمشق أوائل سنة ١٢٧٧ ونوفي تلك السنة  
وهو في أوج مجده بعد مرض قصير بسبب  
تناوله شرايا مسموما .

ويقال أن بيبرس كتب في أواخر أيامه  
وصيه إلى المعتمد بركة ، وهو أكبر أبنائه  
وولي عهده في السلطنة وأنه نصحه في هذه  
الوصية بالحفر عن كبار الأمراء بما له  
« فمن يملك عنه ما يشوش عليك ملكك »  
وتحفظ ذلك عنه ، فاضرب شقته في وقته ،  
ولا تملكه ، ولا تستشر أحدا في هذا ، وافعل  
ما أمرتك به والا ضاعت مملكتك » على أن  
الخطر على سلطنة بركة هذا جاء إليه من مأنة

الملوكية في مصر أو الشام ، ولذا تحصر أبنا لنجدة ستر ، وغزت فرقة مغولية شمال الشام في سبتمبر سنة ١٢٨٥ ، ودمرت كثيرا من القوى المحيطة بحلب ، وخرج قلاوون الى الشام لمواجهة هذا الغزو ، على حين أرسل الى ستر يسترضيه بأن تكون له بعض المدن في شمال الشام ليحكمها حكمها مستقلا ، وأنه تكون مرتبة من حيث الوطنية والافطاح لآلية لرتبة السلطان . وبفضل هذه الترضية استطاع قلاوون أن يركز جهوده ضد الغزاة الذين زحفوا نحو حلب مرة أخرى بقيادة منكوتر — أخي أبنا — فآزرهم فئات من رُمسها الصلبي وجوجبا وغيرهما من البلاد التي طغمت للمنحول . وأخيرا وقعت الواقعة بين الطرفين عند حصص ( أكتوبر سنة ١٢٨٥ ) حيث الهزم منكوتر ، واضطر الى الانسحاب من الشام .

وبعد ذلك بعام توفي أبنا وخلفه في الايطالية الفارسية أحمد تكدار الذي ركز المصولة واحتق الاسلام ، وولت خطابه الودية الى قلاوون على مدى تملكه بدينه الجديد وهي خطابات كرر فيها تكदार رعيته في العيش في ظلال السلام مع جميع البلاد الاسلامية المجاورة . غير أن الايطالية نفسها لم تتأخر في هذه الرغبة ، معنى لذا اغتنى عرشه سنة ١٢٨٦ أرغون اقلبت سياسة تكدار رأسا على عقب ، واخذ أرغون في احياء مشروع أبنا لانشاء حلف صليبي — مغولي ضد السلطنة الملوكية . على أن هذا

المشروع لم يتحقق يوما من الأيام مع العلم بأن قلاوون خصصه كان يقضي تحقيقه في عهده ، يدلل ما حرص على عقده من مفاوضات وصلات مع منحول القبلة الذهبية والاسبراطورية البيزنطية وملكوك فرنسا وفرنالة وصقلية ، وجمهورية جنوا ، فضلا عن الاسبراطور رودلف هامسبرج ، عتقته في ذلك اثر سياسة بيرس .

وفي طريقه لصد الغزو المغولي ، أي قبل وقعة حصص ، جدد قلاوون الهدنة العامة التي عقدها بيرس في أواخر أيامه مع المدن الصليبية . وكانت هذه الهدنة لمدة عشرة أعوام ، فأضاف اليها قلاوون شروطا مصحفة دالة على مدى ما سارت اليه الامارات الصليبية الباقية من ضعف واضمحلال . ومع هذا لم يكن في ليه قلاوون أن يحترم هذه الهدنة بعد فراغه من المغول ، إذ أراد — مثل بيرس — أن يقوم كذلك ضد الصليبيين بدور عربي مشابه لما قام به سلاح الدين . ولذا لم يكد قلاوون يعلم بخيبة مشروح أرغون في عقد حلف مغولي صليبي ضمه سلطنة الصاليك حتى أخذ هو يركز جهوده ضد المدن الصليبية .

وكان قلاوون عندئذ في الخامسة والستين من عمره ، ويبدو أنه اشقى أن يختم حياته بصفحة من الجهاد الذي أكسب بيرس شهرته في خدمة الدين . وجعل قلاوون هدفه الأول حصن الاستتارية بالمقرب قرب الإمارات الشمالية لامارة طرابلس ، ضاحياء والغص

أسواره في سرعة أذهلت حليته واضسطر  
 الاستسلام إلى التسليم والجلاد في مايو  
 سنة ١٢٨٥ . ثم زحف فلاوون صوب مرقنة  
 وهي قلعة حصينة على ساحل البحر ، وصاحبها  
 تابع اعطى للمكونت بوهيمند السابع أمير  
 طرابلس . وألحق فلاوون الكونت بوهيمند  
 بأنه إذا لم تجرد هذه القلعة من سلاحها  
 ورجالها ، فإنه سوف يشن الحرب على  
 إمارة طرابلس نفسها . فأسرع بوهيمند إلى  
 إصدار التعليمات بتنفيذ ذلك سنة ١٢٨٦ ،  
 في ميثاق إنفاذ الإمارة الطرابلسية . وأسمرت  
 كذلك مرجريت أميرة مدينة صور التي شراه  
 المسلم من فلاوون بشروط من أملاكه ، وعقد  
 نير الثالث ملك فرنسا الصغرى اتفاقية مشابهة  
 تمهد لها بدفع جزية سنوية باهظة للسلطان .  
 وأحس فلاوون بأنه حقق مقام كبيرة  
 من الصليبيين في غير ثناء ، فأقره هذا  
 التوفيق بخصمه القديم سنفر الأكر ،  
 واستطاع أن يخرج من إمارة الواسعة في  
 لسان الشام سنة ١٢٨٧ ، وأن يجعله على  
 القنطرة بالعش في القاهرة بطالا ، أي بعيدا  
 عن الحياة السياسية

وفي السنة التالية ( ١٢٨٨ ) انصرف  
 جهود فلاوون إلى التوبة ، إذ أرسل جيشين  
 تأديبيين لتنظيم العلاقة بينها وبين السلطنة  
 المملوكية على قاعدة التسمية التي أسماها  
 ببيرس سابقا . وفي السنة نفسها توفى بوهيمند  
 السابع أمير طرابلس دون أن ينفذ وريثا ،  
 فأقرت الخلافت الصليبية حول هذه المشكلة  
 فلاوون بالاستيلاء على مدينة طرابلس لنفسه ،

وحاصرها وخرب حصونها ، حتى تم له  
 الاستيلاء عليها سنة ١٢٨٩ . وبعد ذلك بقليل  
 استولى فلاوون على قلعة البعلون جنوب  
 طرابلس بعد أن خربها هي الأخرى ثم عاد  
 إلى مصر حيث أمد العدة لحصار عكا ، وهي  
 البنية القابضة للصليبيين بالتمام بعد أن ادعى  
 أنه التجار المسلمين يعاملون فيها معاملة سيئة ،  
 تبريرا لما بينه من زحف حربي صدها غير  
 أنه مرض ومات قبل أن يحقق هذه الخطوة  
 النهائية ضد الصليبيين وكانت وفاته في  
 ( نوفمبر سنة ١٢٩٥ ) بمستقره خارج  
 القاهرة ، وهو في السبعين من عمره

وإذا اقتضى فلاوون أثر بيرس في سياسته  
 ضد الصليبيين والمنحول ، بحكم تقابله  
 الأهداف والأحوال ، فإنه اقتضى أثر بيرس  
 كذلك في إقامة المباني والحصار في مدن مصر  
 والشام ، بما في ذلك مسجد وشرع مشهوران  
 بالقاهرة . أما المستنفي العام ( البيمارستان )  
 الذي أشاء فلاوون بالقاهرة ، فأكبر  
 مساحته شهرة خاصة ، مع العلم بأن هذا  
 المستنفي لم يكن الأول من نوعه في القاهرة  
 الحضر الوسطى وأنه فلاوون لمنظيره  
 الجيش المملوكي ورفع مستواه ، وأضاف ،  
 فرقه جديدة تبلغ ثلث عدده القديم ، وجعل  
 إقامة هذه الفرقة الجديدة بأبراج القلعة ، ومن  
 ثم تسمى أفرادها باسم البرجة .

وعين فلاوون ابنه الأكبر عليا ليكون  
 خلفا له في السلطنة ، غير أن هذا الابن توفي  
 في حياة أبيه ، فصار أخوه خليل هو الوريث  
 التالي ، برغم ما اشتهر به من ميل إلى العنف

والشر ، فضلا عن الظن بأنه دس السم لخليه  
المحتوف .

ولذا رفض قلاوون التوقيع على تعيين  
خليل لولاية العهد ، وقال : أنا ما أولى خليلا  
على المسلمين ، أملا في الاحتفاظ بولاية  
العهد لابن صبيح أنجي في آخريات أيامه من  
زوجة مولية ثبابة ، اسمه محمد . لكن وفاة  
قلاوون على غير انتظار لم تترك مجالاً للتردد ،  
واقم خليل في السلطة وعلم في اجتماع  
مجلس المشورة بإعلان سلطنته في نوفمبر  
سنة ١٣٩٠ ، وتقلده بولاية العهد ، فقال  
« ان السلطان امتنع أن يعطيني ، وقد أعطاني  
الله » .

غير أن السلطان خليل استأق وراءه  
ما اشتبه به من ميل إلى القمر والملك ، فمكث  
على الانتقام من رجال أبيه ، اغتادا منه بأهم  
السبب في تسوية سببته واتهامه بفساد المسم  
لأبيه . ولذا بدأ حكمه من هذه الناحية  
الداخلية بسلسلة مخيف من أعمال المصادرة  
والتعذيب والسجن والقتل ، وكان الأسير  
طرقاى خصمه القديم أول من ناله كن هذا  
وذلك حتى مات في السجن . وانتابت خليل  
مع هذا نوبات من كرم الخلق وحسن السلوك  
اذ نزل مثالا عن أملاك طرقاى لأبيه ، وأعطى  
أرضي مصر والشام من المتأخر عليها من بعض  
الضرائب من عهد أبيه ، كما أنه أحيا ذكرى  
أبيه قلاوون أحياء سنويا حافلا .

أما من ناحية السياسة الخارجية ، غدت  
أعمال خليل على شجاعة ومقدرة وقوة كما هو

واضح من تصرفاته في أكثر مواقفه . ذلك أنه  
أخذ في تنفيذ مشروع أبيه للزعم على عكا ،  
فأضاف إلى الاستعدادات الكثافة أعدادا من  
الجند وكميات من أدوات القتال ، حتى غاقت  
آلات الحصار حول عكا في ربيع سنة ١٣٩١  
أيه كية سابقة ضد أية مدينة من مدن  
الصليبيين بالشرق ، على أن عكا كانت هي  
الأخرى محصنة محصنا قويا ، ولذا قاومت  
مقاومة شجرة حشرة أيام متتامة ، حتى لمرر  
خليل مهاجنتها والاستيلاء عليها عنوة .

وهنا يطبق المجال عن وصف أعمال  
الشجاعة والبطولة التي بذلها المهاجمون  
والمدافعون سواء ، مع العلم برجعان كفة  
الجيش المملوكية ، بعد أن بات الصليبيون  
وليس لهم في الشام من المدن الكبرى سوى  
عكا . ثم كان الهجوم النهائي على عكا صباح  
يوم الجمعة ١٨ مايو سنة ١٣٩١ ، فعاقت  
المدينة لمدة عشرة أيام في ذلك الصباح  
مبدأا للهجوم والدفاع ، والكر والفر حتى  
انتهى الأمر بهدم تحصيناتها وسقوط المدينة  
نفسها في أيدي جيش السلطان خليل  
ابن قلاوون . وهكذا سقطت عكا آخر معقل  
الصليبيين بالشام ، وفي بضعة الأسهر التالية  
تم الانحلال على سائر المدن الساحلية التي  
كانت لا تزال في قبضة الصليبيين ، فهدمت  
جميعها ، ماعدا بيروت التي استجابت إلى طلب  
النسيج بدون قتال .

وتخيرا رحل السلطان خليل عن عكا إلى  
دمشق ، وفي موكب عدد كبير من الأسرى





والقصور الرائعة ، بفضل ما توافر من الموارد  
انتعشة المستندة من التجارة العالمية ، وبفضل  
ما أجراه الناصر في زمنه من إصلاحات ■ طرقت  
الزراعة في كل من مصر والشام .

واذ تولي السلطة المملوكية بعد الناصر  
محمد لمانية من أبنائه ، واثنان من أحفاده  
ثم اثنان من أبنائه أحفاده على التوالي ،  
فبتطرح من هذا وحده أن شيئاً من مبدأ تولية  
الأبن الأكبر للحكم أخذ محل ما سبق تفصيله  
من تنصيب ابن السلطان المُنقوي مؤقفاً على  
الطريقة المملوكية المعمورة . ولذا أشبهت  
هذه المصلحة الطوية من أبناء السلطان  
الناصر بمحمد سلسلة الملوك المبروالنجين  
المتأخرين الذين حكموا فرنسا أوائل العصور  
الموسلى . غير أن سلطنة الواحد من أولئك  
السلطانين من أبناء الناصر وأحفاده لم تمتد  
إلا بحدود ما سمح به زعمهم أو آخر من زعماء  
المماليك ، ولعل الأمر على ذلك تقريباً حتى  
استطاع برقوق ، زعيم المماليك البرجية ، أن  
يتخلص من آخر سلالة الناصر محمد ■  
سنة ١٣٨٢ ، فأصبح بذلك أول سلطانين  
المماليك البرجية أو الجراكسة ■ مصر ،  
وفي خلال هذه المرحلة التي استغرقتها  
حكم أولاد الناصر وأحفاده ، ومدها بالذلة  
أحدى وأربوئ سنة ، وقعت ثلاث حوادث  
تختلف في أهميتها ودلالاتها في التاريخ  
الملوكى . وأول هذه الحوادث الوباء الكبير  
المعروف في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى

باسم الوباء الأسود ، وهو الوباء الذى أنزل  
الفناء والدمار بأهل مصر وسائر سكان الشرق  
الأوسط بين سنة ١٣٤٨ وسنة ١٣٥٠ ، وامتد  
كذلك إلى أوروبا وأدى إلى خسائر فاحشة في  
الأرواح والمال والزرعة وترتب عليه نتائج  
اقتصادية واجتماعية في الشرق والغرب .  
أما الحادث الثانى فهو أن أسطولاً مؤلفاً  
من سفن قبرص ورودس والبندقية وجنوة ،  
جاء بجنيسود من عناصر مختلفة ، وهاجم  
الاسكندرية في غريب سنة ١٣٦٥ وتولى  
قيادة هذا الأسطول بغرس الأول لوريجان  
ملك قبرص ، وهو الذى أضاع طائفة الرسائل  
الصليبيين المسمومة باسم طائفة السيخ ،  
لاسترجاع بيت المقدس من المسلمين ، واستولى  
هذا الأسطول على الاسكندرية واستباحها  
جنوده أسبوعاً ، فلم يسلم من شرهم ولهبهم  
مسلم أو يهودى أو مسيحي . ثم غادر  
الأسطول مياه الاسكندرية ، بعد أن حملت  
مخنه ما يقرب من خمسة آلاف أسير من  
الرجال والنساء من اليهود والمسلمين  
والنصارى ، ويروى شاهد عيان من المسلمين  
أن سبعين سبيته من هذه السفن أبحرت من  
ميناء الاسكندرية محملة بأرواح الضاليم ،  
فضلا عن هذا العدد الكبير من الأسرى .  
وأعطيت هذه الكارثة مغاضبات شرهت  
للفشل والاعتطاع بسبب ما جرى من حين إلى  
آخر من اغارات قراصنة على سواحل الشام  
ومصر للضغط على السلطان وأخيراً تقرر عقد  
الصالح بين قبرص والسلطة المملوكية



سنة ١٣٧٠ بعد أن توسط بينهما كل من جمهورية جنوة والبندقية .

أما الحادث الثالث فيربط بالملكة السجدة في أرمينيا الصغرى بإقليم قيليقية بأمرافه آسيا الصغرى مما يلي الشام ، إذ دأبت هذه المملكة منذ تأسيسها على تقديم المساعدة للصليبيين في القرنين ، فأصبحت بذلك هدفا للأغارات المملوكية المتكررة .

فلما سقطت عكا في يد السلطان خليل حدثت مملكة أرمينية الصغرى هذه الهدف التالي للحملات المملوكية ، حتى استولى أمير حلب المملوكي على عاصمتها بسس ، سنة ١٣٧٥ ، باسم السلطان شهاب ، ولتتم الأسمراء المتطوعون أراضي هذه المملكة ، بعد إعلان نبيتهم للسلطنة المملوكية . أما ليو السادس آخر ملوكها لانه وقع أسيرا ، وحمل إلى القلعة بالقاهرة حيث قُتِلَ سره إلى أن جرى اقتدائه سنة ١٣٨٢ ، وهذه السنة هي التي صار فيها برقوق أول سلطان في دولة المماليك الجراكسة أو الدولة المملوكية الثانية .

ينبغي للتأري : هنا بعد هذا العرض المابر تصور عام للحكم المملوكي من حيث البناء السياسي ونظم الحكم والجهاز الإداري والاقتصادي ، فضلا عن التركيب الاجتماعي والحركة الفكرية ، والنشاط البنائي الحضاري الذي اشتهر به عصر سلاطين المماليك وأون ما يبدو واضحا من ملامح هذا التصور أن أقلية حرية مملوكية حاكمة مستندة إلى طبقة

عسكرية من المالك هي التي تسيطر على البلاد . ورمز سيطرتها سلطان هو نصب ملوك من هذه الطبقة إلا إذا كان ابن سلطان وأحاط زعماء = الإقلية المملوكية الحاكمة بالسلطان وكلامهم يذوق حاتمهم مثله ممالك صغار في الجيوش السلطاني الخاص أو جيوش الأمراء ثم لتخرج الواحد منهم في الكراب العسكرية تدرجا متناسبا مع طبقته . وكان المالك جميعا - مثل السلطان - له رياء عن البلاد ، ينتمون إلى بلاد وأصول عديدة ، وإذا كان معظمهم في القرن الثالث عشر من مشرقي القفقاز الذين اتسوا اليوم ببيروس وعلايون فإن أفرادا منهم جاءوا من إيطاليا وألمانيا وروسيا والصين وتلقوا أولئك المماليك على أساس من الرومية الاقتصادية ، وفق مراتب عسكرية ووظائف سياسية معينة ، بحيث تحدث في أيديهم جميعا المتناسب العسكرية والوظائف الإدارية فضلا عن الوظائف الإدارية الكبرى واقطاعاتها في مصر وسائر أقاليم الدولة المملوكية . وكانوا جميعا مسلمين منذ اندماجهم في الزمرة المملوكية ، وأطلق عليهم عموما اسم رجال السيف تمييزا لهم من رجال القلم ، وهم أصحاب الوظائف الديوانية المدنية ، من أمالي البلاد المسلمين وغير المسلمين ، ويبلغ عدد غير المسلمين في الوظائف الديوانية ، ولا سيما الوظائف المتعلقة بالأموال وحسابها أعدادا كبيرة معظم الأحيان .



[illegible]

عن تأثيرها في مصائر السلاطين أنفسهم في الحياة الدنيا والآخرة . ولذا بنى السلطان الظاهر بيبرس مسجده العظيم المعروف باسمه ، والذي يعرف به أحد أحياء القاهرة الحالية ، وهذا المسجد بالإضافة إلى المدرسة الظاهرية وهي كذلك بالقاهرة بشارع النجاسين . أما السلطان المنصور فلاوون ، فهو صاحب المارستان المنصوري الذي وصفه أحد مدبريه الأحرار ، وهو أنويري الخورخ ، وسنفا تمصليا في كتابه : « نهاية الأرب في فنون الأدب » ، ولا يزال جزء من هذا البناء يستخدم لمبادئ طبية لأمرافي الصوف ، ويسمى مستشفى فلاوون ، ولهذا السلطان وحده يرجع كذلك بناء المدرسة المنصورية ومدرسة زوجته أم ابنه الأكبر الصالح علي ، ومدرسة ابنه الثاني خليل ، وهذه وتلك فضلا عن القبة المنصورية ، ومكتب السبيل المخصص لتعليم الأيتام .

ثم يأتي بعد ذلك عصر السلطان الناصر محمد بن فلاوون ، وهو عصر الدولة الممطرة الملوكية ، بكل ما في ذلك الوصف من معنى ، إذ استمر الحكم الفعلي المباشر لهذا السلطان مدة اثنين والثلاثين سنة ( ١٣٠٩ — ١٣٤١ ) ، ومظت هذه السنوات الطويلة من أية حروب خارجية أو فتن داخلية كبرى ، فأنصرف السلطان — ونسائمه وأمرؤه معه — إلى أعمال مبنية مختلفة القاصد والمتابع ، وأولها من حيث الأهمية عدد حافل من

برغم أنبيئهم عن مصر التي عدت مركز سلطنتهم ، ثم كان كونهم جديدين على شؤون الحكم جعلهم يشعرون شعورا خاصا بمسئولياتهم ، لو كان حداثة عهدهم بالاسلام جعلتهم متحسين لإقامة العائز الدينية ، من باب التقوى والزهد إلى الله ، أو من باب السياسة واجتذاب القلوب . وكليهما كان الأمر ، فأنصرف آل السلاطين المباليك عنوا أكثر عنابة . بتخليد أسماهم في منشآت مصرية أعطت ملامح القاهرة ومعالها وآفاقها مسحة من الجمال الهندسي والفوق الفني بالإضافة إلى مسحتها التي امتازت بها منذ أيام الفاطميين والأيوبيين .

ومن هذه المنشآت المعمارية الملوكية عدة كبير من المساجد والمدارس والخوانق التي تزين السماء القاهرة ببتايها الرائعة ، من مأخذ سامقة وخاب غامرة ، وتلا أحياء القاهرة القديمة آثار لا يرى فيها الزائر سوى صنها البليغ . وتول هذه المنشآت مفرسة بناها السلطان المزي أيلك التركالي بمصر ( مصر الفتية الحالية ) ، على شاطئ النيل ، قبالة مقايص جزيرة الروضة ، وأطلق عليها اسم الحرية نسبة إليه وهي فيما يرجع أول عباي الدولة الملوكية بالقاهرة ، وأعقب هذه الفتحة المعمارية سلسلة من المباني المتنوعة الدالة بكثرة عددها على استقرار الدولة الملوكية عسما ، واختناع سلاطينها بسا تلك المباي من نصيب في ذلك الاستقرار ، فضلا

الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق والقباب ، إذ هي تبلغ نحو تسعين مبنى ، ومنها على سبيل المثال جامع السلطان الناصر محمد هيبه بالقلة ، ومسجد الأمير الضفا الماردني ، بالبناية ، ومدرسة الأمير إيتقا بمد الواحد داخل الجامع الأزهر ، وبخاها الأمير قوصون بالقراة القبلية ، وقبة عتشر حصن أخضر بالرقاة الغربية ، وجامع سب حدث القهرمانه بعي الناصرية ، وبضيق المجال هاجن ذكر ما عدا ذلك من هذه المباني التي تملأ أوصافها صفحات من كتاب المقرري الذي عنوانه : ٥ المرافق والاعتبار لي ذكر الخطط والأمصار .

وبالإضافة إلى هذه المنشآت طواف الصفات الدينية والتعليمية والثقافية أنجب النشاط المعماري الملوكي مجموعة مصابة ثمانية من القصور السلطانية والدور الأميرية التي بناها السلاطين لأنفسهم أو لأمرهم ، أو بناها الأمراء اقتداء بتمف سلاطينهم بالمصار . وإذا أشتجت جهود السلاطين المسكرين وهم إيتق وقطن وبيرس ، قلاوون وخليل ، عدا قليلا نسبيا من هذه النوع الثاني من المنشآت السلية ، نظرا لاهتمامهم بالمتنشات العسكرية ، فإن هذه القلة النسبية أبرزت عظمة النشاط المصارى الذي استاز ٥ عصر السلطان الناصر محمد ، وتوصل ذلك أنه على حين اقتصر عصر السلطان بيبرس على بناء القصر المعروف بالدار الجديدة بالقلة

( موصف ٢٠٠ - ٢١٢ ) واقتصر عصر السلطان قلاوون على مبانيه التي خدمت الإشارة إليها ، كما اقتصر عصر السلطان خليل بالدار الأشرفية وقصر الرخوف (مواظ - ٢ - ٢١٢ ) استلا عصر السلطان الناصر محمد بعدد كبير من هذه المنشآت البيكنية ، ومظلمها القصر الأبنى الخدي بناء السلطان الناصر لنفسه ، وجعله مقلا على المسجد المخصص لعب الأسراء بالكرة والقوالعة ( البولر ) وعمر السلطان الناصر كذلك القصر المعروف باسم السبع لغات بقلعة الكيلس ( مواظ ٢٠ - ٢١٢ ) ، وجعله لجواريه وسرايه ، كما ٥ عبر بالقلة لكلهم من الأمراء لزواج بناته الأحدى عشرة دارا خاصة . ثم أن السلطان الناصر عمر عدة قصور لغد أولئك الأزواج من كبار الأمراء ، ومنها قصر طقتر الدملقي بحدوة البصرة وقصر بكتسر الساني على بركة النيل ، وقصر بهادر الجرباني بجاء قلعة الكيلس ( مسلوك - ٢ - ٥٤٥ ) . ولم يكتف هؤلاء وأولئك من الأمراء بما أغنى عنهم السلطان الناصر محمد من منقائه ، بل أخذوا يتنافسون فيما بينهم لتشييد قصور عظيمة لأنفسهم ، وهي قصور امتدت على طول الخليج الناصري ( الخليج المصري ) من قرب ميدان بلب الشلق العالي إلى بلدة سرايوس الواقعة على مسافة عشرة كيلو مترات شمالي القاهرة الحالية ومن ٥ القصور دار الأمير ابدغش أمير نخود ، دار أيتقا ، ودار طقزدر .



والهوامش والحواشي عن ظهر قلب وحولاً ،  
وأولئك فضلاً عن الصوقية ، وهم في خواصهم  
وربطهم وزواياهم منصرفون عن المصالح  
والإدريس العتيق من خطن العتق والإرشاد .

يبرس يعقد بها مجلسان يومى الاثنين والخميس من كل اسبوع فيستعرض شئون البلاد والاهل والاعمال ويستمع الى الشكاوى التى تصل اليه . ومن هذه الجانى العامة المتعلقة كذلك دار النجاة التى بناها السلطان

قللاً من الأوقات، وأجملها مقرراً لأعمال نواب السلطنة،

وهي التي صار ثباتها المشهود مصدرا

للتقنية الجيدة والحد الأدنى من التكاليف في المبيعات العامة.

المكتبة في زيمبابوي الإسلامية المجتعية إلى جانب التطوير

مستشار المحكمة في الدعاية لغيره من المحامين

الهيئة العامة للغذاء والدواء

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد خداداد رحلتا، محسنان و آسمانها را در آغوش گرفتند

فأما هذا المذهب فإنه لا يوجب في حق من لم يسمع به من الكفر بالكتاب والرسول

من يظلم نفسه في الدنيا، يظلم الله في الآخرة. فليحذر من الظلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فإنه لا بد من أن يكون لهؤلاء المذاهب أثر في الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية في كل عصر من العصور.

نَحْنُ مَعَكُمْ قُلُوبًا وَبَدَنًا وَنُحْنُ بِأَعْيُنِنَا رَوْحًا لِّجَسَدِكَ

د قیاسیاتو په بحثونو کې د شپږمې څانګې د

قبول السنة كماله على الجمال : قبوله كماله على الجمال

شعبه حسابداری

تاریخ ۱۳۰۲ هجری قمری

تفصیل و شرح: یہ عبارت ہے کہ جو شخص اپنے مال میں سے جو کچھ چاہے دے دے، وہ اس کی مالک ہے۔

عاجلایا راندہ ریلوے قیاسیمنہ ملاحظہ

تعارف سے پہلے گفتگو سے پہلے پہل سے

[illegible]

ضمير ان المجال لا يتسع لغيره **مؤيد المرحوم**

الاجتماعية العائدية ، ولذا يحسن التكامل

بموجب الميثاق المؤرخ ١٢ كانون الثاني ١٩٢٢

الحمد لله الذي جعلنا من عباده المخلصين

المعالم السياحية في مدينة القاهرة القديمة

المواخيل إلى القلعة وكان الجبلاني والظاهر

ليج : الحادي عشر من شهر ربيع الثاني سنة ١٢٨٥

في هذا الموضع، وفيه من أن يقره في العلم، شجيرة

شاه قباک قهالجه ۷۸۴۱ قه

[illegible]

بعداً في الحنة لسهة : في لغة في الحنة لسهة

وَأَمَّا فِي الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ ۖ فَكُلٌّ يَجِدُ الْمَوْتَ إِلَىٰ رَبِّهِ

مجلس القضاء الأعلى في العراق

... ..

لشبهه فسطاطی رسم شده و در حقیقت زینت بنا بوده

[illegible]

سالمه كماله الله تعالى

د. محمد باقر محمد باقری

هذه النسخة

الضاحك في ذلك رجلا رجلا في بيتي نسج

وَمِنْهُمْ مَنْ يَخُفُّهُمْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ فِي يَوْمٍ كَانُوا فِي شَكٍّ مِنْهُ ۚ

## الدولة المملوكية الثانية

للدكتور محمد مصطفى زباد

(١٣٨٢ - ١٥١٧ م)

دور احتياج من الحجة بعض الشخصيات المملوكية التي سبقت حكم السلطان المظفر كما تمت على السلطان الجديد وصوله إلى دست السلطنة . ولذا لم تلبث هذه الشخصيات المملوكية أن تأمرت لأقامة الخليفة الممكوك المسمى سلطانا لى دولة من نوع جديد ، كما لم يلبث السلطان برقوق أن هدم هذه الممارسة سنة ١٣٨٣ ، لكن ممارسة ثانية تكونت سنة ١٣٨٩ ، وزعمها أميران مملوكيان منافسان للسلطان برقوق ، وهما مطاشي أمير حلب ، ويلها أمير ملطية ، واستطاعت هذه الممارسة الثانية أن تضيق على السلطان برقوق وعرضه منيما إلى المكر ، وأنه تقيم العصى حاجي في السلطنة مرة أخرى . ثم هرب برقوق من سجنه ، وجمع لنفسه جيشا استطاع به أن يستعيد مركزه ، وأنه يدخل القاهرة سنة ١٣٩٠ محوفا بأنواع الاحتمال والترجيح ، بعد أن أمر بملع العصى حاجي ، مع السماح له بالاقامة بالخليفة وسط جواربه ومنايه .

وبينا يتغلب برقوق على هذه الأخطار الداخلية ظهرت في الأفق الخارجي أخطار من

دنا الممكوكي الممكوك على حسابة قوية بالحنية التاريخية الدينية ، حين وقف كتابه : « السلوك لمعرفة دول الممكوك » عند منتهى أيام السلطان حاجي بن شعبان ، وهو آخر سلاطين الدولة المملوكية الأولى ، وقال مقبا : « شعبان محبل الأحوال ومدين الدول » ، ثم بدأ في السطر التالي بداية عهد السلطان برقوق ، وهو أول سلاطين الدولة المملوكية الثانية . بعبارة أخرى وقف الممكوكي وقته هذه ليدفع دولة مستقبل أخرى في آن واحد ، لأنه يعلم تمام المعلم أن الدولة المملوكية النجاسة لن تكون في جملتها أو تمسيتها سوى امتداد للدولة المملوكية الأولى من حيث العناصر العضارية ، والتنظيمات الإدارية ، والاتجاهات الاقتصادية والقواعد السياسية ، وهذا فضلا عما اقتصروا بين أهل مصر والشام وغيرها من الولايات المملوكية من الرضى العام بالحكم المملوكي .

— أوله وثانيه — رغم أجنبيته وصغته الاستثنائية على أهل البلاد .

غير أنه لم يكن من المنتظر أن يمر حادث خلع السلطان حاجي واقامة السلطان برقوق



القرات ، وهي المدينة التي شهدت انصهارت الممالك على المول زمن بيبرس وقلادون . أما تيمورلنك فانه وجه كل لعباته وتنهذاك انى جورجيا ( بلاد الكرج ) بأقصى الشمال ، لفتاك حقتش الذى اعتبره أخطر أعدائه ، وأما برقوقى فانه مات ﷺ يونية سنة ١٣٩٩ قبل أن تنهيا له الفرصة وشجاعته وبطولته في قتال المول .

وعلى السلطنة بعد برقوقى ابنه فرج ، وهو أكبر أبنائه ، وأمه بولابة ، وكذلك كانت أم أتابكة تيمرى برقى والد المارح المعروف أبى المعامرس يوسف « مؤلف كتاب : » النجوم الزاهرة » ، ولم يكن فرج عند سلطنته يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، غير أن نصيبه جاء في جو خال من المؤامرات الداخلية المحتاجة عند قيام سلطان صغير « ولم يلبث أن سار الى الشام أواخر سنة ١٤٠٠ على رأس الجيش المملوكى الزاحف لوقف التقدم التيمورى المباشر نحو الأراضي المملوكية . وكان تيمورلنك يتحول وقدذاك جنوبا في سرعة صاعدة ، فذهب حلب واقرب من دمشق . وجرت معركة عنيفة شمال دمشق ، فازتده الجيش المملوكى على أعقاب « بادر السلطان فرج الى الإفصاح الى التساهرة ، وفرك جيشه في كفة المغاور ، فامتسبت دمشق على شروط استخفها المؤرخ ابن خلدون من تيمورلنك ، وتعرضت عاصمة الشام برغم ذلك لكل ما اشتهر به الممول من التخريب .. وبديهي أن السلطان فرج لم يكن كفتا

خاتية الدولة الممولى التي أسسها القلائد الصاعدة تيمورلنك ، وأزعج بها أرجاء آسيا الوسطى والهند والشرق الأوسط ، أواخر القرن الرابع عشر الميلادي . ذلك أنه لم يكند تيمورلنك يعود من فتوحاته المخربة بالهند حتى بدأ متمكنا للحركة بهنوده للبحث عن ميدان جديد للحرب والتدمير ، لحذف على العراق واسطولى على بغداد سنة ١٣٩٣ ، وعلى ماورين في السنة التالية ، وهي مدينة ثابتة للسلسلة المملوكية وقدذاك . ولم يكن السلطان برقوقى نموذج الصاعدة ، فنهض لمقاومة هذا الخطر المهدى « واستطاع أن يقيم جيعة قوية معادية لتهديدات تيمورلنك والذاراته . وأول ما قام به برقوقى في سبيل شكرين هذه الجبهة أنه اتصل بسلوك السلام المعرضة لحيروكات تيمورلنك ، وهم قرا يوسف التركمانى ، وورغان الدين أمير سيواس ، وبايزيد الأول السلطان الشمانى ، وطعنش خان القبيلة النجبية الممولى على جهر الفلجيا . وتوغل السلطان برقوقى من الصلابة والمضجاعة ما جعله يرحب بالجزء الشريد سلطان بغداد المحروقا باسم أحمد اتجلارى الى القاهرة . ولما أرسل تيمورلنك الى برقوقى سفارة لمفاوضته على لائحة الاعتراف بالسيادة النيمورية ، أمر برقوقى بقتل السفراء ، فجبرى بذلك على تخرج ما فعله السلطان قنر قبيل معركة عين جالوت وأعقب ذلك أن احتشد جيش مملوكى عند مدينة البيرة على نهر

[illegible]



وساد السلام أرجاء الدولة المملوكية بمصر والشام ما يجرب من سنة ونصف سنة ولم يسكر سغو ذلك السلام الا خروج نائب صند بالشام ونائب الهند بالاطراف الشمالية ، فأخذ السلطان هاتين المركبتين في سبيله . غير أنه برسبای ارتاع لما ورد في الخمسين سنة ١٤٢٣ من خبر هروب منافسه الخطير جانيك الصرقي ، من سجنه بالاسكندرية ، فأمر بالقاء القبض على كل من له صلة بالأمر الهارب ، ولكن لم يستطع الحصول على شيء من أخباره . وكان لما كان هروب جانيك الصرقي مؤثرا فليما عند مشاكل مختلفة في وجه برسبای في وقت واحد ، وهي خروج نائب دمشق من الشام ، والمارة القراصنة الافرنج على سواحل مصر على البحر المتوسط واستباح الأمير حسن بن عجلان شريف مكة عن الانصراف بالولاء والخضوع للسلطنة المملوكية . وبدأ برسبای بمعالجة هذه المشاكل الثلاث بارسال حملة الى الشام صعبة نائب جديد لدمشق اسمه سودون ، حتى اذا جاءته الاخبار بانتصار سودون هذا على النائب الآخر وسجنه بدمشق ، وجه اهتمامه لمعالجة المشكلتين الآخرين ، وكانت قحادة القراصنة الافرنج وقتذاك جزيرة قبرص اللوزينانية ، فأغار برسبای على سواحلها الفارتين ناجحتين : ثم عزم على الاستيلاء عليها نهائيا سنة ١٤٢٦ . ففى تلك السنة أخذ برسبای جيشا يسانده أسطول كبير من مصر والشام الى المياه

القبرصية ، فاستولى على ليماسول ولاراقا ، وأوغل في الدلفل حتى هزم جيشا قبرصيا بقيادة الملك جانوس لوزينان ، ودخل عامته نفوسيا . وعادت تلك اتحلة المنتصرة بالملك جانوس أسسيرا بين الأسرى ، ثم لم يلبث السلطان أن أطلق سراحه مقابل فدية كبيرة . على أن يصبح تابعا للسلطنة المملوكية في مملكته قبرص . أما حسن بن عجلان شريف مكة فعبرى الحساء قبل نهاية هذه المشكلة القبرصية . وبذلك استردت مصر سيادتها على مكة ومينائها جده وقدم الشريف حسن الى القاهرة صعبا ركب العلاج المصري والجيش المملوكي العائد ، لأكد لبرسبای ولاءه وإخلاصه للسلطنة ، ومحمد بأن يدفع جزيرة سنوية كإحدى لتبعيته . غير أن تصدد إيقاؤه بالقاهرة وعينة حتى يتم تأدية القسط الأول من هذه الجزية .

وجئت قبيل مغادره الجيش المملوكي سواحل بلاد العرب أن وصلب الى جده قافلة من السفن محملة متاجر الهند وذلك بعد أن أضحي ميناء جده خاضعا لسيادة المملوكية ، بعد أن تعهد القائد المملوكي لقائه هذه السفن بتقديم كل ما تحتاجه سفنه من المساعدة . وكان ميناء عدن باليمن حتى وقتذاك ميناء الوحيد الذى زره اليه التجارة الهندية ، غير ان سوء الماملة بهذا الميناء مرفق قائد هذه السفن شمالا حتى جدة ، فآذت هذه الاخفاية الى تحويل التجارة الشرقية كلها اليها تدريجا . ولم تلبث جدة أن أصبحت مركزا ومستودعا

لهذه التجارة الهائلة . واهتم السلطان برسبای صاحب البیادة على جدة بهذا المورد التجارى الجديد . فأنشأ بالقاهرة ديوانا خاصا أطلق على متولیه اسم شاد جدة ، وصار هذا القائد یجمع من هذه التجارة السنوية ضريبة على قاعدة العشر من قيمتها . ولم یکتبه برسبای بهذا الدخل اللجائی الضخم بل عمد الى احتكار التجارة الشرقية كلها لنفسه . فطلا عن صناعة السكر في مصر . وثرّب على هذه الاجراءات ارتفاع جونی في الاسعار بحيث لم یعد في استطاعة التجار الأوروبيین احصائها ، على الرغم من استمدادهم للشراء . واهی هذا الى قیام كل من البندقية وقلنتالة وأرجونة والفكوى والتهدید بمقابلة هذه الاجراءات بمثلا ، أى برفع اثمان هذه السلع الأوروبية الواردة الى مصر والقسام ومعظم هذه أسلحة وحديد ومواد معدنية وحجرة منا یلزم للجبلی المملوكي والتصور المملوكية .

على أن برسبای لم یكتف باحتكار التجارة بل عمد أيضا الى التدخل في المصلحة والتدب بأن یترّس بدار الذهب ، والقصة بما ینفی مع مصلحته ولمحسه ، ومنع تداول النقد الأجنبي کما یفتریه بسمه منصفی . ثم الملاقى تداوله بعد ذلك ، مما أدى الى إلحاق الخسائر الكبيرة بالتجار الوطنیین والأجانب على السواء . واشتد سخط الأهالی أيضا على السلطان بسبب ما اتخذه من طرق تصفية لجمع الأموال ، ومنها رفع أسعار السكر مع

احتكاره على حين امتد الاحتكار واتسعت دائرته حتى شملت خشب الوفود والنعم والحبوب ، ولم یعد یبع الماشية مباحا . ولذا انتشرت المجاعة في جهات كثيرة بمصر ، كما اشتعل الوباء أكثر من مرة بالقاهرة ، وزاد العالة سوءا ما حدث على أبهى غلات المالیك الجبّان من أدی الناس في الطرقات والشوارع .

وثرّب على تطبيق سياسة الاحتكار في الشام أن حل بالتجار والناس من القذالة والمتاعب مثلما حدث بمصر ، فبدأه لم یعرض السكّان لما تعرض له أهل مصر من إساءات المالیين الجبّان لفترة وجردهم بالمسند التصادمية . ثم شجعت الفحاش منذ سنة ١٤٢٩ عدة تجمعات حزبية موجّهة لمراقبة قبائل الركسان ، ومراقبة حركاتهم المختلفة على الأطراف المملوكية . وهم قبيلة القاء البيضاء ، وقبيلة القاء السوداء وقبيلة الدلفادرية ، وكان وراء هذه الحركات العدائية التركمانية شاه رخ بن تیمور لك الذي ساءه وقطع السلطان برسبای السماح له بالمشاركة في كوة الكعبة ، ولذا حالف قبيلة القاء البيضاء ، وشجع زعيمها عثمان قرايكة على تحدي برسبای ومقاومة العصماء المملوكي الذي خربه برسبای بنفسه حول آمد سنة ١٤٣٣ . أما قبيلة الدلفادرية النابتة فعلا للدولة المملوكية توقت ذلك ، فعلاصة حركتهم العدائية أنهم الجأوا الأمير جانك الصوفي الهارب من سجن الاسكندرية منذ

جتفق أن عزل يوسف وسجنه بقلعة الجبل ،  
 وأقام نفسه مكانه في السلطنة في سبتمبر  
 سنة ١٤٣٨ . وبينما يتجهز جتفق للسفر  
 على رأس حملة إلى الشام لقمع حركة  
 المعارضة لسلطته في دمشق وحلب فوالسجون  
 يوسف من القلعة متخفيا في بزي خدم  
 أقطايح السلطانية ، ولحق به مؤيدوه في  
 جوف الصعيد حيث قامت حركة معارضة  
 "طرى ضد السلطان . على أن جتفق استطاع  
 التغلب على هاتين الحركتين في سهولة ، إذ  
 قبض على يوسف في أبريل سنة ١٤٣٩  
 ورسله إلى الاسكندرية ليقضي أيامه بها  
 حبيسا مكرما . وفي الشهر التالي تمسكت  
 حركة دمشق وسار جتفق على لهج بأوساي  
 المعد من الفرسان المسيحيين الذين غلبوا  
 في البحر من جديد ، على الرغم من حرماتهم  
 من موانئ جزيرة قبرص ، وذلك لأنهم جعلوا  
 من جزيرة رودس الشاذلة لينة الفرنسيين  
 الاستارية بوليا ، وأغاروا منها على السواحل  
 المصرية والقامية وغالوا فيها فسادا . ولذا  
 أرسل جتفق في أغسطس سنة ١٤٤٠ حملة  
 لمحاولة الاستيلاء على جزيرة رودس . ومع  
 أن المحاولة تبعدت سنتي ١٤٤٣ و ١٤٤٤ ،  
 فإن الجزيرة استقامت مقاومة الأغيار  
 الملوكية الثلاث درضى السلطان جتفق  
 باتصلح على قاعدة منع الفرسان من اللجوء  
 إلى سواحل رودس ، واحترام مصالحه  
 الفرسان الاستارية في كل من قبرص وسواحل  
 آسيا الصغرى ، وساعد على عقد هذا الصلح

السنة الأولى من سلطنة برسباي ، وأنهم  
 أعلنوا حمايتهم له ، على أن التصر بتحقيق خيرا  
 للسلطان برسباي ، إذ قفى عثمان قرايلك  
 مصرعه في حرب ضد قرا يوسف زعيم قبيلة  
 النشاة السوداء ومات جانيك الصوف  
 قبيلة ، وعاشت قبيلة الدلاغارية التي تبعتها  
 القديمة .

ولم يمض برسباي طويلا لينعم بهذه  
 الانتصارات التي لم يكن يجدر بها البتة ،  
 على قول المقرئ المؤرخ فلماصر « ومات  
 هذا السلطان غير مأسوف عليه ، في يونيو  
 سنة ١٤٣٨ ، بعد أن جعل ابنه يوسف الذي  
 يبلغ من العمر أربع عشرة سنة خلفا له .  
 السلطنة ، وعين أحد خلفائه من الأمراء وسيا  
 عليه ، واسمه جتقي ، وكان برسباي ملكا  
 صوفيا محبا للعدل . ولم يكن ما انظر في  
 عهده من هدوء وسلام طويلا على شيء من  
 الرخاء أو الطمأنينة . الناس ، لأن انتح  
 جزيرة قبرص لم ينتفع به إلا مسالكة ،  
 سياسته الاحتكارية لم تملأ جيوبا سوى  
 جيوبهم الواسعة . أما أهل مصر والشام  
 فتحملوا أنواع الأرهاق أثناء ذلك المهيد  
 الذي امتد إلى ستة عشر عاما لذهبتهم  
 المعارك والفلاحة حتى في سنوات وفرة  
 الحاصل .

ولم يبق يوسف بن برسباي في السلطنة  
 سوى تسعة وأربعين يوما : عمل أثناءها جتفق  
 على جمع مقاليد الأمور في يده . ثم ما لبث

وحب الخمر بالقباس الى ما اشتهرت به  
 حكومة سلفه من الجشع . واتصف بخلق  
 بصفات وغلل شخصية نابعة من تقوى  
 عميقة ، على غير المهود في معظم سلاطين  
 الماليك ، اذ راعى في حكمه ما ورد في  
 القرآن الكريم من احكام ، فلم يتناول طعاما  
 نهى عنه الشرع ، ومنع شرب الخمر ، وحرم  
 استخدام الادوات الموسيقية وكره الملاهي  
 المبهجة والرم وجمال القصر والأمراء بارتداء  
 الثياب القصيرة ، ولقي ثوارهم الطروقة .  
 واشتهر بخلق بسفالة وكرمه مع العلماء ،  
 واعتقد أن الكتاب القيم لا يقدر بشي  
 ارتفع هذا الثمن . ثم مات جشق وهو يناهز  
 الثمانين ، في فبراير سنة ١٤٥٣ ، بعد مرض  
 طويل قل يعايه في صبر وشجاعة مدة سنة .

ونازل جشق عن السلطة وهو على  
 فرائس الموت ، وهو أمر لم يكن له سابقة عند  
 الماليك ، وترك أمر تعيين سلطان بعده للتخليفة  
 العباسي والقضاة وجماعة الأمراء ، اذ استدعى  
 هؤلاء ، أولئك لعرضه ، وخاطبوا الطاهرين  
 قائلا : « الأمر لكم ، انظروا فيمن تملكونه »  
 اعتقادا منه أنهم سوف لا يفتلون ايه . وهكذا  
 أجرى اختيار عثمان بن جشق ليخلف اياه  
 في الحكم .

وبعث عثمان بن جشق التاسعة عشرة من  
 العمر حين صار سلطانا ، أي أنه لم يكن طفلا  
 صغير السن ، غير أنه كان أقصر عمدا من  
 صفار الأبناء الذين خلفوا آباءهم في السلطة.

التاجر القرمسى الشهير جاك كير على أن هذا  
 التاجر الذي سيطر في زمنه على جزء كبير من  
 التجارة بين فرنسا والدولة المملوكية  
 لم يستطع أن يفتح السلطان جشق بضرورة  
 إلغاء السياسة الاحتكارية التي بدأها برساي .  
 وانهج جشق نحو الدول الإسلامية  
 المجاورة سياسة مبنية على التساهل والتطامن  
 فلم يكثر ثل لأراء أمراء المشورة بشأن شأه  
 رخ بن تيمور لذلك بل سمح له سنة ١٤٥٣  
 بأرسال كسوة الكعبة ، فألقى بذلك مشكلة  
 التراجع القائم بين الدولتين المملوكية والتيمورية  
 منذ أيام برساي ، وذلك دون أن يفقد شيئا  
 من حقوقه أو كرامته . وحرص جشق على  
 استمرار العلاقات الودية مع السلطان العثماني  
 مراد الثاني ، وأمراء آسيا الصغرى ، وكان  
 ذلك في سبيل السلام .

على أن جشق لم يحرر من النجاح في  
 الحياة الداخلية ما أحضره في المساحة  
 الخارجية بسبب ما دأب عليه أثناء الممالك  
 السلطانية من حركات التمرد والاساءة الى  
 الأمراء ورجال الحكم والادارة ، مما يملأ  
 صفحات عديدة من التواريخ المعاصرة وزادوت  
 اعتداءات أولئك المالك على الكبير  
 والصغير حتى النساء في أيام المراسم  
 والأعياد ، دون أن يستطع السلطان جشق  
 ردعهم ، وكذلك لم يستطع جشق أن يوقف  
 ما تسرب من الفساد في الاحتكارات التجارية .  
 ومع هذا اشتهرت حكومة جشق بالاعتدال

بالكرامة والاحترام ، ولم يلبسوا أن ملكوا  
زمام الحكم ، فصاروا يملكون ويولون من  
يريدون من الموظفين ، ولم يجرؤ سلطان أن  
يؤثرهم على ما ارتكبوه باسمه .

ولذا يبدو عجا أن السلطان ابنال  
استطاع اصلاح النفوذ العنيفة سنة ١٤٥٨ ،  
اذ أمر بحجب النفوذ التي أصدرها السلاطين  
الساجون منقضة العيار وأحل محلها عملة  
جديدة ، كما أمر بتوقيف انقوبة القصوى  
على المحتجين بنفى النفوذ ، وهم الرقبة الذين  
كثرت أعدادهم منذ أيام التلاهب بالنقد زمن  
برساي .

واصاب السلطان ابنال كذلك فجأحا في  
السياسة الخارجية فالتست علاقته بالسلطان  
العثماني محمد الثاني بالود الخالص ، وذهبت  
من القاهرة سفارة خاصة لتقديم التهنئة  
للسلطان بتفتح القسطنطينية . ورغبت  
السياسة الامالية بما حل " بامارة قرمان وآسيا  
الصحري من لغزات العثمانيين ، وهي اماره  
معروفة بولائها القديم لسلاطين المماليك ،  
وبرتب على ذلك أن اخار أمير قرمان عسلى  
الأطرافه المملوكية بشمال الشام ، واستولى  
على عدة بلاد من اقليم قيليقية ( أى أرمينيا  
الصحري مابا ) ، غير أنه لم يلبث أن ارتد  
عنها بعد أن اضي ابنال الى مصالحت  
سنة ١٤٥٨ ثم تدخل في النزاع حوله ورواثة  
العرش مملكة قبرص التابعة للسلطنة  
المملوكية منذ أيام برساي اذ قدم الى القاهرة

ويرجع سبب خلعه بعد ستة أسابيع فقط من  
اعلان سلطنته الى ميثاقه الذي أدى م الى  
استبعاد جميع فئات المماليك عن شئون الحكم  
ما عدا مماليك آبيه ولذا حاسرته هذه الفئات  
المملوكية برعامة الاتابك ابنال بالفئة في  
مارس سنة ١٤٥٨ وجرى خلعه قبل استلامه  
للمهامير ، بموافقة الخليفة انباس الذي  
اشترك في الاحتفال .

ومع أن ابنال تولى السلطنة وهو  
الثالثة والسبعين من عمره ، وأنه بلغ من  
الأمية والجهل ما جعله عاجزاً عن كتابة اسمه ،  
فأله استطاع أن يثقل في الحكم ثماني سنوات  
وتعمل هذا ، أن السلطان ابنال التزم اللومة  
والمطوعة والابتعاة لمطالب الفئات المملوكية  
التي وصل على مكانها الى السلطنة ، ولا سيما  
فئة المماليك الجلبان . غير أن استمرار  
خضوع السلطان للطالب المالية التي عكفها  
الجلبان على تنفيذها جعل هذه الفئة أجبراً  
مصدر فتنة وخطر على مركز ابنال ، بدليل  
رميم اياه مرة بالحجارة ، وهو في شريقه اليهم  
من الفسقة لتناقضة مطلب من مطالبهم  
سنة ١٤٥٩ . وما زاد الطين بلة أن هذه الفئة  
القائمة اذت بالسلطان ابنال الى الاستعانة  
لمطلب الجلبان ، ووضعت المؤرخ أبو المعانس  
يوسف هذا الامعان في استرضاء الجلبان ،  
بأنه الاحتمال الذي يؤدي الى قلة المروءة .  
والموقع أن الجلبان غدوا بسبب هذه  
الترضيات المستمرة فئة غالبة من كل احساس



ويختلف خشتقدم عن سائر سلاطين الممالك الساجين من الجراكمة بأنه يتنى الى أصل يوناني : واليه ترجع تجربة مريرة في ذكران الجيل ، وهي أنه تخلص بالقتل والمجن والتشريد والمصادرة من أمراء الممالك الذين أقاموه في السلطنة ، وأب الفئات المملوكية بعضها علي بعض ، أملا منه في السيطرة به ذلك على ماليكه الجبلان ، واستخدام شعبهم في الاستيلاء على أموال الأغنياء من التجار ، فضلا عما استولى عليه من أموال الأمراء المصادرين . وهكذا تخلى خشتقدم الجو للممالك الجبلان ، فأخذوا يعيشون قسادا كما يصادون ، ويقتلون الأيرباء ، وهذا على حين ذاب السلطان خشتقدم على جميع الثروة لنفسه بفباع الوظائف الحكومية علنا ، وهمذ مولزين العدالة بمساومة المتقاضين أمامه في دار العدل . وسجوا من ذلك كله ما لجأ اليه هذا السلطان من ريادة كبار الأغنياء ومسيما في بيوتهم ، ومطالبة الواحد منهم بتقديم الهدايا اللالفة بالسلطنة .

أما من ناحية السياسة الخارجية فيعتبر عهد خشتقدم بداية النزاع بين السلطنة المملوكية والسلطنة العثمانية ، وهو النزاع الذي أدى أخيرا الى زوال دولة سلاطين الممالك بصر والشام ، واستيلاء العثمانيين على هذين القطرين أوائل القرن السادس عشر . وبدأ هذا النزاع في سنة ١٤٦٣ بسا

جيس لوزجسلان رئيس نخوسيا ، وطالب بعه في العرش كما طالبت بعهما كذلك أخته الملكة شارلوت لوزجنان . وعاد جيس الى قبر من محبة حبسة مملوكية لتجده ، واستطاع بمساعدة هذه الحيلة أن يحصل العاصمة فيتوبا غير أن النزاع بين جيس وشارلوت استمر بضخ سنوات ولم تظهر نتائج في حياة اينال الذي كانت وفاته في فبراير ١٤٦٩ ، وعرك اينال أسرة اشملت على أربعة أفراد ، بنان وولدان من زوجة وحيدة ، وهو أمر نادر الحدوث في التاريخ المملوكي . غير أن ستارا كثيفا لابد أن يسند على حياة السلطان الشخصية .

وتناول السلطان اينال ، قبيل وفاته يوم واحد ، عن العرش لابنه الأكبر أحمد الذي تولى وظائف مسئولة مختلفة في حياة أبيه ، واشتهر بعنه للإصلاح ، وبلغ الثلاثين من عمره حين آلت اليه السلطنة ، ولذا كان لأحمد بن اينال من الخبرة الإدارية والعباسة والشرج السياسي ما يطر بعنه جديد . غير أن العزمية المملوكية التي رفض السلطان الجديد رخصتها على طريقة اينال اجتمعت على تدبير مؤامرة لاقتصاصه عن العرش وإقامة الأتابك خشتقدم أو غيره مكانه . وتمرضت القلعة لهجوم المتآمرين في يونيو سنة ١٤٦٩ ، ولم يلبث السلطان أن أعلن التسليم . وتم عزله واخبراه من القلعة مسجينا الى الاسكتنبورية وجرت المناقاة بخشتقدم سلطانا .

جرى من اختلاف حول الوراثة في إمارة فرمان حيث أيد السلطان الشماخي محمد الثاني أميراً معروفًا بعدائه للسلطنة المملوكية ، وأمدد بقوة عسكرية مقابل نزوله عن عدة بلاد قريه من الأطراف المملوكية ، غير أن هذا النزاع لم يقد إلى حرب بين الدولتين زمن السلطان خشمقدم .

وجرى خشمقدم في قبرص على سياسة سلمية أيتال لغرض العمل من مجرد المساعدة الحربية للملكا جيس الثاني ضد أخته شارلوت ، وكان هذا الغرض هو التخلص من يد الفئات المملوكية التي عدت قائمة على السلطان بصر والشام ، بدليل تكرار هذه المساعدة الحربية دون الحاجة إليها ، وفي أواخر حكم خشمقدم ، أخذت قبائل البدو تهرح والاضطراب لا في الوجه القبلي فحسب ، بل في الشام وبلاد العرب ، حيث تعرضت قوافل الحجاج لمسطوهم ونهبهم . وسبما تجرى الاستعدادات لأرسال الحملات اللازمة لقمع هذه الحركات البدوية حل المرضي بالسلطان خشمقدم ، ومع أن حملة ساربه فعلا إلى شمال بلاد العرب فإن حملة أخرى إلى الصعيد ، وفضت السير ، إذ فصل قائمها البقساء في القاهرة ليرقب ما ثأني في الأيام بعد موت السلطان . وفي أكتوبر سنة ١٤٦٧ ، مات خشمقدم ، وترك ولدين أكبرهما هو المعروف باسم منصور .

وفي الشهور الأربعة التالية عدت القاهرة

مسرعا لأمورات واضطرابات بين الفئسات المملوكية وتولى السلطنة في هذه السنة العاصية سلطانان . وهضميل ما حدث أن السلطان خشمقدم لم يجر على القاعدة التي درج عليها السلاطين السابقون ، فلم يرشح ابنه منصوراً ليعقله ، ولم يوزع إلى أحمد بترشيحه ، ولم يحتفل زعماء الممالك بدورهم بما عسى يكون للرجل الراحل من رجبات باطنة حوله هذا الموضوع ، بل عقدوا اجتماعا قبيلا وفاة خشمقدم بأحداث قليلة ، وانفقوا على إقامة أحدهم وهو الأتراك بلباي في السلطنة ، وهو المشهور بالجنود ، وجرى إعلانه سلطانا في نفس اليوم بعد الانتهاء من تسريح جنازه خشمقدم ودفنه . وبعد شهرين فقط قرر أولئك الزعماء عزل بلباي فجزلوه ، لأنهم أرادوا إقامة زعيم آخر منهم فقاموه ، وهو ترميزا اليوناني الأصل في ديسمبر سنة ١٤٦٧ . ولم يتم ترميزا في السلطنة أكثر مما أمام سلفه سموي ، فام محموداني ، وتراءى للمعاصرين أن سموي تكرر الحال على هذا المنوال ، ما دامت الفئات المملوكية على ما هي فيه من مناسبات ولتن ، وما دامت زعامتها لا تتطوى الا على أمثال بلباي وترميزا . غير أن المصادفات لم تلبث أن تعيبت وحلا من لوم آخر ، وهو الإنابة قايشاي الذي أقامته الفئات المملوكية سلطانا في يناير سنة ١٤٦٨ ، ظلل منها أنها سوف تتخلص منه سرما كما تتخلصت من سلفيه . لكن قايشاي ظل سلطانا ما يقرب من تسع وعشرين سنة . ويرجع هذا

على أن المشكلة الخارجية الكبرى زمن قايتباي جاءت من ناحية الدولة العثمانية التي أخذت منذ تم لها السيطرة على البلقان تمتل على الأسبلاء على ما تبقى خارجا عن طاعتها بآسيا الصغرى : وهما إمارتا قرمان وذلندار المنسولتان بحماية السلاطين المماليك وعليهما لعنفوت الدولة المملوكية في مسنون الأمن والدفاع على أطرافها الشمالية . ورعى قايتباي معالجة هذه المشكلة بمساعدة والقت السلطان العثمانية والمملوكية لنها على عدم التدخل في شئون هاتين الإمارتين ، وبحسب هذا الاتفاق ظلت العلاقات في وئام ظاهر بين السلطنتين حتى وفاة السلطان العثماني محمد الثاني سنة ١٤٨١ . لم يحدث أن أساء قايتباي إلى السلطان العثماني الجديد بايزيد الثاني باستقبال أبيه ومنافسه الأمير جم بالقاهرة سنة ١٤٨٢ ، بل إن قايتباي قدم لهذا الأمير عدة أنواع من المساعدة للقيام بثورة فاشلة ضد بايزيد الثاني في آسيا الصغرى . ولهذا السبب فضلا عما قام به حال قايتباي من اعتراض سفارة هندية إلى البلاط العثماني ، أعلن بايزيد الحرب على مصر في سنة ١٤٨٦ . فاستولى جيش عثماني على لاهة وطرسوس وسائر مدن قيليقية ، على عين قسام جيش بحصار مدينته ملطية ، وكلها مدن تابعة لسلاطين المماليك وأعقب ذلك بعدة سنين حرب دفاعية هجسومية رجعت فيها كفة الجيوش المملوكية على العثمانية أكثر من مرة ، واختتمت بصلح سنة ١٤٩١ لاعادة

التخبر إلى شخصيته ، كما يرجع إلى خبيثة المشاكل الخارجية التي واجهته منذ أوائل سلطنته وهي مشاكل صرفت الثقات المملوكية عن شئها القديم الذي لم ينقطع منذ سنين ، وأدت بها أخيرا إلى التكتل وراء السلطان في سبيل الدفاع عن مصالح الدولة المملوكية . ولهذا لم يكن عصبه قايتباي أطول جهود دولة السلاطين الجراكسة فحسب ، بل أكثرها توفيقا ونجاحا . وأول هذه المفاصل الخارجية حركة الزعيم التركماني شاه سوار رئيس إمارة الدلفادورية وآسيا الصغرى ، إذ حثه هذا الأمير على الإغارة على أطراف السلطنة المملوكية ، مستدال ذلك على مودة الدولة العثمانية ، فما زالت الحملات المملوكية حتى هزمت وحملت أسيرا إلى القاهرة حيث أعدم أواخر سنة ١٤٧٣ . ولم يكن قايتباي أقل اسما إلى جهوده ضد أوزون حسن ( حسن الطويل ) زعيم الشاة البيضاء الذي حلا له أن يشاخر بالولاء والاخلاص للسلطان قايتباي أثناء حركة شاه سوار وأرخص له قايتباي الصل على الغارب حتى انتهى من هذه الحركة وصاحبها . ذلك أن أوزون حسن كان يطالب بشراكة السلطنة المملوكية في كسوة التكمية ، كما طالب بها قبلا شاه رخ يمسوونك زمن السلطان برساي ولذا عمل قايتباي على عدم هذه المطالبة بأرسال حملة مملوكية نحو أخرى كنزو الأراضي الغرائية التابعة للشاة البيضاء حتى وفاة أوزون حسن سنة ١٤٧٨ .

قبله وبعده ، ومثال ذلك حسن معاملته لجميع من جرى خلعهم من السلاطين وأبنائهم ، إذ حرص على دعوتهم إلى مشاركته في لعب الكرة بالقاهرة ، وسمح لهم بتأدية فريضة الحج ، بل أنه أجاز لهم النزول إلى القاهرة أثناء غيابهم ، ولم تساوره الشكوك فيهم ، ولم يمتحن كيدهم . وأكثر قابنباى من مقادرة القلعة لا للتزده والصيد خارج القاهرة فحسب ولا للحج زلى ، بل لمرعة أحوال المدن والحصون ، لزار جيرون وبيت المقدس والاسكندرية ودمياط ودمشق وحلب ، وبلغ شاطئه المرات . وهو طرف السلطنة المملوكية . واختلف قابنباى أيضا سار آفام دالة على عظمته ، من طرق وجسور ومساجد ومدارس واستحكامات ، ومن هذه القلعة المرولة باسمه بالاسكندرية حتى العصر الحاضر .

على أن قابنباى لم يبلغ ما بلغه من النجاح في سياسته الخارجية والداعلية إلا بفضل شخصيته الخاصة ، وعلى جانب ما اشتهر به من الكياسة والصفحة ، كان قابنباى كذلك سلطانا حازما حسيظا بقوة الخلق على مباليكه الجبلان تمام السيطرة ويغضل مساعدتهم الخاصة له استطاع أن ينجح في طسبط الأحزاب المملوكية الأخرى ، وبذا انتصر للسلطنة المملوكية من مظاهر الأمن عالم يكن مروقاً من قبل . غير أنه كان أماً مشروباً بكثره المطالب المالية الاضافية التي فرضها قابنباى على مختلف طبقات الناس بمصر والشام ، للمصرفه على حملاته العرية وعائره

الأوضاع السياسية التي ما كانت عليه قبل الحرب ، غير أن هذا الصلح لم يكن سوى خفة من تعفان الهدوء قبل العاصفة .

واستطاع قابنباى برغم انصرافه إلى كل هذه الحملات والحروب السابقة أن يجد وقتاً للدبلوماسية الهادئة التي تطلبها جزيرة قبرص بيد أن سار عرشها التي الملكة كاترينا كورفار والتي ترجع إلى أصل بندقى ، وبعد أن لهذا للبندقية كلمة نافذة في شئون ذلك العهد ، ذلك أن الملكة كاترينا لم تواب على دفع ما هو مقرر عليها من جزية سنوية منذ ١٤٧٨ ، فما زال قابنباى يضغط على جبههه البندقية ، ويهدد تجارتها بمختلف التضيقات التجارية بالاسكندرية ، حتى قامت البندقية بدورها بالضغط على كاترينا لوسائل الجزية المقررة في النظام . على أن دبلوماسية قابنباى لم تنجح في كل الأحوال ، إذ حاول ساعته أى عبد الله ملك طرابلس ، بأن يهدد فرديناند ملك اسبانيا المسيحية بتدمير بيته المقدس واستئصال شاةه المسيحيين بمصر والقمام فذ لم يثنه من هذه الحرب بصلح عاجل . غير أن الملك فرديناند أى أن يذهن لهذا التهديد وظل يحارب مملكة غرناطة حتى استولى عليها تماماً ، وكل ذلك دون أن يتمكن قابنباى من تصبذ أية فاحية من تواعى تهديداته .

أما السياسة الداخلية زمن قابنباى ، فأول ميزاتها أن السلطان تتبع طرقاً ووسائل مخالفة لما سار عليه سائر السلاطين العراكمة

التمغمة « فلم يكتف مثلاً بما فرغه على الأملاك المقارية من ضريبة مبلغها إجماع سبعة شهور « بل فرض مكا باعظاف أو أخصر أيامه على ما جرى بينه من القسح . واستند قاضى كذا في استخلاص الأموال من اليهود والنصارى « ولم يسلم كبار موغلي الدولة من مطالبه ، كما لم يسلم منها أعيان الأقاليم الذين أكرمهم السلطان بإيراده الرسمية ، كيما يحصل منهم على هدايا ثمينة لم يقدموها إليه من طيب خاطر .

لم استغل بمصر ويا سنة ١٤٩٣ ، واجتاح القاهرة والأقاليم حتى أغنى ما جرب من مالتى أقب من أهل البلاد ، عدا لئى الممالك من مختلف الفئات « وذهبت ضحيته ابنة السلطان وأما فى يوم واحد . وما كاد يضي على الوفاء سنين حتى أصاب القحط عامة البلاد المصرية ، وتشت الأراضى فى القافية . لم أعقب ذلك موجة من القصب بين الفئات الباقية المشوكية ، ومع أن السلطان بلغ وتذلل الخائف والشمائل من عسره « فانه نهى لأغصام القنته فون سلك دماء سنة ١٤٩٥ ، فبر أن المسيحية أثقله ، والمرضى تغلب عليه وكانت وفاة « بولمجة سنة ١٤٩٦ .

وشهدت القاهرة « السنوات الخمس التى أعقبت وفاة قايتباى عهود خسة من السلاطين ملعت بالقوضى الدخلية والاضطراب ، وأولها عهد محمد الابن الوحيد

السلطان قايتباى من خنقته أفسسباى ، وكذلك عهد خاله قاصصه الأشرقى ، ولذا لم تسخر المال إلا سنة ١٥٠١ ، حين أقيم فى السلطنة أمير شبيه بالسلطان قايتباى من حيث السن والخبرة بشئون الحكم والمصارفة فى معاملة ثلثة الممالك واسمه قاصصه القورى . وعلى الرغم من أن السلطان الجديد تجاوز الشين من عسره « وأنه تولى السلطة بفضل اتفاق جماعة من الأمراء على توليته ، فانه لم يلبث أن أظهر لأولئك الأمراء أنه لن يكون صنيعة أحد منهم . ولم يختلف السلطان قاصصه القورى عن سائر سلاطين الممالك فيما وجهه عند توليته من اجتماع ثلثات الممالك حصوله القاعة والعافهم فى طلب ما جرت به العادة من دفقة التولية ، فبر أنه استغل هذه المطالبة لمعالجة الضائقة المالية التى كدستها أحوال السلطنة المملوكية منذ أواخر أيام قايتباى ، ووعد بتوزيع أموال النفقة المملوكة فى أقرب فرصة . ولذا فرض السلطان القورى من الضرائب الفجائية مالم لشهد حولة الجراكسة له ميلا ، إذ أمر بجباية إجماع المقارات لثمرة شهور دفعة واحدة ، ولم يقتصر فى ذلك على الأندلس والمواثيق فحسب ، بل تعداه الى الحمامات والمواثيق ، والطواحين والسفن ، ودواب الحمل . وقرروا على الأوقاف الخيرية أيضا أن تدفع ما مقدار ربع سنة كاملة ، وهذا فضلا عن تخفيض سعر النقود لمصاحبة الخزنة المملوكية . وترتب

على هذه الإجراءات أن تؤثر على السلطان النجدي من الدخل ما استطاع به أن يدفع أسواق التغطية لغارات المالك بحسب وعده السابق ، كما أنه اشترى عددا كبيرا من الجبلان التي منهم ملوكهم جديدة نسبت إليه ، وهي طائفة النورية . على أن المعروف أن النجدي أنفق جابجا كثيرا من هذا المال كذلك في تسمية حصون الاسكندرية ورشيد وحلب ، وفي اصلاح طريق الصحاح الى مكة ، وتشييد مسجده ومدرسته بالقاهرة .

ولذا ساد الهدوء مدن السلطنة المملوكية ، رغم ما أمعن فيه من جمع الأموال ولم يقع من الحوادث ما يكره صلو الأمن في السنوات الأولى من عهده ، ما خلا حركات البسود المعتاة في مصر والقمام ، وما طلبته من حملات قادية على نحو ما جرى زمن جميع السلاطين ، غير أن ما حدث من وصول البرتغاليين الى الهند واقامة أول محطة تجارية أوربية على الساحل الغربي الهندي أخطأ مؤثر منذ أوائل عهد النجدي في التجارة الشرقية المتدفقة على مصر والقمام عن طريق عدن وجدة ، إذ ذهبت مسند التجارة القسمة تدريجيا الى أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح . وذهبت معها حصة كبيرة الضرائب الرومية الهائلة منه مرورها بالموانئ المصرية التي جمعها سلاطين الممالك على هذه التجارة ، كما ذهبت أرباح التجار المصريين والناسمين الى البرتغاليين . وأضاف سوءا

الى هذه الحال ما عدا اليه البرتغاليون من مهاجمة السفن المصرية في بحار الهند ، وقبت النجدي استمع وقتذاك لما كرده له جمهورية اتبندقية من النصيح ، غادر الى استخدام القوات البحرية المملوكية لوقف الاعتداء البرتغالي قبل استفحاله ، لكنه حاول الوصول الى تسوية سلمية ، وبمضي رمسولا الى روما سنة ١٥٠٤ يسكنوي الى البابا يوليوس الثاني تضمن التهديد بتدمير الأماكن المقدسة ل لمسلمين اذا لم يتمتع ملك البرتغال من اذى مصالح التجار المسلمين بالهند ، وتهديد سفنهم التجارية . غير أن هذه السفارة لم تحقق شيئا ، وترتب على ذلك أن أعد السلطان أسطولا كبيرا في البحر الأحمر لقتال البرتغاليين في البحار الهندية وهاجم هذا الأسطول المملوكي البرتغاليين في ميناء شول فالهند سنة ١٥٠٨ ، واستطاع بمساعدة قوات بحرية من سلطنة جوجيرات الاسلابة ، أن تنزل الهزيمة بالبرتغاليين . غير أن البرتغاليين انقسموا لأنفسهم في السنة التالية في معركة ديو البحرية سنة ١٥٠٩ ولم تتم للتجارة المملوكية في الهند بعد ذلك قائمة .

ولم يضي على معركة ديو البحرية سوى سبع سنوات حتى زالت السلطنة المملوكية من الوجود على يد السلطان العثماني سليم الأول ، وذلك أنه منذ صلح سنة ١٤٩١ بين السلطان قايتباي والسلطان بايزيد الثاني ، ظلت العلاقات ودية بين الممالك والعثمانيين .

وينا تروج القاهرة وأهلها بأجساد  
هزيمة السلطان قانصوه الغوري ومصرعه ؛  
جرى اختيار سلطان جديد في أكتوبر  
سنة ١٥١٦ وهو الأمير طومانباي ، الذي عهد  
إليه قانصوه بشريفه أمور الحكم أثناء  
غيته . وقبل طومانباي السلطة كآرها ، بعد  
أن أقسم الإمراء له في مقبرة ولي من أولياء  
الله وهو الشيخ أبو السعود ، بأنهم سوف  
يبدلون أموالهم وأتقسم ❦ سبيل دفع  
العثمانيين عن البلاد .

أما العثمانيون فأسرعوا ❦ رخصهم نحو  
مصر ، وعلى الرغم مما بذله طومانباي من  
جهد لوقف الزحف السريع حلت الهزيمة  
بالجيش العثماني أولاً في بيان قرب غزة ، ثم  
في الريدانية خارج القاهرة . ووقعت معركة  
الريدانية في يناير سنة ١٥١٧ ، وفي اليوم  
الثاني لتوقعها تم الانسحاب بسليم الأول  
سلطاناً على مصر والشام وجرى الضربة بأسي  
من منابر القاهرة واستمر طومانباي يناضل  
بضعة أشهر ، غير أن الهزيمة حلت به مرة بعد  
مرة ، ووقع أخيراً في قبضة العثمانيين وجرى  
إعدامه شاء في أبريل سنة ١٥١٧ ، على باب  
زويلة ( بوابة الكثرى الحالية ) ، وبذلك انتهت  
التيهي أسر المملكة المملوكية .

ولابن إياس المؤرخ في وصفه الأيام  
الأخيرة من حياة طومانباي عبارات مؤلّها  
الحزن على ما صارت إليه مصر من التفرّج ،  
بعد هزاج السلطة المملوكية دمجه .

ثم ما لبثت هذه العلاقات أن تحولت تحولا  
خطيرا سنة ١٥١٦ ، بعد سلطة سليم الأول  
العثماني الذي اشتهر بألماعه التوسعية  
اشياعا للحركة العثمانية الذاتية ، وتحقيقا  
لسيطرة العثمانيين على العالم الاسلامي ،  
فما كاد يتمي سلهم من هزيمة الشام اسماعيل  
أول ملوك الأسرة المنغولية الشيبية بإمرانه في  
معركة تيمالدران سنة ١٥١٤ ، حتى وجه  
اهتمامه الى الأطراف المملوكية العثمانية بآسيا  
الصفرى ، فاستولى على اسسارة دنشاور  
وعاصمتها الألبانيين ، رغم الصلح القائم بين  
أصاليك والعثمانيين . ثم عزم سليم الأول على  
محاولة السلطة المملوكية ، فانضمد من  
الانهايات النافذة التي وجهها الى السلطان  
قانصوه ذريعة للحرب ، والتي بالجنين  
المملوكي في أغسطس سنة ١٥١٦ ❦ دابق  
شمال حلب ، حيث انهزم السلطان قانصوه  
هزيمة ساحقة ، ولقى حتفه في المبدأ . ورجع  
هذه الهزيمة الى تفوق عدد الجيش العثماني ،  
والى المدفعية العثمانية التي لم يكن لدى  
الجيش المملوكي ما يقابلها ، وهذا وذلك فضلا  
عن غياب قائد الجيـش صاحب الأسر للجيش  
المملوكي ، واسمه جابر بك ، وهو الذي لفته  
التاريخ باسم خاين بك . فسلط له حطب  
دون مقاومة ، كما سلمت له دمشق كذلك بعد  
مفاوضات قصيرة ، ولقى العثمانيون أيضا حلوا  
كل مقارح الترحيب بمعينهم لانتفاذ البلاد  
وتخليصها من للماليك .

البلاد المصرية والشامية ، على غرار ما كان.  
للدولة المملوكية الأولى من هيبة عامة في  
قلوب الناس ، بفضل توفيقاتها في احياء  
الخلافة العباسية بالقاهرة ، وفي دفع الخطرين  
الصلبيين والمغول من البلاد .

أما العوامل الداخلية التي مكنت لهذه  
الدولة استمرارها رغم قصور سلاطينها عن  
مستوى سلاطين الدولة المملوكية الأولى ،  
فلا مشاحة أن أول هذه العوامل هو أن  
الممالك سيطروا على جميع الوظائف  
العسكرية والادارية كما سيطروا على وظائف  
البلاط السلطاني ، ثم هم حرصوا — ابتداء  
من السلطان الى المملوك المجلوب حديثا —  
أن يظلوا طبقة أولي حركية متارة منزلة عن  
ساكني أهل مصر والشام وغيرها من الولايات  
المملوكية ، ومن هذه الطبقة ألفت فئات  
الجهار العسكري الوحيد في البلاد .

وأدركت هذه الطبقة ضرورة التكتل  
والتمسك بين أجزائها ، وعرف كيف تعصر  
ما وقع من منازعات داخلية في دوائرها  
المملوكية ، ولم تلتزم في هذه المنازعات  
مساعدة المصريين أو البسند بالأقاليم ، ولم  
تقبل أن يتدخل فيها جيرانها ، ولم يخرج على  
هذه القاعدة سوى فئة من الأمراء المستردين  
الفارين التمسوا لانفسهم مأوى خارج البلاد ،  
وتسببوا للسلطان القاتم في الآلة القلائل على  
أطراف السلطنة ، على أن معظم البلاد  
المجاورة لم تستجب لحركات أولئك الأمراء

المشائين . على أنه لم ير في ذلك التفسير شيئا  
الاما جرت به المقادير التي ليس لافسان عليها  
سلطان ، ولم يدرك — أو أنه لم يستطع أن  
يدرك — أن عوامل داخلية وخارجية كثيرة  
كانت تتخرق الجسم السياسي للدولة  
المملوكية ، وأن معظم هذه العوامل وارد  
صراحة وتليقها في تاريخه الكبير . وحز في  
نفس ابن أبيس أن مصر صارت ولاية تابعة ،  
بعد أن كان سلطانا على قوله « أعظم  
السلطين في سائر البلاد لماطية ، لأنه خادم  
الحرمين الشريفين ، وحامي ملك مصر الذي  
افتخر به فرعون ... » .

وعاقب ابن أبيس بالفساده سنوات  
طويلة بعد حلول المشائين بالبلاد وشهد  
بنفسه التلاقي مصر الى بداية عهد أجمعت  
المراجع على أنه من أحلك العصور في التاريخ  
المصري الطويل .

والا اختلست السلطة المملوكية في مصر  
والشام وغيرها من الولايات المملوكية على  
هذا النحو الكبير ، وذلك بعد مرحلة زمنية  
بدايتها ١٣٨٢ م وانتهى ١٥١٧ م ، في مدة مائة  
وعش وثلاثين سنة فلا تقل من استمراري  
بعض العوامل العامة التي مكنت لهذه الدولة  
أن تكتسب قوتها في شيء من الاحتشاد  
الداخلي ، والخارجي كذلك . أما من الناحية  
الخارجية فمن الواضح أن الأعمال المملوكية  
في قبرص ورودس وأطراف الرائق وآسيا  
الصغرى جعلت للحكم المملوكي هبة عامة في



المتروين ، بل فضل ملوكها البقاء في سلام  
ووثام مع السلطان المملوكي .

ثم ان السلطة المملوكية توغر لها جهاز  
اداري يالقن الدقة والمقدرة على الاستمرار  
الذاتي ، برغم ما أحاط به أحياء من مظاهر  
الاضطراب لأن عامة موعض هذا الجهاز  
الأدري كانوا من المصريين والعلمانيين على  
اختلاف عقائدهم الدينية ، فلم يميلوا بما  
جرى في فوار السلطنة ، أو بين زعماء  
المماليك من انحطاد ومنازعات .

والواقع أن أهل مصر وانضم لم يبدلوا  
لحكامهم المماليك متعصب كثير ، لم يفسوا  
بروافة الأرض ودفعوا ما هو مفروض عليهم  
من خرائب ثقيلة متعددة ، ومنعوا ما احتاج  
اليه السلطان والامراء والجيش من معدات  
مدنية وعسكرية ، ورفضوا بما أصابت عليهم  
أعمالهم في الزراعة والصناعة من أرزاق يرمية  
قليلة . ولذا لم يكن أهل مصر والشام أداة  
راضية في أيدي السلاطين فحسب ، بل أداة  
طليعة كذلك ، وكان ما اشتهروا به من الوداعة  
والهدوء مما يسر السلاطين المماليك بأن  
يقوموا بحروبهم خارج البلاد ، أما البدو  
بالأقاليم الذين لم يميلوا بما للسلطان من  
سلطان فلم يشتهروا بما اشتهر به المصريون  
والعلمانيون من الرضى العمام واليسل إلى  
السكون والهدوء ، بل كانوا يميلوا على  
الحكم للملوكي منذ أيامه الأولى ، وكانت  
كرهيتهم للمماليك مبنية من أسباب انهيار  
المقاومة المملوكية ضد المنانيين .

ويستطيع سلاطين الدولة المملوكية الثابتة  
أن يفخروا بمدد من المباني التعليمية  
والتذكارية ، فضلا عن المآثر التجارية الدالة  
على ما بلغت تجارة مصر الخارجية في زمنهم ،  
من ضخامة وتنوع زمن هذه الدولة ، سواء  
مع لمربا وإسبانيا والجمهوريات الإيطالية  
من ناحية ، أو مع الهند والصين من طريق  
البحر الأحمر من ناحية أخرى . أما المباني  
العلمية والتذكارية فأهمها ، مدرسة السلطان  
برقوق ، وموضعها شارع المنار لدين الله  
الحالي ، وهي المدرسة التي ألقى فيها الخرخ  
الفن من الرمح ، خلدون دروسه في  
منصب المالكية . ولعله أنه تظل هذه  
الدروس انشازات كثيرة التي تظفراته  
الأجنبية والاقتصادية التي استلأت بها  
مقدمته المشهورة . وهي النقريات التي تثر  
بها الميريزي في مؤلفاته . ومن هذه المباني  
كذلك ، خاتمة السلطان فرج بين برقوق ،  
وموضعها القرافة الشرقية العالية بالقاهرة ،  
ثم مسجد الخريد شيخ ، وهو المسجد الذي  
ظل حائلا بطلقات مدرسية أزهرية حتى  
العصر الحديث ، وموضع هذا المسجد  
بالسكرة بهوار باب رولة ( بوابة المنولي ) .  
وهناك كذلك المدرسة الأشرفية برباي ،  
وهي التي وفق الانتهاء من بنائها فجاء  
الأخبار إلى انقارهم يوسف الملك القبرصي  
جانوس الثاني سيرا إلى الإسكندرية في  
ركاب الحملة المملوكية المائدة من قبرص ،  
ولذا أمر السلطان برباي بتعليق خروطة

جائوس على باب تلك المدرسة ، تذكارا لتبعة  
 قبرحي للسلطنة المملوكية ، ولا تزال هذه  
 المدرسة قائمة على رأس سوق الطيرين  
 بالماهرة الحالية . وللسultan يرسى كذلك  
 خافاه ومدفن بالقراة الشرقية ، فضلا عن  
 مسجد لا يزال كذلك قائما بقدة الخانكة  
 الحالية ، شمالي القاهرة . وللسultan اينال  
 كذلك خافاه ومدرسه ومدفن بالقراة  
 الشرقية ، أما السultan قابتبى وهو الذى  
 ظل فى دست السلطنة المملوكية لمابسا  
 وعشرين سنة مبلادية ، فهو صاحب أكبر  
 مجموعة من المنشآت المعمارية ، ومنها مسجد  
 ومدفن بالقراة الشرقية ، ومنها كذلك القلعة  
 التى بناها هذا السultan بالإسكندرية على  
 أقاصى المنار القديم ، ولى ناله لها دلالة  
 واضحة على خشيبة الدولة المملوكية من ازدياد  
 القوة البحرية العثمانية ، بعد أن أخذ  
 السلاطين العثمانيون يمدون أبصارهم نحو  
 جزيرة رودس وسواحل آسيا الصغرى .  
 وللسultan المورى مدرسة وقبة بصحار  
 الجامع الأزهر ، ولا تزال القبة تستخدم  
 لأغراض ثقافية ، وهي إحدى اقرب المملوكية  
 التى شاءت المقادير أن يموت صاحبها بعيدا  
 عنها ، فلا يدفن فيها ، وما يشيد باسم  
 السلاطين : قابتبى والصوري فى مباحين  
 المنشآت المعمارية ، وكالة قابتبى عند باب  
 النصر ، ووكالة الصوري فى نهاية شارع  
 الصورية ، وكلاهما كنز زاخر بالمعلومات الدالة

على المستويات التجارية والضيعة أواخر عصر  
 سلاطين المماليك .

واحتذى عدد من أمراء الدولة المملوكية  
 الثانية حذو سلاطينهم فى البناء والعمارة ،  
 كما حدث أبام الدولة المملوكية الأولى ،  
 ولكن على مقياس أصغر من حيث المصفاة  
 والمصفاة والكثرة العددية ، فبنى جركس  
 الظلي الخلال المروى باسمه ، وهو الموق  
 الذى يمد أحد الباهج السباحية بلقاهرة  
 المصور الوسطى ، وبنى القاضي يحيى  
 مدرسته الكائنة بشوارع الأزهر الحالي  
 ومسجده الأول بشوارع الخنكة يسولاي  
 ومسجده الثانى بالبحارية ، وترجع لمهسد  
 قابتبى هذه بيان اميرة ، أولها مدرسة الأمير  
 قبحاس الاسحافى ، ومدرسه أبو بكر مزهر ،  
 وقبة يشيك بن مهدي الدوادار ، وهى القبة  
 الصاوية بالبحارية .

وهناك كذلك مدرسة أؤلك البوسنى فى  
 طولون ومدرسة قسرى يردى المؤدى  
 بالمصلبية .

ولى هذه المباني السلطانية والأسجدة  
 ما يبرهن على أن سلاطين الدولة المملوكية  
 الثانية وأسرارها لم يتكولوا أقسل اهتماما  
 بالمباني الدينية والتفكارية عن سلاطين الدولة  
 المملوكية الأولى وأمرائها ، طوعية نقص  
 العوامل السابغة ، واتساعا لنفس الأغراض  
 الدينية والأخرى .

واعتر سلاطين الدولة المملوكية الثانية

الاجتماعية والاقتصادية في حقائق دروسه ،  
 وتأثيره في تلميذه أحمد المقرئ وغيره من  
 المعاصرين الذين تملذوا عليه . ووضع ذلك  
 أول ما وضع في كتاب صغير عنوانه : « التزاع  
 والخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم »  
 حيث أرجح المقرئ مشكلة اسلامية كبرى  
 التي جذور قديمة قديمة ، كما وضع في كتاب :  
 « الملوك معرفة دول الملوك » حيث خصص  
 المقرئ تأليفه عظميا في أربعة أجزاء ضخمة  
 لتاريخ مصر زمن المولتين الأيوبيين والملوكية  
 حتى سنة وفاته ، وهو الكتاب الذي ظفرت  
 الإشارة اليه في الفاتحة من هذا الفصل .  
 ويلاحظ ان المقرئ خصص كتابا آخرى  
 لمصور معية من التاريخ المصري ، مثل « عقد  
 جواهر الأسفاط في ذكر تاريخ الأسفاط » ،  
 و« معاد العنقا بأخبار الأئمة الخلفاء  
 الفاطميين » .

وتبدو **الزخمة المصرية القومية**  
 الغالبة في مؤلفات أخرى للمقرئ مثل :  
 « الملقى الكبير » الذي أراد المقرئ أن يجعل  
 منه مجلدا مصرية قوميا من أقدم المصور إلى  
 عصره ، ومثل « درد الموقود القويمة في تراجم  
 الأعيان المنيمة » وهو مجلد قومي لمعاصريه .  
 واحتضنت هذه الزخمة القومية في تلاميذه  
 المقرئ والتابعين لهم ، فكتب يوسف بن  
 غزوى بردي تاريخه الضخم المسمى : « النجوم  
 الزاهرة في أحوال مصر واتقارها » وكتب  
 عبد الرحمن الميوسى : « حسن المعاصرة في

بالقلم اعتبارا ملحوظا » وهم الذين نشأوا  
 بها — واشتهروا باسم البرجية نسبة إلى  
 سكنهم بأرجحها ، ولم يكن لديهم من الحروب  
 الخارجية ما يضطرهم إلى القتل والقتل  
 بعيدا عنها ، بل كان لديهم من القتل الداخلي  
 ما جعلهم يتمتعون بها ، وكذا أقاموا بيوتها  
 أكثر مما أقام سلاطين الدولة المملوكية  
 الأولى . على أنهم لم يصدروا بها جديدا ، نظرا  
 لإكمال ما فيها وأسوارها وأبوابها وأبراجها  
 وأحواشها ، فضلا عن يسوتها السكية  
 والحكومية ، منذ أيام سلاطين الدولة  
 المملوكية الأولى . ولذا اقتصر اهتمامهم بها  
 على أعمال ترميمية وإضافات تكميلية  
 وتحديثات تخصصية ، ومنها على سبيل المثال  
 لا الحصر أن السلطان برقوق عثر بها مسرى بها  
 وطاحولا ، واشترى بها خمسة مائة  
 العدل ، وأن السلطان جقمق جسد باب  
 المدرج ، وأن السلطان قايتباي **جسد** عسكرة  
 الأيوان الكبير ، وأشا مقعدا وبجبر بالعروش  
 السلطاني ، كما أن السلطان المورى جسد  
 عسكرة المنطبع الكبير ، وأشا المقعد القبطي  
 الصغير .



والى هنا تكون الدولة المملوكية الثانية  
 صورة مكثرة تقريبا من الدولة المملوكية  
 الأولى . بعد تصغيرها غير أن هذه الدولة  
 المصغرة امتازت على سالفاتها بما أنجبت من  
 حركة جديدة في كرامة التاريخ ، بفضل قدم  
 ابن خلدون إلى القاهرة وقيامه بشرح نظرياته

تاريخ مصر والقاهرة « كما كتب محمد بن  
اباس : « جذائع الزهور في وقائع الدهور » ،  
وهو كذلك في التاريخ المصري .  
ويبدو تأثير ابن خلدون واضحا في نوع  
جديد من المؤلفات ، منها : « لغاة الأمة  
يكشف الغصة » للفريرى ، « وعلان بالتوسخ  
بن ذم الباربع » للسبحاوى ، « والصاربع في  
التاريخ » للسيوطى .

وفي هذه العناوين شواهد بليغة ظاهرة  
بالتطور في مفاهيم التاريخ ، ولكننا شواهد  
لم نلبث أن زالت بزوال ما لمصر من كيان  
سياسي ، نتيجة للفتح العثماني الذي جعل  
البلاد المصرية ولاية تابعة للدولة لا تعرف  
ولا تفكر من اتلفة العربية وراثتها حسوي  
النرد السيد القرووي لشرف الدين .

# الحياة الدينية في مصر الإسلامية

من ظهور الإسلام إلى مطلع العصر الحديث .

لؤي ستازينسكى

جزء المنهج :

الدين . . والتدين

« هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً ، لينتري ،  
السحاب الثقيل ، ويسبح الرعد بصمده ،  
واللائحة من حبلته ، ويرسل الصواعق فيصيب  
بها من يشاء » .

سورة الرعد آية ١٢ و ١٣ .

منذ وجد الانسان على ظهر هذا الكوكب الأرضي ، قبل أن يكتب تاريخه وبعد ما كتبه ، كان يبحث في حياته هذان السطوران : الغوف والضح ، 'أنا نوتف' أمام الفواهر الجبرية ، 'أرضي وساموي' ، وأصحابه الواضح بضمعه ، وعجزه ، وجهله ، آمسار : ضغانتها ، وشبولها ، ولغوونها ، وتكرارها .. وما إلى ذلك .

ولذلك عدين الانسان في كل زمان ، وكل مكان لونا ما من ألوان الدين ، يتوخ ما من أنواع الدين .. خرفت له دبابات رئيسية : مختلفة في أعضاء الأرضي ، كما كانت له دبابات توحيدية ، في أرجاء من الدنيا .

والدرس العلمي لظلالهرة التسعدين ، والأديان المختلفة يفضي على منهجه المحرر ، وهو انحاء يفضي أن يجد فيه صاحب دين مساوي : مسلما أو مسيحي ، أو غيرهما شيئا من غضاضة ، أو مساسا بكرامة عقيدته ، اذا جمع الدرس بينها وبين ألوان من التدين

اليدائي أو المنظور ، لا يمتدحها صاحب الدين  
السوي الا بأساطير ، أو حرافات ، أو  
تحريفا شوهت عقائد سلفية الأساس ،  
كرية المصدر .

ومن أجل هذه الخشية انتحرة عدنا  
هذه الكلمة عن الدين .. والدين ، لنقول  
فيها لكل هذا المنسرج أو المنسرج لصلى  
مقررات المنهج العلمي الاجتماعي ، في درس  
لتاريخ الأديان ومفادها .. الخ : ان هذا  
المنهج لا يسيء الى الأديان السماوية منزلة ،  
حين يقرنها في درسه الى الديانات الأخرى ،  
التي يمتدحها الديانات السماوية مناسلات ،  
وخرافات ، أو تحريفات تعذلق مسجحة .

نعم .. لا يسيء ذلك الى الأديان السماوية  
في شيء ، ويبين هذا بياناً كافياً وقوف الاسلام  
بخاصة ذلك الموقف الذي يقدم لنا تفسيراً  
يقر العلم فيما يصل به بين هذه الديانات التي  
يختلف لعلم المتقدين اليها ، وهو موقف  
يتجلى في صلب اجتهاديين دينيين ، قد  
قررهما القرآن في صراحة ووضوح ، وفيهما  
التوفيق بين تناول العلم ، وتكريم المؤمن  
لعقيدته ، وبهما تصر الجمع بين أديان هي  
تحريفات ، أو ضلالات في رأى المؤمنين مع  
غيرها من الأديان المنزلة ، فبهما يسكن للعلم  
أن يسلكها معاً ، حينما يدور ظاهرة الدين  
الانسانية .

وهذان الأصلان الاسلاميان اللذان  
يحييان هذا التوفيق هما : —

أولاً — وحدة الأديان ، التي يقررها  
القرآن ، بوضوح وصراحة تكررت في مثل<sup>(١)</sup>  
آية ١٣ من سورة الشورى : شرع لكم من  
الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا اليك ،  
وما وصينا به ابراهيم ، وموسى ، وعيسى أن  
أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه .. الآية ..  
فهر يقرر أن الحقيقة التي شرعها لينا وهي  
في الرسل المتعبدية واحدة .. والوحى الذي  
أوحاه اليهم جميعاً متماثل .. وهذه الرسالات  
قد دخل عليها مع الزمن من التبخر ما دخل ،  
وجرى حولها من التغايف والتناكر ما جرى ؛  
كما يحدث المراتك شيه من ذلك فيها :  
اليهود والنصارى وسواهم ، لكنه مع ذلك  
كله يقرر وحدة أصلها ، وأن ما أوحى الى  
رسلها ، وأوصوا به واحد . والصلة بينها  
قائمة في الأصل ، وفيهم العوامل التي طرأت  
عليها في تأثرها وتطورها يبيح لباحثها أن ينظر  
اليها في مثل هذه الوحدة ، وأن يلتبس  
العوامل الفعالة في حياة هذا الأصل الموحد ،  
وما طرأ عليه من تغيرات ، دون أنه يجد  
المؤمنين المخلصين غضاضة في الجمع بين ما صارت  
اليه رسالة نوح و ابراهيم ، وما في رسالة  
موسى وعيسى ويحدد بينهما مثلاً .

(١) في معنى هذه الآية المخرجة للوحدة  
الدينية آية ١٦٣ من سورة النساء : اما أوحينا  
اليك كما أوحينا الى نوح وإبراهيم من بعد  
وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ..  
الآية . وآية ١٦٦ من سورة البقرة : وآية ٨٥  
من سورة آل عمران ، وغير هذه الآيات مما  
حاجة بنا الى احصائه .

وثاني الأسلوبين اللذين يخرجهما الإسلام :  
وسمحان للمنهج العلمي بخطته هو : أن كل  
أمة قد جاءها نذير ، أى أنه قد امتلئت إليها  
رسالة مبلغة ، كانت مناسبة لوقتها ، ملائمة  
لحالها وهو ما نقرؤه قويا ، بصيغة القصر في  
آية ٢٤ من سورة فاطر : وإذا من أمة إلا خلا  
فيها نذير .. ونقاهرهما إلى حد ما آية ١١ من  
سورة إبراهيم : وما أرسلنا من رسول إلا  
بلسان قومه ليبين لهم ..

وما دام الأمر كذلك فممكن أن يقال :  
أن ما عند كل جماعة بشرية من دين قد جاءها  
على يد نذير ، وله أصل سائرى . ثم تغير مع  
الزمن كما تطفئ بذلك سبحة التطور ، فإن كانت  
فيها حقيقة أو حدثي قد حانت بها رسالات  
سماوية أخرى فليس ذلك مما انفق فيه تدين  
خرافي أو ضلال مع تدين سماوى ، ينزعه  
المؤمنون ، بل هي من الحقائق التي اشتركت  
فيها الوحدة الدينية في الرسالات ، ووصية  
السماء ، وما حولها من جائل في رأى المؤمنين  
هو ما لحقها من تشويه أو تحريف أو تغييب ..  
وعند لذلك مثلا يزيد الأمر وضوحا وهو  
الطيران الأخرى ، ووزن الامسال في دار  
الجزاء على النحو الذى يوضح به ويرسم في  
الوثنية المصرية : فصل هو من الوثنية  
المصنوعة ، وقد انتقل إلى الديانات الوحدة  
المتربة بعد ذلك ؟ وفى هذا ما فيه من المساس  
بحرمة تلك الأدب المزل ؟ أو أن هذا الوزن  
والميزان في الوثنية المصرية يمكن أن يقال —

في ظل ما يقرره القرآن من الوحدة الدينية ،  
وارسال النذر إلى جميع الأمم قاطبة — :  
حقيقة دينية موحدة خلا بها غير ، ثم تنسج  
من أمر هذه الرسالة ما تنسج ، وحفت بها  
التغيرات والتحويلات الوثنية ..

وإذا ما لمكني أن يقال هذا فلا بأس على  
الدارس المصطنع للمنهج العلمي في فهم ظاهرة  
التدين الاساسى أن يقرر الصلة بين التدين في  
مختلف مجراته ، ومتعدد صوره ، وأن يفارقه ،  
ويوازن بين الأدب المختلف ، وأن يفضحها  
للقرآن مطروحة ، وسنن موحدة ، لأنها في  
حديث الوحي المنزل ، من القرآن ، ليست  
إلا حقيقة واحدة ، ولا غرابه في أن يكون قد  
ظلا في امتنا — حيث كانت — نذير من  
السماء بها .. ولا بدع في الربط بين الأدب  
المختلف ، في أى زمن من الأزمان ، ولا يصح  
أن يثنى ذلك على مؤمن ، أو يرى فيه بأسا ،  
أو مثلا من دينه الذى يدين به .

وهكذا يزيل الهدى القرآنى كل صعوبة  
تعرض للمنهج العلمي في درس الأدب على  
مستوى اليوم .. لم يستعج المتحدث فيها أن  
يقول ما يجد من صلة بين الدين .. والتدين  
في الحياة المصرية ، على اختلاف أزمته ،  
وتنوع دياناتها ، وأن يلمح أوجه التشابه بين  
هذه الصور المختلفة .. وأن يستخرج منها  
دلالات على الشخصية المصرية الدينية مثلا ،  
غير مشفق من أن يظن ثاب بهذا المنهج خطرا  
على إيمان مؤمن برسالة سماوية ، أو نيل

منها في شيء .. وعلى هذا المنهج نتقدم الى الحديث بما نشهد اليه من :

### التاريخ الحضارى

ف نقول : نحن أمكن — بكل تساهل — أن يكتب التاريخ العام ، أو التاريخ السياسى ، وما أشبه ، على أنه أحداث مبرودة ، وأساء معدودة ، وسنين مرقومة ، فإنه لا مجال مطلقاً لأن نقبل — بأى تساهل — كتابة التاريخ الحضارى عنى مثل هذه الصورة .

إنما تاريخ الحضارة حديث عن خصائص ومميزات تجماعة من الناس ، وطوابع لها ، ومقومات ، يسكن في ضوئها تفكير اتجاه خطوات تلك الجماعة المؤرخة ، في حريق التقدم الانساني ، ومسير التمدن البشرى .. وفهم أهدافها في نشاطها ذلك ، وكشف البواطن والذوابع التي منبت عنها أفعالها ، هذا المجال .. وتبين العوالم النسبية التي سيطرت عليها في ادوارها المختلفة وسادت أنفس أجيالها المتتابة .. ولحسيد الفكرة الثابتة التي دارت عليها حياتها ، وصنعت تاريخها ، وكانت محور فلسفتها الخاصة ، ومدار تفكيرها لفسنون الكون ، وسميح ادراكها لمشكلات العالم ، وأغالي المشتغل .. ومن طريق معرفة ذلك وما اليه في حياة مجموعة الساية موحدة يسكن فهم شخصيتها المميزة ، وهى متأسكة ، واضحة ، متقة ، كما يكون الانسان الفرد القوى ، في شخصيته .. أو هي منها فة مهتره منارة ،

كما يكون الانسان الفرد الضعيف ، وتكون شخصيته ..

ومن هنا يدنى القول في هذا التاريخ الحضارى ، دقة هذا التثيل للشخصية .. والاحتداد لعناصرها ، بالجمع والتبج تارة .. وبالتحليل والتجزئة تارة .. وما يتطلب كل أولئك من التفرقة التامة ، المبهمة ، الفاحصة .. المنظمة للحياة المؤرخة في مختلف عصورها ، ومشتبأ أحوالها ، ومتنوع مجالاتها ، منذ عرف عنها خبر ، أو كتب لها تاريخ ، وتفلت بها الظروف ، بينا إرس ونسيم ، ونصر وخيبة ، أو هزيمة وضعت ، ورغاء وجلب ، وجهل وعلم ، وما الى ذلك .. تجعل هذه النظرة الشفافة المنسقة في حياة الجماعة ، على أنها كل لا ينقسم .. ووحدة لا تنجز ، مثلاً مثل النهر المتواصل الجريان ، المتلاحق الأمواج .. لا يجد في تياره فجوة ، ولا ترى بين موجاته ثغرة .. وإن تقسمت وادبه هولت .. أو توزعت سياسات ..

وليس من الصواب في شيء أن يقال باحث فقط أن حاضر جماعة بشرية ينظر من ماضيها ، أو ينبت ما بين مستقبلها وحاضرها ، فذلك ما لا تسمح به الحياة ، ولا يجيزه تسلسل الوراثة ، ولا يسكن منه تأثير البيئة ، ولا تقبله النوايس الكونية والاجتماعية المطردة ..

وما دام الأمر كذلك فلن نستطيع الحديث عن شيء من أمر الحياة الدينية ، في مصر الاسلامية ، خلال وسط التاريخ وحديثه



الاتحاد أنشأه من الشخصية المصرية الدينية في قديم تاريخها وأوله ..

وكذلك لن يكون حديثنا الحضاري عن هذه الفترة الاحداث الاجتماعية عامة عصرها، وتعلمها، وثوراتها، وعوامل الشخصية المصرية، التي سبقت تاريخ هذه الأمة، منذ سبت هذا الهادي وما رست الحياة في جنباته .

ولئن ذكرنا ذلك — ولا محالة — بأن لنحضر في القارىء ولحضر القارىء معنا صورة واضحة للملامح للشخصية المصرية الدينية بطامة — على الأقل — فلما سنحاول ذلك ، في أقصى ما يمكن من الايجاز والاجمال ، تاريخ كل تفصيل أو استدلال القارىء ، ونحن نعتقد أن التاريخ الحضاري لمصر ، فيما كتب من هذا الكتاب قبل الفترة الاسلامية التي تحدث عنها ، لابد أن قد هيأ القارىء لما نحل عليه ، ولجسد القول فيه ، من سمات هذه الشخصية ، وسلوك الأمة المصرية ، في عصرها السابق على العهد الاسلامي من حياتها .

والى القارىء ما لا بد منه ، أساسيا ، من الفكرة القصيرة الموجزة هي :

#### ملامح الشخصية المصرية الدينية

ولمصر — على سبيل التاريخ — شخصية واضحة السمات ، بأدوية التسمات ، بشمة الملامح ، راسخة العرق ، ثابتة الخطو .. بميلت عهد بالتحضر « قديمة الأثر لا التمدد .. مؤسسة مبدلة ..

وتلك الشخصية المصرية حقيقة يعرفها

العلم ، قيسا يدرس من شئون الجنى « والوراثة ، والبيئة ، ويقررها الدرس حين يحسايد ولا يتجزئ .. وليس القبول بتلك الشخصية زخرفا من الكلام ، وسحرا من البيان ، أو اعتداعا من عواطف قومية .

وكما رسمنا خطة الحديث لا نتعرض لنسب من أصوله ذلك ودلائله ، بل لكتفى بالإشارة الغاطية « بعبارة موجزة لجوهر لورجون ، يفسر من أمر هذه الشخصية الى أصول عامة ، وعوامل جامعة ، وهي :

١ .. لسدرك الآل المسبب الذي أدى بالجنس المصرى ، بمسند تكونه البطي ، في حركة من الدلب بها جرى الصحراء والسماء الى بلوغ الوحدة القوية ، التي استخرجها من «سلة انقاض ، واحتفظ بها الى أيامنا هذه فاهرة على أبنائه ظهورها على لمرايب معابنه ، وفنوره الفاشة من آلاله السنين » .



وتلك الشخصية المصرية جوايها المختلفة ، ومواحيها المتعددة ، من دينية ، وحلقية ، وعقلية .. وسواها ، وبينا هنا من ذلك الجوانب الدينى ، الذي سيضى الى الحديث من بضعة عشر قرنا من تاريخه .. فنقول بتأمل ما قدمنا الآن من الشارة لحاطلة أن نصلق الملامح تلك الشخصية الدينية ، لنضح في يد القارىء ، بذلك ما يصر شواهر الحياة الاسلامية في مصر ، ويردها الى انشتر المعروف ، من أمر شخصيتها على الزمن .

ومن أبرز ملامح الشخصية المصرية

الدينية :-

ومن الأثر القريب لهذا الايمان القسوى  
بالعبادة الثانية : سيادة عقيدة الميت ، وما  
اتصل بها من الايمان بالخلود ، وتفنن  
المصريين في بيان ذلك ، ثم في العمل من اجله ،  
مقيدة الميت في النفس المصرية هي  
محور النشاط العملي في وجودها ، وهي  
أوضح الجواهر والذوايق في أعمالها ، وهي  
سر تاريخها ، وطلاقة فلسفتها في تفسير  
حياة الكون والانسان .

وقد وجدت في البيئة المادية حولها تعبيرا  
وتصورا لهذا المعنى ، فالتمسك بحياتك ذلك  
كل يوم بشروطها الناشئة فظهيرتها القابعة ،  
الى أصلها الكلي ، فنرويها الثاني في غلام «  
يمتدح بمت ومياد مصبح ، اذا الصبح تنفس ،  
والليل سكتيح بفضله الزاهر رميال  
التصعراء ، وجبود الجسد الميت ، فيعبي  
الأرض بعد موتها ، ثم هذا هو يخط ويثني في  
تعاريفه فتشرب الحياة من الأرض الراية  
وريدا ، ويسودها الموت الى بمت جديد  
بنيفضان معاود ، وكذلك عبر القلب المعري  
بأمل لا يقرب في الحياة الدائمة بغسل  
ما يمشطه من تلك نيلها الدافق وتسمها  
الروضاة .

وفي سبيل هذه المقيدة وبسببها حيرت  
مصر ما حيرت ، وبذلت ما بذلت لأجلها من  
التماس عوائل البقاء ، ومهيات المعاد ،  
فكاست قبور راسيات كالإطواد ، وأهرام  
شامخات ، راسخات ، ومعارف ، ومباحث

فبين أول الدهر عرف المصريون بقوة  
التبني ، ولا غليل في ذلك ، بل تكفى بنا  
قائه أبو التاريخ هيرودوت : ان المصريين أشد  
البشر تدينا ، ولا يعرف شعب بلغ من القسوى  
درجتهم فيها ، فإن مصورهم يجعلها تشمل  
ألسا يصلون أصنام الرب ، وكتبهم — على  
الجملة — أسفار عبادة وتبنيك .

وسرى لسيطرة الشعور الدنيى ما يسكن  
ان ظلمه من أثر في حياته المصريين الدينية  
على اختلاف الصور ، ومع مختلف الأدیان .  
ثم ان من أوطسح ملامح الشخصية  
المصرية الدينية أيضا : —

#### قولا الايمان بالعبادة الأخرى

فحين لا نجد في أصول اليهودية مثلا  
عناية بتلك العبادة تجد أن المصريين قد احتضروا  
الحياة الدنيا مختلفين كل جنس سمواهم «  
وتلقبوا الموت — كما قيل — فلم يكن  
المصري يضم ما يصر أو يعز أو أو يمن يحب  
ويصل ، ويكي ويضي ، على ضلالتة التيل ،  
ولما يصرف همه الى المومياة الضالعة ،  
والمصريون — وهم أقدار البائين القدماء في  
المسلم لم تكن قصور ملوكهم الا غالات  
بالنسبة للقبور ، وذلك لأن المعتكف يضي  
عندهم ليأوي اليه الانسان في حياته ، والتبر  
يقى خالدا على الدهر ، ومنذ القدم قد لحظ  
هذا المعنى في فهم العمارى من حوتمس من  
الأمم ، كاتيونان .

المسمى في تدوين البشرية بسا هو ظاهرة اجتماعية ، في حياة الجنس الانساني .

وحينما كان الدين وثنية تجسيمية عرفت مصر من هذه الوثنية الكثير جدا ، مما عرفت الوثنيات القديمة في اقاليم الارض واتصل بمقالات مختلفة الصور في اديان متعددة .. فوثنية مصر في عرلت اعداد الكهنة في مختلف الاقاليم من ثلاثة الى ما بعد التسعة .. كما عرلت تلك الوثنية عقيدة الغذاء والتخليص وولادة المخلص الالهي ، وقيامه من بين الاموات .. وكما عرلت امومة العذراء .. وما يتصل بذلك .. وكان لها من القسوس الكثير ، فعرلت التمسيد والرحبة و .. و .. مما تكشف مقارنة الاديان عن قوة المشاركة المصرية فيه ..

ثم اذا ما كان التدوين توحيدا عرلت الديانة المصرية في هذا التوحيد ما لها من محاورات وتفسيرات . وهكذا تترك من هذا الاجمال ما في الشخصية المصرية الدينية من سمة الالحق ، وبسطة النظر الديني .. وتفرد آها بذلك وما اليه من مخصصات تشارك في حياة التدوين البشري عامة ، وفي حياة الاديان الكبرى المعروفة اليوم بخاصة .. مشاركة نظرية انتقادية .. عملية ايجابية .. فالعقيدة ربيية مصر ، وفي حجرها ديني رسولها موسى .. عم — والصلة بين التوراة والبيئة المصرية موضع الدرس الواسع عند المختصين ..

والمسيحية لا تنفص العهد القديم ، بل

نهي . فذلك كله ، وتمكن من صون الجسم ، ليتلقى الروح في الوقت الموعود .. وانتشرت في الولدي تلك المساقل الخفية في جوف الارض ، وتلك المعالم الشامخة على سطحها .. وكانت مصر بذلك بينة دينية لها بتلك المجهود الجبارة ابعاءاتها وتأثيراتها الزمنية الاصل ، وان اختلفت صورها . فمصر البرابي هي مصر الاكثري ، ثم هي هي مصر السباحة الصولية .. يمتق روحها الدينية ، وتطعمها للحياة الاخرى -- واطناتها الروحي الاصل .. ومصر بهذه المعاني هي مصر التي تنس من معاني تدوينها في اخلاصه ، ونفسه ، وتطاله من الطبيعة اصدااء تلك الجيود الجبارة التي كانت صورها صلوات .. وكنها اسفار عبادة .. وغنونا اعدادا تليق وتمكين من الضلود .. وسرى حياتها الدينية الاسلامية فيا يلى — امتدادا متصلا لهذه المعاني القديمة بلا تخلف .

ثم من ائين ملامح الشخصية المصرية الدينية التي ترازر عمت التدوين ، وقوة البقين الاخرى .

### سمة الافاق الدينية

فقد اوتيت مصر بسطة في النظر الديني ، ونظما الى فصيح الافاق وبعدها في عالم التدوين . وكان من ذلك ان عرفت البحث المفارن في الاديان البشرية صلوات لها ، وروابط ، ومشابه بأديان مختلفة في مواطن هرة التدوين ، فاذا لمصر مشاركة واسعة

التصوير ، وتدرك المظاهر العامة المغردة التي نجعلها هذه الشخصية ، فنسلم معنى بأن : مصر صاحبة هذه الشخصية الدينية قد حققت على اختلاف الأدوار معاني نعتد عليها في فهم حياتها الدينية الإسلامية ، لينسج قصصنا فلتاريخ الحضارى من جانبها الديني .. وتلك المظاهر العامة هي : —

(أ) لآلة الدين ليست كما يقول التعبير العربي ، لبضة رقصة ، فتمتد في سمولة ونصب في سمولة .. كلا .. بل هي متانة فيما تقبل من عقيدة ، لا تعدم أصلاً في أقدم مدنها ، وسترى ذلك في التعبد كقريباً عن تلقيها الإسلام ..

ثم هي إذا ما تقبلت لآلة ظهر أثر هذا التآلي في تدنيها ، فرايت لذلك أنها : —

(ب) متمسكة روح الدين الذي تعشقه .. لا تفك منه عند التهور والمظهريات بل تستلطف الباب وتدرك الجوهر ، وسترى هذا في إسلامها بعد اعتناقها .. ولعلها لهذا لا يجهل جهداً كبيراً في شققة الخلاف الديني واختراق المقالات الاحتجاجية ، بل ترى موقفها في هذه النحل والخلافات هو موقف غير انقبيل ولا المرف .. وهو ما سيجد أمثلة له في الكلام على حياة الإسلام قديماً ..

ثم إذا ما فحسب الله تدنيها رأيت لذلك أنها :

(ج) مضحية في سبيل الدين الذي تلقت في آثاف وتمسكت بروحه . وكذلك نجد لها الضحايا في مختلف الأديان على شتى الصور :

تعد تراث اليهودية شطراً منها .. والإسلام مصلق لما بين يديه من التوراة والإنجيل .. وتلك لفظة إلى المشاركة النظرية الاعتقادية من مصر في حياة الأديان الكبرى عندنا ..

وأما المشاركة الإيجابية العملية وما أدت مصر في مختلف عصورها ، من خدمات جليلة لحياة هذه الأديان فقدمها فيها واضحة ، وجهدها بغيرى ، في لحظات دقيقة ، ومواقف حاسمة ، تعدل في جنباتها ما أدته كذلك من الخدمات الجليلة الخالدة لعمارة الحضارات وصون التراث الإنساني ، المتولي ، كما صارت التراث الإنساني الوجداني الاعتقادي .. وهذه المشاركة العملية الإيجابية في حياة الأديان والحضارات : لا قرصة للقول فيه بتفصيل ولا مجال ، وحسب القارىء ما تذكره به هذه الأشارة من فائقة التاريخية ، عن تلك المشاركة المصرية .



وبسبب هذا أن عمول أن هذه الشخصية المصرية الدينية لم هيئت لمصر للمشاركة في الأديان الكبرى ، بديرتها . وأقالها .. وتقبلها في آثاف وقبلة .. وتكسبها من الحياة في بيئة الاعتقادية ، ثم الوقوف إلى جنبها بعد التمثل الصحيح لها ، وقوف المستشهد العميق الأيمان .

ولعلك بعد هذه الأشارات العابرة ، والمصورة تصات الشخصية المصرية وملاحج تكونها تتجلب لما قصدت إليه من هذا

تأصلت عن الوثنية التي عاشت بها أحيالا ..  
ثم لما تلتقت المسيحية قدمت لها شهدهاها  
مقاومة عن مبيحتها ، حتى تلتف الاسلام  
في ثباته — ولما تعمقته بذلك في سبيل حماية  
عقيدته ودولته ما بذلت في صراعها الدامي  
مع الغرب الصليبي، والشرق التتري الهمجي،  
وقد كادا يفتقان عليها من الجانبين في عصر  
واحد .

وبمثل هذه الملاحظة العامة نلخص أننا قد  
مهذبا لنقول الاجتماعي في التاريخ الحضاري  
الديني لمصر الاسلامية ، واقفا من المعالم  
ما يرد الحديث عن هذا العهد الاسلامي الى  
مبادئ عامة ، تدل على تتابع أمواج نهر الحياة  
المصرية ، متلاحقة متواصلة جسي — السابق منها  
للآحق .. ويزيد الأول وضوح الشئ ..  
ونلتصق به البيان شرايضا ، ذو اصلا ، متفردا  
متفرجا .. كما ينبغي أن يكون الأمر في تاريخ  
انحصاره ، ليكن أن يلقى الهواء جليلة ، مركزة  
على الأحداث وتطورات الحياة ، وليجسلي  
القصور في شخصية مصر العنصرية ثابت  
الأسس ، أصيل المنهج ، لا تكثر .. ولا تمزج  
.. ولا تصب .. ولا اختراها مدمي .  
وعلى هذا الأسس ننظر الى :

### مصر تتلقى الاسلام

ولمصر بعد الاسلام وولته الاول صلات  
كثيرة ، بعضها يحدث عنه التواريخ الدينية  
الرواية .. وبعضها يحدث عنه التاريخ المادي  
المصادر .

فأما ما يحدث عنه التاريخ الديني فأهمية  
هاجر المصرية الغرب النصرية ، إذ أهداهما  
ساحب مصر لاراهيم — عم — حين دخل  
مصر ومعه زوجته سارة ، وكان من أمره  
وأمرها مع ملك مصر ما يحكي ..

ثم هي صلة بجدهما أهداه المقوفين  
مارية الفبطية التي ولدت للرسول محمد  
— عم — ولده ابراهيم على ما هو معروف .

ونلتصق بما يحدث عنه التاريخ الديني من  
صلات ما تحكي الرواية العربية من دخول  
الغرب الى مصر ، وقصة عمرو بن العاص ،  
ودفوع الكرة في كفه ، بطلمب الاسكندرية ،  
وأن من كانت تقع في كفة تلك الكرة يطلق  
مصر ، ونذا عجب المصريون من وقوعها في  
كف هذا الأخراسي .. ولكنه أخيرا ملك مصر .. !!  
ومما يكن الرأي في تلك المرويات كلها  
فإن لها دلالة اجتماعية على عسلة ما بين  
الانقليبين القائمين على شأنيها ، بحر واحد  
هو البحر الأحمر .. ولهذا الجوار ما يكون  
لثله من الصلات ، ومبادلات ، مادية ومعنوية  
لا ملر منها .

والتاريخ المادي المصدر يحدث من هذه  
الاصالات بأشياء معينة ، من رحلات مصرية  
وتجارات لا تلتصق في قلب منها ، ولكن  
نشير على ما يذكره ذلك التاريخ من صلة  
دنية بين الوثنية لمصر ، والوثنية العربية  
جعلت المعبودات الوثنية العربية ترجع في  
أصلها الى معبودات مصرية ، حتى يمكن رد

أسماء لأقلامه المشهورة التي ورد ذكرها في القرآن وهي : الثلاث ، والعزى ، ومناة .. إل  
رد غيرها أيضا — التي تتأثر من آلهة مصر ،  
اسمها شبيه بالاسم العربي « ووصفها شبيه  
بوصف مصر لتلك الآلهة وعملها ، فاسمها  
ورد بها مصري .

واللآلئ مثلا ، هي معبودة مصرية ، اسمها  
المصري شبيه بالاسم العربي ولعل بها في  
مصر إلى العصور ، حين يذكر في العربية أن  
الاسم من لبن السويق ، المأخوذ من الحطة  
والسبير .

وقد تولي هذا البيان الأثرى المصرى  
المرحوم أحمد كمال باشا .. ولا يسع المقام  
للطوف في شيء منه هنا ، لكننا هي الإشارة  
إلى تلك الصلة بين مصر والجزيرة العربية  
على أساس أقوى من مجرد الظاهر الذى  
تعرضه الروايات الدينية الشائعة .. هو اتجاه  
إلى الناحية الدينية في البلدين بخاصة ، وهى  
موقع عنايتنا هنا .

ولا نعرض كذلك لشيء من أخبار تلك  
الصلة بين البلدين في العهد القريب من  
الإسلام . ولكننا بالنظر الجامعة ننتسب إلى  
اطمئنان أن بين البلدين من المشاركة الناجمة  
عن الجوار ما يمتد إلى جيلود عميقة في  
حياتهم ، ويصل لها من الروابط الدينية  
والاجتماعية ما يتطلب الدرس المفسر  
باعتبارهما جارتين متقاربتين على جانبى بحر  
واحد — كما قلنا .

ولعله ليس من البعيد أن تجد الصلة بين

قيام المركز الدينى الصام في الجبال غرب  
الجزيرة العربية وبين مقابلة هذا الغرب لمصر  
بلد الحياة الدينية العافلة القوية ، الواسعة  
الأفق .. وهو احتمال تكفى منه ها بالإشارة  
إلى قوة الاتصال بين مصر وبين مهد الإسلام  
ومنشئه الأول ، لئلا نرى أن الإسلام لم يكن  
تجربة غريبة على مصر . ولا يهده عن جوها  
وبيئتها الدينية ، على ما أشرنا إليه ..

وقد كان لهذا الجوار أثر في أن وجهت  
الدعوة الإسلامية إلى مصر برسالة من محمد  
نصه إلى المقوقس أو — قيوس — حاكمها  
المسيحى وزعيمها الدينى ، في السنة السادسة  
من الهجرة .. وكان الرد على هذه الرسالة من  
خير الردود على ما وجهه الإسلام من رسائل  
إلى الملوك والحكام حوله ، إذ لم يكن  
غيرها .. وتوسع المصاحم العربية لى وصفه  
تقبل المقوقس للرسالة « ومثاله حاملها في  
خلوة خاصة ، عن صفة رسول الإسلام  
— هم — وأعلامه فهم الدعوة الإسلامية ،  
وانتظار شهرها وظهنتها إلى حد القول بأنها  
ستنزل بإحاطتهم هذه — مصر —

والى لم يكن هذا كله قد كان كما وصفت  
الروايات الإسلامية لأن الهدايا المرصلة ،  
والرد الحسن يكفى في وصفه تبيل المقوقس  
لهذه الدعوة .. وسواء أكان هذا انقب  
الحسن سياسة من الرجل ، أم كان حسن فهم  
لسير الحياة الدينية فإنه يتصل — على كل  
حال — بما وصفنا في ملامح الشخصية

المصرية ، من سنة تقفها الديني ومشاركتها  
الواسعة في حياة الدين الانساني .

ولعل ما يؤيد هذا المعنى أيضا ما تسوقه  
المصادر العربية كذلك من أن المغيرة بن شعبة  
في حجة له الى مصر ، قبل أن يسلم ، قد  
تحدث الى القوقس بشأن صاحب الدعوة  
الاسلامية الجديدة في بلاد العرب ، كما  
تحدث الى أمّ قيس قبطي ، بهذا الشأن ، لم ير  
المغيرة أحدا أشد اجتهادا منه ، فأخبره من  
آخر الألباء ، النبي الأسى العربي .. الخ ..  
وهي روايات ، أن لم تصح كلها فاد لها  
ولأنها على ما كان في البيئة المصرية من علم  
بالفلسفون الدينية ، يؤيد ما وضعنا لها من القول  
واسع في الدين .

لم لم ترض بضعة عشر عاما من هذه  
الدعوة السلبية حتى جاءت دعوة الاسلام  
الموجبة .. فأقامت له دوة داعية في مصر ،  
بعد ما كان من وقائع الفتح التي لم تسترق  
وقتا قصيرا .

ولا لهد اذا ما قلنا ان مصر القوية  
الدين ، المليحة بالأديان قد كانت لها مشاركة  
في حياة الدين الاسلامي ، خارج مصر ، في  
عهد الحجاز ، ثم في مصر نفسها ، على  
عصور مختلفة .

ففي الحجاز بعد بين صحابة الرسول  
.. عم — غير واحد نعت بالقبطي ، مثل : —  
جبر بن عبد الله - م ٦٣ هـ — الذي  
نعت في كتب الصحابة بالقبطي ، ويروي

المسيوطي أن القبط تضر بأن منهم من صحب  
النبي — عم — ..

وفي بعض خبر القوم عن هذا الصحابي  
القبطي : أنه كان رسول القوقس بباوية الى  
رسوله الله — عم — فبقي هناك وأسلم  
وصحب .. وإن كانوا يقولون مع هذا : أن  
منهم من رأى بعض ولده بمصر .. فمر على  
هذا ليس مجهولا ، قد هاجر الى الحجاز  
فاليا ، بل عاده أو بنوه الى مصر ، وكانت  
لهم فيها أسرة .

ومن الصحابة الثعوثين بالقبطية أيضا  
صحابي قوى الملة برسول الاسلام نفسه  
هو :

أبو رافع القبطي مولى النبي — عم ..

لأن هو الذي حرره في روايه — وليس  
فيها رأيت من حرهم عت ما بين مصريه ، أو  
سبب انتقاله الى الحجاز الا لينا واحدا هو  
رواية لهم ، في اسمه الأول ، في يقولون : كان  
اسمه قزماية لم يغير الى أسلم ، أو ابراهيم  
أو .. يريه ، بصيغة التصغير التي كان يلقب  
بها ..

وفي كل حال فإن لهذا الذي نعتته كتب  
الطبقات بالقبطي رواية للمسند عن النبي  
.. من .. وغير عبد الله بن مسعود ، كما  
روي عنه أولاده ، وأحفاده ، وغير قليل من  
الصحابة .

وفي هؤلاء وأمثانهم من اتصلوا بالاسلام  
في عهد ، ولأول عهد مشاركة من مصر

ويشها في تلقى الدعوة الإسلامية التي وجهت  
لمصر منذ عهد مبكر — كما رأينا — .

ثم تصل مصر حبلها بالإسلام ، وتتجه  
المادة الى الثقافة الإسلامية الخاصة في  
مدارس القرآن ، والحديث ، وما يتصل بذلك  
من العلوم الدينية كالفقه ونحوه فلما مصر  
تشارك في ذلك برجال غير مفسورين ،  
ولا يبالون ينتهون بالقبطية ، عند الحديث  
عنهم بين المحدثين في حياة تلك الثقافة  
الدينية الخاصة .

لحق قراءة القرآن وتلقه ، وتحرر لعهده  
ووصل السلسلة في نقله بغيرك قبلي من  
وجوه القراء السبعة المعروفين ذوى الأسماء  
الناشئة الى اليوم ، هو القارىء :

ورثى — القبطي المصري مولدًا وولاد  
— ١١٥ هـ — ١٢٧ هـ ، الثقة المحبة في  
القراءة ، والذي ينتمى أصحاب هذه المادة فيهم  
بأنه : شيخ القراء المحققين ، وإمام أهل الأداء  
المحققين .. وأوله التمت اليه وبأسرة الإقراء  
بالديار المصرية في زمانه .. أخذ من لافح بن  
أبى عميم .. وله اعتبار — في القراءة —  
خالف فيه نالما .. وكان حيد القراء ، حسن  
الصوت ، لا يمله سامعه ..

ثم في ميدان الفقه ، ولعله جكر تبعه بين  
العلقة لأولى من أصحاب الشافعى الذين  
جالسوه قبليا فيها هو :

أبو حنيفة الأسواني الفيظي — ٢٧١ هـ —  
واسمه قحزم بن أبى قحزم ، ولعله اسم

مصرف في التردد — صاحب الشافعى ، وكتب  
الكثير من كتبه وروى عنه عشرة أجزاء من  
السنن والأحكام .. وكان آخر من صاحب  
الشافعى موتا .. ويبلغ في الفقه مبلغا طيبا  
فكان مفتيا .



هذه وما إليها شواهد على مشاركة من  
مصر ويشتها في تلقى الإسلام تلقيا مبكر  
الوقت ، واضح المساهمة ، سجد الضور  
والتأثير لحياة الإسلام عتيقة ، وطما دينيا ..

وهي شواهد لمدى مصر مع ما تعرفه من  
الكتب العرب في الموارد المختلفة يتحتون  
بالقبطية من في مصر ، ولو كان رومانيا مثلا ..  
ومع ما تعرف من أن المسيحية قد اعتنقها في  
مصر أخلاط من عناصر شتى ، ومع هذا وما  
اليه عند تلك الشواهد مشاركة مصر ويشتها  
وعاطفها الدينى ، الذى عرفنا مامله قريبا ، لأن  
ذلك في التاريخ الحضري صوب ، ولا ينظر  
بعض من هرق أو جنس .. غالبية بوحنة  
تخرج العناصر المختلفة التي تستقر فيها  
وتتبعها بطايعها ، على قدر قوته وأصلاته ..

ولكن لا نتمدد إلا على مثل هذا الأصل  
فيما نقرهه ونقرهه من المبادئ الاجتماعية  
التي نرى فيها التفسير المنسق للشخصية  
المصرية ، والحياة المصرية ، في المصور  
المختلفة ، فرغم الاختلاف الأشكال والمصور  
الخارجية تقل الحقيقة الجوهرية — فيما  
عرفنا من قوة الشخصية المصرية — وانسجة



ثانية .. وهو ما نرجو أن يجد القارىء صحة  
في هذا التفسير التاريخي بشواهد متعددة ،  
وأطراف متقنة .

ونحن كنا قد قدمنا شواهد المشاركة  
انصرية الإسلامية التي تتجلى عليها قوة  
الدين المصري ، وبسمة الاتفاق الديني المصري  
.. كما بينا -- فأما لا نسو ما لمضياءه بن  
المعالم الثابتة لثقله الشخصية ؛ وأما متاية  
فيما تقبل من عقيدة ، لا تعلم أصلا في دينها  
-- ص ٣٩٩ -- فهل تختلف هذه المظاهر في  
تلقى مصر للإسلام ؟ سنرى الجواب فيما كان  
عملنا من .

#### تحويل .. إلى سريع

أما انك تقرأ في تاريخ الطبرى ، من  
حوادث سنة ٢٥ هـ : أن صاحب الاسكندرية  
عرض على عمرو بن العاص ، بعد ما أصاب  
سببا كثيرا ، بلغ بمضيه المدينة ومكة ، أن  
يمطيه الجزية على أن يرد عليه ما أصاب من  
مسي . وأن عمرا استأذنه في ذلك ، فأمر  
عمر أن ما تفرق من السبي بأرض العرب فيبلغ  
مكة والمدينة واليمن لا قدوة على رده ، واما  
من في أيدي المسلمين بمصر من السبي  
فيقيمون بين الاسلام وبين دين قلوبهم ، فمن  
استأذ منهم الاسلام فليس من اعتدلين ، له  
ما لهم ، وعليه ما عليهم ، ومن اختار دين قومه  
وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل  
دينه . وأن صاحب الاسكندرية قبل ذلك ..  
قال : فجميعنا ما في أيدينا من السببا ،

واجتمعت النصارى ، فجمعنا ثانی بالرجل  
من في أيدينا : ثم نخبره بين الاسلام ، وبين  
النصرانية ، فإذا اختار الاسلام كبرنا تكبيرة  
هي أشد من تكبيرة حين نفتح القرية ، قال :  
ثم نحوزة الينا ، وإذا اختار النصرانية خرب  
النصارى ، ثم حازوه اليهم ، ووسمنا عليه  
النجزية ، وحزنا من ذلك جزءا عديدا ، حتى  
كانه رجل خرج منا اليهم .. قال : فكان ذلك  
الذوب حتى لرعنا منهم ، وقد أتى فيس أيننا  
به بأبي مريم عبد الله بن عبد الرحمن قال :  
ولقد أدركت وهو عريف بنى زبيد -- قال :  
فرفقنا لعرضنا عنه الاسلام والنصرانية ،  
وأبوه وأمه ، وأخوته في النصارى ، فاختار  
الاسلام . فحزناه الينا ، ووثب عليه أبوه  
وأمه وأخوه يعاذبوننا حتى شققوا عليه ثياباه ،  
ثم هو اليوم عريتنا ..

وأحسب أننا لو أردنا أن نتمثل هذا  
التجاذب الديني في مصر منذ عرجت الاسلام لما  
وجدنا أوضح صورة مما تصور هذه الرواية  
التي ساقها الطبرى ، فهي تصوير مادي ونفسى  
قيم لهذا التجاذب في أرض مصر على اختلاف  
الأولاد ، ومع سلطان العقيدة الدينية في ذلك .  
ولهذا التفسير في الوقت نفسه دلالة على  
ما لمعهذ في شخصية مصر من عدم سرعة  
تحويلها من دين إلى دين .. وإنما في ذلك بل  
بعلمها .. أن كنت أن تقول :

\*\*\*

وتقرأ في الطبرى : من خبر هذه السنة  
نفسا -- ٢٥ -- ما يلي :

وراجع الى عيش اليوم الأول .. فغفروا وهم يقولون : لقد رمتكم العرب وأهرون عليهم عشر قتال لجسائهم ولقد ان حربه تلية ، ما لها سطوة ، ولا سورة كمسورات العروب من غيره ، ان عسرا لعيسى .. ثم امره عليها وقام بها .

وحسب ان القصة — بهذا يكن أصلها — لنشئل ابن التمثيل التنافس الاجتماعي بين العرب والمصريين ، وهوامله ، وأهدائه . حتى ما لجد أبلغ منها في عرض ذلك كله موجزا والا .. وان فيها من هذا التمثيل الصادق الإشارة لما يجعل نظرة المصريين للعرب تلك النظرة التي تفسل فعلها في هذه التحول الديني أو الاجتماعي — ان لم يكن في بطنه — ان ثبت ان يقول .

وتحت كل ما سبق من موجبات ملقرات مضت الحياة في طريقها .. وثالث ثورات في مصر خلال القرنين الأول والثاني الهجريين ، وصعدا من القرن الثالث ، ثورة من المصريين متخردين ، وثارة مع عناصر هريسة شاذية ، حتى أوفد اليها المأمون ولي عمده المنعم ، ثم لم يكف بذلك ، واقضى الأمر مجيء الخليفة بنفسه ، من بغداد الى مصر ، وحضر المأمون ، فخير للعرب والأشرف .. وأسرف أيضا .

وكل ثورتك وما اليه تقضى به السنين الاجتماعية في سيرة الحياة .. وعلى مر الزمن تم هذا التحول البطيء ، وانتقلت مصر — في

.. وحضرت القبط باب عمرو ، وبلغ عسرا أنهم يقولون : ما أوثق العرب وأهرون عليهم أنفسهم ، ما رأينا مثنا دان لهم ، فغاف ان يستثيرهم ذلك من أمرهم ، فامر بجزر فذبحت ، فخطبت بالماء ولمر أمراء الأجناد ان يجتمعوا ، وأعلموا أصحابهم ، وجلس ، وأذن لأهل مصر ، وجرى باللمح والمرق ، فطلقوا به على المسلمين ، فأكفوا أكلا عربيا ، انشلوا وحسوا ، وهم في المياه ، ولا سلاح ، فاقترى أهل مصر ، وقد ازدادوا طمعا وجرأة ، وبث في أمراء الجنود في الحضور أصحابهم من الفد ، وأمرهم ان يجيئوا في ثياب أهل مصر وأحذيتهم ، وأمرهم ان يأخذوا أصحابهم بذلك ، ففعلوا ، وأذن لأهل مصر قرأوا شيئا غير ما رأوا بالألس ، وقام عليهم الفوام بالوان مصر ، فأكفوا لكل أهل مصر ، ولعوا لهوهم ، فافترخوا وقد ارادوا وقالوا : كدلا .. وبث اليهم ان تسلموا للعرض لحدا ، ولجسدا على المرض ، وأذن لهم ، فعرطهم عليهم . ثم قال : الى قد علمت أنكم رأيتم في أنفسكم أنكم في شيء ، حين رأيتم اقتصاد العرب وهون لزيجتهم ففعلت ان هملكمرا ، فأجبت ان رأيكم حالهم ، وكيف كانت في أرضهم ، ثم حالهم في أرضكم ، ثم حالهم في العرب فظفروا بكم ، وذلك عيشهم ، وقد كلبوا على بلادكم قبل ان ينالوا منها ما رأيتم في اليوم الثاني ، فأجبت ان تعلموا ان من رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني ،

الا عن تطهير للروح ، وتصفية للقلب ،  
وعذوب للنفس ، وتعظيم لضراعة الشهوة ،  
وتخلص من ظلام المادة .. كما يعرف المتصنف  
ذووه ..

وقد كان للمسلمين نصيبهم من هذا  
الاجتهاد منذ ظهور الاسلام ، بما في كتابه ،  
وخاصة في بيته ، من زهد مترفع عن الكمثرىات ،  
لا يمد عينه الى زهرة الحياة الدنيا ..

ثم تقدم عمل المسلمين في ذلك الى الاخذ  
بعمور من الرابطة الخاصة الى المباداة ،  
والصلى ، ثم الى امداد ذلك بتفكير روجى  
دينى ، يأخذ بأسباب من الفلسفة وآراء  
قوية التمثيل في تمجيد الكون والحياة والصلة  
بالله ، وهو تفكير لا يعدم تأثرا بمذاهب الحياة  
من الفلسفة العامة ، والأديان القديمة ، من  
التيمن الشرقى أو أدناه ، قد توقفت الرابطة  
بينها وبين الفكر الاسلامى ، حينما خاطبها في  
بسات كانت موائل لها ومواطن ..

وما نفس لا تمنع أن هذه الصورة  
الجميلة من التصوف الانسابى ، أو التصوف  
الاسلامى ، لا تثبت حيث تمثلناها في تلك  
الأفانق النسائية ، بل فنحن مع الزمن حتى  
تصير الى صور من التثقلات الثقافية ،  
والطواهر السطحية الباعثة ، يوجهها جعل  
يشكون الدين وشؤون الدنيا جميعا ،  
وتسودها مخرفة وشعوذة ، بتأذى جا الذين  
والدنيا ، أخيرا .. وهو ما لن نساء ، ولا نجب  
أن ينسى القارئ .. أما لا نغني حين تحدث هنا

أفانها — الى الاسلام ، وقد أبقت الى جانبه  
ما أبقت من مسيحيتها وكتبها المرقبة ،  
وما لها من شأن في الميحية وحياة أهلها في  
هذه البقعة من أفريقية ، وملتقى اتقارات  
الثلاث .. وما لها من ميراث لاهوتى وفلسفى  
من مدرسة الاسكندرية ، وأديرة الوادى .

\*\*\*

استقر الاسلام في مصر ذات التثنية  
المبارزة ، الواضحة المعالم الدينية ، على  
ما تبينها — أول هذا الحديث — وحلت  
طوايمها التي ذكرناها في كبريات واضحة  
— ٥٣٤ ، ٥٣٥ — توجه حياة الاسلام في مصر  
توجيها بنا ، يميز حياة هذا الاسلام في مصر  
عن حياته في غيرها ، وينبذ التفكير في  
الاسلام ، كما يندى العمل كذلك بعناصر غير  
حاربة .. نصير هنا الى أهمائها في اجمال  
لا يسمح المقام أكثر منه .. لنحدث عن :

### بوجه مصر ٥٥ في الاسلام

وتجه في ذلك أول ما توجه الى التصوف ،  
الذى هو حركة السانية عالية عامة ،  
متصاعدة ، في حياة التدين البشرى ، على  
اختلاف ألوانه ، وتبلد صوره ، وتباعد  
دياره .. حركة السالية من دقة الحس الدينى ،  
ورثاها التوجدان للاعتقادى ، نفس بالتدين  
الى أعين من التكليف العملية ، والعبادات  
المرسومة ، وتمثل روح الابدان ، ودفعه الى  
التفانى في المعبود ، واستلاء القلب بشئله ،  
وجهه ، ونسيان كل ما سواه ، والصدر في  
كل شئ عن رضاء ، وهى مشاعر لا تتم

والفلسفة الدينية المسيحية ، والمذهب  
الفرعوني ، وهو المذهب الفلسفي الديني  
الذي نستطيع أن نسميه « المذهب الفرعوني »  
لأن يقوم على المعرفة بلا واسطة ..

فكل أولئك وما اليه من النماذج الفكرية  
كانت الاسكتندنرية من أهم مراكزه .. إذ في  
مصر تأثرت الفلسفة « بالدين » ولأثر الدين  
بالفلسفة .. والبا هي هاجرت الثقافة اليونانية  
بعد سقوطها عاصمتها .. وبعد اتصال طول  
« صليل بين مصر وهذه الثقافة والحضارة ..

وطرح الفكر الاسلامي يعرف جهداً أن  
المسلمين قد عرفوا فلسفة « رسطو » نفسها من  
طريق الأندلس والبلد الحديثة التي انتشرت بينهم  
أوسع الانتشار .. ومصر وما حولها قد كانت  
موطن ثلاث الفلسفة ، لم موطن ما أثرنا اليه  
من التيارات الأخرى ، مثلية وانعقادية .. كما  
يعرف مؤرخ التصوف الاسلامي أن هذه  
المنطقة نفسها كانت ونش الصوفية والتصوف  
الاسلامي المتطور ، الذي نشأ فيه آثار ثمانية  
الروافد الفكرية والاعتقادية واضحة ، بتولي  
بهاها الباحثون .

ولو اكتفينا كذلك بهذا الاجمال من  
البيان اعتمادا على لناقة الغاري العاجلة لتأثر  
له من ذلك ما يفتح الجبل الى ادراك تأثير  
روحية مصر على الاسلام في تصوره ، الذي  
هو « عمق شعور ديني فيه .. لكننا نجد كذلك  
وراء هذا من مظاهر التأثير ما لا بد من الإشارة  
الى بعض خطوطه الكبرى ..

عن التصوف ، وعن أثر الروح المصرية في  
تصوف الاسلام ، قلا يزيد من ذلك  
الاتصوف في شأته ، وتغوره نحو الكمال  
لا في فترة مدهوره الأخيرة .

♦ ♦ ♦

وقد كانت مصر بها هي بيئة دينية ، قوية  
الديني ، واسعة الألق ، علي ما نيت : .. لهم  
بما هي بيئة فكرية أيضا ، قد شاركت في جهاد  
الانسانية العقلية ، وأعطت ما حولها من إقطار  
ذات ماضي فكري ، ولتأخذ منها ، وجمعته  
القطرات والحضارات — كما أثرنا — .

كانت مصر مثل أولئك في عهد انتشار الاسلام  
بأنهاء الدنيا القديمة ، ذات تأثير وسمح ، في  
بعض النشاط الروحي الصوفي للمسلمين ..  
ولي امداد بهنر خليل من العناصر الدينية  
والفلسفية جميعا ، وسشاركنا في عمق هذا  
التصوف وتطوره .. ولو اكتفينا بهذا الاجمال  
لتكافى في ثقافة الفاري ، ما يبينه وجهها من  
البيان ، قريبا أو بعيدا .. وذلك لأن الزهد  
الاسلامي الذي حصله القرآن ، وصادت به  
السنة قد اتصل في مصر — خاصة — بطرائق  
دينية ، من الأديان الشرقية المختلفة ، وصلت  
لمصر من طريق متسلسلة ، من الحسروب  
والرحلات ، وغداة الأمم المختلفة ، وجماد  
الأديان المتعددة في مصر كعنها ، من وثنية ..  
ويعهودية .. ومسيحية ..

واتصل الزهد الاسلامي كذلك في مصر  
— خاصة — بتراث فلسفي من الأفلاطونية  
الجديدة ، والفلسفة الدينية اليهودية ،

على أن الصوفية يكون لهم ما لهم من  
المواجد والأذواق ، والأحوال ، فإذا هم  
يقنعون من الفن آفاقاً رقيقة شغافة ، تجاوب  
فيها أنغام موسيقية ساحرة من شعرهم ،  
وحجهم ، وتقائيمهم .. فإذا مصر تقدم في هذا  
الميدان الصوفي ، المحب ، الشاعر :

اس القاضى - ت ٦٣٢ هـ . الذى  
يرجع في الطبقة الأولى ، من أصحاب الصغر  
الصوفى ، به ل كثر قصائده من جبال  
النظم ، ودفقة الأسلوب وألفه ، وقوة الروح ،  
ومنى النفس ، مما يقول الباحثون المحدثون  
عنه : انه من البعيد أن يكون عملاً تبحراً ، بل  
هو نتيجة لوجى أحوال الوجد الصوفى ،  
الذى يشابه ما يسمى في عرف علم النفس  
بالمحدث « الكتابة ليلية » .

وكذلك قدمت البيئة المصرية العنصر  
الفنى ، الفحول بالألحان ، يتمتع التصوف ذى  
الحب الالهى المتفانى .. ولا أمن من هذا  
فى الروحية .. ولا أول منه على ما أشرنا اليه  
من روية مصر ، فى الاسلام .

•••

والحديث عن التصوف جدير بأن يضع  
القارىء فى جو من التامع الوديع ، يشمره  
بجوهر الندين ولبابه ، ويشرف به على  
الوحدة الدينية ، التى سمعنا القرآن نفسه  
يقررها فى قوة وحلا . - ص ٥٣٠ -

فهذا مصرى - أو شوبى - من مختصم ،  
كان كثير المألومة لربما اخيم ، لأنها بيت من  
بيوت الحكمة القديمة - فيما يقول القدماء -  
كما يقولون أيضاً : انه قد فتح على هذا  
الاخيصى علم ما فيها من كتابات !!! .. ذلكم  
هو الحكيم الصوفى :

ذو النون المصرى - ت ٢٤٥ هـ ..  
قول عنه المصادر الاسلامية : انه وحيد دهره  
علما وعبادة ، وحلا ، ومصرلة ، وأدبا ..  
واله : هو رأس هذه الفرقة - الصوفية - ،  
لأن لكل فده أخذ عنه ، وانتسب اليه ، وقد كان  
المشايخ قبله ، ولكنه أول من صر اشارات  
الصوفية ، وتكلم فى هذا الطريق ..

ويقول الباحثون المحدثون عن هذا  
المصرى : هو أحق رجال الصوفية - على  
الاطلاق - بأن يطلق عليه اسم واضح أسس  
التصوف .

ولو كان فى المجال شيء من سعة لينا من  
قوال ذى النون المصرى وقصائده ما يكشف  
المصيبيل الواضح للتأثير على التصوف  
الاسلامى من البيئة المصرية الطاغية ،  
ببذاتها الفكرية من المعرفة ، وبالتداول فيها  
من معارف كيمائية ، ونفسية ، وبالنشاط  
الشعبى فى صور مختلفة .. الخ .. لكننا قد دع  
ذلك كله للمبحث المختصر .. وحسبنا ما قيل  
برحمانا على ما دلت عليه ملامح الشخصية  
لمصرى من بث الروحية .. فى الاسلام ،  
بتوجيه تصوفه واعتلوه ..

تكون الحياة الدائمة المتصلة وفقا شاهدا ،  
 وفكرة سائدة .. وأنت واجد ذلك في قرب  
 قريب ، ووضوح سافر ، شخص أمامك حين  
 تمر بذاكرتك شريطا تاريخيا مرهنا ، لعالم  
 الحياة في مصر ، منذ تقدمت سكان هذا  
 الكوكب ، رقاد ملحق الجفازد ، الي الساعة  
 التي أنت فيها . فسيبدو لك حطبا لها كانت  
 دائما علي مسرح هذا التاريخ ماثلة ظاهرة ..  
 لم تخف منه لحظة ما ، كما اخضت لهم  
 قديرة ذات يد علي الحضارة ، بعد ما لعبت  
 دورها القصير أو الطويل ، والولايون ..  
 والفينيقيون .. والاشوريون .. الكلدانيون ..  
 وسواهم قد قاموا بصيهم من مشاركة في  
 الحياة ، ثم نسلهم فلام غار ، حجبهم عن  
 الأنظار ، غفنت أصواتهم ، وفتر نشاطهم ،  
 فاذا نلادهم أقارب مهمة ، أو منافق مستمرة ،  
 لا نهض فيها دولة ، ولا تميز لها كيان ..  
 علي حين توي مصر في تقديم التاريخ ،  
 ومتنقلة ، وحديثة ، تقدم للدولة الجبال  
 العبري الصالح المسند علي الثبات والنهوض ،  
 في مصر .. لمصر .. وعاسم مصر .. فترها  
 يوم كانت تعمل مشعل الحضارة : دولة واحدة  
 دنافس أمهات العواصم ، التي دارت حولها  
 الدنيا .. لا يشرق حالها مع روما ، عن حالها  
 مع ببلاد ، ولا ينهر عن مركزها مع الإستانة ..  
 يعوذ بها الرافضة .. ويحتمي الخلفاء .. ويمتد  
 السلاطين ، ويجد الظالمون من الفرصة  
 للاستقلال المنعزلة عن العاصمة الكبرى

وفي هذا الجو يمثل الفاري . كذلك  
 شخصية مصر واضحة الصفات ، جليلة  
 المعارف ، تمبر الأحيال ، وتمضي في التاريخ  
 بخطى ثالثة ، وطيدة ، متقة . فهي في تاريخ  
 الرصنة الشجيرة ، أو الرصنة العالمة ، هي  
 هي في تاريخ التصوف الاسلامي ، أو التصوف  
 العالمي . هي في كليهما بيئة سالمة — بقوة  
 التدبير التي استقرت فيها منذ قديم الزمن —  
 لآلماش النجود الروحي ، والنيل النسي ،  
 والضيوع النبلي ، واستضاف أمسي ماضي  
 التدبير وأبل أراضيه .. ومن الترهيب  
 والتصوف مضاهي شياخسة ، بل مسالك  
 واصله ، لا سهل علي النظر الثاقب تجاهلها  
 أو تناسيها .. وللفكر في مثل هذا مكانه  
 انصاف .

وينهر الحال بالرهينة ، علي الزمن  
 وأحداثه ، كما ينهر بالنصوح كذلك ، فيكون  
 مبهما من السوء والقصاد ما يكون .. وتبقى  
 مهما الحياة بما تلتقي به . وهو ما قد تشير  
 الي شيء منه في الكلمة عن الدين والمجتمع  
 المصري .

وفي الذي أصبل عن روحية مصر .. في  
 الاسلام ما يبينه وأساوات عامة كذلك عن :

#### حيوية مصر .. في الاسلام

ففي هذه البيئة التي قاد حياتها الايمان  
 بالمش .. وفير تاريخها هذا البعث دينا  
 يعتقد ، وفلسفة تنوارث .. في هذه البيئة

عاشت فكرتها في العالم الاسلامي ، وأعانت  
المصلحين على شق الطريق للتيار الاسلامي  
الجاري مع الأجيال .

في حياة هذه العكرة التجديدية نجد  
مصر — كدأبها — مشاركة بحيويتها ،  
حاضرة بانبيائها ، الذي يجدد قديتها  
المختلف ، وتلغها المثنيين ، وعلمها الصمد  
في البحث .. ومن أجل البحث .

فهذا التجديد كل قرن ليس الا مسورة  
من صور البحث الذي آمنت به مصر وعصفت  
له ، فكان من علمها الاسلامي أن قدمت  
جبهة من الرجال ، الذين بينهم وأنضجهم ،  
فكانوا محددي قرون متعددة ، بين أولئك  
البضة عشر نفرا ، الذي نهضوا على رأس  
البضة عشر قرنا من حياة الاسلام ..

ويبدأ العادون من القدماء ، والمحدثين  
بمصر بن عهد العزلة ، ريب مصر ، وماكن  
خلوك ، ويمضون جعديون عبر واحد حتى  
تكون الكفرة — أو الأغلبية المطلقة — لسان  
اليوم — ممن نضم مصر ، واستبوا مصر ،  
من وجوه رجال الدين — ثم يطمئن المحدثون  
الى أن يقدوا مجدد القرون الرابع عشر الهجري  
في الاسلام بصريا — بصريا .. وهو ما تشير  
اليه حين تحدثك ، عن انبياء الديانة بصري  
المصر الحديث .

ولا نجد المجال شيء من التفصيل لفكرة  
التجديد ، والمجددين المسلمين ، فلهذا مكانه

ما يعين ، لهم الدولة القوية ، والمغايلة الناجحة ،  
ويجري الأمر في ذلك على نسق متماثل ، بل  
يكاد يكون موحد في صميمه . « غاب  
ملول » والخلافة في بغداد في القرن التاسع  
الميلادي كمحمد علي وخلافة الاسطفا في  
انقرض التاسع عشر ، ترسم البهجة لأهدافها  
سياسية متمسكة . تنفض بهم مصر ،  
ويهضون هم بمصر ليمسوا الخلافة  
الكبرى ، وراوا معها ما انهدح به مصر ..  
فأنت واحد دائما ، وعلى مر الأيام ، وفي كل  
حين « مصر » في الميدان التربوي ، والتمب  
البحري لأمة مرموقة ، فعالة مؤثرة . دائمة  
العبودية .

وتلك العيوبه الرافضة هي التي نحاول  
أن نلجم اسميتها العالمة في حياة الاسلام  
بمصر .. ونضار — بين يدي ذلك — ما في  
طبيعة التدي من ميل الى المعاملة ، وحنوح  
الى الثبات ، ولهم من التغير ، بل شبه انكار  
للتطور . ولكننا واجدون مع هذا في  
الاسلام بعثا حيويا ، ينطلق لاستئناف  
النشاط ، ويجديد النظر ، واستدامة البناء ،  
واسماط الحياة بالنطين الجديد ، والتصرف  
الحرف ، الذي يحفظ للأصول الجيوية  
مصلحتها ، ويقبها من خواص التجمسية  
والجفاف — وهذا هو ما يشير اليه حديث  
« ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد  
لهذه الأمة أمر دينها .. » أو ما في هذا المعنى  
وهو تمييز عن تلك المحاولة المرة التي

كذلك - وحبنا هنا تلك العالم العامة ،  
التي تحييء لمؤرخ الحضارة أن يتحدث عن  
حيوية مصر في الاسلام ..

ولننسى بعد ذلك اني فحة من خصائص  
تدين مصر بالاسلام ، واعتادها له نرى :

اسلام مصر ٠٠ بلا نحل ولا عسل اعتقادية

ولعب أن نرد هذا - كما اعتدنا - الى  
خصلة أصيلة لمصر ، وطبع لها مألوف ، بعد  
الذي عرفنا ، من ملامح شخصيتها الدينية  
فوجدنا أن مصر القوية التدين ، الواسعة الأفق  
الديني ، المستشفة لجوهر الدين الذي تلمس  
به وروحها - من ٤٣٤ ، ٥٣٥ - فجدد أن مصر  
الذي هذا شأنها ... كما عرفنا - لم تهمش  
كثيرا للجدل الاعتقادي في الاسلام ، ولم  
تسمح صبرها كثير المصاحب النحل ، وأرباب  
المقالات الاسلامية .. وقبل أن لمضي في بيان  
هذه الظاهرة وتجليها نقف أمام :

مر تاريخي .. فليس .. وذلك ما يذكره  
بئر صاحب «فتح العرب لمصر» ، عند حديثه  
عن مقاومة المصريين لما أرادته هرقل ، من  
مخلصهم على المنصب الديني الذي قسروه  
بطاركة ، والهزم تلقوا ذلك بكره شديد ..  
لم تصير لهذه الكراهية بصلوه .. وقد  
كان استقلالهم في أمور الدين كبير ما تعلق  
به قلوبهم فأعسم لم يعرفوا الاستقلال ،  
المعوي قط ، ولعلم لم يعلموا يوما بمثل  
ذلك الأمل ، وأما الاستقلال في أمر الدين

فقد ناضلوا من أجله وجاهدوا في سبيله ، لم  
يتنثروا عن ذلك في وقت من الأوقات منذ  
مجلس خلقدونية ، وكانوا حريصين على  
بلوغ ذلك المرمى لا تنفل عنه قلوبهم  
ولا يحجمون عن بذل كل شيء في سبيله مهما  
يظم . فذلك هو سر حوادث تاريخهم جسيما .

هكذا يصل المؤرخ الى أن سر تاريخ  
هؤلاء المصريين - أو القبط ان شاء - هو  
أنهم لم يعرفوا الاستقلال القومي قط ،  
ولعلم لم يعلموا يوما بمثل ذلك الأصل ،  
وأما عرفوا الاستقلال الديني ، وناقشوا من  
أجله ولم يحجموا عن بذل أعظم شيء في  
سبيله .

وهو أن للسيد المؤرخ : انها شئنة  
لقومك معروفة .. فسرتم بها تاريخنا تفسيراً  
ضالاً مقلوها مغرطاً مفسداً .. فزعموني به  
أننا لم نعرف هذا الاستقلال القومي منذ آخر  
عهد الفراعنة .. ولم نحكم نفسنا منذ ذلك  
المعهد .. ولم .. ولم .. مما اغتربتم وجاداكم  
فيه نتائج منا ، نعلم حتى اليوم ، وبعد  
ذهاب ربكم يرفقونه .

والكم بذلك لنفكر كون خاصة قاهرة  
جلية من خصائص هذه البيئة المصرية ، وذلك  
هي صلاحيتها بتكونها التمييز التخصيص ،  
المتجدد ، المحوط بغوامسه من الصبراء  
والماء ، لأن تكون مهدا للوجود المنفل ،  
والدولة المتحررة ، والقومية التباينة . وبهذه  
الخاصة الفطرية الطبيعية ، وما تكسبه لأهلها



ما نجد من تبرير لهذه الظاهرة الدينية : بعد أن نصف عمل مصر الإسلامية فيها ، ونشير الى شواهد عليها .

ففي الحوادث الذي تقدم جاء الخلاف الديني من القسطنطينية بأمر « هرقلية » وقاومته مصر مقاومة شديدة ، بحثها ما يروى من أمر أحد رجال المسيحية فيها ، إذ يذب بالقاء المشايخ ، وتسلط نارها على جسمه ، حتى يسيل دمه من جانبه الى الأرض ، ولكنه لم ينزعزع عن إيمانه ، فخلعت أسنانه ، ثم وضع في كبس سبوء من الرمل ، وحمل في البحر ، حتى صار على قيد سبع غمرات من الشاطئ ، ثم عرضوا عليه الحياة إذا هو آمن بما يعرضونه ، وغلغولوا ذلك ثلاثا ، وهو يرفض في كل مرة ، فرموا به في البحر ، غلبا غرما ... !

ولك أن تجد في هذا مبالغة ، أو كبرياء منها ، بل لك أن تعد معتقلا .. لكن له على كل حالة دلالة النسبة والاجتماعية ، بما به من تمير الفئتين صالحوه أنفسهم عما يجدونه من شحور ديني ، يفتنوا المؤمن مثل هذه المقاومة السنت ، وينجم هذا الشحور في تعقيب راوى غير هذه المقاومة بقوله بعدها : ولكنهم بدلمهم هذا لم يشهدوا ثلاثا الذي مات شهيدا ، بل قد غلبهم هو بصبر الإيمان المسيحي .. !

ثم يضي أكثر من مائتي عام ، وتتجدد

من خصائص معنوية وفنية تهيأت لقيام الدول ذات الشخصية في أبان قوة الأمم التي انصفت بها ، وتاوت — كما اشترنا - آتينا وروما ، وبغداد ، والقسطنطينية .. وكانت منفردة عالية الرأس في كل الامبراطوريات التي وصلت جبلها بها ، وظلت على مسيرج التاريخ لم تخضع منه أبدا ، بل لم تستقد عليها ظلال من تهلل الأخواه على لصماحها وميزانها .

لحديث التاريخ المصري : إذ مصر سنة استقلال بطبيعتها .. واهلها بذلك من أكثر الناس شعورا بهذا الاستقلال .. وليس هذا العناد الذي وصف « بيلر » منه روائع في المقاومة ، الا لوتا من قوة تلك الشخصية التي لا تنجز .. ولا يتصل منها جانب عن جانب .

وحديث غير المصريين من الحاكمين بمصر ليس الا حذاجة وغرارة أو هو تغرير بالسمين ، لأن تلك اليهود لم تعرف القومية الاقليبية ، والوطنية المحلية .. بل كانت نظريا وشعليا عصبات من غير هذا اللون ، هي في الأمم الأعطب عصبيات دينية أو سياسية ، تلونها أمة غالبية حينما كانت ظروفه الحياه المادية ومواصلاتها تنبج لأمة واحدة أن تحبل شملة الحضارة .. حتى بين ساعدها فنلقاها أمة أخرى .. فلم يبق المؤرخ يتلزم بقوله هذا على شيء من سر تاريخ المقاومة المصرية للذهب الديني الواعد ، ولعله بد وقتنا هذه أمام زعمه الذي زعم يطنن الى

هو الحاصل المصانة ، وان مصر لا تلجج في  
النزاع الاعتقادي ، ولا تتولاه بتأليف أو  
كتابة تنبيء عن رواج ، وحسن تقبل ، بل  
تعارضه مثل هذه المعارضات المتفرقة في  
التحدي ، على نحو ما سمعنا في حديثي ، من  
دينين مختلفين ، في زمانين متعاقبين ، يؤكدان  
أن الليونة في هذا ميلا خاصا ..

ولو نظرت النظرة الجامعة الى موقف  
مصر من مقالات الاسلاميين الكلامية على  
اختلافها لخرجت بالنتيجة التي صدرنا القول  
بها ، وهي عدم الانبال في اسلام مصر على  
هذا العدل الاعتقادي .. وعدم رواج النحل  
الاسلامية في مصر ، مهما تشدد عنايتة المسلمين  
بها في غير مصر . ومهما ينصبوا للتأليف فيها ،  
والخصوصا حوثها ومهما تساعد الظروف  
المطيرة المياسية أو غيرها على رواج هذه  
النحلة أو الفرقة أو المقالة ، ومهما تظهر فعلا  
بعض من ذلك في مصر ، تحت تأثير العوامل  
المختلفة فانها لا تثبت أن تقرر ، ولا تترك من  
الانفعال بها ما يسم مصر باسمه خاصة ، في  
المقالات الكلامية ، أو يجعلها ملأ خاصا  
لعرقه من الشرق ، كما كانت ايران مثلا مركز  
النسج قديما وحديثا ، أو كانت اليمن حوثنا  
خاصة الزيدية .. أو ما الى ذلك .. بل لا تثبت  
مصر أن تلود بالمعنى الجامع ، والكلمة  
الشمالية ، أي بالجوهر الخاص ، واللاب من  
الدين .. وكأنما تحول سعة ألقها الديني دور

الأحداث في الميدان الديني بمصر فاذا القيلة  
اشبه بالبارحة ، فهذا المأمون تيه و هرقل ،  
في غرض مسألة اعتقادية ، هي قضية خلق  
الفرآن المعروفة التي تقول وتجدد بمصر  
عصره ! ويكتب الخليفة الواقع التي البرلاء  
بالانحياز ليها ، كما فعل المأمون ، ويحيي  
الامر الي والى مصر ، باستنجان البويطي الثقفي  
الصعيد ، "كبر أصحاب الشافعي" ت ٣٣٤ هـ  
.. وامتنعته الوالي : فلم يصح ، وقرر  
المحالة ، وكان الوالي حسن الرأي به فيقول  
له : قل فيما بيني وبينك ، فبره عليه  
البويطي : انه يقتدى بي مائة ألف لا يعرفون  
الحق ! ، ثم يجعل البويطي من مصر الي  
بغداد ، على بطل ، في أربعين رطل حديد ،  
هي حل في عنقه ، وقيد في رجله ، وبيل القل  
والقيد سلسلة ، فيقول : لئن أذلت عليه —  
يعني الخليفة — لأصدفنه ولأسورن في  
حديدي هذا حتى يئى عوم يطمون انه قد  
مات في هذا المكان قوم في حديدهم . ويسجن  
في هذا الحديد وقد عجز عن أداء الفرائض  
من الطهارة والصلاة ، اد كان مبيدا الي  
أشباح سابقه ، مفسولة يدها التي عنقه ،  
ويموت البويطي في سجن بغداد ، في اللبد  
والخل ، كما مات أخاه فو زين في البصر  
قديما .

وما شك في أن ماسا كانوا يقتنون بمثل  
هذه الاستعدادات ، وينزلون على اراقة أمثال  
و هرقل ، والمأمون ، لكن الذي بلغتنا هنا

الاعتداع الحاد ، والتعزب المتطرف لفرفة  
دنية دون فرقة .

ولعلنا نجدون فيما يلي من قول عن  
النشرة المصرية في الأمور المدنية ، والنظم  
القانونية الفتية ما يزيد هذه السمة السبعة  
في الألف . . والرجاء السجدة في ادراك هذه  
الشئون الحيوية واتخاذ لها . . وعدم  
الاطمئنان الكثير الى الافتراق المذهبي فيها . .



وفي عرض موجز غير لنظر الى بعض  
الفرق الاسلامية في البيئة المصرية ، وما كان  
من أمرها . . نطاولي لذلك أولا :

بعض ذات صفه سياسة واضحة ، هدأ  
لها الحياة العسلة من أسباب التكرير القسوى  
قدر اكبر فطحت السياسة دهرها ، وعملت  
القوى الحكومية على نشرها وحمايتها بمختلف  
وسائل الترغيب والترهيب ، ولعلنا هي :

التشيع : فقد جاء مصر أمه وجذره  
المسمى ه ابن م - مما لكن شخصته -  
حين طورد في خام حها ، فاستقر بها وجعل  
يعمل لما يعزى اليه من توهين الاسلام ووحدة  
المسلمين بمختلف الوسائل . . ومن ذلك  
مديته عن وصاية علي ، واخذ عمال الخليفة  
منه بغير حق - فكان لمي بمصر نشاطهم ضد  
عثمان - كما هو معروف - واتجه الاهتمام  
الى التشيع لملى - . لكن مشاركة عمرو بن  
العاصي لمعاوية ، والطمع معاوية عمرا مصر

جعل الامر يستمر لمعاوية والعثمانية ، ويغف  
سوت التشيع . . وتظاهر الناس بسب على . .

ثم يسقط الاموية خمدت العثمانية . .  
وفي عهد العباسيين كان يخرج سحر علومون  
أو كانوا يظهرون الفارحين على أبناء عجم  
المهاجرين ، فتكون النتيجة هي انخراج  
الملويين من مصر الى العراق ، غير مسرة . .  
ويضطهدون فيخرج الملوي من مصر بلا يقبل  
علوى ضيقة ، ولا يرك فرسا ، ولا يسافر  
من القسطنطين الى مكة من أطرافها ، وأن  
يعتبر الملويون من اغراض المييد ، الا العبد  
الواحد . . ول من كان بينه وبين علوى  
خصومة يبل فوله في العلوى ولا يطالب بينة  
.. الخ .

ثم حتى العصر الطولوسي فبشار الحديث  
عن فضلية أهل البيت وينقسم الناس بقلاته  
حتى يرجع القول به . . فيقول أمر الشيعة  
بمصر شيئا ما . . لكن لا يشر ذلك ولا يرداه  
.. ففى منتصف القرن الرابع الهجرى يهيج  
السودان على الناس منكربن ذلك ، صفتين  
فيه ، حتى يسألون الذي يلقاهم في الطريق :  
من خالك ؟ .. فاذ لم يقل : خالى مصاوية  
بلشوا به . . وكان في مصر من يهتف على باب  
المسجد يوم الجمعة لمعاوية خالى ، ولشمال  
المؤمنين ، وكاتب الوحي ، وروى رسول الله  
- عم - .. وكان المشيعون يذبون . .

وبعث الفاطميون من الغرب دعائهم :  
ويجدون في مصر تلك البيئة التي تخوم بدوله

متميزة فيقولون اليها دولتهم الجديدة من المغرب ، وتستقبل مصر بهذا من الترحيب الباسي ، تدمر الدولة فيه الدعوة المنتهية انعاشه بأولئك القواطم بتدبيرها صحيح المدى ، عميق الأساس ، سامنا من الما والرجال ، بسن ما يهذل اليوم وزارة المعاية الحديثة أم ماكثر منه .. وحديث التاريخ من رجال الدهوة ، وفضتها وخطواتها ، والري منها والمطني .. الخ ما يستملك وصله كتب لهم ، وكبها عنهم . وهكذا يصود التشيع في مصر ، ويعبري العمل على الفقه الشيعي ، نبتلا : لا يرت مع البنت الخ ولا أخب ، ولا عم ، ولا جد ، ولا ابن الخ ، ولا ابن عم .. لاذ في ذلك عداوة لفاطمة بنت الرسول — عم — .

ويعد ذلك الى الاحمال العادة في حياة الناس الخاصة فيصدر مرسوم حكومي بتحريم بيع شربات القمبر ، وغرب من يبيعه وأن عليا كان ينكره ، والى مثل هذا ترجع لآوت الحاكم بأمر الله فيما كان يصدر من الأوامر بتحريم الطعام أو القرباء ..

وبذل إذا كان بسب علي\* على المنابر يكتب — الصحابة على أبواب المساجد ، وفي داخلها ، وعلى الدكاكين بل على المطاير وفي الصعراء ، ويلسمون ذلك بالأمسيانغ ويذهب بالنهب .

وإنهاء الدولة الفاطمية بتخر كل هذا ، ولا يصح كثير من الزمن حتى تنبش قبور خلفائهم التي كانت في مكان خان الخليلي ،

وكانت تعرف بربة الزعران ، وتحمل عظامهم على العير لترس في الموابل . وتلك نهابة مقالة اسلامية سبابة أيديها قوى العولة ، وأتيح لها من أسباب التشجيع والانتشار ما لعله لم ينح مقالة أخرى من مقالات الفرق الاسلامية .. ولكن مصر جبا رأينا لا تنسيت بمثل هذا ، ولا بعده شيئا في البدن .

ويؤيد الأمر بأن أن نصح في سرعة لونا آخر من الخواث النزاع الاعتقادي غير السياسي في أصوله وهو :

الاعتزال : فانه مقالة كلامية ، فلسفية ، ليست سبابة في أساسها كالتشيع ، وإن ادعت عمليا في السياسة بعد .. والاعتزال — كما نعرفه — قد هو أركان الحياة العقلية الاسلامية بدعوته الى احترام العقل ، وتمكنه من النظر ، كما هو أركان الحياة الاسلامية الصلبة مدى طويلا ، إذ جعل الخلفاء قضايه عقائد يلزم الناس بها ، ويصطهدون انفس اضطهاد لمخالفاتها ، كما فعل المأمون وخلفاء بعده في مسألة خلق القرآن ، التي هي فكرة اعتزاله ... قامى الناس بسبها الفتنة الكثير ، وكان منه في مصر ما سمعنا قريبا من أمر البويطي القنيد الصمدي ، حتى سمعنا في التماويخ بعض ومحة خلق القرآن .

وبأن ما كان أمر هذا الاعتزال في مصر فنعرف أنه كانت بمصر ، في حين ما خلقه للاعتزال تحدث عن خلق القرآن ، لأن

السياسة قد تدخلت فيه .. وقد جاءت المثالة الى مصر من الخارج .. وفيما وراء ذلك تقسم أن الاعتزال لم يأخذ في مصر أهمية تقاس في شيء الى ما كان له في بغداد ، وغيرها من ضجة .. وتآليف .. ومؤلفين .. وخرافات .. ومجادلات .. وكذلك ثبتت مصر اسلامها .

بلا خلاف اختلافى هام - ولا فرق .. ولا مقالات راجحة .



والعدل الاختفادي في الاسلام لما كان صدى من أصدا المصانة المنطقية ، وضرباً من عدوى الفلسفة الميتافيزيقية النظرية ، التي تلقاها العرب عن فيلهم ، وكانت في تقدير بعض المقيدين مشغلة للقول عن النزوع العملي الجاد ، وسواء أكان الرأي الحق لها كذلك ، أو لا ، فاد صلة علم الكلام الاسلامي بالفلسفة قوية واضحة .. ومن هنا تقسم أن صدوق مصر عن الجدل الكلامي ذو صلة - الى حد غير لربيب - بنظرها الى الفلسفة ، وقلقة نشاطها في ذلك .. وبعض الفاتنين تمللات في هذه الملاءمة يستحق المناقشة - ولكن ليس من عدنا الأول هنا أن نورد لمركز مصر العلماني ، في العصر الاسلامي .. فترك ذلك كله للناظرين في الحياة المتقلية ، من هذا التاريخ الحضاري ، شاعرين بأن نظرة مصر المسألة الى الفلسفة لم تكن نظرة الحضي بها ، ولا المهتم .. وكذلك

سببه من طابع الحضارة المصرية العام .. ومن القروق الخاصة في مصر الاسلامية ما يقف عنده المختصون .

وتسام القول في خصائص اسلام مصر أن نتحدث عن :

### مصر .. ويدا الخلاف الفقهي

ونعرف أن هذا الخلاف الفقهي في استخراج الأحكام العملية ما يقتضيه الخلاف طالع اليات ، التي عاش فيها المسلمون ، واختلاف عاداتهم ومعاملتهم .. كما لنذكر أن هذا الاختلاف رحمة - كما يقولون - ولكن في الوقت نفسه لا ننسى أن التطلع الى وحدة تشريعية جامعة قد وجد منذ عصر مبكر ، حيسا ظهرت آثار هذا الاختلاف التشريعي ، ولا يصبر من هذا الى أكثر مما يذكر من سبب تأليف مالك ، لمجموعه الحديثي الفقهي المعروف باسم « الموطأ » وأن طاب تأليفه من الخليفة المباضي الذي طلبه . على اختلاف الرواية في تعيينه - لما كان تطلعا الى هذه الوحدة التشريعية ، وربما بأثار هذا الخلاف ، كما يبدو ذلك صريحا في رسالة « ابن المقفع » المعروفة برسالة الصحابة . وفي الحوار بين الخليفة ومالك .. وربة الغليفة لي حصل الناس على الموطأ ..

وهذا التطلع الى وحدة مركزة في التشريع الاسلامي قد أيدت حوادث التاريخ بعد ذلك حسن أثره ، إذ كان بين الفقهاء من مسحة

ثم الشافعي ، فكان له حظه من النظر والنقاش ، الذي لم يعرف قبله بمصر .. وقد شعر المصريون بما لهذه الوفادة من خطر الفقرة ، فكان قاضي مصر اذ ذاك يصيح بالشافعي ويقول له : يا كذا ، دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد ، وديننا واحد ، ففهمت بيتنا ، والقيت بيتنا الثمر ، فري الله بيني وبينك وجسدت .. ومما يمكن لقول هذا القاضي من أسباب شخصية أو غيرها فاته بذل على رغبة البيعة في هذه الرحلة إلى الأمر والرأي .. وعلى أن المصادف مما يعاب به فاعله .

ولعله ليس من ذلك لم ينتشر المذهب الحنلي بمصر ، لأنه فيه الرأي الواضح ، وإن كان القروزي يمثل ذلك بأن مذهب أبي حنيفة ايطيال الأوفاء ، يقتل أمره على أهل مصر وسمنوه .. وهو لعيل غير كاف وحده لأن صاحب أبي حنيفة ■ يطولون الإحساس ، والميل له جرى على قولها ..

وفي كل حال فقد هيأت الشخصية المصرية التي عرفها خصائصها لكرامية الجدل ، في أي لون ما ، ويزيد تلك الكراهية وضوحا عند هذه الشخصية ما قلته البنا اثنائهم من شعور القنوص بعد تلقي الاختلاف وتأمله بأن التوفيق الموجد لهذه المذاهب المختلفة نفسا يقوم بها فقيه جليل ، رشحوه هم من فقهاء مصر البارزين ، قفى مطلع القرن السابع الهجري طست بسكة مائة من العلماء يقولون لو قدر الله تعالى بعد الألفية الأربعة في هذا

الخلاف وعنفه ما كان مما رأينا معه تنابذ القوم وتناحرهم بقوة ، من كل منهم على صاحبه ، قوة لا تشغل الفاري في هذا الموجز بشئ من تفاسيها .. وخلطهم الفقه بالكلام أحيانا فكانت الفتن بين الشافعية والحنابلة .. ولفرق كل فلك كلمة المسلمون ، حتى شعر أبناء عصرنا هذا بالحاجة المناسبة إلى التفرغ بين المذاهب ، وكأنت لهم في ذلك التقريب محاولة تأخذ طريقها .. كما اشتغل بعض المصريين بجمع ما سواه الفقه الموحد .. يرجون رجوع المسلمين كلهم إليه .

وكل أولئك كاف لبيان الآثار الاجتماعية غير المحبة للمذهبية الفقهية ، واختيار السعور بضروها في الصور السابقة ضربا من دقة الايمان وسلامة الفطرة ، ولقاء التدبير .

وبعد هذا البيان نستطيع أن نقدر عمل مصر في هذه الناحية اذا ما وصلنا موقفها من الخلاف الفقهى .



وما عرفناه من السلوك المصري في الخلاف الكلامي يعنى للرأى في شعور مصر نحو الخلاف الفقهى ، منذ أول شيوخ لهذا الضلال ..

لقد عرفت مصر المذهب المالكي ، لتدبره ، وصلت بدار الهجرة ، ثم وفد عليها الشافعي في القرن الثاني الهجري ، وقد أصاب من فقه الرأى حفا بتلمذته على محمد بن الحسن الشيباني ، وصبرورة كبه اليه ، لتزوج محمد

وفي فقهه الذي ارتفع عن الخلاف المذهبي  
المفروق .. ودعا الى التوفيق الموحّد منذ بضعة  
أجيال .. وحاوله فعلا .. وكلّ أولئك يؤيد  
ما تمتلئنا من ملائح الشخصية المصرية  
الدينية .. في عمق عديتها .. وسعة افقه ..  
وأعراق الجواهر الصافي للدين ..



على أفا عين للتبسي الدلالات الاجتماعية  
العلياء لموصف مصر من المذاهب الفقهية ،  
ولطرتها الى الاختلاف والتعزّب لانس مع  
كلّ ذلك أنّ هناك عوامل سياسية واجتماعية  
وكبرها تؤثر في انتشار المذاهب الفقهية  
وتمدومها ، فنستقر مذاهب غير قليلة في مصره  
أو يسود مذهب منها لحن هذه الامتيازات ..  
أو نخدم البيئة المصرية العلمية أحيانا ووجوها  
من علماء المذاهب المختلفة .. أو يكون في  
مصر ففيدة مشلون تلك المذاهب على  
اختلافها .. فذلك كله وما اليه لا يؤثر على  
ما اطماننا اليه ، من تصوف الروح المصرية  
الاجتماعية الى تلك الافاق العاما ، والغايات  
العييدة من اشراف على الخلاف ، والدعوة الى  
الوفاق ، ■ الاصليين الاعتقادي والعلمي ،  
مساسسنا من كلامها وفقها .. ولا تأثر  
لهذا على ذلك ، ولا ابطال لهذا بذلك ..  
وليسفي مؤرخو الفقه مثلا الى وصف جهود  
مصر وأثرها في حياة المذاهب الفقهية المختلفة،  
مع كل هذا الذي يقرره التاريخ الحضاري  
في نظراته التكاملية العامة .. ولكل وجهته .

الزمان مجتهدا عارفا بمذاهبهم أجمعين يركب  
لنفسه مذهباً من الأدبية بعد اعتبار هذه المذاهب  
المختلفة كلها لأزداؤه الزمانية ، واغداد الناس  
له ، فاقترق رأيهم على أنّه هذه الرتبة لا تمدو  
الشيخ تقى الدين السبكي ؛ ولا ينتهي لها  
سواء ؛ والمبكي هذا هو الذي انتهت اليه  
رياسة العلم بمصر ، وقالوا : ما جاء بعد  
الغوالي مثله ، فقال الصفدي : اللهم يظلموه  
بهذا ، وما هو عندي الا مثل سليمان الثوري ..  
ولعل العلماء رشعوه بهذا التوفيق المصلح لأن  
نزعته نحوه مبروغة ...

وإذا لم يكن هذا الميل الى التوفيق مصرياً  
لنقط في هذا المعاد فانا لنجد هذا الميل  
المصري للتوفيق ، بل الدعوة اليه ينتج اليها  
صرف مصري بلدي السبكي المتوفى هو  
التبرالي المتوفى أيضا ، وهو أصبل في الفقه  
لوق كومه صرفيا من الخواز الأول وقد  
حاول التوفيق بين المذاهب الأدبية ، كما حاولته  
التوفيق بين أهل الكلف والعباد وأهل النظر  
والاستدلال ، ويقول الباحثون الفرييون :  
أنه مصلح يكاد الاسلام لا يعرف له نظيرا ..  
وحسبنا به تركية لبل البيئة المصرية الى هذا  
التوفيق الخفي ، الذي لا يسمح فيه لهذه  
العموم صوتاً أبهر من هذا الصوت ..



وبذلك يبدو اسلام مصر متسق الجواب؛  
متناسك الاجزاء : في روحيته التي قادته  
التصوف .. وفي إيمانه الذي لم يهني للجدل ..

والآن وقد تبين اتجاه مصر « وآمالها »  
الحياة الإسلامية الاعتقادية ، والحياة  
الإسلامية العملية وما نمت بينهما ذات الطابع  
المتنوع الواضح .. الآن نشعر بضرورة توجيه  
مثل هذه النظرة الكلية الشاملة الى :

## الإسلام .. والمجتمع المصري

### التمهيد :

هذه المصور التي نتحدث عنها من القرن  
السابع الهجري الى قرابة القرن الثاني عشر  
الهجري أيضا عصور سود فيها النزعة الدينية ،  
وتسيطر الروح الدينية في توجيه الحياة  
وتدبيرها .. ومصر هذه بخاصة قد عرفنا لها  
هذا النزوع الديني القوي ، وذلك التمسك  
الروحي في التدين فلا غرابة في أن يكون  
الدين في تلك المصور سبيلا قويا للفتن  
السياسية والاقتصادية والاجتماعية كلها .



وقد كان المجتمع المصري يتألفه من  
مسلمين ، ودينيين ، من أصحاب الديانات  
المساوية الأخرى ، كالنصرانية واليهودية ..  
ودون أن ننظر الى نظام الذمة النكري في  
الاسلام ، ومدى انسانيته ، نستطيع أن نقرر  
في الله أن النظام الإسلامي للذمة لم يكن دائما  
دو كل حين هو النظام الواقعي الفعلي في  
الحياة ، إذ لابد من وجود الفرق — رغم كل  
شيء — بين المثال المثالي ، والواقع المتحقق ..  
وانتاريخ الحضارى اما يلتمس وصف سبر  
الحياة الفعلي ، وإن لم يخض التطلم التالي

حقه ، في الدلالة على حسن استجداد متعلميه .  
وبملاحظة الواقع العملي نجد أفعالا  
مختلفة : بعضها لا يعترف المثال الاسلامى  
لحياة المسلمين بوصفها يحاول أن يحس ائتم  
الصحيح الذي أراده الاسلام .. فحينما يعترف  
وال مسلم فهدم الكنائس المجدنة مثلا ..  
وآذا فأن وإن آخر بنائها ، بشعيرة الفقهاء  
أو القضاة العظمين ، الذين يحتجرون بأن بناء  
الكنائس من عبادة البلاء ، وأن الكنائس  
التي يصر لم يكن الا في الاسلام زمن الصحابة  
والتابعين .

وإذا ما قلنا أن حكومات هذه اليهود  
لم تكن تعكر في شيء من اصلاح عقلى أو  
اجتماعي ، للشعوب المعسومة الا بقدر  
ما تسير الأمور ويستقر النظام ، وأن الأعمال  
الاصلاحية الاجتماعية كانت نشاطا فرديا  
شخصيا من فضل العظمى ، يتفربون به  
الى الله .

ثم اذا ما قلنا أن حكام هذه العصور  
أيضا لم يكن لهم من سعة الأفق وبعد النظر  
ما يفهمون به المعاني الدينية السامية أو  
يشعرون روح التسامح الذي توجيه نظرة  
الاسلام الى الوحدة الدينية الاسامية مثلا ..  
وكان العامة اعمارا جاهلين يدركون من التدين  
ممنه القريب ، ويرون المخالف عدوا محاربا ،  
وصالا مضلا ، والحكام في حاجة الى عرضهم  
إذا شفيوا على أهل الذمة أو يطفئوا بهم ،  
ثم الحكام أنفسهم — كما قلنا — فيفتقروا لأفان ..



والى جانبهم علماء ، منهم من كانت تقصصهم تلك الساحة الروحية .. وبكل أولئك يقع ما يقع من ارهاق أو اعتات للذميين بالزناات قاسية ، وتشريعات خشنه ، دفعت اليها طبيعة الحياة اذ ذاك وروح العصر نفسه .

وعندما يتردد الأمر بين مسمح يولى الذميين من النصارى واليهود مراكز رئيسية فى الوزارة والادارة .. وتمت يضطهدهم وينتظف فى ذلك .. فلا يستطيع المصنف ان يتخذ من التسخ الاول سورة لعبادة هؤلاء الذميين فى المجتمع المصرى لمعد من العمود ، أو فى اليهود جميعا .. كما لا يستطيع ان يتخذ تلك الصورة لحياة الذميين فى المجتمع المصرى من الاضطهاد الذى قد مارسه قلوب قاسية شرسة ، وتطهر لأبدان من فظافتها .. ولعل الاصل ان يقدر المؤرخ الحضارى الدرجة التى يظف فيها هؤلاء الناس — حكاما وأفرادا — من سلم الرقى الانسانى .. ويدرك أنهم لم يكونوا يستطيعون ان يرتفعوا على آفاق عصرهم ، وبظفروا الى درجة لوى المروجة التى أهلهم زمنهم للصعود اليها .

والحق الذى ينبى أن تنتهى اليه اليوم هو عدم الشكر فى ادعاء الاختصاص دائما .. مع عدم التجنى فى المؤاحنة بالاعتساف دون تقدير الظروف المصنفة .. ولو قدرنا أن السياسة لا قلب لها .. وان الملك — كما قالوا — غيم .. وأن هؤلاء الحكام فى

معاملتهم للمسلمين أعوسهم ، بل فى معاملة أعضاء الأسرة الحاكمة منهم بعضهم بعضا ، قد كانوا يتسبون بل يتوحشون ، لرأينا ما يفضى به الواجب الاجتماعى علينا من الحكم المنصف الذى يبب أخطاهم لعصرهم ومسنواه الانمانى .. ولا يجعل ذلك للدين فى نظامه النظرى وروحه الاجتهادية .. ولا يثب به شيئا فى الأفس اليوم ، فتلكمة قد غلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .. ولا يسأل عن اخطالها دين أو نظام ، بل تسر تصرفها مستوى الحياة لمعددها ودرجة المعمور بالمعاشى الانسانية فى أيامها .

وعلى كل حال فقد كان المنصر الاسلامى فى المجتمع المصرى بقدر العنصر المسيحي بخاصة ، ويعرف عند القوم ما له من أثر فى خدمة المصالح المصرية ، عن طريق الصلة الدينية بين مسيحي مصر ومى حوالم من أصحاب مذهبهم ، كالذى كان فى القرون الخامس من ارسال الخليفة المنصور بطرك مصر الى بلاد الحبشة بهدية سنية ملكها ، من أجل قصى النيل وضرر أهل مصر بسبب لذلك فأمر بذلك الحبشة بفتح سد يجرى منه الماء الى أرض مصر ، لفتح ، وزاد النيل فى ليلة واحدة للالة أشرع .. — على ما يروى — .

الحكومة : فى مثل هذا الجو تكون الحكومة تيوقراطية — اى حدا — فأساس السلطان فيها الأمر الاكهى بطاعة أولى الأمر مع الأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ وأخيهما الله

وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول ..

وقد يكون من حكامها -- ولاية أو أمراء أو خلفاء أو سلاطين -- من هو خير يستشير من حوله ، دون نظام مقرر أو ترتيب ملزم ، مع الأمر القسري الصريح بالضرورة « وشاورهم في الأمر » وأنها الشاغل الثابت « وأمرهم شورى بينهم » .

وفي هذا الوضع كان العلماء الدينيون ، بطبيعة تفانيهم وعقديهم ، هم الدين يشلون سلطة الشعب « لأهمكم كما قيل » يألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء .. وهم يعرفون أن أفضل العهد عند الله كلمة حق في مجلس حاكم ظالم ؛ وهم يسمون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الذي صارت به هذه الأمة خير أمه أخرجت للناس . وأن تغيير المنكر مأمور به : باليد ، أو اللسان ، أو القلب .

ولكن العلماء المسلمين ليسوا هم الموجودين دائما ، فضمم -- كما رأينا -- حتى في أعصرها . من بأول الآية الإسرائيلية « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اعتديتم » بترك الأمر وعدم التدخل ، بل منهم من كانوا أدوات ووسائل لتصديق رعايا الحكام ، واختارهم بما يريدون ، والتوقيع الكتابي بذلك على ما يطلب منهم الاختفاء به .

وفي مصر بالذات قد عرفت لمثل سلطة

التي سب هذه وقفات مفكورة في مقاومة الظلم ، ومواجهة الظلماء ، ففي القرن الثالث وأربعين البويطي يراد أن يموت في حديد يعرف من بعده أن غاسا ماتوا في حديدهم ، كما رأينا البيت بن سعد وغيره قبل ذلك بتمام هدم الكنائس ويزوده تعميدها من عمارة الجلاء ، وفي القرن الثامن الهجري لرى بين مؤلصات المبكى كتابا اسمه « كشف الدلائل في هدم الكنائس » وهو اسم إن دل على شيء ، فلما يدل على مقاومة رغبة هوجاء في هدم الكنائس والاستيلاء على ما فيها كما كان يحدث في الظروف التي تمر بها إليها سابقا .

بل إننا في القرن السابع الهجري لسع العز بن عبد السلام الفقيه الشافعي الجليل -- ت ٦٦٠ هـ . يعلم في مصر والقمام : أن المخاطرة بالنفس مشروعة في أعزاز الدين ، وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وأن من حال بأن التنزيه بالنفوس لا يجوز قصد بعد عن الحق ، ولأن من الصواب ..

ولقد عرف هذا العالم الكريم بأنه سلطان العلماء وأمام عصره بلا مدافعة ، والقمام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه .. وله في التجاعة والمخاطرة ، وتعدى الظلماء متغمر جديرة بأن تدافع ، وهي من الكثرة بحث لا نجد لها المكان هنا ، وحسبنا منها واحدة هي : موقفه من أمراء دولة المماليك

المحرك في مصر : إذ لم يثبت عنده أنهم  
أحرار ، بل أن حكم الرق مستحب عليهم  
ليت مال المسلمين ، ومن جيلتهم نائب  
السلطنة نفسه .. فهاهم ذلك واستأطوا  
غضباً فاجتمعوا وأرسلوا إليه فقال : نقصد لكم  
مجلساً ، وينادي عليكم لبيت مال المسلمين  
ويحصل منكم بطريق شرعي .. فرغوا الأمر  
إلى السلطان ، وبلغ الشيخ أن السلطان أكثر  
دخوله في الأمر ، وقال : إن هذا لا يتعلق به ..  
لفضيل الشيخ د عز الدين ، وحصل هو الوجه  
على حمار ، وأركب عائلته على حمار ، ومنى  
خلفهم خارجاً من القنطرة ، قاصداً نحو  
القيام ، فلقاه غالب المسلمين : ثم نكده امرأة  
ولا صبي ولا رجل لا يلزمه الله بتخلله ،  
ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار فبلغ بها  
هذه الظاهرة الهائلة إلى السلطان ، وقيل له :  
متى راح ذهب ملكك ، فركب السلطان  
بنفسه ، ولحقه ، واسترضاه ، وطيب قلبه  
فرجع .. وابتغوا معه على أنه ينادي على  
الأمراء .. ثم أرادوا علامته فلم يجد ذلك  
معه وأصر على رؤيه .. وفزع هؤلاء الأمراء :  
كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبينا ونحن  
ملوك الأرض ؟ فقال غالب السلطنة : والله  
لأخبرينه بسببي هذا .. وركب بنفسه في  
جناخته ، وجاء بيت الشيخ والسيف معلول  
في يده ففرق الباب .. وعرقه الشيخ الحال  
فما أكثره : ولا تغير ، وقال لابنائه الذي  
وصف له ما رأى : يا ولدي ، 'بوك أقل من

أن يقتل في سبيل الله .. ثم خرج ، ولأنه قضاء  
الله قد نزل على نائب السلطنة ، فحين وقع  
بصره على النائب يبيت يده وسقط السيف  
منها وأرعدت مفاصله ، فبكى ، وسأل الشيخ  
أن يدعو له ، وقال : يا سيدي خير .. أى شيء  
لعمري ؟ قال : أنا الذي عليكم ، ويحكمكم .. قال :  
فقيم تصرف لنا ؟ قال : في مصالح المسلمين  
قال ، من ينصحه ؟ ، قال أنا .. فتم له  
ما أراد ونادى على الأمراء ، واحداً واحداً ،  
ولم يأت لي منهم ، وقضه وحرفه في وجوه  
الطير ..

لمح كل أعجابتنا بهذا الموقف ولغيره منا  
يروي عن حياة النور بن عبد السلام لا يقول  
الآنما قلنا من قبل عن مظاهر الانسابة :  
وأحداث الأسطهاد في سماء الشعب ، يقول :  
إننا لا نستطيع أخذ الصورة الصحيحة لموقف  
عليه الدين من الحكومة من مثل هذه  
المواقف البطولية وحدها .. كما لا نستطيع  
التقاط تلك الصورة عن مواقف المصلاة  
وانسراج أمام الحكام .. فلا هناك سلطة  
مقررة لمخاضة العلماء ، ولهم من الشكر ..  
ولا هناك ضيق دالم أمام السلطة الحاكمة ..  
وانما هو مجتمع في مرحلة مناسبة تمره :  
لا حماية مقررة لحقوقه .. ولا أعداد مستمر  
لهذه الحقوق .. هي نوبات من الصدف  
والاختناق .. والحدود المتفضل .. لم تستمر  
الحكومة فيها بواجب فلتزيمه .. ولم يشر

العام ، الذي يحدد ويضبط صور الحياة »  
 وأحداث الزمن في هذه العصور ، واضحة  
 الدلالة ، مغمرة لأسباب ، مغمرة الأهداف .  
 في الحياة الدينية ، وحياتنا من الحياة الاجتماعية  
 بما يؤثر فيها الدين بعامه .. والاسلام بتفاصيله  
 ولعلنا بهذا الإطار قد ميزنا صورة مصر  
 المسلمة ، أو صورة اسلام مصر عن غيرها من  
 البيئات الاسلامية الأخرى .. أو عن الاسلام  
 في تلك البيئات .

... وفي كل حال لاندى قديمنا بهيـه  
 للحديث عن :  
 الحياة الدينية بمصر في العصر الحديث .

المسلمة فيها دائما شعورا واضحا بحق  
 فثروهم .. ولا الشعب بين هذين يدرك حقه  
 فيصم على طبعه .. ويتقدم من يقتضيه كما  
 اقتضى الشيخ المزين عبد السلام أثمان  
 الأمراء الخراك الحاكمين ، وصرفنا في المصالح  
 العامة ... فذلك كما قال ناكلر هذه الحوادث  
 « ما لم يسمع بشئ » .



الى هنا حدثنا عن الحياة الدينية ، في سير  
 الحضارة الاسلامية بمصر خلال أجيال تاريخها  
 المتوسط بمصر الاسلام ، من القرن السابع  
 الهجري الى مطلع التاريخ الحديث ، فوضنا  
 بين يدي القارئ .. ليبدأ لرجو — الاطار

# الحياة الفنية في مصر الإسلامية

من الفتح العربي إلى الفتح التركي

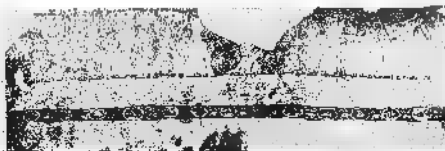
للكاتب محمد جبر العزير مرزوق



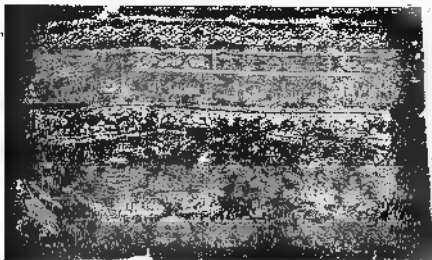
١ - أثر من عصر الخلفاء الفاطميين ( شاهد قبر مؤرخ سنة ٣٩١ هـ بالمعهد الإسلامي بالقاهرة )

لئن كانت الروح الموجهة للحضارة الإسلامية - وهي الإسلام - لم يذلت أول ما يذعت في بلاد العرب ثم بدأت تروي لهاوها في البلاد التي أثمرت عليها والمثمة من المحيط الأطلس إلى ما وراء الخليج الفارسي في بلاد الهند والصين ، إلا أن ثراث هذه الحضارة قد ضاعت معظم معالمه - بليل الحروب أو الأهوال أو بفعلها معا - من كثير من تلك البلاد إلا مصر فقد بقي فيها جانب كبير من هذا التراث لشاهده في مساجدها وكتائبها وفي مدارسها وقصورها وفي خواتمها وقلاعها وأسوارها ولينا تنظري عليه جوامع متاحفها الإسلامية من تعف مثولة .

وتكون هذه الآثار ، سواء ما كان منها ثابثاً أو منقولاً ، سلسلة متماصلة العتبات



٢ - أثر من عصر الأمويين ( قطعة فمائل مؤرخة سنة ٨٨ هـ بالمتحف الإسلامي بالقاهرة )



٢ - اثر من عصر المساجيد ( قطعة صائى من مدينة القيس من عصر النخبة المهدى [٦٦٨ هـ] )  
بالتحقيق الاسلامى بالقاهرة .

عنه : وتحافظ عليه ، وتقوى ما تدعى منه ،  
وتكمل ما شاع من اجزائه ، وتسمى جامعة  
لكى تجليه على الناس : الصورة الرائعة  
التي كاذ عليها يوم تبيته : و صنع المصريون  
المصور الوسطى .

والمنحوتات القليلة المحدودة لى فى هذا  
الكتاب . لا تكفى لاي اثر الصورة الكاملة  
لهذا الجانب الفنى من حياة مصر الاسلامية ،  
ولكننى ما بذل قصارى جهدى لى ان ارسم  
لهذا الجانب صورة اذ اعوزها التفصيل فى  
كتب من اجزائها فلا يموذها الوضوح ، ولعل  
فى هذه الصورة الصغيرة ما يحفز القارئ  
الى دراسة هذه الآثار ويستتويى الى مطالعة  
المراجع المطولة التى تمنى بها غيرداد ايضا  
بمظلة مصر فى المصور الوسطى ، ويؤمن  
بأنها قد شملت نفس المكانة السامية التى  
شغلها مصر من قبل فى عصورها القديسة .

تتلم المصور المختلفة للحضارة الاسلامية :  
فى مصر آثار من عصر الراسدين ( صورة  
رسم ١ ) ، ولها آثار من عصر الأمويين  
( صورة رقم ٢ ) ، ولها آثار من عصر  
العباسيين يوم كانوا أقوى ( صورة رقم ٣ ) ،  
وآثار من عصرهم يوم أصبحوا ضعفاء : ولها  
آثار ينجلي فيها قيام المذهب الشيعى ولبات  
أركانها ، ولها آثار تنطق باستعادة المذهب  
الصنى مكانته وفوقه .

وهذه الليرة التى تفتح بها مصر دون  
غيرها من بلاد العالم الاسلامى انما ترجع  
الى امرين : الاول أنها كانت بمنجاة من بعض  
الكوارث التى تعرض لها العالم الاسلامى  
لاسيما فى جانبه الشرقى ، والثاني أن المصور  
بأهمية تراث الماضي قد استيقظ فيها قبل  
غيرها من البلاد الاسلامية فقامت تكتسبه

## العمارة

(المعبر ما قبل الطرثوثي)

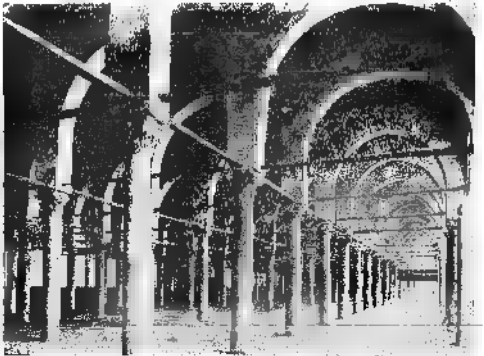


المنظر من المعبر ما قبل الطرثوثي

شكل - ١

معبرنا المعاصر فقد كان فيها الأحياء الراقية  
بمداخلها العالية التي وصل بعضها إلى أربع  
عشرة طبقة ووقف بعضها عند سبع  
طبقات حيث أُنشئت حديقة نباتية (Hort-garden)

وتعتبر المقاطع الأولى المعاصرين  
التي شيدها العرب في مصر - نقطة  
الابتداء في هذا العرض المريح ، وخرابها  
التي كاد للمرحوم علي بهجت لحصل  
الكشف عنها في سنة ١٩١٢ تروي لنا فصلاً  
ثيقاً من تاريخ المدن (صورة رقم ١) ، فقد  
بدأت ماذجة ، ثم سداجنة من ساحة  
منشياً ، ثم تطورت بمرور الزمن حتى  
وصلت إلى ما وصلت إليه المدن الراقية في



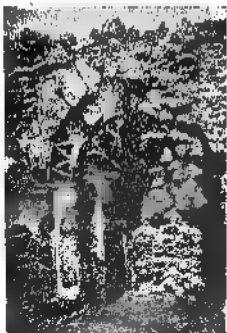
١ - جامع عمرو كما هو الآن وتري فيه بيجان الأعمدة ذات الطرز المختلفة -

فالمسجد الذي أسسه محمد ، صلوات الله عليه ، في المدينة التي اتخذ فؤادها للمساجد من بعده لم يكن سوى قطعة أرض مرمية الشكل أحيطت بمعدن أسما من الحجر وقوامها من اللبن وتجاه بيت المقدس — قبله المسلمين الأولي — أقيمت مقبرة من الجريد الخشبي بالطين فوق جذوع النخل ، ولما تحولت القبلة إلى الكعبة في مكة أقيمت مقبرة جديدة مثل السابقة وتركب الأولي حيث هي ليستظل بها فقراء المسلمين وبذلك أصبح للمسجد مئذنتان بينهما مكان مكشوف أحدهما إلى الشمال والأخرى إلى الجنوب ، ولما زاد عدد

فيها التجار والأزهار من سائر الأنواع على حد وصف الرحالة الإيراني ناصر خسرو الذي زارها في القرن الخامس الهجري ( ١١ م ) ، وكان فيها أيضا الأحياء الفقيرة بساكنها المتواضعة وشوارعها المظرة ، وكان فيها الأسواق الناضرة بالتاجر ، ومصانع السكر ، والصابون ، ومسابك الزجاج والنحاس ، والفران العسيف والفخار ، ولا تزال بعض أطلالها تؤدي إلى حد كبير ما ورد في بطون الكتب عنها .

والأثر الوحيد القائم بين خرائب هذه المدينة والذي لا يزال إلى اليوم يعقن الفرض الذي من أجله أنشئ هو جامع عمرو (صورة رقم ٥) الذي بدأ سادجا كما بدأت القسطنطينية ثم أخذ ينمو ويتطور حتى مر السنين ، وكلما ازداد عدد المسلمين ، وكلما ارتقب حجابهم العكسي لذلك لم يفتقر رقمته ، وارتفع سقفه ، وكثرت أبوابه ، وأخذ الشكل الذي هو عليه الآن : صحن مكشوف ، يصبط به من جوانبه الأربع أروقة أربعة مستوفدة بنسبها ضاعت معالمه ولكن بقايا الأعمدة تدل عليه ، وبعضها لا يزال محتفظا بشكله .

وهما المختلفت آراء علماء الآثار في مصدر هذا التصميم فالذي لا شك فيه أنه تابع من أحماق نفوس العرب ، متكبته بطرولهم ، وليس متقولا ممن سبقهم من الأمم . فإذا نحن تذكرنا حالة العرب قبل الإسلام وتذكرنا بساطة الإسلام وبعده عن الطغوس المتعقدة منهل علينا أدراك هذه الحقيقة ،



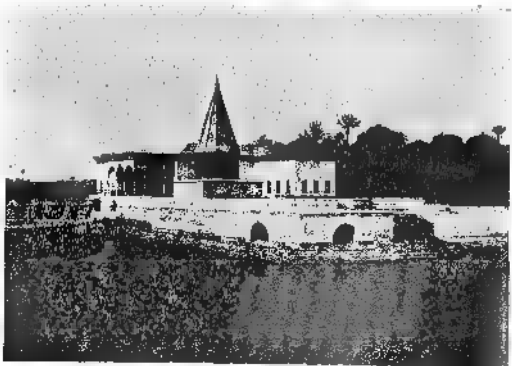
١- من زخارف توافد جامع عمرو كما كان في العصر العباسي الأول



عند المعابد والتكاثر الهامة ، شأنهم في ذلك شأن الرومان من قبلهم الذين كانوا يتضلون نقل العمدة اليونانية القديمة الى معابدهم . ولم يشك قط أن العرب قد هدموا قصدا معبدا أو كنية لكي يحملوا على أعدته كما يسمي بعض النصارى . وينبغي أن نبادر فنذكر إذ الصور التي راجع اليوم في مسجد عمرو إنما هي من عمل المملوك مراد بك أحد سلاطين المماليك في العصر التركي ولا علاقة بينها وبين المسجد الأصلي إلا في البقعة التي عليها .

\*\*\*

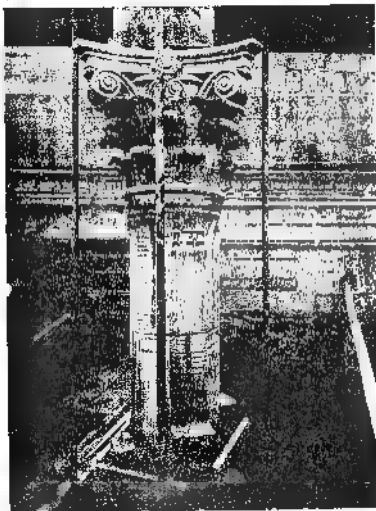
المسلمين ، وسيت الحاجة الى قدر أكبر من الظل ، وحصل ما بين هاتين السقفتين بسقفتين جانبيتين أحدهما للبين والأخرى للنساء ، وهكذا ولد تصميم بناء المساجد .  
وطبيعى أن يتطور المسجد بتطور العرب الذين تأثروا بما رأوا في البلاد التي فتحوها من الأبنية القديمة فاستبدلت جذوع النخل التي كانت تحمل البقعة بسيد الرخام ( مسورة رقم ٤ ) . وإذا نحن تأملنا في رؤوس الأعمدة التي تحمل سقف جامع عمرو ، وجدنا أن ارتفاعها من طرز مختلفة ، ذلك أن العرب استقدموا ما وصلت اليه أيديهم من



٧ - مقياس النيل من الخارج بعد أن جددته مصلحة الآثار .

المدينة السودجية ومسجد أبي السمود .  
والأثر الباقي من هذا العصر العباسي  
والذي يمد أقدم أثر مصري إسلامي محتفظ  
بشكله وتفاصيله ، هو مقياس النيل بجزيرة  
الروضة الذي أمر بإنشائه الخليفة العباسي

وانتهى عصر الراشدين تم عصر الأمويين  
وجاء عصر العباسيين الذين امتدوا إلى شمال  
المعظم وعلى مقربة منها عاصمة جديدة هي  
العسكر التي ضاعت معالمها ولكننا نستطيع  
أن نتصور موضعها في المنطقة القريبة من



د . صورة مقياس النيل في الفتح ويرى بها أقدم طراز اداة القياس الكروية في مصر وأخرها  
منال للمقود المدينة .

عراز المكتبة الكوفية في مصر وفيه تقدم مثال  
للقود المدية بها . ( صورة رقم ٨ ) .

### ( العصر الطولوني )

وبدا في مصر عصر جديد عندما ولي  
أمراها أحمد بن طولون ، عصر أصبحت فيه  
أمة جديدة يدين معظم أهلها بالإسلام ،

المشاكل على الله سنة ٤٤٥ هـ . ( صورة رقم ٧ ) .  
وامتد هذا الأثر بفصح لنا عن مدى رعاية  
أجدادنا في المصور الوسطي بأمر النيل كما  
كان يسعى به أجدادهم في المصور القديمة .  
ولهذا الأثر الذي جددته مصلحة الآثار أهية  
كبيرة للذين يبنون بالاحياء الأثرية فبه تقدم



١ - مسجد ابن طولون من الداخل وترى فيه المنارة والمئذنة .

وأما الدعاءات التي تحمل القود فهي الأولى من نوعها في مصر الإسلامية ، وهي كذلك من خصائص العمارة العراقية التي انتقلت إلى مصر في هذا العصر الذي سيطر فيه الفن اتيماسي الذي شاع في العالم الإسلامي .  
( المصورة رقم ٩ ) .

وأما الزخرفة فهي تجدر علينا صمورة صادقة للفن الإسلامي كما ازدهر في العراق ونحن إذا تأملنا في هذه الزخرفة قليلا وجدنا أنها لا تستطيع أن ننسب إلى الفنان المصام فضل ابتكار وحدانها لأن هذه الوحدات كانت موجودة بالفعل في الفنون السابقة على الإسلام ، إلا أننا لا يمكننا أيضا أن نجعله مقدرة الفنان المسلم في طريقة توزيعها ، والتأليف بينها ، وتقسيمها تنسيقا جليلا يبدو كأنها اخترعت لأول مرة وما هي كذلك ، ولكن صهرها في بوتقة ، وسط عليها أئمة عبقرية ، وفخرجت من بين يديه لنا جديدا ، لا يخفى علينا أصله ولكننا لا نستطيع أن لنذكر عليه شجعت القوة .

وأما اللوحة التأسيسية المكتبة على إحدى الدعاءات ، فندلنا على ما للكتابات التاريخية المنقوشة على الآثار من أهمية عظيمة ، فحسب استطعنا بفضلها أن نقف على التاريخ الحقيقي لأبناء هذا المسجد ( ٢٩٣ هـ ) بأنه أن أعطانا المؤرخون له تواريخ مختلفة جاءت من غير شك نتيجة لأخطاء الناسخين ، أو عدم الدقة في نقل الأخبار .

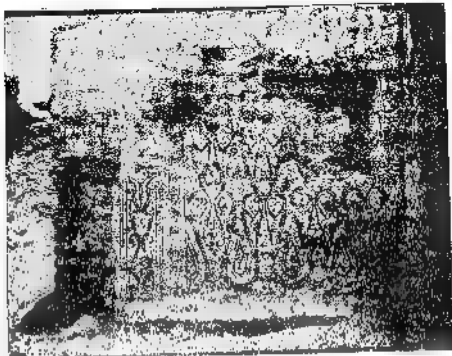
والفقرن الطولوني الذي كشف عنه المرحوم حسن الهواري سنة ١٩٣٤ م بالقرب

ويشكل معظم أعمام العربية ( بدلا من القبطية ) واتجهت فيه إلى استكمال شخصيتها الجديدة بالاستقلال ذاتيا عن الخلافة العباسية التي كانت عاصمتها في مصر من رأى ، وقد حقق لها حاكمها صالح الذكر هذه الرغبة فأنشأ عاصمة جديدة إلى الشمال من مدينة المنسك سماعا القضاة وشيخه فيها مسجده الرائع الذي لا يزال قائما بعدد لنا مكان هذه العاصمة الجديدة على وجه التكريب ، ثم أقام إلى جواره قصره الذي أمه من بعده ولده لعمار وبه وكان آية في العظمة على حد وصف المؤرخين له ، فخلد ضامته معالنه من الوجوه وبقت في بطون الكتب .

أما المسجد فيسبر في تصميمه على النهج الذي شاعدهاه في مسجد عمرو ولكنه خطأ لعم التطور خلوات تنجلي في خسة عناصر هي النافورة والمئذنة والدعائم والزخرفة واللوحنة التأسيسية .

أما النافورة التي تتوسط الصحن فقد أعدت في الأصل لشرب مياه الناس ولكنها في عصر المماليك ، عندما جدد هذا المسجد ، انقلبت إلى ميطاء كما تدل على ذلك الآية القرآنية المنقوشة داخل القبة التي نطقها .

وأما المئذنة فهي الوحيدة في مصر التي لها هذا الشكل العجيب ، وهي متأثرة بشغلة المسجد الجامع في مدينة مصر من رأى ، بالعراق ، وكلتا المئذنتين قد استلعت تصميمها الأسس من مبادئ النار الفارسية المعروفة باسم اتريجورات .



١٠ أحد جسدتين المنزل الطولوني يري به وحارث من طرم ، سر من رأى ، الثالث .

خطت البلاد في سبيل الحضارة المادية خطوات واسعة ، وصادت روح النهضة في كل شئ ، وكتب التاريخ ، والآثار الثابتة ، والتحف الثمينة تمكس هذه العدة الثمينة ، وتبرز شخصية الفتح المصري الاسلامي الذي تحلت فيه براعة المصريين في مسود كثيرة تفرض الاعجاب على كل من يراهاها .

واذا كانت حضرة المعظم الامير الاسلامي اضافة — القسام والعسكر والاطمان حـ قد ضاعت ، محدود النهضة العاشية لا تزال قائمة تستطيع أن تحسرف عليها في سرور غورها الفعلي لا يزال قائما تشاهد فيه

من منطقة ابي السعد من الأمتة السادرة للعمارة المدنية في مصر ( الصورة رقم ١٠ ) وهو في تخطيطه وزخرفته يسير على نهج قود مدينة مـ من رأى ، بالمراني ، وعلى أساس هذا التخطيط ، وبذلك الرخاوت ينسب هذا القرن الى العصر الطولوني .

( العصر الفاطمي ) .

واذا لم يكن استقلال مصر عاما في العصر الطولوني ، فإنه قد أصبح كذلك في العصر الفاطمي اذ صارت مصر مركزا للخلافة مناهضة للخلافة العباسية في العراق ، والخلافة الاموية في الأندلس ، وكان من أثر ذلك أن

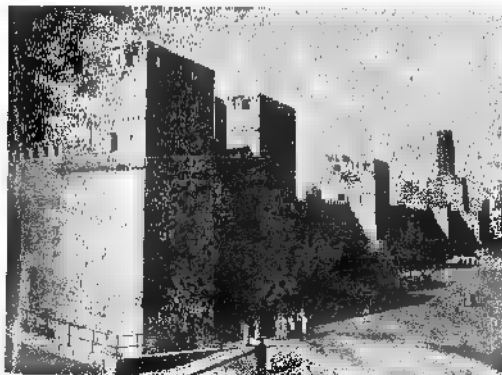
لا يتأهل الذكر ، ولكن « درب سعادة »  
المجاور لمحافظة القاهرة يذكرها بحدود  
القاهرة في هذه الجهة .

وتعد أبواب القاهرة وأسوارها من أروع  
العناصر الحربية في المصور الوسطى  
في العالم أصبح ، وقتها كانت ، ولا تزال ،  
موضع الإعجاب والتقدير من كل من رآها  
أو يراها ( المصورة رقم ١٢ ) .

ول داخل أسوار هذه العاصمة الجديدة  
شيد الفاطميون قصرين عظيمين ضاعت معالمهما  
وبقيت موقعا : القصر الكبير ويشغل اليوم  
المشهد الحسبي وخان الخليلي جزءا من

باب النصر ( المصورة رقم ١١ ) وباب الفتوح ،  
وإذا دقت النظر في الكتابة المنقوشة على  
السور القائم بين هذين البابين وجدت أن  
اسمها هو باب مصر ، وباب الإقبال .  
وسورها الشرقي لا يزال يجرى في موازاة  
غلاف الدرامة ، وقد كشفت معاول عمال  
البلدية وهم يعملون لتوسيع رقعة القاهرة  
الحديثة عن باب التوفيق منذ بقعة  
شمسور .

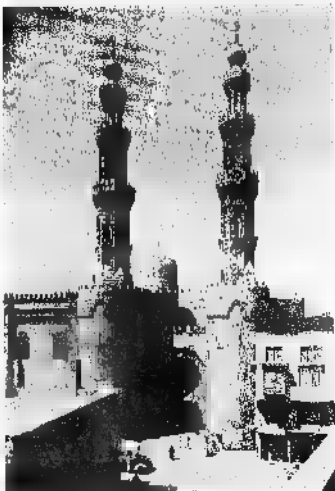
وسورها الجنوبي لم يبق منه إلا باب  
زويلة ، وبوابة الخولي كما يسميها العامة .  
وسورها الغربي كان يسير بموازاة  
شارع الخليج ، ولم يبق منه إلا القليل الذي



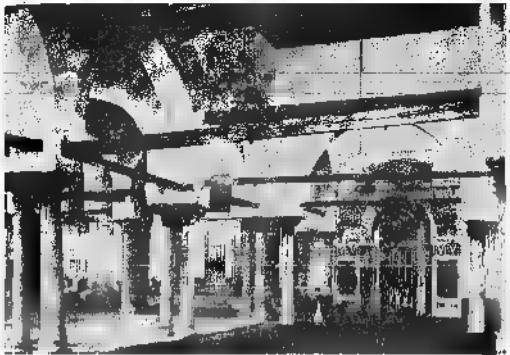
١١ - باب النصر أحد الأبواب الشمالية للقاهرة

بين الآثار الفاطمية الكثيرة ما كان محتفظاً  
بسميات هذا الممرى من البناء ، فالأزهر  
( صسورة رقم ١٣ ) على شعرته العظيمة  
لا يستطيع أن يحقق لنا هذا الهدف ، لما ضاع  
منه ، ودخل عليه من التعديل والتحويل ،  
بينما الأمور أو جامع الحاكم بأمر الله ، على

موقعه ، والفصر الصغير وتدخل اليوم الصاغة  
ويستثنى قلاوون جزءاً من موقعه .  
وفي القاهرة الغربية وفي خارجها سيّد  
الفاطميون المساجد والمشاهد ولا يزال بعضها  
قائماً حتى اليوم .  
ويفرض علينا ضيق المجال أن نختار من



١١٢ باب ذبنة أسد الأبواب الحسوية للقاهرة



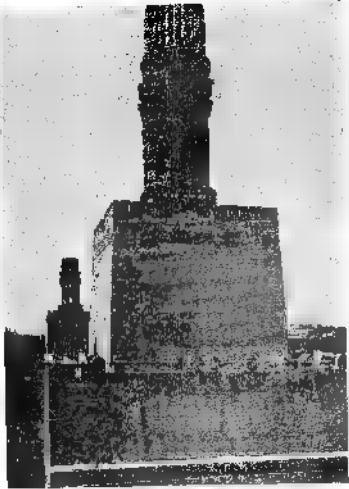
١٤ الجامع الأزهر من الداخل .

أما الواجهة فستقطب النظر في مساجد مصر السابقة ، يقوم في زاوية برجان عظيمان يكسبان المسجد مظهر القلاع ، يخرج من كل منهما مثانة عالية تمتد أقدم المآذن المورخة في مصر ( صورة رقم ١٤ ) ، تزدان كل منهما بخاروف رائعة ، وبكتابة كوفية تنظم اسم الحاكم بأمر الله ، وقد تصدح الجزء العلوي من هاتين المذنبتين الزلزائل شديد أصاب البلاد في عصر المماليك ، وأعيد تشييد هذين الجزئين على الصورة التي تراها الآن . والمداخل الرئيسة واقع في منتصف الواجهة ، وبارز عن سنها بروزاً قوياً ، وقد

سره حالته ، يبرز لنا هذه الخصائص ، والجامع الأزهر على صغر حجمه يعجل علينا جمال الفن الإغريقي في صورة واضحة قوية ، ومشهد الجيوش يكفى لبيان الفوضى من مثل هذه الأبنية التي ظهرت لأول مرة في مصر في هذا العصر ، والحضام الفاطمي هو أقدم بناء موجه من نوعه في هذه البلاد .

فجامع الحاكم يحتفظ بالعناصر الرئيسية للمساجد الفاطمية وهي الواضحة النخبة ، والمداخل البارزة ، ومعارج القبلة ، والقباب الثلاث .





١١ - صورة جامع الحاكم من الخارج وتبدو فيها المنذتان .

نفروا بالخلافة أخيراً ، أصبحت لهم مرة عظيمة  
يتأهبون بها الخلافة العباسية في الشرق  
والخلافة الأموية في الغرب .

ومجاز القبة ممتد من الصحن إلى  
المحراب مباشرة ، ويمتاز بعلو سقفه عن سقف  
المسجد ، وبوجود سلسلة من العقود على كل

كأن يتوحد لوح من الرخام قدام أثره وبقي لنا  
رسمه الذي يتضمن اسم الحاكم بأمر الله مع  
الآية الكريمة « ونريد أن نبن على الذين  
استضعفوا في الأرض » ونجعلهم آتة ونجعلهم  
المراثين » . ولخيار هذه الآية فيه إشارة إلى  
ما عاهد القاطلون من النجبة البنية حتى



١٥ من زخارف جامع الحاكم بامر الله

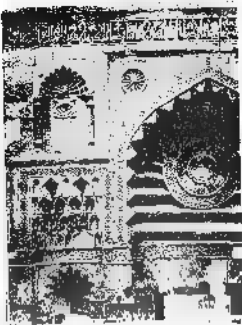
نطق بأن الفنان المصري قد تخلص من تقاليد الفن الطولوني الذي نلّه مستملاً في الجمع الأوفر ، وقد بدأ يستعمل الآن بالعناصر الزخرفية التي كان يعرفها أجداده قبل الإسلام والتي أنشأت ابنه عبر المصور . كما قدل أيضاً زخارف بعض نوافذه على هذه نغور الروح الأندلسية في الزخرفة المصرية الإسلامية .

والجامع لا قصر له واجهة تشر قطعة من الفن الجليل ( ص ١٠٠ - صورة رقم ١٦ ) ، تنطق بالنسج الفني الذي وصل إليه أجدادنا في القرن السادس الهجري ( ١٢ م ) ، وتدل على أنهم يفخرون بحسن على قدم المساواة مع رجال الفن ، السابقين منهم واللاحقين . ولعل لفصل القول في العناصر الزخرفية المتعلقة بالسجدة في هذه الواجهة إنما يكفي أن نقول أننا نشاهد فيها لأول مرة الزخرفة المعروفة بالقرنص Stalactite ، والتي أصبحت من أحسن مميزات الفن الإسلامي ، كما نشاهد فيها الأحيار التي

من جانبها الأيسر والأيسر تسير في اتجاه موهى على جدار القبلة بينما تسير باقي عقود المسجد في اتجاه مواز لجدار القبلة . والقرنص من هذا الجدار هو أبرز أهمب المعراب في المسجد باستباره أهم بقعة فيه .

والقبلة لم يبندها المصريون في المصور الوسطى ولكن فضلهم في تطورها عظيم ، فقد عرفها أجدادهم الفراعنة من قبل كما عرفها العراقيون والرومان ، ثم تسلمها المسلمون ساذجة بسيطة محدودة الاستعمال وأخذوا يتطورون بها حتى لقد أصبحت من المميزات البارزة في الفن الإسلامي ، ولم تفقد القبلة المصرية الإسلامية عند البعد الذي لراه في القباب الثلاث الموجودة في هذا المسجد والتي تشاهدنا في أقصى البعيد وأقصى اليسار من جدار القبلة كما نراها أيضاً أمام المعراب — بل نراها قد تطورت تطورا بلغ أقصاه في عصر المماليك والزخارف التي تشاهدنا في هذا المسجد : في مثذنة ( سجدة رقم ١٥ ) ، وفي مدخله ، وفي واجهته كلها

منها الجيوش (صوره رقم ١٧) يرض علينا  
 ان نسير ولا الى خلف البعده التي استعذت  
 في الاسلام ، واثبت رواجاً عظيماً عند  
 المسلمين في شتى البقاع ، وهي تبيد القباب  
 وانباء المساجد فوق قبور البارزين والعطاء  
 من دجال الدنيا والدين ، وألغى الظن أن  
 الدافع الى هذه البسطة انها هو الرغبة  
 في تمييز هؤلاء الناس بمعد وفالسم  
 كما كانوا يميزون في حياتهم ، وقد ظهرت  
 هذه البعده اول ما ظهرت عندما اصبحت  
 النية الى تمييز بعض البقاع التي تحلق من  
 شمس المسلمين مكانة سامية لامتثالها بتاريخ  
 النسي الشكرام مثل حطيرة بيت المقدس التي  
 يقال ان النبي عرج منها الى السماء ليله  
 أسرى به ، فشبدها عليها قبة عظيمة تعد حتى  
 اليوم من أروع الآثار الاسلامية الى لم تكن  
 أروعها حمياً ، وقد كان طبعاً أن ينتقلوا من  
 تكريم القبايع التي قدسها الذكريات الى  
 تكريم القبور التي تضم رفات من كانوا أعزاء  
 عليهم ، وهكذا ظهر هذا النوع الجديد من  
 الأبنية التي سبها القاشيون بالمسجد أى  
 مكان القهداء لأنهم كانوا يرون أن ألتهم  
 وعظماهم قد استشهدوا واستحقوا درجة  
 القداسة في معيل لسنه مبادتهم ، ومنسهد  
 العيوش قد شينه ليدهن فيه الأفضل بن بدر  
 الجمالى كما تدل على ذلك الكتابة التأسيسية  
 التي تتوج مدخله ، ويستلفت النظر فيه  
 استعمال النبو في التستيف لأول مرة في مصر ،



١٦ - جزا من واجهة الجامع الأحمر .

تفن البناء في عظمها ومديتها وهي ظاهرة  
 معمارية ظهرت لأول مرة في مصر في مصر  
 البهاقة في مقابر كوم أبو الهول ثم اخذت النظم  
 من جديد في هذه الواجهة . كما يشاهد أيضا  
 كثيرا من العناصر الزخرفية التي كانت مألوفة  
 في العصر القبلي قد رست هنا بطريقة  
 منقطة تدل على فصوص اشككة الفنية عند  
 راسها . والواقع أننا نلصق في زناظر هذا  
 المسجد والمسجد السابق ، البروع الفنية  
 المصرية ، وتدرك انها اخذت تبرز من جديد  
 قوية واضحة بعد أن تعلقت من الفن الأجنبي  
 الذي فرض على البلاد في العصر العلوي .  
 والآن كلام على تشاهد القاطية التي اخترا

الإسلامي بالقاهرة سنة ١٩٣٤ م ، وهو يقع بالقرب من المنزل انطولوجي الذي استلنا الإشارة إليه . وهو يعد أقدم حمام إسلامي في مصر .

والحمامات عامة ليست من ابتداع العرب بل عرفها الفراعنة واليونان والرومان من قبلهم ، ولقد سار المسلمون في تخطيط حماماتهم على المنهج الروماني الذي وجدوه بين أيديهم ، وتعدوا بها طويلا في كتب الأدب والتاريخ فذكروا صفاتها وزياتها وأدائها ، ووصفوا ما ازدادت به جدرانها من صور جميلة ، وأوضحوا ما لهذه الصور من أثر في لبوس المستعبرين ، ولقد لعبت الحمامات دورا هاما في الحياة الاجتماعية في العصور الوسطى في مصر وغيرها من بلاد العالم الإسلامي ، والحمام الفاطمي كان ، في أغلب الظن ، حماما خاصا ملحقا بأحد القصور صغر مساحته ، ولكنه على صغره يعطينا فكرة واضحة عن تسبب الحمامات ، وعريقة إقامه النيران فيها ، وتوزيع المياه في أجزائها المختلفة ، ولا تزال البئر التي كان يرفع منها الماء موجودة حتى اليوم ، أما الصور التي كانت تزين قبة وجدرانها فقد حلت إلى المذهب الإسلامي بالقاهرة ( صورة رقم ١٩ ) .

### ( العصر الأيوبي )

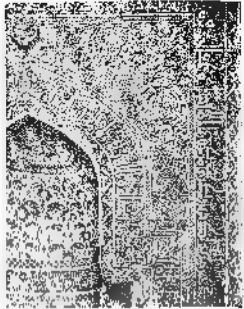
ولقد ضعفت مصر في أواخر العصر الفاطمي ، وطمع فيها من جهة مسيحيو العرب ( الصليبيون ) الذين تشبوا لأفئسهم ممالك



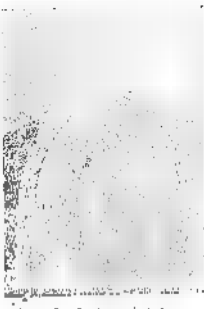
١٩- مشهد الحبر من الخارج .

وهذا الاستعمال يكسب لنا من ميزة صمائية تجعل للمهندس المصري في العصور الوسطى فضل الشق على زميله الأوربي المعاصر له ، وسر أب هذا المسجد بعد آية من آيات الفن الإسلامي تجلت فيه عبقرية الفنان في أدوم صورها وأبداع مظاهرها . ( صورة رقم ١٩ ) .

وآخر ما تذكره من العماائر الفاطمية والحمام الفاطمي ، الذي تكلف عنه المتحف



١٤- محراب مشهد الجيوش \*



١٥- صورة على الحصى (المرسكو) كانت بالمعبد  
الفاطمي ومعه صه الآن في مسجد الحنّ الإسلامي  
بالحاھر \*

صغيرة في بلاد الشام ، ومن جهة أخرى  
مسطو الشرق ( الأتراك السلاجقة ) ، وكان  
المسلك بأعنة الوزارة في مصر سلاح الدين  
يوسف بن أيوب الذي انتهر فرمسه موت  
العلبة الفاطمي الماهد ليعن سقوط الخلافة  
الفاطمية وعودة الخلافة العباسية ، وسرعاد  
ما كورن هو الدولة الأيوبية التي رعدت  
لعمسا للفضاء على القيدة في مصر ، وحصل  
الصليين في الشام .

ولقد وجد سلاح الدين معه مهددا  
بثورات داخلية من التسمين للفاطمين  
الرغين في إعادة ملكهم ، وبحروب خارجية

من الصليين الفاطمين في مصر لتأمين ملكهم  
في الشام والاستفادة بغيرها الميعة ،  
فاوحى اليه هذا الموقف أن يبحث عن مكان  
حصين يتخذ ملاه ، ويدفع به عن حاسة  
البلاد شر العدو المهاجم ، ووقع اختياره على  
مكان القلعة المشرفة على البحيرة اليوم ،  
( المسورة رقم ٢٠ ) ولا تزال الكتلة  
الائرية التي توضع باب المدرج - وهو أديم  
بواب القلعة - تتضمن بعض تاريخها يشير  
اني بناء سلاح الدين لهذه القلعة  
سنة ٥٧٩ هـ ( ١١٨٣ م ) بأشراف أخيه  
الكامل وعلى يدي وزيره قراقوش الذي



٩٠- قلعة صلاح الدين من الخارج

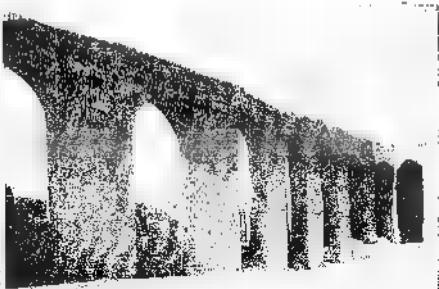
تاريخ مصر منذ عصر الأيوبيين حتى عصر محمد علي ، فالعصر الأيوبي يمثل لنا أوضح ما يمثل في الأبراج التي نشاهد في الجانب الشرقي والجنوبي ، وعصر المماليك يمثل لنا أجمل ما يمثل لنا مسجد الناصر محمد ذي المئذنتين الرائعتين اللتين تزدان قمة كل منهما بالواجه القاشاني الأخضر الجميل ، والعصر التركي يمثل لنا بطرزة الجديد في بناء المساجد في جامع سليمان باشا وإلى مصر ، وهو أول مسجد يذكرنا بمساجد القسطنطينية التي كانت في تصميمها وبكنيسة إيا صوفيا حيث نشاهد في وسط رواق الأعمدة حية عظيمة تحيط بها أربعة أعمدة

لا يزال يردد العامة اسمه حتى اليوم للدلالة على جلود الفكر والسيف في الحكم ، ( الصورة رقم ٦١ ) .

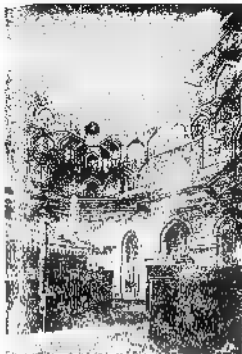
وامتد الممار بين القسطنطينية والمسيك والقطائع حتى أصبحت مدينة واحدة كانت تسمى مصر أحيانا وأحيانا القسطنطينية . وأمر صلاح الدين بإحاطتها بأسوار تنصل بأسوار القاهرة القاطنية ، ولقد تمت القسطنطينية بعد أن انتقل منها الحاكم والحكم إلى القلعة التي ارتفع نجحها منذ ذلك العصر حتى أيام الخديو اسماعيل الذي بنى قصر عابدين ، وتعددت القلعة بأسوارها وأبراجها ، وبما في ساحتها من أبنية مختلفة ، أصدر حديث عن



٢١- الكتابة الآرامية على الجدران - قلعة صلاح الدين



٢٢- قناطر اشياء التي كانت تحمل الماء من النيل الى القلعة -



٢٢ قبة الامام الشافعي من الداخل \*

وبمدينة القاهرة من **■** أخرى لاطهار هذه  
انقضا وتعبيد الطريق الذي يحف بها من  
انحافين تبدو في الصورة التي كانت عليها  
عند انشائها ، ولكن سكان القلعة ايسواداها  
في ما من من انقطاع مياه النيل عنهم لسبب من  
الاسباب ، لذلك حفر في داخل القلعة بئر  
صغيرة تستخدم مياهها عند الضرورة **■** وهي  
لا تزال موجودة حتى اليوم وتعرف ببئر  
يوسف .

وتأسست في هذا العصر فوق قبر الامام  
الشافعي قبة عظيمة تعد من اجمل القباب  
واجملها ولغناها بالتحوش من الداخل

قباب حافلة بالزخارف الملونة والكتابات ، كما  
يمثل أيضا هذا العصر **■** باب القلعة المشرق  
على ميدان صلاح الدين المعروف بباب العرب  
والذي يحف **■** من جانبيه برجان عظيمان  
يتطلان بان البناء المصري كان لا يزال في  
هذا العصر يحتفظ ببرايمه القديمة ، وعصر  
محمد علي يمثل لنا في المادحصل الرئيسى  
للقلعة الذي نستلمه الآن ، وفيما وراء هذا  
الباب من المصالح الحصرية والدواوين  
والمدارس ، وفي قصوره التي من أهمها قصر  
الجوهرة الذي ردت اليه الحياة وزرعت النهضة  
والارتداد ما وضع فيه من مئات فيدا في  
الصورة الجميلة التي كان عليها ، وفي مسجده  
العظيم الذي دفن به والذي يشرف بشرفه  
الرشيقين على القاهرة .

وطريقة اتصال الماء الى تلك القلعة العالبة  
في المصور الوسطى جديدة أن نلقب **■**  
قليلا هي تكشف لنا من مدى ازواج اجدادنا  
في تلك المصور في الهندسة المدنية الم كاتب  
الماء ترفع من النيل بواسطة ست حوائق  
كل منها ترفع الماء الى حوض كبير يجري منه  
الماء **■** قناة معقورة في على قناطر بيت  
خصيصا لهذا الغرض تمتد من بهرام مجرى  
النيل وتنتهي الى القلعة ( مسودة رقم ٢٢ ) ،  
ولا تزال حتى اليوم — سند هم الخليج —  
آثار هذه المصاوي وكثير من قناطر المياه  
التي جددت في عصر النوردي أحد سلاطين  
المماليك ، وتتمثل مصلحة الآثار من جهة





٢١ - مسجد الظاهر ببرس من الخارج

### المساجد :

وتقدم المساجد السلوكية هيو مسجد الظاهر ببرس ( ٦٦٥ هـ ) الذي قطع اسمه على حى عظيم من حياء القاهرة ( حى الظاهر ) ( المصورة رقم ٢٤ ) والذي يعد تاريخه مختصرا لتاريخ مصر منذ ملك المماليك يزمام الحكم ليها حتى العصر الحديث ! ففى بناله النظم مظهر لحظة مصر فى عصر المماليك ، وفى اسماله ويح 'لغاشه' مظهر للقوى التى قامت فى البلاد بسببه الفتح التركى ، وفى جملته التراسيم منه قلعة فى وسط القاهرة مظهر لغزو الفرنسي ، وفى تحويله على يد الانجليز الى مذبح يجهزون فيه ما ياكلونه من الجوانح حتى ليصرفه الى اليوم عند العامة بمذبح الانجليز مظهر للاحتلال البريلسانى ، وفى بدء العنابة به ومعاودة اعادته الى اصله على يد مصلحة الآثار مظهر لمهد الاستقلال ، وهو اول مسجد

والخارج . وتحتل فى الزخارف المحفورة فى رتبة هذه القبة من الخارج روح أدائية لا يخطئها المشاهد . ( صورة رقم ٢٣ ) . وفى أواخر هذا العصر أنشئت شجرة الدرمة قبة فوق قبر زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب تشاهد فيها لأول مرة فيعبر الضيفاء المذنبه زين المحراب .

### ( العصر المملوكى )

وطبعت الدولة الأيوبية ، واشتد النزاع والتحاسد بين أفسراد أسرة على أيوب ، واستكثر أغلبهم من شراء المماليك ليكولوا حولهم ضد منافسيهم من أقاربهم ، وسلموا هؤلاء المماليك زمام الجبلى والقصر لوصولوا الى درجة عظيمة من النفوذ ، ولجسوا أخيرا فى الاستيلاء على الملك والترى على مرش مصر اكثر من قرنين ونصف قرن كانت البلاد ليها من اتناحية السياسية مصرها للقوى ولكنها بلغت من الناحية القبة درجة مامة لم تبلغها من قبل فى عصرها الاسلامى . وفى الحق لقد استطاع هؤلاء المماليك أن يكتسروا لأنفسهم فى تاريخ الفن المصرى صفحات تسمع من بين سطورها آيات الضوج الفنى التى تقرأها ليها تركسوه ورائهم من ثروة عظيمة من المساجد ، والقباب ، والفواظ ، والفصور ، والمداوس ، والخانات ، والقلاع ، والأربلة ، والمدارس ، ومن التحف المتولة التى يغفر بها المتحف الاسلامى بالقاهرة ، ودار الكتب المصرية ، وكثير من الشاخص فى الشرق والغرب .

ظهرت على استحياء في العصر الفاطمي في بعض نوافذ جامع الحاكم ، وأسفرت قليلا عن نفسها في العصر الأيوبي في زخارفه فبه الأمام الدافسي ، ففى في عصر المماليك تبدو قوة وانسعة في زخارفه الواجعة الداخلية لهذه القبة ( الصورة رقم ٢٧ ) اثنى نذكرها هذه مشاهدتها بالزخارف الجصية لقصر الحمراء .

تستاز واجهته بتلك الملاحرة التي لعبت دورا هاما في العمارة الاسلامية حتى كانت تصبح علما عليها وهي زرين الواجهة بالشرطة عريضة اقمية متوازية لونها احمر وأسفر على التناوب ، ويلاحظ أنها هنا انما كانت نتيجة لاستعمال نوعين من الحجارة يختلف كل منهما في الاطر في لونه ، وصحن الميعة تضاهي اليوم حاقبة عامة ، وقد ضاعت معظم معالمه من الداخل الا بعض النوافذ الجميلة ورواق المحراب ، الذي بقى منه جزء تقام فيه الصلوات .

### القباب :

وأجمل القباب قبة قلاوون ( ٩٨٣ هـ ) التي تعتبر من روع المدافن الأثرية الاسلامية في مصر ، ( الصورة رقم ٢٥ ) وهي تتكون من غرفة مربعة الشكل يتم سطها مشن تتندد صفوفه على أربعة أكتاف وأربعة أعمدة من الجرانيت الأحمر ثم تيجها ولواحد على أنها من صنع المصريين في عصر البطالة ، ومحرابها قطعة من الفن الجميل ، وواجهتها من الداخل ومن الخارج مثال لاقبل على مدى ما وصل اليه البناء المصري في عصر المماليك من التخصيص الفنى ( الصورة رقم ٢٦ ) ، والواقع ان هذه القبة تزهف التوجدان بجسالمها الرائع ، وتعدى النفس بصنعتها المعكسة ، وتوسع أفق العقل بما فيها من كتابات تاريخية . وإذا كانت التأثيرات الأندلسية قد



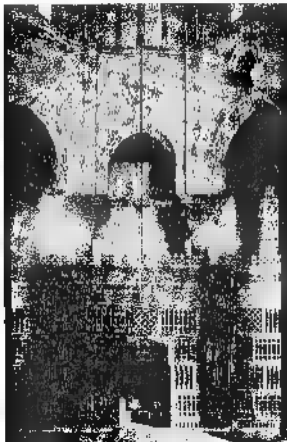
٢٥ - واجهة قبة السلطان قلاوون من الخارج .

## المارستانات :

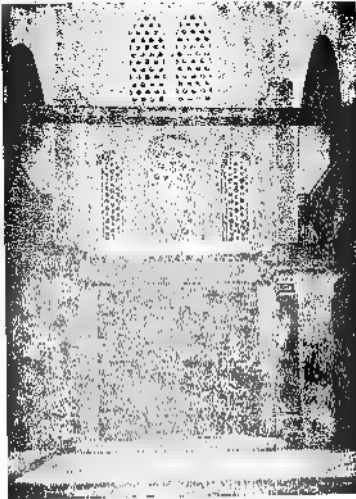
والمارستان ( دار الشفاء ) بناء يتكون من  
أبناء وحجر بها أسرة بعضها للنساء وبعضها  
للرجال ، ولكل مرض قسم خاص ، وفي  
مقارنه الملاهي التي يرتديها المرضى عبيد  
تواجههم به ، كما هو الحال في أحياء  
المستشفيات اليوم ، وقد كان يشق شئونه

أبناء من قبل الدولة يداونهم مولعون يقومون  
بطبخ الأدوية والأغذية .

ومارستان قلاوون ( ١٣٣٥ هـ ) قد امتلأت  
إليه يد الزمن فلم يبق منه إلا الأرض التي  
يشقها اليوم مستشفى حديث للرمم يعمل  
اسم قلاوون ، والآن لا تستعمل الذكر  
وهو لم يكن الأول من نوعه في مصر بل  
سبقته مارستانات أخرى ضاعت معالمها .



١ - قبة السلطان قلاوون ومن الداخل



٥٠- واجهة فيه السلطان للآل من الداخل

وحده المفسات العامة التي كانت تشعلها الدولة لكي توفر وسائل العلاج للشعب كما هو الحال في هذه المارستانات ، ولكن توفر المعرفة لهم كما هو الحال في المدارس التي سبذكرها فيما سبد ، ولكن تخفقا عنهم وطام الغلما في بلد حار — كما هو الحال في الأسيطة التي سبشبع اليها — فبد من مناخر الحضارة الاملاية ( التي كان لعر الصيب الأوفر فيها ) والتي سبعت بما غيرها من الحضارات ، وأوربا عندما نهضت نهضتها الطليبة ، واتجهت الى عطفه النواحي الانسانية انما الفتحت اثر الشرقي واقتنت بأجدادنا ، ولعل خير ما يترجم

عن سمو حضارة هؤلاء الأجداد في المصور الوسطى — عصور التعصب للجنس والدين

والطبقة الاجتماعية — هو تلك العبارة التي

قالها قلاوون عند انهراخ من بناء هذا

المارستان : « اني بنيت لوجه الله ، لمعالجة

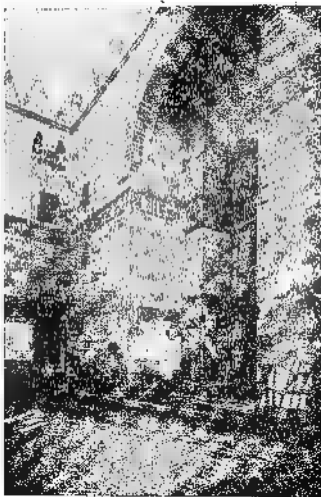
المرض من جميع الطبقات والأجناس » من

هو مثلي أو دوني ، للفني والفقر ، للحر والمبد ، للذكور والإناث » .

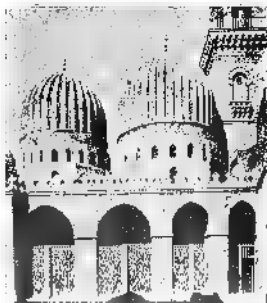
### المواقع :

والخاتمة ( دار الصوفية ) شيء ما تكون

بالدبر عند المسيحيين ( الصورة رقم ٢٨ ) ،



٢٨ - خاتمة بيرس الثاني ( من الخارج ) .



٣٩ الطائفة الجبالية من الدنيل ونهر  
من الصورة التذكيرية المعمورة الجديدة .

العصور كما ظهرت في جميع العصور المصرية  
الاسلامية قبل الفتح التركي ، ولعل السبب في  
ذلك خشة الناس من الاعتداء على بيوت الله  
من عقاب الله لعائى الكثير من هذه البيوت  
حتى وصل بنا ، أما بيوت الأعداء من القهر  
لما أحرقوا الاعتداء عليها إلا ما ملك الإنسان  
السلطة والتفوق .

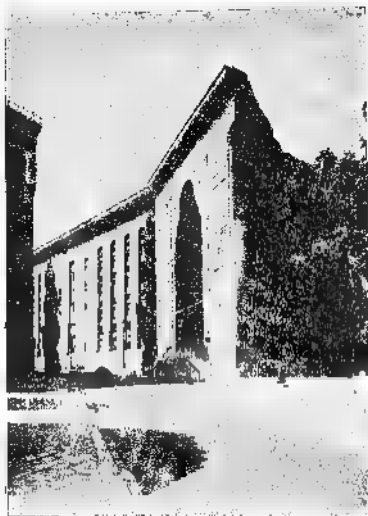
#### المدارس :

وقد كانت مجالس العلم تنعقد في المباحث  
وظلت كذلك إلى أن اتسعت دائرة المعرفة  
وتشعبت فروعها ، وحينئذ أحس الناس أن  
تلازمة والجدول — وهما من أسس الدراسة  
— قد يخرجان بالطلاب والأساتذة أحياناً عن

وقد نشأت فكرتها عند المسلمين عندما ضمت  
روح إندى في النفوس ما دفع ببعض الناس  
إلى الميزة زهداً في انحاء الاجنبية التي  
أصبح حافة بالوان التلو تقيدها هذه  
الابنية التي تنوى على غرف متعددة يعيش  
فيها هؤلاء المصنفون ، وقد تهرق العنبر  
في مصر أول ما ظهرت في عصر صلاح الدين ،  
وتعد الطائفة الجبالية ( ٧٠٣ هـ ) من أجمل  
ما شيد من هذا النوع ، وواجهتها المظلة على  
شارع ماربسبه تشع من مقبرة المهندس  
الذي صنعها ، والبناء الذي عند هذا  
الخط ، فالقبان المتناكثان طعنا المختلطان  
ارتدعا ، والمثلة الطائفة إلى جوارها تكون  
بما لوحة لية تنوفر فيها أصول الحاصل  
التي بصورة رائعا ، ولقد امتدت يد التخریب  
إلى الغرف المعبدة المصوفية ، ولكن بقي لنا  
بعض البوائق التي تغطيها شبايب من العصر  
مزرعة برخافه جبلة لا مثيل لها في العمارة  
الاسلامية في مصر . ( الصورة رقم ٣٩ ) .

#### القصور :

وقصر الأمير بشت ( ٧٣٥ هـ ) كان من  
أعظم ما بنى القاهرة يستطيع الإنسان أن يشرف  
من أملاء على الصاعدة والقلعة والنيسل  
والأبن ، كما يقول القزويني ، ولم يقل له  
منه إلا قدر قليل يستل في قاعة عتلية ذات  
سقف جميل وناظرة رائعة ، ثم بعض الأجزاء  
التي تعاون على إعطاء فكرة عن شكل القصر  
من الخارج في هذا العصر التي فدرت فيه

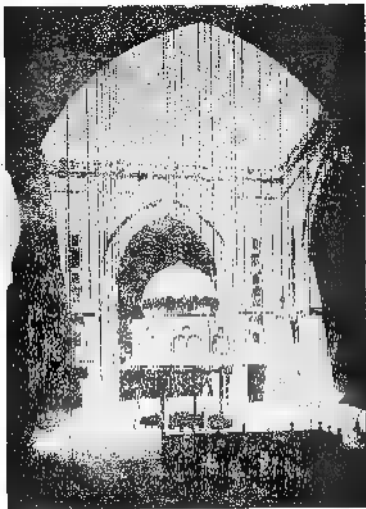


مدرسة السلطان حسن ( من الخارج ) .

بعد ذلك في العالم الاسلامي ، ودخلت مصر  
مع صلاح الدين ، ثم أقبل الناس على اتساعها  
بعد ذلك اقبالا شديدا .

ونعد مدرسة السلطان حسن ( ٧٥٧ هـ )  
( صورة رقم ٣٠ ) من أعظم الآثار الاسلامية

حد الهدوء الواجب بمروره في المساجد ، فزأوا  
أن يخصصوا للدراسة قاعه في دورهم ، فلما  
ضاقب القاعات بالطلاب أنشأوا أماكن خاصة  
هي المدارس التي عرفها المسلمون لأول مرة  
في القرن الخامس الهجري في ايران ثم انتشرت



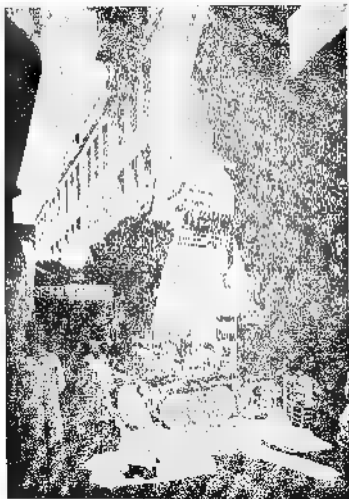
١٠- مدرسة السلطان حسن ( من الداخل ) .

في المسائل وأروعها في مصر ، والواقع ان  
عظمة الفن الاسلامي وجلاله يدوان واصبح  
في كل جزء من اجزاء هذه المدرسة العظيمة .  
وتلخص لنا واجهتها الرئيسية جميع خصائص  
هكذا الفن : فيها الخط الكوفي والخط  
الشعشي - وفيها الزخارف التي تعلمها  
المسلمون من قبلهم من الآمن ، والزخارف  
التي ابتدعوها وصارت من اخص سميات  
فهم .  
وتصميم المدرسة يقوم على مسحن



مكتشفون توسطه نافورة ، وتطل عليه من  
الجهات الأربع أربعة عقود عظيمة  
( الصورة رقم ٣١ ) . وفي الرواية الأربع لهذا  
الصحن أقيمت أربع مدارس يتكون كل منها  
من إيوان ، وقناة ، ونوسطة نافورة ، وتحف  
به مراكب بعضها فوق بعض ، أعدت ليعيش

فيها الطلاب والأساتذة . واختصت كل مدرسة  
بتدريس مذهب من المذاهب الفقهية الأربعة  
المعروفة ، وينتقل بهذه المدرسة أو الجامعة  
على الأصح مدخن أحد لكي يدفن فيه  
مؤسسها السلطان حسن ، تملوه قبة شاهقة  
وتزينه زخرفة جيلة وقد يكون من الطريف

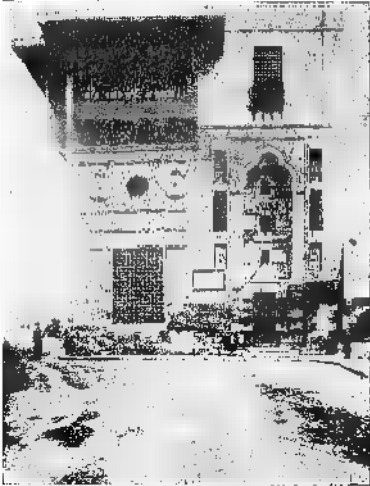


٢٢. صحن التبليل .

### الحانات :

وخان الخليلي الذي ذاعت شهرته يستمد  
أسسه من سيف الدين حركم الخليلي أحد  
امراء المماليك الذي كان يعيش في النصف  
الثاني من القرن الثامن الهجري ، وقد كان  
الخان في الأصل اسمه ما يكون بعداني اليوم  
مير غاري واجه هو أنه كان يتمسح لبواب

أن نذكر أنه كان في هذه الجامعة بكلياتها  
الأربع مراقبان لمراقبة الحضور والغياب ،  
أحدهما يدل بالهار والآخر بالليل ، وكان  
لها اغباء ثلاثة اختص أحدهم بالطب الباطني  
والثاني طب العيون والثالث بالجراحة ،  
وكان في كل كلية مكتبة عظيمة لها أمين خاص  
بها .



٣٣-سبيل السلطان قايتباي ويرى باعلام الكتاب .

## الفنون الخزفية

بقى علينا ان نتحدث في ايجاز عن  
المصنوعات وما كان يزنها من فنون وخزفية  
وهي الركن الثاني من ركزي الحياة الفنية في  
مصر الاسلامية

والا كان للمعمار اذنيته التي مرسناها  
طابع خاص يكاد يكون غفيلق الصلصلة بها  
سيفق من عناصر دينية في مصر ، طابع يترجم  
من الدين العديد الذي دخل الى هذه البلاد  
ويتشع من حيث التصميم والمظهر مع المعمار  
الدينفة الاسلامية خارج مصر فالاخر ليس  
كذلك في المصنوعات ، وما نؤدان به من فن  
زخرفي اذ ظلت القابله المصرية الساخنة على  
الاسلام واصعة وصروحا قويا في العصر  
السابل على الفونوني حتى ليصب علنا في  
بعض الاحيان انه فرق فيها بين ما صنع قبل  
الصح العربي وما صنع بعده بقليل .

ولكني لذلك مدي ، احداثه تجددا في  
العصور الوسطى من تطور في هذه المصنوعات  
ولخارجها لرى لاما علنا ان نخس كل مادة  
من المواد التي استخدعت في الصنعة بكلفة  
خاصة تبدلها بما كانت هذه قبل الفتح العربي  
لم نجر منها متتبعين تطورها حتى الفتح  
التركي .

### مواد البناء

ففي مواد البناء نلاحظ منه على الرغم من  
وجود المحاجر التي استمد منها المصريون في  
عصورهم السابقة الأحجار تشيد عمارتهم

المسافرين — وقد كان أغلبهم من التجار —  
ويتسع كذلك لما يعملونه من بضاعة ، ففي  
صحة المكتشف كانت تربط الدواب .  
وهي وسيلة السفر في تلك الأيام — وفي غرفة  
التي تطل على الصحن كانت تحفظ البضاعة ،  
وفي غرفة التي تفتح على الطريق العام كان  
يرض البعض من هذه المصنع للبيع أو المبادلة ،  
وفي الطبقة العليا غرف تتمددة أحدث للزوار  
التجار وغيرهم من المسافرين . وقد هدم  
السلطان انور في هذا المكان واقفا مكانه  
حواصل وحوائط وجعل له ثلاثة أبواب لا تزال  
تحمل اسمه حتى اليوم ( الصورة رقم ١٣٩ )

### الأسلحة

وسيل السلطان قايتباي ( ٨٨١ هـ )  
بالصلية بعد من أروع ما شيده هذا السلطان  
من مآثره الكثيرة ، ومن أجمل ما يجعل  
علينا هذا النوع من الأسلحة ، وهو يتكون  
في أصله من مورد ماء عذب يشرب منه  
الناس ، وفي أعلاه مكتاب لتعظيم الفرائد  
وتعليم القراءة والحساب ، وقد كان المين  
والكتاب جزءا من المدونة أو المسجد  
ثم استغلا بوجودهما كما هو الحال هنا .  
وقبل الناس على الأكتاف منهما ، وجسرا  
عليهما الأعيان التي يعرف بعضها على التلابيد  
ومطيمهم وعلى توفير ماء الشرب للناس في  
بلد اشهر بجوده الحار ، فليس أقرب الى  
الله من سقى ماء ونشر العلم . ( الصورة  
رقم ٢٣ )

وهو وإن كان لم يصل فيه إلى الدرجة التي  
سنت إليها القنون القديمة الساجقة على  
الإسلام إلا أن هذا لا يبعد دليلاً على غر  
البدع فيه وليس فيه ما يزرى بمكافة هذا  
التميز بين القنن ، لأن لكل فن بيته التي نشأ  
فيها والمعامل التي تحكمته في نشأته »  
والقرآن الكريم لم يحرم من النحت ( صناعة  
التماثيل ) وقد أدرك أسلافنا أن التحريم إن  
وجد فهو منصب على التماثيل التي تصب من  
دون الله ، وأما غيرها فلم يشحرجوا من  
استعمالها في تزين المسورهم وقد وصلت  
إلياً أمثلة عدة ، منها ما هو على هيئة الإنسان  
ومنها ما هو على هيئة الحيوان « وفي القاعة  
الفلمية يستحقنا بالفاهرة تماثيل من الحجر  
بمثالين أسدين يزحفان على مهل تتجلى فيهما  
العضلات والمهذ بشكل واضح .

ولا ينبغي أن ننسى أن استعمال الحجر

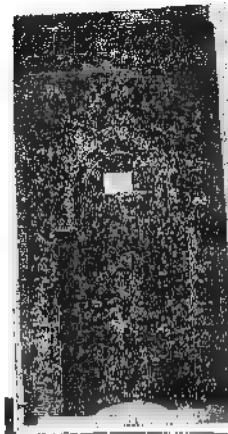
فإن العرب استعملوا قطع الحجر واستعملوا  
عمل اللبن فيتموا به مساجدهم الأولى . وعندما  
جاء ابن ملولون إلى مصر حمل معه تماثيل  
المراق في البناء وهي تقوم كذلك على  
استخدام اللبن والطوب المحروق لعدم توفر  
الحجر عندهم فظلت مصر تسير على نهجها  
الماضي ، وقد كان طبعاً أن يغطي الطوب  
بالجص وأن تنقى الزخارف على هذا الجص .  
« في العصر الفاطمي — ذلك العصر الذي  
حيث تماثيله القديمة كما ذكر من قبل —  
بعد البناء بالحجر يظهر من جديد ، ويعود  
النشاط إلى المعابر « وليس في واجهة جامع  
الحاكم ومثنتيه ، وفي واجهة جامع الأقصر ،  
وفي أبواب القاهرة وأسوارها ، أمثلة رائعة  
للمهارة الفائقة في البناء وفي النقش على  
الحجر .

وقد استعمال الحجر بارزاً في العصرين  
الأيوبي والمملوكي ، وتجلى في هذا العصر  
هذا الجهد في نفسه « وفي طرفة استعماله  
في المآذن والقباب والتبائك .

ولم يستعمل الحجر في البناء وحده بل  
انبعثت منه شواهد للقبور ( الصورة رقم ١ ) «  
والتمتع الإسلامي بالمهارة في هذه  
الشواهد التي تعطي الباحث فكرة واضحة عن  
تطور الخط الكوفي والنسخي ، كما عرفت  
منه أيضاً المنابر والأواني والتماثيل ، وهذه  
الأجوبة وإن كانت نادرة إلا أنها كافية لكي  
تثبت أن الفن الإسلامي قد عرف فن النحت



١٠٠ خريطة الحفر المائل كما تتجلى في قطع  
أخشاب طرونية بالمتحف الإسلامي بالقاهرة .



٢٥ - محراب السمدة دحية من الحطب وتحمل فيه طريقتا القماميح والحطب بالمتحف الاسلامي بالقاهرة .

لعمل أجدادهم ولكنهم في العصر الطولوني خرجوا على ما اتفوه من قبل ، واستعملوا طرازاً اوطفها جديدا عليه معه اعمصه بن طولون هو الحجر المائل ( الصويرة رقم ٣٤ ) وبشر المقريزي الى التماثيل الخشبية التي كانت ترين قصر خمادويه والتي تدل من غير شك على استمرار تقاليدنا القديمة في هذه الناحية .

ليس بمناه عدم استعمال القلوب والجص في فقد سارا معا ، والخبرة التي اكتسبناها منذ العصر الطولوني في استعمال الجص عكث تنطور وتطور حتى وصلت الى غاية نضجها في عصر المماليك الذي شهد ازدهار أمثلة الزخارف الجصية سواء في النوافذ أو على الجدران .

والرغام الذي استعمل على قلة قبل عصر المماليك قد شاع استعماله في هذا العصر ووصلت اليها منه كثرة عظيمة منها ما لراه في الأبنية القائمة ومنها ما هو معروض بالمتحف الاسلامي بالقاهرة . ويكفي أن نشير الى أرضية كثير من المساجد التي تكسوها كواح الرغام المختلفة الألوان ، وإلى النافورة الرالعة في المتحف سابق الذكر .

## الأخشاب

ولقد كانت مصر طوال تاريخها فقيرة في الألوان البعيدة من الأخشاب ، فاستوردتها من لبنان ( الأرز والصنوبر ) ، ومن انبوهان ( الأبتوس ) ومن الهند ( الساج ) ، واستعملتها مع بعض الأنواع المحلية ( الجوز والبنق ) في صناعاتها المختلفة ، وفي المتحف المصري وفي المتحف اليوناني الروماني ، وفي المتحف النبطي أمثلة رائعة تدل على المهارة والحنق في صناعة التجارة .

وسار المصريون في العصر الاسلامي على النهج القديم في الصناعة وفي الزخرفة ، فاستعملوا الحجر ، والتلويح ، والتطعيم كما

ومطبعة التجميع ، ومطبعة الخرد ، والطريشان  
الأولى والثانية تشاهدهما في التحفة التي  
ذكرناها وفي غيرها من متأثر كثير ، والمطبعة  
الثالثة تجلي فيما يعرف « بالمثريات » التي  
كانت تزين واجهات كثير من منازل وقصورنا  
في العصور الوسطى والتي كانت من غنج  
شك متفحة مع جو بلادنا ، ومتلازمة مع نظامنا  
الاجتماعي حينئذ ، فهي تساعد على دخول  
الطوره الطيبه ، وورد النسيم الطليل ،  
لنور بذلك في المنزل جو مناسب في بلد  
اشهر بنسبه الساطعه ومناخه الحار ، وفي  
المتحف القبطي ومتحف امبرسون أمثلة  
جيدة لهذه المثريات .

### التصوير

والاستماعه بالتصوير في تزيين الجدران  
أمر كان معروفًا عند أجدادنا المصريين ، وكان  
معروفًا أيضًا عند العرب في جاهليتهم فقد  
زينوا دعائم الكعبة — قبل الاسلام — بصور  
الأنبياء ، وكان من بينها صورة إبراهيم خليل  
الرحمن ، وصورة السيد المسيح وأمه علي  
حد قول الأزرقي في كتابه أخبار مكة وما جاء  
فيها من الآثار .

ولما جاء الاسلام اقتصر المسلمون في  
استعمال التصوير على تزيين القصور  
والحمامات دون المساجد ، ولم يكن الدافع  
إلى ذلك كراهية التصوير كمن ولكن كان  
سموا بالاسلام كدين يرتفع فوق الماديات ،  
ويجعل الصلة بين العبد وربه صلة روحية

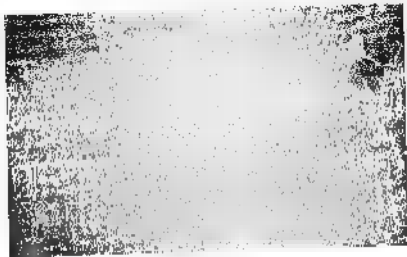
على أننا قد عدنا إلى التكاليف القديمة  
بشكل واضح في العصر الفاطمي ، فظهرت من  
جديد مطبعة الخرد العتيق التي ألفها أجدادنا ،  
وتجلى في سور رائعة تشاهدها في حجاب  
كثيفة الست بربرة بالمتحف القبطي وفي النهر  
الموجود في مسجد فخرى ، وفي محراب  
السبط رقية ( سورة رقم ٣٥ ) « وفي الواح  
القصر الفاطمي الصغير في المتحف الاسلامي .  
والا كانت هذه التحف الشخصية تعكس لنا  
رقي النواحي الفني عند أجدادنا في العصور  
الوسطى فالتختان الأولى والأخيرة تساعدنا  
على تكوين فكرة عن الحياة الاجتماعية في  
تلك العصور بما عليها من صور مثل مناظر  
الصيد ، ومجالس الطرب ، وأشكال الرقص  
ومطرق الانتقال ، ومظاهر الزى .

، وتقدم فن الحرف على الطب تعديما  
ملحوظا في العصرين الأيوبي والملوكي ، وقد  
عنى التجارون في هذين العصرين أكثر ما عنىوا  
بالزخارف الهندسية والتجنية التي ألفسوها  
انقالا ينزع الإعجاب من كل من يراها ، ويمكن  
دليلا على ذلك ما نراه في لاهوت الاسام  
الفاصي ( بقرته ) ولأبوت الامام الحسين  
( بالمتحف الاسلامي ) ، والمنبر الموجود  
بمسجد أبي طولوت .

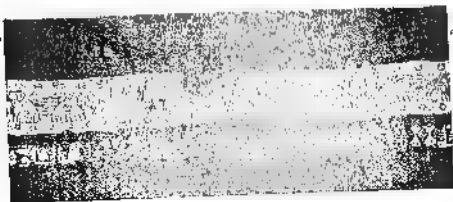
على أننا لم نلق في العصور الوسطى  
جامعين عند تلك الطرق التي ورتناها عن  
أجدادنا في زخرفة الأخشاب بل ابتدعنا طرقا  
جديدة لم تكن معروفة من قبل ، وذاعت  
بفضلنا في شرق العالم وغربه كزخرفة التشويق ،

الجدران قل من الحسام الفاطمي الذي أشتهر  
 ابنه من قبل ( الصورة رقم ١٩ ) ولعل قيسا  
 ذكرناه هنا يبلغ رد على الذين يتهمون الاسلام  
 بتحريم التصوير ، فعلى الرغم من أن الفرقان  
 الكريم خلق من أي نص يحرم هذا الفن فإن  
 الملقق السليم يأتي أن يعلم بأن هذا الدين

قوامها التجرد من كل « هو مادي » وقد  
 كشفت العفائر الأثرية سواء في مصر أو في  
 خارج مصر عن جماعات وقصور ترجع إلى  
 القرن الثاني والثالث والرابع بعد الهجرة كانت  
 تزدهر بالصورة الجميلة ، وفي القاعة العاشرة  
 بمتحفنا الاسلامي مثلاً رائع للتصوير على



٢٠. قطعة نسيج من العصر الفاطمي ، المتحف الاسلامي بالمعاصرة .



٢١. قطعة فسيفساء نسجت من النسيم القديم سجل فيها زخارف الفن القبطي والكتابة العربية  
 التي لها هنا طابع خاص بالمتحف الاسلامي بالمعاصرة .

قد حرم التصوير مع ما له من دور خطير في  
الحياة العلمية والحياة الاجتماعية .

## المنسوجات

ومنذ فجر التاريخ بل وقبل أن يشرق  
هذا النور عرفت مصر صناعة المنسوجات ،  
والأمثلة التي تنطق ببهاة أجدادنا في هذه  
الناحية في كل المعصور تفسر بها المناخ في  
مصر وفي الخارج . والمكانة السامية التي  
وصلنا إليها في المعصور القديمة في هذه

النساجين ، وأشهر الرسامين وأغلى الموردين  
الخام حتى تستطیع أن تخرج من الأقنعة  
ما يليق بالملوك والأمراء والحكام ومن ياتخذ  
بهم ، وقد كان النسيج من ذراتهم يترسوم خطا  
هائلة المعاني ، ويسجد على هديها  
( الصورة رقم ٣٧ ) وليست « دار الكوفة »  
الموجودة حتى اليوم إلا بقية من « دور الطراز »  
القديمة ، وهي لا تختلف عنها إلا في الكمالي  
أعمالها ، والتتمسارها على لسج كسوة الكعبة  
التي أرسلها كل عام إلى مكة .



٥٨ . قطعة من طليسة مصرية عشت لمهسلط النعماني بأبد مصرية .

الناحية بلبنائها أيضا في المعصور الوسطى ،  
( الصورة رقم ٣٨ ) وكان في نقاليدنا في تلك  
المعصور من كسوة الكعبة ، وعادة منح الخلع  
ما عاون على بلوغ هذه الدرجة بل وتجاوزها  
في كثير من الأحيان كما تشهد بذلك قطع  
النسيج الإسلامية المروضة في المتحف .  
والفضل في ذلك واجمع الى العور الذي  
تمتبه « دور الطراز » أو ببارة أوضح  
لمصانع الحكومية للنسيج التي انتشرت في  
طول البلاد وعرضها وكانت تستخدم ابر

ولقد ساهم اجدادنا في المعصور الوسطى  
في نشر الحرير في مشارق الأرض ومغاربها ،  
وقد ازدهر تجارتهم في تلك المعصور ، ولست  
الاسكندرية دورا حاما في هذه التجارة إذ  
كانت هي التي تعدد اسماها للمال للتحضر  
حفظ .

## الطلياس

وهناك صفحة من عظمة مصر في الصناعة  
طوالها النسيان ، وكشف عنها البحث الأثري  
هي تفوق مصر في المعصور الوسطى في صناعة



تدرك مدى الفرق بين عمل الأستاذ وعمل  
التلميذ .

ويلاحظ أنه لم يصل إلينا من التحف



٢٥- تمثال صغير من البرونز ونجد في حرات  
الفسطاط - بالمتحف الإسلامي بالقاهرة .

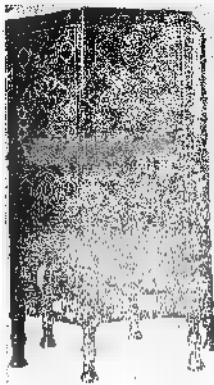


٢٦- تمثال من البرونز من العصر المسطاسي  
موجود الآن في مدينة بيزا بإيطاليا .

التي صنعت ذات الغل أو الطنافس كما ينبغي  
أن تسمى . وقد كانت حيث أكبر منافس  
لإبلاد المعجم في هذه الصناعة ، وأمدتنا حضائر  
الفسطاط بما يثبت قيام هذه الصناعة عندنا  
منذ العصر المياني ، واستمرت كذلك حتى  
العصر المملوكي الذي بلغت فيه ذروة  
لضوئها ( الصورة رقم ٣٨ ) والأمثلة القليلة  
المروعة بين متاحف أوروبا لا سيما في لينا  
تصعد بهذا النروج ، وفي متحفنا بالقاهرة  
مثال منها يقل في أهميته وحجمه عن تلك  
لأمثلة التي تمشي في دار الخربة ، وتؤدي لنا  
هناك رسالة عظيمة لذهي في الواقع سطح  
سابق يكشفه للفبر عن مجدها وحضارتها في  
المصور الوسطى .

## المعادن

ولقد سرعا في صناعة المعادن في المصور  
الوسطى على النهج القديم الذي كان يسير  
عليه أجدادنا من قبل ولكننا أضفنا إلى طرق  
المعرفة القديمة : من خضر خال أو بارو ،  
أو تفرير ، أو ترصيع بالمينا ، طريقة جديدة  
هي طريقة التكتيف . أي تطعيم الأواني  
بالذهب أو بالفضة أو بهما معا - التي  
اشتهرها أجدادنا من المسلمين ، وقد شاعت  
هذه الطريقة ، وتعلمها الأوروبيون على أيدينا ،  
ويمكن أن نشاهد في المتحف الإسلامي عندنا  
أمثلة معصرة إسلامية ، وأمثلة قد صنعت في  
إيطاليا تقليدا لهذه التحف الإسلامية حتى



١٠ كرسى (عائلة صفدي) من النحاس المنقوش  
بالنقشة من عصر المماليك - بالمتحف الاسلامى  
بالقاهرة.

المعدنية إلا القليل ، إذ جرت العادة بصهر  
الأواني المعدنية كلها تقادم عليها العهد لكن  
تستعمل باتوان جديدة . وفي المتحف الاسلامى  
بالقاهرة بعض التماثيل النحاسية المصنوعة من  
البرنز ( الصورة رقم ٣٩ ) على أن أروع تماثيل  
برونزية من هذا العصر ، وجود في مدينة بيزا  
بإيطاليا وهو يمثل حيوانا له جسم أسد ورأس  
سرويه زخارف محفورة من منها كتابات  
عربية ( الصورة رقم ٤٠ ) . وقد ولىع الناس في  
عصر المماليك . . كما يشول المقررى  
بالأواني المعدنية ، وفي المتحف مجموعة قيمة  
من هذا العصر تشتمل في تلك الثريات والسماعد  
والأباريق والأواني ، ولحقن بالذكر منها  
كرسى ( عائلده سميرة ) من عصر السلطان  
الناصر محمد بن قلاوون ( الصورة رقم ٤١ )  
ودواة من عصر حفيد هذا السلطان ( الصورة  
رقم ٤٢ ) وكلاهما من أروع التحف المعدنية  
في العالم .



## الخزف

وإذا كانت التحف المدنية التي وصلت إلينا قليلة كما ذكرنا فإن التحف المصنوعة من الصغار والخزف كثيرة لا نحصى ولا عجب في ذلك ، فالأولى من السير صمغها والثانية لا تجلى مما تقدم عندها .

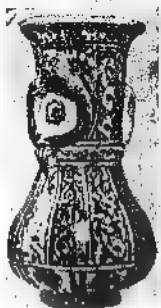
وصناعة الأواني من الطين عريقة في القدم ، أعتقها أجدادنا الترابية لما خرجوا من أواني فخارية جيدة ، وابتكروا الخزف أي الطين المغطى بطبقة زجاجية « وحدثوا صناعته ، وعلموها لغيرهم من الأمم ، والملاحظ أن صناعة الأواني الفخارية والخزفية في العصور السابقة على الإسلام لم تكن موضع رعاية الحكام والملوك لأن هؤلاء لم يهتموا بمعلم أوانيهم من الذهب والفضة والبرق ، وعندما ظهر المسلمون على مسرح التاريخ لم تشهد هذه الصناعة في أول الأمر تطوراً يذكر ، ويظهر أن السفهاء الأمويين في الشام قد سادوا على نهج ملوك الملوتيين الساسانية والبيزنطية ففضلوا استعمال الأواني المعدنية على غيرها ، أما في العصر العباسي فقد تسحر الحال ، إذ كان من أثر تبادل الرحلات والتجارة بين البلاد الإسلامية وبلاد الصين أن وجدت الأواني الخزفية الصينية طريقها إلى شواطئنا ، وأصبح لها مكانة ممتازة بين السلع المختلفة مما جعلنا على تقليدها وقد نجحنا في هذا التقليد نجاحاً باهرًا يتجلى في « خزف القيوم » الذي نشاهد منه أمثلة جيدة في

المتحف الإسلامي . ثم اتقلنا من مرحلة التقليد إلى مرحلة الابتداع وكان لبعض الأحاديث النبوية التي كترت الناس في استعمال الأواني المصنوعة من الذهب أو الفضة أثر واضح في هذا الابتداع فظهر نوع جديد من الخزف لم يعرفه الشرق القديم ولا الصين نفسها ، « برقي كبيرق الذهب هو المعروف « بالخزف ذي البرقي المسمى » الذي رآه لأول مرة في العصر الطولوني ( ولا يستبعد أن تكون الفكرة قد أتت إلينا من العراق مع أحمد بن طولون ) ، وتعرفنا في صنعة في العصر الفاطمي فوصلنا به إلى درجة سامية يؤمن بها كل من يساعد الأمثلة الفاطمية المروطة من هذا الخزف في المتحف الإسلامي ( الصورة رقم ٤٣ ) .

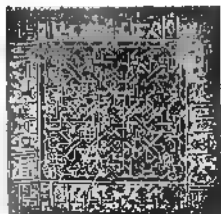
وقد استمر اتجاها في شتى أنواع الخزف بتقديم عبر العصور ، وأبدعنا في عصر المماليك أنواعاً جديدة منها ما هو مبتكر ( الصورة رقم ٤٤ ) ومنها ما هو تقليد لأنواع شتى من خزف الصين ( الصورة رقم ٤٥ ) وحلزه إيران .

وقد عرفنا الكثير من أسماء الخزافين الذين عاشوا في العصر الفاطمي أو العصر الملوكي ولكن معرفتنا بهم لا تتجاوز أسماعهم المنقوشة على الأواني التي صنعوها . وفي حلال عصر المماليك ظهرت صناعة الترابيد ( ألواح الفاشاني ) التي تستعمل في تغطية الجدران ولا تزال بقاياها ماثلة في بعض المساكن المملوكية . ( الصورة رقم ٤٦ ) .

يحسن الذوق يشعرون على ذلك آنية عظمى  
المصنوعة من الذهب ، وآنية الفضة المصنوعة



١٠- آنية من الخزف الذي قلدها به خرف بلاد  
الصين إلى العصر المملوكي - بالمتحف الإسلامي  
بالقاهرة

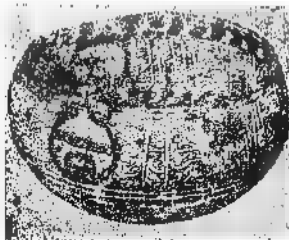


١١- ترجمات من الفاشاني من العصر المملوكي  
بالمتحف الإسلامي بالقاهرة

وثمة سلعة تعتبر أرخص مما يمكن أن  
يصنعها صانع ، وهي على رخصها تختلف لنا  
عن ميزة توغرت لأجدادنا في المصور الإسلامي  
هي أنهم أحبوا الفن للفن ، وحرصوا على أن  
يلفوا على كل ما أخرجه أيديهم حمالة  
إلى غاية يبيع القبط في النفوس ويسعد ألبسة

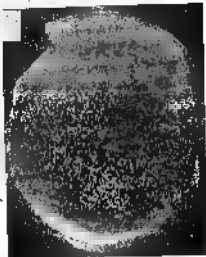


١٢- قطعة من الخزف ذي البريق المعدني به  
صورة للبه السيد بالمتحف الإسلامي  
بالقاهرة



١٣- آنية من الخزف المطل من العصر المملوكي  
بالمتحف الإسلامي بالقاهرة

وسخ ، وإذا انسخت قلالة وحده ينطقها «  
ومنى غسلت بالماء عادت جديدة ومن يهرب  
فيها مكاناً يهرب في إناه وماء وحواء وضياء .  
وفي العصر الطوفاني أخذت القسطاط  
مكان العبدارة ﷻ صناته ، وأبدتنا حفاظها  
بكثير من القطع الزجاجية ومن القنينات  
الصغيرة ذات الأشكال المختلفة الجميلة  
ما يدل على أننا قد سرنا بهذه الصناعة إلى  
الأمام خطوات واسعة . ( الصورة رقم ١٨ ) .  
وفي العصر الفاطمي استمرت عملية التطور  
تدور ، وقد أثبت ذلك الرحالة الفارسي طبري  
أذ قال أنه كان يصنع بصير زجاج شفاف  
عظيم النقاوة ، وقال أيضاً أن التجار في مصر  
كالوالبندون المشهورين أوالي من الزجاج لكي  
يضموا بها السلع التي يتردها مما يدل على  
انتشار صناعة الزجاج ونسجها ، وقد اشتركوا  
في هذا العصر « الزجاج ذا البرق الممدي »  
وأضينا إلى هذا الابتكار ابتكاراً جديداً  
اعتدنا فيه في العصر الأيوبي هو « الزجاج  
الموّه بالينا » الذي وسلنا فيه إلى ذروة  
الاحتمال في العصر المملوكي ( الصورة رقم ١٩ )  
والمصاييح الزجاجية أو « المنسكوات »  
كما تسمى عادة التي ينخر بها متحف الفن  
الإسلامي ( الصورة رقم ٢٠ ) هي شجر  
ما يعرض علينا جمال هذه الطريقة  
التي ابتدعناها لزخرفة الزجاج في العصور  
الوسطى ، والتي تطلها من الأبطالون  
وقلدونا فيها تقليداً نراه في بعض التحف  
المروعة بجاعة الزجاج في المتحف الإسلامي .



١٧ - سبالد قلة من الفخار بالمختلف الإسلامي  
بالقاهرة .

من الطين « هذه السلة الرخيصة ليست سوى  
« ظل » من الفخار نفث الفخاري في زخرفة  
شبابيكها ( الصورة رقم ١٢ ) تمننا نزرع  
الأحباب من كل من يراها .

## الزجاج

ولقد كانت صناعة الزجاج مزدهرة في  
مصر منذ عصر الفراعنة ، وكانت مدينة  
الإسكندرية في عصر البطالة والرومان  
والبيزنطيين من أهم مراكز صنعه في العالم ،  
وقد حافظت مصر في العصور الوسطى على  
هذه المكانة ولا عجب فلقد أدرك أجدادنا  
حينئذ الدور الذي يلعبه الزجاج في الحضارة  
فأقبلوا على صنعه ، وأنشأوا في كسب الأجر  
إلى ما له من مزايا على غيره من المواد ، فقالوا  
إن أواني لا تصدأ ، ولا تنلئ ، ولا يتخللها

٤٨ - آنية من  
الزجاج من العصر  
الطولوني بالمتحف  
الإسلامي بالقاهرة.



٤٩ - دورق من  
الزجاج المنقرء بالمينا  
من العصر الأموي  
بالمتحف الإسلامي  
بالقاهرة.





٥٥ - مشكاة من الزجاج المنقوش بالذهب من عصر المماليك بالمسجد الاسلامي .

### فن الكتاب

وكمل خبر ما نختم به هذا المعرض السريع للجانب الفني من حياة مصر الاسلامية هو ما كان لأجدادنا في العصور الوسطى من فضل عظيم على « فن الكتاب » أي فن

احراج الكتاب في الصورة التي نراه عليها الآن ، وهو فن منتشعب التواحي يتصل بالمواد التي كان يكتب عليها ، وبالخط الذي كان يكتب به ، وبالصورة التي توضح موضوع الكتاب ، وبالتذهيب وبالتجليد .

البردي قد أحكم لصقها ببعضها إلى بعض حتى أصبحت كأنها ألواح اقشورية (الكرتون) ثم كسوها بالجلد ، وزخرفوا هذا الجلد وهذه تكاد تكون نفس الطريقة التي تتبع اليوم في تجليد الكتب .

واختراع الورق ، لم يحدث تغييرا في صناعة التجليد التي ظلت تسير على نهجها القديم ، إلى أنشا نستطيع أن نسجل لأجدادا في المصور الإسلامية قبل التقدم نحو الأسام عطوة جديدة في هذه الناحية هي ابتكار « الفنان »



٥١ - الصفحة الأولى من مصحف المماليك  
شعبان أحمد سلطان المماليك - في معرض  
دار الكتب المصرية بالقاهرة .

وقد كتب أجدادنا على الحجر والخشب وعلى الفخار والمظم وعلى الكتان والجلد ، وفي معرض دار الكتب المصرية بالقاهرة أمثلة كثيرة لذلك ، على أن أهم ما استخدم للكتابة عليه هو البردي والرق والورق ، والبردي نبات كان يكثر في مصر ، وقد لعب في المصور القديمة والمصور الوسطى نفس الدور الذي يلعب الورق في عصرنا الحاضر ، ولم يكن لمصر منافس في التاج ، والكتاب المنفذ منه كان يتكون في معظم الأحيان من صحائف مختلفة يلصق بعضها إلى بعض بحيث يتكون من ذلك شريط طويل مستطيل الشكل يلف ليصبح في شكل الاسطوانة ، وقد كانت الصحيفة الأولى في هذا الملف أكثر مسكنا من الصناعات الأخرى لأنها كانت تغطي الملف وتكون له بمثابة غلاف .

ولكن سرعان ما اتخذ الكتاب شكلا آخر غير شكل الملف هو الشكل الذي نراه عليه الآن وذلك في الغالب عندما استعمل الرق ( وهو ما اتخذ من مادة الحيوان لا سيما القاشية والفراخ ) للكتابة عليه ، إذ كان جميع الرقوق المختلفة بعضها إلى بعض يحتاج إلى غلاف يمسكها ، ويحفظها من التلف ، فوضعت بين لوحين من الخشب . وقد غنى أجدادنا قبل الإسلام بزخرفة « الألواح الخشبية » وتجميلها بالمعادن النفيسة والأحجار الكريمة ، ثم خطروا نحو التطور خطوة جديدة عندما استبدلوا هذه الألواح الخشبية بقطع من



الذى يطوى لحماية الأطراف الامامية  
للصفحات . واذا كنا قد تعلمنا صناعة تجليد  
الكتب من البيزنطيين فقد علمناها بدورنا  
للإيطاليين في البندقية ومن هناك تعلمها باقي  
الأوربيين .

وقد عني أعدادنا بالثناء المكتبات في  
كل عصر حياتهم منساية عظيمة ، ومكتبة  
الامكندرية الشهيرة ، ومكتبات الإدارة  
والكنائس والمساجد غير شاهدة على ذلك ،  
ولولا الفتن والاضطرابات الداخلية لوصلت

اليانا أمثلة كثيرة من كتبهم التي ساهم في  
عملها الخطاطون ، والمذهبون ، والمصورون ،  
والمجلدون ، ولكن القليل الذي وصل اليانا  
والذى نستطيع أن نراه بالمنحصر القبطي ،  
وزله في المجموعة الرائعة بدار الكتب المصرية  
بموضنا بمعنى الموضر .

والواقع أن « فن الكتاب » قد بلغ ذروة  
نفسه في عصر المماليك ، كما تشهد بذلك  
المصاحف الجميلة الممروضة في دار الكتب ،  
( الصورة رقم ٥١ ) .



فهرس

سلسلة تاريخ الحضارة المصرية  
العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي

المجلد الثاني





١٧	القانون
٥٠	الفصل الخامس - النظام المالي - الإدارة المالية
٥٦	نظام الأراضي - أرض الملك
٥٦	أرض العطاء - الأرض المحصنة
٥٦	الامتيازات العسكرية
٥٦	أرض المهدت - أرض الامتياز الخاص
٥٥	نظام المحاصيل والحرث - صناعة الزيت
٥٦	صناعة النسيج - المحاصيل المالية
٥٧	نظام التجارة - التجارة الداخلية
٥٩	التجارة الخارجية
٦٠	طرائف شتى
٦١	نظام جباية الضرائب
٦٢	الفصل السادس - اقتصاد - القانون المدني - الأحوال الشخصية
٦٩	الأحوال الشخصية
٦٦	الطوائف الدينية
٦٧	الهيئات القضائية - محاكم المصريين - محاكم الأتراك
٦٨	المحاكمة المختلطة
٦٩	محاكم اقتصاد الجاهل
٧٠	الفصل السابع - الخدمة الاجتماعية - الأتراك - حالهم على عهد البطالة الأولى
٧١	علاقتهم بالمصريين
٧٢	حالهم على عهد البطالة الأولى
٧٣	علاقتهم بالمصريين
٧٤	منازل الأتراك
٧٤	حظائر أفرق مصر
٧٥	المصريون - البطالة وعلباتهم - بحرية العذبة
٧٨	مطبخات المصريين
٧٩	التوراة القومية
٧٩	الأسباب
٧٩	النزوات
٨٢	الآداب
٨٢	دار المعلم والمكتبة

٨٣	..	..	..	..	..	..	..	..	التسحر
٨٤	..	..	..	..	..	..	..	..	التضيق
٨٥	..	..	..	..	..	..	..	..	المسحور
٨٥	..	..	..	..	..	..	..	..	الطب والجراحة
٨٥	..	..	..	..	..	..	..	..	عنما احيواون والنبسات
٨٦	..	..	..	..	..	..	..	..	العلوم الرياضية
٨٧	..	..	..	..	..	..	..	..	الفنون والمعمار والمقايير
٩٢	..	..	..	..	..	..	..	..	المداليل والمسابد
٩٤	..	..	..	..	..	..	..	..	المحنت

## مصر في عصر الرومان - للذكور ابراهيم نصحي

١٠٨	..	..	..	..	..	..	..	..	الفصل الاول - مصر نصيح ولاية رومانية
١٠٨	..	..	..	..	..	..	..	..	الفتح الروماني
١١١	..	..	..	..	..	..	..	..	سياسة اباطرة الرومان في مصر
١٢١	..	..	..	..	..	..	..	..	الفصل الثاني - اداة الحكم
١٢١	..	..	..	..	..	..	..	..	السلطة المركزية
١٢٥	..	..	..	..	..	..	..	..	السلطة المحلية في القرنين الاول والثاني
١٢٩	..	..	..	..	..	..	..	..	المدين الاغريقية
١٣٠	..	..	..	..	..	..	..	..	الامتدلات التي ادخلت في القرن الثالث
١٣٢	..	..	..	..	..	..	..	..	القرنثة
١٣٣	..	..	..	..	..	..	..	..	انجيش الروماني
١٣٥	..	..	..	..	..	..	..	..	الفصل الثالث - السياسة الدينية
١٤٠	..	..	..	..	..	..	..	..	الفصل الرابع - السياسة الاقتصادية - الزراعة - الصناعة - التجارة
١٤١	..	..	..	..	..	..	..	..	الفسود
١٤٢	..	..	..	..	..	..	..	..	المصارف
١٤٣	..	..	..	..	..	..	..	..	حانة البلاد الاقتصادية
١٤٥	..	..	..	..	..	..	..	..	الفصل الخامس - النظام المالي - الادارة المالية
١٥١	..	..	..	..	..	..	..	..	مدف النظام المالي
١٥٢	..	..	..	..	..	..	..	..	نظام الأراضي
١٥٨	..	..	..	..	..	..	..	..	الحرف والصناعات
١٦٢	..	..	..	..	..	..	..	..	التجارة - التجارة الخارجية
١٦٤	..	..	..	..	..	..	..	..	التجارة الداخلية

١٦٥	مؤلفات شمس
١٦٨	نظام جباية الضرائب
١٧٠	<b>الفصل السادس - النظام القضائي</b>
١٧١	القضاة المدني
١٧١	الأحوال الشخصية
١٧٢	الإجراءات المدنية
١٧٣	القانون الجنائي
١٧٣	الهيئات القضائية
١٧٥	<b>الفصل السابع - الحياة الاجتماعية</b>
١٧٥	عدم السكان وحائهم
١٧٦	طبقات السكان
١٧٦	الأغنياء : وضعهم وخدماتهم
١٨٠	حظائر الأغنياء
١٨٢	اليهود
١٨٤	المسيحيون : لغاتهم
١٨٥	مساكن المصريين
١٨٦	تورثت المصريين
١٨٧	<b>الفصل الثامن - الآداب والعلوم والفنون</b>
١٨٧	الآداب - دار العلم الجامعة : والمكتبة
١٨٨	التمسح
١٨٩	التمسح
١٩١	التمسح
١٩١	الطب والجراحة
١٩٢	العلوم الرياضية
١٩٣	الفنون
١٩٣	فن المسار
١٩٣	التمسح
١٩٤	المسائل
١٩٤	المسائل العامة
١٩٥	المسائل
١٩٥	فن التمتع



١٩٧	مقدمة
١٩٧	من ديوقليديانوس الى بركول
١٩٧	ديوقليديانوس
١٩٨	من قسطنطين الى بومبيليانوس
١٩٩	اميرة يوستينيانوس
١٩٩	أعماله المتميزة
٢٠٠	اصلاحاته الداخلية
٢٠١	الطاقة الاقتصادية في عهد يوستينيانوس
٢٠١	خلفاء يوستينيانوس
٢٠٢	هرقل
٢٠٣	النظام الإداري والمالي ونظام الجيش والحالة الاقتصادية في عصر فيلوكسندريوس
٢٠٣	النظام الإداري
٢٠٥	الجيش
٢٠٥	النظام المالي
٢٠٦	الحالة الاقتصادية
٢٠٩	<b>الفصل الأول - الحياة السياسية</b>
٢١٠	الصراع مع الإمبراطور الونسي
٢١٢	الصراع مع الإمبراطور المندسرين للبراطية
٢١٣	عائلة أريوس
٢١٤	التمسك بوجهه
٢١٧	فترة حكمه
٢١٧	أبواب الجبل وهدنة لستور
٢١٨	الصراع مع الإمبراطور المندسرين أبابا ووجه
٢٢٠	بدء التمسك الكنيسة
٢٢١	فترة حكمه
٢٢٢	خروج الأمبراطور
٢٢٦	<b>الفصل الثاني - الحياة الفكرية</b>
٢٢٦	مراحل تطور الفكر المصري
٢٢٦	اللغة المصرية القديمة
٢٢٦	اللغة المصرية الحديثة
٢٢٦	اللغة المصرية المتوسطة



سنة	المجلة بين المدرسين الوثنية والمسيحية	٢٤٣
٢٤٣	الانتاج العلمي والأدبي والثقافة الشعبية	٢٤٥
٢٤٥	الانتاج العلمي	٢٤٥
٢٤٧	صناعة الورق	٢٤٧
٢٤٨	التاريخ الكنسي	٢٤٨
٢٤٨	تاريخ بطريرك الاسكندرية	٢٤٨
٢٤٩	المصادر التاريخية لسير البطركية	٢٤٩
٢٤٩	يوحنا الميوس	٢٤٩
٢٤٩	مسكوبرس بن الممبح	٢٤٩
٢٤٩	الآباء ميخائيل اسقف تيس	٢٤٩
٢٥٠	الآباء يوسب اسقف لوط	٢٥٠
٢٥٠	السينكسار	٢٥٠
٢٥٠	تاريخ انجساع	٢٥٠
٢٥٠	المصانع الخفية	٢٥٠
٢٥٠	المجامع العالمية (الديكورية)	٢٥٠
٢٥١	يرجنا الصوسي	٢٥١
٢٥٢	الانتاج الأدبي والثقافة الشعبية	٢٥٢
٢٥٢	مراجعة النقاب المقدس	٢٥٢
٢٥٢	الحوال الإباء	٢٥٢
٢٥٢	مصنوع القديسين	٢٥٢
٢٥٣	العصبي	٢٥٣
٢٥٣	الإصلاح الاجتماعي	٢٥٣
٢٥٣	أغراض الحسري	٢٥٣
٢٥٣	الضم	٢٥٣
٢٥٤	الضم	٢٥٤
٢٥٤	نسخة الأدب	٢٥٤
٢٥٥	الحوال الآباء : أثرها وشهرتها	٢٥٥
٢٥٥	كلمات الإباء اللاهوتية	٢٥٥
٢٥٦	نقوش الآباء غير المبين	٢٥٦
٢٥٧	اعتماد العالم والمخطوطات القبطية	٢٥٧
٢٥٩	<b>الفصل الرابع - التجارة الفنية</b>	٢٥٩
٢٥٩	الفنون القبطية	٢٥٩
٢٥٩	الصناعات الفنية للفن القبطي	٢٥٩

٢٥٩	فن غميس
٢٦٠	فن ديس ودمني
٢٦٠	فن نبع من آتية المصرية وعبر بها
٢٦٠	سرة ما جيعه من غبون ومؤثرات فيه
٢٦١	فن جمال لا عساهه
٢٦١	في المزيقة
٢٦١	في استخدام الاشكال الهندسة والفرزقة
٢٦١	صودر من الفنون القبطية
٢٦١	الصناعة
٢٦٣	الصنوبر
٢٦٥	الغنى على البحر والصنوبر
٢٦٤	المسوحات
٢٦٢	الفنون الصغرى
٢٦٥	الخط والمخطوط
٢٦٥	حالة
٢٨٠	الرواسب الفنية
٢٨١	الموصلى والإلهان
٢٨٤	<b>الفصل الخامس - العمارة الاجتماعية</b>
٢٨٤	مركز المرأة في الحياة المصرية
٢٨٨	الأسرة
٢٩٢	العادات
٢٩٥	الأصوام
٢٩٦	الأعياد
٢٩٧	المسرات
٢٩٩	الفنون القبطية
٣٠١	قائمة الترميم للمصريين
٣٠٦	شهر يوت
٣٠٢	شهر بابة
٣٠٢	شهر حاتود
٣٠٢	شهر كوك
٣٠٢	شهر طوبة
٣٠٢	شهر امشيد

٣٠٢	شهر برمهاث
٣٠٢	شهر برمودة
٣٠٢	شهر بشبسي
٣٠٢	شهر برونه
٣٠٢	شهر ابيب
٣٠٢	شهر مسري
٣٠٣	الدولة الرومانية والتشريع المصري
٣٠٣	نظور القسوس المصري الى قبلي
٣٠٣	الغراض القويم القبطي
٣٠٤	التقويم القبطي القسري
٣٠٤	التقويم القبطي
٣٠٥	التقويم الأثيوبي
٣٠٥	الرحبة لبيدبا في مصر
٣٠٦	أطوار الرحبة
٣٠٦	الرحبة
٣٠٦	القديس انطونيوس
٣٠٧	الرحبة الاجتماعية
٣٠٧	القديس مساريوس
٣٠٨	الرحبة المدبرة (حساب الشركة)
٣٠٨	الأببا باخوميوس
٣٠٩	نظام الأببا شادودة
٣١١	آثار الرحبة
٣١١	الغريبي
٣١١	الاجتماعية
٣١٦	الاعتقاد في أبعاد العالم المسيحي
٣١٢	في القديس
٣١٤	في السموات
٣١٥	في الغرب
	فهرس أسماء الأباطرة وحكام مصر وبطاولة الاسكندرية من عصر ديوقليديانوس
٣١٧	الى دعول الغرب
٣١٧	الأباطرة الرومان
٣١٧	أباطرة العصر البيزنطي

٣٦٧	أسرة ششطنطين
٣٦٨	أسرة نيزودومسيوس
٣٦٩	أسرة ليسو
٣٦٩	أسرة يوستينيانوس
٣٦٠	أسرة عرقيل

## القسم الثاني

### المصر الإسلامية

	لترىح مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون = بقلم الدكتور حسين حارس
٣٧٣	الفتح العربي لمصر
٣٧٥	مشكلات تضمن بالاعلام
٣٧٩	سير الفتح
٣٧٢	بابليون ومصر
٣٧٥	موقعة عين شمس ( بابليون ) والاستيلاء على الحصن
٣٧٨	معاهدة بابليون
٣٨٠	استكمال فتح الوجه البحري والصعيد والميوس
٣٨١	فتح الإسكندرية
٣٨٣	مصر جزء من الدولة الإسلامية
٣٨٨	العصر ثاب الأموية والعباسية
٣٩٨	الأدابة
٣٩٢	شئون المال
٣٩٣	الإسلام والعرب
٣٧٢	الأصول السامة
٣٧٢	الزراعة والصناعة والحجارة
٣٧٦	الفسطاط والحجرة وسمائل العرب في الإسكندرية
٣٨٠	أهم أحداث مصر من الفتح العربي إلى قيام دولة أحمد بن طولون
٣٨٨	دولة بني طولون
٣٨٨	أحمد بن طولون
٣٩٩	علاء الدين وأبو العساكر وحارون بن غسانية
٤٠٤	نظرة عامة على دولة بني طولون
٤٠٥	من الطولونيين إلى الأخشيديين
٤٠٦	الأخشيديين

٤١٨	مصر في العصر الفاطمي - ملامح مصر في العصر الإسلامي الأول - لندكتور جمال الدين الشيال
٤١٩	من هم الفاطميون
٤٢٠	الحزب الشيعي
٤٢٠	نشأته وتطوره
٤٢٣	قيام الدولة الفاطمية في المغرب
٤٢٥	الحكام الفاطميون في المغرب ومصر
٤٢٩	الدولة الفاطمية في المغرب
٤٣٨	المنتج الفاطمي لمصر
٤٣٦	مصر في العصر الفاطمي
٤٣٩	تأسيس القاهرة
٤٣٩	الجمامع الأربعة
٤٣٨	العصر الفاطمي الأول - مصر الفراء والأردن
٤٤٤	العصر الفاطمي الثاني - مصر الضعف والاضلال
٤٥٤	النهضة الدولة
٤٥٨	الدولة الأيوبية - لندكتور محمد مصطفى زمامه
٤٨١	الدولة المملوكية الأولى - لندكتور محمد مصطفى زمامه
٥٠٨	الدولة المملوكية الثانية
	الجدارة البدئية في مصر الإسلامية ( من اليهود الإسلام إلى مطلع العصر الحديث )
	للاستاذ أمين الشولي
٥٢٩	الدين والدين
٥٣٧	المناهج المنصاري
٥٣٣	ملامح الشخصية المصرية الحديثة
٥٣٤	عمل الروح الدينية
٥٣٦	قوة الإيمان والجدارة الأخرى
٥٣٨	سيرة الأئمة الدين
٥٣٧	مصر لتلقي الإسلام
٥٤١	احمدول غير سريح
٥٤٣	روحانية مصر في الإسلام
٥٤٦	حبوبة مصر في الإسلام
٥٤٨	إسلام مصر بلا محل ولا مفالات اعتقادية
٥٥٣	مصر ورد الخلفاء المعمر
٥٥٦	الإسلام والتجمع المصري





# تاريخ الحضارة المصرية

## المجلد الثاني

العصر اليوناني و الروماني

و العصر الإسلامي

### تأليف

أمين الخولي \* محمد مصطفى زيادة \* إبراهيم نصحي \* مراد كامل  
حسين مؤنس \* جمال الدين الشيال \* محمد عبد العزيز مرزوق

